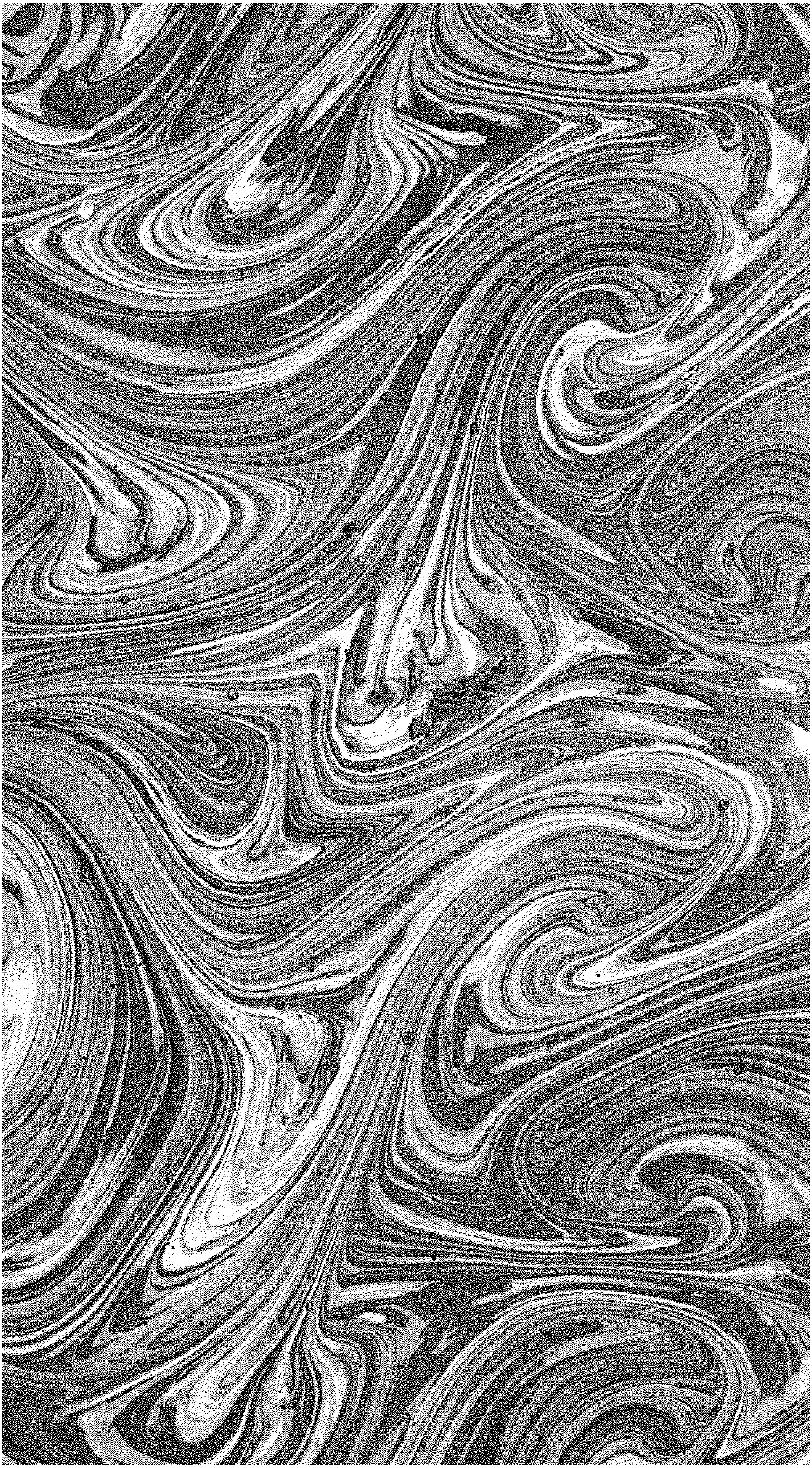

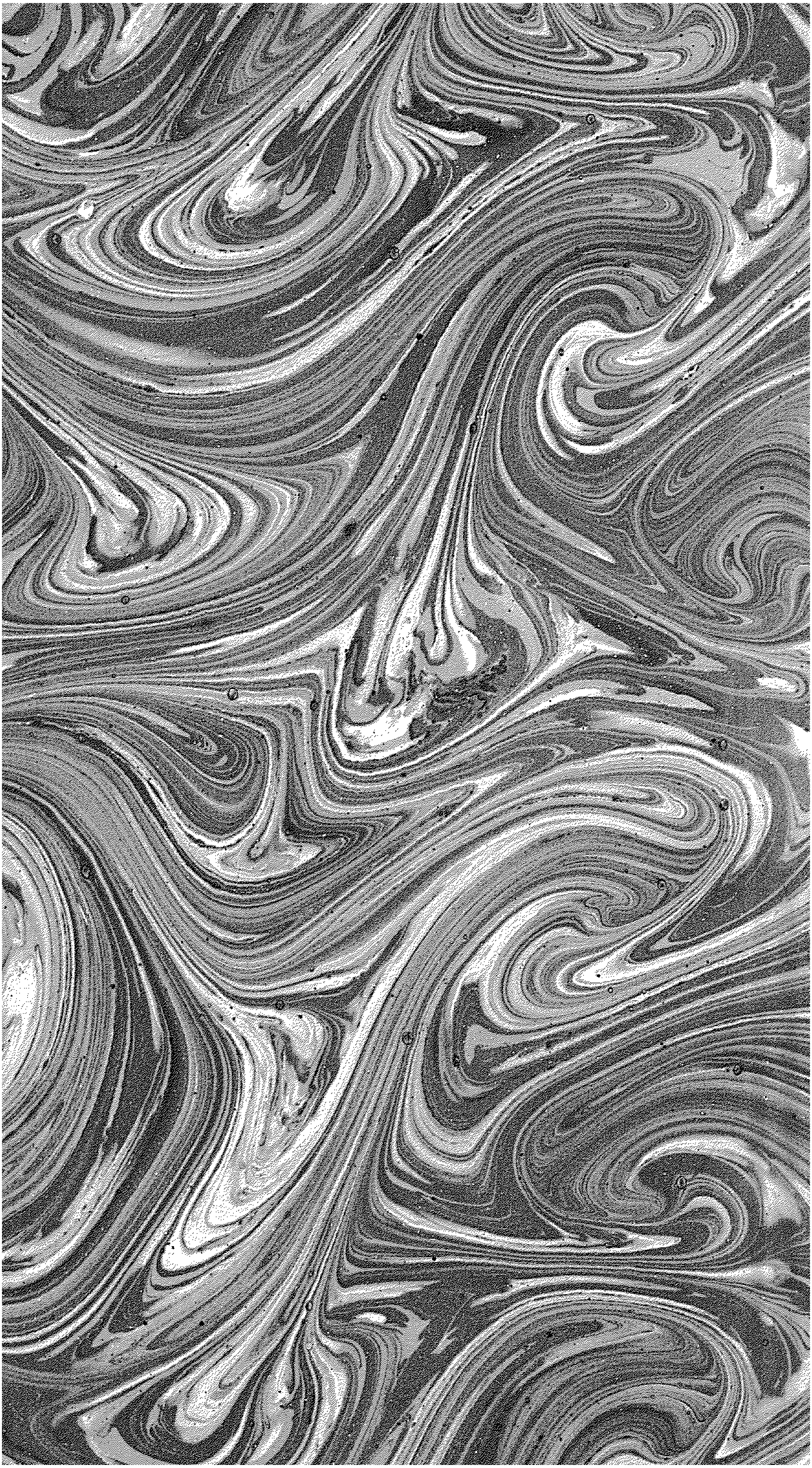

دستور الرؤساء

في سياسة مرؤوسيهم

للعلّامة الاب ڤالوي اليسوعي

ترجمهُ عن اصله في اللغة الافرنسية الفقير إلى عفو ربّهِ

القس مبارك المتيني اللبناني

ورفعهُ تقدمةَ اجلالٍ واحترام

الى غبطة السيد السند

مار الياس بطرس الحويك

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

الكلي الطوبى

= طُبع في مطبعة « الارز » * جونية (لبنان) = سنة ١٩١٣

حضرة ولدنا القس مبارك المتيني رئيس دير سيدة نسبيه اللبناني المحترم

بعد اهداء البركة الرسولية لحضرتكم بوافر الاشواق لمشاهدتكم على كل خير . قد تبيّن لنا ان كتاب «. دستور الرؤساء في سياسة مرؤوسيهم .» الذي عُنيتم باستخراجهِ من اللغة الافرنسية الى العربية هو من الاهميَّة بمكان لِما فيهِ من التعاليم الصحيحة والفوائد الجمَّة الكافلة لمطالعيهِ من رؤَساء ومرؤوسين بجميل التبصرة والهداية وحسن الامر والطاعة . وعليهِ قد اجزنا بملء المسرَّة طبعه رجاءَ ان يكون دستوراً للعمل فيقي الرؤَساء عثرات الرئاسة باحسان سياسة مرؤوسيهم وترقيتهم الى ذروة الفضيلة والكمال ويحفظ في المرؤوسين روح الانقياد الحي الحامل لهم على الخضوع الواجب والامتثال المقدس . هذا وفيما نثني على غيرتكم ونشاطكم في ترجمة هذا الكتاب النفيس ونحث الجميع على اقتنائه ومطالعته نسأل الله من صميم الفؤَاد ان يكافئكم خير مكافأة ويجعل عملكم هذا مثمراً الثمار المبتغاة . وعربوناً لذلك نكرّر اهداء البركة الرسولية لحضرتكم

في ٣١ اذار سنة ١٩١٣ | الحقير

الختم | الياس بطرس

البطريرك الانطاكي

المقدمة

(((باسم الله ذات المحبة)))

قال الرسول (١ كور ١٢ : ٢٦) « فاذا تألم عضو تألم معه سائر الاعضاء واذا اكرم عضو فرح معه سائر الاعضاء فانتم جسد المسيح واعضاء من كل عضو » قال القديس يوحنا فم الذهب في العظة ٣١ شارحاً هذه الآية : ليس الخير فقط بل الشر ايضاً يكون رباطاً للاعضاء ومن ثم اذا نخست شوكة اخمص القدم شعر الجسم كلهُ بالالم واهتم كل الاهتمام بمعالجة العضو المصاب فينحني الظهر ويحدودب البطن وينطوي الساقان وتتقدم اليدان على اخراج الشوكة ويطأطأ الراسُ وتتفرس العينان محدقتين بحرص واهتمام فهل في الجسم يا ترى عضو احط من اخمص القدم واشرف من الراس ومع ذلك فالراس ينحني للحال نحو الرجل وينحني معه كل الجسم . وهكذا اذا شعرت العين بالم شاركها الجسم كله بالمها واحجم عن العمل ما دامت متألمة فتقف الرجل عن السير واليد عن الحركة والمعدة تنقبض قوتها الهاضمة فكيف ذلك والالم في العين . فما بال المعدة معذبة تعبة والارجل والايدي لا حراك لها . فما ذلك الا لان الجسم كله بجملته قد شاطر العين المها . فالم عضو واحد هو وثاق شديد العرى للجسم كله وعلى مثال ذلك اذا كان الراس متوجاً كان ذلك للجسم كله مجداً وفخراً . واذا وصف عضو من الاعضاء بالحسن والبهاء كما لو قلنا مثلاً ما اجمل الانف او ما احسن العنق او ما ألطف الوجه راينا للحال انوار البهجة والحبور متلألئة في الاعين وهي التي اذا شاهدت احد الاعضاء متألماً اغرورقت بالدموع ولو لم يكن الالم فيها نفسها « فهكذا المسيح » فلنعتبر هذا الترتيب العجيب في وحدة الجنس البشري ولنتبع اثاره في وحدة المحبة في الجسم الادبي ولنحذر كل الحذر مما يضر بها . اه

لقد وقع نظري ذات يوم على هذه فقرة العلامة الفريد يوحنا فم الذهب فتأملتها وتدبرتها فرأيت فيها اسرارًا عويصة فتيقنت منها ان الحب المسيحي من اقوى العوامل على ان يجعل المجتمع الرهباني كشخص واحد يعيش افراده على الارض كانهم ارواح في السماء وكان يتمكن بي هذا الفكر عندما كنت اديرعلى خاطري ما شاهدته عيناي من مجالي الحب المسيحي ومحاسنه في ابناء الرهبنة اليسوعية الكريمة مدة عشر سنوات قضيتها بينهم في كلية القديس يوسف الشهيرة فابصرت هناك المحبة مالكة سائدة كما وصفها يوحنا فم الذهب فعلقت من ذلك الوقت ابحث عما هي الوسائط التي تبلغ الجماعات الرهبانية الى شيء من ذلك فلم اجد زريعة اسهل وايمن من السلطة وهي حياة المجتمع ومصدر خيوره فوطنت النفس على اغاثة الرؤساء اصحاب السلطة باعداد دستور لهم في لغتنا العربية يكون لهم دليلًا وضياء يتؤمون به خطواتهم وخطوات مرؤوسيهم في هذه الخطة . — ولما كان العلامة المفضال الاب ڤالوي اليسوعي قد احرز قصب السبق في تعليم هذا الفن العجيب عولت على استخراج درر تأليفه الموسوم بسياسة الجماعات الرهبانية ودعوته « دستور الرؤساء في سياسة مرؤوسيهم »لانني طالعت مرارًا هذا التاليف النفيس فالفيت فيه تعاليم مفيدة للرؤساء في معرفة واجباتهم المقدسة وللمرؤوسين في معرفة روح الفضائل الرهبانية الحقة وهي تبين ايضاً حقوق الرئاسة وفروضها وطريقة العمل بها على وجه سماوي كامل يضمن راحة وسعادة الرؤساء والمرؤوسين معاً وقد اثرت هذا الكتاب على سواه لما امتاز به من دعائم الحقائق الصافية والبراهين الدامغة المؤيدة بتعاليم الكتاب الالهي واباء الكنيسة القديسين التي تبيّن لنا كيف يجب ان نعامل بعضنا بعضاً وان يعتني الواحدمنا بخير صاحبه كما يعاملنا الله ويعتني بخير كل واحد منا صالحًا او غير صالح . فارجو ان تعود ترجمتي هذه العربية بالخير على مطالعيها رؤساء ومرؤوسين وبالمحبة المسيحية التي تربط بعضهم ببعض وتضمهم في النهاية بالمحبة الازلية التي هي الذات الالهية مقر سعادتنا ومنتهى امالنا . امين

[الكتاب الاول]

(في تدبير الجماعات الرهبانية)

« الباب الاول »

في الرئاسة على اطلاقها

﴿ الفصل الاول ﴾

في صعوبة الرياسة

عدد ١

(في ان تدبير الجماعة المشتركة هو رأس الصناعات)

ان كان الانسان عالماً صغيراً كما ارتأى احد الاقدمين او كان بالاحرى عالماً كبيراً متضمناً في عالم صغير كما قال القديس غريغوريوس لزم لعمري ان يكون تدبير انسان واحد أشبه بتدبير عالم من العوالم وتدبير الجماعة أشبه بتدبير عوالم عددها يساوي افراد تلك الجماعة .

فالانسان هو أشدّ احتيالاً من جميع الحيوانات واكثرها تقلباً وهو قلق في خيالاته مختلّ في اميالهِ مستبدّ في آرائهِ صعب المراس في حاجاتهِ فانك ترى افراد البشر يختلف بعضهم عن بعض بما أُوتوا من المزايا فمنهم جبان هلوع يحتاج إلى دافع يدفعه الى العمل ويمكّنه منه . وجموح شرس يفتقر الى من يوقفه عند حدّه . وبليد خامل تضطرّ الى امهاله وجريء هجوم لا بدّ من ان تسبق فتتدارك ما يخفف سيره وواجم كتوم ينبغي ان يألف السلامة ويستأنس بالامان . ومنهم متناهٍ في اللين بادي السريرة مفرط في المكاشفة يقتضي لهُ ان يتعوّد الرصانة والكتمان فكيف يتدنى الرئيس في معرفة حركات هذه القلوب العديدة ويوفّق بين اخلاقه واخلاق جماعةٍ مختلفة الطبقات ويوافقهم في هذه المسالك المتباينة أو يتظاهر

بواقفتهم ولو بصناعة التكلف ويحرك هذه الآلات الكثيرة وهو آمن على سلامتها من الكسر ؟

هذه هي صعوبة التدبير العمومية اللازمة عن الاخلاق المتقلبة والافكار المضطربة وعن استحالة التراضي بينها وعن قيادة اصحابها بنظام ذي سياقٍ واحدٍ لا يتغير . فما اشدَّ تلك الصعوبة في تدبير جماعات الرهبان لان الرهبانية ليست الاَّ اجتماع اناسٍ لا يمكنك ان تدهشهم بظواهر الابهة او تهيبهم بالوعيد او تحتال عليهم بضروب من السياسة اذ ليس لك عليهم من السلطة الا بقدر ما يسمحون لك بهِ ولا غروَ ان تدبير أُمور الرهبانية متجه الى اسمى الغايات وأشرفها كيف لا وغاية الرهبانية هي الاتحاد بالله تعالى بقداسةٍ خصوصية تؤدّي اليها نذورها وقد يوجد بين الرهبان من يجمح بشهواتهِ إلى أُمور الدنيا وليس فيهِ ما يردعهُ عنها من العواطف نحو السماويات فانهُ ليس من احدٍ يجهل ان الامراض المتلبسة تصيب النفوس كما تصيب الابدان وان الجماعات كالملل لها اوقات عسر وشدَّة وان الرئيس لا يخرج عن ان يكون انساناً يغويه الجهل ويستهويه الضعف .

فتدبير شؤُون الرهبانية الذي هو صناعة بها يُقاد الرهبان إلى الكمال هو أسمى التدابير شرفاً وأشدُّها صعوبة فانهُ يتطلب من الدقة والهمة والعزم ما لا يتطلبه غيرُه من أُمور الدنيا ولا عجب في ذلك إذ هو نتيجة الحكمة الحقيقية المهتدية بنور الامتحان

ومن المعلوم الواضح ان الخلل في الطاعة يحدث غالباً من كيفية صدور الامر فمن عرف كيف يأمر يطاع بسهولة لان المرؤُوسين يضطرون الى الطاعة بحكم الصواب وبحكم النفع المشترك عندما يرون ان امر الرئيس الحكيم مقرون بالعدل ومتجه الى غاية تحصل منها فائدة عامَّة فمن البيّن اذن ان اعظم المصائب التي تحل بالجماعات الرهبانية ليست الاضطهاد بل انما هي ترأس من لا يصلح للرياسة

عدد ٢

((في ان الرئاسة تتطلب احراز مناقب ممتازة يسبقها نوع))
من الدربة والتحنيك

لعمري ان الرئيس لا تكفيه القداسة بل لا بدَّ لهُ من ان يكون متصفاً بأعظم المناقب وأسمى المواهب من رفقٍ يولّد لهُ ثقة المرؤوسين بهِ واهابةٍ بها يحترمونه ولا يخرجون عن طاعتهِ وصرامةٍ يفتقر اليها للتأديب بشرط ان لا تفضي الى النفور منه ولطفٍ لا يشوبه شيء من الجبانة ورقّةٍ يتمكن معها من العقوبة والردع وعزمٍ لا يثنيه من التساهل عند اللزوم وتيقظٍ لا يدع شيئاً يفوته وحكمةٍ تجعله يتغاضى من الحوادث ويتجاهلها الى فرصة مناسبة. فتلك هي صفات حميدة ومزايا فريدة تقضي على صاحبها بمعاناتها والتمرّن عليها بادي ذي بدء حتى تتمكن منه وتكمل فيه وحتى يُعرفُ بها ويُقرّ لهُ بها غيره. أفلا ترى كيف ان الخطيب السياسي يمارس صناعة الخطابة في عزلةٍ عن الناس ويتعلم اصولها آخذاً عن البارعين فيها الذين يخلبون الالباب بحسن بيانهم وذلك قبل ان يعلو المنابر للمحاماة عن مصالح الوطن؟ وكيف ان الطبيب النطاسي يقضي السنين العديدة منكبًّا على درس صناعته درساً متواصلاً قبل ان يشرع في معالجة المرضى؟ وان كل فرد من افراد الناس يعتني بما يقتضيه مقامه او مهنته من العلم والتهذيب والتعوّد حتى يدرك الغاية القصوى من ذلك ويفوز بالكمال فيه؟ وان شرائع الامم المتمدنة تستوقف كلَّ جريء غبيّ يعجّل الى الاحتراف بمهنةٍ ذات بال اشفاقاً من ان يبلغ بهِ الادعاء الى ما يُلحق ضرراً بحياة ابناء جلدته او باموالهم؟ قل لي يا رعاك الله أتنتدب الحكومة الى فن الملاحة والحرب البحرية اناساً لم يروا البحر في حياتهم. أو من لم يشتهروا بهذه الصناعة الا بما جرى على يدهم من حوادث الغرق؟ أو تفوّض قيادة جيوشها الى قوّاد لم يشاهدوا سوى ما رسم من مواقع الحرب على الورق او الى من لم يقابلوا

العدو الا ولّوا ادبارًا من امامه ؟ أو تكل ادارة ماليتها الى من لا يرى في فن الحساب الا الاحاجي والمعميات او من يعجز فيه عن التصرف في قضاء حاجات نفسه ؟ فما أشدّ العناية التي بها يسعى الملوك في اختيار اساتذة لتعليم انجالهم

قال العلامة ساويدر افاكماردو « انه ليس لخرقٍ من رعاع الناس سبيل الى ان يولّد في قلوب ابناء الملوك شيئاً من العواطف الكريمة والاحساسات الشريفة لان البومة اذا اتخذت استاذًا لتهذيب فرخ النسر تحبسهُ في ظلال العوسج وظلام الليل بدلاً من ان تعوده ان يشخص ببصره الى الشمس وان يحلق في طيرانهِ ارز لبنان والذرى الشاهقة . اه »

فليت شعري ما الذي يجعل رئيس الجمعيات الرهبانية وحده مستثنى من حكم هذه الشريعة العامة ؟ أيترك اهم الصناعات واصعبها عرضة للصدفة والاتفاق ولا يكون لها نصيب من التعلم والتمرن ؟ واي قوم يولّون عليهم رجلًا لا يعتقدون ان فيه مقدرة على القيام باعباء الولاية او يظنون ان من تعود الطاعة صار حقيقاً بالامر والنهي او يطلبون ان يكون عملـه الذي يأتيه من قِبل التجربة عملَ صانعٍ ماهر ؟

فانهُ من المقرر عن حكمةٍ في كل نظام ان المختار للرئاسة لا يتسلم ازمّة السلطة العليا الا بعد ان يكون تدرَّج في الوظائف الادنى وتدرَّب على القيـام بحقوقها وان يكون حصل لهُ خبرة في معرفة الناس وادارة الشؤون المتعلقة بسلكه الرهباني وظهر منهما دلَّ على درايته وحبته واقدامه وصبره وبعد ان يكون والحالة هذه قضى مدّة من الزمان قائماً بفروعٍ الوظائف شاغلًا اواسط درجاتها

فليس اذن كل من عرف كيف يطيع يعرف كيف يأمر وينهي . قال القديس بوناونتورا . في الفصل الاول من كتابه الستة الاجنحة انك ترى بعض الرهبان يعيشون وهم مرؤوسون عيشة محبةٍ وسلام بين اخوانهم بيدَ انهم عندما يرتقون الى مقام الرياسة يظهر نقصهم لا من حيث انهم ليسوا باهلٍ لها فقط بل من حيث انهم يفعلون ما يدلّ على انهم جهلاء وما لا يمكن تحمله . اه

ولا غروَ ان حسن السلوك بين الاخوة في العيشة المشتركة شيء وحسن ادارة الجماعة شيء آخر لان هذه صناعة لذاتها ولها ما ليس لغيرها من اسباب الفضل والاعتبار. فان المرؤوس لا يحتاج في ايفاء واجباته وبلوغه حد الكمال الا الى السهر على نفسه وحسن الطاعة لرؤسائه . اما الرئيس المكلف بادارة مرؤوسيه فلا يكفي تيقظه وطاعته لقوانينه الامر الواجب عليه من حيث ان مثله يؤثر تأثيرًا شديداً في بنيان اخوته بل يلتزم بان يصلح نقائص بعض . ويزيد فضائل بعض . وان يوجّه عناية الافراد جميعاً الى غاية واحدة اي الى مصلحة عامّة قد تكون على عكس مآربهم ورغائب كل منهم وعلى خلاف الاوهام العامة بينهم والعوائد المألوفة عندهم والنتيجة ان الانسان المعتزل اذا قرن بعزلته الطاعة وشيئاً من حسن التصرف في الكلام تسترت عيوبه الخلقية وظهر انه انسان اهل للرتب التي لم يبلغها بعد اما الرئاسة فانها تظهر العيوب للعيان وتزن بميزان العدل صاحب الجدارة والفضل .

وكثير من المرؤوسين يزينون لانفسهم انهم جامعون كل ما يلزم للرئيس الكامل الماهر من الاوصاف المشروطة وانهم لو القت الرئاسة اليهم مقاليدها لظهر فضلهم على من ترأس عليهم ظهورًا ساطعًا . فما اسهل الانتقاد وما اصعب الاختبار فان هؤلاء لو ارتقوا الى درجة الرئاسة لكفاهم ذلك مؤونة للاقتناع ان فضيلتهم ما كانت الا تطاب الوظائف وسمو مداركهم التعامي عمّا فيها من المعاطب

- ٣ -

((في انهُ على الرئيس ان يتعلم صناعة التدبير))

يُقضى على كل رئيس لا من قبيل الحكمة فقط بل من قبيل الفرض ايضاً ان يجدّ عند افتقاره الى تتمة ما يُطلب منه من الصفات اللازمة والى بلوغهِ حد النهاية من التدرب والتمرن المحكي عنه في تعلم اصول التدبير تلك الاصول التي وضعها

أولو الفطنة واثبتها ذوو الخبرة مستندين في اكثرها على ما جاء في الكتاب الكريم ومؤلفات القديسين والتي عمل واوصى بها جميع مؤسسي الجماعات الافاضل

ولا غروَ ان نجاح الادارة الرهبانية ينجم عن درس هذه المبادىء وعن السلوك بموجبها وليس لجماعة من جماعات الرهبانيات سبيل الى التقدم في معارج الكمال وهي لم تتبع شريعة الدين المسيحي التي وضعتها الحكمة نفسها ويستحيل ان يسلم يوم الحساب من لم يسس مرؤوسيه بمقتضى تلك السنن والشرائع التي يترتب اتباعها الواجب على معرفتها ومعرفتها على درسها .

وجاء في التواريخ ان سقراط الفيلسوف كان يلقن تلميذه الشاب تيكوكليس هذا المبدأ وهو : ان شئت ان تتبحر في العلوم الحقيقة بالملوك فاجمع بين النظريّ والعمليّ منها . فالنظريّ يسهل لك الطريق والعمليّ يمكنك من السلوك فيها بقدم راسخ . اه

فالتصور ان مجرّد انتخاب الشخص للرئاسة هو الضمين والكافل لمعرفة حسن السياسة فيها وان هذه المعرفة هي مفاضة في النفس بغير احتياج الى تحصيل وانه ليس لها قواعد ومبادىء كما لغيرها منها وان النور الطبيعي كاف لحسن الادارة والاصابة في التدبير فجميع ذلك ضلال مبين . ومن المسلم ان الله يولي الرئيس نعماً وانوارًا مخصوصة وان هذه النعم تتكاثر وتتوافر والانوار تتزايد وتتألق بقدر ما يكون الرئيس متحدًا بهِ تعالى ومتفانياً في حب مجده الاعظم . أفكثيرٌ هم يا ترى أولئك الذين تهبط الحكمة على قلوبهم من العلاء كما هبطت على قلب سليمان ؟ او الذين كفاهم الاختبار مؤونة درس الكتب الموضوعة في هذا الامر الجلل ؟ او الذين اختصتهم الطبيعة بالعقل الثاقب والفكر الصائب فتسدّدت اعمالهم منطبقة على شرائع العدل ومبادىء الفطنة ولم يحيدوا عنها مطلقاً ؟ انني كنت في الامس مرؤوساً وها انا اليوم رئيساً فعلى مَ تدل توليتي الرئاسة ؟ أتدلّ على الله هبطت عليّ بها روح الحكمة ؟ هيهات ! بل انما ذلك يدل على امر واحد وهو ان رؤسائي رأوني الان اهلاً لاترأس على اخوتي وان آمالهم معقودة اني

استغيث بالعون الالهي وانا في هـذا المقام الذي يتفق اني ندبت اليه لاول مرة . فابادر الى درس الاصول التي ينبغي ان اسلك بموجبها والـتي هي محررة في قانوننا اوفي غيره من الكتب الموضوعة في فن التـدبير الرهباني واني اتبعها بكل طيبة خاطر

ومن المسلم بداهةً انهُ يقتضي ان يتعلم الانسان اصول الصناعة التي يختارها من الصناعات كفنّ الحرب والتجارة والهندسة وما اشبه ذلك ويعتني بحفظها حق الحفظ آخذاً عن اساتذة بارعين فيها واما اشرف الصناعات الـتي هي قيادة الانفس الى الكمال بموجب قانون فكل يدعي اتقانها او معرفة ما يكفيه منها لاجل ممارستها بحجة انهُ عاقل فاضل همام مقدام وغير ذلك من الصفات . وقد برح الخفآ ان السياسة الرهبانية تفتقر الى ذكاء العقل والشجاعة والنشاط والصلاح بيدَ انها لا تكتفي بهذه لان هذه ليست الاساس لها او شرط جوهري لقوامها او الركن الاول من اركانها لانها تحتاج الى عمل كثير من الاشياء سوى ذلك من تلقن الاصول والقواعد وحفظ امثولات المدرسين واحدة فواحدة . ورب رئيس يصير ماهر بدون ذلك ولكنهُ لا يتسنى في اموره الا بعد سقطات عديدة ويزداد تقرباً من الخطر كلما ازدادت حميته وذكاوهُ باتخـاذه طريقة للامر والنهي على استحسانه واختياره ويلقي نفسه ويلقي جماعته في خطر الغواية والضلال

قال ارسطاطليس ثلاثة تكفل الفـلاح في كل فن من الفنون العقل والدرس والتمرّن اهـ .

فسياسة الاديار الرهبانية ليست من الفنون الملتبسة المشتبهة الأ عند اولائك الذين يستثقلون ان يبحثوا عن احوال قلب الانسان وعن الغاية التي لاجلها قامت حالة الرهبانية بحثاً كافياً . فان اصول هذا الفن بينة واضحة لا تخفى على من نظر الى هذه المسائل المهمة وتأمل فيها بعض التأمل . ولا جرم انهُ يتحصل من درس قلب الانسان والتأمل في غاية الحالة الرهبانية فن سياسي لا يشوبه ريب وخلاصةٌ من الحقائق متناسبة وجملةٌ من الاحكام متناسقة صحيحة مثل غيرها من باقي العلوم المختلفة

﴿ الفصل الثاني ﴾

في مضار الرياسة

عدد ١

(في ان الرياسة تبلو ذوي الفضيلة)

يصعب كثيرًا على الراهب الرئيس ان يبقى متحدًا بالله مواصلًا الدعاء المقدس بحسب عادته وقد اثقلته امور شتى تهمهُ وتتقاسم عنايته من اشغال تفاجئهُ وزيارات توعب عقلهُ من الافكار الغريبة بها يذبل القلب وتطفى شعلة التقوى فتفقد بعد ذلك النفس طمأنينتها وتتمكن من تشتيت الفكر حتى تتوصل رويدًا رويدًا الى ان تألفه فترتضي بهِ . وعلى هذا النحو لا يكترث الرئيس لترك الصلوات ومحاسبة النفس في فحص الضمير ولا القراءة الروحية بل لا يهمهُ اكبر الهفوات الممنوعة بحجة ان ذلك لا بد منه للقيام بحق الوظيفة وان الله لا يكلف نفسًا فوق طاقتها . ثم انه يستغرق اوقاته في الانكباب على درس القوانين والفرائض الموضوعة لاجل كمال المرؤوس فلا يبقى لهُ منها ما يكفيه للاشتغال بما فيه كمال الرئيس . فينقص على هذا النمط ميل التقوى فيه وتزول منه سهولة مناجاته الله تعالى

قال تاسيت : ان المؤرخين المدنيين يخبرون ان فسباسيانوس هو الملك الوحيد الذي زاد فضله بقبضه على صولجان الملك لان اشد الملوك اعتدالاً لم يحفظ نفسه من العدوى الفاشية حول عرش السلطنة بل غلب فيهِ ذكر الرفعة والمجد على القيام بما تحتم عليهِ من قيادة رعاياه في سبيل العدل والاستقامة وكان اعتناؤه بان تحترم الناس سلطته احب اليه من ان تنتفع بها رعاياه

لا ريب ان في الانسان ميلًا غريزيًا الى السيادة والعظمة واذا اهمله ينمو ويزداد فيه ويصعب عليه ازالته فيتمكن منه هذا الميل الى الامرة وهو غافل ولا يزال يقوى فيه حتى يصبح في حالة معها يضايقه ان يرى لسلطته حدًا والمشورة

اقتضاء. ويشق عليه ان يصمع برفق لطالب حاجة ويجزم بلا روية ويتأثر من اقل الاشياء ولا يدع الحقيقة سبيلاً الى الوصول اليه ويعرض عن اهل الاخلاص ويتزلف الى المداهنين ويندر تأمله في نفسه وفي فروضه. وهذا التبدل يحصل بعض الاحيان بسرعة غريبة حتى يتنكر ذلك الرئيس بعد ان يمر عليه سنة او سنتين وهو في مقن الرياسة فتصعب عليك معرفته بعدئذ لان سكرات السلطة تكون علت على ما كان فيه من حسن الصفات الأولى

قال احد افاضل الرهبان : ويلي اني اخترت الرهبانية لأسام احتقاراً لا لانال افتخاراً . أولم اعاهد نفسي علانية بالطاعة فكيف احاول الان ان اكث عهدي اه

ولكن قد يحدث ان الرئيس لا يخاطب نفسه بمثل هذا الكلام وان فعل فلا يعتم ان ينقلب فتأخذه نشوة الشرف ويتعجب بنفسه عند ما يرى انه ارتقى الى مقام الرياسة ويتمايل طرباً عند سماعه احاديث المتملقين من اهل التعريض والتورية وينسب النجاح في الاشغال لنفسه حملاً على ما يظنه فيها من الفطنة والدراية ولا يخيفه شيء الا قرب مدة رياسته من النهاية فجميع ذلك يدل دلالة صريحة ان روح العظمة اشغل محل روح الله فيه لان روح الله يدفعنا الى ان لا نرى في الرياسة الا العناء والخطر وان نحاول التملص منها والابتعاد عنها

ان اسرائيل قد اختار بامر الله هارون عظيم كهنة على حين كاد هارون يهلك لما بذله من المساعدة على عبادة العجل الذهبي واما موسى اخوه كليم الله فحرمه الله تعالى من ارض الميعاد الذنب اقترفهُ في قيادة الشعب وترك الله كذلك شاوول هدفاً للنكبات بعد ان اختاره فمُسح ملكاً لانهُ خالف واجبات وظيفته قال الحكيم في سفر الجامعة انهُ يتسلط احياناً انسان على انسان لضرره اه (ق ٨)

ولا يكثر سقوط الرؤساء فقط من حيث ارتباك اشغالهم وكثرة تعرّضهم والكرامات التي تحوق بهم والمتملقون الذين يراوغونهم ويزعزعونهم ويضعفون قواهم شيئاً فشيئاً بل انهُ من المحقق ايضاً انهم لا يقومون من سقطاتهم الا بعد ان

يتكلفوا عرق القربة . فما السبيل اذن الى النهوض من السقوط ؟ ان السبيل الى ذلك اما حلول عقوبة واما ابداء نصيحة تشفُ عن محبة والحال ان هذين النوعين من المساعدة لا تتوفر غالب الاحيان اسبابها للرئيس على ماقال موديست دي سانت إمابل في الفصل الاول من كتابه الرئيس الكامل . فمن الناس من يملقونهم ومنهم من ينتقدونهم واما امر تنبيههم واصلاحهم فهو فرض لا يفوته حقه من العناية به وكلما سكت الناس عن ذكر هفواتهم وبيان الوسائل التي بها تقال عثراتهم ظنوا في انفسهم انهم كاملون وانه لا حاجة لهم مطلقاً الى استرشاد احد من اخوتهم فيا للعجب العجاب كيف يندد الناس بالرئيس ويسلقونه بالسنة حداد وهم سكوت عن عيوبهِ . فان منهم من لا يجسر على كشفها لهُ حرصاً على مرضاته ومنهم من يعوقهم عن ذلك الجبانة والضعف ومنهم من يصبر عليهِ لامر في النفس ومنهم من لا يبالي بهِ حتى يهتم لاصلاحهِ ومنهم يكتم ذلك خشية ان يُرمى بسوء النية فكانهُ حكم على المساعدة التي يحصل عليها المرؤوسون في وقتها ان تولي مدبرة من امام وجه الرئيس في جميع الاوقات . وكأن المقام الذي يشغله هذا الرئيس ولأعلى اصلاح اخوته وجعلهُ في ملجأ امين من اصلاح نفسهِ فقد اصاب ايزودوروس دي سافيلاّ اذ قال : يصعب على ذي ولاية اطلق عنان هواه ان يعود الى سواء السبيل ا ه

عدد ٢

في ان الرئيس مطالب اشد مطالبة

قال القديس لورنسيوس يستيانوس ليس في الوظيفة الرعائية راحة بل همٌّ ناصب ولا هي تولي صاحبها شرفاً بل تلقي على عاتقه ثقلاً باهظاً وليست فاتحة الامان بل هي نذير الاخطار ا ه . والحق يقال ان الانسان كلما علت منزلته اضحى معرضاً للسقوط في قعر الهاوية فالرئيس كخوري الرعية لا يتأتى لهُ ان يخلص وحده ولا ان يهلك وحده . ايأمر الرؤساء مرؤوسيهم بان يحفظوا القانون حق الحفظ ويدفعون كلاً من الرهبان الى الكمال الذي يطالبه الله بهِ ؟ أيجلبون المنافع والفوائد ويدرؤون

الاضرار والمفاسد ؟ أو احرزوا ما وجب احرازه من الفطنة والمحبة والنشاط والمروة والتفاني ؟ فبقوا مع ذلك في معظم المخاطر لان اخيار الرؤساء لم يعملوا كل الخير الذي رغبوا فيهِ بل زهلوا فعملوا الشر الـذي كانوا يحتذرون منهُ فقليل هم ذوو القلوب الصادقة والمستعدون لقبول النعم

وما احسن ما قال احد الاولين وهو : يمكنك ان ترسم على خاتم من ذهب اسماء الملوك الصالحين اه ويشير بذلك الى ان فن التدبير هو الفن النفيس الذي يبحث الناس فيهِ عن الحكمة وانهُ لا يتفهمه الا الخاصة منهم وان ذوي الولاية لا يستحقون ان يسموا اولياء الا بقدر ما يقل خطاؤهم على حد قول الشاعر : كفى المرء نبلاً ان تعدّ معائبه

وهل من يجهل ما حل من المصائب بعالي الكاهن وباهل بيته وجميع شعبه من اجل ميل ضعيف غلب عليه وما جاء في الجليان من الكلام الذي بهِ يتهدد الله تعالى الاساقفة الذين نقصوا من عنايتهم في التيقظ والسهر على اصحاب البدع وفي الثبات في وجههم وهم مع ذلك حقيقون بكل ثناء لصبرهم وبسالتهم وايمانهم ومحبتهم واعمالهم المبرورة ؟

قال القديس بطرس داميانوس : على الرئيس ان يؤدي جواباً عن كل نفس هلكت بسبب اهماله او سوء مثالهِ اه وزاد على ذلك القديس غريغوريوس فقال : إنهُ اذا غدا من يضطر بموجب سلكه الرهباني ان يعيش عيشة مقدسة سبباً لهلاك اخوتهُ بسوء امثاله وقبح اقواله اوجبت عليهِ حاله الرهبانية شقاء اكثر مما يوجبهُ عليهِ ركوب المعاصي في الدنيا فانهُ حينئذٍ يهلك وحده ويسام عذاباً على قدر خطيئته لان شر هذه الغواية مهما عظم لا يوازي شر الشكوك التي يلقيها الراهب في الرهبانية وهو آخذ على نفسه القيام بالخدم المقدسة لانهُ لا احد يرى ان ينبههُ اذا اخطأ . وما يؤدى لهُ من الاعتبار بالنظر الى مقامهِ يجعل ثمَّ كالوباء سريع العدوى اه (كتابهِ الرعائي ف١ ف٢)

فعليهِ كان بموجب رأي هذين العالمين ان خطايا الرئيس تنتقل كالخطية الاصلية

من اولائك الذين شاهدوها وتمتد الى كثير من الافراد غيرهم وان الرئيس يطالب ويعاقب بكل ما يعزى اليهِ من الاعمال السيئة . فقد يخال لك ان هفواتك تبقى مستورة لا يعلم بها احد ولا تدري انها غير خفية على جماعة مرؤوسيك وانهم يتسامحون بارتكابها اقتداء بك وان كل من اقتدى بك وارتكبها زاد فوق ذنبك ذنباً وهو لم يخفف من ذنبه شيئاً . واعلم انهُ كلما كثرت المطاليب التي تؤدي عنها حساباً للناس كثرت المطاليب التي تؤدي عنها حساباً لله تعالى وربّ فعل لا يوجب بهِ الناس عقوبة على فاعله واما الله تعالى فيوجب به عليهِ عقاباً شديداً . فان الافضلية التي يمتاز بها الرئيس في الدنيا يترتب عليها افضلية عذاب يمتاز بها في الاخرة بدليل ما جاء في الفصل الـ ٦ من سفر الحكمة وهو : ان الصغير اهل للرحمة اما ارباب القوة فبقوة يفحصون اهـ

ولهذا ينتهر القديس يوحنا الذهبي الفم طالب الرئاسة قائلًا : ويل لك يا اشقى الناس اجمعين انك لا تعلم ماذا تصنع عندما تطلب لنفسك وظيفة يصعب عليك القيام بها لانك اذا لبثت وحدك منفرداً فلا يسألك الله تعالى حساباً الا عن نفسك واذا هلكت لا سمح الله وانت في عزلتك لا تلتزم الا اداء الحساب عن نفسك فقط ولكن اذا تقدمت الى مقام الرئاسة وادركك الاجل تلاقي من شدة العذاب في النار ما يقابل كثرة النفوس التي قدتها الى الهلاك او يجب عليك ان تتكبد عرق القربة في مدة رئاستك حتى تقي نفسك من هذه العاقبة الوخيمة

افلا ترى اذن ان من يرتاح الى الرئاسة هذا الارتياح الموبق يكون عدوًّا لنفسهِ ? ولعمري انه يصعب على الانسان ان ينجو بنفسه من النار فانّى يتسنى في نجاة غيره منها ? (عظته على رسالة بولس الى اهل تيطس)

العدد ٣

في ان تجنب الرئاسة اسلم من طلبها

اجمع القديسون على ان في الرئاسة من اللطف والرقة ما تأبى معه ان يتولاها ايُّ من تقدم اليها من طلاّبها كيفما اتفق فكأنها محتفظة لنفسها من اختيار ولي

امرها فان املتها اليك قبل ان تندفع هي الى ميلك اليها تكون في ذلك اغتصبتها اغتصاباً اذ هي تنفر من وجه من يتجاسر على طلبها و يحتال لها واذا ساقها القدر المتاح فسقطت بين يديه لا تسلمهُ نفسها بيد انها تلح في طلب من يهرب منها وتجتهد في ان تخفف عليه حملها

ان من يرغب في الرئاسة يجهل احوالها اذ ليس فيها الاَّ تعب القلب وخطر على النفس فأنى يقدر هذا الجاهل ان يقوم باعبائها

قال العلاَّمة توستات : دفع الطمع ساداتنا الرسل الى ان طلبوا بادئ ذي بدء ان يشغلوا المحل الاول في مملكة المسيح وذلك لان الروح القدس ما كان حل عليهم بعد ولكنهم علموا بعد عيد العنصرة ما تلتزم الرئاسة من العذاب والتذلل والخدمة والصبر الجميل فتحققوا انها حمل ثقيل وعبودية شديدة كما تحقق ذلك بعدهم جميع القديسين ه (على الفصل الـ ٢٠ من متى)

فلا ريب ان هذا كان السبب الذي من اجله وضع الامبراطور لاوون هذه الشريعة في جملة الشرائع الرومانية وهي : لا يجوز ان يبتاع الاسقف وظيفة بل ليس لهُ ان يقبلها الاَّ بعد مزيد الالحاح عليهِ وليس له ان يسعى في طلبها بل عليه ان يفر من امامها وينفر منها اذا دعي اليها وان يتبرَّاء منها عند الاشتداد لاستحصال رضاه بها حتى يكون جبره عليها عذرًا له في قبولها لانه لا يكون اهـلًا لها ان لم يقبلها بالرغم عن نفسه

قال القديس يوحنـا الذهبي الفم : من يطلب ولاية النفوس لا يخاف ديئونة الله . وان من العجائب ان يخلص واحد من هوُلاء المتهورين لانه اذا كان الذين لا يقبلون الرياسة الا عن ضرورةٍ واضطرار يطوِّحون بنفوسهم الى كثير من الاخطار فكيف يكون حال من يتهورون فيها بطيبةِ خاطر ولم يدخلوا اليها الا من باب المطامع ؟ فعلى من كان عليه مثل هذه المطالبة ان يجزع ويهلع ولذلك اشير برفض الرياسة عند الاستطاعة وبالمقاومة عند الجبر عليها واذاما نفذ القدَر وقيدت بها لا تنكف عن السهر والخوف ما دمت رئيساً اه (عظة الـ ٣٤ على رسالة القديس

بولس الى العبرانيين)

وقال ايضاً هذا العلاّمة القديس . في مقالته في الكهنوت : اما انا فمذ نبهتني انه نُظر في امر ترقيتي الى درجة الاسقفية لم ازل اراني بين الموت والحياة لانه قد اعتراني من ذلك خوف وغم شديدان جداً فاني اذا تأملت من جهة في جمال عروس المسيح وقداستها ومن جهة اخرى في كثرة خطاياي لا اتمالك من الاسف والاسى على شقاها وشقائي ولا من الهتاف قائلاً : اية معصية كبرى اقترفتها الكنيسة على الله تعالى وبأي جرم اغاظت ربها حتى قصد تذليلها بتسليمي قيادتها ؟ وايم الله ان تيقن نفسي بنقصها وضعفها يثقل كاهلي ويحركني الى البكاء الشديد ويخرجني عن الهدى . اه (كتاب ال٤)

وقال ايضاً في هذا الصدد القديس اغسطينوس : لاارى سبباً لارتقائي الى درجة الاسقفية الا كثرة مآثمي لاني وُليتُ تحريك الدفة وانا لا احسن تحريك المقذاف . اه (الرسالة ال٢١)

ان جميع القديسين شعروا بمثل هذا الخوف عند توليتهم امور الاديار الرهبانية التي هي اشبه بولاية الاسقفيات فالقديس برنردوس كان يفضل ان يكون مرؤوساً لماية رئيس على كونه رئيساً على مرؤوس واحد . وحجته في ذلك هو قوله : ان ناب الذئب يخيفني وانا راعٍ اكثر من عصي الرعاة التي يهشون بها علي وانا في القطيع اه

والقديس توما يقول في رؤساء الرهبان ما قاله في الاساقفة وهو انه في الرياسة ثلاثة امور ١ً فروض الوظيفة وواجباتها التي تؤول الى خير المرؤوسين و٢ً الرفعة والشرف المختصان بالرتبة و٣ً الارتياح الطبيعي لها . فالرغبة في الرياسة حباً لايفاً ماتطلبه من الفروض والواجبات هي عمل ممدوح . والرغبة فيها لما فيها من الرفعة هي طمع اثيم واما الرغبة فيها قصد اطلاق عنان الميل والارتياح فهذه كناية عن انانية بصورة توجب الخجل . اه (على الف ال١٣ الروما)

وقد جا في كتاب مرشد الروساء ان الراهب الذي لايرتقي الى مرتبة الرياسة بسلم التواضع والخوف لا يكون جديراً بها وارتقاؤه اليها يورثه سقوطاً سريعاً

مهولاً مشوماً

﴿ الفصل الثالث ﴾

في منافع الرياسة

العدد ١

في انها تدعو الى ممارسة فضائل كثيرةٍ

من جملة فضائل الرئيس المشروطة المحبة وهي فيـهِ اكثر امتداداً واوفر شمولاً واشد مشابهةً بمحبة الله تعالى منها في غيره من المرؤوسين وذلك بالنسبة الى وفرة الفرص التي تمارس فيها وكثرة عدد الذين يتطلبونها منهُ لانهُ وان كان بعد لم يبلغ الكمال لا ينفك من ان يقود اليهِ غيره ومثلهُ في ذلك على ما قال القديس فريغوريوس مثل الرسّام القبيح المنظر الذي لا يملّ من العمل في رسم صورة انسان جميل

ومنها الصبر فانهُ يُمتحن فيهِ بالتشكي والتذمر عليهِ وامتهانهِ ومخالفته ونكران جميلهِ وخيانته ولا ريب في انهُ يزداد فضيلةً على فضيلةٍ بالضرورة والاضطرار اذا قدم ما يصادفهُ في يومهِ من المحنِ والمتاعب كفارةً عن خطاياه الامر الذي يعتاض بهِ عن الصوم وجلد الجسد لان ذلك يكون لهُ بمثابةِ مطهرٍ في هذه الدنيا الفانية

ومنها التواضع الذي يزداد فيـهِ بالنظر الى انهُ يرى نفسه غالب الاحيان عاجزاً عن الوصول الى ما يتمنّاه من مرؤوسيه والذي يجدّ هو في المحافظة عليهِ وهو بين الكرامات والمدائح ويحتاج اليهِ اذ يرى في مرؤوسيه كثيراً من الفضائل السامية التي لا يساويهم بها

واذا مست الحاجة الى ان ينقطع عن عملٍ من اعمالهِ التقوية فيكون ذلك لداعي خيرٍ في جانب الجماعةِ ولمجد الله الاعظم. بهِ يزداد اجره ولا ينقص فيربح على هذه الصورة من هذه الجهة اكثر مما يخسر من الاخرى. وقد يطراء على محبته لله ما يكسر حدتها ويشوب صفاءهـا غير انهُ يصبح اشد متانةً واكثر تأثيراً بل

تصير محبة شبيهةً بمحبة هامة الرسل التي ظهرت منهُ عندما سألهُ معلمه قائلًا : يا بطرس اتحبني ارع نعاجي اه

لا ريب في ان الرئيس هو عرضة للسقوط اكثر من غيره لكن سقوطهُ لا يكون في الغالب الا عن افراط في الغيرة او عن غفلة او من ارتباك المهمات والله تعالى جلت حكمتهُ تواب رحيم في مثل هذه الاحوال فانهُ يصلح ما اختل ويشفي ما اعتل ويستخرج الخير من الشر وذلك لنفع الرؤساء والمرؤوسين على السواء

وما لا مشاحة فيهِ ان الرئيس يخسر شيئاً من اجر الطاعة بخلاف ما لو كان مرؤوساً غير انهُ لهُ اجر الطاعة لله تعالى ولقوانينه ولمن هم اعلى منه في درجات الرياسة بل لمرؤوسيه ايضاً من حيث انهُ خادم لهم خدمةً حقيقيةً

قد جاء عن احدى راهبات الزيارة انهـا لما انتُخبت رئيسة حزنت وبكت ظنًّا منها انها فقدت اجر الطاعة فاجابها القديس فرنسيس سالس قائلًا : قد اخطأتِ ببكائك اذ اجر طاعتك يتضاعف ويزداد لانك لما كنتِ مرؤوسةً كان لك في طاعتك اجر طاعة واحدة عندما كانت رئيستك تأمرك بشيء من الاشياء واما الان وانتِ رئيسة فكلما آمرتِ احدى مرؤوساتك بعمل من الاعمال تنالين اجرًا لان الله تعالى اختارك رئيسةً وآمرك بان تصدري الاوامر لمرؤوساتك وتدبريهنَّ فكلما آمرت طعتِ وكلما طعتِ آجرك الله سبحانه لانك لا تأمرين الا طاعةً لهُ وللقوانين المرسومة منهُ جلت احكامه اه

وكتب هذا القديس نفسه الى رئيسة اخرى قال : ربما انتخبكِ الله رئيسةً لكي تصلحي نقائصك او لكي يحملك على اخفائها بحرصٍ اذ انك في حال الرياسة ترين نفسك مشهدًا لله وللملائكة وللبشر لان من يسلك محلًا مرتفعاً ينتبه لكل خطوةٍ من خطواته اه

فقصارى القول ان الرئيس اذا كان ملتزماً باحراز جميع الفضائل حتى يمكنهُ ان يبني مرؤوسيهِ بمثاله الصالح وان يصلح ما فيهِ من الشوائب ليتسنى في اصلاح مرؤوسيه وان يعمل هو نفسه بما يقوله لهم ويشعر قلبه بما يريدان يولّده في قلوبهم

من العواطف الصادقة الا يجد في نفسه مهمازًا ينبهه وقيدًا يربطه بالكمال الرهباني ربطًا وثيقًا ؟

العدد ٢

في ان الله يولي الرئيس عونًا قويًا

قال القديس اوغسطينوس ما من شيء اصعب من الوظيفة الرئاسية واشد خطرًا واوفر واسعد استحقاقًا منها بشرط ان يسلك الرئيس بحسب اوامر السيد المسيح معلمه الالهي . فاي شيء اشرف للانسان من ان يختاره الله ليقودَ في طريق الخلاص والكمال تلك الانفس الخالدة المفتداة بثمن دم يسوع المسيح التي جعل الروح القدس مقر نعيمه فيها او ان يدعى ابًا وراعيًا او يدعى معينًا لله في عمل الفداء وان يوفي ذلك حقهُ ؟ فيا لهُ من مقام يسمو كل مقامٍ سواه ويا لها من منزلةٍ تفوق كل منزلةٍ دونها اذ في ذلك لغرابة تتخطى الطبيعة البشرية . هو الله تعالى يولينا الغوث من عنده بقدر ما يضع علينا من الفروضِ ويجود بطوله وحوله علي من فعل بقوله ويسبغ علينا من النعم ما يعصمنا من مزلة الندم . فاذا كان الله ينتخب الملاك الحارس الذي يامرهُ بحراسة الملك من اجواق سلالات الملائكة العليا بين الروساء والسلاطين كما يرتأي القديس توما وكان يقف على جانبي الملك ملاكان يجعله الواحد منهما مسيحيًا صادقًا والآخر ملكًا صالحًا لانهُ لا يكون مسيحي صالح ملكًا طالحًا ولا ملكٌ طالح مسيحيًا صالحًا . وكان روساء الملائكة والسلاطين القائمون بحسب رأي القديس غريغوريوس في حراسة الاقاليم والمدن هم مستشارو ذلك الملك وملازمو جانبه ليحسن سياسته أَ فلا يلزم عن ذلك ان نعتقد بانهُ ليس لرئيس الدير ملاكٌ حارس فقط بل ملاكان من روساء الملائكة والسلاطين يساعده احدهما على اكتساب الكمال مساعدة خاصة ويساعده الثاني على تدبير مرؤوسيه وان نعتقد ايضًا ان الملائكة القائمة بحراسة الرهبان مرؤوسيه يهتمون بخدمته ويعضدونه فيما يؤول الى الخير العام ؟ فما اعظم

الاجر الذي يحصل للرئيس بهذه الوسائل القوية المتوفرة لديه ؟ وكم يتلافى من السقطات ويحث غيره على ممارسة الفضائل ويخلّص من الانفس ويقود منها الى طريق الكمال ؟ ألا يشارك مرؤوسيه في الخير الحاصل من جميع ما يعملونه من الاعمال الصالحة كالصلوات والاماتات والمواعظ واعمال المحبة الى غير ذلك لانهُ هو سبب هذا الخير الخاص اذ يهيئ القلوب لهُ ويقود رهبانه اليهِ ؟

ان القديسة تريزيا تاملت فيما يعملهُ الرئيس في سحابة يومهِ من الاعمال المقدسة لا سيما فيما يترتب عليها من النتائج العظيمة فاندهشت من هذه الوسيلة السعيدة التي بها يُجبَر الرئيس على تقديس نفسه ليقوى على تقديس نفس غيره ولم تتمالك عن ان تعلن للاب غونزالس انها تعتقد الاعتقاد التام بان المندوب للقيام باشرف الاعمال الالهية الباذل حياته في سبيل ايصال الانفس المختارة الى الكمال الرهباني المطلوب ينال من الاجر بفعلٍ واحدٍ ما لا ينالهُ المرؤوسون بافعالٍ عديدة

العدد ٣

في انهُ يجب ان تتحمل الرياسة بصبرٍ واتكالٍ

من المقرر انهُ لا مناقضة بين فضيلةٍ وفضيلةٍ فلا يؤدي الافراط بالتواضع الى المعصية على الله تعالى ولعمري اذا خيل لنا ان الله لا يقدّرنا على ايفاء الوظيفةِ حقها عندما يدعونا وينتخبنا لها لما نحن عليهِ من الضعف بالطبع نكون بذلك ادخلنا فساداً باصول التواضع المسيحي لان هذا يؤدي الى القول انهُ اذا كنّا ضعفاء فالله تعالى ضعيف بيد انهُ من الضروري ان يعتقد المتواضع الحقيقي انهُ اذا كنّا نحن نعرف من انفسنا العجز والنقصان فالله تعالى يقدر على كل شيء بايةِ آلة اختارها . واذ كان لا يُغتفر لنا ان شككنا في قوةٍ بشريةٍ فلا يُغتفر لنا بالاولى ان شككنا في قدرة الله تعالى لانهُ من الصواب ان نرضخ بالصبرِ والاتكالِ لحكم الانتخاب القانوني الدالّ على مشيئته سبحانه جلّ وعلا

قال القديس توما : ردُّ الرياسة خطية تخالف المحبة التي توجب ان

نضحّي راحتنا في سبيل الخير العام و٢ً التواضع الذي يوجب ان نخضع للرؤساء والحال ان الانتخاب القانوني يساوي امرهم اه

وقال القديس غريغوريوس النزينزي : من الجسارة ان يقبل الراهب الوظائف بلا تمييز ولا روية ومن الجبانة ان يأباها على الاطلاق واما انا فعندي ان خير الامور اوسطها فانني اكثر جبانة من الذين يتهافتون الى الرتب واكثر جسارةً من الذين يرفضونها برمتها اه

وقال في ذلك البابا غريغوريوس القديس : ان المتواضع الحقيقي لا يرفض بمكابرة وعنادٍ الرياسة التي يؤمر بقبولها واما من حاول التملص منها وهو يرى ان الله يأمره بها فلا يكون الا متكبرًا . ولنا من موسى كليم الله مثلٌ في ذلك يجب الاقتداء بهِ فانهُ لم يكن يريد ان يأخذ على عاتقه قيادة الشعب العبراني لكنهُ فعل ذلك امتثالاً لامر الله تعالى فلو اقبل على قيادة هذه الملايين من الناس بغير روية ولا نظرٍ لعدُّ منهُ ذلك تهورًا ولو رفض قبول هذه القيادة بتاتًا لكان حُسب عليهِ ذلك اثمًا من قبيل العصيان . غير انهُ اظهر حينئذٍ فضيلتي الطاعة والتواضع لانهُ أَبى ان يكون قائدًا لاخوته بالنظر الى عجزه ثم رضي بهِ بعد ذلك لثقته بقوة الله الذي كان ينفذ هو احكامه ولشدة اتكاله عليهِ جل جلاله اه (الراعي ق١ ف٦ و٧)

وكتب العلاَّمة باللرمينوس في هذا المعنى نفسه الى احد الاساقفة الذي لم يكن مرَّ حينئذٍ على ارتقائه الى هذه الدرجة زمان طويل فقال : اذا ما راق لله تعالى خالقنا وفادينا ان يضعنا في وسط هذه المخاطر (يعني بذلك الرياسة) فمن نحن حتى نجترئ ان نقول لهُ لماذا تعاملنا هكذا ؟ فاذا كان الذي احبنا وبذل نفسه فدًى عنا تنازل فقال للقديس بطرس : ان كنت تحبني ارعَ نعاجي اه (وكانه قال ذلك لجميع الرعاة) فمن يا ترى اذن تدفعه القحة الى ان يجيبه قائلًا : لا اريد ان ارعى نعاجك خوفاً على نفسي من الهلاك لانه يكون دلَّ بذلك على انهُ يحب نفسه ولا يحب الله تعالى لان من احب الله محبةً حقيقيةً يقول كما قال

الرسول : اني اوثر ان اكون مبسلًا ومبعدًا عن يسوع المسيح لاجل خلاص اخوتي من ان ارفض قبول وظيفةٍ يريد الله ان يلقيها على مناكبي اه ومن المحقق ان من تمكنت فيهِ المحبة لا يخشى من وقوعه في خطر الهلاك ومن المحقق عندنا ايضـاً بشهادةِ الكتاب الكريم الصادقة ان المحبة تغطي وفرة الخطايا وان كنا نرتكب هفوات كثيرة بالنظر الى ما نحن عليهِ من الجهل والضعف اه

فمن الثابت اذن بالعقل والايمان انهُ لا شيء يمكّننا من امر الخلاص مثل عون الله تعالى لنا واننا آمن على سلامتنا ونحن في وسط اعظم التجارب اذا مـا حفظتنا يد الله تعالى فيها منا عليها ونحن متزوون في اقصى المحلات المعتزلة . فالحاصل اذن انهُ ان كان في الرياسة خوف فلها ايضاً عون من الله خصوصي او كان فيهـا شيء من الصعوبات فلها فوائد كثيرة تساعد على ممارسة الفضيلة فيها . فالنظر الى هذا التعويض وهذه المكافأة يحملنا ان نسلم انفسنا لله بكل طمأنينةِ قلبٍ . فلما انتُخب سرياكوس بطريركاً على كرسي القسطنطينية كتب اليهِ البابا غريغوريوس في هذا المعنى قال : اعلمتنا في كتابك انك شاعر بتقصيرك وعجزك وان هذا الحمل جاء فوق طاقتك فعليه تاكدنا نحن انك قادر على القيام باعباء هذه الوظيفة السامية لانهُ لا يستطيع القيام بوظائف الكنيسة الا من عرف عن خلوصٍ وثقةٍ انهُ غير كفوء لها فانهُ اذ ذاك يلقي اتكاله ورجاءه على الله الذي لهُ وحده القدرة على ان يساوي بين ثقل الواجبات التي يلقيها على مناكبنا والعون الذي نحتاجه منه للنهوض بها

كتب البابا اينوشنسيوس الثالث الى اسقفٍ كان يلتمس اعفاه من رتبـة الاسقفيةِ ليتمتع بسكون العزلة قال . هب ان فيك من الشوق ما تعيرك شدته اجنحة تطير بهـا الى تلك العزلة التي تتمناها فاني احب ان تعلم انهُ يجب ان تطوي تلك الجوانح ولا تنشرها للطيران الا بعد صدور امرنا . اه

﴿ الفصل الرابع ﴾

في الرياسة الموقتة وغير الموقتة

في الحجج التي تؤيد الرياسة غير الموقتة

١ً ان الرياسة غير الموقتة تمنع الاجتماعات التي تطلب نفقاتٍ كثيرة واسفارًا طويلةً وغياباً مأسوفاً عليه وتهيج ما سكن من حركاتِ المطامع والحسد وتولد الانشقاقات المشومة

٢ً ان من يقوم بمهمة من المهام والمناصب مدةً طويلةً تتناوبه احوال شتى وتجري له حوادث كثيرة من شأنها ان توسع نطاق مداركه وتنبه افكاره وتحنكه في التدبير اي تحنيك واما الرئيس الموقت فلا يكون عند نهاية سنيه الثلاث امينا من انه يعرف الحالة التي وصلت اليها الرهبانية والرهبان . ومن الثابت انه لا شيء يزيد الاهابة في الرئيس والثقة والاحترام في المرؤوس مثل السلطان الواحد الثابت كما انه لا شيء يجعل المرؤوس متصلفاً والرئيس جباناً وهائباً مثل معرفته بالعزل او التبديل وهذا الذي حمل مؤسسي الرهبانيـة مثل القديس باسيليوس والقديس اغوسطينوس والقديس مبارك والقديس دومنيكوس والقديس فرنسيس الاسيزي على ان يجعلوا في بادئ الامر رياسة رهبانياتهم العامة غير موقتةٍ . وقد بقي الامر يجري على هذه الصورةِ زماناً طويلًا

٣ً من المعتاد ان يعتني الانسان في المصلحة المسلمة اليهِ تسليماً غير موقت اكثر من عنايته فيها وهي موقتة اذ يُجبر عند حلول الاجل على تسليمها الى غيرهِ فان الانسان اذا ما كان واثقاً من نفسه انه يتعقب هو نفسه عملًا يرى انه يعود بفوائد كثيرة عامة وانه يرى بعينهِ تلك النتائج التي يتصورها وكان اميناً من النجاح فيهِ بالنظر لما يكون اكتسبه من النفوذ والخبرةِ يتجرأ حينئذٍ على ان يحاول الشروع فيهِ وينشط لاجرائه وانجازه فان ايزوكرات الحكيم يرتأي في خطابه الذي

القاه على لسان بيكوكايس ان الذين يتقلدون مهام الاحكام الى سنة واحدة يتركونها قبل ان يحذوا معرفة مصالح لوطن وان يعتادوا تدبير الاعمال بيد ان الذين يتولون رهم من الاهليــة على درجة وسطى رياسة واحدة في مدة حياتهم يفضلون غيرهم بالتجربة والامتحان لان من كانت مهمته موقتة يتساهل في امور كثيرة اذ يتقاعد عما شقَّ من الاعمال ويترك الاهتمام فيه لمن يخلفه واما ذوو المهمة غير الموقتة فلا يهملون شيئاً لانهم لا ينتظرون من يقوم مقامهم في اعمالهم حتى تتم المقاصد في شأنها اه

٤ً لما كان لكل رئيس جهةٌ تعلق ونظرٌ في الاعمال يختلف بهما عن غيره كان تبدّل الرؤساء مورثاً الرهبانية ادوارًا وتقلبات من شأنها ان تجلب عليهــا اضرارًا وتزعزع منها اركاناً

٥ً ان الرئيس غير الموقت لا يخاف امرًا ولا يرجو شيئاً من قبل مرؤوسيه لا لاجل تجديد انتخابه ولا لحسبان ما يكون بينه وبينهم من المناسبات والعلاقات بعد العزل من الرياسة فليه لا يصادف ما يضطره الى تسليم امر من الامور الى من ليس باهل لهُ ولا ما يقعده عن اصلاح الخلل وزالة الشوائب الحاصلة في الرهبانية

٦ً لما كان وجود رئيس فاضل واحد اسهل من وجود كثيرين كانت الرياسة غير الموقتة مصونة من الخطر الذي تتعرض لهُ الرياسة الموقتة بالنظر الى الاقتراع الدوري لان زيادة التبديل في هذه الرياسة يفضي الى القاء مقاليدها في ايدي شبان لا يكون لهم خبرة ولا علم بالفضيلة الثابتة الراهنة بل يكون كل ما عندهم منها كنايةً عن بعض الرغائب والظواهر الموافقة اصول الآداب اذ يجهلون الطرق الروحية ومبادي السياسة الرهبانية فيكتفون بحفظ النظام الخارجي وهم غافلون عن التهذيب الباطني الحقيقي فانهم اذا مــا رأوا ادوات الآلة تتحرك بعضها ببعض بنظام وترتيب يرضون بذلك ولا يطلبون زيادة عليه

٧ً ان المرؤوسين الذين لم تتأصل فيهم الفضــائل يتخذون من تبديل

الروساء حجةً للتراخي في الانقياد الى الطاعة لانهم يعللون انفسهم بان الرئيس الآتي يعاملهم بلطف ويفرج عنهم الشدّة فلا يرون اضطرارًا لتحسين احوالهم ولموافقة الرئيس في ما يراه ولا يهتمون الا لانجاز اعمالهم كيفما اتفق لهم وهم متربصون من يوم الى يوم ومن مجمع الى آخر اما الرياسة غير الموقتة فتسد في وجوهم السبيل الى مثل هذه المكابرة بل تدفعهم الى ان يغيروا سلوكهم ويخضعوا تمام الخضوع تملصاً من معارضة السلطان الذي لا ينتهي الا بانتهاء الحياة ويتفق بعض الاحيان ان يوجد الرئيس المعزول تحت سلطان خلفه في الدير الذي عزل عن رياسته فيصعب عليه حينئذٍ ان يتحاشى كل ما يمس حاسات خلفه من نقدٍ يفرط منه او لوم يرميه به او تذمر من بعض حوادث تحصل له . الامر الذي يسبب عثار المرؤوسين واما الرياسة غير الموقتة فلا يكون فيها سبيل الى شيء من ذلك كله ولا من امثالها ويمتنع فيها كذلك امكان ارتكاب السيمونيا التي تحدث مرات كثيرة بين رئيس ومرؤوسٍ بواسطة العهود الصريحة او المضمرة التي بها يعدُ الواحد منهما الآخر باقتراعه له والحصول على الوعد الثابت منه بالمكافأة او بأمل الحصول عليها يوماً من الايام . ولا يبقى ايضاً في الرياسة غير الموقتة مكان للافراط بالتسامح عن القصور الذي يبديه من صوّت للرئيس من الرهبان ولا من التحامل بالنفور والاشمئزاز على من لم يصوت له

٩ً ان الوحدة في السلطان وبقاء سلطان الواحد هما علامتان مرسومتان من يد الله تعالى لكل سلطان في هذه الدنيا لان السلطان هو بحصر الامر صورة الله تعالى على الارض والمتسلط يمثله عزّ وجل في عباده أفلا ترى ان في الكنيسة حبرًا واحدًا سامي السيادة وفي المملكة سلطانًا واحدًا معززًا بالقوة وفي الابرشية اسقفاً واحدًا وفي العائلة ربًّا واحدًا فقط ؟

العدد ٢

في الحجج التي تؤيد الرياسة الموقتة

١ً يخشى ان تنقلب الرياسة غير الموقتة الى استبداد مطلق بالنظر الى ان

الرئيس لا يطالب بحساب ولا يخاف من عزلٍ فالرئيس الثابت في الرياسة يغلب العجب فيه على المحبة الابوية فيظهر في جميع اقواله واعمالهِ ثم ينسى ما في الطاعة من الصعوبة كانهُ لم يختبرها ويسكت الرهبان القادرون على ارشاده وينتهون الى حدّ انهم لا يصدقونه النصح تاركينه وشأنه منصرفين عن مصالح اخوتهم العامة وعن صوالح القانون ايضاً وذلك ليثبتوا في مناصبهم الخاصة . قال بوسويه : السلطان من طبعه الازدياد اه فالانسان كلما زاد سلطانه ازداد رغبةً فيه حتى اذا ما انتهى الى اعلى درجةٍ منه انتهى بهِ الطمع الى ما لا حد لهُ . فيختص الرئيس لنفسه القليل من الحرية التي يتسامح بها القانون للمرؤوسين ان لم يكن هناك حواجز تمنعه

٢ً ان الرياسة غير الموقتة تفضي في بعض الاحيان والاحوال الى الخصام اذ يقتصر الرئيس في الاشغال على تسليمها لمن يحب كما يُسنح لهُ لا لمن يكون اهلاً لها وجديرًا بها فيتولّد من ذلك تذمرّ في السرّ لا يوصف وقد يجاهر بهِ صاحبه علانيةً

٣ً كان الرومانيون ينتخبون اولياء الامر بينهم بالدور كل ثلاث سنين مرة وكانوا يعلقون القسم الاكبر من نجاح مملكتهم على هذا النظام لانهُ على ما جاء في سفر المكابيين لم يكن من حسد بينهم وانهم افتخروا بسيادتهم حينئذٍ على الدنيا جميعها وان رؤساءهم كانوا ذوي رفق واعتدال

٤ً ان كثيرًا من خيار المرؤوسين يلبثون خاملين بالنظر الى قلة ميل الرئيس غير الموقت اليهم لان الرئيس يستميل بالطبع اصحاب الاعمال الى موافقة امياله فان من غلبت فيهِ السوداء مثلاً يختار عماله من ذوي الطباع الدموية او البلغمية للينهم وسهولة قيادتهم ومن علم بعجزه اختارهم من ذوي المقدرة والاقدام واما ذوو الرياسة الموقتة فلا يقعون في هذا المحظور بل يختارون للمناصب والخدمات من يرونه اهلاً لها ومن تكون حنكتهم التجارب

٥ً لا اشكال في الاعتراض بان ولاية الاسقفية غير موقتة . لان الاسقف

عقد مع ابرشيته عقدًا غير منفصم يشبه عقد الزواج ويمكن مع ذلك نقله من اسقفية الى اخرى وانهُ فوق هذا لا يساكن في داره افراد اسقفيته وكهنتها ولا هم متعلقون به بحكم النذور من حيث امورهم الروحية والزمنية كما يتعلق الرهبان برؤسائهم

٦ً ان رجاء التبدل القريب يجعل نير الرياسة خفيفاً محتملًا وان كان ثقيلًا بحدّ ذاته غير انهُ اذا كان الرئيس فظّ الطباع وسلطانه غير موقت تكون حال المرؤوس متضعضعة ويفتقر في مصابه هذا الى قسم عظيم من الصبر الجميل ولا يطيع من يقدر ان يحمله كل العمر اثقال حقده الا طاعة خوفٍ وجبر واذا ما نفر قلبه او شعر بنقصان في محبة الرئيس لهُ او كان بينه وبين الرئيس مباينة بالخلق وهو لا يرجو احدًا يلتجيء اليهِ او يتكل عليهِ ولا يرى لنفسه في مستقبله نجاحاً فيداخله الهم والغم ويستولي عليهِ الملل ويتملك فيهِ الجبن والضعف واليأس

٧ً لذوي الرياسة غير الموقتة ادوار تظهر فيها بسالتهم غير ان الرئيس اذا اكتهل او المّ بهِ الخبل من العمل يسوقه الكلل الى الفشل وهو لا يكترث لشيء مما فعل اما الرئيس الموقت فيرى ان المدة المعينة للعمل قصيرة وانهُ في شرخ شبابهِ فيبذل قصارى الجهد في ان يشهر رياسته ببعض الاعمال الكبيرة المفيدة فتتقدم بذلك الرهبانية راغبة في بلوغ غايتها تقدماً متصلًا ويتسع نطاق كمالها بما يؤول لمجد الله على قدر ما تستطيعه

٨ً ان الحالة الرهبانية هي حالة خضوع وتواضع فكيف يتأتى للرئيس غير الموقت الذي لا تُفرض عليهِ الطاعة الا لاسقفه وللبابا فقط اللذين لا يأمرانه بها الاّ ما ندر ان يكتسب فضيلة التواضع وما يتفرّع عنها من الفضائل بغير ممارسة الطاعة ؟ او كيف يمهر في فن الامرة الذي لا يُتعلم احسن تعلم الاّ بها ؟ ولا شك ان من يتعود اصدار الاوامر والنواهي يصعب عليهِ قبولها ولا يمنع عن نفسه ما يقدر على نيله منها فان من الف الكرامة والسيادة يستولي عليهِ التهوُّر والكبرياء وما يخشى وقوعه في الرياسة غير الموقتة هو ان يظن الرئيس ان الاموال الموقوفة هي لهُ وان يتصرف فيها تصرف الملاك في ملكه كيفما شاء واراد ولعمري انهُ متى كان

سلطان الرئيس مطلقاً وليس له من يطالبه بحساب فيوقفه على حدّ وهو لا يخاف من احد فيرعوي . لا يلبث ان يستهويه الشيطان والحالة هذه فيطلق العنان لميله وهواه ويتسامح لغيره بما يتسامح به لنفسه من الافراط بالنفقات والاكثار من الزيارات وغير ذلك من المخالفات القانونية فاذا كان ذلك كذلك فما يكون حال النظام الرهباني

ولنا في ذلك اعتبار آخر وهو ان المساواة التي تساعد كل المساعدة على المحبة والالفة لا وجود لها بين الرئيس غير الموقت ومرؤوسيه ومن الصواب والعدل ان الرئيس الذي يكون استفاد من مثال اخوته بخضوعهم وطاعتهم لهُ ان يفيدهم هو بعد ذلك بالمثل والامثال نفسها عندما يدخل في عدادهم

٩ً ان الرئيس الموقت يحرص على نفسه كل الحرص لعلمه بانه يعزل بعد قليل من الوظيفة ولا يبقى محظور من توبيخه على ما يكون قد فرط منه من التقصير في واجباته واذا كان عثر بمثله بعض الاخوة فيبقى للرهبانية املٌ بان من يخلفه في الرياسة يقيل تلك العثرات واما من كانت رياسته غير موقتة وتراخى في حفظ القوانين او استبد في ارآئه فلا يكون لهُ ما يردعه عن غيه سوى ما قل من النصائح الضعيفة على ان البقاء على السلطان مدة مديدة يزيد القلب تصلفاً وتصلباً وان في ذلك كله عراقيل شديدة تمنع الرهبان عن التقدم في طريق الكمال . وما الرئيس الموقت السيء السيرة الا كالحمى المثلثة فانها وان اشتدت وطأتها على المريض فلا بدَّ لها من فترة تترك له فيها فرصة للراحة اما الرئيس غير الموقت فاذا ما ساءت سيرته يكون كالحمى الدائمة التي لا تنقطع الا بقطع حياة المريض

العدد ٣

في بيان رأي العلاَّمة سوارس وعادة الكنيسة

ان هذا العلاَّمة بعد ايراده الحجج الموجبة والسالبة في هذه المسألة يسلم بان الافضل لخير الرهبانية والانسب لحالتها هو ان تكون الرياسة العامة موقتة بشرط ان لا تضر بالرهبانية الاجتماعات العامة الكثيرة ولكن اذا كان لا بد لتجديد الرياسة

العامة من هذه الاجتماعات التي يكثر فيها عدد اصحاب الاصوات فيرى ان الاوفق بل ان اخف الشرين ان تكون الرياسة غير موقتة او تضرب لها مدة طويلة اه . (في كلامه على الرهبانية المختلفة جلد الـ ٤ المقالة الـ ٨ ك ٢ ف ٢ .)

اما عادة الكنيسة في ذلك فهي ان البابا غريغوريوس الـ ١٣ رسم ان تكون مدة رياسة الرهبانيات في ايطاليا ثلاث سنين لا تتجاوزها وان لسائر الرهبانيات الخارجة حقاً بان يكون روساؤها العامون غير موقتين اما روساء الاديرة فلا تكون مدة رياستهم في اي مكان كان الا ثلاث سنين او ستاً وفي هذا برهان قاطع على ما يقوله سوارس ان العادة القديمة في طول مدة الرياسة لم تكن لتؤيدها الكنيسة التي ابدلتها بما رأته مناسباً بل نافعاً وهو الرياسة الموقتة

ولكنهُ لم يسمح للرهبانيات التي حافظت على العادة القديمة من اطلاق مدة الرياسة العامة بالمداومة على ذلك الا بعد تشكيل مجلس شورى بين المدبرين ومجلس تفتيش عمومي للرهبانية لدفع المطامع ومنع الاستبداد

غير ان اطلاق مدة الرياسة العامة لا تسمح بها بموجب قوانين (دي فرار) الاخوة الا نادراً لان مجمع الاساقفة والقانونيين المقدس رأى الافضل ان تضرب لرياسة هولاء الرهبان مدة عشر سنين واثنتي عشرة سنة وان تجدد الرياسة بعد مرور هذه المدة اذا كان سلوك الرئيس موافقاً القانون فتحصل هذه الرهبانيات بذلك على منافع الرياسة المطلقة المدة من غير ان تتحمل من اضرارها شيئاً اه (مجمع حقوق الاحبار جلد ٦٣)

واما رهبانيات النساء فلم يسمح لها المجمع المقدس باطلاق مدة الرياسة فيها الا نادراً لانهُ من الامور الممتنعة عادة ان تسلم سياسة الرهبانية الى امرأة مدة حياتها ومن المقرر والحالة هذه ان الاجازة للراهبات بتجديد الرئيسة العامة تصادف محاذير كثيرة لانها تسلب حرية الاختيار وتعرض ذوات الصوت للاندفاع الى الاقتراع بعامل الحياء اذ لا يقدمن الا على انتخاب الرئيسة التي مرت عليها السنون وهي في الرياسة هذا وبصرف النظر من ان الشيطان يوسوس

للرئيسة فتعدّ لهـا ولا سيما في السنين الاخيرة زمرة من الراهبات تسلم اليهن الوظائف المخصوصة بذوات الصوت الفاعلي فلهذا لم يؤيد المجمع المقدس هذه الطريقة الا نادرًا ولا سيما في المدات الاخيرة وجلّ ما هناك انه اذا سمح بتجديد الرئيسة العامة بعد مجمع الثلاث سنين او الخمس سنين يكون ذلك باذن الاسقف المترأس على مجمع الراهبات بصفة قاصد الكرسي الرسولي ولا يسمح عادةً بتثبيت الرئيسة العامة بعد مرور الثلاث سنين او الست سنين من رياستها بدون الاجازة الرسولية التي لا تستحصل الا عند وقوع الانتخاب بالاكثرية او بشبه الاكثرية فهذه هي الطريقة التي توافق جميع المطاليب وتقطع جميع المحاذير فتصير مدة الرياسة العامة مطلقة اذا كانت الرئيسة العامـة حسنة التدبير وكانت الاخوات راضيات عنها والا فلهنّ عزلها عند الاقتضاء اه (من المجمع المذكور كتاب الـ ٥٤)

فعلى كل واحد من تابعيّ هاتين الخطتين ان يستفيد من الوجوه النافعـة الواردة في قانونه المتعلقة بهذا المعنى ويحترز من الاسباب المخلة والطرق المضلة

الفصل الخامس

في ما يطلب في المنتخب من الصفات العامة

اولاً

— الاصابة في الرأي —

اذا كانت الاصـابة في الرأي من الصفات المشروطة لقبول المبتدى شرط لزوم فكم يكون وجوبها في الرئيس شديدًا . وان شئت ان تعرف مـا هي الاصابة في الرأي فاعلم انها صفة بها يرى الانسان الاشياء ويحكم فيها كما هي عليه بلا زيادة ولا نقصان ويدرك ما يرد فيها من الادلة الموجبة والسالبة والوجوه القوية والضعيفة ولا يزيد او ينقص في اعتبار امرٍ فوق ما يجب له بل يكون نظره

فيهِ صحيحاً وقياسه سديدًا . وهي تصدر من استقامة الارادة وسعة العقل معاً لانه اذا كان الانسان يميز الاشياء ويقدرها تقديرًا نظريًا بالعقل فهو بالارادة يعزم ويعمد على الاجراء بالفعل فالاصابة بالرأي والعناد فيهِ ونقصه من الاضداد لان العنيد لا يسلم بالحقيقة ولا بالعدلِ وانِ ظهرا لهُ ظهورًا واضحاً والناقص الرأي ليس لهُ قدرة على معرفة الفرق بين الحقيقة والضلال والعدل والظلم مهما كانت ارادته صالحة .

وتختلف درجات ذوي الرأي الصائب في الصلاح وقد يغلطون ولكنهم لا يخرجون بغلطهم عن ان يكونوا صالحين . فاصابة الرأي هذه قابلة للترقي وان كان معظم قوتها طبيعياً لان توسيع المدارك العقلية المستمر واندفاع الارادة اندفاعات شديدة وقوية من شأنهما ان يرفعا درجاتها ويزيداها تحسيناً . وذو العناد لا يكون دائمًا عنيدًا كما ان ناقص الرأي لايكون دائمًا ضعيفاً فان للعنيد حالتين الاولى هي اتباع ما يخطر على باله من الخواطر لساعته والثانية الانقياد لهواه الطبيعي واما ناقص الراي فلا يعثر على الغالب الا في بعض الاحوال ومن بعض الوجوه فقط غير ان عثاره مقطوع فيهِ لا يمكن تلافيه لانه مسبب عن العقل لا عن القلب ويتكرر بتكرر احواله ووجوهه فتلازم عنه سقطات لا تتبدل ولا تتغير

وعليهِ فمن كان ناقص الرأي يتعذر اصلاحه ولا يعوّل عليهِ في امر من الامور فكأنه آلة كبيرة اذا ما اختل بعض دواليبها او نقص سن من اسنان دولاب منها وقف دورانها او تعسر مهما اشتدت عليها اللوالبُ والمحرّكات فانك تراه مستقيماً حكيماً في اموره جميعها الا في ما تعوّد السقوط فيهِ فانهُ اذا ما وصل الى تلك النقطة وقف دولابه رغماً عن تحريكك لولبه وتضعضعت آلته باختلال ادواتها وتحققت انت ان اجتهادك في اصلاحه من قبل العبث ولو كررت عليهِ الامر مئات من المرّات :

لقد اسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

فالرئيس الناقص الرأي هو اسوأُ الروساء لانهُ لا يرى الا بعين واحدة ولا

يسمع الا باذن واحدة ولا يدفع جماعته الا من جهة واحدة فيفضي به الامر على هذه المنوال الى ان يقودهم الى الهاوية آجلًا او عاجلًا

ثم ان من دلائل اصابة الرأي الا يقتحم الرجل في احكامه بلا روية بل ان يعرف كيف يرتاب وكيف يستشير ويعترف بتقصيره وعجزه وان يكون معتدلاً في امياله ثابتاً رزيناً يحافظ على نفسه في سكونها وسلامتها ولا يتعلق قلبه بصغار الامور ولا يعجب بنفسه وان يكون في احاديثه محترزًا كتوماً موجزًا يفتكر بما يتكلم ويتكلم بما يفتكر ويقوى على حفظ السر ولا يواخذ بما يأباه الذوق العام . وان يكون في اعماله حكيماً محتاطاً بفحص الامور ويزنها ويباحث فيها وينظر في اسبابها ويستدرك موانعها ويسطو على الحوادث وهو ساكن الجاش لا يقلقه شي من الاشياء . ومنها انه اذا فرط منه غلط يعترف به ويطلب الصفح عنه ولا يحسب ذلك عارًا عليه وانه يعرف ايضاً كيف يصفح عن الذنب ويعذر المذنب وكيف يصرف النظر عن كلمة يلحقه منها بعض الاهانة ويغضي على كثير من الاعمال المختلفة ومنها انه في وظيفته دقيق امين متهالك متزه يعرف حد واجباته ويبذل قصارى جهده في سبيل القيام بها ومنها انك تخاله في وجوده بين الاخوة كانه قائم في ظهراني اهله يساوي الجماعة في عيشتهم كانه فرد منهم ويبذل الخدمة لكل واحد منهم ويكون كله في الكل والكل فيه

ثانياً

الفضيلة الراسخة

من رام ان يقوم بالرياسة حق قيام ترتب عليه ان يكون متعمقاً في مباديها وان تكون تلك المبادي موعبة في ذهنه وان يكون لهُ مقدرة على ايعابها في ذهن غيره ولعمري ان الخليق بالرياسة ليس مَن أحسن المباحثة عن الفضائل بل من كتب الفضائل على صفحات قلبه وكان له في طرقها وطرائقها فطنة وذوق سليم فان اول سلطان يحوزه الانسان انما هو سلطانه على شهواته كما قال الرب لتابين

ان لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة اليها تنقاد اشواقك وهي تسود عليك ٠اه (تكوين ٤٠: ٠٧) ولا غرو ان من كان لهُ سلطان على نفسهِ كان حقيقاً بان يتسلط على غيره ومن لم يكن لهُ سلطان على نفسهِ لا قوة فيه لان مبدأ القوة فيه الضعف فيتحتم اذن على الرئيس ان يكون متعوداً على مقاومة هواه والتغلب عليه لانه لا قوة لمن لا يقوى على نفسه اولاً ولا ثبات لمن لا يثبت في مقاومة شهواته وقد قال القديس اغسطينوس : على الانسان ان يتمنى لنفسه ارادة مستقيمة قبل ان يتمنى لها السيادة والسلطان ٠اه (العد الـ ٥ و٦ من الكتاب الـ ١٣ في الثالوث)

فكم يجب على من كانت مهنته ان يقدس غيره ان يكون هو نفسه قديساً فان في الملح جوهر الملوحة وفي النار جوهر الحرارة وفي العسل جوهر الحلاوة والا فمن اين للملح ان يملح وللنار ان تسخّن وللعسل ان يحلّي

اما على الرسّام ان يتعلم من رسّام والموسيقي من موسيقي والفيلسوف من فيلسوف والقديس من قديس ؟ ان كل ما في المعلول من الكمال لهو في العلة بنوع اكمل فعليه لا يكفي ان يكون في الرئيس قداسة عمومية متوسطة بل يلزم ان تكون قداسته عظيمة سامية وان يكون مكتسباً نعماً كثيرة يقدر ان يشارك فيها غيره من غير ان تنقص فيه وان يكون راسخ القدم في الفضيلة حتى يقدر ان يعضد من سواه وهو لا يتزعزع وان يكون حارا في العبادة حتى يسخن القلوب وهو لا يفتر ٠ قال القديس بوناونتورا (في الستة الاجنحة ف ٢) ان الرئيس او الحبر يجب ان يكون مفعماً من روح التقوى حتى يستطيع ان يعمل كل اعمال الفضيلة من دون مساعدة أحد اذ يسهر على نفسهِ سهراً دائماً من غير افتقار الى من يرشده ويدبره او ينبهه وينهضه من سقوطهِ ٠اه

فهل يخفى بعد ذلك على احد ان الرئاسة كالبلور في النظّارة المعظمة تكبر مرئيّات الاجرام كأنها تقرب البعيد منها وتريك الهفوة ذنباً عظيماً وتجعل لاحقر الامر صدى ذا دوي هائل وجلبة عظيمة كيف لا والجمهور بأجمعه بمراقبة الرئيس وانتقاد اعماله وذلك ليس لاجل الاقتفاء بفضائلهِ ولو كثرت وعظمت بل للتمسك برذائله ولو كانت خفيفة نادرة وما ذلك الا لان في فضائل الرئيس

شبيهاً لرذائل المرؤوسين وفي رذائله تبرئة من رذائلهم

ولهذا لما تأمل القديس يوحنا الذهبي الفم في ان للانسان ثلاث حالات اما ان يكون بلا رئيس او يكون له رئيس ولا يطيعه او يكون رئيسه غير صالح ويطيعه فلم يتمالك ان يقول ان اسوأ هذه الحالات الثلاث انما هي الاخيرة لانه وان كانت حالة المرؤوس وهو بلا رئيس ذات خطر عظيم يتفق مع ذلك للانسان الذي لا يرى له من يوقظه من غفلته وينبهه في الخطر الالم به ان ينبه نفسه ويوقظها وكذلك من لا يطيع رئيسه فيؤمل من ان ينتصح بعد ذلك ويرجع الى الطاعة ويحفظ واجباته · لكن اذا كان الرئيس شريراً ومرؤوسه يطيعه فالله يعلم في اية هاوية عظيمة يستطان الواحد بعد الاخر · اه (هذا ما نقله موديست دي سانت امابل في كتابه الرئيس الكامل ك ١ ف الـ ٠١٦)

ثالثاً

المعارف التي تتطلبها الرئاسة

قال « فجاس » أحد كتبة اللاتين في مقالته في الحرب : ان الملك أشد اضطراراً من غيره الى تحصيل المعارف الكثيرة النافعة التي يمكن ان تستفيد تبعته من تعلمها · اه

وقال ساودرا ناكسادو في كتابه المسمى بسياسة الملك المسيحي ف الـ ٤ : ان الملك الذي يفتقر الى ان يتكلم عنه آخر لا يكون ملكاً بل تمثالاً · اه

وقال أيضاً الشهير هومر الشاعر لا ينبغي ان يعتبر في الملك جمال الوجه ولا مناسبة الاعضاء لانهُ يساوي النساء بذلك ولا يفضلهن فيه ولا ان نعتبر فيه فصاحة اللسان لان تلك ليست الا صناعة يجاريه بها الخطباء والمتفلسفون ولا الغنى لان التجار يحشدون منه ركاماً بل ينبغي ان يعتبر فضله وفضيلته وهو أن يكون له اعين ينظر بها الى ما يكون امامه وما يكون وراءه يعني انهُ يجب ان يعد من اهل الحكمة والعلم · فالحكمة والعلم يجعلان له الماضي والمستقبل حاضرين ليحسن بذلك سيرته وسيرة تبعته · اه

وقال احد العلماء الاقدمين : ان اهل العلم يرون ضعف ما يراه غيرهم

بالكمية والمسافة لان العلم والفطنة هما سراجا الحياة البشرية او هما فيها كالعينين في الانسان · اه

وقال البابا بيوس الثاني: ان العلوم في افراد العامة كالفضة وفي أُولي الحسب والنسب كالذهب وفي الملوك كالماس · اه

وقال كذلك القديس اغسطينوس: اعظم ما يمكن ان تحصل عليه الناس والممالك عادة من السعادة واليمن هو نتيجة عمل رجال صالحين ممتازين بالفضيلة الثابتة والمقدرة على حسن التدبير · اه (مدينة الله ك ٥ ف الـ ١٩)

وسبق افلاطون فقال : سعيدة هي المملكة التي يتولى امرتها الفلاسفة · اه

ولعمري ان الفلسفة المسيحية تنحصر بكلمتين العلم والفضيلة فالعلم يرشد الانسان الى ما ينبغي عمله والفضيلة تقويه عـلى العمل ولا يقوم احدهما بدون الاخر ·

فلنصغ بعد كل ذلك الى ما يقوله لنا الروح القدس في سفر تثنية الاشتراع (ف ١٧ : ١٨) ومتى جلس على عرش ملكه فليكتب لهُ نسخة من هذه التوراة في سفر من عند الكهنة اللاويين ولتكن عنده يقراء فيها كل ايام حياته لكي يتعلم كيف يتقي الرب الاله ويحفظ كلام هذه الشريعة كله وهذه الرسوم ويعمل بها لئلا يرتفع قلبه على اخوته ولئلا يميل عن الوصية يمنة او يسرة ولكي تطول ايامه على مملكته هو وبنوه فيما بين اسرائيل اه · فينتج من ذلك ان الشرط والسر في ما يجعل الملك صالحاً وعظيماً انما هو ان يقرأ الشريعة ويدرسها كل يوم وان يعجنها في عقله وقلبه لكي تكون رسماً ومثالاً لسيرته وتدبيره فعليه لما اراد الرب ان يرحم شعبه قال لهم : اني اعطيكم رعاة على وفق قلبي فيرعونكم بعلم وعقل اه (ارميا ٣ : ١٥) ولما اراد ان يقسو عليهم قال : اني اصب عليكم سخطي واجعلكم في ايدي اناس متوحشين (جهلة) صانعي مهالك اه حزقيال (٢١ : ٣١ ·) وجاء في ابن سيراخ (ف الـ ١٠) ان الملك الجاهل يبيد شعبه وجاء ايضاً في سفر الايام الثاني (ف الـ ١٠) وسيكون اسرائيل اياماً كثيرة بلا اله حق وبلا كاهن ومعلم وبلا شريعة اه وهكذا تهدد الرب شعبه قائلاً بلسان عاموص (ف ٨) بان يبيده بالجوع ولكنهُ ليس

الجوع الى الخبز ولا العطش الى الماء بل الى استماع كلمة الرب

فلنغير شيئاً من هذا التعبير ولنوجه الى روساء الجماعات الرهبانية ما يقولهُ تعالى للملك والشعب مما تقدم ذكره ولعمري ان الرهبان المروؤسين الذين لا يتجردون من الارادة الذاتية فقط بل من الفطنة ايضاً وذلك لكي يسلموا قيادة انفسهم تسليماً مطلقاً لروسائهم فاي خير يمكنهم ان يتمنوا افضل من انقيادهم لرئيس حكيم متعمق في المعارف الروحية التي يقدر ان يفيضها عليهم كما تفيض الشمس اشعتها على القمر وسائر السيّارات لانهُ من المقرر بالطبع ان الاعلى يوثر في الادنى ويرشده الى سواء السبيل وما يضر بمصلحة هوءلاء المروؤسين انما هو ابتلاوهم برئيس اخرق غافل جاهل طرق الله تعالى يضطرون لان يتقدموا له الاكرام والخضوع وهو عاجز عن ان يعوضهم عن ذلك بشيء من العواطف الروحية المؤدية الى الخلاص او من تعاليم الكتاب الالهية وهذا لا يكون في الجماعات الرهبانية الا عقاباً عن ايثارها الجاهل على الحكيم فصح فيها والحالة هذه مثل سليمان الحكيم القائل: مثل من يكرم الجاهل كمثل من يلقي صرة اللآلى في رجمة · اه (ف٢٦) فانهُ من المعلوم انمن يذكر لفظة رئيس يذكر رجل العلم والمعارف الروحية بل اخا الفضيلة وحليف القداسة لانه اذا كانت العلوم غير المقترنة بالقداسة تجعل الانسان متكبراً كانت القداسة غير المقرونة بالعلوم المكتسبة من المطالعة والتأمل عبثاً لا فائدة فيها · ولا شك بان ما قالهُ المجمع التريدنتيني عن الاسقف يقال أيضاً عن الرئيس بكل صواب · فانه قال نقلاً عن مرسوم البابا اسكندر الثالث : ان الاسقف يجب ان يكون عالماً بما تقتضيه مهنته · اه أفليس الرئيس على ما يقوله القديس بولس الرسول سفير السيد المسيح الذي بعثه الله تعالى ليظهر للناس أوامره ويبين لهم مشيئاته ويقضي مصالح مروؤسيه الابدية ؟ وما السفير الا مبلغ افكار ملكه فعليه إذن ان يكون مطلعاً على اسرار هذه الافكار ودقائقها و إلا يخشى ان يقع منه عند التبليغ ما يخالفها أو ان يبدي افكاراً لهُ بدلاً منها ·

فأخص هذه المعارف الواجب على الرئيس علمها هو الحالة الرهبانية وجوهر النذور وكمالها ورسوم الرهبانية مثل قوانينها وفرائضها وعوائدها ثم واجبات

كل وظيفة فيها ولاسيما واجبات الوظيفة الخاصة بهِ ثم عليه ان يعرف حدود سلطانه حق المعرفة ويفرق بين الامور التي تتعلق بهِ وحده وتلك التي تتعلق بمشورة مجمع المدبرين وعليه ايضاً ان يكون عالماً جداً بحالة القلب البشري والطباع المتباينة وامراض النفس المختلفة وعلاجاتها وماهية الفضائل وسبل اكتسابها واذا رأى انهُ صار خبيراً محنكاً في كل ما تقدم ذكره فليحذر من ان ينسيه ايَّاه الزمان وكثرة الاشغال وينتهز الفرص جميعها لمراجعة درس الحياة الرهبانية النسكية بموجب الطريقة الخاصة برهبانيتهِ وينبغي لهُ في ذلك ان يبحث عن اسرار السيد المسيح مرسله وعن مقاصده وان يميز بعضها من بعض ويتبحر في معرفتها فيستنير منها بالاشعة الالهية ويتخذ منها مسحة سماويَّة تجعله سراجاً مضيئاً بل كوكباً درياً في فلك جماعته ويمتص منها العصير النقي الصافي والسائغ الشافي الذي بهِ يعمل عسله كما يقول القديس ايرونيموس ويجمع منها كنوزه الثمينة التي يعرض ما يكون حفظ فيها من التحف القديمة والحديثة كما يقول القديس مبارك في قوانينهِ ومنها يولف مكتبة روحية في قلبه على ما قال القديس ايرونيموس ومنها يملا روحه من كل ما هو نقي وجوهري لكي يقدم اللبن للاطفال في وقته عند الحاجة اليه بحسب ما عني بهِ ملاخيا اذ قال : ان شفتي الكاهن تحفظان العلم ومن فيه تطلب الشريعة اذ هو ملاك رب الجنود · (ف ٢ : ٧)

ان هذه العلوم اللازمة الضرورية للرئيس من الرهبان هي عين العلوم المطلوبة من الاسقف لكنها تختلف في الرئيس تبعاً لدرجات الرئاسة · فالدرجة الاولى في الرياسات الرهبانية أي الرئاسة العامة تتطلب من العلوم ارجحها واسماها ليقدر بها الرئيس العام على حل المشاكل المعضلة المتعلقة بنظام الرهبانية ولاسيما بالحياة الرهبانية العامة والدرجة الثانية هي رياسة المعاملة التي يكتفي الرئيس فيها بالعلوم المتوسطة التي بها يقدر ان يميز بين المشاكل فيحل بعضها ويحول البعض الاخر الى الديوان الاعلى والدرجة الثالثة هي رئاسة الاديرة وجماهيرها وهذه تقتضي فطنة بها يتبين الرئيس مواضع النظر والتأمل في فصل بعض الامور ووجوب طلب المشورة فيها · والحاصل انهُ من البيّن ان الدير الذي يكون جمهوره غفيراً

او مؤلفاً من الرهبان الشبان يجب ان يكون الرئيس فيه اوفر فطنة وارجح علماً من غيره ليتمكن من تدبير شؤونه بالحكمة والصواب ·

رابعاً

السن القانونية

قال ايوب البار انما الحكمة عند الاشيب والفطنة في طول الايام اه (١٢: ١٢) والحكيم زاد على ذلك اذ قال · الشيبة اكليل فخر وهي في طريق البر اه (امثال ١٦: ٣١) ومعنى البر في الاية العدل فعليه ترى ان الرب لما اراد ان يعاقب اورشليم لم يجد الى ذلك سبيلاً اقرب من نزع السلطان من يد الشيوخ كما جاء في اشعيا (٣: ٤) اني اجعل الصبيان روساءهم اه ويصح بهذه ما تنبأ به سليمان فقال: ويل لك ايتها الارض اذا كان ملكك صبياً (جامعة ١٠: ١٦) والسيد المسيح نفسه كان ابن ثلاثين سنة لما شرع يجري اعمال حياته المشتهرة ويوحنا المعمدان القاصد السابق لم يفتتح رسالته الا وهو في هذه السن من عمره والقديس ايرونيموس يرى ان السيد المسيح لم يفضل بطرس الرسول على يوحنا ولم يقلده الرياسة الا لانه كان متقدماً في العمر ومحنكاً بالتجارب

ويوكد ابن رشد تاكيداً ان المناصب هي من خصوصيات الشيوخ لان معارفهم اوسع وفضيلتهم امتن ويحظر افلاطون في كتابه (حكم المشيخة) على الشبان تولي التدبير لانه لا يرى فيهم ما يجب له من التمرن والتدرب بل يرى عكس ذلك من سرعة الاضطراب والانقياد للاهواء النفسانية وقال سيناك الفيلسوف: ان ظل الشيخ اوفر حرمة ووقاراً من سيف الغلام وفصاحته اه ويشير العلامة شيشرون الى ثلاثة اشياء تفضي الى دمار اقوى الممالك وهي الانانية (حب الذات) والعداوة الصماء وولاية الغلمان والقديس اغسطينوس رأى ان المملكة الرومانية كانت نامية زاهرة حينما كان يتولاها الشيوخ ولكن منذ انقلبت الولاية من ايديهم الى ايدي الشبان مالت المملكة الى السقوط ثم انتهى امرها الى الخراب التام

ويعتقد افلاطون وارسطوط وفيلوستراد ان الفطنة لا تكمل في الانسان كمالاً تاماً الا عندما يبلغ من عمره سن الخمسين فصاعداً الى سن الستين

ولئن كان للفطنة علاقة كبرى في كمال العمر فهي مع ذلك تتعلق بالرأي السديد الصائب لان الشيوخ لا تعرف ببياض الشعر كما تعرف بالحكمة فقد يمكن ان يعيش المرء كثيراً في سنين قليلة وان يعيش قليلاً في سنين كثيرة فالاول بالنظر الى ما يكتسب من الفطنة والادب في عمر قليل والثاني هو الجاهل الخامل الذي لم يحصل في العمر الطويل شيئاً من فن معرفة البشر والدربة فيه أفلا ترى بعض الاحيان شباناً لم يكادوا يتجاوزون سن البلوغ يتسامون على شيوخ قد تجاوزوا السبعين سنة بسرعة الخاطر والذكاء في ما يرون والعزم والحزم في ما يقصدون عمله ؟

فبناء على ما تقدم اصدر المجمع التريدنتيني قراراً فيه يمنع الراهبات عن ان ينتخبن لهن رئيسة الا من اللواتي لا تقل سنهن عن الاربعين سنة ويكن عائشات في الرهبانية عيشة رضية ثماني سنوات متتابعات واذا لم يجدن بين راهبات ديرهن من حوين الصفات المذكورة فلهن ان ينتخبن رئيسة عليهن راهبة من راهبات دير آخر بشرط ان يكون ذلك الدير من تلك الرهبانية نفسها ولكن اذا رأى رئيس مجمعهن ان ذلك لا يوافق مصلحتهن فيأذن لهن اذ ذاك ان ينتخبن راهبة من ديرهن بشرط ان لا تقل سنها عن الثلاثين سنة وان تكون قضت في الرهبانية خمس سنوات على الاقل ولا يتم ذلك الا برضاء الاسقف او بعض الروساء

اما روساء الرهبان فلا ينتخب احد منهم قبل دخوله في السنة الخامسة والعشرين من عمره ولا ينتخب احد رئيساً عاماً قبل سن الثلاثين سنة عملاً باحكام الحق القانوني وقانون بعض الرهبانيات يمنع انتخاب رئيس لم تبلغ سنه الثلاثين سنة

ولنا كلمة نقولها بعد قبل الختام في عافية المنتخب وقواه الطبيعية وهي اذا كان المنتخب للرياسة مريضاً عاجزاً لا يقدر على حفظ قوانينه ولا على الحضور لقيام الفروض بالنظر الى مرض يعاوده غالب الاحيان او يوجب ان يعيش عيشة خصوصية وقاية لصحة جسمه او يدعو الى التقذر منه فالحق القانوني يوجب ابطال الانتخاب في هذه الحالات الثلاث والكلام هنا في الامراض العامة لا في تشويش

او انحراف عارض يزول باقرب المدات

غير انه اذا اصاب الرئيس مرض بعد الانتخاب يقعده عن القيام بواجبات رئاسته فيشار عليه حينئذٍ بان يتنزل عن كرسي الرياسة وان أبى فلاكابر الروساء ان ينزلوه او ان يقيموا لهُ مساعداً ريثما يكون شفي من مرضه هذا شفاء تاماً·

الفصل السادس

في واجبات الرئيس عند حلول الانتخاب

العدد ١

في انه يجب على الرئيس ان يكون مستعداً لتخلية الرياسة وان يكون سروره عند ذلك أشد منه عند قبولها

اذا ما نظر الرئيس ان مدة رياسته قد ناهزت النهاية وأخذ اذ ذاك يجتهد بتدبير الوسائل الممكنة في ان يجعل تجديد انتخابه لازماً ضرورياً بحجة ان على الدير مبالغ من الديون مثلًا او باندرافه إلى القيام بأبنية عظيمة لم تنتهِ بعد او باكتساب رضاء ذوي الفضل في الرهبانية واستمالتها الى نفسهِ أو بحصول ثقة الجماعة فيه ومنع غيره من ذلك او بالحاقه بغيره بعض الاذية او اذا شرع بعد انحطاطه عن الرياسة يتدخل في سياسة الرهبانية او في ما يعرقل أُمورها من دسائس سرية كأن يندد ويقدح في اعمال من خلفه في الرياسة وينتقده فيها مقابلًا الحاضر بالماضي دافعاً البعض الى التشكي والتذمر متخذاً لنفسهِ حزباً يتمسك بهِ واذا أبى ان يستأذن الرئيس خليفته في شيء أو ان يكشف لهُ افكاره واعتقد انه من المغضوب عليهم وجاهر بذلك مسلماً نفسه للكآبة مبتعداً عن مخالطة الاخوة منفرداً عنهم مدات طويلة أشار بذلك جميعه إلى ان الفضائل التي كان يزدهي ويفتخر بها لم تكن فضائل حقيقية راهنة وان الغرر والضرر لم يقعا في حطهِ عن الرياسة بل بانتخابه لها · قالت القديسة شنتال : ان الرئيسات اذا كن من ذوات التنسك والتواضع كما ينبغي ان تكون الراهبات وهن قائمات في الاديرة المختصة بالله تعالى حيث يمارس النسك والتواضع ممارسة ·

خصوصية لا يجدن سبباً للتشكي عند عزلهن من الرياسة ولكن إذا شعرن وقتئذٍ بالكدر أو بالغم فيظهر جلياً منه رغبتهن في الرياسة ومنها انهن غير اهل لها وانهن غير صالحات لترقية الانفس القديسة إلى درجة الكمال السامية . فالرئيس الذي يشق عليه تبديل إحدى الرئيسات وهو يراها قديسة ويحسب نيَّاتها صالحة يجب ان يجبر نفسه على النظر في مداواة ذلك الشر العظيم واني التمس منه ذلك مستحلفاً اياه باسم سيدنا يسوع المسيح جل وعلا . لان تلك الشفقة ليست إلا خديعة شيطانية يجب ان ينجو منهـا بأية وسيلة كانت والا فيكون جار على الانفس المسلمة لعنايته جوراً عظيماً

فعلى الرئيس إذن ان يكون مستعداً أبداً لتخلية الرياسة اطاعـة لاول اشارة ترد عليه في ذلك فاننـا نرى القديس فرنسيس الاسيزي والقديس دومنيكوس والقديس اغناطيوس واكثر القديسين من موسسي الرهبانيَّات وروسائها راغبين في ترك الرياسة وأية رغبة وذلك لاعتقادهم انهم ليسوا جديرين بها ولعلمهم ان خطر الخلاص في حال الرياسة هو اعظم منه في حال الطاعة . ومن المعلوم ان الرئيس كلما كان قديساً ازدادت طاعته في ترك الرياسة لا بطيبة خاطر فقط بل بفرح وسرور لانه يعتبر نفسه احقر الاخوة اقتـداء بالرسول ويعتقد صحة هذا المبدأ وهو انه ليس احد اهلاً للرياسة الا اعتقد انه غير اهل لها . اه وان الاب « لينيز » يعتبر الانتخاب من الله اذا ما وجدت فيهِ هـذه الدلائل الثلاثة وهي : ١ ألا يكون المنتخَب سعى في انتخابهِ لا بذاته ولا بواسطة غيره بل يكون قاوم ذلك بكل جهده و٢ ان يكون الانتخاب جرى بمقتضى القانون بالسكينة والسلام وارشاد العقل السليم حتى يحسب المنتخِبون منقادين بوحي من الله تعالى و٣ ان لا يشعر الرئيس بعـد انتخابه بارتياح إلى الرياسة بل ان يستولي عليهِ خجل شديد لا يتمنى معه إلاَ العودة الى حالته السابقة حالة الانقياد والطاعة .

ولعمري اذا كان الملاك يشعر بثقل مهمته في سياسة نفس واحـدة فأنى للانسان ان يتمنى سياسة نفوس كثيرة ؟ واذا كان الرئيس يطلب الرياسة لنفسه أو يأبى تركها رغماً عن القانون فمن أين لهُ النعمة للقيام باعبـائها ؟ فالبعض وهم

قليلون يشعرون بالحزن والغم عند تخلية الرياسة لان قلب الانسان مفطور على الميل اليها أو لتعود النفس الامرة والتحكم إذ

لكل أمرء من دهره ما تعودا

فمن امتاز عن الجماعة بارتقائهِ إلى شرف المناصب لا يرضى بسهولة وطيبة نفس بان يعود الى ما كان عليه ويحصى في عداد جماهير المرؤوسين لانهُ لا يرى انّ في الراحة المرافقة الحياة المنفردة تعويضاً كافياً عن الشرف والمجد اللازمين عن السيادة هذه ولا عجب فيما اذا كان بعض الروساء يتظاهرون بالتواضع ويقولون انهم غير اهل لمناصبهم وان ثقل هذه المناصب يفوق قواهم او انهم يفضلون حمل الصليب على شرف الرفعة ويقولون عند عزلهم عن الرياسة علانيةً : الحمد لله لقد عتقنا من رقّ العبوديّة وصار لنا الان فرصة للتنفس والاستراحة · اه لانهم لا يفعلون ذلك عن تواضع واقتناع بل هو تظاهر منهم بما ليس فيهم لانهم يرون وجوباً للتردّي بشعار القديسين فيظهرون الفرح ويبطنون الحزن لجراحٍ لا تندمل بمرور ايام طويلة واما ذاك الفرح الناتج عن التصنع فيزول بسرعة وينقلب الى حزن شديد ولهجة التأمر لا تعتم ان تتغير فينوب عنها البؤس والاغتمام فتصبح عيشة الرئيس المعزول غير مرضية ولا تُرى موافقة بينها وبين الطبع البشري فيعمل حينئذٍ الرئيس بخلاف ما كان يعلمه من وجوب التحمل والصبر وقد يتصل لا سمح الله الى ان يهدم بمثلهِ هذا ما كان بناه بمثلهِ السابق من مآثر الفضيلة في قلوب اخوانه

العدد ٢

في انه على الرئيس ان يذكر اذا مست الحاجة آباء المجمع بما عليهم من شديد الالتزام ان ينتخبوا من هو اجدر من غيره

لا شك ان الواجب الاول والاهم الذي تطلبه الرهبانية ويحكم به الضمير على اصحاب الاصوات في المجمع العام انما هو الا يوجهوا ابصارهم الى من كان متطلباً الوظيفة او كان لهُ الحزب الاكبر بين الرهبان او الى من كان لهُ وسائل تربطه به

مثل علاقة صداقة او قرابة دموية او غير ذلك بل الى كل من كان اجدر واقدر على القيام بها من غيره والا فيخطئون بسلوكهم على خلاف ما يوافق خير الرهبانية وخير المنتخب الذي يعرضونه لاخطار كان في غنى عنها

ان علماء اللاهوت واولهم القديس توما عندما يتكلمون في واجبات رعاة الكنيسة يحكمون بانه على الراعي لا ان يكون كفوءًا لوظيفته فقط بل اشد كفاءة لها من غيره · فان السيد المسيح قال لبطرس عندما اراد ان ينتخبه للرياسة: يابطرس اتحبني اكثر من هولاء اه فهو يعلمنا بذلك انه لا يريد ان يسلم رعاية قطيعه الا الى من كان يحبه محبة تفوق محبة الاخرين ومن البين طبعاً ان رفعة المقام توجب الافضلية فلا بد من ان يكون الراعي مثلًا اعقل من غنم رعيته والقائد امهر من افراد عسكره والملك اقدر من التبعة ··· قال القديس امبروسيوس: كيف اثق ان الله وهبك نعمة بها تتولى امر قيادتي وسيرتك اقل كمالاً من سيرتي اه

قال ساودورا ڤاكساردو : قد اعتادت الشعوب منذ القديم الا تولي عليها الا من فاق غيره بالفضيلة والعدالة لاعتقادهم ان الشعب يعتبر الملك الذي يكون على هذه الصفة اعتباراً شديداً وان الله يرضى عنه ويوفق مساعيه في سياسة رعيته واخبر المؤرخ كزينوف بان الملك سيروس ما كان يرى من يوجد اهلًا للحكم الا من كان افضل من الجميع اه

فعليَّ اذن عندما انتدب الى تعيين احد في وظيفة ان انتخب من كان الاجدر بين المرشحين لها ومن الثابت ان ما يوجب المحافظة على الوديعة امران نفاستها وخوف تلفها وفقدانها والحال انه لا شيء اثمن وادعى الى الحرص من خلاص النفس فعلينا ولا محيص في المحافظة على هذه الوديعة ان لا نستودعها الا من كان اعظم امانة ولا لسواه لانهُ لو مرض ملك من الملوك او اودت العاصفة باحدى السفن الى الغرق او احتشدت العساكر لمبارزة العدو في ميدان الحرب أ فلا يختار حينئذٍ الطبيب العلّامة النطاسي لمداواةِ الملك والربان الامهر لتخليص تلك السفينة والقائد الابرع لتدبير الجيوش في معامع القتال ؟ او ليس من المقرر ان راعي الانفس هو في مهمته ملك وربّان وقائد ؟ فلماذا اذن نختار لهذه المهمة من كان غيره اجدر بها منه ؟ أ فلا ترى اننا بذلك نعرضه لاشد المؤاخذة لا سيما اذا ماتت

تلك الانفس او غرقت سفنها او اندحرت عساكرها ؟

فالحاصل مما تقدم ١ً ان من ينتخب لرعاية الكنيسة من كان اقل جدارةً من غيره يخطئ خطية مميتةً (مجمع تريد . ج ٢٤ ف١) و ٢ً ان من ينتخب من لم يبلغ بعد السن القانونية او من هو ذو سيرة مشبوهة او هو خالٍ من العلم والفطنة الضروريين فيخطئ خطيةً يوازي عظمها عظم الاضرار الناجمة عن عجز ذلك المنتخب وعيّه وهذا واضح من آيات كثيرة في السنن الكنسية واوامر الاحبار الرومانيين

ومن البين انهُ ما قيل في الاسقف راعي الكنيسة يقال بالحصر او بالقياس في رئيس الجماعات الرهبانية

غ ان افضلية الجدارة لا تكون على ما علّم القديس توما في الافضل بذاته بل في الافضل والانسب بالنظر الى الوظيفة فان حفظ القوانين مثلًا والمحبة والبرارة والفضيلة لمناقب عظيمة في الراهب المرؤوس تساعده على خلاص نفسه الكبرى لكن الفطنة والحزم والمقدرة والعلم والمكانة مناقب مشروطة في الرئيس تساعده على فعل الخير العامّ

فعليهِ كان تفضيل هذه الخصال على الاولى معتبرًا ولا يعد محاباةً بل انما هو ضرب من الحكمة والفطنة الواجبة في كل فردٍ من افراد المنتخبين

ويسوغ في بعض الظروف تفضيل الاقل جدارةً بالنظر الى جهتي العام والمهارة على غيره وذلك ١ً اذا كان الاجدر واعظًا او معلمًا مأمورًا بعمل انفع للخير العام و٢ً اذا كان بذلك توقيف بعض المنتخبين عن انتخاب من ليس باهلٍ و٣ً اذا كان التفاوت بالجدارةِ ضعيفًا لا يعتدّ بهِ و٤ً اذا دعا الى ذلك داعٍ صوابيٌّ مثل خير الكنيسة العام او مصلحة الجماعة لانهُ في مثل هذه الظروف ينبغي دائمًا ان نراعي اوفر الخيرين والاعم من المصلحتينِ

العدد ٣

على الرئيس ان يحذر من الدسيسة والتحزب

ان القوانين في بعض الرهبانيات تحرّم على الراهب كل عمل بهِ يستميل

الاصوات لانتخابه او انتخاب شخص آخر مخصوصٍ سواء كان ذلك بتوسط ثالث او بدونه هذا ولو كانت تلك القوانين تسوّغ للرهبان اصحاب الاصوات ان يستفسر بعضهم من بعضٍ عن صفات المرشحين للانتخــاب وللمسؤول ان يجيب السائل بما يعلمه عن امر المسؤول عنه من غير ترغيب في انتخابِ شخصٍ مخصوصٍ او عن انتخابه

ثم اعلم انهُ يجوز على الاطلاق بقطع النظر عمّا في بعض القوانين من الاحكام المخصوصة ان يسأل كل من اصحاب الاصوات من شآء عن صــفات المرشح للانتخاب ويسوغ للمسؤول ان يجيب بما يعلمه من مناقب المرشح او شوائبه لترغيب السائل او لتوقيفه عنه فيباح للمنتخبين مثل هذه المفاوضات والاستفسارات التي لا يستطيعون بدونها ان يعرفوا صفات المنتخب حق معرفةٍ لان الوقوف على ذلك ضروري قبل الاقدام على الانتخاب

قال القديس يوحنا الذهبي فم : اذا اراد احد ان يشتري لهُ عبــدًا يدعو الطبيب لمعاينته ويسأل عنه الجيران ثم يمتحنه هو بنفسه ويطلب منه بعد ذلك كفيلًا وكل ذلك قبل بتّ عقد البيع فكيف اذن يسوغ لمن كان لهُ حق الانتخاب ان ينتخب حبرًا للكنيسة اول من يخطر لهُ على بالٍ من دون نظرٍ ولا رويّة في صفاته ؟ أو لا يعلم انهُ بذلك يسبب لنفسه مؤاخذة كبرى على كل الشرور التي تصدر عن هذا الراعي ؟ اه

وقال القديس غريغوريوس : يجب ان يجري الفحص عن صفاتِ المنتخِب قبل الانتخاب وان يكون بتدقيقٍ وتنقيب ولا سيما في الانتخابات الى درجة سامية ولا يبقى من يسأل عن الرئيس بعد ذلك او يحكم عليــه سوى الله وحده اه

على انه يجب على من يسأل عن صفات المرشح او من يقصد ان يبينها لمن يعنيه ان يعرفها ١ً الا يكون رجل حزب يسعى الى بلوغ مأربه و٢ً الا تكون مواعدةٌ بينه وبين المبحوث عنه و٣ً الا يدعو بعد السؤال والجواب عن صفات المرشحين اصحاب الاصوات الى الاتفاق مجاهرةً على انتخاب شخص بعينه لانه اذا ساغ البحث والتنقيب فلا يسوغ شيء من التحزب على الاطلاق ولا من

المعاهدةِ في امرِ انتخاب شخصٍ مخصوصٍ . (١)

وجاءَ في المنتخبات (انا لكتا رأس ٤٥) ان رئيسة الراهبات العامة يجب ان تنتخب في المجمع العام والمجمع التريدنتيني يشير بذلك بنوعٍ جليٍّ اذ يحرّم قبول اصوات الغائباب وعليهِ فلا يسمح بالاقتراع بالكتابة الاّ لداعٍ غير عاديّ بشرط استشارة المجمع المقدس فلا يسوغ بأولى حجة تثبيت الرئيسة العامة في وظيفتها من دون التئام مجمع عام ومن المجحف بحقوق ذوات الاصوات ان يقدم لهنّ لائحة مكتوب فيها اسماء من يجب انتخابهنّ لوظيفة الرياسة فتقديم مثل هذه اللائحة إذن محرَّم ولاسقف الابرشية التي يلتئم فيها المجمع العام ان يترأس المجمع بصفة نائبٍ عن الكرسي الرسولي اه

وقد جاء في التأليف نفسه (رأس ٥٤) انهُ في بعض الرهبانيات التي لا يعمل الرهبان فيها عملًا سوى التأمل وتدبير الحياة الباطنة يُنتخب الرئيس العام من آباء مجمع ديره الذي هو الدير العام او المعتبر بمنزلة امٍ بالنظر الى سائر الاديرة وسبب ذلك هو ان سلطان الرئيس العام في هذه الرهبانيات محصور في امور قليلةٍ اما الامر في سائر الرهبانيات التي يعمل الرهبان فيها اعمالاً عاديّة فيجري بعكس ذلك وهذا هو السبب الذي من اجله يأمر المجمع المقدس الا يحصل انتخاب الرئيس العام الا في المجمع العام ولما كان لا يجوز ان يكون سلطان الرئيس العام مطلقاً بدون تغيير حذرًا من ان يميل بهِ هوى النفس الى الجور والتشفي لزم ان تحال جميع الاعمال الهامة الى مجمع المدبرين اه

وعلى السلف ان يقدّم للخلف بعد انتخابه الطاعة والاحترام البنويين ثم يعود

---

(١) ان هذا واضح في الشرع القانوني وفي الرسوم الرهبانية لان كليهما يمنع ويحرّم الاطلاع على صوتٍ وان واحدًا من اصوات القرعة السرية واذا لم يراعَ ذلك بطلت القرعة وقد جاءَ في قوانين رهبانيتنا اللبنانية ما نصه : معدوم الصوتين من رشى بتوسلٍ او بمالٍ او بتهديدٍ او اقنع باي نوع كان الرهبان اصحاب الاصوات كي ينتخبوه او ينتخبوا آخر معيناً باسمه اه (ق ٤ ب ٦ عدد ٢)

(المترجم)

الى نفسه ويتصفح القوانين وهو ممتثل امام الحضرة الالهية يبحث عمَّا بدا منه من الامور التي من شأنها ان تبعث الى التراخي في حفظ النظام وعن بذله المساعدة لكل فردٍ من افراد الرهبانية في سعيه الى بلوغ الكمال المتوجب عليهِ او عن تقاعده عن ذلك وليسأل نفسه عمَّا اذا كان في مدة رياسته اكثر منه قبلها تقشفاً واتضاعاً واتحاداً بالله ومحبةً نحو الاخوة وتعلقاً بالفضيلة وتمسكاً بالطاعة

العدد ٤

نصائح القديسة شانتال المتعلقة بحسن الصلة بين المنتخبات للرياسة حديثاً والمعزولات عنها (١)

تفرض القوانين على الرئيسة المعينة ان تحترم سالفاتها في الرياسة ايةً كنَّ احتراماً باطناً قلبياً وظاهراً علنياً امام جميع الاخوات وان تطلب رأيهنَّ ومشورتهنَّ وتعتمد عليهنَّ بقدر الامكان في كل ما يعرض لها · ويجب عليها ايضاً ان تحترم القديمات الاوليات اللواتي اسسنَ الاخوية وحملنَ ثقلها على عاتقهنَّ وبذلنَ اهم العناية في سبيل قيامها ونجاحها فلا يليق بها ان تعاملهنَّ بشيء من القسوة والاذلال ولا سيما في حضور سائر الراهبات كما تعامل غيرهنَّ في بعض الظروف لترويض اطباعهنَّ وتعويدهنَّ احترام السلطة هذا اذا لم يفعلنَ ما يوجب لومهنَّ ومما يترتب عليها ايضاً ان تبذل قصارى الجهد في المحافظة على خطة السياسة التي سلكتها سالفتها وان تتحاشى البحث عن خطاها وصوابها فيها ولو حصل لذلك مناسبة في بعض الظروف بل عليها ان تتحدّث في كل فرصة عن حكمتها وتقواها لان في تفضيلها نفسها على غيرها دليلًا على ادعائها ويعد ذلك تهوراً منها · وحبها لمدح نفسها وتصرفها تصرفاً يلزم عنهُ تعريف الناس انها افضل من سابقاتها دليل على البغضاء وعليهِ فمن كانت نفسها متضعة وضميرها سليماً تفرغ كنانة الجهد في تلافي ما ينتقص محبتها للرئيسة السالفة وتعتني لاجل هذه الغاية كل الاعتناء باخفاء نقائصها ولا تصلحها الا في السر بكل فطنة حتى لا يشعر احد بذلك

---

(١) ان كل ما يقال في هذا الفصل للراهبات يقال للرهبان لان الشواعر البشرية هي هي في الرجال كما في النساء

وينبغي لنا اخيراً ان نتذكر ايضاً القاعدة في قوانيننا وهي : ألا نعامل احداً بما لا نريد ان يعاملنا هو بهِ اه · وعليها ايضاً الا تُظهر شيئاً من الحسد والنفور اذا ما شاهدت الاخوات يحترمن سالفتها ويكرمنها · واذا ما طلبن مقابلتها سرًّا فعليها ان تؤذن لهنَّ بذلك بكل طيبة نفسٍ لئلا ترتاب الرئيسة السالفة ويرتبنَ هنَّ في نقصان الثقة بهنَّ بل عليها اذا ما شاهدت بعض الراهبات يُقللن من اكرام سالفتها ان تردعهنَّ عن ذلك بالتوبيخ والتهديد ويظهر لي انهُ لا شيءَ يغيظ الله مثل نكران الجميل ونسيان الخيرات والبركات التي حزناها بدعاء روسائنا السالفين واتعابهم

اما الرئيسة السابقة فيجب عليها ان تكون قدوةً صالحة في الفضائل لتظهر انها تعلمت حتى عملت بما كانت تعلّمه وتأمر غيرها بهِ من الطاعة والخضوع للروساء ولتعلم ان القانون لا يخفض من مقامها الاَّ لكي يريها علو درجة التواضع الخطير اذا عرفت كيف تتواضع عن رضىً وطيبة خاطر بدون تكلّف ولا مقاومة حتى تكون قادرةً على ان تعامل جميع الاخوات بالحرّية التامة وتعامل كذلك الام الرئيسة بشرط ان تضيف الى ذلك الاحترام الواجب وتكون حقيقة بهذه قدوةً لهنَّ في الفضائل وافضل عمل تعمله هو ان تفرغ عقلها وقلبها من حب التدخل تاركة الامور لمن تتولاها راغبة عن معرفة تدابير الرياسة وسياستها الاَّ بقدر ما تريد الرئيسة المعيَّنة ان تبينه لها وتفاوضها بهِ وليس لها ان تتعقب رئيستها بوجه من الوجوه ولا تندّد بها في اجراءآتها كيفما كانت حالها لكن اذا رأت الرئيسة في افتقار الى نصيحةٍ او تنبيه فلتبدي لها ذلك بمحبة ووداعة ولتحذر من ان تستميل اليها الاخوات الحديثات بل فلتشير اليهنَّ ان يذهبنَ الى امهنَّ الرئيسة الاَّ اذا ما أمرتهنَّ الرئيسة نفسها بان يذهبنَ اليها لاجل خيرهنَّ الروحي ولتحذر حذراً شديداً ان تضيّع الزمان الذي اعطاها اياه الله لخير نفسها وكمالها الخاص وعليه فاذا سارت سيرةً توافق سيرة الرئيسة المعيَّنة قائمة بما توجبه عليها الالفة والمحبة من الاكرام والاحترام كما يليق ببنات مريم البتول وابينا الطوباوي افاض الله البركات عليها وعلى الجماعة كلها وانتفعت الاخوات من مثلها هذا المقدس ونمينَ في الفضيلة نموًّا سريعاً اه (تحاريرها السرية)

وتحضّ هذه القديسة في بعض اجوبتها المتعلقة بالرسوم الرهبانية جميع الاخوات على اكرام الرئيسة المعزولة فتقول : ان الاخوات مجبرات على اكرامها واجلالها واظهار الامتنان لها من اجل ما قاسته من الاتعاب في خدمتهنّ وليحتذرنَ من التنديد بها في سياستها الماضية بوجه العموم والخصوص كما انه لا ينبغي ولا يليق ان يقابلنَ بين سياستها وسياسة الرئيسة المعيَّنة مظهرات بذلك بعض التشكي او الدمدمة بالنظر الى السياسة الحاصلة لانه من اخص واجبات الراهبات ان يقدّمن الاكرام والطاعة والمحبة القلبية للرئيسة التي قيَّضتها العناية الالهية لهنَّ في تلك الحال وان يثقنَ بها كل الثقة

وانني ارغب كل الرغبة في ان تسكن الرئيسة السابقة في الدير الذي ترأست فيهِ لكي تعلّم بمثلها ما كانت تعلمه بارشاداتها من حب الخضوع والطاعة الكاملة ولا غروَ ان في ذلك فائدة كبرى لسائر الراهبات وللدير نفسه وقد اختبرت ذلك بالفعل في اشخاص كثيرين لانهُ ليس من يعرف تمام المعرفة ما هو الخضوع الحقيقيّ الا الذي مارسهُ فعلًا بعدما كان رئيساً يطلب لنفسه ما وجب له على غيره من الطاعة والخضوع واني لاعتبر اولئك الرئيسات اللواتي يسرنَ هذه السيرة كما ينبغي حتى اني اعتقد انهنَّ بذلك يبرهنَّ فعلًا عن فضائلهنَّ الزاهنة وان هذا لامر جزيل النفع اذ بهِ نحافظ على ما فينا من التواضع والاخلاص الرهبانيين اما لو دعانا صوت الطاعة الى الانتقال من الدير الذي نقيم فيهِ الى دير آخر فلنلبه وهذا هو الافضل اه ٠

ولها ايضاً جواب الى رئيسة معزولة كانت قد شكت اليها من رئيستها المعيَّنة شكايةً مرّة قالت فيه : قد بان لي من كتابك ان بينك وبين الام الرئيسة نفورًا وجفاء وانكِ لا تبدين لها الاحترام والخضوع الواجبين لله بشخصها وتزعمين انك تفعلين ذلك عن غيرةٍ ونشاط ٠ غير ان هذا ايتها الابنة العزيزة نشاط كاذب لان النشاط الحقيقي لا يدفعنا الى عملٍ الا بروح التواضع واللين وعملك هذا صادر عن روح العظمة والسيادة الذي يتأثر من اصغر الاشياء ويأبى تحمّله والصبر عليه وان ما تشكين من رئيستكِ لا اراهُ ناجماً عن خبثٍ فيها بل عن شيء من الضعف البشري يوجب عليكِ عذرها واحتمالها وتعزيتها لان الانسان

لا يحصل على تمام القدرة والكمال فعليهِ اني استحلفك بالله ان توافقيها كما كان يقتضي ان توافقك حين كنتِ في مقام الرياسة اذ علينا اذا ما كنّا رئيسات ان نسلك بروح المسيح اي بروح التواضع والدعة واذا زالت عنا الرياسة فاصبحنا مرؤوسات لزم ان نسلك بموجب اشارات رئيساتنا كما كنّا نريد ونحن رئيسات ان تسلك الاخوات بموجب ما نشير بهِ لانهُ بدون ذلك تتعذّر المعادلة باختلال الموازنة اهـ ·

ولعمري ليس لنا ان نُضيف الى هذه النصائح الشريفة سوى مـا اعتادت القديسة نفسها ان تكرره في اجوبتها على نظامات الرهبانية وهو قولها: ياأخواتي لا يلزمنا بعد هذا سوى الاجراء والعمل · اهـ ·

[الكتاب الثاني]

﴿ في قداسة الرئيس ﴾

الفصل الاول

في روح الصلاة الواجب للرئيس

العدد ١

في ان روح الصلاة هو واجب وضروري للرئيس ليضبط نفسه من شتات الافكار ويقيها من قساوة القلب

ان اعمال الرياسة لمقدسة غير انها مقرونة بالسجس والعراقيل ولذلك شبّهها القديس غريغوريوس بهياج الامواج وهو يعترف بان النفس اذا مـا انزعجت

وتضعضعت في هذه الزوابع لا تلبث ان تذهل عما تفعلهُ وتغض النظر عن الخسائر الروحية التي تلم بها وعن الشوائب التي ترتكبها فقد تقف وهي تدفع غيرها الى الامام وتضلّ عن الطريق وهي تهدي اليها المتسفين عنها . وقال القديس اغوسطينوس : يجب ان نخاف من ان يُثقل حمل الاعمال الخارجية علينا فيهبطنا ان لم نرفع النفس ونوجهها الى التأمل في الحقيقة تأملًا سماويًا ونعوّدها ذلك اه (مدينة الله ك ١٩ ف ١٩)

وكتبت القديسة تريزيا الى اسقف اوسما قالت: ان الرب اعلمني انهُ ينقصك في الحياة الروحية شيء جوهري وهو الصلاة والثبات فيها فاعلم ان الجفاف الذي تكابده النفس يتولد من هذا النقصان لانه اذا خلا الاساس سقط البنيان اه

وكتب القديس برنردوس الى البابا اوجانيوس في هذا الصدد قال : وجّه اهتمامك اولاً الى نفسك لئلّا تنشغل عنها بغيرها انشغالاً لا فائدة فيهِ . فماينفعك لو ربحت العالم كله وخسرت نفسك ؟ ومهما كنت حكيماً عظيماً وانت لا تتقن تدبير نفسك فحكمتك ناقصة هي بل عندي انك لست منها على شيء ونقصها على ما اظن جوهري جدًا فلئن امتددْت بمعرفتك الى اقاصي الارض وطبقت اعلى السماوات وسبرت غور البحار وادركت اسمى الاسرار الغامضة وانت تجهل نفسك فلا تكون الاّ رجلًا يبني بناية بلا اساس بل يجمع حجارة بعضها فوق بعض كانهُ يبني خراباً وكل ما تبني او تجمع خارجاً عن نفسك فانما يكون كركام من غبار او العوبة للارياح . ومن لم يكن حكيماً في امر نفسه فليس بحكيم حقيقيّ فالحكيم اذن من كان لنفسه حكيماً ومن ورد مورد الحكمة قبل غيره . فما هو الامر الاول الذي تعتبره ؟ أليس هو امر نفسك ؟ وما هو الامر الاخير الذي تعتبره ؟ اوَ ليس هو امر نفسك ايضاً ؟ أفلا ترى كيف ان الله تعالى يجمع بين اخراج كلمته منه وحفظها فيهِ وانما كلمتك انت هي التبصر فلا حرج اذا استعملته في امور غيرك بشرط الا تغفل عن امر نفسك او تعديت به منك الى اخر او صرفته هنا وهناك بشرط الا ينقطع عنك وازل عنك كل فكر او هاجس يخالف امر الخلاص بل كل تصور خارج عنه . واجتهد في امر خلاصك وحده اه

وهكذا كان هذا القديس يكرّر كلامهُ على الحبر الاعظم هذا نفسه الذي

كان تلميذاً له قائلاً : أيلتجيء العالم باسره اليك وانت لا تلتجيء الى نفسك ؟ اتبذل نفسك دون الجميع وتأبى ان تبذلها دون خلاصك ؟ أيستقي النـاس من موردك الصافي الفائض وانت تهلك ظمأ اه

وزاد على ما تقدم معنى آخر صحيحاً موثراً جدا في من يكون اختبر مفهومه بالفعل فقال : يزعجك في باديء الامر شتات الافكار الـذي يعرض لك وثقل اعمال مهمتك ولكن لا يمر على ذلك قليل من الزمن حتى تهوّنهُ العادة وتجعل نيره ليّناً خفيفاً جداً فيظهر بعده مشتهىً ومرغوباً فيهِ فينتهي بك رويداً رويداً الى ان تستولي عليك قساوة القلب ثم بعد ذلك يتمكن فيك التكرّه مـن الاشياء المقدسة والنفور منها فمن الصواب اذن ان تخلّي يوماً بعد يوم بينك وبين هذه الاشغال قبل ان تسوقك الى حالة لا تحبهـا وكاني بك تقول لي الى اين تسوقني ؟ فاعلم انها تسوقك الى صلابة القلب . وان سألتني قائلاً ما هي صلابة القلب ولم يداخلك الرعب من مجرّد ذكر اسمها ؟ قلت انك واقع فيها . اه (من كتاب اعتباراته ك ١ ف٥ وك ٢ ف ٣)

هذا وان جيلبر احد تلامذة القديس برنردوس قد اشبع ما ذكره معلّمهُ في هذا المعنى فقال : ان الكراهة من عبادة الله تقترن دائماً باضطراب النفس والحزن في القلب والعجب في الكلام والتيه في الجلوس والهيئة وكلوح الوجه وتقطيبه ومخالفة الحشمة والادب في جميع الحركات والتوقف عن عمل المعروف وجفاف القلب من ماء الحياء والمحبة وكلل الحس العام ونقده في الحكم على الغير وبالنتيجة انك ترى الفضيلة منفية والتقوى خامدة وابواب العقـل مقفلة في وجه الصلاح من الرهبان بل في وجه الختن الالهي ونعمه لان الانانية والترهات قـد غلبت فلم تبقِ بعدها شيئاً اه (من عظته ٢٩ في سفر النشيد)

فعلى الرئيس اذن ان يتأهب للصلاة السحرية ويتحصن ليقي نفسه من وثبات الشتات الملازمة لاعمال مهمته وليعدّ له خلوةً في داخله يمكنه ان يختلي فيها عند تراكم اشغاله وعليهِ ايضاً ان يستعيض في المساء بمخاطبته الله مخاطبةً حارّة عما يكون خسره في نهاره والاّ يكون كعمد الكرم التي ترفع الجفنة عن الارض وتقيها الاضرار فتخضرّ الجفنة وتثمر اثماراً فاخرة وهي لا تبرح تحتهـا جافةً

يابسة لا خضرة فيها ولا نضرة

العدد ٢

ان روح الصلاة هو ضروري للرئيس لكي يعمل اعماله وهو خاضع لله وسالك بموجب روح الله فان حكم الرئيس بالنظر الى مرؤوسيه يشبه من وجه حكم الله تعالى بالنظر الى خلقه لان الرئيس وكيل الله مؤتمن على سلطانه في الارض فيتحتم عليه اذن ان يتكلم ويعمل كما لو كان الله تعالى هو المتكلم والعامل وان يسوس كذلك رهبانه كما يسوس الله خلائقه

فالله موجود في كل مكان وهو يرى ويفحص كل شيء من دون ان يراه احد ويُسمع الجميع صوته من دون ان يفوه بكلمة ويهتم بكل شيء ولايهمل واحدة من خلائقه شعار سلطنته الفطنة والحكمة والقوة والثبات وغايته في كل اعماله شريفة لائقة به والوسائط التي يستعملها هي مقدسة وموصلة الى القداسة وهو تعالى يجازي ويكافي بالعدل والانصاف بدون محاباة ومراعاة ويوافق بين معاملاته وطباع عباده ويمهلهم في اعمالهم ريثما تحين الاوقات الموافقة وهكذا هو يشدّد الضعفاء ويعزّي المحزونين ويزيد الصلاح صلاحاً ويهدي الاشرار بسوابق نعمه ويعاقب اذا دعت الضرورة عقاب ابٍ باقل من الوجوب وبقصد التكفير عن الذنوب والخلاصة انه تقدست اسماؤه في سلام ليس للتغيير اليه سبيل مهما تراكمت طلبات البشر ومهما كثرت الاصوات الصارخة اليه ومهما تضاعفت الحوادث التي يدبرها وانهُ سواء سمع ام اجاب اكرم ام اهين عاقب ام اثاب هو منزّه عن الكلل ومعصوم عن الزلل

هو الدستور الذي ينبغي للرئيس ان يدرسه ويتأمل في احكامه بدون انقطاع لكي يمكنهُ من ان يسلك في تدابيره على خطة الكمالات الالهية فانه يمثل من الله تعالى جلاله بالرزانة والحشمة وقدرته بالنشاط والاقدام وحكمته بالفطنة وجودته بالرفق وسعته باليقظة وعنايته بالاهتمام المتواصل وجوده بالاحسان ومحبته بالرقة الابوية وعدله بالانصاف ورحمته بالشفقة واعتداله بالسكينة وثباته بالعزيمة وازليته بالمواظبة المتواصلة على القيام باعباء فروضهِ (مرشد الرؤساء عدد ٥)

فكل رئيس امعن النظر في تدابير العناية الالهية رأى انهُ ليس هو نائب المسيح فقط بل انهُ هو ايضاً آلة في يده تعالى يتصرَّف فيها كيفما شاء واراد وكلما اكثر من الروية في تدبير ما يقصد ان يقوله او يعمله يجد نفسه مخذولاً اذ تأتيه الحوادث بما لم يكن خطر لهُ ببال ولذلك يعرض لهُ كثيرًا ان يتكلَّم او يعمل اقل مما يكون افتكر بهِ او استعد له او اكثر منه وهذه النقطة التي يجهلها الانسان في تدابيره هي عينها يتخذها الله ليعمل بها ما يريد فاذا كان الله تعالى يسوس الافراد على هذه الصورة فانه باولى حجة يسوس كذلك الجماعات ويدبر امورها تدبيرًا فلا غروَ انه يدفع الى الحركة العضو الاهم الذي بهِ تتحرك جميع اعضاء الجسم على حد ما قال الحكيم : قلب الانسان يفكر في طريقهِ والرب يهدي خطواتهِ اه (امثال ١٦)

وعليهِ كلما كان عمل الرئيس خطيرًا سامياً الهيًّا اختصه الله بنفسه والتزم ذلك الرئيس ان يسلّم نفسه للحكمة الالهية تسليماً وهو وان كان مخيرًا بالنظر الى مرؤسيه فليس هو كذلك بالنظر الى تدبير امر نفسه لانه محكوم عليه في ذلك اكثر مما هو حاكم على غيره في ما يتعلّق بهم . قال الحكيم : ليس من حكمة ولا فطنة ولا مشورة ضد الرب (امثال ٢١)

ذكر العلّامة فينيلون وهو يكتب لاحدى الرئيسات شيئاً من نحن في صدده قال : فليكن ذهنكِ متحدًا دائماً بالله ودعيه تعالى يدبركِ في كل شيء ولتكن مناجاتك اياه قلبية بغير انقطاع واكشفي له بكل ثقةٍ كل ما تعلمين واطلبي منه كل ما لا تعلمين او لا تقدرين عليهِ وانت في افتقار الى علمه وعمله فلا تنجين بدون هذا الاتحاد بهِ تعالى من خطر اتباع آرائك وتصوراتك الذاتية وترك مشورات الله ومشيئاته وتلقين بذلك اتكالك على اعمالك الواهية فتخلو منها بركة الله لكنك تقدرين بالاتحاد بهِ تعالى ان تعرفي ما هي ارادته في الانفس وما هي احتياجات الانفس اليهِ وما هي الوسائل المؤدية الى تلك المساعدة المطلوبة منه فيرفع بذلك الله روحك عنك ويحل روحهُ فيكِ لانه من الضروري ان يكون هو العامل في كل شيء واذا ما كان الله تعالى هو العامل فيك شملكِ عملهُ هذا من جميع الاطراف باللطف والقوة وقدَّرك على ان تعملي بالنشاط في العبادة

ما لا يمكنك منه فلاسفة الارض اجمعون اه

وقال موديست دي سانت امابل : ثلاثة تجعلنا ان ننجح في مقاصدنا : ١ً التواضع والحذر و٢ً استقامة النية و٣ً والاحتراز والفطنة والحال ان في الصلاة اعترافاً صادقاً بتقصيرنا وشهادةً ساطعةً باستقامة نيَّاتنا ودلالة كافيةً على التحفظ في جميع اعمالنا اه (الرأس الكامل ك ٢ ف ٢) فالنتيجة ان الله لا يمنع عونه ولا يحبس بركته عن اعمال من واصل الصلاة جهدهُ حتى يكون خاضعاً لهُ تعالى وسالكاً بموجب روحه الالهيّ

العد ٣

ان روح الصلاة ضروري في الرئيس ليتخلص من الصعوبات و يقوى على مساعدة مرؤوسيه

لقد قرر الاباء الروحيون ان الصلاة امُّ الفطنة وآية السلطة فمن التزم في كل هنيهة من الزمان ان يقضي ويحكم كان عليه ان يلتجئ الى الله الذي باسمهِ يقضي ويحكم التجاء متصلاً . قال القديس غريغوريوس : ان موسى كليم الله كان يدخل الى الخباء ويخرج منه تكراراً وكان يذهب عند وقوع المشكلات في المسائل الى قبة العهد مخزن الوصايا لكي يستشير الرب فتعلم الرعاة بهذا المثل ان يعوا ويتروّوا اذا ما تصعبت عليهم الاعمال في الخارج وان يستشيروا الرب امام قبة العهد مقرّ الواح الوصايا ويتذكروا اذ ذاك كلام الكتاب الذي يناسب مشكلاتهم (الراعي ق ٢ ف ٤) . فلو أتى رجل مجهول الى البلاط الملكي فوجد الابواب مفتوحة امامه فدخل من دون استئذان على الملك وقدم له عريضة أما يطرده الملك من حضرته ويردّ طلبه ؟ فهذا ما يحصل للرئيس على ما قال القديس بطرس داميانوس وهو ان الرئيس الذي لا يكون له لقلة صلاته دالة على الله تعالى ولا يلتجئ اليه الا في حين الضيقات والحاجة القصوى لا يلاقي اذا قصده تعالى وطلب غوثه الا الجفاء والخذل ولا يجد الى اجابة طلبه سبيلاً اه وقال القديس غريغوريوس ان الامر ينقلب شرًّا مما كان لو اهان الطالب او

صاحب الوساطة الملك في بعض اعماله السيئة فانه حينئذٍ اذا ما امتثل بين يديه يهيج مجرد حضوره غضبه وسخطه فلا يحمله على اجابة ملتمسه بل على الانتقـام منه (الراعي ق١ف٢)

وكتب العلامة فينيلون الى الرئيسة المقدم ذكرها قال : لابأس ان تطالعي الكتب العلمية لكن فضلي الصلاة عليها فانك تجدين فيها المشورة والشجاعة والصبر والدعة والثبات ومـداراة العقول وبها وحدها تتعلمين ان تسوسي مرؤوساتك بسكينةٍ وسلامٍ لكن اذا بتت امرًا اوعملت شيئاً من دون التجآء الى الصلاة تقلق افكارك وتصبح كأنها تقاومكِ وتبدي لكِ ما يلقيكِ في الريب والغوايات بخلاف ما لو عرفتِ كيف تلتجئين الى الصلاة فان مطهرك حينئـذٍ يستحيل الى فردوس في هذه الدنيا وتعملين من الخير في يوم واحـد اكثر مما تعملين في شهر منه وانتِ مزعوجة البال مضطربة الافكار اه

ونحن نضيف الى ذلك انهُ ينبغي لك ايها الرئيس ان تسكن ابدًا ما هاج فيك من البلبال بموافقتك روح الرب وانك اذا مـا كنت في حاجة الى المشورة او تعاظمت عليك الاشغال في زمان الراحة او القلق تحتاج ان تبادر الى التسليم لله تعالى فهـذا هو الافضل فان نظرة واحدة من معلمك الالهي تجديك وانت واثق بهِ نفعاً اكثرمما يحصل لك من نهاية اجتهادك في التفتيش عن مخارج تتملص منها . ولا غروَ ان الانسان باتكالهِ على الله ينجي نفسه من متاعب كثيرة فلا تضغطنَّ على نفسك بشيء مهما كان لان اهم شيء عليك انمـا هو ان تكون بسلام وتسلك امام الله بضميرٍ مستقيم

قال الرسول : اننا نزرع ونسقي اما الذي ينمي فهو الله وحده (اكور ٣) وقال المرتل : ان لم يبنِ الرب البيت فباطلًا تتعب البنّاؤون وان لم يحرس الربُّ المدينة فباطلًا يسهر الحارس (مزمور ١٢٦) والحال كيف يمكن ان ينمي الله الزرع او يبني البيت او يحرس المدينة اذا كان الرئيس الملتزم بموجب وظيفتـهِ سقاية الزرع وبناءَ البيت وحراسة المدينة تحت مطلق سلطان الله ولمجد الله لا يبالي بهِ تعالى ولا يكترث له ولا يريد ان يسكن حرارة العمل بالصلاة وحرارة الصلاة بالعمل لكي يكون كل منهما مفيدًا للاخر من دون ان يلحق احدهما بالاخر

ادنى ضرر البتة ؟

قال القديس يوحنا كليماكو : ان صلاة الرئيس هي كخوذةٍ تحمي رأس الراهب اهـ٠

وجاء في قوانين القديس اغناطيوس : ان الرئيس يجب ان يكون رجل صلاةٍ وان يحمل الدير على اجنحة اشواقهِ المقدسة اهـ ٠ (ق ٤ ف ١٠

وأوصى القديس برنردوس بودوان رئيس دير رياتي قال : غذِ رهبانك بكلام الرب وبالمثل الصالح ٠ غذِهم باثمار صلاتك اهـ٠ (رسالة ٢٠١) واخبر القديس هيلاريون رئيس اساقفة أرْل قال : ان الصلاة كانت لمعلمه القديس هونوراتوس ملجاء وكنزًا فانه كان يستعين بها عند حدوث كل صعوبة في سياسة رهبانهِ من قلة طاعتهم لهُ ثم زاد على ذلك قائلًا : ان في صلاة الرجل القديس نوراً بهِ يهتدي الضالون وقوة بها تخضع العصاة وتلين قلوب المتصلبين اهـ٠

وقال القديس ليكوري : ان الرعاة يفتقرون الى ضعفين من القوت الروحي كما تحتاج المرضع الى ضعفين من القوت المادي لتقيت نفسها وتقيت ولدها معاً فكلمة واحدة خارجة من قلب مضطرم بالمحبة الالهية تفيد اكثر من الف موعظة صادرة عن قلب بارد جامد والحال ان لهيب المحبة لا يشعله في فؤادنا الا الصلاة وكذلك يتعلم الانسان في الصلاة في وقتٍ قصيرٍ اكثر مما يتعلمه من مطالعة الكتب عشر سنين اهـ٠

ومن طالع الكتاب الرعائي تأليف القديس غريغوريوس علم ان هذا القديس كان يرغب في ان يسلك كل راعٍ سلوكاً حسناً حتى يتاح لهُ ان يسقي قلوب اخوته العطشى من زلال العلم والصلاح وان يكون في صلاتهِ الى الله ذا دالة يستميح بها كل ما يطلبهُ ٠ ففي مثل هذا الرئيس قال النبي : انك لا تكاد تنهي كلامك لي حتى اجيبك هأنذا اهـ٠ (ق ١ ف ١٠)

وقال هذا القديس عينه : على الراعي ان يدنو من كل واحد من رعيته بلطفٍ وشفقةٍ وان يفاضل الجميع بروح الصلاة والتأمل حتى يرفع التأمل نفسه عن الارضيات ويذيقها لذة السماويات بينما تحمله الشفقة والرأفة على الاشتغال بمساعدة القريب على تحمل مصائبه لانه لا يدع حبُّ الكمال يلهيه عن مساعدة

القريب ولا مساعدة القريب تبعـده عن طلب الكمال بل يساوى بين الامرين مساواةً بها يساعد الواحد الاخر (نفس التأليف ق ٢ ف٤)

والنتيجة ان الرئيس عليه الله يخاطب نفسه قائلًا : يجب عليَّ كسائر الرهبان ان اتفرغ للصلاة لاني مثلهم مندوب للكمال وعليَّ ان اكبح الشهوات الردية واقوم بفروضي الرهبانية مثلهم ولي فوق ذلك اسباب مخصوصـة لي تدعوني الى الكمال وهي :

— اني مضطر لقداسة اسمى من قداسة سائر الرهبان لان الشيطان يهمه ان يحاربني اكثر ما يهمه ان يحاربهم وان فروضي اهم وادق من فروضهم

— واني افتقر الى ان اخص بالصلاة وقتاً زائداً بقدر زيادة اعمالي وثقلها لانني لا اقدر ان اعرف ما يطلب الله مني بدون الصلاة او ما هو الافضل لي او كيف انجو من الفخاخ التي ينصبها لي العدوّ او كيف اجمع في اخـلاقي بين اللين والعزم وبين الاخلاص والاحتراز وبين التساهل والضبط . ثم اين اجد خارجاً عن الصلاة التعزية والسكينة والصبر والشجاعة ? او من اي ينبوع غـير ينبوع الصلاة استقي لنفسي ? واني استمطر على الجماعة المسلَّمة لعنـايتي النعم والانوار والبركات السماوية ?

هذا واذا اراد الرئيس ان يثبت فيه روح الصلاة فيلتزم ثلاثة امور ١ً حفظ نظام مخصوص و٢ً فحص الضمير و٣ً اماتة الذات

فسلوكه بموجب نظام مخصوص بهِ يجب ان يكون موافقاً القوانين موافقة تشفُّ عن حكمة حتى لا يضطر معه ان يغير منها شيئاً جوهرياً بل فليضع كل شيء في محله كالفروض العمومية والخصوصية ومـا يختص بالله وبالجماعة وبنفسه ويعين على هذا المنوال وقتاً للصلاة ووقتاً للعمل ثم يعين ما يلزم عمله في كل يوم وفي كل اسبوع وفي كل شهر وليحذر بعد ان يرى ان ترتيبه هذا موافق روح القانون والفطنة ان يعدل عنه لغير داع ضروري او باعث تقتضيهِ المحبة

وفحص الضمير بتدقيق يجعل الرئيس ان يعتبر نفسه كانه متولي الرياسة ابتداء من ذلك الوقت الذي فيهِ يفحص ضميره فلا تتملك فيهِ عاداتها ويطالب نفسه باعمالهِ اليومية بل باستعداده للتدبير وبرغبته فيهِ ويرى عند هذا الفحص ما

نقَّص احترام مرؤوسيهِ لهُ من الحشمة فيهِ ومن قيمته الحقيقة عنده وما حصل من تبديله روح القانون العام بروحهِ الخاص تبديلًا حصل دفعةً بعد اخرى وهو غير مكترث له · ولا ريب في ان الرئيس بمواظبته على فحص الضمير يضحى في كل يوم افضل واجدر بالرياسة منه في امسهِ ولا يؤثر فيهِ مجدها وان كان قائماً بها

واما الاماتة فقال فيها مودست دي سانت امابل : انها هي والصلاة توافقا الّا تنفكّ احداهما عن الاخرى اي انه لا تدخل احداهما قلب الانسان او تخرج منه الاَّ برفقة قرينتها وهذا على حد ما بيَّنه (تريتم) اذ قال ان مريم لا تقدر ان تعيش بدون اختها مرتا ولا هذه بدون تلك فيلزم عن ذلك قبولها او طردهما معاً لانهُ لو كانت الواحدة مريضة لا تكون الاخرى متعافية ولما كان روح الصلاة في الرئيس اوجب منه في المرؤوس كانت اماتة الذات في الاول اوجب منها في الثاني اه ·)الرأس الكامل ك ٢ ف ٤)

﴿ الفصل الثاني ﴾

في ان فضيلة التواضع ضرورية في الرئيس

العد ١

في ان الرئيس المتواضع لا يرى نفسه اهلًا للوظيفة ولا ينسب الى نفسهِ شيئاً من الخير الذي يحصل في مدة رياستهِ

هو يعلم ان السلطان المتعلّق بوظيفتهِ لا يختصّ بهِ ولا هو صادر عنه وان نسبته اليهِ عرض لا خاصته لان مصدر السلطة الحقيقي هو الله تعالى وحده ربّ السماوات والارض ويرى بهذا انه هو نفسه قائم بالله وان جميع اعماله تناط بهِ وان منزلته عند الله واحدة بالنظر الى ذاته وحقيقة طبعه وان كان له على جماعتهِ سلطان لا يليق الاَّ بهِ ما دام رئيساً

وهو لا يعتبر نفسه رئيس جماعته الاَّ بطريق الوكالة ويعلم ان سلطته عارية في يده وان يعمل بسلطان الله الى اليوم الـذي يدعوه فيهِ اليهِ فكانه في ذلك سفير دعاه ملكه الى ان يقوم مقامه في مجلس من مجالسه . أفيليق بهِ حينئذٍ ان يعتبر نفسه ملكاً بمجرَّد قيامه مقام سيده جلسة واحدة ؟ فالرئيس اذن يجب ان يعرف نفسه من وجهين من وجه ما هو عليهِ حقيقة ومن وجه صفته رئيساً وان هذه الصفة مضافة اليهِ اضافةً خارجية فيحافظ من جهة على مقام الرياسة والاعتبار الواجب لهـا من المروُّوسين ومن الاخرى على الاحتشام والاداب المطلوبة من المروُّوس امام رئيس الروُّساء اعني بهِ الله جلت احكامه عالماً بانه يفي فروض الطاعة له تعالى باصداره الاوامر في مروُّوسيه بل هو لا يأمر الاحباً باتمام امر السلطان متيقناً انهُ هو ومروُّوسوه من طينة واحدة وان فيهِ ما فيهم من الضعف البشري وان الرياسة لا تزيده ما يفاضل بهِ غيره وانها ليست مقرونة بالفضيـلة والحكمة اقتراناً لازماً غير منفصل وليست علاجاً لكل ذنب وهفوة بل تزيد الرئيس من ذلك وتسبب سقوطه علانيةً وهي ترفعه فوق مروُّوسيهِ بالمكانة والشرف غير انها تغادره اقلَّ منهم فضلاً وفضيلةً فاذا استدل الرئيس من تعيينه لمقام الرياسة انه اهلٌ لها وظن انهُ يفوق بالفضيلة جميع الذين يفوقهم بالسلطان وهو يقيس جدارته بمنزلتهِ وقداسته برفعته غافلاً عن ان الرتبة تتطلب الجـدارة ولا تكتسب الجدارة بها وان الرفعة تتطلب القداسة ولا تحصل القداسة بها فليعلم انه في غرور عظيم وضلال مبين

ومن الضروري ان يتصوَّر انهُ لم يصل الى شرف المنصب عن استيهال بل انهُ رُفِعَ اليهِ عقاباً عن خطاياه وذلك لوقاية نفسه من عجبه ولاخماد ناره في قلبهِ وعليهِ ايضاً ان يقابل بين سعة واجباتهِ وسعة ضعفهِ وتقصيرهِ بالقيام بها ويوقن ان الرياسة والقداسة هما اختان لا ينبغي ان تفارق احداهما الاخرى وانهما اجتمعتا فيهِ كما تجتمعان عادة في الروساء الافاضل فيحسن بهِ والحالة هـذه ان يتوق الى اليوم الذي فيهِ ينحط عن مقام الرياسة لكي يعود الى راحة الضمير التي كان متمتعاً بها قبل حملهِ اعباء الرياسة

قال القديس برنردوس : ان كثيراً من الروساء عندما يمتطون متن المناصب

يندبون سوء حظهم ويعترفون بتقصيرهم وعجزهم بدلاً من ان يتولّد في قلوبهم روح العجب غير انهُ لا تمضي مدة من الزمان حتى تراهم يعجبون بانفسهم ويعتقدون انهم من الخليقين بالمناصب اعتقاداً يتجرّؤون معه على التطاول الى مقامات اعلى من مقاماتهم ورياسات اهم واثقل من رياساتهم (من كتاب فروض الاساقفة وآدابهم ف ٧) وما ذلك على ما قال القديس غريغوريوس (الراعي ق ٢ ف٦) الا لان الناس يتسابقون الى خدمتهم والقيام باوامرهم بسرعة ونشاط وهم لا يسمعون الاَّ المدح والثناء على اعمالهم ولو كانت توجب المذمّة او اللوم ويندر ان يروا انساناً يقدح فيهم فهذا من شأنه ان يفسد قلوبهم ويحملهم على العظمة والافتخار فلا يعرضون انفسهم كما هي بل يتصورونها كما يصورها لهم اهل التمليق والخداع اه

وقال العلّامة نفسه في المحل المتقدم ذكره : اذا كان الانسان مائلًا من طبعه الى العجب والافتخار وهو في مقام مساوٍ مقام اقرانه فماذا يكون من حالهِ عندما يرى نفسه رئيساً عليهم ومدبراً شؤونهم ؟ واذا كان الانسان يصيبه الدوار وهو في اسفل الوادي في مأمن من الارياح فما ترى يحل بهِ اذا ما قام على رأس الجبل معرضاً لاشد العواصف ؟ . اه :

وقال مودست دي سانت امابل : من البديهي ان قائد الجيش ينسب لنفسهِ انتصار عسكره والوزير نجاح المملكة والرئيس ينسب كذلك لنفسهِ الخير الذي يجري مدة رياسته اذ يقول غالباً : انا الذي أقام هذه البناية وانا الذي انهى تلك الدعوى الكبيرة وانا الذي دبَّر تلك المسائل . وربّى للدير الاصحاب والمحامين عن حقوقهِ اه. ولا يرى انهُ بهذا الادعاء يحذو حذوَ ملك بابل الذي كان يقول : انا الذي بمهارتي وغناي بنيت تلك المدينة العظيمة بجمالها واحكامها وتحصينها اه.

وكتب البابا القديس غريغوريوس الى بونافاسيوس اسقف ريجيو قال : فرحت فرحاً عظيماً عندما بلغت سماعي اعمال الرحمة التي تعملها غير انهُ قد ساءني جداً ما اسمعه غالباً عنك وهو انك تدّعي وتنسب كل هذه الاعمال لنفسك اذ لاتبرح تخبر وتذيع انك انت الذي ساعد هذا الفقير وانقذ ذاك

اليتيم من مصيبــة المت بهِ وانت الذي أقام تلك التماثيل وأصلح ذلك الخلل وردّ الرهبانية الى نظامها الاول ألا ترى انك بمثل ذلك تعتدي على مجـد الله وجلالهِ لان جميع الامور ترجع بسيرها الى مجد الله وحده ؟

كان القديسون ينسبون كل شيء الى الله والى استحقـاق اخوتهم ومنهم القديس اغناطيوس فانهُ كان يُعزو كل شيء الى عناية الله ودعاء اخوته ولذلك ما كان يرى ضميره مثقلًا من الخطاء بالمجد الفارغ . الا بما لا يعتدّ بـهِ وقالت الطوباوية كولينا يوماً وقد شعرت بمديح الناس لاعمالها : لا اعلم اني عملت شيئاً حسناً واذا كان حدث على يدي بعض الخير فما يكون ذلك الا بعون الله ودعـاء اخواتي اهـ.

وقال ماكسيميلانوس امير بافيره عقبى غلبة حازهـا في الحرب : انا الذي حارب واما الغلبة فاعطانيها الرب بدعاء الانفس القديسة اهـ.

العدد ٢

في ان الرئيس المتواضع لا يعجب بالكرامة الموجهة اليه

ان الرئيس حقيقٌ بان يكرَم ويحترم لانهُ يمثل الله على الارض بعمـله وسـاطانه . فكلما تحقق ان الكرامة المقدمة للرئاسة واجبة وضرورية بالنظر الى ان الرياسة من الله وان غايتها الخير العام وضح كذلك انها تخصّ بالمقام لا بالذات هذا ولما كانت الكرامة للرؤساء من لوازم الرياسة كان الحكم فيها نفس الحكم فيهم فانها لا تزيدهم لا مجداً داخلياً ولا كمالاً ذاتياً ولا تؤثر في فضائلهم ولا هي علامة تدل عليها وهي ليست صالحة لان تُصلح الشوائب في الرئيس ولا تعوض فيهِ عن نقصٍ في كمالاتهِ وعلى ذلك فالرئيس الذي يعزو الى نفسهِ الكرامة المقدمة لمقام الرياسة ويظن انه اهل لها جدير بها يكون لا محالة في شطط عظيم. ومن الثابت ان الوظيفة شيء والموظف شيء آخر فالوظيفة مقدسة إلهية واما الموظف فلا يخلو من النقص والذلل فعلى الرئيس اذن ألاَّ يتصوَّر ان الله سبحانه قد وكل اليهِ الرياسة التي أمر باحترامهـا ليجعلها سبباً يؤدّي بهِ إلى العجب والكبرياء بل ليدعوه بها الى الخوف من ان يهتك حرمتها والى ان يساوي بين شرفها والاجلال الواجب لها وقداسة سيرته فان هذه الكرامات المقدمـة لهُ

وهذا التعلق الديني المخصوص بهِ الذي هو أقوى من التعلق البنوي ليسا الأ تحضيضاً قوياً ودافعاً شديداً ينهض بهِ إلى الصلاح غير انهُ اذا رأى نفسه متقاعساً عمَّا يجعله اهلاً لهذه الكرامة فكيف يمكنه ان يرضى بها ؟ واذا كان ضميره يبكته سرًّا ويبين لهُ انهُ غير جديرٍ بشيء منها وانها لم تقدَّم الاَّ لمقام الرياسة أفلا يتخذها حينئذٍ توبيخاً مقصوداً ومجاهراً بهِ ؟ أفلا يخجل عندما يرى من يفوقهُ فضلًا وقداسةً من رهبانه ينحني امامه ويجلّه كل الاجلال ؟ ألا يوقن انهُ هو الذي يجب عليهِ اكرامهم واجلالهم اذا ما نظر في الامر من وجه الجدارة لا من وجه المقام ؟

قال القديس بروسبر : ان الرؤساء المدعوين من الله الى سياسة الانفس لا يعجبون بالكرامات الدنيوية ولو أحدقت بهم من كل جهة لان افكارهم مشغولة بقضاء الخدم المطلوبة منهم ولا يكترثون لرفعة مقامهم بل لخطارة مهامهم . ولا يبهجهم بهاء المنصب بل ترعجهم الاعباء اللازمة لهُ . اه (من الحياة النظرية ك ٢)

وقال القديس باسيليوس : ان الانسان المشتغل بتضميد جراح عدد غفير لا يجد سبيلًا الى الترفع بل الى الخضوع والخشوع . اه . والحال ان هذه هي صناعة الرئيس

وقال القديس غريغوريوس : اعلم يا اخي انك اذا ما ترفعت في الباطن على اخوتك تسقط في وهدة الذل والدناءة لانك اذا شابهت في الكبرياء الشيطان الذي عمد الى وضع كرسيه في اعلا سما السماوات تشابهه كذلك في السقوط وتُضرب مثله بصاعقة غضب الله فتخسر ملك الخيرات الحقيقية بمجرد رغبتك في الخيرات الحالية . اه (الراعي ق ٢ ف ٥)

وقال العلاَّمة نفسه في محلٍ اخر : ان شاوول أُنتخب بالتواضع ورُذل بالكبرياء وقد اوضح الرب ذلك بتوبيخه اياَّه اذ قال : انا ولَّيتك على قبائل اسرائيل لما كنت صغيراً في عين نفسك . اه فينتج من هذا انه لما كان صغيراً في عين نفسهِ كان كبيراً في عين الرب ولما صار كبيراً في عين نفسهِ صار صغيراً في عين الله

فالحاصل ان الرئيس الذي يغار غيرةً حقيقية على مجد الله ويحب ان يكرَّمه

تعالى برفعة مقامه هو حقيق بان يؤدي ما يُفرض لهُ تعالى من الكرامة والخضوع والاحترام كما يؤديه مرؤوسوه لهُ سبحانه من دون ان يستثني منها شيئاً ٠

وقال أيضاً القديس غريغوريوس: لو بعث رجل ذو شأن عبده بهدايا الى عروسه فلم يقدم العبد الهدايا باسم سيده بل باسم نفسه ليكسب رضا تلك العروس أفلا يحسب ذلك من العبد خيانةً وفجوراً ؟ ٠ اه

أوَ هل للرئيس ان يثق بالظاهرات الخارجية ؟ أوَ لا يعلم ان الحيل في أمور الدين والدنيا كثيرة فكم من اشباهٍ لا حقيقة فيها وما اكثر ما يبالغ المداهن والمضطرّ في المدائح ويتستر ببرقع الحشمة والدعة والتلطف !

العدد ٣

في ان الرئيس المتواضع يعمد الى ادنى الاعمال بطيبة خاطر

قال موديست دي سانت امابل (الرأس الكامل ك ١ ف ١٦) : انهُ لضلال مبين ان يتصور الرئيس انهُ في اتخاذه الخدمات الدينية يضرّ بصيته او بسلطانهِ فالامر بالعكس اذ يجعل فضيلته امتن واشهر ولا خفآء ان صيته وسلطانه يبنيان على اسّ فضيلتهِ هذه لا على غيرها .

لانهُ ١ً ليس من مقامٍ في الدرجات الكنسية يخجل صاحبهُ مهما كان شريفاً من حمل صليب المسيح فبالصليب كل مجدنا فالرئيس كلما ارتفع مقامهُ وجب عليهِ ان يتواضع ويتشبه بالسيد المسيح ويوافقه في سلوكهِ قال ابن سيراخ (٣ : ٢) : يابني ازدد تواضعاً ما ازددت عظمةً فتنال حظوة لدى الربّ اه٠ وقال السيد المسيح (متى ٢٠) قد علمتم ان اراكنة الامم يسودونهم وعظماؤهم يتسلطون عليهم واما انتم فلا يكون فيكم هكذا ولكن من اراد ان يكون فيكم كبيراً فليكن خادماً ومن اراد ان يكون فيكم اولاً فليكن لكم عبداً كما ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدم ويبذل نفسه عن كثيرين اه٠ و ٢ً لم يُرفع الرئيس على الجميع الا ليكون قدوةً للجميع والحال كيف يمكنه ان يكون قدوةً لاصحاب المهام الشاقة والخسيسة وهو يترفع عنها ويأبى ان يشارك الاخوة في شيء منها ؟ قال ابن سيراخ : اذا جعلوك رئيساً فلا تتكبر بل كن كواحدٍ منهم (٣٢) وقال في هذا القديس برنردوس (في مهمة

الاسقف ف ٩) : كيف تكون كواحدٍ منهم وانت بين المتذللين متعظم وبين المتواضعين مترّفع وبين الوديعين قاسٍ ؟

وابان القديس غريغوريوس ان من واجبات الرئيس الصالح ان يساوي نفسه باخوتهِ وان لم يكن مساوياً اياهم بالمقام وان يبذل قصارى الجهد في افادتهم لا التسلط عليهم وان يوّجه نظره الى مطاليبَ مهمتهِ لا الى شرف مقامهِ ثم قال (الراعي ق ٢ ف٦) : يعتني لاجل ذلك الرئيس بامرين ضروريين جدًّا الاول تصرّفه بمقتضى سلطانه لا بمقتضى مطامعه والثاني عمله ما يجب عليهِ لا ما يرغب فيه اه

وقال القديس برنردوس في هذا المعنى في تفسيره رسالة القديس بولس الى الرومانيين : كن متشبهاً بالرسول وشرِّف خدمتك قلت خدمتك لا سلطانك لان شرف خدمتك هو المطلوب منك اولاً لا شرف شخصك ومن يطلب منفعة نفسه يشرّف نفسه لا مهمته واذا اردت ان تشرّف مهمتك فلا تظن انك تصل الى ذلك بترديك باثواب جميلة او باحاطة الحشم بك او بانشآء بنايات عظيمة بل تصل اليهِ بخلوص آدابك وباجتهادك في تحسين الامور الروحية والزيادة في الاعمال الصالحة اه·

و٣ً من ظن انهُ يضر بصيت نفسه لو بالغ في اعمال البرّ والغيرة على مجد الله فظنه يكون باطلًا مخالفاً الدين والعقل · ليت شعري ما تصوّر عاقل ان في التواضع والتقشف والفقر وعمل الرحمة وممارسة الفضائل ما يشين صاحبه او يخفض من قدرهِ بل لعمري ان الشرف الحقيقي الثابت كما قال القديس يوحنا الذهبي الفم لا يُكتسب الا بالفضيلة فمثل هذا الشرف لا يزّينه طلاء ولا يعيبه خباء ولا اثر فيهِ للحيلة والمكر ولا يحصل بالتمليق ولا يُشترى بالمال ولا يقدر احد ان يخاصم صاحبه في شيءٍ من الاشياء على الاطلاق اه·

أفلا ترى ان ابن الله عز وجل غسل اوجل تلاميذه وان بولس الرسول سعى وراء معاشه بعمل يديهِ وان القديس فرنسيس بلولوس كان يغسل اثواب الاخوة ويخدمهم في المائدة ويكنس الكنيسة وينظف درجات المذبح وان القديس اغناطيوس مضى لما انتخب رئيساً عاماً الى المطبخ يقضي فيهِ احقر الخدم وادناها وانهُ من مبادئ القديسة كلارا الا تأمر احدًا من الراهبات بمباشرة عمل حقيرٍ قبل

ان تباشره هي بذاتها ؟ فايّ رئيس يتصور ان السمعة والسلطان يوجدان في ما لم يجدها فيه السيد المسيح ؟ واي رئيس يعتقد انهُ يدرك الغاية التي ادركها المسيح والقديسون وهو ناهج طريقاً تخالف طريقهم كل المخالفة ؟

فلا يكتسب الرئيس ثقة مرؤوسيه واعتبارهم بالكبر والعتوّ او باتخاذ ما يعزه عنهم ولا بالتنعم الذي يرغبه لنفسه طلباً للشرف بل يكتسب ذلك بالحكمة والقداسة · فالرياسة ليست سيادةً حرّةً ولا مقاماً للبذخ والترفه والترفع ولا معهداً لترويض البدن الذي يطلبه محبو الذات الكسالى بل هي وقف النفس للخدمة ومحل للتفاني في جانب الخير العام المحض وتكملة حياة السيد المسيح التي يُعرف بها التواضع والتقشف والاماتة · هذا وان الوثنيين انفسهم اعتبروا المِلك نفس اعتبارنا للرياسة ودليله ما قال اجيزيلاس : اذا كان يريد الملك ان يسود على رعاياه فلا يطلبن ذلك بطريق الرخاء والتنعم بل بطريق القناعة والشجاعة اهـ وقال بلينوس ان المجد الوحيد المثبت شرعاً والذي اشتهيه للملك انما هو ما يكتسبه بالفضيلة والاستحقاق لا ما يحصل من الصور والتماثيل لان هذه تسحق وتتلاشى واما ذاك فيبقى الى الدهر ثابتاً في اذهان الناس اهـ وقال سينكا : أيزداد الحصان قيمةً اذا ما لجمته بلجام من ذهب ؟ أو هل تصيرُ ملكاً اذا ما توشحت برداء ملكي مرصع بالحجارة الكريمة ؟ اهـ وقيل ان الاسكندر لما شاهد في دار داريوس رياشاً فاخرة هتف قائلاً : ما تفيد هذه الزخارف في سلطان الملك ؟

العدد ٤

في ان الرئيس المتواضع لا يجدر به ان يخفي فضائله وجدارته بالسياسة ولا ان يسمح بسقوط سلطانه

ان القديس توما سئل عمّا اذا كانت المحافظة على حسن السمعة والصيت الصالح تعد مجداً باطلاً فاجاب انه قد يكون ذلك فيما لو كان المقصود من تلك المحافظة مدح الناس ولكن اذا كان المقصود بها الحرص على الخير العام ووقايته من وصمةٍ تلحقهُ كانت بلا محالة فعل محبة عظيم يوجب لصاحبه المدح والثناء

(٢٠٢٠ س ١٣٢ ف ١ ج ٣)

وكتب القديس بطرس داميانوس الى احد تلامذته الذي كان مرشحاً للاسقفية فقال : اجتهد في ان تكون سيرتك سيرة متدّين تقيٍّ وان تكون سمعتك بلا عيبٍ لان المنفعة من سيرتك تكون عائدةً اليك واما المنفعة من حسن سمعتك فهي عائدةٌ اليك واليَّ معاً بل الى الرعية جمعاء اه وتشبه عروس النشيد نفسها بالزنبقة لان في الزنبقة خاصتين طبيعيتين وهما الجمال وطيب الرائحة وهكذا الفضيلة فان لها هاتين الخاصتين على ما قال القديس برنردوس فاذا ما فقدت احداهما ينقص كمالها لان استفادتها من خاصة واحدة قليلة جداً هذا وان جمال الفضيلة مركزه الضمير واما رائحتها الطيبة فهي حسن السمعة · اه (عظة ٧ على سفر النشيد) فكم من القديسين العظام مثل البابا لاون الثاني والقديس كارلوس بورومهِ ودوم بارتيلمه وكثير غيرهم ناضلوا كل المناضلة عن حسن صيتهم لكن ذلك لم يكن لخيرهم الخاص على ما قرروه مراتٍ بل لاجل خير رعاياهم العام لا غيره

قال تاسيت ان تيبر كان من اعتقاده ان مصالح العامة متنوعة وان الجوهري في مصالح الملوك هو حسن السمعة اه ويلحق باعتقاده هذا مبدأ آخر وهو ان الملوك بعد اكتسابهم حسن السمعة يجب ان يحافظوا عليها لاجل خير رعاياهم لان كل ما يملكهُ الرؤساء انما يملكونه لخير مرؤوسيهم · ه

هذا ولما كانت المعارف من اسباب حسن السمعةِ ترتب على المتواضع الاَّ يخفيها قال اليسوعي الشهير غراسيانوس : ان ما كان محجوباً عن النظر يعتبر كانهُ لم يكن فقس على ذلك معارفك فانها اذا كانت خفيةً عن الناس تعتبر كذلك فالعلم والمقدرة على بيان العلم علمان والاشياء لا تعرف بما هي عليهِ حقيقةً الاَّ نادراً غير انها تعرف تبعاً لما هي عليهِ بالظاهر ولولا الظاهر لما كان في نفس الحقيقة المجردة من فائدةٍ ابداً فكم من اشياء عظيمةٍ لا يدري بها احد وبالعكس كم من اشياء حقيرةٍ لها قيمة واعتبار ولذلك اني افضل اوقية من المعارف بينةً على قناطير منها خفية اه

ولما كانت فضيلة التواضع غير متوقفةٍ على اخفاء المناقب الحسنة فلا تتوقف

كذلك على المسامحة بسقوط السلطان فمن الضروري اذن ان يجمع الرئيس بين التواضع والمحافظة على السلطان لان السلطان من دون تواضع عتوّ وخيلاء والتواضع بلا سلطان في الرئيس وهن وفشل · قال القديس غريغوريوس فليحذر الراعي من سقوط سلطانهِ بحجة التواضع وليخف من انهُ بزيادة احتقاره نفسهِ لا يعود قادرًا على ايقاف مرؤوسيهِ عند حدود واجباتهم فعليه اذن ان يحترم سلطانه في الخارج محافظة على مصلحة مرؤوسيه وان يحترز كذلك من ان تتسلط عليهِ اهواء العظمة والترفع اه (الراعي ق ٢ ف ٥) وقال القديس اغوسطينوس في قوانينهِ كن ايها الرئيس متواضعاً تواضعاً لا يُنقص من السلطان الواجب لسياسة مرؤوسيك اي فليرَ فيك المرؤوسون من السلطان ما يهيبهم ومن التواضع ما يقتدون بهِ لان الرئيس الذي يتخطى بتواضعه حدود الفطنة يقع من يده سيف السلطان الذي بدونه لا يقدر ان يخضع مرؤوسيه لنير طاعة القوانين فالطريق المثلى التي يجب اتباعها انما هي المتوسطة بين الافراط والتفريط في التواضع فكلا الطريقين يؤدي الى الفشل ولا يليق برجل الله تعالى

﴿ الفصل الثالث ﴾

في ان السلوك بموجب القانون ضروري في الرئيس

في الاسباب التي توجب ان يكون السلوك بموجب القانون ضروريًا في الرئيس وفي ما يتطلب من الرئيس سلوكه بموجب القانون

المقالة الاولى

في الاسباب التي توجب ان يكون السلوك بموجب القانون ضروريًا في الرئيس

السبب ١

هو علوّ درجة بين مرؤوسيه ووجوده على مراى من جميعهم

قال الاب الجسري المكرم مما يجب على رؤساء الجماعات المسيحية اكتساب

جميع الفضائل ولا سيما الفضائل الموجودة في مرؤوسيهم · الا ترى ان رب الطبيعة عندما خلق جسم الانسان جمع في الرأس حواسهُ الخمس وهي عقد جماله ومدبرة اعماله وانهُ لم يترك لسائر الاعضاء الاَّ حاسة اللمس ان رب النعمة اراد ايضاً لما الَّف جسم السيد المسيح السري الذي هو الكنيسة وجماعاتها ان تكون مجتمعة في الرئيس كل الفضائل اللازمة لجمال الجسم السريّ والضروريّة لسياسة شؤونه وتدبيرها وكما ان الرب يسوع جمع في نفسهِ بما انهُ رأس الكنيسة كل النعم والفضائل والمواهب الموزعة على قبائل الارض وطغمات السماء جمعاً سامياً مطلقاً كذلك رؤساء الجماعات البشرية فانهم يفوقون جميع مرؤوسيهم بكل الفضائل السامية · وقد جآء في تمثال الملك نبوكدنصر ان رأسه كان من ذهب وسائر اوصاله من معادن اقل ثمناً من الذهب (جلد ٢ م ٣ ق ١)

فلا يحق للرئيس ان يدَّعي الجدارة بمقام الرئاسة ما دام يرى في نفسهِ نقصاً في القداسة عن مرؤوسيه ولا بالكرامات التي تقدم لهُ لان النظام الطبيعي يقضي بان يكون علو المقام مساوياً درجة الاستحقاق وقد اثبت سالڤيانوس ان المقام بغير فضيلةٍ كلقب شرف بغير انسانٍ يلقب بهِ او كحليٍّ ثمينةٍ مطروحة بين الاقذار (ك ٢ في البخلآء) وقال القديس برنردوس : ان من كان مقامهُ سامياً وعقله خسيساً كا مسخاً نجيساً لا انساناً انيساً ومثله من كان الاول في الرتبة والاخر في الفضيلة وما هولاء الروساء الاَّ كالقرودِ المرسومة على الجدران باشكال وهيئات مضحكة اه (من اعتباراته ك ٢) ولا غرو ان هذا العلَّامة الرزين لم يغالِ بوصف هولاء الروساء الاَّ ليبين لنا شدة نفوره واشمئزازه من حالتهم السيئة

ومن الطبيعي في الانسان ان يحسن الجلوس في حضرة آخر من بني جلدته الاَّ اذا كان فاقدَ اللبّ خالعاً عذار الحياء والحال ان الرئيس المرفوع الى مقام سامٍ هو في مرآى من الجميع ابداً وترتفع نقائصه وفضائله بارتفاعه ويرقب الجميع سيرته بالاجمال والتفصيل ولا تلبث اسراره الغامضة ان تنكشف من نوافذ كثيرةٍ · وقال القديس غريغوريوس : ان منزلة الراعي من رعيته كمنزلة الوجه من البدن فالوجه هو الذي يبدو اولاً وينظر اليهِ نظراً مخصوصاً وهو الذي فيه السمات التي تميز اصحابها بعضهم عن بعضٍ واعلم ان اهل الكرامة لا يتركون شيئاً في

الظلام او تحت مكيالٍ على ما قال بلينوس · واشبع الكلام كاسيودوروس في هذا المعنى فقال : ان بين نقائص الملوك ونقائص التبعة فرقاً بيّناً وهو ان نقائص التبعةِ ليست بذات بالٍ ولا اهمية لها ولا تلبث ان تمسي نسياً منسياً واما نقائص الملوك فمشتهرة ومعرَّضة ابداً لاشدّ ضروب التنديد والملامةِ ومن المسلم بهِ ان من كان في الجماعة وجهاً ومقداماً لا يتأتى لهُ ان يكبو كبوة حتى تكون في مشهدٍ من الجميع فاعلموا اذن يا روساء الجماعات ان اعمالكم موضوع احاديث الشعب وكأن الشعب لا عين لهُ الاّ ليرقبها ولا لسان لهُ الاّ ليعلنها اه (ك ٦ رسالة ٢٣)

ومن اين للرئيس ان ينجو من تنقيب مرؤوسيه وتنديدهم وهم مشغولون دائماً بمراقبتهِ ؟ ويا حبذا لو رضوا بمراقبة الظاهر فانهم يبذلون كل الجهد في ان يروا حركات اعماق القلوب ولا عجب اذا بقي الخير الذي يعمله مستوراً لان مرؤوسيه قلما يحسنون الظن فيهِ فلا يصدقون فيهِ شيئاً حسناً وان كان ظاهراً أمّا الشرّ الذي يفعله فيكشفونه وان خفيًا ويتعقبونه على الاثر وان بعيداً ويصدقونه باضعف الدلائل · ومن اشدّ من افراد الجماعات دهاء في كشف ما يكتمه المتلبسون · فقد ينجح المراؤون في الدنيا واما في الرهبانيّات فانهم يتبرقعون بلا فائدة لان الرهبان الذين درسوا الفضيلة درساً مستمرًا ومارسوها ممارسة متصلة يعرفون كيف يميزون بين الغث والسمين ولا يحكمون على الظاهر فالرهبان في امر التمييز بين الفضائل الصادقة والكاذبة كالصيارفة الذين مهروا في معرفة النقود حتى اصبحوا يفرقون جيدها من زائفها بمجرَّد لمسها او النظر اليها اه (بوفيس مكتوب ٢)

وقال في المحل نفسه : لابد من ان يكتشف بعضهم يوماً ما على بعض مخالفات في سلوك الرئيس وعلى مواضع نفوره او كبريائه وكثيرٍ من النقائص التي لا يألو جهداً في اخفائها لانهُ لا يقدر ان يتظاهر ابداً في كل اعمالهِ واقوالهِ بخلاف ما هو عليهِ في الـ [illegible] لا بد له في اثناء المكابرة من السقوط وقد يمكنه ان يخفي عن نفسهِ بوجهٍ من الوجوه بعض نقائصه او بعض عاداته السيئة ولكنه لا يستطيع ان يخفيها او يخفي شيئاً منها عن مرؤوسيه لشدة سهرهم

وتيقظهم لاجل معرفة ما يريد هو ستره وكتمانه وما رجه في هـذه التجارة اي كتمان اعماله ومقاصده التي تخالف الصواب مدةً وجيزةً الأ خداع نفسه وخسارة اعتباره وخفض شأنه عند مرؤوسيه الذين ظن انـه يخدعهم وهو لم يخدع الأ نفسه

السبب ٢

هو ان الجمهور يقتفي طريقة الرئيس سواء كانت صالحة ام طالحة

لا يتخذ الفرد مثال الفرد طريقةً يتبعها دائماً ولو كان له فيها تنشيط وتقوية على العمل اما مثال الرئيس فمتبوع واجب كأنه الطريقـة المثلى · قال القديس غريغوريوس : لا اظن ان تأثير الصبغ بالثوب او رائحة الشراب بالاناء اشد من تأثير مثل الرئيس في مرؤوسيه ولذلك علل مختلفـة منها الميل الغريزي في المرؤوسِ الى الاقتداء باعمال رئيسهِ وهذا الامر حمل تلسيت على ان يقول ان هذا الاندفاع الغريزي الى الاقتداء بالرئيس لاقوى مما في الشرائع والقوانين من التهديد والانذار · ومنها حذرٌ فيهم طبيعي من ان يعملوا ما لم يعمل الرئيس · قال يوسيفوس المؤرخ : لا يتأتى للعامة ان يصادقوا على حسن سلوك الملك ان لم يوافقوه فيهِ اه · ومنها اعتقادهم ان في اعمال الرئيس مثال القداسة وانها القانون الحي بل هي الفضيلة المتمثلة بالذات والاداب الجـارية بالفعل وان من اخص واجباتهم ان يقتدوا بها في جميع ما يعملون · فاستنتج القديس برنردوس من هذا ان المرؤوسين يتقدمون في الفضيلة بتقدم رؤسائهم ويتأخرون عنهـا بتأخرهم ويثبتون بثباتهم لا اكثر ولا اقل · وهم اشبه بدواليب العجلة السريّة التي شاهدها النبي حزقيال وهي تتبع حركة الحيوانات كيفما جرت · فالرئيس اذن لا يقدر ان يتقدم في الفضيلة او يتأخر عنهـا وحده بل يقدم ويؤخر معهُ عدداً وفيراً من مرؤوسيهِ كالشمس اذا اشرقت انارت جميع الاشياء وان توارت خلّفت الظلمة فيها جميعاً بل هو كتاب حي كثيرون من المرؤوسين لا يحسنون القراءة الأ فيه · وقد قال الملك ثيودوريكوس : يمكن ان تخالف الطبيعة شرائعها ولا يمكن ان يُخالف التبعة سلوك متبوعهم اه

لقد ادرك بالانوكس فرقاً بين الايمان والمحبة فذكرهُ في كتاب سيرة القديسة تروازيا قال : ان الايمان يدخل في قلوبنا من الاذان واما المحبة فتدخلها من الاعين اه لانهُ لا بد من الوعظ والتعليم لاجل الاقناع بقواعد الدين النظرية واما اثبات المبادي الادبية فيكفي لها المثال لا غيره فالرئيس اذن يجب ان يكون عاملاً بقوانينهِ عملاً مدققاً حتى اذا فُقد كتاب القانون يجده المرؤوسون مسطراً في سيرته واننا نرى روح القدس قد سطر الانجيل الطاهر في قلوب الرسل قبل ان يسطره هولاء بالمداد على الورق • وقال في هذا المعنى القديس بوناونتورا : لما كان قليل من الناس يتأثرون بتعاليم السيد المسيح ويفهمونها عندما تفرغ في قالب الكلام بخلاف ما لو شاهدوا الناس يعملون بها وجب ان تنقشها على صفحات قلبك حرفاً فحرفاً وان تبيّنها في اعمالك بل يجب ان تصير معها شيئاً واحداً فيكون لها بعد ذلك تأثير غريب في الاعين وتتبجن في القلوب بسهولة اه (الستة الاجنحة ف ٦) • ولعمري ان الرهبان لا يفتقرون الى الارشاد الى الفضيلة كافتقارهم الى المثال في ذلك لان ثقتهم بالاعمال اقوى منها بالبرهان وان الكمال الرهباني عملي اكثر منه علميّ وان طريق التعلم كذلك طويلة فيها تشرح هذه المبادي القليلة شرحاً مملاً في مدات متقطعة اما طريق المثال فهي قصيرة موثرة لانها متصلة ولانها تعرّف عن كل شي في وقت واحدٍ وهي لا ترضى بالارشاد الى الحقيقة بل تقود اليها بالعمل • وقال سينك الفيلسوف : ان شئت ان تنتخب لك معلماً فاختر من ترضيك سجاياه لا اقواله ومن يمكنه ان يبجن الحقائق في قلبك لا في عقلك اه

هذا واذا تأملت في العدد الاكبر من الناس تجدهم منقادين بالاقتداء لا بالتعليم فلا يسمعون الاَّ قليلاً غير انهم بسكوتهم يأخذون عن غيرهم ويقتفون بهم بطيبة خاطرٍ لان بلادتهم وارتباكهم في مصالح عيالهم يحولان بينهم وبين التعلم او يسببان لهم النسيان سريعاً اما مثال الفضيلة الذي يشاهدونه بالفعل فلا يلبث ان يتبجن في اغاظ العقول ويبقى راسخاً في الاذهان وان كانت ضعيفةً خامدةً والراهب في هذا الوجه كالعاميّ يُوثر ان يرى على ان يسمع كأن النفس في الاعين اكثر منها في الاذان •

فالامثال الصالحــة اذن هي هي وحدها التي تشق طرق الفضيلة والصلاح والكمال فينهجها طلابها . واذا انقطع الرؤساء عن الوعظ فهي تتكلم فيهم بافصح عبارة واجلى بيان

السبب ٣

هو ان رذائل الرئيس ترمي بالرهبانية الى الخراب والدمار

لان الرذيلة بذاتها هي مرض معدٍ ونحن معرضون ابداً لقبول سمها القتال من كل الجهات نعم اني لو رأيت في رئيسي مئة فضيلة ورأيت فيه رذيلة واحدة اراني اميل الى ان آخذ عنه هذه الرذيلة الواحدة اكثر مني الى ان آخذ شيئاً من فضائله الكثيرة فاني في ذلك كالهوام التي يقال فيها انها لا تمتص من الاجسام التي تتعلق عليها الاَّ المواد السامة التي توجد فيهـا والسر في ذلك هو ان طبيعتنا مذ سقطت من حال النعمة امست اميالها الى الشرّ اشد منهـا كثيراً الى الخير والى هذا اشار احد القدماء اذ قال : اننا لا نتعلم شيئاً باكثر سهولة مثل الشر ولا ننسى شيئاً باكثر صعوبة مثله اه لانهُ لمَّا كان لا شيءَ يثقل على كاهلنا مثل نير التهذيب والنظام كانت اعيننا تفتش ابداً لترى احداً يريد ان يخلع نيره لنخلع نحن نيرنا ايضاً

والعدوى اذا كان مصدرها الرئيس تمتد امتداداً سريعاً والله اعلم اين تنتهي . قال شيشرون ان الملوك لا يرتكبون الشرَّ وحدهم بل يحملون غيرهم على فعله والمصيبة ليست بفسادهم بل بافسادهم المملكة . اه

(الشرائع) وكان بلينوس يقول : انهُ اذا تزعزعت رومة فذلك تشاؤم سوء ينذر بخراب سائر الممالك . اه . وكان صولون الاثيني يشبّه مَثَل الملوك بظلّ الاجرام فان الجرم اذا مال نحو القبلة فلا يميل الظل نحو الشمال بل يتبعـه كيفما اتجه . اه وقال سالفيانوس : ان بين الرأس والاعضاء تعلقاً شـديداً لا يمكن معه ان تكون الاعضاء صحيحـة والرأس مريضاً فزلّة الرأس تجرّ في الغالب وراءها زلاّت عديدة وتمتدّ من سنة الى سنةٍ ومن دير الى ديرٍ والسبب في ذلك هو ان الرئيس لا يخطو خطوة غير مستقيمـة حتى يراقبها الكثيرون

ويتأملونها من كل وجه فتضحي بعد ذلك سبب عثار اما تزكية الرئيس نفسه بسائر فضائله فلا تجدي نفعاً ٠ قال القديس غريغوريوس: ان قليلًا من الافسنتين او بعض قطرات من المرارة يجعل الشراب العذب مرًّا وان الف رجل أصحاء لا يقدرون ان يهبوا المصاب بداء الطاعون شيئاً من عافيتهم بيدَ ان هذا يقدر ان يشركـ في مرضهِ العضال بلدًا كبيرًا فان السدّ المنيع لا يكاد يخشى من سقوطهِ ولو فاض الماء وطغى عليه ٠هذا اذا كان مرصوص البناء غير انه اذا سقط منه حجر واحد وان صغيرًا كان ذلك مبداء وعلةً كافية لدكه واندثاره

ونضيف الى ذلك كلام مودست دي سانت امابل قال: ان زلاّت الرؤساء لا يمحوها كرّ الايام بل هي اشبه بالازليّ لان الامر اذا ما صار بمنزلة شريعة يتعذر بعد ذلك الغاؤه أو لا يُلغى الا لاسباب موجبة يندر توفرها ولاسيما اذا كان ذلك الامر شرًّا لانه يتأصل سريعاً في طبيعتنا الفاسدة تأصلًا عميقاً وقد تقدم ان اعمال الرئيس تُضحى في أعين جماعته كشريعة راسخة فاذا تراخى الرؤساء في حفظ قوانينهم واهملوها حدث في الرهبانية شوائب يصعب اصلاحها بعد او يتعذر لان المرؤوسين يتشبثون بها ويعدُّونها عادات شرعية ويعتقدون انهُ ليس لاحدٍ منهم حق بالغائها وملاشاتها فان ياربعام اقام مذبحاً للاوثان والذين خلفوه تبعوه في ضلالهِ وان كانوا اتقياء فان الكتاب يذكر عن كل منهم انهُ لم يهدم المرتفعات ٠اه ولا يعارض ذلك ان اولاد قورح لم يقتفوا مثال ابيهم عندما قام على الرب لان الكتاب يعتبر ذلك كأعجوبة ويذكره بهذه الصفة ذكرًا مخصوصاً

السبب ٤

هو انه ان لم يكن الرئيس مثالاً صالحاً كان اصلاحه لمرؤوسيه توبيخاً لهُ

قال القديس غريغوريوس: لما كان الرئيس مطالباً بتنظيف قلوب مرؤوسيه اضطرّ الى ان ينظف قلبه اولاً لانه لا يجب ان تكون اليدان ملطختين عندما نأخذ بهما شيئاً وسخاً لتنظفه والا لعاد ذلك الشيء أوسخ مما كان قبله ٠ اه (الراعي ق ٢ ف ٢) وأوصى لاجل هذا السبب القديس بولس تلميذه تيموتاوس ان يكون نقيًّا طاهرًا من كل عيب ومزداناً بكل الفضائل لانه بدون هذا لا

يقدر ان يوبخ المذنبين ·

ومن المحقق ان المرؤوسين لا يرون انهم استوجبوا التوبيخ ما دام لهم في سيرة رئيسهم دافع الى التهاون في واجباتهم لان رئيسهم لا يقدر ان يعدهم مذنبين في ما هو يسامح بهِ نفسه وكأني به يسمعهم يقولون له باطناً : ايها الطبيب اشفِ نفسك· كيف تلومنا في ما تفعله انت كل يوم ؟ سر امامنا ونحن نقتفي آثارك والاَّ تشجب نفسك بما تديننا عليه وتصبح بيننا رجلاً تكذّب أعماله اقواله وتهدم بيدٍ ما تبنيه بالاخرى · أوَهل نحن مأمورون بحفظ القانون اكثر منك ؟ اما نذرت انت عين ما نذرنا نحن ؟ وان وجد بينك وبيننا فرق من الفروق أيكون غير انك مأمور بحفظ القانون اكثر منّا واماَّ نحن فليس لنا ان ندينك وانما رب السماوات هو الذي سيدينك وحدهُ

وعلى الرئيس ان يكون منزهاً لا عن الزلاَّت التي يريد اصلاحها في مرؤوسيه فقط بل عن كل زلّة مطلقاً لانهُ لما كانت الطبيعة البشريّة تُذلّ بالتوبيخ أشدّ اذلال كان المرؤوس يبذل قصارى جهده في ان يردّ الى رئيسه الخجل الذي يسببهُ لهُ بتوبيخه اياه· ثم ان القديس غريغوريوس زاد على ذلك معنىً آخر فقال : ان الرؤساء ذوي العثار والرذائل لا بدَّ لهم من السقوط في الافراط والتفريط فانهم اما يُغضون مطلقاً عن اكبر الذنوب إذ توجب ذنوبهم ذلك عليهم واما انهم يؤاخذون بالذنب بصرامة شديدة رجاء ان يرفعوا من عقول مرؤوسيهم وهم انهم هم يسقطون بزلاَّت كهذه اه (رأس ٢١)

وقال في هذا المعنى القديس برنردوس : ما اكثر ما تعجبت من ان قوانيننا تأمر الرؤساء بالتوبيخ على الزلاَّت بايجاب شديد ومع ذلك ارى زلاَّت كثيرة ليس من يوبخ عليها ولا ارى سبباً لذلك سوى ان الرئيس يخجل من ان يوبخ مرؤوسيه على نقائص تعوّد هو ان يرتكبها اه ·

وقال بوفيس : ان الرئيس اذا ما شعر بتبكيت ضميره على نفس الزلاَّت التي يريد اصلاحها في مرؤوسيه يضحي جباناً ولا يجسر ان يقدم على العمل عند مسيس الحاجة وان فعل شيئاً مما يجب عليهِ فعله لايفعله الاَّ بتراخٍ زائد وكانهُ يفعلهُ رغم انفه ·وهو بذلك لا يشخص السلطة الا تشخيصاً ضعيفاً وكلامه يكون

ككلام خائف وعبارته مبهمة غير انه يظهر كانهُ يتكلم كلاماً مبرماً مستحسناً لكنه بعيد عن الاقناع والافحام اذ يشعر بان كل ما يقوله مردود عليهِ ومكذَّب بسوء تصرفه واذا ما انتهت اخيراً ايام رياسته المنقضية بالتراخي والاهمال يخلع عنهُ ثوب الصلاح الذي ما كان متردياً بهِ الاّ تكلّفاً وتصنّعاً لانه عندما يرى نفسه غير مضطرّ للتلبس والتظاهر بما ليس فيهِ مما كان قبلاً يرتاح الى اخلاقه الطبيعية ويرجع الى عاداته السيئة ويعلن بذلك للجميع ان شكل الفضيلة الذي كان يتظاهر بهِ لم يكن منه الا تلاعباً وسخرية . اه (تحرير ٢)

السبب ٥

هو انهُ ان لم يعظ الرئيس بمثلهِ فمواعظه عبث

ان المثل هو عضد الاصلاح كما انهُ عضد الوعظ وهو يجعل المواعظ مفهومة والواعظ ذا حجة موثرة فالسيد المسيح ابتدأ اولاً بالعمل واخذ بعده يعلّم والذين رآهم يقولون ولا يفعلون دعاهم مرائين اه (تحرير ٢ ايضاً)

وقال ايضاً انه لامر ينافي النظام الطبيعي ان نفصل المثل الصالح عن الوعظ لانهما خُلقا ليكونا معاً ويقال ذلك ايضاً في من يريد ان يحافظ على سلطانه ويأبى ان يخضع لما يقتضيه سلطانه او يريد ان يكون مطاعاً من مرؤوسيه ولا يجتهد في ان يكون لهم قدوة او يطلب ان يكون سلطانه مطلقاً وسيرته لا تخلو من الشوائب والمؤاخذات . فلعمري ان الروساء لم يتولوا الرياسة مجّاناً بل تولوها بعهد وذمة يواخذون بهما لانهم لم يرتقوا الى المناصب العالية الا لكي يعلنوا شرف الصلاح فاذا حق للرئيس ان يطالب مرؤوسيهِ بحفظ القوانين فلهم ان يطالبوه بمثله الصالح ويجوّزون لانفسهم حق انتقاد اعماله انتقاداً عنيفاً ويظهر لي من ذلك ان لا فرق بين الرئيس والمرؤوس سوى هذا وهو ان المرؤوسين ما لهم سوى رئيس واحد يراقب اعمالهم اما الرئيس فعدد رقبائه بعدد مرؤوسيه لانه عليهِ ان يؤدي لجميعهم ولكل واحد منهم حساباً عما يأتيه من الاعمال

فمنتهى الكمال يكون في اجتماع السلطان والمثل في ذات واحدة لان المثل يجر بغير عنف بل يخفف وقر الطاعة . ويبين للمرؤوسين ان لا شيء مما يؤمرون

بهِ غير مستطاع لانك مهما بالغت في حث مرؤوسيك وتحضيضهم على الصلاح وهم لا يرون منك مثلاً صالحاً لا يكون لعملك هذا نتيجة ويذهب جهدك فيهِ باطلاً وربما تقدر من دون المثل الصالح ان تخيف مرؤوسيك او تضطرهم الى العمل في ما تأمرهم بهِ ولكن لا تستطيع ابداً ان تحملهم على الطاعة القلبية ولا على الاذعان الفعلي . أوَ هل للملح ان يملح اذا ما فقد خاصته او للسراج المنطفىء ان ينير في الظلمة ؟ لا لعمري . ومن لا يرى ان هذه الحالة هي حالة الرئيس الذي لا يقرن مواعظه بالمثل الصالح ؟

ان ترك القوانين يكون اما من توهم ان حفظها متعذر واما من اعتبار ما غير خطيرة لانه لا مطالبة بما يفوق المستطاع ولا بما هو قليل الاهمية والحال ان الرئيس بمثلهِ الصالح اي بحفظه قوانينه امام مرؤوسيهِ يبين لهم امكان ذلك وجليل قدر تلك المسالك بعكس ما لو تجاوزها فانه حينئذٍ يظهر لهم ان حفظها يفوق المقدرة او انه ليس هناك امر هام يقتضيهِ السلوك في منهج الكمال الرهباني لانه معتبر عند الجميع انه اقدر الرهبان على حفظها وعلى تقديرها قدرها فعلى ذلك اذا حفظ المرؤوسون القوانين وعرفوا قدرها حق معرفة وهم يرون ان الرئيس لا يراعيها يكون ذلك معجزة من المعجزات ولعمري اذا خيف الا يستفيد الكثيرون من التعليم المقرون بالمثل الصالح فماذا ينفع الكلام الغير المقرون بهِ ؟

المقالة الثانية

في ما يوجب حفظ القانون على الرئيس

الواجب ١

ان يمكث في محل اقامته

ان موديست دي سانت امابل يقدم حججاً دامغة تؤيد حفظ هذه الفريضة (الرأس الكامل ك ١ ف ١٨)

ان الرئيس مأمور بما يؤمر بهِ الاسقف من ان يقيم في مركزه وذلك من قبل الحقوق الالهية والطبيعية فان الضمير والقوانين المكتسبة يبيّنان ان الراعي لا يقدر ان يرعى رعيته ان لم يكن مقيماً في وسطها · فلا تتغيّبنَّ اذن ايها الراعي عن مركزك وان دعت الضرورة الى ذلك فليكن غيابك لمدة قصيرة لان اقامتك الدائمة في الدير تقيم النظام والترتيب فيهِ وتقي جمهورك من هفوات كثيرة

ذكر القديس برنردوس في مقالته في الاساقفة والكهنة قال : انهم رعاة من فروضهم ان يغذوا رعيتهم بلبان تعاليمهم وامثالهم غير انهم لا يستطيعون الى ذلك سبيلًا ان لم يقيموا بالقرب منها ولعمري ان هذه الحجة تصدق على الرئيس بحروفها · اه

وقال القديس افرام في مقالته في خوف الله : في نوم الراعي فرح الذئب اه فاذا كان نوم الراعي وهو في الحظيرة يعدّ ذنباً وينذر بالويلات فماذا ترى يكون منهُ لو نام او غفل وهو بعيد عنها؟ ومن رأي القديس غريغوريوس ان سبب التراخي في القوانين هو غياب الرئيس غياباً متكرراً مرّاتٍ عديدة فاعلم ايها الرئيس انك بتوانيك تخمد نار النشاط في الدير فهذا سبب كافٍ لامتناعك عن الخروج ان لم يكن هناك داعٍ صوابيّ اه (ك ١ في القوانين)

فلا غروَ ان حضور الرئيس بين مرؤوسيهِ ومهابته فيهم يمنعان الاغلب منهم عن السقوط في اكثر الشوائب (تريتم ف ٢ قوانين)

ان النبي ارميا يمدح الرعاة الذين يقول فيهم : انهم يأتون بقطعانهم الى صهيون ويضربون اخبئتهم عليها من حولها ويرعون كل واحد في مكانه اه (ف ٦ عد ٣) فمن المسلم بهِ ان الذئب راصد في الكمين لا ينتظر الا فرصة غياب الراعي عن الرعية لكي يفتك بها هذا وان الخراف معرضة لاضرار شتى فاذا تركت لذاتها تبددت حالاً وبادت · اه

وكتب القديس بطرس داميانوس قال : لا تخرج من ديرك ايها الرئيس الا نادرًا واذا خرجت فليكن خروجك الى حيث غرست كلمة الله لكي تواصل سقايتها وتربيتها ولا تكن بكثرة خروجك كضيف لا يراك الرهبان الا نادرًا

كانك من ابناء السبيل بل كن ضيفاً مواظباً ثقيلاً بحضورك الدائم في الدير اه
(اعماله ١٣ ف ١٥)

ولعمري انهُ لامر مستغرب كما قال القديس برنردينوس ان يحاول الاساقفة المقيمون بعيداً عن مراكزهم ان يحيوا قتيل المعصية بواسطة نوّابهم لاننا رأينا ان اليشاع لم يقدر ان يقيم الميت بواسطة خادمه جحزي وان السيد المسيح نفسه لم يرد ان يقيم احد الاموات الا وهو حاضر اه ·

كان ان احد الكرادلة اسقف رعية فاعتذر يوماً الى القديس كارلوس بودوماوس عن تغيُّبه عن ابرشيته لصغرها وكفاية النائب لسياستها اما القديس فاجابهُ هب انه ليس في ابرشيتك الاَّ نفس واحدة فهذا سبب كاف لاقامتك فيها ابداً لانهُ لو هلكت تلك النفس بذنبك لهلكت كذلك نفسك · والح يوماً على هذا القديس اصدقاؤه ان يخرج من ميلان مدينة اسقفيته لاشتداد وطأة الطاعون فيها فاجاب قائلاً : ما الافضل في مثل هذه الظروف أمبارحة الابرشية امالاقامة فيها ؟ ولما اجابهُ احد الافاضل ان الاقامة فيها هي الافضل قال : فعليَّ اذن ان الازم ابرشيتي لان درجة الاسقف هي درجة الكمال اه

وعند القديس ايلاريون ان وصية السيد المسيح : اسهروا وصلوا اه مخصوصة بالروساء فان ثلاثة امور تضطرنا للسهر المتواصل وهي ١ً كثرة الاعداء الذين يهاجموننا و٢ً نفاسة الكنز الذي نحافظ عليهِ و٣ً سرعة عطب الاناء المحفوظ فيهِ والحال ١ً ان الاعداء الذين يحاربون الرئيس هم اوفر عدداً من غيرهم لان اعداء مرؤوسيه هم اعداء له و٢ً ان الكنوز التي يلتزم المحافظة عليها هي اكثر من التي يحافظ عليها غيره لان عددها يساوي عدد مرؤوسيه و٣ً انهُ يعلم ان هذه الكنوز محفوظة في آنية سريعة العطب جداً اه (ف ٢٦ تفسيره بشارة متى) ولا مشاحة ان وجوب مثل هذا السهر يوجب على صاحبه الاقامة في مركزه ولايسوغ له مبارحته بحجة من الحجج ولو كانت خيراً للانفس

ان القديس برنردوس لما علم ان ارنولد عزم على التغيُّب عن ديره لاجل الوعظ رجاء خلاص الانفس كتب اليهِ فقال : الا تشعر بالسمعة السيئة التي سببتها لنفسك وهي انك لا تقدر ان تقيم ابداً في محل واحد فان مثلك يشكك سائر

الروساء . فاني انبهك تنبيهاً خاصاً الى انك تظلم مروٴوسيك عندما تغادرهم فريسة الذئاب واذا كنت بعيداً عنهم فمن يقاوم العدو ؟ او من يعزّي المحزونين ويقوّم المعوّجين ويقوّي الضعفاء ويقيم الساقطين ؟ واذا تركت مروٴوسيك في فاقة الى مساعدتك وانت مدين بها لهم فانىّ لك ان تتصوَّر ان اعمالك التي تأتيها من قبل الغيرة على الانفس وانت بعيد عن مقامك مقبولة لديهِ تعالى ؟ اهـ (رسالة ٤)

واجاب هذا القديس نفسه واحداً من رهبانه تشكى من طول غيابه عنهم قال : تقول لي ان غيابي مما يسوءكم ولا تطيقون عليه صبراً . فهذا يدل على ان ابتعادي عنكم يشقّ عليَّ جداً ويزعجني كثيراً لانهُ معلوم ان اذية الفرد الذي يفارق جماعته اشد من اذية الجماعة التي تفارق واحداً منها فوجودي ضروري بينكم ولهذا اراني لا اقدر ان استريح قبل اليوم الذي فيهِ اعود اليكم وانظر في ما لكم وعليكم كما يفعل الراعي في رعيته . اهـ (رسالة ١٣٤)

وتعجب احد ملوك الرومانيين من بعض الاباء والامهات الذين كانوا يلاطفون فراخ الطيور وصغار القرود ويسرُّون بها عوضاً عن ان يلاطفوا اولادهم ويسروا بهم ونتعجب نحن باولى حجة من اولائك الروٴساء الذين لا يروقهم وجودهم بين مروٴوسيهم بل يغادرونهم ويعتنون بغيرهم

وكاني بك تقول اني لا اعمل هذا الا رغبة مني في اكتساب الانفس لله أفلا تعلم ان الله تقدست اسماوٴه يجيبك بانهُ لا يطالبك بانفس لم يسلمها اليك ؟ فوجّه اذن جميع عنايتك الى ما هو مطلوب منك وكن شجاعاً وامنع نفسك عن كل درس او مهمة يمكنها ان تستغرق اوقاتك وتمنعك عن خدمة جماعتك لان العلوم التي يسألك الله عنها انما هي سياسة مروٴوسيك وان الخدمة التي انت مأمور بالقيام بها هي تدبير شوٴونهم في الدير فانك تستغرب وتستهجن ما يقع من احد مروٴوسيك من ضياع الوقت حين يتدخل في ما لا يعنيه من الامور أفلا ترى انك انت تضيّع اكثر اوقاتك الثمينة بعملك ما يجب عملهُ على مروٴوسيك الامر الذي لست بمأمور بهِ ولا تقدر ان تصرف له الا وقت الفراغ من اعمالك العديدة الخطيرة ؟

واما الاسباب التي من اجلها يُسوَّغ للرئيس ان يتغيب مرات كثيرة تغيباً

طويلاً فهي ثلاثة اولها حكم الطبيب بتبديل الهواء ضرورة وحدوث اضطهاد يلجيء الى الفرار و٢ً المصالح العمومية الخطيرة مثل مصلحة الرهبانية باجمعها او مصلحة احـد الاقاليم او مصلحة تختص بخير الكنيسة والامّة و٣ً بعض احوال مستثناة تطرأ على الجمهور ويمكن معها ان يسوس رهبـانه في غيابهِ كما يسوسهم في حضوره بينهم

ويحظر على الرئيس في بعض الرهبانيات ان يعظ في غير ديره في الايام السابقة عيد الميلاد وفي الصوم الكبير والفصحية ان لم يكن سبق فأستأذن الرئيس العام بذلك لان حضوره في ديره في مثل هذه الايام اضر منهُ في غيرها

الواجب ٢

ان يتقدم مرؤوسيهِ في جميع الاعمال

وقال موديست دي سانت امابل : اذا صح ان يفتخر الرئيس برياسته وجب عليهِ ايفاء الرياسة حقها لان الرأس في الجسم بمنزلة تتمة وكيف يكون تتمة الجسم وهو لا يوجد حيث توجد الاعضاء ؟ اه (الرأس الكامل)

ويعتبر القديس برنردوس الرئيس عين السيد المسيح لسببين اولهما ان السيد له المجد يحبه كما يحب حدقة عينه والثاني ان الرئيس هو العين التي ينظر بها السيد المسيح الى عباده ولكن ما الفائدة ان لم تراقب العين جميع حركات الجسد ؟ وكيف تراقب حركات الجسد ان لم تكن في اعلا الرأس حيث وضعها الخالق ؟ وقال ايضاً : روح الحياة الرهبانية لا تتوقف حقيقة على السكن بين الجمهور في دير واحد ولا على المشاركة بالاسم والثوب لان هذه من متعلقات الجسد لا الروح لكنه يتوقف على العيشة العمومية والاشتراك في الاعمال الروحية والزمنية لان الاشتراك وحده يظهر بهِ الاتحاد في المقاصد والرغائب

ولاحظ القديس غريغوريوس ان مسح داود ملكاً بالدهن وهو بين اخوته من جملة ما جرى في حفلة قيامه ملكاً وذلك دليل على ان الاسقف لا يتقلـد وظيفته لخير نفسه بل لخير اخوته

و٢ً ان الرئيس مأمور بمساواة نفسه بجمهوره في العيشة المشتركة العمـومية

وان تسامى بشرف منصبه فيكون هو وجمهوره كالدائرة التي تبعد اشعتها عن المركز بعداً واحداً متساوياً

و٣ً انه عليهِ ان يتحاشى ابداء كل حركة لا تصلح لبنيان القريب وافادته لانهُ قائم في بهرة الحلقة على مرأى من الجميع اه (ك ٦ على سفر الملوك)

قال القديس امبروسيوس : لا يعفى الملك من حفظ الشرائع واذا سمح لنفسه بتجاوزها يكون كانه سمح بهِ للجميع بقوة مثله

وجاء في الحق القانوني (في الاحكام ك١ عنوان ٢) الزم ما سننته لغيرك اه والمراد بذلك ان الجميع متساوون بازاء الشريعة وانهُ لا شيء يشين الرئيس مثل ايجابه على غيره حفظ شريعة لا يوجبها على نفسه

ومما يروى ان افلاطون قال : ان سعادة المملكة تقوم باستقامة الشريعة وتوجهها الى الخير العام واذعان الملك لها وهو المقام للمحافظة عليها اذعاناً كاملاً ولما كانت الرهبانية لا تقوم الا بحفظ رسومها وقوانينها التي هي اساسها وعمدها فمن لا يرى ان الرئيس مأمور اكثر من غيره بالخضوع لها وبحفظها بدقة وضبط ؟

ان ضرورة عيشة الرئيس عيشة مشتركة واهميتها لمن الامور التي تحققها مؤسسو الرهبانيات والمصلحون فيها حتى انهم يمنعون بالاجماع عن الرياسة من تعوقه الشيخوخة او بعض الامراض عن حفظ قانونه ومساواة الجمهور في جميع الاعمال العمومية فالقديس برنردوس لم يتأخر عن ان يجر نفسه وهو مريض مرضاً شديداً الى مشاركة الاخوة في الرياضات العمومية وكان من عادتهِ ان يقول في ذلك : ان انفصال الرأس عن الاعضاء لا يكون بلا خطر . اه

وكان الطوباوي غوريق احد تلامذة هذا القديس يهتف قائلاً : ويلي ان مرضي يتعهني عن ان اتقدم رهباني في جميع اعمالهم ويحرمني ما اشعر من اللذة في ذلك والقيام بما توجبه عليَّ وظيفتي . ولما امسيت عاجزاً عن سياسة الجماهير ومساواتهم في رياضاتهم فلم يبقَ لي سوى انقيادي للجميع بالخضوع والطاعة اه

ورب معترض يقول : قد يكون الابتعاد داعياً للاحترام لانهُ من عادة الناس ان يعتبروا كثيراً من كان متحجباً عن الابصار فالجواب : ان هذا لا ينطبق على الرئيس بل الرأس مخلوق لكي يكون متحداً مع الجثمان ولا مجد لهُ ولا سعادة

ولا حياة الا بهذا الاتحاد الدائم لانهُ اذا عجز عن تدبير حركات جثمانه وانعاشها فاتتهُ غايتهُ واصبح كانهُ لم يكن ولهذا هتف ذكريا (ف ١١) موبخاً الرئيس الذي يتغيَّب عن مركزه فقال : ايها الراعي الذي يترك قطيعه ما انت الا صنماً ولعمري ان الصنم هو ما يدّعي لنفسه اكراماً لا يليق الا بالاله الحقيقي وهكذا المبتعد عن مرؤوسيه فانهُ كالتمثال لهُ اعين ولا يبصر وآذان ولا يسمع وارجل ولا يمشي · اه

ورب آخر يقول : يقدر الرأس ان يتيم لهُ وكيلاً جديراً حاذقاً · فالجواب ان هذا خطأ ايضاً لان الاختبار يرينا ان الوكيل لا يكون له ما للاصيل من النفوذ والاهابة

قال لويس غريناد : يطابق هذا المعنى ما جاء في المثل : ان الجواد لا يريحهُ شي ويجدد قواه مثل نظرة من صاحبه ولا حراثة تفيد التربة مثل وطأة مالكها فيها اه وهذا عينه يقال في مفعول نظر الرئيس وافتقاده مرؤوسيه لان شروراً كثيرة لا يردعها الاَّ نظره وفوائد كبيرة لا يأتي بها الا حضوره هذا ومن المسلَّم بهِ ان الراعي لا يقام لكي يدبر رعيته بواسطة غيره بل لكي يرعاها ويسوسها هو بنفسه اه

ورب ثالث يقول : ان كثرة الاشغال تعوق الرئيس عن ملازمة مرؤوسيه في جميع اعمالهم اه فالجواب : انهُ قد يكون لهذا الكلام محل له شبه الحقيقة لو لم يكن عمل الرئيس الاعظم والاهم والاعز على قلبه والمرجح على ما سواه عنده هو ان يتقدم مرؤوسيه في كل اعمالهم لانه مأمور بان يرأسهم ويسوسهم ويسهر عليهم ويحضهم على الصلاح وينهض هممهم بما يرون فيهِ من المثال الصالح · ألا ترى كيف تغادر قواد العساكر كل عمل لكي يتجردوا للعمل الوحيد المطلوب منهم الا وهو ان يشجعوا جنودهم ويدفعوهم الى الانتصار وهم ابداً في مقدمتهم وقد اخبر شيشرون قال : ان يوليوس قيصر لم يقل قط لجنوده اذهبوا الى هناك بل كان يقول لهم تعالوا الي هنا وان ابيمالك لما كان يربط حزماً ضرورية لمعدات المعسكر قال لجنوده : لقد نظرتم كيف عملت فاعملوا مثلي اه

وهكذا كان يقول جدعون لجنوده : فليقتدِ بي كل منكم وليفعل ما

يراني فاعله اه ولعمري ان هذه هي الاوامر الشريفة التي يمكن لافاضل القوّاد ان يصدروها لجيوشهم وان يفتخروا بها وكان الرسول نفسه يقول لاهل قورنتيه: فاسألكم ان تقتدوا بي كما انا اقتدي بالمسيح اه (١قو ٤) وهكذا قال السيد له المجد لتلاميذه: انني قد اعطيتكم قدوة حتى انكم كما صنعت انا بكم تصنعون انتم ايضاً · اه (لو ١٣: ١٥) فهذه هي بالحقيقة الوصية المقرونة بالصواب والشديدة التأثير التي يمكن الراعي الصالح ان يوصّي بها الرعية ليحملها بها على ترك الرذائل وممارسة الفضائل

الواجب ٣

انهُ ليس لهُ ان يسمح لنفسه بما لا يريد ان يسمح بهِ لغيره

من البيّن ان اخطاراً كبرى تكتنف الرؤساء من هذه الجهة لانهم يلتزمون ما يلتزمه الرهبان من مقاومة الهوى ويزيدونهم بمقاومة السلطة التي يمتازون بها عنهم فان كل انسان يفتقر الى من يساعده على ضبط اهوائه اما الرئيس الذي يرى الجميع خاضعين له فيقتضي لهُ ان يضبط اهواء نفسه بنفسه من دون مساعد خارج عنه وليعلم ان روح السلطة يميل به الى ان يسمح لنفسهِ بما لا يسمح به لغيره قال القديس غريغوريوس (الراعي ق٢ ف٦): لا يحسن احد استعمال السلطة مثل من يعرف كيف يقمعها ويقاوم مطامعها اه

وذكر بوسويت الشهير تتمة هذا المعنى فقال: لا يحافظ احد على السلطة حق المحافظة ويثبت اركانها الا من كان لا يدع احداً يتجاوزها ولا يدعها تتجاوز الحدود المرسومة لها فانه يعضدها من الخارج ويكبح هجماتها من الداخل اذ يتغلب على نفسه ويعمل بذاته ما لا يتجرأ احد ان يطالبه بهِ اه (من احدى عظاته) لانهُ يوجب على من كان في المنزلة الاولى وكان له السلطان المطلق ان يكسف مجده بظل التواضع وان لا يسمح لنفسه باكثر مما يسمح بها لغيره · قال القديس امبروسيوس: لا شيء يعرّض الرجل الصالح للخطر مثل مقدرته على ما يريد وحصوله على ما يشتهي اه (مديح داود ك٢ ف٢٠) ولعمري ان هذه هي الحقيقة الضرورية التي ينبغي لكل رئيس ان يدرسها ويحسن التأمل فيها

ولكن ما اصعب هذا الامتحان وما اشد هذه الحرب ! فلا غروَ انه يشق على الانسان ان يمنع نفسه مما يرى الجميع يقدمونه له ويظهرون كانهم يستميلونه اليه لانهُ يضاد اهواءه ورغائبه في حين لا يجد له ضداً سوى نفسه وهذا هو الذي يضطره كثيراً الى ان يخاطب ربه قائلاً : اللهمَّ انت تحكم على من يحكمون على عبادك فليهب هؤلاء سلطانك لانه ما من احد يهابونه على الارض سواك . وليبتهجوا بخضوعهم لهذا السلطان المطلق اذا لم يكن عليهم سلطان سواه

قال ماركوس انطونيوس يتأسف على الافراط في السلطة عندما رأى في بعض الملوك سلطاناً اعمى وفي البعض سلطاناً اخرس ان ذوي السلطة العمياء هم اولائك الذين يظنون انه يحل لهم ان يعملوا كل ما لا يخافون من المؤاخذة به وذوو السلطان الاخرس هم من لا يتجرؤون على ان يؤيدوا ما يعماونه ولا ان يأمروا بما لا يعملون . وقال اني وان كنت غير مكلف بالشريعة فلا اسلك الا بموجب احكامها اه وعلى هذا قال ساودرا : ان ما يمنع الملك عن تجاوز الشريعة ليس قوة فيها بل قوة العقل التي تُبنى الشريعة عليها ولما كان هذا البرهان طبيعياً وعامًّا في كل الناس فلا يليق بالملك الا ان يخضع للشريعة عند الاقتضاء وان كان في خضوعه لها لا يرى جدوى غير تسهيل حفظها على الرعية ولا ريب انه لاجل هذا السبب عينه أمر الله حزقيال ان يأكل الكتاب وذلك لكي يرى الشعب ان الملك ذاق الشريعة قبل الجميع واستعذبها فينقاد بمثله ويحفظها بكل تدقيق وضبط اه (التأليف نفسه ف ٢١)

هذا وان القديس فرنسيس سالس كان يقسم الرؤساء اربعة اقسام فالقسم الاول هم اهل المسامحة الذين يتساهلون ببعض الاشياء لنفسهم ولغيرهم وهؤلاء انما هم الكسالى الذين يدعون الماء يجري في مجاريه اي انهم يتركون كلًّا من مرؤوسيهم وشأنه . والقسم الثاني هم القساة الصارمون على انفسهم وعلى غيرهم فهؤلاء يفرطون في طلبهم الكمال فتحبط اعمالهم وتكون بلا نتيجة فينبغي اذن على الرقيق اللطيف ان يبتدئ فيعامل نفسه باللطف والرقة لانهُ من لم يكن رقيقاً لنفسه وشفيقاً عليها فلمن يرق وعلى من يشفق بعدها ؟ ليس اذن للرئيس وان كان قدوة الرهبان ان يطالب بكل ما يعمل هو نفسه لانهُ لما كانت المناسبة بين

الاعمال والمقام لازمة لزم ان تفوق اعمال الرئيس اعمــال مرؤوسيه هذا ومن الواجب ان يطالب الرئيس بما ترسمهُ القوانين لا بمــا زاد عنها فقياسه في مطالبة مرؤوسيه هو ما يتدرون عليه هم لا ما يعمله هو . والقسم الثالث هم القساة على انفسهم المتساهلون مع غيرهم من المرؤوسين وهولاء هم المغفور لهم امــام الله لانهم يعاملون غيرهم بالرفق واللين والقسم الرابع هم الذين يتساهلون في امور انفسهم ويقسون على غيرهم فانهم كالناقوس الذي يدعو الناس الى الصلاة وهو لا يقيمها او كالبوق الذي يدعو الى الحرب وهو لا يدخل مضمارها او كالعمود المركوز على مفرق الطرق فهو يدل على سوآء السبيل لكنهُ لا يتحرك من موضعه فيطابق هولاء ما جاء في الحق القانوني من الكلام في الراعي وهو : ان احسنت السلوك واحسنت الوعظ علمت الناس كيف يسلكون وان انت احسنت الوعظ واسأت السلوك علمت كيف يدينك الله ويشجبك لا غير اه

قال الرب لشعبه : اقم عليك ملكاً من يختار الرب الهك من بين اخوتك . لكن لا يستكثر من الخيل ... ولا من النساء ولا من الذهب والفضة ومتى جلس على عرش ملكه فليكتب لهُ نسخةً من هذه التوراة ولتكن عنده يقراء فيها كل ايام حياته لكي يتعلم كيف يتقي الرب الهه ويحفظ كلام هذه الشريعة كله وهذه الرسوم ويعمل بها اه (تثنية الاشتراع) والحال ان هــذه الشريعة لا تحتوي كما قال بوسويت الامور الدينية فقط بل المدنية ايضاً والملك كان خاضعاً لها كسائر الناس بل كان احرص منهم على حفظها تبعاً لاستقامة ارادته اه (السياسة المقدسة . ك ٤ . قضية ٤)

فمضى اذن الزمان الذي فيــهِ كان الروساء يتظاهرون بهيئاتٍ ملوكية ويتشحون باثواب ذهبيةٍ ولا يُشاركون في تناول الطعام جمهور مرؤوسيهم ويزورون املاكهم الواسعة وهم مصحوبون بالخدم والحشم ولا يدخلون اديرتهم الاَّ نادراً ولا يمكثون فيها الاَّ ساعات قليلة ولا يكلمون رهبانهم الاَّ بمــا قل ظانين انهم بمثل هذه الاعمال الشاذّة المعوجة يكتسبون الاعتبار ويكون لهم اهابة عند مرؤوسيهم وقد فاتهم ان النــاس مفطورون على روح التضادّ فانهم يقدمون الاكرام والاجلال لمن يأباها وينكرونها على كل من يتطلبها

فالقديس برزدوس بذل عنايةً عظيمةً في استئصال هذه الشوائب والقديس فرنسيس الاسيزي افرغ كذلك كنانة جهده حتى يمنعها عن ان تتأصل في رهبانه فانهُ رأى يوماً رئيس رهبانيته العام المسمى ايليا لابساً ثوباً من قماشٍ انفس جنساً واعلى ثمناً من اثواب سائر الرهبان وقلنسوة اطول من قلانسهم واكماماً اوسع من اكمامهم وهو في ذلك يتمشى الخيلاء مشياً غير مألوفٍ عند الرهبان وغير لائقٍ بهم قال : اعطني هذا الثوب فخلا ايليا بنفسه قليلاً ثم اتاهُ بهِ فاخذه حينئذٍ القديس ولبسه فوق ثوبه بتأنقٍ ورفع قلنسوته عن رأسه واخذ يتمايل مترنحاً بين الاخوة المجتمعين قائلاً : وقاكم الله ايها الاخوان ! اه ثم خلع الثوب وطرحه بعيداً بنفورٍ وتكرهٍ وقال للرئيس العام : ما هذا الثوب وهذ المشية الا للكذبة من ابناء رهبانيتنا اه ثم سكن جاشه وعادت اليهِ رزانته والتزم حدود الادب ومشى مشية التواضع وقال : هذه هي المشية وهذا هو الثوب وهذه هي الحشمة التي تليق بابناء رهبانية الاخوة الصغار الحقيقيين اه

الواجب ٤

هو ان على الرئيس ان يكون قدوةً كاملة في الصلاح الرهباني

ليس لاطباء الجسد ولوا اصحاء ان يولوا المرضى الذين يمرّضونهم صحةً من صحتهم بخلاف الامور الروحية فان صحة الرئيس فيها اي قداسته تنتقل بسهولةٍ منه الى مرؤوسيه وان لها مفعولاً كبيراً في كل ما يقوله لهم او يعمله بينهم فلا ينخدعنَّ اذن الرئيس ويظن انهُ يكفيه لكي يكون رئيساً صالحاً الاَّ يكون شريراً او لكي يكون قدوةً لمرؤوسيه الاَّ يكون ذا مثل سيء لان من لا يهدم لا يعدّ بانياً ومن لا يذبح الخراف لا يعتبر انهُ راعيها وانهُ لو لم يكن اهمال الخير الواجب عمله ذنباً حقيقياً لما لعن السيد لهُ المجد تلك التينة لخلوها من الثمر وهي لم تكن حينئذٍ حاملةً اثماراً سيئة ولما حكم بهلاك العبد الذي اخفى فضة سيده وهو لم يُسرفها . وعليهِ اذا كان لا يبني الاخوة بمثله فهو يشككهم لا محالة وان الله تعالى سيطالبه بما يلزم عن القداسة من الافعال الصالحة التقوية السامية التي كان من واجباته غرسها في قلوب مرؤوسيه وذلك لا يكون الاَّ اذا كان

الرئيس ممتازاً بقداسته سامياً بها والاَّ فكيف يتأتى لهُ ان يغرس الفضائل في قلوب غيره ؟ أيمكنه ان يتظاهر بالقداسة ؟ معاذ الله ! فلو كان كذلك لمَا وفى الغاية المقصودة من رياسته لان المدين لا يقدر ان يفي ما عليهِ من الديون بنقودٍ زائفة والاَّ لزاد في اهانة صاحب المال فينبغي ان يكون الرئيس ممتازاً بالقداسة ضرورةً حتى يصلح ان يكون مثالاً حقيقياً للبنيان وان يكون ايضاً على ما يطالبهُ الرسول من الاسقف اي منزهاً عن كل شائبةٍ حتى لا ترى فيهِ اعين مرؤوسيه ولا عين الله ولا عين نفسه ما يوجب الاصلاح في اعماله ومن الثابت انهُ لا يكفينا ان نكون اتقياء امام الناس بل يجب ان نكون كذلك امام الله تعالى كما قال الانجيل المقدس عن ذكريا واليصابات من انهما كانا بارّين امام الله هذا ومن البين ان زلّةً واحدةً تشين الصيت وان افعالاً عديدةً صالحةً لا تعيد الى صاحبه تمام شرفهِ الاول لان الجرح اذا ما اندمل سريعاً يبقى في موضعه اثر معروف للدلالة عليهِ . ومن واجبات الرئيس ان يكون حاصلاً فوق ما ذكرنا على فضائل سامية وان لا يتأخر دقيقةً واحدة عن التقدم في طريق الكمال وان يعتبر الكمال اعتباراً لا مزيد عليهِ والاَّ يألو جهداً الى ان يبلغه فعلاً وليتيقن ان ما هو فرض كفايةٍ على غيره هو عليهِ فرض وجوب وان ما يطالب بهِ غيره من باب المشورة يطالب بهِ هو من باب الوصية وليكن غمه على ما لم ينل من الكمال بعد اكثر من فرحه بما نال منه فليقابل نشاطه بالنشاط الذي يطلبه منه القانون ولا يزنه بميزان غيره من المرؤوسين . قال القديس غريغوريوس : على الرئيس بالنظر الى مقامه السامي ان يعلّم مرؤوسيه طريق الكمال وان يريهم منهج الصلاح في نفس سلوكه بينهم اهـ (الراعي .ق ٢ . ف ٣ .) لانه من المبادي الفلسفية المقررة ان كل عامل يعمل على شاكلته وان المعلول لا يختلف جنساً عن علته كذلك المرؤوس فانهُ لا يتوصل الى ان يكون قديساً ما لم يرَ القداسة مرسومة في شخص رئيسهِ فيتعلمها فيهِ . قال القديس غريغوريوس : ان المرؤوس يذنب بالمخالفة فقط اما الرئيس فيذنب بترك الاعمال الصالحة . هذا يدان بسقوطه وذاك بتوقفه عن الصعود . هذا يقال فيهِ فقير اذا لم يكن حاصلاً على شيء من الاشياء ويقال لذلك فقيراً اذا لم يحصل على كل شيء وهكذا لا يقدر الرئيس

ان يرفع مرؤوسه الى الدرجة الوسطى من سلم الصلاح اذا لم يكن امامه في اعلاها لان الرئيس بمثله اقوى منه بسلطانه اه· وقال ان من اراد ان يعبر بسفينته من عُدوةٍ الى اخرى يتعلّى مبتعداً عن النقطة التي يطلب ان يقف عندها حتى لا يجرّه السيل الى اسفل فتخيب آماله . وهكذا الرئيس فانهُ مضطر ان يتقدم رهبانه في حفظ القانون بكل دقةٍ اشفاقاً من ان يبلغَ بهم الخللُ الى ان تجرّهم سيول المجاري الطبيعية السريعة بل المنهمرة فيغادرون القوانين والرسوم وراء ظهورهم . لانهُ ان لم يبالغ في حفظ ما كان عرضيًّا منها اهمل الرهبان ما كان جوهريًّا بدعوى انهم ليس عليهم حفظ ما لم يسبقهم الرئيس الى حفظه . وقال القديس فرنسيس سالس : اعتاد الاطباء ان يجرّعوا مرضع الطفل المريضِ بعض الدواء فتسري قوّته الى الحليب ومنه الى الرضيع فيشفى وهكذا المثل الصالح في الرئيس فانهُ يسري الى مرؤوسيه فتشفى علّاتهم الادبية · ولا غرو ان حياة الرئيس المصبوغة بصبغ القداسة تؤثّر في مرؤوسيه كما اثرت عصي يعقوب المكشوطة في ضأن خاله لابان لما عرضها عليها عند ورودها الماء· واقول في الختام ان الكلام والمثل هما رفيقا الرئيس فايهما افضل عندك يا ترى ؟ اما انا فاني افضل درهماً من المثل الصالح على قناطير من الكلام الفصيح . اه

وان قلت : باي مقدارٍ يفوق الرئيس مرؤوسيهِ بالقداسة ؟ قلت ما قال آباء الكنيسة وائمتها الاعلام اذ تكلموا في الرعاةِ : بمقدار ما يفوق الراعي غنم رعيته او بمقدار ما يفوق الرأس سائر الاعضاء في البدن او بمقدار ما يفوق الخاتم قالبه الذي هو من شمع مذابٍ او بمقدار ما يفوق بلاط الملك حانوتاً بات فيهِ الملِك ليلةً من ليالي اسفاره او بمقدار ما كان شاوول ممتازاً بقامته بين جميع رجال اسرائيل او بمقدار ما تفوق الشمس بنورها سائر الكواكب التي تستنير بها اه

هذا واذا صحّ ما قالهُ القديس يوحنا الذهبي فمه وهو ان من يعترف بالسيد المسيح بالفم ولا يمجده بالفعل لا يكون اعترافه هذا اعترافاً بل اهانةً كبرى أفلا يصح كذلك القول ان من يمثل السيد المسيح بسلطانه السامي ويأبى ان يمثله بصلاحه او من يقبل من لدنهِ تعالى السلطان الذي هو من صفاتهِ الجوهرية ويرفض القداسة التي هي افضل من السلطان يلحق بالله تعالى اهانةً كبرى ؟

بل يفترئ على ذات الله بمحاولته فصل ما لا ينفصل فيهِ تقدّست سبحات جماله ووحدانيته الازلية ؟ ولعمري أيستطيع السفير ان يقوم بحقِّ سفارتهِ ان لم يشر باقواله واعماله الى افكار دولته وارادات سلطانه المقدسة ؟ قال القديس بونا ونتورا ان نواب السيد المسيح ولا سيما الروساء منهم يجب ان يأثاوه بثلاثة امورٍ باللذة وذلك ان يستعذبوا ما يستعذبه وبذلك يطلبن من مرؤوسيهم ما يطلبه المسيح نفسه لو كان في ظهرانيهم وبالقوة لتحصيل ما يقتضي تحصيله وبالقداسة ليكونوا قدوة صلاح لدن غيرهم وقداسة السيرة هذه هي الموضوع الاهم الذي ينبغي للرئيس ان يتشبه فيهِ بمعلمه الالهي ان كان يريد حقيقةً ان يمجد مرسلهُ ويكون دستورَ الكمال لكل من يراه وان يقال فيهِ ما قالهُ القديس امبروسيوس في السيد المسيح المتألم : اقتدى بهِ كثيرون ولكن لم يكن لهُ نظير وشابهه كثيرون ولكن لم يساوهِ احد . اه

الفصل الرابع

في المحبة الواجبة في الرئيس

العدد ١

في ضرورتها فيه

ان السيد المسيح اقام في الارض قضاةً انصارًا للعدل وملوكًا انصارًا للقوة ووعّاظًا انصارًا لكلمتهِ اما المحبة التي هي أسمى الفضائل فأقام لها الرؤساء انصارًا ولذلك لم يطلب من القديس بطرس الاَّ المحبة لانه لم يسأله عمّا اذا كان متواضعاً او صبورًا او كريماً او عالمًا بل سأله وكرر عليهِ السؤال ثلاث دفعات عمّا اذا كان يحبه ولما كان الرؤساء هم انصار المحبة وكان لا شيء يُظهر المحبة فيهم الاَّ عنايتهم باخوتهم اراد السيد المسيح ان يرى في بطرس محبتــه للرعاية تحاكي محبتهُ تعالى للخلاص فالمحبـة اذن في الرئيس هي شيء جوهري بل هي كنفس للرياسة لانه لو اجتمعت في الرئيس كل المناقب الحميدة بدونها لما كانت

تلك المناقب الا شيئاً عرضياً او جسماً عارياً من النفس : اه (مودست دي سانت امابل . الرأس الكامل . ك ١ ف ١)

فكأنّ للمحبة السيادة على سائر الفضائل اللازمة لحسن الرياسة فهي التي تسلك الطريق المؤدية اليها وهي التي تدفع الرئيس الى السير فيها وهي التي تكسبه الحياة والقوة لذلك . ومن المبادي المقررة عند الفلاسفة ان العلة الغائية هي علة العلل او العلة الاولى او العلة المحركة وكلما كان العامل عارفاً هذه الغاية وراغباً فيها اجتهد في عمله ونجح فيه والحال ما العلة الغائية في الرئاسة الاّ المحبة فكلما كان الرئيس محباً لجماعته تحمل لاجلهم المشاق وباشر الاعمال العظيمة لان المحبة على رأي اريستوت هي حب الخير وزاد على هذا افلاطون فقال ان الذي يحب محبةً حقيقية لا حياة لهُ في نفسهِ بل حياته في محبوبه وقال القديس اغوسطينوس ان المحبة هي ثقل دافع فالذي دفع اسكندر وقيصر الى بذل حياتهما في الاتعاب والمشقّات هو الطمع في مجد الدنيا لانه غايتهما الاخيرة والثقل الدافع اليها والذي حمل السيد المسيح على ان يموت عنّا هو محبته لمجد الله وغيرته على خلاص نفوسنا ولا غروَ ان ذلك غايته والثِقلُ الدافع اليه فيظهر اذن ان الاحسان الذي يصنعه الرئيس لمرؤوسيه انما هو برهان على محبتهِ لهم وقياس لها فان كانت المحبة عظيمة كان الاحسان عظيماً وان صغيرة كان صغيراً . ألا ترى كيف يصعد الماء إلى علٍ ولا يتجاوز سطح ينبوعه ارتفاعاً هكذا الاحسان فانه لا يفوق مقدار المحبة .

فالمحبة إذن هي وحدها التي تجعل الرئيس قادراً على تحمل اثقال الجمهور لان تعب الرئيس ونصبه لاجل غيره لا يكون الاّ بالمحبة . فان الرقعة التي كانت اسماء اسباط اسرائيل الاثني عشر مكتوبةً عليها كانت معلقةً على منكبي عظيم الكهنة وعلى صدره اشارةً إلى ان المحبة التي مركزها الصدر تخفف الاثقال الموضوعة على المناكب وانها لا تكون بغير صبر وان الصبر لا يكون حيث لا محبة والمحبة هي التي تمكن الرئيس من اكتساب قلوب مرؤوسيه وثقتهم بهِ فمن اراد ان يكون محبوباً عليهِ ان يُحب لانه ما ثواب المحبة الا المحبة وهي لا تحلّ بارضٍ حتى تُفيض فيها الاحسان والاعمال الصالحة التي لا يعملها الا الابطال أولو

الصلاح فالراهب الذي يشعر بان رئيسه لا يعامله الا بروح الرب بالتجرد عن كل غرضٍ وهوًى يقبل منه برضا وطيبة خاطرٍ كل ما يلقاه منه حتى التوبيخ والعقاب

والاسباب التي توجب على الرئيس محبة مرؤوسيه عديدة منها ١ً : كون الرهبان هم ابناء الله الاعزّاء والثمرة الثمينة التي ربحها السيد المسيح بانتصاره العجيب ومخدع الروح القدس المبجل ولعمري ان المحبوبين جداً من الله الذين تتلألأ فيهم الفضائل المحبوبة لهم جديرون بان يحبوا حبًّا فائقاً و٢ً : تركهم كل شيء لاجل الله فيحق لهم ان يتعوضوا برئيسهم عن الاب والام والاخوة والاخوات وان يروا منه كل رقّة وبشاشة وملاطفة كما يجري بين الاهل وذوي القرابات في العيشة العالمية و٣ً : تعرضهم غالباً للاهانة والاحتقار والاضطهاد من قِبل اهل الدنيا فمن لهم بان يعوّضهم عن هذه الاتعاب بالتسلية والمعاضدة سوى رئيسهم ؟ و٤ً تضحية انفسهم في الصلاة والدرس ومباشرة افعال المحبة والغيرة وتقديمها محرقةً للسيد المسيح وكنيسته أفلا يكفي ذلك لان يحبهم من يحب الله ويأخذ على نفسه عهداً بتعظيم مجد الله ونشره بين بني البشر ؟ و٥ً اعتبارهم مهملين وتعساء اذا لم يحصلوا على محبة رئيسهم لان اهل الدنيا يغادرون وطنهم ومراكزهم عند حدوث المصائب ويفتشوا عن مكانٍ يرتاحون فيهِ اما الرهبان تقيَّدوا انفسهم بنذر الطاعةِ والتزموا سكنى الدير فصاروا مجبرين ان يصرفوا سنينَ عديدةً بل الحياة كلها في مركزٍ واحدٍ وعيشةٍ واحدة

فهذه الاعتبارات وما شاكلها هي التي حملت الاب اكوافيفا رئيس الرهبان اليسوعيين العام على ان يكتب الى روساء رهبانيته ما نصه : يجب ان تكون سياستكم رهبانكم ذات رفقٍ وحكمةٍ حتى تستطيعوا بها ان تمجدوا الله بمحبةٍ خالصةٍ وقلبٍ مطمئن ونفسٍ راضية فانهم هم ابناءٓ الله وهذا كافٍ لكي تفهموا بايةٍ عين تراعونهم وباية محبةٍ تحبونهم وباية عنايةٍ تشملونهم فاعتنوا بهم اذن وابذلوا لهم محبتكم وعاملوهم كاولادكم وكونوا لهم اباً واماً ومرضعاً وطبيباً وبالاجمال كونوا كلًّا للكلِّ وابذلوا قصارى الجهد في ان تروهم ان هذه هي حاساتكم نحوهم وانها لاتنفك على هذا الخاوص طول الحياةِ فتقتادونهم بذلك حيثما شئتم وكيفما شئتم لانكم تكونون قد اسرتم قلوبهم فان القديس

برنردوس قال : اعلموا ايها الروساء انكم لستم ارباب مرؤوسيكم بل انتم لهم آباء وامهات فعليكم ان تجعلوهم يحبونكم لا ان يخافونكم وما بالكم تثقلون على مناكب انتم ملتزمون ان تضعوا مناكبكم موضعها؟ او ما يضطر الولد ان يفرّ من حضنٍ لسعته فيهِ الحية وهو يترجى ان يلاقي فيهِ مهرباً وملجاء ؟ اما سمعتم قول الرسول : يا اولادي الذين اتمخض بهم ثانيةً ؟ (غلا ٠ ف ٤ ٠ ص ١٦) وقوله ايضاً : قد كنا ذوي رفقٍ بينكم مثل ام تحتضن بنيها ؟ (ت ٢ : ٧) فمن اللازم الضروري اذن ان يظهر الروساء انفسهم لمرؤوسيهم ذوي رفقٍ وحلمٍ ومحبةٍ ابويةٍ حتى يستطيع الرهبان بسهولة ودالةٍ ان يكشفوا لهم اسرار قلوبهم

وقال القديس فرنسيس كسفاريوس في احد مكاتيبهِ : اذا رغب الرئيس في ان يكون مهيباً اكثر من ان يكون محبوباً واحب ان يظهر قسوةَ الارباب وسلطانهم لا بشاشة الوالدين وحنانهم يرى حينئذٍ قليلين يرومون الدخول في الرهبانية بل يرى كثيرين يرغبون في الخروج منها ٠ اه

العدد ٢

في صفة هذه المحبة

ان الرئيس هو اب وهو كذلك رأس كما يدل عليهِ لقبه (الاب الرئيس) فكل يعرف كيف يحب الاب بنيه لاسيما من حيث انهُ رأس لان الرأس يهتم بالجسم اكثر من اهتمام الاب باولاده فان الاولاد ينفصلون وقتاً من الاوقات عن ابيهم اما الجسم فلا ينفصل عن الهامة دقيقةً واحدةً وقد يكون للاب رغائب ومصالح تخالف رغائب ابنهُ ومصالحه اما الرأس فلا رغبة لهُ ولا مصلحة تخالف مصلحة الاعضاء ورغبتها فعلى الرئيس اذن بصفة كونهِ اباً ورأساً ان يحب رهبانه محبةً باطنةً راسخةً فائضة فعّالةً ذات انسٍ وحنان ثابتةً لا تغيرها الحدثان ويجب بالاخص ان تكون هذه المحبة خالصةً عمومية ونحن الان نكتفي بايضاح هاتين الصفتين الاخيرتين بموجب شرح الاب بونفيس فنقول

١ً ينبغي ان تكون محبة الرئيس خالصةً قلبيةً لانها ان لم يكن مصدرها القلب ومركزها فيهِ تكن كاذبةً لانها اذ ذاك لا تتصف الاَّ ببعض الصفات

الخارجية والالفاظ المنمَّقة التمليقية وبعض حركات أدبية وبوجهٍ انيسٍ وبعض التمني الفارغ فتكون بهذا معتسفةً معوجةً مزعجةً قائمةً بالتظاهر لا خير فيها ولا نتيجة منها ومن كانت هذه المحبة الكاذبة محبته لا تراه بشوشاً لطيفاً الاَّ في بعضِ الاوقات عندما يكون لهُ غرض من الاغراضِ او عندما تقتضي ذلك المصلحة او السياسة لان الرئيس اذا كان لا يهمهُ الاَّ نفسه كان اجنبياً عن افراح جماعته واحزانهم وعرياً عن عواطف المحبة والرأفة التي يتكلم فيها الكتاب فلا تراه قادراً على مؤاساة الضعيف ولا يفرح مع الفرحين ولا ينظر في امرِ المحتاجين ولا يحتمل ضعف الضعفاء بل يصبح احط من ان يرتفع الى عواطف الحب والحنو والغيرة التي هي من خصائص الابوة بل يتخلق باخلاق مأمورٍ قاسٍ بليد واذا رأى ان مرؤوسيه لا يحبونه فيتعزَّى ظنًّا منه انهم يهابونه ولا يقدمون على مقاومتهِ ويطرح اللطف جانباً ويسوق رهبانه بعصا من حديدٍ اي بالقوة الغالبة تبعاً لما يسنح لهُ من الاهواء وما يعرض لهُ من المصالح الخصوصية فعندما يرى المرؤوسون رؤساءَهم يعاملونهم بمثل هذه المعاملة كأنهم يريدون بذلك ترويضهم كالبهائم لا تهذيبهم بروح الله يأخذون في التشكي والتذمر ويهمس بعضهم في اذنِ بعضٍ قائلًا حتى متى نكون العوبةً وسخريةً انهم يظهرون لنا شيئاً ويبطنون آخر فطالما وعدونا بالمحبة والعناية الابوية ولم نزل نراهم يعاملوننا معاملة صبيان المدارس اي يروننا طرفي التخويف والتمليق الكاذب الى غير ذلك فلا تلبث الثقة ان تضعف حتى تزول من قلوبهم بعد مدة قصيرةٍ ونار الدعوة الرهبانية ان تخمد فيهم فتفقد الجماعة فرح النفس وروح الالفة وان كانوا يجدون فيهما سبب راحتهم وبنيانهم بالرب

٢ً ينبغي ان تكون محبة الرئيس عموميةً شاملةً فليت شعري اذا كانت الطيور تقوت كل اولادها والدجاج تظلل باجنحتها كل فراخها وسائر الحيوانات ترضع صغارها من دون استثناء ولا تمييزٍ أفيمكن ان يخصص الرئيس بعنايتهِ بعضاً من اولاده الروحيين الذين اولتهم اياه العناية الربانية ويميزه عن البعض الاخر وصفة الابوة فيهِ والامومة تسمو مثلها في سائر الحيوان ؟ ان النخاع ليس بحاسة من الحواس لكنهُ يوزع الحياة بين جميع الحواس والرجل ليست الرأس والرأس

يعتني بها اية عناية ومركز القلب في وسط البدن يوزع حرارة الحياة على الاعضاء اجمع والشمس تضيء من المشرق الى المغرب على الاخيار والاشرار والصليب الذي مات عليه ابن الله كان متجهاً الى كل الجهات وهكذا قلب الرئيس فانهُ خير عام لا ينحصر بواحد من مرؤوسيهِ فقط وليس لواحد منهم حق فيهِ اكثر من الآخر فيجب ان تمتد محبته من دون استثناء ولا انقطاع بين اولئك الذين تقلد سياستهم والتزم ان يرشدهم ويقوتهم روحياً ومادياً امتداداً متنزهاً عن النظر الى اختلاف الطبقات بينهم من حيث المقام والشرف والوطن والجدارة . وليحذر ان يحب احداً لمجرد حسن صفاته وان يبغض احداً لاجل نقائصه بل فليكن سهلاً بشوشاً متهالكاً بالمحبة نحو الفاضلين والمتوانين والجديرين بذلك والمتقاعسين . لانهُ على ما قال مودست دي سانت امابل : انهُ لا يسوغ للمرؤوس ان يتملص من طاعة رئيسهِ ما دام رئيساً وان لم يكن كاملاً او قديساً كذلك لا يسوغ للرئيس ان يفتر في محبة مرؤوسه ما دام طائعاً لهُ وان يكن مستوجب اللوم والتقريع ومن ذا الذي يرى ان النعجة اذا ضلّت او مرضت لا تبقى نعجة راعيها جديرة بعنايته ومن يعلم كم من الزمان يدوم هذا الضلال او هذا المرض وربما يكون المرض قارب الشفاء والضلال لا يلبث ان يهدى حتى يزول فيفعم القلب فرحاً وسروراً اهـ (الرئيس الكامل . ك ١ . ف ٢ .)

فاذا كانت محبة الرئيس خالصة شاملة كما تقدم كانت بينه وبين مرؤوسيه كالعروة الوثقى لا انفصام لها فهولاء يحلّونه في قلوبهم لانهم يشعرون كانهم في قلبه واذا ما تأكدوا محبته واعتباره اياهم قابلوه بامثال ذلك بل باضعافه وهذه المحبة هي علاقة مباركة ولحمة مقدسة تربط كضمة واحدة اشخاصاً متعددين تباينت اخلاقهم وتعارضت اميالهم لان المحبة وحدها قوة بها تجمع بين الاضداد ومن المبادىء المقررة بالطبع انه اذا وافق شيئان ثالثاً توافقا بينهما هذا واخبر القديس غريغوريوس النزينزي قال : كنت اذهب الى القسطنطينية لاعظ وكنت ارى الشعب متهافتاً لسماع كلمة الله مندهشاً منذهلاً كأنه سلسلة من حديد انتثرت حلقاتها فوجه الى بعضها حجر مغناطيس فجذبه اليه وجذب هذا غيره من تلك الحلقات وهكذا لم يبرح يتجاذب بعضها بعضاً الى ان تجمعت السلسلة وانتظمت

سلكاً كاملاً وعادت مرتبطة كما كانت غير انهُ لا رابط لها سوى قوة غير منظورة

فالمحبة لا تثب في سيرها ولا تطفر غير انهُ لا مانع يؤخرها عن التقدم ولا يقعدها نكران الجميل ولا تكلّ من المقاومة والمضادة لكنها تثبت في عملها بل تتقدّم ابداً وتغلب الشر بالخير وكلما ازدادت امامها المصاعب ازدادت هي قوة وحميَّة فهي كالوالدة التي لا تكترث لما تتحمّله من السهر والتعب المتواصل والتمليقات المتكرّرة في سبيل شفاء ابنها من مرض اصابه ما دامت تراه غير حاصل على الشفاء التام . وهكذا الرئيس يضاعف قواه واجتهاده ويختلق وسائط جديدة توصله الى غايته ويأبى ان يذوق راحة او تعزية قبل ان يرى رهبانه يذوقون سعادة دعوتهم ويتقدمون في الفضائل الرهبانية السامية

[الكتاب الثالث]

في الفطنة

ضرورتها — السياسة الدينية والسياسة العالمية — شروط لازمة جوهرية للفطنة الدينية

الفصل الاول

في ان الفطنة ضرورية لحسن السياسة

عدد ١

. تحديد الفطنة

ان الفطنة كما يحدها القديس باسيليوس هي التمييز بدقة بين ما يجب عمله وما لا يجب .

والقديس برنردوس يقول ان الفطنة هي معرفة الخير والشر فانها تعلمنا كيف

تسير وترتشد الى الوسائط التي يجب استعمالها للوصول الى الغاية ويسميها رئيسة سائر الفضائل لانها تدبرها بامرها ولا تدعها تتجاوز الحد الاوسط لئلا تفسد بزيادة او نقصان وقال كما ان الله جلت حكمته اعطى الحيوانات عيوناً ترشدها في طريقها كذلك منح الرؤساء الفطنة لكي يقتادوا بها رهبانهم في ظلام هذا العالم واخطاره

وحدَّ الطوباوي لاوتردوس الموريسي الفطنة قال انها الفضيلة التي تعلم الانسان ان يعمل كل شيء بما يوافقه من النوع والزمان والمكان وصفاتها الجوهرية سعة النظر او التبصر بتدقيق والتأني بالحكم وثمارها الثمينة هي طلب المشورة والحكم باستقامة

وقد زاد القديس توما على هذه التحديدات فقال ان الفطنة تقتضي اللطف وخفض الجانب ليتمكن صاحبها من ان يستفيد من مشورات القريب وتقتضي الحذاقة لكي يسهل عليها تتميم مقاصدها والاستقامة في الحكم لئلا تتيه في الضلالة وتجمح في الغواية وسرعة النظر في الامور لئلا تفعل شيئاً قبل التعمق في البحث عنه وتقتضي ايضاً اللباقة لكي تسهل الصعب وتبتعد عن الاخطار التي تصادمها

وعليهِ فالفطنة هي فيضان من النور الالهي الذي ينيرنا في اعمالنا ومقاصدنا ويساعدنا في تمييز الحق من الباطل والخير من الشر ويعد لنا الوسائط ويمهد لنا الطريق المبلغة الى الغاية بالامان والسلام ويرينا المستقبل في الماضي فيطلعنا من نتائج هذا على كثير من غوامض ذاك · هذا ومركز الفطنة العقل وبهِ تسوس وتدبر جميع الفضائل التي يجمعها مركز الارادة واما اقسامها الجوهرية فهي ثلاثة ذكر الماضي ومعرفة الحاضر والنظر في المستقبل كانهُ حاضر

ان احد القدماء مثَّل الفطنة بصورة يد مرصعة بالعيون فيها خمسة اصابع وهي ١ الذاكرة ومن خواصها حفظ ثمار القراءات وكل فائدة تستخلصها من مطالعة سير المتقدمين والحقايق التي تدركها بالاختبار الجاري لها في اعمالها الخصوصية

٢ الذهن الذي يزن بكل دقة سير من تعامله وافكاره وحركاتهِ وطباعهِ

واهليته ويعمق في ادراك حقيقة الاعمال غير مكتفٍ بالنظر الى ظاهرها ويعرف كيف يتخذ المشورة من العقلاء الامناء والخالي الغرض· ولا يأنف من ان ينعطف بكل دعة بعد البحث المدقق الى استماع النصيحة الآئلة الى استقامة السيرة وشرف النفس والطمأنينة

٣ً سعة النظر وبها يترقب الانسان الفرص المناسبة ويكشف النقاب عن الاخطار ويفضح الخداع ويحرص على نفسهِ ولا يتعرض للعمل الا في الفرصة المناسبة وعند تأكيد النجاح

٤ً البصيرة ومن شأن صاحبها ان يجول باحثا مدققاً فيتخذ من بعض مقدمات نتائج مفيدة ويولد بعض الحيل والوسائط الكافلة نجاح مساعيه

٥ً الشروع وصاحبه يجري بالفعل ما يكون عزم على عمله ويشرع فيهِ بكل حذاقة ونشاط فانهُ طوراً يتقدم وتارةً يتأخر ويقتحم مرةً المخاطر واخرى يتملص منها على موجب موافقة الظروف لكنه قائم ابداً على قدم الثبات يتقدم نحو الغاية ولو حال بينه وبينها اشد الموانع

العد ٢

في ان الفطنة تُعد من مزايا روساء الجماعات

قال الملك داود فالان ايها الملوك تعقلوا واتعظوا ياقضاة الارض· قال العلامة بوسويت تفصيلاً لهذه الاية : على الناس اجمع ان يتعقلوا واما الملك الذي تستريح على عاتقه المملكة كلها وتجد فيه وحده المحرك الاول لكل اعمالها فكلما قل اضطراره لان يؤدي حساباً لغيره ويرتشد منه وجب عليه ان يتعقل ويحتكم لان ما لا يعمله الانسان عن تعقل يعملهُ اما عن ميل الى الشهوة البهيمية واما عن فظاظة او شراسة وهذا يكون مجلبة لكل ما فيه تشويش النظام والتقلب والجور والظلم ولعمري ان كان لا يقدر احد ان يروّض حصاناً ولا ان يرعى قطيعاً من دون حكمة وتعقل فكيف يمكنه بدون هذه الموهبة ان يدبر ويسوس الخراف الناطقة اه (السياسة المقدسة ك ٥)

وقال اريستوطاليس ان مهمة الملوك هي ان يأمروا العباد ويقوّموا سبلهم ينبغي

ان تكون الحكمة مستقرة فيهم كما تستقر في عرشها الذي عنه تصدر اوامرها ومنه ترسل انوارها اه . وقال في موضع آخر : ان المعد منذ صغره ليأمر وينهي اذا هو من فاق اقرانه بالحذاقة والذوق السليم

وقال يوحنا آڤيلا مستنداً على قول المسيح لتلاميذه : انتم ملح الارض . ان الفطنة هي اعظم فضيلة تزين السلطة وتعضدها

ويسمي القديس توما الفطنة الفضيلة المختصة بالملوك اذ يقول ان السلطان يملك ويكون حكيماً ويقضي على الارض بالعدل والانصاف (ف٢٣) والحكيم ينصح الملك الشاب قائلاً ان الفطنة تفيده اكثر مما تفيده القوة ولها وحدها ان تقيه من الانحطاط الذي يتهدد الملوك عادة وهي التي تخفف اتعاب الملك وترضي المملوك وهي للسلطان ارث وعليه ان يفضلها على كل فضيلة سواها

والقى احدهم يوماً سوءالاً بحضرة ألفونس الكبير ملك الارغون قال هل يمكن ملكاً مثل مولاي ان يضحي فقيراً ؟ فأجاب الملك نعم يمكن ذلك لو كانت الحكمة تبتاع بالدراهم . اه واعلن بذلك ان مثل سليمان يشتريها بكل ما عنده ثم قال ان الحكمة وحدها تُري الملك الامور على ما هي عليه وتدله على ما توءول اليه فيما بعد ولا تدعه يفعل شيئاً بعجلةٍ دون تبصر .

فالحكمة والمشورة تنجح كل مساعي الانسان قال الحكيم : بالحكمة يبنى البيت وبالفطنة يثبت وبالعلم تمتلىء الاخادير من كل مالٍ نفيس شهي . الرجل الحكيم ذو عزةٍ والانسان العالم موءيد القوّة لانك بالدربة تصلي حربك وبكثرة المشيرين الخلاص . اه (امثال)

فالغلبة والانتصار هما عمل الرأس اكثر مما هما عمل الايدي والامال بالظفر معقودة على دربة القوّاد اكثر مما هي معقودة على قوّة الجند وبسالتهم .

قالت الحكمة : بي الملوك يملكون والعظماء يشترعون ما هو العدل (امثال) وللفطنة السيادة حتى لها الامر والنهي ولو كانت في نفس المولودين خدَمة وعبيداً لان العبد العاقل يسود على الابن ذي الفضائح ويقاسم الاخوة الميراث (امثال١٧) فكأنهُ وصي لهم او شريك ميراثهم . تبصر في منهج قدميك فتثبت جميع طرقك (٤ : ٢٦) من ينظر الى الايام لا تعثر رجله فضرورة الحكمة تكون

بمقدار ضرورة العزم والحزم وعليهِ يجب ان تلازمك الحكمة ملازمة غير منفكة واما الحزم والعزم فهما ثمرة الفهم والتعقل ومن شأن الحكيم ان يسير من دون تقلب او تقاعد فان الرجل الحكيم هو ثابت كالشمس واماَّ الجاهل فيتغير كالقمر (سيراخ ٢٧)

قال احـد الملوك الحكماء : لي المشورة والاستقامة لي الفطنة والقوة . (امثال) وهذه اذا تأملناها جيداً نجدها غير منفكة الواحدة منهما عن الاخرى فالرجل العاقل يعرف كيف يخاف حيث يكون محل للخوف ويرتشد بالمشورات الصالحة حيث مسيس الحاجة اليها .

فان الدولة المكينة الاركان تستند الى الشرائع واما فهم الشرائع والسير بموجبها فلا يُعطى الأ من الحكمة فان الرب لما اقام يشوع قائداً على شعبهِ أمره ان يدرس شريعة موسى التي كانت شريعة مملكته وذلك لكي يفهم كل ما يعلم . (يشوع ١) وأوصى داود بمثل هذه التعاليم ابنه سليمان عند ساعة موته قال : احفظ وصايا الرب لتفلح في كل ما تعمل وحيثما توجهت (ملوك ٣ : ٢) وقال بوسويت في تفسيره هذه الآية : لا تدع احداً يدبرك كيفما شاءَ بل انت أدِر نفسك بفطنةٍ ومعرفةٍ وليكن العقل مرشداً لكل خطواتك وتفهم كل ما تعمل ولماذا تعمل ؟

فاذا حصل روَساء الشعب على الحكمة لا يعوزهم شيء لانها تأتيهم هم ومروُوسيهم بجميع الخيرات فهي والحق يقال مرسـاة الممالك وابرة الملوك المغناطيسية .

عدد ٣

في ان الرئيس لا يقدر ان يتمم مهمَّات وظيفته بدون الفطنة

الفطنة هي الفضيلة الجوهريَّة للرئيس ولا يمكنه ان يعتاض عنها بما سواها فقد يمكن ان يكون الانسان قديساً بدون هذه الفضيلة ولكن لا يقدر بدونها ان يكون من رجال السياسة لانهُ وان عمل بعض الاعمال الصالحة لا يجني كبير فائدة اذ لا يعملها باوقاتها وسائر ظروفها ولعمري اذا كان اقتضى كما شهد كثير

من الاباء القديسين ان يدبر الملائكة ذوو الحكمة السماويَّة اجرام الفلك التي لا عمل لها سوى تغيير الفصول في السنة وان يزيد الله بضلائل مهارةً في الصناعة وان يملأهُ من روحهِ حكمةً وفهماً ومعرفةً (خروج ٣١) لكي يُحكم عمل قبة العهد وتركيبها واذا كان سليمان لما دعي لبناء الهيكل تضرع إلى الله ان يهبهُ عون يده الالهية التي صوَّرت العالم وخلقته فأي فهم وأي حكمة لا تلزم لمن فوض اليهِ ان يصعد الانفس الشريفة الى أسمى الغايات وأشرفها فان الرؤساء بدون الفطنة يعرضون هذه الانفس للاخطار التي تحاكي بعظمتها عظم الدرجة التي أوتوها من الله لصلاحها وخلاصها ·

فقد عام علماء الكنيسة ما يؤيده الاختبار كل يوم وهو ان الافضل ان تسلَّم الرياسات في الرهبانية الى رجل قليل القداسة كثير الفطنة من ان تلقى مقاليدها بين يدي رجل كثير القداسة قليل الفطنة وان نحب في الانتخابات ان نفضل هذا على ذاك وهذا من مبادي القديس اغناطيوس الفريد بهذه المعارف قال اني اقرّ معترفاً ان الاقل حكمة بمقتضى روح العالم قد يحسن السياسة بعض الاحيان في الروحيات لانهُ يلتمس فينال من الله أنوارًا لا يمكن الفطنة البشريّة ان تمنحها ومع ذلك إذا تكلمنا بوجه العموم فنقول ان القداسة لا تكفي لسياسة القريب لان الرئيس لا يصلح للرياسة ما لم يكن ذا فضيلة كبرى وذوق سليم أيضاً والاجدر بهِ لاجل تتميم وظيفته ان يكون ذا فطنة صادقة خارقة العادة ولو لم تكن قداسته الا اعتيادية من ان يكون ذا قداسة سامية وقليل الفطنة فكمال السياسة في الرياسة يكون في اجتماع قداسة كبرى مع فطنة خارقة لكن بما ان الكمال يتعسر وجوده في مثل هذا الامر كما في سواه يجب بدون أدنى ريب ان نفضل للرياسة من تسامى بالفطنة والحكمة على من تسامى بالقداسة والتقى لان هذه شخصية واما تلك فعمومية عائدة على الرهبانية بالخير والجدوى وممَّا هو حقيق بالاعتبار ان فطنة الرئيس ضرورية لهُ ولجماعته لانهُ لما كان لا يسوغ لهؤلاء ان يسيروا بارادة نفوسهم في طريق الفضيلة الخطر بل عليهم ان يسلموا نفوسهم لرؤسائهم بطاعةٍ عمياء وجب ضرورة على الرئيس ان يكون فطناً حكيماً في قيادة نفسه وقيادة مرؤوسيه ايضاً ولقد سبقنا فقلنا في كلامنا عن

صعوبة الرياسة (ف١ ك ١) ان الرئيس قد يضطر احياناً كثيرة لان يراعي طباعاً غير مروضة ومصالح متباينة وان يحذر الاميال الشديدة والفورات البديهية وان يستيقظ وينتبه لامور كثيرة · فهل يكون كفوءاً لكل هذه العناية اذا لم يكن ذا فطنة قوية ؟ فمن الرهبان من تتيسر قيادتهم بالكلام ومنهم من لا ينقادون الا بالمثل ومنهم من يعسر تقدمهم ولو خطوة واحدة الا بوخزهم بالمهماز ومنهم من يحتاجون الى حكمة ولجام لمنعهم عن التسرع والتعجل ثم ان المديح اذا كان ينجع في الواحد يبثّ فيه عواطف الشهامة والبسالة فانه يضرّ بالآخر ويعلاه عجباً وخيلاء لان الناس متفاوتون في طرق الاصلاح فمنهم من ينفعه التشجيع والتنشيط ومنهم من ينفعهُ التوبيخ والتونيب فهذا يوافقه ان تنصحه سراً وذاك جهاراً والتوبيخ القاسي المرّ يكون مفيداً لهذا ومضراً بذاك وربَّ امر كان ينبغي ان تصنعهُ البارح والان لا يسوغ لك عمله لان الاهواء والمقاصد قد تغيرت وقد تجد بين جماعتك من يوافقهم ان ترقب افعالهم وتبكتهم على ما اختلّ فيها ولو طفيفاً اماَّ غيرهم فلا يوافقهم ذلك بل تضطرّ لان تغضي عن كثير من اعمالهم والاَّ استولى عليهم النفور واليأس وعليهِ وبما ان كل فردٍ من الجماعة بخلقٍ خاص فيترتب ضرورةً على الرئيس ان يكون ذا ذوق لطيف وحذاقة كبرى ليرى ما يوافق خلق كل واحدٍ منهم وهواه ·

ولعمري اذا كان يصعب على الانسان ان يعلم حق العلم بحاسات قلبهِ الباطنة وان يحسن تدبيرها فكم يكون صعباً عليهِ ان يكشف عن شواعر غيره الباطنة وان يدبرها فانما الفطنة هي التي تسكن احتدام الغيرة والتي ترسم للسهر والتيقظ حدوداً وتضع لكل شيء حداً أوسط تقيم الحكمة فيهِ فان لم يراعِ الرئيس هذا الحد فالفضائل تمسى رذائل والفطنة هي التي تبين الشواذ التي يلزم غالباً ادخالها في القواعد العامة وهي التي تميز في الشريعة بين الروح الذي يحيي والحرف الذي يقتل وتقدر ما هو لله وما هو للناس بمقداره واذا امكن وفقت بينهما محافظةً على ما لله ومــا للعباد وهي التي تجمع بين الامور المتباينة كالحلم والغضب واللين والقساوة وبساطة القلب والتنكر والسرعة والابطاء وهي للتي تزيل المناقضة التي تصور امرين واجبين ومتضادين معاً وتقابل بين الموافق وغير الموافق وبين ما

تخشى غوائله وما ترجو نوائله فتقعد العزمَ عن العمل وتعدل عمّا كانت قصدته واذا شرعت بعملٍ عملت على اكتساب العقول وامالت اليها الاهواء والاغراض وابعدت عن عملها كل مانع وسهلت الطرق لمباشرة الامور التي كانت تظهر كأنها مستحيلة وقصارى الكلام ان الفطنة تدخل في كل الامور السياسية فتحسن ترتيبها وتجزم جزماً باتّاً في أمورها أمّا إذا غابت أنوارها عن الرئيس وهو سدّ اذنيه عن سماع مشوراتها فانهُ يعرّض نفسه للاضاليل المختلفة وعثراته ربما توازي خطواته ٠

عدد ٤

في انهُ يجب على الرئيس ان يطلب الفطنة من الله وان لا يملّ من طلبها

ان الله وحده حكيم وفيهِ ينبوع الحكمة ولهُ وحده ان يعطيها٠ كل حكمة فهي من الرب ولا تزل معه الى الابد (سيراخ ١) وعلى هذا قال يعقوب الرسول ان كان احد تنقصه حكمة فليسأل الله الذي يوتي الجميع بسخاء خالص بغير امتنان (١) وقد قالت الحكمة اني احب الذين يحبونني والذين يطلبونني من الصباح يجدونني ووجودها سهل على الذين يلتمسونها فهي تسبق فتتجلى للذين يبتغونها ومن ابكر في طلبها لا يتعب لانه يجدها جالسة عند ابوابهِ (حكمة ٦)

وقد التمسها سليمان قائلًا يا إله آبائي يارب الرحمة ياصانع الجميع بكلمتك وفاطر الانسان بحكمتك لكي يسود على الخلايق التي كوّنتها ويسوس العالم بالقداسة والبر ويجري الحكم باستقامة النفس هب الحكمة الجالسة الى عرشك ولا ترزلني بين بنيك فاني انا عبدك وابن امتك انا انسان ضعيف قليل البقاء ناقص الفهم في القضاء والشرائع فان كان يظهر احد من البشر كاملًا وهو خالٍ من الحكمة التي منك وفيك لا يحسب شيئاً انك قد اخذتني لشعبك ملكاً ولبنيك وبناتك قاضياً وامرتني ان ابني هيكلًا في جبل قدسك ومذبحاً في مدينة سكناك ان معك الحكمة العليمة باعمالك والتي كانت حاضرة اذ صنعت العالم وهي عالمة

بما يحلو في عينيك ومتفهمة استقامة وصاياك فارسلها من السماوات المقدسة وابعثها من عرش مجدك حتى اذا حضرت تجدُ معي فاعلم ما يرضيك فانها تدرك وتفهم كل شيء فتكون لي في افعالي مرشداً فطناً وبعزها تحفظني وتغدو اعمال نفسي مقبولة واحكم في شعبك بالعدل واكون اهلاً لعرش ابي فاي انسان يعلم مشورة الله او يفطن لما يريد الرب ؟

ان افكار البشر ذات احجام وبصائرنا غير راسخة اذ الجسد الفاسد يشغل النفس والمسكن الارضي يخفض العقل الكثير الهموم ونحن بالجسد نتمثل ما على الارض وبالكد ندرك ما بين ايدينا فمن في السماوات اطلع على فكرك ومن علم مشورتك لو لم تأتهِ الحكمة وتبعث روحك القدوس من الاعالي فقومت سبيل الذي على الارض وعلم الناس مرضاتك (حكمة ٩)

فان كل ما في هذه الصلاة هو جدير بالاعتبار فقد تقرر مما تسطر ان لا فطنة ولا اختبار ولا عمل البتة يجعل الرئيس قادراً ان يحسن سياسته في مرؤوسيه ان لم يكن هو نفسه مدبراً من الحكمة الالهية والبرهان على ذلك ان كل شيء انما هو عمل هذه الحكمة الالهية وهي وحدها عالمة بما قد فطرت عليهِ خليقتها وهي التي فطرت الانسان على نوع خاص وعينت له غايته اذ منحته كل ما هو عليه الان فهي اذن وحدها عالمة بالانسان وبالنوع الذي بهِ يسير الى مركزه بارشادات وكلاء الله ٠

فصلاة سليمان هذه قد استجيبت لانه قد جاء في كتاب الملوك الثالث (ف ٤ : ٥٩) واتى الله سليمان حكمةً وفهماً ذكياً جداً وسعة صدرٍ كالرمل على شاطيء البحر اعني انهُ منحهُ حكمةً واسعة وقوة نافذة بها كان يرى بلحظة واحدة كل ما يفيد العباد ويؤول لخير المملكة وكل ما كان مخفياً في مطاوي القلوب واخيراً كل ما كان حرياً بكل قصد وعمل فليس لنا جميعاً ان نحصل على هذه الحكمة المفاضة على الطبيعة وان التماسها والادعاء بامكان الحصول عليها من الحماقة والجهل ويبين ان العناية جلت احكامها تبخل بهذه الهبة لانها وان اغنت كثيرين بالعقل الثاقب والذاكرة القوية الا لنها لم تمنح الفطنة الكاملة الا القليلين

ومع هذا فيمكننا ان نستمد العون الكافي لحسن استعمال مواهب الفهم

والتمييز التي اولتها الطبيعة لعموم البشر وان على نوع متفاوت واستعمال ما يطلب عادة ممن اعتنق الحالة الرهبانية لان لنا جميعاً وان على نوع غير متساوٍ كل ما هو ضروري للانسان ليكون من ذوي الفطنة والحكمة لتدبير امورنا بشرط الا نسيء استعمال الانوار التي لنا من الطبيعة ولا يقتضي ذلك حذاقة فائقة ولا معارف واسعة فقد رأينا كثيرين قد احسنوا سياسة السلطة ولم يكونوا مع ذلك ممتازين بالذكاء والمعارف وبالحقيقة ان الفطنة المطلوبة والكافية لسياسة الجماعات تتوقف عادة على معرفة الاشياء العمومية وعلى الحكم بها مستقيماً وعلى شيء من الخبرة بفن التنقيب والتحقيق والريب في الامور وطلب المشورة في ما جلّ منها واعجم (بوفيس)

فانتم يامن دعتهم العناية الى سياسة اخوتهم التمسوا لنفوسكم الحكمة قبل كل شيء التمسوها دائماً ثم التمسوها بدون انقطاع والا فانكم تتيهون في مهامه الشدة والريب فتسلكون طريق القساوة الصعبة والحزون الوعرة فتخمدون عزم الفضيلة واما طريق التراخي والمساهلة فيلاشي النظام الرهباني فيصدق بكم كلام النبي ارميا اذ قال ان الرعاة قد بلدوا ولم يلتمسوا الرب فلذلك لم يفهموا وجميع رعيتهم تشتتت . (ف ١٠ ع ٢١)

الفصل الثاني

في السياسة الدينية والسياسة العالمية

اولاً

قد خطر في بال احد اعضاء المجمع العام للاباء اليسوعيين في معرض كلامه في وصف السياسة الدينية ان يسمي البشاشة المأمور بها الرؤساء لمرؤوسيهم سياسةً فاعترضه موت الرئيس العام حينئذٍ وقال ان السياسة على نوعين الواحدة شيطانية مملوءة رياء وتصنعاً وخبثاً تلتجيء الى طرق معوجةٍ لكي تبلغ غايتها

وانما هي في حقيقة امرها مدالسة ومكر وتلبس واما الاخرى فسماوية الهية لهـا غاية محمودة ومبداء مقدس لا تتخذ الاَّ الوسائط الجائزة فالاولى مصدرهـا محبة الذات والغش والثانية محبة خالصة وغيرة على خير القريب فمقاصد تلك اذن هلاك القريب وابادته ومقاصد هذه اصلاحه وخلاصه

. واخص ما يقال في السياسة الدينية انها امتزاج حسن بين حكمة الحيَّـة وسذاجة الحمامة فان صاحبها لا يثق بسهولة بايٍ كان ولا باية كلمة كانت وهو مع ذلك لا يخامره ريب في احد · وهو رزينٌ كتوم يعرف بغير مداجاةٍ كيف يكتشف افكار الناس وشواعرهم وكيف يستر افكاره عنهم ويكشفها لهم لئلا يحزن الانفس الضعيفة او يعرض الاخوة العاتين للعصيان او يفشي الاسرار او يهتك حرمة القدسيات او يطرح الجواهر امـام الخنازير وهو لا يعامل احدًا بالخبث والاحتيـال لانهُ يخشى ان يعامله غيره بمثل هذه المعاملة ويرقب ظروف المكان والزمان والحوادث والاشخاص لكي ينتهز الفرص التي تناسـبه لان النظر في امر السياسة شي والعمل شي آخر فقد يتفق احياناً ان يضطر الرئيس لان يجري الامور على ما يستطيع لا على ما يريد وان يقول مع الرسول ان كل شي مباح لي ولكن ليس كل شيء ينفعني ناهم دروسه هو اكتشاف اميال القلوب واعظم دهائة هو استمالة الارادة وطيها بلين ورفقٍ بدون كسرها او تعنيتهـا وهو في المهام الخطيرة لا يكتفي بالفضيل بل ينبغي الحاذق البشوش ولا يمنح الخدمات الاَّ تدريجاً وبعد الامتحان الكافي واذا وجد جماعة مكتئبة او مكسورة الخاطر اكتسبها باكتسابه زعيمها اما المجرمون فيحملهم على ان ينصح احدهم الآخر ويستميل كلًّا باميااله من دون تعسف ويقدم للاطفال في الحيـاة الروحية لبناً وللاقوياء في الفضيلة طعاماً وهو لا يخشى ان يغش المريض اذ يقدم لهُ ادوية تحت اشكال الاطعمة ويشفي جراحه ولا يجعل لهُ سبيلًا الى ان يشعر بما يعمله فيهِ من جراحة او غيرها وان لم يجد واسطة لكبح اميال الطبيعة غير هذه فيظهر على الم بالمٍ ويرضي بعض العواطف ببعضهـا حتى يتمكن من صرف صاحبها عن البعض الآخر منه وهـذا اخضاع الطبيعة بالطبيعة نفسها بل تطعيم الطبيعة بطاعيم النعمة ويقتدي بالعناية الالهية في كثيرٍ من من الامور فان الله يخفي

عنا احكامه ويحجب تدابير، ووسائطه واما جودته فتسبق وتقضي حاجاتنا فوق ما نتمنى ونتأمل لتحقيق مشيئته ويميل في كل اعماله الى اللطف والرحمة اكثر من ميله الى الصرامة والعدل وهذا اي صاحب السياسة الدينية لا يحكم عن مجرد التوهم ولا يأنف من العادات السيئة والاخبار الكاذبة ولا يفعل عن ميل او شهوةٍ او خللٍ بل يطلب المشورة عن رضىً ويفضل حكم الاكثرين على رأي نفسه ويبذل الجهد في ان يقتدي بالحكماء الذين ساسوا ولا يزالون يسوسون رعاياهم بالفطنة والانصاف وينظر الى الحوادث الماضية لترشده الى تدبير الحاضر والمستقبل ويبتدي بعد التمعن الطويل عمله بسرعة ونشاط ويستدرك كل ما يمكن استدراكه وبعد ما يُعدّ ويمكن ما يمكن ويوجه العناية الى كل ما يساعد على الفوز بالنجاح كالعقل والحذاقة والفضائل والنفوذ والحوادث والظروف المختلفة

وانما في الفصل الثالث نسهب الكلام في الشروط الجوهرية للفطنة الدينية ونبين بايضاحٍ اوسع ما تتوقف عليهِ السياسة الدينية التي انما اسها والمحرك لاعمالها هو الفطنة

ثانياً

في وصف السياسة العالمية

ان السياسة العالمية الحاضرة المعوجة هي ان يتظاهر الانسان بخلاف ما هو عليهِ من اعتباره الامور وشعوره بها ويفعل ذلك ابتغاء الحصول على رغائبه ومآربه الخفية فيتكلم فمه بما ليس في قلبهِ ويقول اشياء ويفعل آخر ولا يراعي امر الجزاء والعقاب ولا الاستقامة ولا الانصاف بل يخفي تحت طي المحبة اثر البغضاء وامرها وهكذا اهل هذه السياسة فانهم يستميلون افكار الكثيرين بتملقاتٍ دنيةٍ وملاطفات متصنعة ويفرغون المقدرة بالتلفيق في المواعيد قصد اكتساب ثقة اولئك الذين يحاولون خداعهم لكي ينالوا منهم ما يبتغون ويظهرون الثقة لمن ليس لهم ثقة بهم ليكشفوا اسرارهم وهم لا يكشفون عن محيا افكارهم الا بكلام ملتبس ذي وجهين قصدَ ان يحفظوا لانفسهم حق لوم وسوء المعاملة في كل الاحوال

فهذه السياسة لا تطلب الاَّ مصالحها الخصوصية التي تفضلها في كل الاحوال على المصالح العمومية وتستحلّ في سبيل نجاح مقاصدها وتحقيق مطامعها كل الوسائط كيفما اتفقت كالخداع والنفاق والتظاهر والكذب والتنكر بالصلاح والغيرة بل هي تستخف باقدس القدسيات واجلها كيف لا ومبداها الاول هو انهُ لا يليق بالانسان ان يجعل نفسه عبداً للفضيلة بل لهُ ان يتبرقع بلباسها اذا ما حكمت بذلك ظروف اللياقة وله ان يضحيها عندما تقتضي الضرورة وبالاجمال ان حذق صاحب هذه السياسة قائم بان يوجه قلوعها كيفما اتجهت الارياح او مال نسيم الحظ وان ينساب الى الشر من دون ان يظهر انه خرج من حيز الخير او الصلاح وان يواري الظلم تحت ستر العدل والاستقامة متعللاً بان جل مقاصده النظر في الخير العام واذا سنحت لهُ فرصة فانه ينتقم لنفسه ممن الحقوا بهِ شيئاً من الاذى او يلاشي ويبدد شمل من يخشى ضررهم او الذين يتجرأون على ان ينطقوا امامه بالحقيقة او اذا خطر له ان يقيم اجواقاً من المداهنين الانذال المستعدين لارضائه وتأييد جوره او ان يعطي المهام لمن لا يعملون بها الاَّ على رغباتهم او او يبيعها ايضاً لمن يبتاعونها بالثمن الاغلى ويغادر الشعب هدفاً للمعرات والمضرات فهو مستعد لجميع ذلك بطيبة خاطرٍ فانك ترى قلمه ولسانه معدين ابداً لمديح من يريد رفعتهم ولتسويد عرض من يريد اذلالهم ولو كان هولاء من افاضل قومهِ واولئك من انذالهم واذا صدقنا زعمه رأينا ان الاشرار افضل من اهل الفضيلة واحكم منهم في استعمال السلطان كأن الخبث هو الفطنة اوكأن للاستقامة وجوداً حيث لا وجود للفضيلة ومن مبادي اصحاب هذه السياسة الخرقاء ان يزرعوا الانقسام لكي يجعلوا لتدخلهم باباً ويتحكموا على الفيئتين باشد سلطانٍ وانهم كما قال ترتليانوس عن الشيطان يولدون الشر ثم يتأخرون قليلاً عن اضرام نيرانه تظاهر انهم يبتغون ملاشاته ومن مباديهم الفاسدة انهم يصورون لمرؤوسيهم بعض التهويلات والتمويهات كانها مخاوف حقيقية لا مناص منها ويُرون الناس احلامهم كأنها حقائق راهنة ويتّسون ويشتدون تحت ظل هذه الحجج الفارغة كانهم في مقام بهِ يدافعون عن حقوقهم ومقاصدهم مدافعة ضرورية صادقة ولا يهمهم خراب ولا دمار ولا حلف كاذب ولا ملاشاة الممالك برمتها

رانما همهم الحصول على السلطة والعظمة ثم ان هذه السياسة وان تكن من خصائص الدول فانهُ لا يمتنع دخولها بصورةٍ من الصور في الجماعات الرهبانية بزي مقبولٍ

فعلى الرؤساء الروحيين اذن ان يحترصوا منها ويخشوا دخولها في اديارهم لانهُ لما كانت تدابيرها جمعاء موءسسة على فطنة الطبيعة المفسودة والطبيعة تميل الى التدخل في جميع امورنا حتى افضل اعمالنا ترتب على الروساء ان يسهروا على انفسهم كل السهر والاَّ سقطوا لا محالة وعملوا بعض الاحيان اعمالهم على مقتضى مبادي هذه السياسة الذميمة

ولنكتفِ الان بتبيان بعض الطرق الخفيـة والحيل التي تستخدمها هذه السياسة الغريبة لكي تنساب وتدخل في السياسة الروحية

ثالثاً

في بعض علامات للسياسة العالمية
في التدابير الرهبانية

ان الرئيس يتصور انهُ قادر على اتيان كل اعمال رياسته الروحية والزمنية من دون ادنى افتقار الى رأي اهل مشورته فكأن رأسه مخزن الانوار او كأن كل راهب سواه عار من الذوق السليم او مفطور على مضادة تصورات الرئيس ومباديهِ

فرب رئيس لا يجمع اهل مشورته في الاوقات المعينة لهـا اولا يلقي في الجلسة الاَّ المسائل التي لا اهمية لها او يعتني في وقت الاجتماع بشغل افكاره اهل المشورة عن المذاكرة في المواضيع الهامة تضييعاً للوقت لانهُ يحكم بنفسهِ في الامور الخطيرة ويترك لاهل مشورته البحث في ما لا طائل تحته

ومتى وصل الرئيس الى الرياسة التي طالما جد وكد في طلبها يجمع اليهِ حالاً اصحابه ويبدل في الدير اهل المشورة ويسلم الخدمات الهامة الى رهبان يختصون بهِ غير الاولين ويكوّن من هولاء هيئة جديدة فيبعد عن الرئيس المنحط وسائر الرهبان الذين كانوا يميلون اليهِ ويعين قهارمة ديره كالوكيل والنائب من الرهبان

الذين لا عزم لهم ولا بصيرة لئلا يبثوا رايًا او حكمًا مخالفًا لتصوراته او يضعوا حدًا لسلطانه المطلق واما ذوو البأس والفضيلة من الرهبان الذين يقدرون اذا مست الحاجة ان ينبهوه او يرشدوه فيرفضهم من بين اهل مشورته ويعزلهم عن كل خدمة هامة ويبعدهم عن ديره اذا امكن اوانه يسعى في اذلالهم او ابعادهم الواحد عن الآخر لئلا يبقى لكلامهم وقع واعتبار او يتفقوا على ما فيهِ خير الجماعة ويضبط رسائلهم الى الروساء الكبار او يبلغ هولاء عنهم ما لا يبقى بعده لكلامهم وقع واهمية فلا يسمعون لهم بثقةٍ واعتبار ويجتهد في ان يمنع مرؤوسيه عن كشف نقائصه وتبليغها للروساء الكبار ويضاعف لذلك اشغالهم كما فعل فرعون بالعبرانيين او يعين لهم مهام خارجة بعيدة محلاتها عن الدير اما الذين يمكنهم ان يقاوموا استبداده او تكون سيرتهم القانونية كتوبيخٍ لهُ على سيرته فانه يذلهم في كل فرصةٍ ويتهمهم ويستصغر كل ما يأتون بهِ من الاقوال والافعال بل قلما يسمح لهم بالتكلم وانما يقيمهم في خدمات حقيرة تحقيرًا لكلمتهم وارهابًا لامثالهم لئلا يجسروا فيرفعوا رؤوسهم ويقاوموه في امرٍ ما

ومن علامات هذه السياسة ان الرئيس يجتهد في ان يثني رهبانه عن مطالعة قوانينهم وعاداتهم وعن التقدم في الفضيلة بل يتسامح ويتساهل في امورهم فيفترون في الروح الرهباني ويفعل ذلك لئلا يتيقظوا فيشرعوا في المحاماة عن القوانين ويشجبوا اعمال الرياسة مبلغين ان الرئيس مخالف بها روح القانون ونصه او لئلا يكون ارتقاؤهم في الفضيلة سببًا لتشنيع رذائله

ومنها ان الرئيس يسعى في تأييد رياسته باستمالته رضى الحكام وذوي المقامات السامية لكي يظهروا بعزله عن وظيفته غيظهم وغضبهم على الرهبان او انهُ يشغل وظيفته بمبالغ دين آملًا ان لايقدر احد لهُ على ايفائها او انهُ يباشر في بناء او عمل رسالة لا يستطيع غيره انجازها. واذا وجد ان احد رهبانه عُين لمهمة او مقام او شغل مركزًا واخذ يتقدم فيهِ مكتسبًا اعتبار الناس فانهُ لا يلبث ان يبدله بآخر ولو تحقق ان الراهب جاد وكادٌ في عمله واكتساب القلوب لله وانهُ لا يعمل الا لخدمة الخير العام وقد يتعلل الرئيس في عمله هذا بان علو مقام الرؤوس واعتباره يخفض اعتبار السلطة والحال ان نيته خفض اعتبار المرؤوسين وتبديد

شمل كل من يمكنه ان يشاركه في شيء من الاعتبار والمهابة ومن البين ان الراهب الذي يكون قد بلغ هذا المقام هو حقيق بان يثبت في منصبه لانه اضحى قديرًا على ما يجب عليه ويمكن بكل عدل وصواب ان يوبّخ على تقصيره وتفريطه لو قصر او فرّط في شيء

وانه يعد لنفسه بعض الاعمال الكبيرة الخطيرة اعلاء لشأنه واظهار انه هو وجه قوام الرهبانية والجماعة وكثيرًا ما يدافع عن حقوق الرهبانية مدافعات بطيئة تعظيماً لنفسه كأن لا احد يقدر على ذلك سوله

وهكذا لو وقع جدال بين الاخوة في مسائل علمية او سياسية فانه لا يفصمه بصوت السلطة بل يجتهد في اضرام نيرانه حتى يلهي افكار الاخوة ويشغلها عن التنديد بسيرته وسياسته واذا وقع خصام بين اثنين من الاخوة فانهُ يشعل نار البغضاء بينهما بدلا من اطفائها · وهو لا يعاقب مذنبـاً ولا يبرر بارًا لكنه اما يبين ان الاثنين مجرمـان حتى يسود عرضهما معاً او يصوّب رأي كليهما سرًا لكي يستميله اليه من دون ان يكترث لالقاء الصلح والمحبة بينهما ·

واذا قصد ان يتخلص من احد الرهبان او يشنع صيته فانه بدلاً من تنبيهه وابعاده عما يوقعه في ما قبح من قول او فعل ينصب له شباكاً ويصطاده بحبائل الحيلة والمكر فيلقي مثلا الخلاف بينه وبين الاخوة بافشائه بعض الاسرار المستودعة عنده وبتعريضه اياه لبعض الاخطار فيسقط ·او يسلمه مصلحة لايقدر على القيام بها فيعزله عنها او يأمره بما لا يستطيع او يوجه توبيخـاً مرًا فيحمله بذلك على الجهارة والقحة انما نوع تزلفه من الرئيس الاكبر فهو بان يبلغه كل فعل يسيئه وكل كلمة قدح قيلت فيه حباً لاكتساب رضاه بل هو مع كونه يرغب كل الرغبة في تغييره فمع ذلك لا يكف عن تقدمة الهدايا له والخدم الدالّة على التعلق بهِ

ومبداه السياسي هو ان القساوة على الرهبان افضل من الرفق بهم وانهُ ينبغي له ان يجعل همه المحافظة على حفظ القوانين بتدقيق والا يعبـأ براحة الاخوة وباعطائهم بعض الجوازات الواجبة لراحتهم وانهُ اذا ما اشتغلت الالة لا باس اذا

صرّت من قلة الزيت او تلاشت او طارت في الجو غباراً

وعلى هذا المبدا يضرب بعض الاحيان الاخوة ضرباً اليماً من دون داع بل يقصد بذلك القاء الخوف والرعبة في قلوب الاخرين او انه يقتص من البعض على غفلة منهم وبدون انتباه ولا استعداد ولا يدع لهم سبيلاً الى المدافعة عن انفسهم وتراه في كل فرصة لا يعبأ بثلم المحبة او العدل للمحافظة على تأييد سلطانه مدعياً انه بذلك يحافظ على الخير العام وهكذا يستبد وينتقم من جماعته ويزعم انه بذلك يسوقهم الى الكمال مع انه لا قصد ولا غاية له سوى الاستبداد وحب الكبرياء والتعجرف والتخلص من ملاطفة الاخوة ومن اقتيادهم باللين والمحبة — ومثل هذا الرئيس كثيراً ما يتعلل بعلل فارغة بقوله ان مرؤوسيه لا صدر رحباً لهم ولا ذكاء فيهم وانهم منكرو الجميل فلا يمكنه استمالتهم بالحسنى فيعتمد على الا يكترث لهم ولا يلاطفهم بكلمة حلوة . ولا يظهر لهم ادنى اعتبار ولا ثقة ويتخذ له من العوام اصدقاء واصحاب مشورة فيغلق باب قلبه في وجه الرهبان ويفتحه للاجانب مبيناً بذلك لجماعته انهم اذا انكروا عليه اعتباره فله من دونهم من يحبه ويعتبره وهو لا يعطي شيئاً ولا يسلّم شيئاً من المهام والخدمات الا بعد المطل والتسويف فكأنه يريد بذلك تعظيم الهبة والوظيفة والمنّ في ما يعطي وهكذا هو يخدع البسيطين من مرؤوسيه ببعض العطايا الخسيسة او المواعيد الكاذبة فطوراً يعود ناكثاً ما وعد بهِ وتارةً يتظاهر بصفاء النية وبالحب المنزه عن الاغراض الخصوصية مع انه في الباطن على خلاف ذلك وانما هو مترد بثوب السياسة لا يحب الا ذاته ودأبه النفاق والخداع ويفتخر بذلك كانه من ضروب السياسة ويتظاهر بالكرم وهو بخيل يعد كثيراً ويفي قليلاً وان اعطى شيئاً فيسترجعه عند الفرصة وهو شديد اللوم على البخلاء والفاترين واذا ادى للجمهور او لاحد الاخوة خدمةً ما فانه يتباهى بها ويبالغ بتبيان كل ظروفها اخفاء لدناءة نفسه وسوء تصرفه ثم انه يكتفي بخارج التقوى ويتظاهر بها طلباً للاعتبار ساتراً فساد باطنه ببرقع استقامة ظاهرة وكثيراً ما ينطق بمبادىء الكمال وهو عنهُ بمعزل بعيد ومن دسائس هذه السياسة العالمية ان الرئيس يرى انه ليس بامكانه ارضاء الجميع وانه لا بد له من ان يكون ملوماً اما من الفاترين في العبادة او

من الخارّين وانهُ لو سلم من طعن الحكماء ذوي الذوق في الانتقاد لا يسلم من قدح الجهلاء المتمردين في عرضه فيأخذ حينئذٍ يدور مع كل ريح وينضم الى الفئة الاقوى مستعيناً بها على الاضعف فيلقي وراء ظهره العناية بالصلاح ويعتنق الكسل والغفلة عن حفظ القوانين ويسلك سبيل العادات السيئة ويفضل غيظ الرهبان الافاضل وحزنهم وتنكيس راية الكمال على مقاومة الشر وفقدان كرامته ولو عند الاكثرين

رابعاً

في ان مبادىء السياسة العالمية تضاد مبادىء الانجيل المقدس وان الظالم الذي يتبعها هو غير الحاكم العادل

من مبادىء السياسة العالمية انهُ لا عمل محرم بشرط ان يكلله النجاح الزمني وان الغاية والنجاح يبرران الواسطة واما الانجيل فيقول لا تعمل الشر ولو صدر عنه خير (روما ٣) والسياسة العالمية تعلم ذويها ان كل شيء هو لهم وانهم لا واجب عليهم لاحدٍ بشيء واماَّ الانجيل فيعلّم ان لا يطلب احد منفعة نفسه بل منفعة الجماعة (فيلبوس ٣) والسياسة لا تخجل من ان تعلم ذويها ان اعتصموا بالكذب والرياء والغش واما الانجيل فيعلم ان اطرحوا عنكم كل خبثٍ ومكر ورياء وحسد واغتياب وكونوا كاطفال ولدوا حديثاً (بطرس ٢) والسياسة تسنّ لتباَّعها هذه الشريعة ان اهينوا القريب واسحقوه وانهبوا امواله لان الافضل لكم ان تكونوا مهيبين ومخوفين لا ان تكونوا محبوبين واما الانجيل فتعليمه ان ارعوا رعية الله التي استودعتموها لا اضطراراً بل اختياراً ولا طمعاً بكسب خسيس بل حباً للارتياح ولا كمن يتسلط على مبرَّات الله بل كمن يكون مثالاً للرعية (ب ١ : ٥) . والسياسة تقول ان الفضيلة تكون في بعض الاحيان مضرَّة ومن يتمسك بعرى الاستقامة يسقط سريعاً واما الانجيل فيقول ان العدل يثبت العرش (امثال ٦) ويرفع شأن القبيلة (: ١٤) . والسياسة تقول كن لنفسك صاحب المشورة ولا تثق بصداقة احد واماَّ الانجيل فيقول يابني لا تعمل شيئاً من غير مشورة فلا تندم على عملك (امثال ٣٢) سر ولا تكن

حكيماً في عينيّ نفسك (امثال ٣٠) السياسة تناديك ان هيّج الخصومة والشقاق واقطع رباط الاتحاد بين الاخوة فتستولي عليهم واماً القديس بولس الرسول فيأمرنا ان سالموا جميع الناس ان امكن (روما ١٢) وكونوا على رأي واحد وابقوا على السلام وإله المحبة والسلام يكون معكم (٢ كور ١٣) والسياسة مكتوب على رايتها لا تحاول اكتساب قلوب اعدائك بالاحسان بل اكبحهم وروضهم بالقوة القاهرة واما المسيح فترى على رايته هذه الكلمات ان جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقهِ فانك ان فعلت هكذا تجمع جمر نار على هامته ولا يغلبكم الشر بل اغلبوا الشر بالخير (روما ١٢)

فبعد هذا يظهر لك بسهولة الفرق بين الحاكم الظالم المستقلّ برأيهِ على موجب مبادىء السياسة العالمية وبين الحاكم الصالح الذي يمقت هذه السياسة ويسير على موجب شريعة الانجيل ·

قال العلامة دوغه في معرض كلامه في هذا الفرق ان صاحب السلطان المطلق اذا كان عادلاً غير ملتوية مبادئه لا يحكم الاَّ بموجب الشرائع التي يجعلها أُساً لارادتهِ ويعتقد ان كل ما منعه هو بالحقيقة ممنوع عن الشعب وعن نفسهِ أيضاً واماً الظالم المستبدّ فلا يعرف شريعة ولا حقًّا سوى ارادته الذاتية وأمياله المعوّجة والحاكم الصالح يجتهد ان يحوي في ذاتهِ كل ما في المملكة من الحكمة والفطنة ولا يفتكر فكرًا ويعمل عملًا الا كما تفتكر وتعمل المملكة نفسها لو كانت ذات فكرٍ حتى لو كانت هي جسماً لكان هو نفسها ولسانها ويدها واماً الظالم فينظر إلى المملكة كأنها غريبة عنه قائمة بذاتها او كان لهُ مصالح ولها مصالح اخر بل ربما الواحدة عاكست الاخرى كل المعاكسة والحاكم الصالح لا يعتبر ارتقاءه الى كرسي السلطان الاَّ تقرباً من الاعمال الشريفة المبرورة او من المقام الذي يقدر فيهِ ان يساعد المحتاجين فيعتقد انهُ تقلد السلطان لا لخيره بل لخير الرعية واماً الحاكم الظالم فيرى ان السلطة من خاصات طبيعتـه ولهُ أُنزلت لا لغيره وقد ولدت معه لمجرّد سروره وسعادته لا غير فان عمل خيرًا مع الرعية كان عمله عن تكرّم اخلاق واجراه على ما يهوى فقط · واماً الحاكم العادل فيعلم بامرين الاول انهُ لا يوافق الشعب ان يوليه حرية تامة والثاني انهُ لا يجب

ان يستعبده عبودية مطلقة وان لا يثقل على الرعيـة فينهكها بظلم او جور بل يوليها من الحرّية ما لا يضرّ بمصلحتها وما كان لازماً لتمام راحتها وهكذا هو يحل في المحل الاول لكي لا يجلس فيهِ المنافقون ويحافظ على نظام الرعية حتى يحلّ عنها قيود العبودية. وأمّا الحاكم الظالم المستقلّ فانهُ يرى ان لهُ على الرعية بعض الحقوق وهو لا يُبقي لها شيئاً الا ويطلبه منها ولما كانت الرعية مقيـدة بالامتثال لاوامره قام يطالبها بحريتها جمعاء وهو لا يعرف لهُ في رعاياه اولاداً لان احشاءه ليست احشاء ابٍ بل يعتبرهم كعبيد ارقَّاء لانهُ لا يرى الاَّ سلطانه المطلق ويخيل لهُ مماً يشينه ان يظهر بعض الشفقة على الرعية او ان يخفف عنهم اثقال نير العبودية فالاول هو الحقيق بان يملك وهو لا يعمـل شيئاً الا بموجب الصواب ولا يرتضي ابداً ان يجعل مجرد ارادته سنـةً لاعماله وان حدث لهُ ان يتبع في بعض اعماله ميله الخاص فانهُ يرى ذلك نقصاً عظيماً ينزل صاحبه منزلة الحيوان واماً الثاني الذي لم يرقَ الى العرش الملكي الاَّ لتعاسـة البلاد فيرى في السؤال عنه احتقاراً لذاته الملكية وخفضاً لشأنهِ في جوابهِ بغير قولـه (أُريد لاني أُريد) ولو نبههُ احد على شيء بمزيد الاحترام فانهُ يغضبه ولو بسطت لديهِ الادلّة القاطعة فلا تزيده الاَّ اصراراً على عناده واذا كلمته في شأن خير الرعية العام فلا يسمع وعنده ان كل ما كان مستطاعاً كان حلالاً فالمستحيل وحده هو حد مطامعه وعنده ايضاً ان عظمته وسلطانه يتوقفان على ألاَّ يتبـع الا هواه وقصارى الكلام ان الملك الصالح هو الراعي المستعد لان يفدي خرافه بنفسه والظالم هو كالاجير الذي لا يهمهُ سوى اغتنام لبن رعيته وصوفها ريثما تسنح لهُ فرصة فيذبحها ويغتذي بلحمانها .

خامساً

في انهُ يجب ان يكره الرئيس السياسة العالمية وان هذه مضرّة بالسياسة الروحية

كتب القديس توما الكانتوربري إلى البابا اسكندر الثالث قال: لا يليق بالسياسة الكنسية ان تدور على محور الرياء والتصنع بل ينبغي ان يكون

محورها الحق والعدل لا غير ولعمري ان الرهبــان ينقطعون عن العالم لكي لا يتدربوا بروح العالم بل بروح المسيح ومباديه فهم اذن سماويون ومن العــدل والصواب ان يسلك السماوي بموجب الشرائع السماوية لا الارضية . ومن البيّن ان السيد المسيح لم يقلد الرؤساء سلطانه ليسوسوا رعاياهم بموجب روح العالم بل بموجب روحه المقدس ثم انهُ لمن الصواب ان يطلب الرؤساء الطاعة من مرؤوسيهم والخضوع كما يطيعون ويخضعون لله عزَّ وجلَّ وانهم هم يدبرونهم ويعتنون بهم بمقتضى روح الله أي بالاستقامة والبساطة فان اسقف « باللي » قال يوماً للقديس فرنسيس سالس اظن انك لو بقيت في العالم لنجحت في السياسة نجاحاً عجيباً اماَّ القديس فأجابه ان مجرَّد لفظة فطنة أو مهارة في الاعمال او السياسة تخيفني لاني اراني قليل البصيرة بل لا بصيرة لي اصلاً فاعرني سمعك واحفظ ما أقولهُ لك فانه سرٌّ وهو اني لا اعرف الكذب ولا المخاتلة ولا الخداع وهذه هي عمد السياسة ومركز قوتها وانا اعرف كيف استسير مع القديسين القدماء بالصدق والبساطة لان ما في قلبي هو على لساني ولا اعرف كيف اتكلم بقلبٍ وقلبٍ واني ابغض الخيانة والمواربة كالموت لاني اعلم ان الله يمقت الرجل الخداع .

وقال في كلام آخر لا اعرف ماذا عملت بي هذه المسكينة فضيلة الفطنة فانهُ يصعب عليَّ ان اجينها واذا اجبتهــا فلا يكون حبي لها الاَّ من باب الضرورة بالنظر الى انها ملح الحياة وسراجها واما جمال البساطة فيدهشني وعندي ان حمامة واحدةً افضل من مئة حية وانا اعرف انهُ مفيد ان تمزج فطنة الحيــة بسذاجة الحمامة والانجيل نفسه يأمرنا بذلك الاَّ انهُ يخيل لي ان هذا الامتزاج يحاكي امتزاج الترياق بقليل من سم الحية اما اكثر سائر اجزائهِ فمن الادوية الناجعة . ومن البين ان الترياق ان دخلهُ من السم بمقدار مــا يدخله من سائر الادوية لا يبقى ترياقاً شافياً بل ينقلب سماً قاتلاً فالحية تقتل الحمامة ولا يعكس فكم من قائل ان الفطنة ضرورية ولا سيما في عصر كعصرنا الحاضر حذر ان يؤخذ الانسان بحبائل المكر والخديعة فانا لا اذم هذا المبدا غير اني اقول ان من المبادي الانجيلية ايضاً مــا قال الرسول فلنحتمل من اجل الله الخزي والعري عالمين ان لنــا جزاء اعظم محفوظاً في السماء وخلاصــة القول ينبغي ان يحب المسيحي الحقيقي ان يكون

كسندانٍ لا كمطرقةٍ وان يُنهب لا ان ينهَب وان يحتمل مضض الشدائد لا ان يحمّلها احداً وان يكون شهيداً لا ظالماً

وكتب القديس بولس الى اهل كورنتوس قال (٢ كور ١) ان فخرنا هو شهادة ضميرنا باننا عاملناكم بسلامة القلب والاخلاص لله واننا لم نعاملكم بحكمة الجسد بل بنعمة الله سعينا في العالم ولا سيا عندكم . وهذه الشهادة انما هي جزاء البركة السماوية وطاعة المرؤوسين الخالصة القلبية

واذا كانت المخاتلة مبغوضة في المرؤوسين فكم تكون مبغوضةً في الرأس الذي هو محامي سلامة النية والاستقامة فالراهب ما دام يعامل باستقامة وخلوص يعمل كل اعماله بطيبة نفسٍ وفرح قلبٍ

واما اذا ظهر لهُ شيء من الخبث في معاملة رئيسه له فانه يتخابث هو ايضاً ويتصنع ولا يعمل شيئاً الا كرهاً بل يفرغ جهده في ان يتخلص من نير الطاعة لمثل هذا الرئيس

فالمخاتلة في الرئيس رذيلة لا تغتفر فاذا عرفت فيهِ هذه الرذيلة وظهر امرها لا يجد من يثق بهِ ولو استشهد على استقامته اقدس من في السماء

فمن اذن يثق بالخبيث او يكاشفه بطويته . ان الرياء والمكر قلما لا يعرقلان امر من يستخدمها « لان من سار بالاستقامة يخلص والمعوج ذو الطريقتين يسقط في احدهما » (امثال ٢٨)

ولعمري انه لا شيء اسرع ظهوراً من الحيل الماكرة قال الحكيم (١٠) من سار بالاستقامة فهو يسير بالطمأنينة واما المعوجة طريقه والخداع فيجب ان يعتقد انه يكون اول المخدوعين وطريق المنافقين تضلهم والمنافق لا يربح شيئاً (١٣)

وقال الحكيم ايضاً من يحفر حفرةً يسقط فيها ومن ينقض جداراً تلدغه حية جامعة (١٠)

وقد فسر غريغوريوس كلمات لشعيا النبي (٢٤) ان القنفذ جعل هناك مسكنه قال الراعي (ق ٣ ف ١٢) ان القنفذ اشارة الى المرائين ذوي اللسانين لان الصياد عندما يشاهد القنفذة يرى اولاً رأسها ورجليها ثم سائر جسمها اما اذا ما اتى ليصطادها فانها تلتف على نفسها وتخفي رأسها ورجليها بل تختفي من امامه اختفاء

كاملًا وهكذا الرئيس فانهُ اذا أُخذ في حبائل مكره ودسائسه فانه يحاول التملص اذا امكنه والاَّ فيصمى باسهم بغضاء الاعين التي شاهدته وهو يفعل الخديعة وقد اردف القديس غريغوريوس قوله ان المصيبة في هولاء العاملين بالخديعة انهم لا يرون في سلوكهم هذا المعوج الأَحكمة ودقة نظرٍ في ضروب السياسة . وقال القديس فرنسيس سالس ان الرجل المرائي لا يعرف الثبات في طريقٍ واحدة بل يدور مع كل ريح فهولا يثق باحد ولا يثق احدٌ بهِ وما اشبهه باسماعيل الذي كانت يده على الجميع ويد الجميع عليهِ فهو كموسىً ذي حدين يقطع كيفا اتجه ومتى سمعته يتكلم عن السلام فتيقن ان في قلبه بعض الكيد يدور في خلده وعليهِ فلا يمكن ان اعتبر او اتمنى دقة فكرٍ ما لم تكن مقرونة بسلامة النية والاستقامة

الفصل الثالث

في الشروط الجوهرية للفطنة الرهبانية

وهي ١ً عدم الثقة بالذات و٢ً معرفة البشر و٣ً الافادة من الحنكة والاختبار و٤ً طلب المشورة و٥ً حسن السياسة في المهات و٦ً كتم السر و٧ً الحصول على نصوح مخلص

الباب الاول

في الشرط الاول من الشروط الجوهرية للفطنة الرهبانية
وهو عدم الثقة بالذات

اولاً

في انهُ ينبغي قبل كل شي ان يعرف الرئيس ذاته

قال الشهير بوسويت في معرض كلامهِ في المحبة الاخوية · ان اهم المعارف

في الحياة البشرية هي ان يعرف الانسان ذاته واصاب القديس اغوسطينوس اذ قال ان الاجدر بالانسان ان يعمق في معرفة زلاته اكثر من ان يعمق في اسرار الممالك وغوامض الطبيعة وهذه المعرفة جميلة جداً لا من حيث انها ضرورية كل الضرورة فقط بل من حيث انها نادرة كل الندور ايضاً اهـ فهذا المبداء اعرف ذاتك الذي كان يعتبره الوثنيون كمختصر حكمتهم يمكننا ان نعتبره نحن ايضاً كأسّ الحكمة المسيحية ولعمري انهُ من اكبر واجبات الرئيس في درسهِ من يجب عليهِ درس اخلاقهم ان يعرف ذاته ويعلمنا العلّامة غراسيانيوس كيفية معرفة الذات بقوله ان للوجه مرآة واما القلب فلا مرآة لهُ سوى التأمل العميق والدقيق في الذات فعلى الانسان ان يعرف اولاً جهة قوته وجهة ضعفه والمراد بجهة قوته درجة حذقه واهليته وكيفية طبعهِ وامياله وعزمه في بعض الفضائل والقصد في هذه المعرفة انما هو ان يعرف كيف يستثمر ما عنده من الفضائل ويكمل ما يكون ناقصاً فيهِ ويهذب الخلال الطبيعة والصفات المكتسبة ليكون لهُ منها اكبر نتيجة فالعمل الواحد لا يوافق كل احدٍ فالاولى اذن بكل انسان ان يعرف ما يوافقه اكثر من غيره

وقال العلّامة غراسيانوس في هذا الصدد ان كثيراً من الناس لو عرفوا جهة قوتهم وعملوا بها لكانوا اضحوا من مشاهير العالم ولكن لما غفلوا ان يوجهوا جهدهم وعزمهم لما هم اهل لهُ بارحوا الدنيا ولم يبقوا لهم ذكراً فيها او كانوا فيها من خاملي الذكر

فاذا عرف الانسان ذاته ووفق بين مقاصده وقوته وبين الوسائط والغاية نظراً لطبعه وامياله يسير في طريق واحدة على قدم الثبات وهكذا لا يشرع بعملٍ عبثاً ولا يعرض ابداً صيته للاخطار لانهُ لا يعمل الاَّ ما يرى انه قادرٌ على عمله وقد يمكن الاَّ ينجح لكنه لا يكون بذلك مخطئاً

٢ً ويراد بجهة ضعفه الرذيلة المتسلطة عليهِ او سوء خلقه او الاشمئزاز والنفور من تتميم بعض الفروض فيا للعجب كيف يحارب الرذيلة وينتصر عليها من لا يعرف مبداها ولا قوتها ولا مفاعيلها فيهِ او كيف يروض طباعه من لا يعرف ما هو الترويض او هل يقاوم امیالاً في نفسه من لا يفتكر قط في

اعوجاجها او هل يقاوم وثبات الاعداء او المحبة العمياء من لا يشعر في ذاته بشيء من هذا ؟

وللعقل ايضاً شوائب خصوصية وكلما كان العقل كبيراً كانت شوائبه ظاهرة والانسان الذي تظنه اكثر كمالاً لا يخلو من الشوائب وهي مكروهة في عين من يشاهدها في غيره بمقدار ما هي محبوبة في اعين المبتلين بها ولذلك كثيرون من يجتهدون في التخلص من هذه الشوائب اما المتخلصون منها فقليلون لانهم يشتغلون بشائبة واحدةٍ ويتغاضون عمّا سواها

وقال موريست دي سانت امابل في كتابهِ الرئيس الكامل (ك ١ ف ٢٧) على الرئيس ان يجتهد بكل قواه في استئصال الرذيلة المتمكنة من قلبهِ قبل ان تظهر في الخارج لان مرؤوسيه لا يلبثون ان يكتشفوا عليها فلا يعودون بعد يتصورون محركاً آخر لاعمالهِ سواها ولهذا لو رأوا فيهِ ميلاً الى الكبرياء لا يتصورون في اعماله الاّ الظلم والاستبداد واذا شعروا بانهُ عديم الثقة يتصورونه في كل اعماله مراقباً لهم ومنتقداً كل خطواتهم اه وهذا ليس بكافٍ بل يجب على الرئيس ان يبذل قصارى الجهد في ان يوقظ فيهِ الفطنة المضادة للرذيلة المتمكنة منه ليرى الجميع فيهِ تلك الفضيلة التي كان يظن انهُ خالٍ منها وبعيد عنها ان السيد المسيح نفسه لما رأى ان اليهود يشكونه بانه يريد ان يلاشي شريعة موسى اخذ يعتبرها ويوصي الجميع بحفظها ولم يكتفِ بعمل العجائب الباهرة وقضاء حياته الالهية لاظهار قداسته بل اراد ان يزكي نفسهِ امام الجميع ولا سيما اعدائه اذ قال لهم من منكم يحكم عليَّ بخطية ؟

ومن مصالح الرئيس الا يزدري قدح الاخوة في عرضه بل ان يتعظ بهِ حاسباً اياه اما لجاماً يردعه عن غوايته واما مهمازاً يدفعه الى تتميم فروضه حباً لمتابعة الخير بالخير واما عدم الاكتراث لما يقوله الناس فهو خلاف الازدراء بالتنديد الصحيح مكابرةً في الشر وكما ان الانقياد الى الحيا البشري هو رذيلة ودناءة مذمومة فالانتباه الى التنديد والاقلاع عن الشر هو فضيلة وشهامة عظمى

ثانيـاً

في انهُ يجب على الرئيس ان يحترص من شر الاميال المنحرفة والخلق السوء والافراط في محبة الذات

ان الاميال المنحرفة هي قائدة عمياء وان كان لها اعين فانها لا تنظر بها الا ما يشبع شهواتها او ان نظرت ما يشين اويضربالجماعة فقلما تعبأ بهِ

فللعقل وحده ان يحكم ويقطع وعلى الشهوات ان تخضع طائعة والأ فيتلاشى النظام الطبيعي والصواب لان العقل البشري هو كشيء صادر عن العقل الالهي او كضياء منبثق من النور السماوي نور وجه الله واما الاميــال الشهوانية فما هي خارجة الا عن قلب فاسد او ظلام منسدل بعيد عن الحقيقة وقد احسن منقابلها بالزجاج الملوَّن لانهُ يري الاشياء بلونه الخاص بدون ادنى صعوبة فان عند الجميع ما عندها وتري قلبها كميزان او مثال لسائر القلوبوسيرتها ومسعاها في عيننفسها كمقياس محكم تقاس عليه سيرة سائر الاخوة

ولنسمع ما يعلمه العلّامة الشهير فنالون في كتابهِ تيليماك الذي وضعه لتلميذه ولي العهد حيث قال: كن على حذر من فظاظة طبعك فماهي الا عدو يتبعك حيثما تذهب حتى الممات فلا يلبث ان يقوى حتى يتدخل في مشوراتك ويخدعك ان سمعت لهُ

فان القلوب اذا قست وغلظت تعدم صاحبهــا اغتنام احسن الفرص واهمها وتولد اميالاً وكراهية صبيانية تذهر باكبر المصالح فانها تحكم وتقطع باهم المسائل لاجل ادنى علةٍ

ومن خواصها انها تعمي العقل وتجعل صاحبها منقلباً مع كل ريح واهيَ الرأي والعزيمة محتقرًا وغير محتمل

والملك اذا ما تسلطت عليهِ شراسة الطباع جعلته لا يقدر ان يتأنى ولا ان

يفاوض احداً ولا ان يصدر الاوامر المدققة ويرى ان الامور بتمامها خاضعة لاهوائهِ ولا يحسب لشي حساباً وتراه يعتسف في كل شي ارضاء لرغباتهِ فانهُ يقطع الغصن لتناول ثمره قبل نضجه ويحطم الباب اذا لم يفتح للحال ويروم الحصاد في وقت الزرع

وكل ما يعمله بعجلةٍ وبغير اوانهِ يكون شر عملٍ ولا يثبت اكثر من هبوب اهوائهِ الخبيثة

وكما ان الرجل الراكب العجلة السريعة التي لا يقدر لضعفه ان يوقفها عند مسيس الحاجة يخشى في كل دقيقة ان تزيد خيوله الجامحة عدواً اذ لا طاقة لهُ على كبحها بقوة اللجام فتطرحه في شر منقلبٍ فهكذا الملك الذي يجره سوء طباعه في حمأة الفواحش فانهُ اذا صادف في طريقهِ ادنى حاجز تشتعل حالاً نيران غضبهِ وتتصاعد غيوم دخانها فتحجب بصيرته فيمسي لا يستهدي سواء السبيل المؤدي الى مصالح تبعتهِ وقال المعلم غراسيانوس (رجل البلاط مبدا ٢٩) انهُ لمن اكبر علامات الذكاء والتعقل في الانسان ان يهذب طباعه الشرسة لانهُ والحق يقال داء في العقل يجب ان يتعالج كامراض الجسد

ومن لم يعتنِ بتهذيب اخلاقه وتثقيفها لزمه ان يخشى شرها حتى في نفس سياسته الروحية لان من كانت السويداء مستولية على طباعه كان قاسياً فظاً في كل اعماله ومن كان ذا مزاج لين هيّن كان اللطف والشهامة يزدادان في كل اعماله ·

فشرس الخلق يدع الفطنة جانباً ويطلب المشورة من اهوائه الجامحة واما من كان بارد الدم اي ذا مزاج بلغميٍ فتكاد تنقطع الحركة والهمة فيهِ ولو مست الحاجة الى العمل اشد مسيس

فكلٌ اذن يعمل على شاكلتهِ وهواء طبعه وما اعرف صاحب الاقتداء باحوال القلب البشري اذ قال : ان الطبيعة تنسب كل شيء اليها وهي تحارب وتخاصم لاجل مصالحها وتهتم في كل الامور مجتهدة في ان تكتسبها لنفسها من غيرها (٣ ف ٥٤)

ولكن المصيبة تكون اعظم فيما لو ان هذه الاهواء الطبيعية المضادة روح

المسيح على خط مستقيم والتي لا تطاق ولا تحتمل في نفس الحاكم المدني ظهرت وسلكت في نفس السياسة الرهبانية لانهُ اذا كان شر الخطية قائماً بهذا الانعكاس كما علم القديس اغوسطينوس فان الخاطي يتخذ الوسائط بدل الغاية والغاية بدل الوسائط واضعاً الله جلّ شأنه موضع الخليقة والخليقة موضع الله

اما يكون الرئيس سائراً هذه السيرة نفسها اذ يحتقر الخير العام ويوجه كل عنايته الى الخير الخاص بذاته وبما يختص بهِ قال القديس برنردوس ايها الراعي اعتبر انك استودعت قسماً من الكنيسة وهو رعيتك

فانت اذن مأمور بالسهر عليها فهي عروس اعطاكها المسيح جميلةً نفيسةً فيجب عليك انت ان تعتني بقوتها وزينتها عناية غير منقطعة والراعي الالهي قد جعلها لك وجعلها محفوظة في حظيرته فعليك ان ترعاها وتحميها من العدو. (غلا ٠ ٧٦)

وقال ايضاً من البين ان مراعاة هذه الواجبات تفترض السهر والمنافسة والتجرد عن الزمنيات ٠

واما اذا اتخذت هذه الانفس المسلمة لعنايتك كفريسة لك واعددت لخيرك الخاص اتعاب مرؤوسيك وشرفهم وحياتهم بل ذواتهم ايضاً فانك بذلك تضحي دم المسيح نفسه لاجل هذا الخير الخاص وبئسَ العمل عملك ٠ فان الصائغ اذا شاء ان يحصل على سبيكة فضة يكتفي بان يطرح في قالبه بعض قطع من الفضة ويرفعها بعد برهة عن النار فيجدها على ما يرغب ويشتهي

واما انت ايها الرئيس فمتى تشا ان تسبك لنفسك انفس مرؤوسيك فانك تطرح في قالب شهواتك دم المسيح وصليبه والمسامير التي ثقب بها جسمه الطاهر والحربة والاهانات كالجلد والتفل ولطم الكف هذه التي احتملها ثم الموت الذي قاساه لكي يبتاع هذه الانفس فيا له من كفر عظيم

فهذا ما يفعله غطارس الروساء لعدم فطنتهم وسوء سيرتهم وانقيادهم الى اهوائهم الباطلة وطباعهم القاسية الفظة وحب الذات فيهم الغير المرتب وهم لا يعلمون ان اخص واجباتهم الانقياد الى الصواب والحكمة والكفر

بالذات فتأمل ٠

ثالثاً

في ان الرئيس عليهِ ان يتجنب في اعماله العناد والعجلة

اورد القديس غريغوريوس في كتابه الرعوي كلاماً في الـذين لا يهوون في اعمالهم الاَّ السرعة والعجلة والذين قلما يتبصرون فيها قبل انجازهـا فقال انهم يفسدون الاعمال الصالحة بعملهم اياها قبل اوانها وانهم كثيرًا ما يسقطون في الشر اذ لا يميزون الخير وانهم من حيث لا يعلمون مـا يعملون ولا كيف يعملون وكيف لا يعملون لا يرون نقص ما يعمـلونه الاَّ بعد العمل فان سليمان الحكيم يرشد مثل هولاء بقولهِ « فلتسبق ألحاظكم خطواتكم » والحال ان ألحاظنا لا تسبق اعمالنا الاَّ حينما نتأمل مليًّا في ما نعمل قبل شروعنا بهِ ومن شرع بعمل من دون نظر الى عاقبته كان كمن يسير وعيناه مغمضتـان فانه يخطو ولا ينظر امامه فهذا يسقط بلا محالة لانهُ يسير في الظلام وليس نور التأمـل والتروّي امام عينه

وقال اريسطوطاليس : ان العجلة والغضب هما للعقل والرشد اكبر الاعداء وشرها والعقل الرفيع السامي يُعرف خاصةً بطول الاناة والانتصار على الغيـظ لانه بذلك يتسامى على ضعف الطبيعة العادي وافخر سلطان يتمناه الانسان انما هو السلطان على ذاته وشهواته ومن يرغب في الملك على رقاب الناس فعليهِ ان يملك اولاً على نفسه وان عجز عن امساك نفسه عن الغضب كان كمن لا يعرف كيف يكتم سرًّا غير ان هذا وذاك فاقدان الحزم والعزم على حدٍّ سوا

فالانسان لا ينجح باعماله بدون التأني والتروي ولا يتوصل ابدًا الى كمالهـا قال القديس فرنسيس سالس قولاً حريًّا بالاعتبار وهو كمبدأ ادبي : ان شئت ان يكون عملك حسناً فاعمله بتأنٍّ وقال الاب بوهور : ان الاعمال التي تتم بالتعجل لا تكون متناهية بالكمال فان الطبيعة لا تكوّن الذهب ولا الحجارة الكريمة

الا بمرور الايام والاجيال . وهكذا كل الاشياء التي تبلغ كمالها بقليل من الزمن فانها تفقد هذا الكمال باقل برهة كالاثمار التي تنضج قبل اوانها فانها لا ثبات لها والعكس بالعكس .

ثم ان أريلوس الرسام الشهير لما سمع احد المصورين يقول مفتخراً اني اسرع بالرسم سرعة عجيبة قال لهُ لا حاجة الى البرهان على صدق ما تدعيه فان مجرد النظر الى رسومك يعلن ذلك

وقال غراسيانوس اننا لا نبحث عادة عن كمية الزمان الذي فيهِ تم العمل بل عن كيفية العمل اي عن كماله او نقصه لان الاعتبار لكمال العمل ولا ثبات الا للعمل الكامل اما مدة العمل طويلة كانت او قصيرة فتندرج في الايام بخلاف جودته فهي ثابتة لا تزول (رجل البلاط مبدا ٥٥)

فالعمل الذي يكلف كثيراً يساوي كثيراً وما ينجز بسرعة يتلاشى بسرعة والعاقل يتأنى متروياً ويسرع بالعمل ولا ريب ان التأني وتأجيل العمل من يوم الى يوم يولد اسراراً ومقاصد كبيرة واما السرعة والخفة فتولدان اسقاطاً لا يمكنها تتحمل الحياة الاَّ دقائق قليلة

وقال فيلبوس ملك اسبانيا قولاً جديراً بالاعتبار وهو اني انا والزمان نساوي اثنين آخرين

ولنسمع ما احكى العلامة غراسيانوس في العناد من الكلام الجوهري الموجز فانه قال : كل المجانين هم معاندون وكل المعاندين هم مجانين وكلما كانوا في تيهٍ وضلال اشتدَّ عنادهم ويفتخرون بانهم لا يرجعون عن كلمتهم ويعدون ذلك كمالاً غير انه من حيث ان عقولهم عمي لا يرون شيئاً افضل مما استحسنوه يوماً فتعودوا العمل بموجبهِ وباتوا بعدئذٍ لا يفتكرون الاَّ كما يعملون

ومن الرؤساء ايضاً من رؤُوسهم من حديد يصعب عليهم جداً ان يخضعوا للحق والصواب وينقادون بهذه الصلابة الى عنادٍ لاد وآله وهذا ناهيك عن اهوائهم النفسانية فانها اذا اتحدت مع عنادهم تألف من ذلك افظع العُجب والحماقة . مع انهُ اذا ساغ للانسان شيء من التمسك برأيه والاصرار عليهِ فهذا يكون من اعمال الارادة لا من اعمال العقل لان من سلم بالحكم وكان تسليمه

صواباً اولاه ذلك فخراً وشرفاً وكل يرى ان مثل هذا التسليم هو عن كمال وليس عن نقصٍ واما من عاند وحامى عن سداد رأيه بالقوة الجبرية فيفقد اعتباره عند ذي ذوقٍ سليم لانهُ لم يُحامِ عن الحقيقة بل يظهر للجميع خشونة تصرفه (رجل البلاط مبدا ١٨٣)

وافظع من هذا ما قالهُ العلّامة نفسه في كتابهِ الموما اليهِ وهو ان البعض من الروساء يوجبون على انفسهم اتمام اضاليلهم لانهم اذا مـا سقطوا يرون من الضروري لشرفهم ان يكملوا سقوطهم ولسانهم يصوّب ما يتشكى منه الضمير مع انهُ لا الوعد المتفاوت حدود الفطنة ولا القصد المخالف الصواب يوجبان على صاحبها شيئاً فان احد ملوك السبارتة لما سئل يوماً ان يحافظ على ما وعد بهِ قال ان كان وعدي مخالفاً للصواب فلا اكون وعدت بهِ وكارلوس الخامس مزق صكاً غير شرعي كان سجله ثم عرف بعد ذلك انهُ غير موافق العـدل وقال اولى ان امزق ختمي من ان امزق ضميري.

فاحذر اذن من تسقط عند اصلاحك نفسك وارجع القهقرى اذا وجدت نفسك تائهاً عن الطريق واهدم البناء الذي شرعت بهِ اذا وجدت الاساس مزعزعاً فاذا اصر الرئيس على بعض مقاصده الرديئة محافظةً على شرفهِ يكون قد فضل المجد الباطل على الخير العام فيتظاهر بانهُ يحافظ على الثبات وانمـا هو محافظ على العناد فهو اذن يسقط في زلاّت عديدة لاجتهاده في اخفاء زلةٍ واحدةٍ واما من يصلح زلته ويرجع عنها فيتعلم كيف يتحرز من السقوط فيما بعد ونفس سقوطهِ يكون مفيداً لهُ

ومع ذلك نقول ان الفطنة تقضي احياناً اخفاء اصلاح الزلة عن المرؤوسين الذين كما يرون في الزلة نقصاً يرون كذلك في اصلاحها خفةً اما عن جهل واما عن سوء ارادةٍ وقد يتفق احياناً ان يكون عدم رجوع الرئيس عمّا بدا لهُ اوفق وهذا اذا كانت الوسائط الموصلة الى العمل الصالح صالحة وكان وقت الرجوع قد فات وان العمل الذي شرع بهِ غير مضر بالخير العام ضرراً عظيماً.

قال غراسيانوس (مبدا ١٦٩) ليكن تحرزك من عدم الزلل اشد من حرصك على كثرة الاعمال الحسنة وقد فسر هذا المبدا المملو حكمة تفسيراً لا يخلو من

بعض الغلو قال : اذا اشرقت الشمس فلا يخرج احد ليشاهدها واما اذا انكسفت فكل يرفع اليها لحاظه وهكذا عامة الناس فانهم لا يحصون الاعمال الحسنة بل السيئة ومهما وفرت الاعمال الحسنة لا تمحو واحدة من السيئة . وكن على يقين ان عين الحساد ترقب في كل فرصة اعمالك المختلة وقلما تريد ان تنظر نظرة واحدة اعمالك الحسنة

رابعاً

في انهُ يجب على الرئيس ان لا يكون كثير الثقة باهليته واوهامه ولا سريع الحكم والتصديق

انها لمصيبة كبرى ان يعتبر الرئيس نفسه حكيماً لان الحكمة كما قال كسيدوروس هي سامية شريفة متسعة حتى انهُ من يتصور انهُ يحصل عليها بدون مساعدة غيره ويتمكن منها بعد فعله هذا من باب الجسارة ويؤيد ذلك القديس برنردوس اذ يقول من يتوهم انهُ يكتسب الفطنة ويعلكها كان فقير العقل . وقال ايضاً : من ادعى انهُ لا ينقصهُ شي كان فاقداً كل شيء فمن الضروري اذن ان يساعدنا الاخرون حتى نحصل على الدرة الثمينة ونحفظها وقال الحكيم لا تتكلن على فطنتك (امثال)

وقال العلامة كاسيدوروس ان الشيوخ الذين يخيل ان الطبيعة جعلتهم حائزين الفطنة يضطرون لان يطلبوها ويلتمسوها ومن ثمة يستنتج القديس توما ان السهولة ولين الطباع ليسا من ضروريات الشبان فقط بل الشيوخ ايضاً فانهم يفتقرون اليها لانهم وان حنكتهم الايام والتجارب فهم مع ذلك معرضون للزلل والخطاء . (٢ : ٢ سو ٤٩ ف ٢٣)

وكيف لنا ان نعدد اسباب الضلال والخداع التي يمكن ان تطرأ على عقولنا وبصائرنا فمن هذه الاسباب محبة الذات والاهواء ونقص ما يبلغنا من الاخبار وعذوبة التمليق وبغض الحقيقة ووهن في الارادة ونقص في تمييز كنه الامور بتمامها وظواهر الامور الكاذبة ومبادي السياسة الفاسدة الى غير ذلك

قال بلينوس الشهير انه يجب علينا ان نتيقن امرين الاول ان غيرنا هو اكثر

استنارة منا واقرب الى الصواب والثاني انهُ يجب علينا ان نكون دائماً مستعدين للاكتساب من انوارهم وسبب ذلك يبينه لنا القديس اغوسطينوس حيث يقول (ك ١٦ عد ١٤ ضد فستوس): ان الاعتداد بالذات لا بد من ان ينشيء في القلب احد هذين الشيئين اعني اما عمى عقل كامل لا يعود الانسان معه يبصر شيئاً واما انه يجعل في نظره خولاً فلا يعود يرى الشيء الا خلافاً لما هو عليه فيمسي القلب في هاتين الحالتين يتبل من الامور ما يجب رفضه ويرفض مـا يجب قبوله

قال غراسيانوس لا شيء اصعب على الانسان من نجـاته من اعتقاده بمزيد فطنته واهليته لان كلاً يرى ذاته اهلًا لاعظم المهمات فياليت للعقـل مرآة كما للوجه ولكن خداع العقل سهـل لانهُ مرآة نفسه ومن كان لنفسه قاضياً وجد مخرجاً ومعذرة لكل ذنوبهِ وسقط بحبائل اهوائه · (ك ٩)

واما معرفة الانسان عجزه فتكسبه الحذر والتواضع وبالحذر يقي نفسه من شر الاخطار وبالتواضع يملك قلوب مرؤوسيهِ

واذا بحثنا عن تلك الانوار التي يدعيها البعض من الروساء لانفسهم ويفتخرون بها نجدها محض توهمات لا اساس لها او اراء لها بعض الاحتمال بازائها غيرها اكثر احتمالاً او احكاماً يبنونها ضد القريب قبل ان يعرفوه تمام المعرفة او عبارة عن نوع من الاعتبار او الاحتقار موهوم على غير سند او عن روايات لا اهمية لها أصلًا لو لم تتداولها الالسن لان رواتها انفسهم يجهلون حقيقتها او مبادرة الى المساواة بين الاجازة والمناهلة اذ لا يلوح الفرق بينهما او تنزيـل الفروض منزلة النواقل وما يأمر بهِ القانون ونلتزمه منزلة ما لا نلتزم او حكم بامور كثيرة بدون تأكيد اركانه فان هذه الانوار ضعيفة حقيرة وأوهى من ان يركن اليها فكيف يسوغ التشبث بها ·

ومن المعاطب التي يجب على الرئيس ان يحذر السقوط فيها سرعة التصديق عن غير برهان ·

فيتفق للرئيس انهُ يسرع في تصديق غيره او في تصديق نفسه فالاول يكون في عدم بحثه عن الحقيقة وفي انه لا يريد ان يزعج نفسه لطلب البرهان والثـاني في عدم استقصائه الحقائق والتغاضي عنه وتصوره ان جواهر الاشياء مكشوفة

عنده فمصدر هذين الخللين واحد وقلما يوجد احدهما من دون الآخر لان الانسان يسمع لغيره كما يتكلم هو في نفسهِ فمن كان لا يثق من نفسهِ او كان سريع التصديق كان كذلك في مخاطبتهِ غيره وكما يخدع هو نفسه يخدعه الناس ايضاً

فعلى العاقل ان يسنّ لنفسهِ سنناً وشرائع لا يتخطاها في احكامهِ ومقاصده منها انهُ لا يكون ميالاً الى احد الطرفين من دون فحصٍ مدقق وان يفرق بين الحقيقة وما يلابسها وان يضع الظن والشك في مواضعهِ وألاّ يستخرج من المقدمات الا النتيجة الصادقة وان يتدبر العلل الايجابية والسلبية فيقف عند الادلة الراهنة التي لا تختلّ فهذه هي الطريق التي لا يسلكها الا القليلون لان خفةالعقل يزعجها التأني في الاحكام والتنقيب فياسبابها والارادة يهمها طبعاً اصدارالحكم لا الخوض في ميدان البحث والجدل الذي ليس من خصائصها هذا وان كثيراً من العلل الخفية والتصورات الخرافية تحمل الانسان على سرعة الحكم من دون التفات الى مسوغاتهِ

الفصل الثاني

في الشرط الثاني الجوهري للفطنة الرهبانية

وهو معرفة الناس

اولاً

من أهمّ اعمال الرئيس التعمق في معرفة الناس ·

لا يقوم الرئيس حق القيام بمهمتهِ إذا عمل بذاتهِ اعمالاً يمكنه ان يعملها بواسطة مرؤوسيه بل هو يضرّ بمصلحتهِ وبخير جمهوره ولاسيما اذا كان غفيراً ولا يمنع هذا الضرر كون الاعمال التي يباشرها بذاتهِ مقدسة مثل تعليم الصغار او تصدّيه لخدمة المرضى او استماع الاعترافات او الخروج الى الوعظ او التعليم في الخارج لانه بذلك وان عمل خيراً اعظم يحرم جمهوره من خيرٍ اوجب من ذاك· فعمل الرئيس الجوهري الضروري بل الوحيد الذي لا يمكنه ان يعمله بواسطة

آخر هو ان يعمل كل شيء لا بذاتهِ بل بواسطة غيره ممن يفوض اليهم الامور معيناً لكل واحدٍ منهم الخدمة التي لا يعوقه شيء عن حسن القيام بها · وينتخب لمعاونته من هم اهل لذلك فيقاسمهم سلطانه ويعرف مع ذلك عند مسيس الحاجة كيف يشدد عزائمهم ويقوّم اعوجاجهم وأهمُّ من هذا كله ان يساعد كلاً من افراد جمهوره على بلوغ الكمال بأسهل طريق توافق طبعه وتأثير النعمة فيه فيبعد هذا عن الرذيلة المتسلطة عليهِ ويدفع ذاك إلى الفضيلة والكمال الرهباني تبعاً لاميالهِ المقدسة فقيادة النفوس إلى خيرها الاكبر وانتخاب معاونين للقيام بمصالح الدير والجماعة يستلزم ضرورةً معرفة قوة النعمة ومقاصدها في كل من الاخوة ومعرفة طباعه وأمياله وحذقه كما يلزمه لتتميم واجباته الزمنية او الروحية ولا يمكن الرئيس بدون هذه المعرفة ان يحسن السيرة في رعيتهِ وألاَّ يوقعها في غوائل جمة ولو عن غير معرفةٍ أو قصد فهذه المعرفة إذن واجبة لكل رئيس والرئيس ينبغي لهُ ان يوقف كل ايام حياته على درسها وانعـام النظر فيها وهيهات مع ذلك ان ينبغ بها ويبلغ كمالها ·

فسيبيون الافريقي قابل الجماعة المنظمة التي كل من اعضائها يحسن عمل وظيفته مهما كانت بآلة طرب متقنة الترتيب فانها إذا ما مسها أحد المهرة بالموسيقى يبدو منها أصوات مختلفة مؤلفة الانغام بنوع يدهش السامع · والانسان اذا اراد ان يرعى قطيع غنم لا يحسن رعايته ان لم يعرف حق معرفة ضرورياته واحواله الخاصة وان لم ينتبه باجتهاد الى ما هو مفيد ومضرّ برعيتهِ افراداً واجمالاً أو لم يقف على العلوم والاكتشافات الحديثة المفيدة اللازمة لوقايتها من الامراض أو لشفائها منها فكم يجب على الرئيس المستولي على سياسة الاجساد والانفس في رهبان افاضل انقطعوا الى عبادة الله ان يبذل كل جهده في ان يعرف كلاً منهم حق المعرفة وذلك بدرسهِ امياهم لانهُ كما يكون الوجه الناظر في الماء ازاء خياله كذلك قلب الانسان يكون ازاء الانسان (امثال ٢٢)

والرئيس الفطن يرغب في ان يعرف كل ما من شأنهِ ان يحرك الناس ويحملهم على التمسك بواجباتهم وما من شأنهِ ان يتوقعوه او يخشوه او ينفروا منه ويجتهد كل الاجتهاد بان يكتشف على الوسائط التي تؤلف بين العقول المختلفة وتجعل رأيها

وفكرها واحدا والتي تكسبه ثقة القلوب وتنزع التوهمات الفارغة فتكون في يده فيحركها عند مسيس الحاجة كيفما شاء وبما ان القوى المحركة كثيرة في الناس فلا تظهر ولا تعرف الاّ بالامتحان فعلى الرئيس ان يعرف مرؤوسيه لا كما هم عليه في الحال بل بالخصوص كما يكونون في الاستقبال فالانسان ما دام في مقام وضيع يرى شهواته خامدة ويُظن بها انها قد أُطفئت وما ذلك الاّ بابتعاده عن سبب التجربة اما اذا دنا من التجربة فانه يتغير اي تغيّرٍ ويتعجب رؤساؤه لانهم يشاهدون منه انساناً جديداً ٠

ولا شك ان تعميق نظر الرئيس في معرفة رهبانه لا يكون لخداعهم بل لئلّا يخدع منهم قال ابن سيراخ (ف ٩) احذر الذين حولك واطلب المشورة من الحكماء ٠ وقال الحكيم : (امثال ف ٢٧ : ٢٣) اجتهد في معرفة وجوه غنمك واجعل قلبك على قطعانك ٠ فما معنى ذلك سوى انهُ يجب عليك ألاّ تدع في القرب منك وتحت سلطانك الاّ من كنت تثق بهم كل الثقة والحال لا سبيل الى معرفة من هم اهل للثقة سوى تعميق النظر في درس البشر ٠

فتعميق نظر الرئيس في معرفة رهبانهِ يكون آئلًا الى خيرهم وحسن تدبيرهم ولا شك بان بلاغة التعبير وقوة البرهان تقصران عن ايضاح هذه الحقيقة وهي ان نجاح الرهبان في الفضيلة وفي مهماتهم الزمنية ايضاً بل سعادتهم في هذه الحياة ودرجة مجدهم في الاخرى متعلقة بمعرفة الرئيس طباعهم وتقويمها وتهذيبها بفطنة

فالرئيس الذي يعتاد درس طباع الناس وينبغ في معرفتها يظهر كانهُ موحىً لهُ من العلي لانه لا يعثر ولا يضل في طلب الغاية وقد اشار الحكيم في سفر الامثال (ف ١٦) الى هذا حيث قال : ان النبوّة في شفتي الملك وفي احكامه لا يضلّ

فالرئيس ان لم يكن رشيداً لا يعرف كيف يميز بين البشر فلا يرفع احداً او يضعه الا صدفةً او اطاعة لاميال منحرفة فتباً لقوم يقودهم من يعمه في الضلال وانما عليهم تأسف الحكيم اذ قال في الجامعة (٩ : ١١) التفت فرأيت تحت الشمس ان ليس الجري للخفيف ولا القتال للاقوياء ٠٠٠ ولا الحظوة للعلماء لان الآونة

والاحداث تفاجئهم كافةً » وقال ايضاً (ف ١٠ : ٥) شر رأيتهُ تحت الشمس كانهُ السهو الصادر من قبل ذي السلطان · الحماقة اقيمت في مراتب عالية وذوو النجابة قائمون في مكان منحط ٠٠٠٠»

عد ٢

في كيف يكون التوصل الى معرفة الناس

انه من الصعب في اول الامر تعميق النظر في امر معرفة الناس الذين يجهلون انفسهم وهم اول المغرورين بهذه المعرفة فيحسبون لهم ما ليس لهم ويرون انهم قادرون على ما هو فوق طاقتهم ويتخذون لهم بعض تصورات بمثابة استعدادات طبيعية او فضائل غريزية ويلبثون في ضلالها ولا يعلمون ومع ذلك فمن اراد الوصول الى هذه المعرفة الثمينة النادرة يقدر عليه اذا جد سالكاً سبيلاً اميناً قوياً بشرط الاَّ يكون هو نفسه خامد الهمة او قليل البصيرة والفطنة او ممن لا يحسنون الظنّ في الناس

واننا لا نذكر شيئاً من النتائج العامة البعيدة التي تستخرج من التواريخ المقدسة والعالمية والتي منها يُرى ما هم البشر وما هي الطريقة في تدبيرهم وما يؤمل وما يخشى منهم واننا لا نذكر شيئاً ايضاً عن اقوال الحكيم التي ترفع عن القلب البشري كل ستار وتسنّ شرائع تصلح في كل الشؤون لتدبير الانسان نفسه وكل من ينوط به ويكتفي بالقول ان لمعرفة البشر طريقين الاولى كلامهم فان مفاوضة الرئيس مع مرؤوسهِ تكون اعظم خيراً وفائدة من اشتغاله بالعلوم وباعمال الرسالة وان كانت خطيرةً جداً لانهُ يعلم بهذه المفاوضة ما في مرؤوسهِ من الخفة والطيش والميل الى الاباطيل وطلب التملقات والمبادي الكاذبة وهكذا يسبر عمق بواطنهم من دون ان يدروا انهُ راغب في ذلك او مفتش عنه وللرؤساء قوة غريبة على مرؤوسيهم عندما يقتربون منهم والمرؤوسون يستولي عليهم هيبة او احترام شديد جداً عند مثولهم امام الرؤساء لان مجرد النظر الى الرئيس يحرك في المرؤوس كل الاهواء الساكنة او كأنهُ يفتح جروح القلب واذ ذاك يقدر الرئيس الحكيم ان يطلع على ما عند مرؤوسه من القوَّة والضعف ويضحي

بذلك ماهراً في الصناعة العجيبة التي هي مقاومة الرذائل بالاميال الصالحة واستخدام قوى الطبيعة لمساعدة النعمة ٠

قال غراسيانوس « في تأليفهِ المعنون رجل البلاط في المبدإ الـ ٢٦ » انهُ متى عثر الرئيس على الجهة الضعيفة في مرؤوسهِ اقتاده حيثما شاء ومن حيث ان كل ارادة لها ميل متسلط فيها وان هذه الاميال تختلف باختلاف العقول ثبت ان كل الناس هم كالوثنيين من وجه ان هذا يعبد الكرامة وذاك الارباح والاكثرون يتعبدون لملاذهم فالحذق في فن السياسة انما هو ان يكتشف الرئيس هذا الميل المتغلب على ارادة مرؤوسيه فيصبح كانه ملك مفتاح القلوب فيفتحها متى شاء وبما ان اكثر البشر ميالون الى الانحراف عن سواء السبيل فاقتيادهم وراء اميالهم الضعيفة اسهل منه وراء الاميال العالية الشريفة »

وقد اكد هذا المصنف نفسه ان من لا ينخدع في معرفة البشر ويعرف كيف يميز بين العقول والطباع انما هو فيلسوف عظيم يسمو علماً على جميع من تساموا في معرفة اسرار الطبيعة ٠ وكما ان المعادن تعرف من صورتها كذلك البشر يعرفون من احاديثهم فلنسمعها اذن بكل ما نحن عليهِ من الحذق والنباهة والاحتراز من الخداع

اما الواسطة لاستئصال الخداع فهي ان نسبق فننظر الجرثومة الناجم عنها الخداع فنقطعه قبل ان يشرع في النمو فلا تخفى عليك بعد ذلك حالة الجاهل ولو اختبأ في مخادع السكوت ولا حيل المخاتل ولو اتشح بحلة التقى ولا خيانة المنافق ولو البس احاديثه اثواب الصدق لان التفاوض في الاحاديث يكشف للحكيم عن كل شيء من هذه الخفيات فاجتهد اذن في ان تحمل مرؤوسك على مخاطبتك فانك حينئذٍ تكتشف من معاني بعض كلامه اخفى اسراره من دون ان تبين عما عندك منها

وكما ان لكل انسان رذيلة تسود فيهِ على باقي الرذائل هكذا يكون فيه ايضاً فضيلة تسمو على سائر فضائله وكثيراً ما يخفى الفضيل فضيلته عن احتشام والرذيل رذيلته عن خبثٍ ومخادعة والرئيس مضطر لان يعرف كل ذلك ومن ثم يترتب على كل رئيس ان يتفاوض مع مرؤوسيه في احاديث مودة لكي

يسبر بذلك غور بواطنهم لان اللسان ينطق بما في القلب وعليهِ ايضاً ان يراقب ليقف على العلاقات التي للواحد مع الاخر فيعرف هذا من ذاك . وقد يتفق ان يعرف الباطن من ظاهر سمات الوجه

ولعمري ان من نقب ودقق في معرفة الناس قلما ينخدع في ذلك لان الطبيعة رسمت على الظاهر صورة الباطن فان ابن سيراخ قال: ان المرء يعرف من منظره «(ف١٩) وجاء في الامثال الف ١٧: ٢٤ « في وجه الفطن تضيء الحكمة وعينا الجاهل في اقاصي الارض » هذا ومع ذلك لا ينبغي ان نثق باول نظرة ننظرها لان الظاهر كثيراً ما يغش ويخدع والروح الذي قال: ان المرء يعرف من منظره هو نفسه قال في الـف ١١ « لا تمدح الرجل لجماله ولا تذم الانسان لمنظره. النحل صغير في الطيور وجناه رأس كل حلاوة »

والطريق الامين لمعرفة الناس هو ان نراقب كل شيء ولا نثق الا بالاعمال لان الرب قال في متى الـ٧ من ثمارهم تعرفونهم وقد نبهنا الى ذلك ابن سيراخ فقال في الفصل الـ١٩ « رب زالّ بلسانه وليست زلته في قلبه ومن الذي لم يخطئ بلسانه » فكأنهُ يقول لا تحفل في بعض الكلام وهفوة اللسان بل وجّه اعتبارك واحكامك الى تتابع الاحاديث والاعمال وهي تنبئك عن حقيقة الباطن

والطريق الثانية لمعرفة الناس هو الرأي العام فلا يمكن ان يعيش الرهبان معاً زماناً طويلاً من دون ان يتعارفوا حق التعارف فلهذا تحتم على الرئيس ان ينقب عن رهبانه في تسآله بعضهم عن بعض ولاسيما الذين ابتدأوا او تعلموا معاً ولهُ ان يسأل احياناً القدماء في المناصب والمهام عمن هم اكثر اهلية في وظائفهم هذا اذا تأكد خلوصهم وحسن نيتهم

وليعلم الرئيس انه اقل علماً في احوال رهبانه منهم بعضهم في احوال بعض فالراهب الذي يتبرقع بثوب الكمال امام رئيسه ويلتجيء الى جميع الحيل حتى لا يطلع الرئيس على اسراره لا يعبأ باخوته ولا يخشى ان يكاشفهم باعماله وافكاره وذلك من دون مخاتلة ومخادعة وقد قال ايزوكرات لتيكوكليس ان استمع واصغَ الى ما يقوله الناس بعضهم عن بعض فتعرف بذلك القائل والمقول فيهِ .

ومن المفيد كذلك ان نتفاوض في الحديث مع الشيوخ الفضلاء الذين قد تعمقوا ومهروا في معرفة الناس باختبارهم الخاص لان معرفة الناس هذه كمعرفة الشعراء الذين لا يتعمق احد في معرفتهم الا بقدر ما يتسنى له ان يعاشر منهم الذين نبغوا بهذا الفن فان غراسيانوس قال: ان الانسان يقضي حياته بالاستعلام عن الحقايق لان ما نشاهده عياناً هو قليل وانما نحيى بتصديق ما نسمعه فالسماع اذن هو للحقيقة باب ثانٍ وان يكن للكذب باب اول لان الحقيقة بالنظر الى المعتاد تكون بالعيان واما بالسماع فنادرة وقلما تبلغ آذاننا نقية خالصة ولا سيما اذا ما اتت عن بعد لانها في طريقها تصادف اميالاً ومشارب تأخذ عنها بعض الالوان فتمسي مقبولة او مردودة فحذار اذن من سرعة تصديقك من يطنب في القدح او المدح لان السامع اذ ذاك يفتقر الى نباهة وذكاء غير اعتيادي ليرى ما فكر المادح والقادح وما الغاية التي تحملها على ذلك وهو يميز بهذا لا غير بين النقود الزائفة والرائجة

وكما ينخدع غالباً من يحكم على الباطن بالظاهر وعلى النية بالعمل هكذا ينخدع غالباً ايضاً من وضع على اساس الراي العام بناء حكم اكيد لا يتزعزع لان ما يكفي مؤونة لبعض الشك والريب لا يكفي لبناء حكم رسمي مقرر

فقد تقرر اذن ان الكلام والراي العام هما موضوعا عناية الرئيس لمعرفة مرؤوسيه وتمييز الصالح عن الطالح منهم ليتمكن من حسن السلوك في تدبيرهم وكلما جد واعتنى بهذا الدرس تقدم بعلم احوال مرؤوسيه الراهنة الوطيدة

الفصل الثالث

في الشرط الثالث الجوهري للفطنة الرهبانية

وهو الاستفادة من اختبار الايام السالفة

عد ١

في انهُ ينبغي للرئيس ان يستفيد من اختباره الخاص واختبار غيره ايضاً

قال الشهير بوسويت في تأليفهِ المعنون بالسياسة المقدسة : على من اراد ان يحكم على المستقبل حكماً مستقيماً ان يسأل الماضي واذا شئت ان تعرف ما ينفع او يضر في الايام الآتية فانظر الى ما ضر ونفع في الماضية فما لنا سوى الزمان الماضي معلماً ماهراً يكفل لنا النجاح في المستقبل وجاء في الجامعة الـ ١٥ ان ما سيكون قد كان وما سيعمل قد عمل ولا شيء جديد تحت الشمس وما من احد يمكنهُ ان يقول انهذا لم يشاهد قط لانهُ قد ظهر في الاعصار التي امامنا « وورد في سفر الحكمة الـ ٨ : من عرف الماضي انبأ عن المستقبل » فلا نسمع الحجج الباطلة التي لا سند لها الى الاختبار فان الاشخاص تتغير واما الهيئة والاداب والعادات فتبقى كما كانت من قبل

فعلى الرئيس اذن ان يتذكر الاقدمين الافاضل الذين نبغوا في فن السياسة وان ينعم النظر في كيفية سياستهم ومباديهم وطرائقهم ومهارتهم وان يقول في نفسه كلما حدث لهُ حادث مهم كيف ترى كان يعمل في مثل هذا الحادث اولئك الافاضل ؟ . اي الوسائط كانوا يتخذونها واي الاخطار كانوا يتجنبونها وباي حذاقة كانوا يديرون افكار المرؤوسين ؟ لاننا نرى ان الرهبنة لا تكتفي بان تقدم للرئيس بعض المساعدات والوسائط الخصوصية او بعض الاوامر والنواهي الشخصية بل تقدم لهُ امثالاً يقتدي بها كامثال مؤسسي الرهبانيات وخلفائهم

الفضـلاء الذين تقدموا في مناصبهم وقدسوا اخوتهم بشدة سهرهم على حفظ القوانين وتدقيقهم في القيام بواجباتهم فانهم قد مثلوا بذواتهم روح الرهبـانية الخاص وكيفية سياستها وكانهم قد شرحوه وبنوه بسيرتهم الفاضلة واعلوا شأنه ببهاء فضائلهم فالحكمة اذن والفطنة تدعونا الى الاقتداء بامثالهم والارتواء من مناهل فضائلهم ومما يؤيد ذلك ما قالهُ القديس غريغوريوس التزيتزي في تحديده التاريخ : انهُ روح جماعة من الناس قد اجتمعوا بشخص واحد وانضموا لغاية واحدة وقد قال ساوردرا في هذا المعنى قولاً يوافق ما نحن في صدده وهو : انما التاريخ كخريطة بحرية وصف فيها غرق هذا وتوفيق ذاك ورسم فيهـا مركز الشواطي. ومحال الاخطار وتلال الرمل في السواحل والطرق الامينة التي يمكن للملاح ان يسلكها

ويحسن جدًّا بالرئيس ان يتذكر ما كان يحكم به على روسائه ويرغب فيـهِ اليهم لما كان مرؤوساً مخاطباً نفسه قائلاً كيف كنت احب ان يسوسني روسائي. وعلى اي شي كنت احمدهم وبمَ كنت اذمهم واقدح فيهم ؟ فلما كان احدهم يأمرني بشي بصوت مغضبٍ ولو قليلاً او بوجهٍ عبوس امـا كنت اتذمر واتشكى ؟ فان لم يكن ذلك في الظاهر الم يكن على الاقل في الباطن ؟ ثم ما كنت الوم فيهِ روسائي اما يلومني مرؤوسي فيـهِ الان اذا ما فعلته هو نفسه ؟ ومن المبادي العامة التي قلما يعتريها شذوذ ان من لا يأمر وينهي الاَّ ما يرضاه هو نفسه انما يأمر وينهي مستقيماً قال المؤرخ تاسيت انهُ لما اراد الامبراطور كالبا ان يشرك بيزون في مملكته محضه هذه النصيحة قائلاً تذكر ما كنت تتشكر منه وما كنت تلوم فيهِ قبل ان صرت حاكماً واتصف بما كنت تتمنى للحكام من الصفات الجيدة وانبذ عنك النقائص التي كنت تمقتهـا فيهم فتكون بذلك رجلاً حكيماً وحاكماً صالحاً اه

ولما انتخب مبعوثو المملكة الرومانيـة تاسيت وابى ان يملك خطب فيهم حينئذٍ الرجل الندب مينتيوس فالكونيوس حاضاً اياهم على اجبار تاسيت بقبول الملك قال : ان رجلاً كهذا فطناً حكيماً محنكاً لا يدع لنـا باباً للخوف من سرعته باصدار احكامه من غير تبصر او من الاغتصاب جوراً لانهُ لا يبتغي الاَّ

خير الرعية ولا يبدي عملاً الا بعد التروي فيهِ ملياً ولا يفتكر فكراً او يحكم حكماً الا تبعاً لما تفتكر او تحكم بهِ المملكة نفسها لو كان زمام الملك في يدها لانهُ يعلم من قبل ولن ينسى ابداً ما كان يتمناه للملك فيكون بلا مرآء على ما كنا نرغب ونشتهي ان يكون الملك عليهِ ارضاء لنفسهِ وابتغاء خير مملكته

ومما يؤدي الى بلوغ الكمال او ما يقرب منه هو ان يعرف الانسان كيف يستفيد من سقطاته السالفة لانهُ اذا كان النظر في سقطات الغير مفيداً لنا فالنظر في نفس سقطاتنا يفيدنا باولى حجة فاننا لا نستطيع ان نراقب سقطات الغير الا عن بعدٍ واما سقطاتنا فنقدر ان نمسها ونشعر بها ظاهراً وباطناً وهكذا البحار الذي يرى عن بعدٍ مركباً لآخر يغرق فانهُ لابد من ان تأخذه شفقة على بحاريه ويستفيد من هذا الحادث بعض الاستفادة في ما ينبغي ان يتداركه لتخليص سفينته في مثل ذلك الخطر واما اذا غرقت سفينته نفسها وكان ذلك عن تهاونٍ منه وتغافل فرط منه في مصلحته فاي اسفٍ يلحقهُ من ذلك واي الاستفادة لا يستفيدها لاستدراك المستقبل ? فليكن لنا الماضي منارة للمستقبل ولنعلم اننا نستفيد من سقطاتنا اكثر مما نستفيد من فوزنا ونجاحنا وذلك لنقصٍ في طبيعتنا لان ثمرة الفوز والنجاح تعمي ابصارنا والعكس بالعكس

والتواريخ تثبت لنا ان احكم الممالك لم ترتقَ الى معارج الكمال الا بعد سقوطها . ومن لا يرى انهُ تعلم الفطنة والحكمة في نفس سقوطه الماضي لا يدعى حكيماً فطناً ولا يقدر ان يكون من اهل السياسة الحكماء . ولنختم كلامنا ببعض آيات لابن سيراخ حيث يقول (٢٤ : ١٠) الذي لم يختبر يعلم قليلاً اما الذي جال فهو كثير الحيلة . الذي لم يُمتحن ماذا يعلم اما الذي ضلَّ فهو كثير الدهاء اني رأيت في مطافي اموراً كثيرةً واكثر اقوالي مما اختبرت وقد طالما خاطرت بنفسي في هذا الطلب حتى الى الموت ثم نجوت اه

عد ٢

في ان اقتداء الرئيس بغيره لا ينبغي ان يكون بدون فطنة وتمييز

يمكننا بلا شك ان نستفيد كثيرًا مما اختبرهُ سلفاؤنا غير اننا لو اقتدينا بآثارهم على غير روية ولا تمييز يكون ذلك لنا سبب عثار ووبال فليس لنا اذن في مثال الاقدمين قاعدة مطردة بل لنا فيها فوائد كثيرة نتخذها لا كشريعةٍ او دستور بل كدلالة او اشارة الى العمل وذلك لاسباب الاول هو ان الحوادث تتغير مع تغير الظروف ورب امرٍ غير صالح امس يكون اليوم صالحًا وما كل نجاح ينسب الى الفطنة ولا كل فشل الى الجهل والذهول فان امورًا كثيرةً تحدث بغير آوانها وعلى غير مجرى الامور فالذي كنت عزمت عليهِ امس لا يحسن فعله اليوم وهلم جرًّا

والثاني هو ان الاحتياط الذي اتخذه ذلك الرئيس مثلًا او السبيل الذي سلكه لم نسلكه نحن لانهُ لا يسوغ لنا اتخاذه ولا السلوك فيهِ او ان لهُ ما ليس لكل واحدٍ منا من القوى الطبيعية التي جعلتهُ ان يذلل كل صعبٍ وفوق ذلك ليست كل الحوادث لتطابق عللها المعروفة فان الله تعالى يُخضع لنفسه العلل الثانوية ويغير جريها كما يشاء خلافًا للظاهر لتتضع بذلك الحكمة البشرية وتُهدم حصون مقاصدها المتينة

الثالث ان السمعة والسن والذكاء والخدم المشهورة والمناصب التي يكون قام فيها احد الروساء حق قيام كل ذلك من شأنهِ ان يولي النفس ما ليس لغيرها من التقدم والنجاح والاعتبار عند الجميع

الرابع ان احكم الناس وافضلهم لا يخلو من بعض الشوائب التي يجب الحذر من اتباعها ولا ينبغي ان نتصور ان كل ما عمله الاقدمون هو من باب السداد والفطنة لان القديس برنردوس نفسه اضطره الامر لان يهذب نفسه ويصلح سلوكه في ما يقتضيه الصواب

الخامس ما اكثر الذين يبحثون بكدٍ ويفتشون في امثال سلفائهم الاقدمين

عمّا بهِ يعززون اهواءهم المنحرفة ويسترونها بسترٍ لطيفٍ فالقاسي يبحث في اعمال الاقدمين عن افعالٍ ذات صرامةٍ واما المتراخي فيفتش عن افعال التواني والفتور · وهكذا نجد البعض يُفرطون في حب الاقتداء بسلفاءهم حتى انهم يقتدون بشوائبهم ايضاً

والسادس انهُ لا ينجح انسان اذا تخلق بغير اخلاقه الطبيعية او الذي لم يوفق بين اخلاقه والوسائط التي يستعملها واخيرًا ان لم يقم على ما هو مفطور عليهِ في جميع اعمالهِ وحركاته فان الله جلّت حكمته اولى كل واحدٍ منّا قوةً خصوصيةً بها يزن الامور ويشعر بها ويرضاها وهكذا قوى الطبيعة فانها يكمّل بعضها بعضاً فلا نكرهها اذن ولا نتّسمها والاّ اضعناها واتلفنا انفسنا · فعليهِ يجب ان نجتهد في الاقتداء بآثر سلفائنا وندرس الوسائط التي استعملوها للنجاح وما كانوا عليهِ من سمات الهيبة والكمال في الهرم ومن القداسة المشتهرة والبركة الخصوصية جزاء غيرتهم المتفاوتة حدود الفطنة وما كان لهم من الانوار السماوية التي كانت تهديهم الى سواء السبيل ويجب ان ندرس ايضاً ما كان لمرؤوسيهم من اللطف والفطنة والفضيلة ولا نغفل عن اختيار الاشخاص والزمان وجميع الظروف الموافقة

فاجتهد اذن في الحصول على الحكمة واعلم ان الاختبار هو اول ما يوليك اياها بشرط ان تعتبر بحكمة كل ما يجري امام عينيك وكل ما تقراءه بل كل ما تزلّ فيهِ لان الزلات طريق الصواب ومن عرف كيف يستفيد من زلته هو العلم العلّامة والنجيب الفهامة · ومن المستحسن احياناً ان نكتب في درج مخصوص بعض المستحبات التي نخشى ضياعها او زوالها ان لم يثبتها القلم لان الذاكرة وان كانت مستودع الماضيات فهي سريعة التضييع وهكذا تتولد الحكمة وتتوسع الافكار اي بمقابلة الماضي بالحاضر قال الحكيم (جامعة ١٠ : ١٠) اذا كلّ الحديد ولم يشحذ حده تزايد التعب والحكمة انفع للنجاح هذا اذا قمت للعمل منذ صباك والاّ شخت وانت على ما انت عليهِ منذ الصغر كما شهد ابن سيراخ اذ قال (٢٠ : ٥) ان لم تذخر في شبابك فكيف تجد في شيخوختك ما اجمل القضاء للشيب وحسن المشورة للشيوخ ما اجمل الحكمة

للشيوخ والراي والمشورة لارباب المجد . كثرة الخبرة اكليل الشيوخ ومخافة الرب فخرهم

الفصل الرابع

في الشرط الرابع الجوهري لاكتساب الفطنة الرهبانية وهو معرفة طلب المشورة

في ان طلب المشورة مفيد جداً للرئيس ٢ في انهُ من اهم واجبات الرئيس العام ومجمع المدبرين ان يحسنوا انتخاب اهل المشورة في كل دير ٣ في الطريقة التي يجب سلوكها في طلب المشورة والعمل بالرأي الاحسن وترك ما سواه

عد ١

في ان طلب المشورة مفيد جداً للرئيس
الدليل الاول ما جآء في الكتاب المقدس في هذا الصدد

اذا دخلت الحكمة قلبك ولذت نفسك العلم (المشورة) يحافظ عليك التدبير وترعاك الفطنة (امثال ٢ : ١٠) وبعكس ذلك من عمل اعماله بدون مشورة فانهُ يشبه جيشاً هجم يريد قتال جيش آخر من دون ان يقيم لهُ حراساً يرقبون سير العدو

فلا غرو ان الرئيس يطلب المشورة وبايلائه المشيرين الحرية التامة يتوصل الى معرفة الحقيقة ويقتني الحكمة : انا الحكمة أساكن الدها (المشورة او اصالة الراي) وادرك علم التدابير . (امثال ٨ : ١٢) وبعدم المؤامرة تنتقض المقاصد وبكثرة المشيرين تقوم (١٥ : ٢٢) علم الحكيم يفيض كالعباب ومشورته كينبوع الحياة (سيراخ ٢١ : ١٦) وبعدم الدربة يسقط الشعب والخلاص بكثرة المشيرين (امثال ٢١ : ١٤) ولا تظن ان عينيك تريان كل ما يجب ان تراه فانما

طريق السفيه مستقيم في عينيهِ لانهُ يظن ذاته دائماً مصيباً برأيه واما الحكيم فيسمع المشورة امثال (١٢ : ١٥) فالرئيس المتكبر الذي لا يسمع المشورة ولا يخضع الأ لرأيه الخاص يمسي مرذولاً من جميع جيرانه لانهُ مكتوب : العثور بدبة تأكل ولا العثور بجاهل في سفهه (١٧ : ١٢) وكتب ايضاً (٢٦ : ١٢) ارأيت الانسان الحكيم في عيني نفسه ان الرجاء في الجاهل اكثر منه · فلو كان مثل هذا الرئيس مرؤوساً لامكن اصلاحه من رئيسه ومن حيث هو رئيس لا يخضع لكلام الغير بل يستهين كل من يكلمهُ في هذا الصدد وكبرياؤه وحماقته تظلم عقله وتزيل منه الفطنة فيصح فيهِ قول الحكيم (امثال ١٨) ان الجاهل لا يسمع لاحاديث الفطنة ان لم تكلمه على هواه

فالله جلت حكمته يوزع هبات روحه على مشيري الرئيس ومدبريه فاذا اراد الرئيس ان تكون هذه الهبات لهُ وحده عليهِ ان يطلبها من مشيريه ومدبريه لانهُ ليس لكل واحد منهم الأ شعاع منها فقط ويثبت ذلك ما جاء في سفر العدد (١١ : ١٦) وهو قول الرب لموسى اجمع لي سبعين رجلًا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤهم وخذهم الى خباء المحضر فيقفوا معك فانزل انا واتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأحله عليهم فيحملون معك اثقال الشعب ولا تحمل انت وحدك ... فنزل الرب من الغمام وخاطبه واخذ منهُ الروح الذي كان عليهِ وأحله على السبعين رجلًا فلما استقر عليهم الروح تنبأوا الأ انهم لم يستمروا

عد ٢

الدليل الثاني من شهادات الاباء القديسين

قال القديس قبريانوس من لم يكن تلميذاً صالحاً لا يكون فيما بعد معلماً صالحاً (مكتوب ٧٤ الى بومباوس) لان من اراد ان يكون كلامه مسموعاً عليهِ ان يسمع هو نفسه كلام الغير وكيف يتخذ المرؤوسون شواعر الرئيس وافكاره كآيات وهم يرونهُ عند مسيس الحاجة لا يميل بسمعه الى كلامهم ولا يعتبره بشيء البتة ؟

وقال القديس مبارك حاضاً رهبانه على استماع المشورة ان الله جلت تدابيره يكشف في اكثر الاحيان لاجهل سكان الدير غوامض كانت خفية على اوفرهم علماً ونوراً ولذلك لا تخجلن ايها الرئيس وان تسامى مقامك وعظمت فطنتك ان تلتمس من مرؤوسيك عون مشوراتهم وتدابيرهم وان كانوا من احقر الاخوة (قانون ف ٢)

والقديس باسيليوس يريد من الرؤساء ان يجتمعوا في بعض الاوقات ويتحادثوا في امر رياستهم ويكاشف بعضهم بعضاً باعلامهم اياه الاختبار الخاص (قانون رأس ١٤) ولعمري اي شيء اوفر فائدة من هذه الاجتماعات العامة التي فيها تجري المذاكرة في امر السياسة والمهارة بهِ وحل مشاكله وفي اميال الجمهور وشوائبهم ولاسيا في شوائب الروساء وما يجب عمله لملافاتها ؟ .

ان لويس الغرينادي عندما رقي دوم برتلماوس الى درجة رئيس اساقفة البراغ محضهُ ثلاث نصائح الاولى قوله ان قصدت ان تعاقب احداً فوارِ قصدك هذا زماناً قبل اجرائه والثانية كن فطناً غير لجوج في اعمالك والثالثة لا تكن كثير التشبث برايك الخاص بل ابحث باجتهاد عن رأي غيرك ولا تردرهِ

والقديس غريغوريوس البابا يؤكد ان الله يمتحن مختاريه على الارض بثلاثة انواع وهي عقوبة صارمة ووصايا شديدة وسلب انوار وهذا الامتحان الاخير يلجئ كثيرين من اهل العلم ان ان يستشيروا الجهلاء الاميين فيرشدونهم

وقال ايضاً في المحل نفسه (ادبيات ك ٢٩ ف٥) يتفق غالباً ان الرؤساء لا يرون اراء مستقيمة في اعمال سياستهم كما يرى مرؤوسوهم لان غيوم الكبرياء تظلم عقولهم وما العمل اذ ذاك الاَّ ان نلتجئ الى من يرون ما لا نراه اي الى المرؤوسين

وقال ايضاً (ف٤) ان الرئيس الذي يأبى قبول النصيحة لا اخاله اقل ذنباً ولا اقل ضرراً بالجماعة من المرؤوس الذي يأبى قبول السلطان

والقديس برندوس كتب الى البابا اوجانيوس (اعتبار ك٤ف٤) انهُ لمن العيب ان ترجعوا قداستكم عن امرٍ بعد ان صدرتم فيهِ ارادتكم لانهُ لا يليق ان تهدموا ما قد بنيتم ولا يكفي ان تتأملوا او تتأنوا ملياً في ما انتم مقبلون عليهِ حتي تقوا

نفسكم من السقوط فيه بل عليكم ايضاً ان تفوّضوه الي بعض اصحابكم وهولاء يبحثون وينقبون عنه على قدر استطاعتهم ولا تغفلوا عن ان تتأملوا ملياً في عملكم لئلّا تضطروا الى الرجوع عنهُ بعد ان تكونو اجريتموه

الدليل الثالث من شهادات ارباب السياسة

ان قاعدة السياسة العظمى التي لا يشوبها تغيير والتي دعاها افلاطون قاعدة مقدسة هي ان تسأل الحكماء وتعتبر رأيهم في المسائل السياسية ومن المقرَّر عند اهل السياسة ان الانسان ولو كان احكم اهل عصره يمسى في بعض الاحيان غبيًّا واعمى القلب اذا ما انفرد برأيه وقال سينكا ان حال ارباب السلطان كحال الينابيع التي يستقي منها كل احد فيتعكر احياناً ماؤُها (مكتوب ٣٦) فلا غروَ ان المتسلط تضطرب افكاره وتظلم انوار عقله لزيادة ازدحام الجمهور عليهِ وجلبتهم

وكان ارسطاليس يقول للاسكندر الكبير ان عيني الملك واذنيه هما اصحاب مشورتهِ

وان رومة القديمة وسائر الممالك المنتظمة ما كانت تقطع في مسألة سياسية خطيرة الا بعد الالتئام الذي كان يعقده افاضل المملكة والاطلاع على رأي الاكثرين وفارونوس يذكر مبداء كان كالمثل السائر في عصره وهو ان الرومانيين يفوزون بالانتصار وهم جلوس يعني انهم كانوا يحوزون الغلبة في مذاكراتهم في المجالس قبل شنّ الغارات · وقد لاحظ مونتكيوس ان ما ساعد الرومانيين مساعدة خصوصية على انتصارهم على اكثر ممالك العالم هو تركهم العادة القديمة من عاداتهم وتمسكهم بما ظهر لهم انهُ افضل منها وهذا مما يؤيد مبداء تاسيت وهو ان قوة المملكة قائمة بجودة الرأي وحكمة اصحاب المشورة اكثر مما هي منحصرة بالقوات العسكرية

وقد اخبر ديونسيوس ان الامبراطور اغوسطوس كان يلقي بين ايدي مجلس الشيوخ كل المسائل السياسية المهمة لان ثقته بهذا المجلس كانت قوية وكان يطلب فوق ذلك منهم كل سنة ان ينتخبوا لهُ عشرين شيخاً فاضلًا ليكونوا من اصحاب مشورته الخصوصية

ومما يجدر بالذكر ما اراناه ڤالبريوس مكسيموس (ك ٧) من انهُ لا شيء يعيب الحاكم مثل قوله (لم افتكر في ذلك جيداً) لان الناس لا يلومون عادة من طلب المشورة بل من سقط وذل والعقلاء لا يلومون من سقط اذا كان سقوطه بعد طلب المشورة واخذ التدابير الواجبة وذلك لانهم لا يحكمون بحسن السياسة لمن نجا من السقوط لظروف لا تتعلق بارادة الناس بل لمن احسن تدبير الامور واستدرك عواقبها

وكان من عادة مركوس انطونيوس انهُ بعد ما يكون استشار اهل مشورته في امرها ووجد رأيهم مخالفاً لرأيه يقول لهم اني احل هذا المشكل على ما ترتأون انتم فالصواب ان اعمل برأي الاكثرين واترك رأي الواحد

ويخبر لامباردوس ان الامبراطور اسكندر سافاروس ما كان يضع شريعةً ولا يصدر امراً ما لم يجمع اولاً مؤتمراً مؤلفاً من عشرين رجلاً اجلاء ماهرين بالشريعة وخمسين آخرين من الافاضل الحاذقين وكان يضرب لهم اجلاً للتبصر في ما كان يلقيهِ عليهم من الامور

وهكذا كل ملوك رومة العظام مثل ڤاسباسيانوس وطيطوس وتراجان ونظرائهم فقد كانوا يرون من اللازم الضروري ان تلقى على مجلس الشيوخ كل مسالة خطيرة وهم ما كانوا ينتصبون في هذا المجلس انتصاب الملوك بل انتصاب روساء لا غير . فرفعوا بذلك شأن المملكة وشأنهم واما ملوك رومة الطغاة الظالمون مثل كاليڤولا ونيرون وكومودوس ومكسيموس وهاليڤابال فراموا ملاشاة هذا المجلس ولاشوا بملاشاته المملكة وابادوا شأنهم واسمهم

الدليل الرابع من الاختبار

كل من وقف على اسرار سياسة الاديرة الرهبانية علم انهُ كلما كفر الرئيس برأيه ومعارفه الخصوصية تأيد عادةً سلطانه في السلام واتحاد القلوب والخضوع الاختياري

ولا غرو ان الرئيس يربح ربحاً كبيراً اذا طلب المشورة لانهُ اما ان يكون فطناً ومصيباً برأيه وحينئذٍ يؤيد اصحاب المشورة رأيه واما قليل الفطنة وغير

سديدالرأي وحينئذٍ ينجح اذا ما ساس رعيته براي مشيريه وحكمتهم احسن مما لو ساسهم برأيه الغير المصيب وبقلة درايته

قال القديس بوناونتورا ان الفطنة والحكمة توجبان على الرئيس ان يقبل المشورة من مرؤوسيه وان يطلبها ايضاً برقة جانب لانهُ اولاً من المؤكد انهُ يكون ابعد عن الزلل والخداع اذا ائتلف رأيه مع راي المشيرين مما لو انفرد بهِ وثانياً ان لم ينجح بعد اخذه رأي اهل المشورة يكون قد نجا من لومهم وقدحهم وثالثاً يستحق لاجل تواضع ضميره ان يؤتى من السماء انوارًا خاصةً (ستة اجنحة ف ٦) وقال ايضاً في المحل نفسه قولاً جديرًا بالاعتبار «ان ما يحمل الرئيس عادة على طلب المشورة انما هو احد ثلاثة اسباب اما تأكيد شي يرتاب فيهِ واما طلب زيادة اهمية لرأيه واما سدّ ابواب التذمر · ففي الاول يطلب مشورة اصحاب الخبرة وفي الثاني ذوي الاهابة والاعتبار وفي الثالث كل من يمسهم او يهمهم الامر .»

وحقًّا ان الرئيس في كل من هذه الاوجه الثلاثة لا يعثر في ما يعامل بهِ رهبانه لانهُ لا يمكن بعد اخذهِ رأيهم الاَّ ان يثنوا عليهِ وعلى حسن سياستهِ سواء نجح في ما عمل او لم ينجح

وكل يعلم علم الاختبار انهُ لا شي يمكّن الرئيس من استئسار قلوبنا وربطها بعقال مودته مثل طلبه مشورتنا ورأينا حين لا يحتاج بالحصر الى ذلك وبالعكس اننا لا نرى شيئاً يزعجنا ويجعلنا ان نمقت اعمال الرئيس مثل استبداده برأيهِ واحتقاره آراءنا فكانهُ بذلك يعلن انهُ عالم كل العلم بما يفتقر اليهِ وانهُ قادر على القيام باعبائها وان الرهبان لا دأب لهم الاَّ للخراب والتقلب

ولولا ذلك لما رأينا المرؤوسين من اصحاب المناصب ومن غيرهم انهم يرون رئيسهم مشتبكاً احياناً كثيرةً باحابيل شتى ولا يمدون لهُ يد المساعدة · وانما ذلك يكون لاستخفافه بهم ومجانبته طلب مشورتهم فيعرضون عنه ويتركونه يخبط خبط عشواء وهكذا اذا زل مثل هذا الرئيس او وقع في مصيبةٍ فانهُ لا يجد بين مرؤوسيه من يرثي لحالهِ او يعزيه او يشدده بل يصادف من يهزأون بهِ ويرغبون في امتهانهِ ونزول العقوبة بهِ لانهُ لما كان لا يعبأ بهم وقت عزه ومجده

لا يرون هم ان يعبأوا بهِ وقت ذلهِ وخزيهِ

الدليل الخامس من العقل

انهُ لضرب من الحماقة ان يتصور الانسان نفسه غير مفتقرٍ الى شي من النصح والارشاد واما الفطن الحكيم فيقبل النصيحة من اي كان لانهُ ليس احد الاَّ وفيهِ شي من الصلاح وان سرجاً كثيرة تضيء اكثر من سراج واحد ولا سيما اذ هو مقرر ان لكل امر ولو صغر جهات مختلفة لا تدرك الاَّ بقوة العقل فيتفق كثيرًا ان ما يراه هــذا بحذاقته او بطريق الصدفة لا يراه ذاك على الاطلاق ولذلك يغطي طلب المشورة عيب جهله وقلة اختباره بانقيــاده الى رأي ذوي المعرفة والخبرة لان من كان لهُ مشيرون كثيرون كان لهُ عقول كثيرة واعين كثيرة وآذان وايدي كثيرة فيدرك وينظر ويسمع ويعمل بهذه كلها معاً واما من يستبد برأيه فانهُ يحتقر ذاته ولا يرى شيئاً الاَّ نصف رؤية (غراسيانوس رجل البلاط مبدا ١٥٦)

قال احد الشعراء : ارفع بمديحك صاحب العلم الواسع حتى الغيوم ولا تنسَ بمديحك وثنائك من يجني الحقيقة من ازهــار غيره · وقد افصح بلينوس الشهير بقولهِ : ان اصدق علامة تدل على الفطنة الممتازة هي تفضيل الانسان فطنة غيره على فطنة نفسهِ واكبر دليل على حذقه وتعلقه هو رغبته في اكتساب المعارف (مكتوب ٢٣)

قال غراسيانوس (رجل البلاط مبدا ١٤٧) مهما تسامى الانسان وتناهى في الكمال فانــهُ يفتقر الى المشورة لانه يضطر على كل الاوجه لان يدع مدخلاً للصداقة والنصيحة ولا أُغلق بوجههِ باب كل مساعدة لان الجماعة الذين لا يجسر احد ان يدنو منهم دأوهم عضــال واذا سقطوا في هاوية الهلاك فلا يوجد من يحذرهم شر العاقبة : وهــذا القول يذكرني بكلام القديس بوناونتورا الذي قال : من البديهي انهُ ليس من احدٍ ذاكرته تشتمل على كل المعارف فالرئيس الذي يعتقد ان كل تصوراته مستقيمة فلا يرى شيئاً مستقيماً سواها يفتح بلا شك للعدو الجهنمي سبيلاً الى ان يرميه بالف خديعة وتهلكة : (ستة اجنحة ف ١٠)

ولا ريب بانهُ متى استولت الكبرياء والجنون على الانسان فالدلائل الصادقة على تهوره والعبر المتجلية بتحيره انما هي محاذرته النصح والمشورة . فهل رأيت قط مجنوناً يطلب مشورةً هكذا الرئيس فانهُ اذا ما اخرجته كبرياؤُه عن طور التعقل فانه لا يعود يستطيع ان يحتمل النصيحة من احدٍ ولا ادنى ملاحظة تتعلق بهِ وكلما ازداد جهلًا ظن انهُ حكيم وخيل لهُ انهُ ناظر الى العالم برمته وعالم بما فيهِ بمجرد نظره الى نفسه

واذا ابدى لهُ مشيروه رأياً اجابهم على الفور اني اعرف جيداً ما يجب عليَّ ولا افتقر لرأي احدٍ فاي اضطراب لا يلقي في قلوب الاخوة مثل هذا الجواب المشبع حماقةً وجنوناً

قال ماشياڤل : « ان من ظن ان النـاس يعدونه ضعيف الرأي او خامد القريحة اذا ما طلب مشورة العقلاء لفي غرور عظيم لانه من المبادي المقررة عند الجميع ان طلب المشورة من خصائص الفطنة وان الاراء السديدة تكون لمن يطلب المشورة اكثرمما تكون لمن يبدي الاراء . »

وقال غراسيانوس : ان طلب المشورة ليس فيـهِ ما يدل على صغر همة او ضعف رأي بل فيهِ عكس ذلك اي ما يدل على الحذق واللباقة ومن الجوهري ان يعرف الانسان كيف يسمع لانهُ بدون السمع لا يستطيع ان يعرف شيئاً

الدليل السادس من بعض نمذجات

كلما كان الانسان فطناً لبيباً مملوءًا من روح الله يرتاب بصحة افكاره لان الفطنة ترشد صاحبها وتعلمه ان لا يثق بانواره الخاصة . وسليمان مثال الحكمة لما طلب من الله ان يؤتيه الحكمة للقيام بسياسة شعبه قال هكذا: « هب يارب عبدك قلباً ليناً ليحكم بين شعبك » فان الحكمة الحقيقية تنشأ عن اللطف ودماثة الاخلاق ومن عجز عن طلب المشورة عجز عن الحكم بين الشعوب وذو القلب اللين لا يكون متشبثاً بافكاره ويسهل لهُ ادراك افكار غيره لان القلب اللين كما قال بوسويت لهُ آذان صاغيـة وسليمان لما طلب الحكمة التمس قلباً ليناً فكأنهُ يعتقد ان الحكمة لا تفارق اللين ودماثة الاخلاق فهما حدَّان اضافيان

يستلزم احدهما الآخر وما أجمل هذا الكلام البارز من فم احكم الناس · وما احكم سليمان الذي اوضح ان حكمته ما كانت لتكفيه· وما اجدره بان يقول عن نفسه: اني كنت ولداً حاذقاً وأُعطيت نفساً صالحةً . (حكمة ١٨) أي نفساً مائلة الى الخير وقابلةً المشورة فارتقي بهذه الواسطة حالاً الى اعلى ذرى الحكمة ·

ثم ان موسى كليم الله وان كان قد تعلم من فم الله نفسه قبل نصيحة يترو حميه وداود كان يسمع لناتان والقديس بولس ما كان يبدي الأ اللين والسهولة لقبول ما كان ينتصح بهِ فلمَّا كلفهُ يعقوب الرسول ممارسة التوبة التي كان اهل الناصرة يمارسونها خضع لذلك خضوعاً تامًّا وهكذا فعل لما اشار عليهِ اهل الشام ان يتدلى من اعلى السور ويفرّ هارباً فسمع لهم وعندما اراد في افسوس ان يلقي بنفسهِ في وسط اهل المشورة امسكه عن ذلك المؤمنون ففعل ومن المعلوم انهُ سلم نفسه لحنانيا بلطف ووداعة عظيمين حين قصد الرجوع الى الله ·

والقديس اغوسطينوس الشيخ الجليل لم يستصغر نفسه اذ طلب المشورة من أكسيليوس الاسقف الشاب لما قال لهُ في رسالتهِ الـ ٢٥٠ اني لا احتقر شبوبيتك ولا حداثتك في الاسقفية بل انا مستعد كل الاستعداد لاستماع رأي من صار في درجة الاسقفية وان كنت شيخاً طاعناً في السن·

ويمكن القول ان الرب يسوع طلب المشورة من تلاميذه اذ سأل قائلًا : من اين نبتاع خبزًا ليأكل هؤلاء · (يوحنا ٦)

فأي رئيس يتأمل في مثل هذه الامثال ولا يكبح جماح النفس ويخفض من غلوائها ويقبل بل يطلب المشورة رافضاً الاستبداد برأيهِ كل الرفض· نعم ان من يشاور الناس لا ينجو من الزلل لكنهُ يقلل عدد سقطاته ويخفف جرمها بل يتعلم كيف يُخرج من الشر خيرًا ·

فلاجل هذه الاسباب ونظائرها اجمع مؤسسو الرهبانيات في قوانينهم على ان يتعين مشيرون لكل رئيس وحتموا على الرؤساء بالاخذ برأي مشيريهم في كل القضايا الخطيرة وقد اعتادت جمعية الاساقفة والقانونيين المقدسة خاصةً في هذه الايام الاخيرة ان تزيد في قوانين الرهبانيات التي تريد ان تثبتها هذه الفقرة ان لم

تجدها فيها وهي « ان الرئيسة العامة لا يجب ان تكون مستقلة ولا ان يكون سلطانها مطلقاً وانه ليس لها ان تبدي خارجاً عن المجمع العام شيئاً من الامور الخطيرة الاَّ برضى اهل مشورتها والامور الخطيرة هي مثل قبول المبتدئات وقبول نذرهنَّ واجراء العقود كالبيع والرهن (وهذان الامران لا يجب ان يجري شيء منهما الاَّ برضى اسقف الرعية بموجب نص الشريعة الكنسية) وتأسيس الديورة وتوزيع الوظائف وتفسير القوانين وتخفيض الراتب المعين وضعه على الراهبة عند دخولها وملاشاة بعض الاديرة او تعيين مديرات او معلمات للمبتدئات وأمور أخر كهذه وهذه الجماعة المقدسة ترسم عادةً الشيء نفسه على جماعات الرهبان ايضاً (اناالكتا ك ٣٨)

عد ٢

في الصفات التي يجب ان يتحققها الرؤساء الكبار ومجمع المدبرين في المشيرين عند انتخابهم اياهم

١ً سلامة النية وحسن الطوية والتجرد عن الاغراض . ان الرباط المتين في السياسة الروحية هو خوف الله قال ابن سيراخ (٦ : ١٧) من يتقي الرب يحصل على حذاقة صالحة لان صديقه يكون نظيره فعلى المشيرين اذن قبل كل شيء ان يكونوا من اهل الصلاح والاَّ تأخرت اشغال الرئيس سواءٌ كان الرئيس فطناً او غبياً لانهُ وان كان فطناً فلا يقدر ان يدرك بذاتهِ كل اوجه اشغاله . واماً اذا كان غبياً فلا غروَ ان مشيريه ان لم يكونوا من اهل الصلاح يقودونه الى شرّ المهالك .

قال لموسى يترو حموه : خذ لك من الشعب اناساً اقوياء اتقياء مستقيمين يكرهون الطمع وولِّ منهم عليهم . (فر ٢٨)

ويواش لما ملك في اورشليم لم يكن لهُ من العمر سوى سبع سنين لكن لما كان يوياداع الكاهن الشيخ صاحب الفضيلة والبأس الشديد مرشداً لهُ شهد لهُ الكتاب المقدس (٤ ملوك ١٢ : ٢) انهُ عمل ما هو قويم في عينيّ الرب كل الايام التي كان فيها يوياداع الكاهن يرشده . واماً آخاب الجاهل فسلك سلوكاً يضاد سلوك يواش لانهُ لما دعا الانبياء الى مشورتهِ نفى من بينهم ميخا بل لم يكن

يشاء ان ينظر وجه هذا النبي لانهُ كان يتنبأ لهُ بما لا يرضاه وفوق ذلك ان المشيرين الصالحين يرفعون شأن الرئيس الذي يكون قد انتخبهم لمشورتهِ ويعززون سلطانه لان مجد آرائهم السديدة ينسب اليه واما اذا لم يكونوا من اهل الاستقامة فيورثونه الخزي والهوان في سقطاتهِ المتكررة ·

وقد اعتقد المتقدمون صحة هذا المبدأ وهو « خير للملكة ان يكون ملكها شريراً واهل مشورته صالحين من ان يكون الملك صالحاً واهل مشورته اشراراً » قال لامبرد في تاريخ اسكندر ساويروس : ان للمملكة رجاء النجاح اذا كان ملكها شريراً ووزراؤه صالحين اكثر مما لو كان الوزراء اشراراً والملك صالحاً لان شرّ الواحد يصلحه الكثيرون واما شر الكثيرين فلا يقدر الواحد على اصلاحهِ ·وهذا واضح لا يفتقر الى دليل لانهُ لا يصعب على المشيرين الكثيرين ان يصلحوا خلل رئيسهم خاصة اذا كان مطواعاً واما الرئيس الواحد فكيف يقدر ان يسلك مستقيماً ومشيروه الكثيرون يحجبون عنه نور الحقيقة ولا يدعونه ان ينظر سوى ظلام الظلم والطغيان ·

وقال احد القدماء الافاضل : يجب على الانسان في المشورة ان يفتح قلبه تماماً لصديقه لكن يجب عليهِ قبل كل شيء ان يبحث بحثاً قوياً عن الصاحب الصادق وليحذر كل الحذر من ان يتخذ اللئيم صديقاً لان اخطار مثل هذه الصحبة اكثر ضرراً من اخطار الصخور في طريق السفن وهي خفية عن نظر الملاحين

قال ابن سيراخ (٨ :)لا تشاور الحمق لانهم لا يحبون الا ما هو على ذوقهم : فالاحمق يشير بالحماقة والشرير بالشر

نعم ان شر الخداع كما قال غراسيانوس هو انخداعنا عند تمييز الاصحاب لانهُ لا مشابهة بين معرفة الاشغال واختيار خيار الرجال ·

فحقاً انهُ يجب علينا ان نلتجيء اليه تعالى ونطلب النور السماوي لاجل معرفة الصاحب الامين · «لان الصاحب الامين هو دواء يولي الحياة ويقي من الممات» (لابن سيراخ ٦)

وصلاحية صاحب المشورة في الرهبانية قائمة بتجرده عن محبة الذات والإغراض الخصوصية

فاختبر اذن نيات من تختاره لنفسك صديقاً ولا ترضَ بما يقوله هو عن نفسه واشار ابن سيراخ الى هذا اذ قال لا تستشر المنافق في التقوى ولا الظالم في العدل ولا المرأة في ضرتها ولا الجبان في الحرب ولا التاجر في التجارة ولا المبتاع في البيع ولا الحاسد في شكر المعروف ولا الجافي في الرقة ولا الكسلان في شيء من الشغل ولا الاجير المساكن في انجاز العمل ولا البطال في كثرة الاعمال ولا تلتفت الى هؤلاء بشيء من المشورة لكن إيلف الرجل التقي ممن علمته كيف يحفظ الوصايا ومن نفسه كنفسك فانهُ اذا سقطت يتوجع لك واعقد المشورة مع القلب فانه ليس لك مشير انصح منهُ لان نفس الرجل القديس تخبر بالحق اكثر من سبعة رقباء يرقبون من محلٍ عالٍ وتضرّع في كل هذه الى العلي يُهدك بالحق الى الطريق المستقيم

وقد اخبر العلّامة بوسويت في تاريخه العام ان لاهل العجم مبداء هو انهم يعتبرون مشيري الملك كاعين لهُ واذان ولذلك كانوا ينبهون الملك الى انهُ لم يعطَ هولاء الوزراء لكي يريحهم بل لكي يستخدمهم كما يستخدم الجسم حواسه للنظر وللسمع . . . . وهكذا كانوا ينبهون الوزراء الى انهم قد اقيموا لا لكي يعملوا لاجل خيرهم الخاص بل لكي يخدموا الملك الذي هو رأسهم وسائر المملكة التي هي جسمهم :

والقديس بوناونتورا يريد من الرئيس ان يُبعد عنهُ فريقين من المشيرين المدلسين الضعفاء الجبناء الذين يصوبون له كل ما يعن له فيستحسنه والنامين الذين يقدحون له في عرض الجميع فيحملونه احياناً على النفور والبغضاء والانتقام من احسن رجال رعيته وخدمته

واما المشير الصالح المستقيم فهو الخالي الاغراض الذي يبذل الجهد في تقرير الرأي بالبراهين القوية الدامغة الا انهُ يبقى مستعداً لاستماع رأي غيره مفضلًا اياه على رايه الخاص ويتبعه اذا ما دعا الصواب ويعد العناد والتشبث براي نفسه جنوناً ودناءة وخيانة في مصلحة مخدومه فجده في وجدان الحقيقة واتباعها . وخيره في خير الجماعة وارتقائها

٢ً تقايل المشيرين وتقدمهم في السن وتحنكهم بالخبرة

ان كثرة المشيرين تفيد الزيادة في الايضاح وان واحداً لا يكفي لانه لا يرى كل شيء غير ان الزيادة في عددهم تقتضي الزيادة في الاراء وهذا مما يوقع الرئيس في حيرة وبلبال فلا يعود يعرف كيف يميز صحيح الامور من فاسدها ويجعله كعبدٍ لانه يضطر لان يرضي كثيرين فان من تطلب رأيه وهو ليس بمرؤوسك تضطر لمراعاة خاطره ويصبح رأيه نوعاً من الامر فالحاصل ان الافضل في الاراء سديدها لا عديدها

واما اذا كان الرئيس واهن العزيمة فكثرة الاراء تضره كما تضر كثرة المطر الزرع او كثرة الاطباء العليل

قال ابن سيراخ (٨: ٢٢) لا تكشف ما في قلبك لكل انسان وقال ايضاً (٦: ٦) ليكن المسالمون لك كثيرين واصحاب سرك واحداً من الف »والسر في ذلك كتمان السر ولما كان هذا الكتمان بين القليلين اسهل منه بين الكثيرين كان الافضل للرئيس ان يكون مشيروه قليلي العدد وليس من الصواب ان يسد الرئيس اذنيه عن الذين لم يعينهم القانون مشيرين وان يكن للمشيرين لا لغيرهم الحق ان يبدوا اراءهم لانه يتفق احياناً كثيرة ان يرى اولئك ما لا يراه هولاء فان لم يعرهم الرئيس اذناً صاغية لا يتسنى لهُ الوقوف على الحقيقة

ولنذكر لزيادة الايضاح كلام القديس بوناونتورا السابق ذكره قال « متى اراد الرئيس ان يزيل من فكره كل شك وارتياب عليهِ ان يستشير في كل امر الماهرين بهِ والمجدين فيهِ . ولا ينبغي ان يستوقفه الخجل من استشارة الاخوة العاملين في الامور الزمنية فان الله جلت جودتهُ يبارك مثل هذا السلوك وان الفطنة قائمة بان الرئيس يقتبس من العقول الصغيرة بعض الاشعة ويجعل لهُ منها نوراً عظيماً يرشده في ظلمات الامور وقد اشار ايزوكرات على ديونيكوس شوراً يستحق الاعتبار قال : اذا اردت ان تستشير احداً فاسأل اولاً كيف يدبر اهل بيته لان من لم يكن ذا رأي صائب في تدبير بيته كيف يكون له الرأي الصائب في تدبير بيت غيره » (١)

---

(١) (حاشية من م) ينتج من ذلك ان الرأي يكون سديداً اذا كان

واما اذا اراد الرئيس تأييد رايه وتثبيت مبـاديه فليستشر ذوي الاهمية في الرهبنة وخاصة من لهم حق المشورة ولو كانوا معدودين من قليلي الحذق والخبرة وان يستشيرهم لا في الامور الخطيرة فقط بل في كل امر يقتضي عمـله الخروج عن الخطة الاعتيادية فيسد باب التذمر ويجبر هولاء المشيرين على المحافظة والمحاماة عنهُ عند مسيس الحاجة ويجب لاجل هذه الاسباب ان يستشير الرئيس المنصوب في الامور المهمة اخصاء الرئيس المعزول المعتبرين فيجبر بهذه الملاطفة والمآنسة الخواطر المكسورة » وانهـا لحذاقة كبرى ان يتخذ الرئيس من نفس اخصامه اصحاباً ويدعم بنايات مقاصده بآلات كانت اعدت لتقويض اركانهـا فالملاطفة والثقة تقطع من المشاحنة والمحاكة طرقاً شتى »

واما اذا اراد الرئيس ان يسد فم كل مخاصم فعليهِ ان يستشير كل من يهمهم الامر ويحدث بذلك احد ثلاثة امور اما ان تظهر الآراء متفقة وعندئذٍ لا يبقى سبيل للتشكي واما تنقسم الى فيئتين كبيرة وصغيرة وهنا لا مندوحة للقدح في الرئيس اذا مال الى الفيئة الكبرى واما تنقسم فيئتين متساويتين وهنا لا يحق لاحد ان يطلب من الرئيس ان يميل الى فيئة وعلى الرئيس الاقليمي الذي لم يعين بذاته مشيرين ان يحسم الخلاف ويترك الراي في هذا التعيين لخاطر الجمهور اذا كانت العـادة جارية على هذا المنوال ولا يعين هو من يراهم اكثر سهولة او انقياداً الى رأيه ؟

ولما كان من المقرر ان الاختبـار هو كوالدة او مربية للفطنة كان الشيوخ اغزر دراية واوفر فطنة من الشبان وقد شهد بذلك الروح القدس اذ قال «سيراخ ٦ : ٣٥ » (قف في جماعة الشيوخ ومن كان حكيماً فلازمه) وقال ايضاً «٨ : ١١» لا تهمل كلام الشيوخ فـانهم تعلموا من ابائهم ومنهم تتعلم الحكمة وان ترد الجواب في وقت الحاجة) وقال ايضاً « ايوب ١٢ : ١٢ » (انما الحكمة عند الاشيب والفطنة في طول الايام)

صاحبه خبيراً ومنزهاً عن الاغراض ولا فرق بين ان يكون راهباً سادجاً او غير راهب ايضاً

وقد كتب القديس ريمي الى كاوڤيس ملك فرنسا قال اظهر اللطف والبشاشة للشبان واما الشيوخ فشاورهم في تدبير مهماتك

وقد ارسطوس الفيلسوف انهُ يجب ان تعتبر اقوال الشيوخ كقضايا منطقية لا يفتقر اثباتها الى دليل لان الايام الطويلة قد اورثتهم الطل الناجمة عنها المطولات ولما كانت الطبيعة نفسها قد اماتت في الشيوخ شهواتهم فاصبح نور عقولهم يضيء ولا يحرق كالشمس في فصل الشتاء

واما باكونوس الشهير فكان من رايه ان يجمع في منتدى المشيرين بين الشبان والشيوخ لاعتقاده ان الاولين تسوقهم العجلة الى بلوغ الغاية من دون نظر الى مسافة الطريق الشاقة والاخطار اللاحقة والاخرين يبالغون في خوفهم المخاطر وفي استدراك العواقب حتى يقعدهم ذلك عن بلوغ مآربهم فيكون خلاف راي الفريقين سليم العاقبة وقريب المنال معاً ولذلك اراد ان يجمع في كل موتمر بين الرجال الشجعان والجبناء وذوي الطباع القاسية والسهلة وبين مستدركي الامور بكل تدقيق ومن لا يستدركها

وبعد ان يتعين في الدير مجمع المشيرين يترتب على الرئيس ان يقف عند رايهم ولا ينبغي لهُ ان يفتش عن مشيرين اخصاء غيرهم والا فليس له ان يتوقع بركة الرب ولا رضى الجماعة

العد ٣

في كيفية أخذ المشورة

يجب على طالب المشورة ان يكون مخلص النية وان لا يكون لهُ غرض الاَّ الوقوف على الرأي الاوفق لقيام المصلحة ·

فينبغي على طالب المشورة ان يجمع اهل مشورته قبل ان يكون عزم على اجراء الامر المزمع والاَّ أي اذا لم يستشر هيئة الشورى الاَّ بعد قطعه في الامر قطعاً نهائياً غير قاصد بذلك شيئاً سوى تثبيت عزمه والتخلص من لوم الاخوة وهزئهم بهِ عند سقوطه يكون فعله هذا كبرياء محضاً وسخريَّة بمشيريه لانهُ غير مستعد لان يقف عند قولهم ايّاً كان

ولعمري ان من كان مزاجه هكذا لطيفاً حتى يستصغر شأن غيره ولا يكترث لرأيهِ ولا يستشير الأراء وغشاً قصد اخفاء نياته يكون بلا شك متصوراً ان في طلب المشورة انحطاطاً لسلطانهِ او ان فكره معصوم عن الخطاء فلا يفتقر لرأي احد . ولكن ما اجهل من تصور مثل هذا . فاي انحطاطٍ لسلطان من يتعزز بدعائم اراء العقلاء وذوي التدبير . وأي فكر بشري لا يقبل الاصلاح ولا يحتاج الى تسديد وتأييد .

وما من دليل افصح بياناً على جهل الانسان من تشبثه بافكاره وردّ النصيحة والارشاد . فالتاجر الذي يستخف بتجارتهِ ولا يتصوَّر ان فيها صعوبة ولا يسأل احداً عن الاسعار والاحوال يُعد بلا شك جاهلاً ويكون خاسراً وأما الرئيس فبأولى حجة يكون جاهلاً خاسراً اذا لم يرَ في وظيفتهِ مشكلاً ولا في سياسة الانفس صعوبةً او لم يسأل او يقبل مشورة احد . والاختبار يرينا ان العقلاء الاذكياء هم الذين يقبلون المشورة ويطلبونها . واماَّ الذين يرفضونها فهم قليلو البصيرة ناقصو العقل .

ويجب ايضاً على طالب المشورة ألاَّ يركن الى رأي نفسه ولا يسكن اليهِ قبل استماع الرأي الراغب فيهِ الواجب عليه استماعه وألاَّ يكون مستعداً لقبول شيء من فوائده لان العقل اذا اشغله رأيك لا يسع معه رأياً آخر والذي يكتفي برأي نفسه لا يرى رأي غيره سديداً أو مستقيماً أو أميناً أو مستحق الثقة فمن لا يطرح عنه تمسكه برأيه كان كمن ينظر بزجاج ملوّن فلا يرى الاَّ ما يريه اياه فكره والخلاصة لا ينتج مما تقدم فقررناه ان الرئيس يضطر لان يبين في طلب المشورة انه قاصر الفكر اعمى البصر مظهراً فرط افتقاره الى راي المشيرين لان ذلك مما يخفض من شانه وسلطانه ويوجه الى المشيرين ما هو مخصوص بهِ من اعتبار الجمهور وثقتهم الكاملة

٢

ثانياً يجب على الرئيس ان يطلق لمشيريه الحرية التامة لكي يوضحوا له افكارهم بكل امن

لانه لما كان المشيرون مأمورين امراً جازماً يقتضيَ مهمتهم ان يوضحوا افكرهم

كما هو وكما يعرفون بلا محاباة ولا مراعاة ترتب ضرورةً على الرئيس ان يطلق لهم الحرية للقيام بالفروض

فمن واجبات الرئيس اذن اولاً الا يظهر ميله لاحدى الجهات والاّ يتكلّم اول الجماعة لئلا يستميل البعض اليهِ عن خوف او جبانة اومداهنة او لئلا يخالف رايه البعض الآخر حباً للمنازعة والمضاغنة لا محاماة عن الصواب ٠ ولهذا السبب لما اقيمت الدعوى على مرسللوس الروماني لانهُ رفع رأس تمثال اغوسطوس ووضع مكانه رأس تيباريوس سأل بيزون احد اعضاء المجلس تيباريوس قال أتريد جلالتكم ان تبدي رأيها اولاً ام اخيرًا فانكم ان ابديتم رأيكم اولاً حملتم الجماعة على اتباعه كيف ما كان وان اخيرًا اخشى من اني اكون على غير قصد ارتأيت رأياً خلاف رأيكم

لا يطلب الرئيس كثرة الاراء الداعمة رأيه بل يطلب الوقوف على الراي السديد الواجب اتباعهُ ٠

ومن المقرر ان الرؤساء المتصفين بالحذق والبشاشة هم الذين يطلبون المشورة واما الجهلاء والعتاة فيأبون طلب المشورة او اذا طلبوها فلا يطلبونها بشروطها اللازمة

وثانياً ان يوضح المسألة المطروحة للبحث بظروفها في كل جهاتها لكي يستطيع المشيرون ان يبدوا رأيهم عن معرفة تامة وان لا يتحرى اثبات احدى الجهتين مؤيدًا البراهين المثبتة وداحضاً او رادًا البراهين النافية لانه بذلك يسمى رئيس حزبٍ لا رئيس جماعة متوخياً مآرب خصوصية لاخير المصلحة العمومية

ثالثاً ان يظهر انه لا شوق لهُ الا الى الوقوف على الرأي الانسب والاصلح وانه قابل بكل طيبة خاطر ان يبدي كل رأيه بملء الحرية ولو كان مضادًا رايه الخاص او داحضاً له كل الدحض

ولا غروَ ان تعلّق الرئيس الشديد برأيه وميله الى تأييده هو عن ضعف في العقل بل عن كبرياء خبيثة مذمومة لانه يخدع نفسه اولاً بظنه انه ذو مدارك عالية وافكار دقيقة بل يحيط علماً بجميع المسائل من كل الجهات والظروف والفروع وانهُ لا يمكن غلطه فيها او انحرافه عن سواء السبيل في الحكم فيها

ومن كان هذا تصوره في نفسهِ ينبذ عنه لا محالة كل رأي جاء مخالفاً لرأيه ولا يتعطف ويبحث في ما لو كان مخطأً او مصيباً ويفهم المشيرين ببعض الحركات او بلسان الحال انهم غير مصيبين ويشير عليهم الا يعبأوا بارائهم . بل من الواجب عليهم ان يسلموا ويحنوا الرأس لهُ راضخين لكل كلمة ينطق بها واذا اتفق ورأى مثل هذا الرئيس خطاءه فكبرياؤه تمنعه عن الاعتراف بهِ والعدول عنه وتحمله على تتميم ما بداءَ فيهِ ولو رآه خلاف الصواب

رابعاً على الرئيس ان يطلب من مشيريه ان يبينوا لهُ اراءهم خطأً في الامور الخطيرة وان يمهلهم مدةً كافيةً يوضحون لهُ فيها الاسباب المؤيدة رأيهم . وهكذا يقتضي العمل عند الحاجة الى كتم السر وحينئذٍ يتقدم الرئيس الى كل واحدٍ من المشيرين ويلزمه كتم السر حتى على نظرائه وان لا يقول انهُ سئل عن امرٍ ما ويبين ما اجاب عنه . والرئيس بعد ان يقف على الاراء المطلوبة فاذا كان كتم السر لم يزل ضرورياً فلا يفشي ما جزم بهِ بل ينجزه حالاً بالفعل

وان مما يوافق موضوعنا هذا نصح ايزوكرات لديونيكوس حيث قال اذا حدث لك بعض الامور المهمة التي تستلزم المشورة ولا يوافق اشهارها لاحدٍ فسل عنها كانها امر غريب لا يهمك فتطلع على رأي مشيريك ولا تفشِ لهم سرك ولنا ايضاً ان نقول ان الاوفق عموماً الا يبدي الرئيس رأيه لا اولاً ولا آخراً لكي يبقى مطلق الحرية حتى عند العمل

ثالثاً
يجب تقدير كل رأي بما يستحقه

فان الفطنة تقضي ان يبحث الرئيس في الاراء ويعرف ما هو الاقوى منها وما هو الضعيف ليتبع الاول وينبذ الثاني لانهُ لا يتفق ان يكون المشيرون متساوين بالاهلية والصلاحية قال الروح القدس: لا تصدقوا كل روح (يوحنا ٤:١) ولنحذر من الحكم على هوى النفس كالخوف من شيٍ او الطمع بآخر لان الاغراض الخصوصية كثيراً ما تكون هي المتكلمة او العاملة فينا ونحن لا نشعر بها ولينعم الرئيس النظر ليعلم ما اذا كان المشير متروياً في الامر شاملاً اطرافه وما

اذا كانت الفطنة غريزية فيهِ ورأيه مصيباً حتى يكون نصحه جديرًا بالاعتبار وما اذا كان لهُ في المسألة الواقعة اللام او مآرب خصوصية تجعله ان يفضل وجهاً على وجهٍ فيها . او كان محمولاً تسوقه الاميال او جباناً لا يرى الحقيقة او لا يقول بها او جسورًا جاهلًا يوقعك في المخاطر والمهالك لانهُ قد يوجد بين المشيرين من هم كذلك ولا سيما من هم براء من سوء العاقبة او كان رجلًا خبيثاً لا يقصد الاَّ ما فيهِ رضاك ومرغوبك ولو كان داعياً الى سقوطك وهلاكك فيفضل الاشهى لديك على الاوفق للمصلحة

فسم هذا التمليق يفسد قلبنا عادةً ويعمي بصيرتنا فلا نشعر بشر الفخاخ المنصوبة لنا بل كثيرًا ما نسقط فيها ولا ندري ولهذا ترتب علينا ان ندع هذا التأثير يزول من قلوبنا رويدًا رويدًا وبعد نعتبر بتأني وبدون ادنى ميل منحرف وندقق جيدًا في كلٍّ من الاراء المقدمة ونوثر افضلها سدادًا والاَّ اذا ملنا الى احد الاراء عن غير صوابٍ او عن بغضٍ او حبٍّ وشعر المشيرون باننا ملنا الى احدهم يجبنون ولا يجسرون على نقض رأينا كيفما كان او انهم يشرعون في المضادة عن مرامٍ وكيد في كل فرصةٍ سواء كان لذلك سبب او لم يكن ثم بما ان من يتوهمه الرئيس صديقاً صادقاً هو انسان ولهُ اهواء يجتهد ان يبين لهُ امورًا شتى بخلاف ما هي عليهِ فالله يعلم عندئذٍ كم يصعب على الرئيس السلوك مستقيماً والامتناع عن الميل والاحتراز خوفاً من السقوط

ولا يخفى ان الاغراض التي تحمل المشيرين على بث ارائهم بغير استقامةٍ هي كثيرة منها في الواحد خمود قريحةٍ فانهُ يبدي رأيه بدون تبصرٍ وفي الثاني جبانة او خوف فيميل الى جهة الاكثرية او جهة الرئيس ويميل اليها من دون ان يشحذ فكرته ويبحث عن العلة الاوفق لذلك بذاتها ومنها في الآخر ايغار صدرٍ او روح تحزّب فيرتأي ما يوافق ذوقه لا ما يوافق المصلحة فيترتب على الرئيس ان يبحث في هذه الاراء كلها ويتأمل فيها بدقةٍ مع اسبابها وظروفها لكي يميز الآراء التي انشاءها روح الاستقامة والحق من الاراء الناجمة عن الاغراض والاميال المنحرفة

رابعاً

على الرئيس ان يبت كل مسألة خطيرة

ينبغي ان يوفق الرئيس بين مشيريه المختلفي الاراء اذا امكن ذلك ثم عليهِ بعد التأمل والتروي في اختيار افضل الاراء ان يجزم بقطع كل خلافٍ واما المرؤوس الذي يترتب عليهِ ابداء رأيه عندما يُسأل عنه فعليهِ خاصةً ان يخضع لما يحكم بهِ الرئيس

فقد تشكى يوماً الكردينال مانتو الى الكردينال باقيا ان قداسد البابا لا يتبع لهم رأياً فاجاب الكردينال باقيا : وقال الا تعلم ان الكرادلة من اصحاب شورى الاب الاقدس لا روساؤه واراؤهم لها قوة الترجيح لا قوة الامر والفصل فليس لنا ان نتشكى اذا رأينا ان قداسته اتبع رأياً مخالفاً لراينا :

وقال القديس مبارك في كتاب قوانينه : للاخ ان يبدي رأيه بكل تواضع وبدون مماحكة ولا مجادلة بل فليخضع لارادة الرئيس طائعاً في كل ما يأمره به

والقديس غريغوريوس حثَّ الروسآءَ علي اطلاق الحرّية التامة لمرؤوسيهم في ابدآء آرائهم وحذّر المرؤوسين من ان يتخذوا هذه الحرّية سبيلًا للمكابرة والقحة . (الراعي ق ٢ ف ٧)

والحكيم من سمع المشورة لا من تبعها من دون انعام النظر فيها ومن عادة الرجل الحكيم ان يسمع المشورة ويقبلها ببشاشة كصاحب ودود وان يبحث فيها بتدقيق كقاضٍ خبير وان يعمل بموجبها بنزاهة عن العبودية كالسادة الاحرار

وقال ساويدرا في هذا الصدد قولاً جليل الاعتبار بعيد المرمى وهو : ان من يرى الحقيقة بواسطة آراء مشيريه كمن ينظر بواسطة نظّارة فانه يضعها امام عينه ويستخدمها كآلة ويحدّق بنفس عينيه الى الموضوع الذي يشخصه . وهكذا طالب المشورة فانه غب تعيينه غايته ومقاصده يطلب المشورة والنصح ثم ينظر فاذا كانت الوسائط التي يبينها المشيرون تبلغه الى الغاية المطلوبة سمع لهم الا انه لا يسلمهم قيادة امره واذا عمل في هذه الصورة بموجب رأي البعض منهم فانه لا يكون بالحقيقة عمل الا بموجب رأيه هو نفسه

ولا غرو انه ضرب من الاثرة والكبرياء الا يسأل الرئيس احداً عن شيء في جميع اعماله وكذلك ان هو الا انحطاط في شأن السلطان الاّ يعمل شيئاً الا بموجب مشورة اصحابه لان زيادة تمسكه برأي نفسه وزيادة لين طبعه وسهولة اخلاقه يقلبانه مع كل ريح وهما عيبان يضادان الفطنة التي هي عدوّ الافراط والتفريط . والعيب الثاني اقل خطراً من الاول بيدَ انه يخفض من شأن السلطان وقدره فاي اعتبار لاوامر الرئيس اذا لوحظ انها غير صادرة عنه بل انه قد تلقنها من اصحابه ويا ليتهم ليسوا باصحاب مآرب ومطامع وهذا نقص في بعض العقول يتولد فيها اما عن التقلب واما عن المساهلة او عن ضعفٍ طبيعي في النفس فتأبى كل منازعة جدلية وتصدق كل ما يقال لها وكل برهان لديها سديد قاطع فلا ترد لاحد رأياً ولا تبحث عن حل مشكلٍ وصاحبها اذا مال الى رأيك لا يلبث ان يرضيك حتى يميل الى رأي من يخاطبه بعدك ان لم تلاحقه بالبراهين المقنعة وتمنع سواك عن مخاطبته لانه ميال طبعاً الى استماع الكلام الاخير

كتب العلّامة غراسيانوس فصلًا موضوعه «لا يذهبنّ الانسان ورآء الكلام الاخير» قال فيه : من الناس من يتأثرون مما يقع آخراً في سماعهم كأن ذهنهم وارادتهم من شمعٍ فما طُبع فيها اخيراً يمحو ما كان قد طُبع فيها قبلًا وكل يقدر ان يلبسهم زيه فهم صبيان ما داموا في قيد الحياة (رجل البلاط مبدا ٢٤٨)

فمن سلّم قيده لآخر كان كمن لا يبصر كالاعمى الذي يتبع خطوات قائده

فما احكم وما اعجب تعاليم الروح القدس حيث قال « تحت ثلاثة ترتجّ الارض ... تحت عبد اذا ملك » . (امثال ٣٠ : ٢١) وقال في محل آخر (ابن سيراخ ٦) : افترق عن اعدائك واحترز من اصحابك . فقد ينخدعون فيخدعونك واذا عرفوا كيف ينتصرون عليك من الجهة الضعيفة فيك فلا تعود انت المليك بل هم يصيدون الملوك وانت العبد

فتعلم كيف تقضي وتنهي ما في حد امكانك والا فلا تكون انت الحاكم بل من يلقنك الاحكام هو الحاكم واذا علمت جيداً ما كنت جاهلًا واكتسبت من الانوار ما كنت مفتقراً اليه فاصدر اوامرك كرئيس وان خالفت بذلك رأي الجميع فلا بأس عليك وكن على ثقة ان العناية الالهية تأخذ بيدك لانه « اذا كان

قلب الملك بيد الرب » كما قال صاحب الامثال فذهنه يكون كذلك واعلم انك انت الرئيس وعليك يدور محور الرياسة بجهاتها واذا لم تحكم انت بنفسك بل حكّمت غيرك بدلاً منك فلا يجب لك المساعدة السماوية المعدة لصاحب الرياسة وحده

وهل ينتج من ذلك انك مضطر ان تعمل برأي نفسك او تفضل رأيك على رأي جميع مشيريك كلّا بل اذا ظهر لك ان رأيهم الذي اجمعوا عليه هو مخالف رأيك وان الغيرة والاستقامة هما المحركان لهم فاخضع رأيك لرأيهم ولا تمانع ان لم يحملك على الممانعة نور سماوي

هذا ولكل من الرهبانيات رسوم تبين اين وكيف للرئيس ان يضاد رأي المشيرين او يخضع له

ثم ان قبلت المشورة او لم تقبلها فبادر الى شكر المشيرين والا فلا يبقى لك من ناصح او مشير ما حييت

خامساً

على الرئيس الأ يعجل في حكمه

انك غالباً لا تجد الحقيقة الأ بعد البحث عنها والتنقيب اياماً لان مركزها في نقطة واحدة غير متجزئة وهي شبيهة بنقاط كثيرة تحاكيها وتلتبس بها فاذا وجدناها وجب ان نقبض عليها ولا ندعها تُفلت فيما بعد واذا كنا كما قال الحكيم (حكمة ٩ : ١٦) « بالجهد نتمثل ما على الارض وبالكد ندرك ما بين ايدينا » فأنّى لنا ان ندرك اموراً مرتبكة لا يمكننا الوصول اليها ولا ادراكها الا بشديد التنقيب والتدقيق ؟

ومن الاشياء التي تعرض على المشورة ما يخيل في مبتدا الامر عظيماً ثم يظهر بعد انه حقير لا طائل تحته ومنها ما يجري امره بخلاف فانك تظنه اولاً صغيراً ثم بعد يظهر انه من الامور الجليلة وربّ امر ظهر سهلاً وكان صعباً وعراً وامر كان في بدايتهِ مضراً وامسى في نهايتهِ مفيداً واقول اخيراً ان امور الجمية يكون لها عاقبة لم تنتظر من قبل

قال الحكيم (امثال ١٤) : ان المرء قليل الصبر لايعمل شيئاً بوقتهِ وانما يبدي الحماقة . وقال (١٩) النفس من دون علم غير صالحةٍ ومن يعجل بالقدم يزلّ . سفه الانسان يفسد طريقه وقلبه يحنق على الرب

وقد بين القديس توما رذيلة الاثرة في ثلاثة امور مرجعها العجلة قال (٢٠٢ س ١٣٠ ف ٢) اولاً استصغار الامور العظيمة ثانياً استعظام وسائل النجاح ثالثاً افتخار الانسان بمناقب ليست فيه . وقد احسن لو زاد هذا الامر الرابع وهو بت الحكم والقطع في الامر لاول بادرة . فتمساً للرئيس الذي يسرع في احكامهِ واعمالهِ اظهاراً لحدة فكره وشدة عزمه . لانه لايتأخر عن ان يتقهقر لظهور موانع لم تكن في الحسبان

وان الرئيس كلما سهل لديه اجراء اوامره وجب عليه التأني في اصدارها لان صعوبة العمل على المرؤوس تفتح له ابواباً للتدبر والدهاء اما الرئيس الذي لا يتكلف للعمل الا القول فالعجلة تضرُّ باعمالهِ اي ضرر

تأنَّ اذن في اجراءاتك ولا تخطُ خطوة الاَّ عن تعقل وامهل نفسك ريثما تتأمل وتفتكر وتتصوَّر وانتظر ولا تمل بل عد فانظر الى ما وراءك وزنه ثانيةً وان مست الحاجة فاستشر ثانيةً ذوي الذوق السليم . لا تأنف مما تُقدح بهِ بل اتخذ لك منه ما يساعدك على تقويم سائر مقاصدك واعلم ان ما تقصده على غير روّية فهو بمنزلة ثمر لم ينضج بعد وكل عمل تحملك عليه الحدة لا العقل فهو وان حسنت بدايته فنهايته قلما تكون حسنة

قال المعلم غراسيانوس : ان التأنّي يصلح في كل الاعمال لان الافكار الجديدة تنشأ عنه والمقاصد تتثبت بهِ وتتأيد . ومن الضروري ان نبحث في الامور من كلا وجهيها وننظر في ما لها وما عليها على شرط ان نكون مستعدين لقبولها او لرفضها من غير فرق والعرَض لا يطرأ على ذوي التبصر كما ان الزلق ليس من شأن المتأني المراقب خطواته . (رجل البلاط مبدا ٥٥ و ١٥٥)

واعلم ان الوسادة قد توحي لك في ليلك ما لا تراه في نهارك فخير لك ان تنام في المسألة المشكلة مفتكراً في حلها من ان يوقظك الاسف بعد حلها على غير ما يرام

سادساً

في ان التأمل في المسائل لا ينبغي ان يكون لحدٍ غير محدود

رب مسألة غير معقدة يسهل حلها بقليل من الروية ورب عقل ثاقب لا يفتقر في فض المشاكل وان تصعبت الاً الى مدة من الزمان يسيرة وما عدا ذلك فما من فضيلة الاً ولها حد تنتهي عنده والاً لما كانت الفضيلة فضيلة

قال المعلم دي بروليا : ان في الانتظـار حكمة اذا كان هناك ما يوجب الانتظار او كان للانتظار اجل مسمى . واما اذا كان الانتظار على غير مقتضى او لم يكن الاً عن خمول وخمود فبئس ذلك الانتظار وما عاقبته الاً البوار ولعمري ان اطالة الفكر في المسائل والتحسب والتدقيق والتنقيب عنهـا بغير نهاية ومن دون نتيجة لخسارة كبرى بل تضنك القلوب وتعرقل العقـل وتتلف ساعات ثمينة كان الاجدر ان تشغل بالعمل من ان تضاع في التبصر الطويل ومن ذا الذي لا يرى انه اذا عرض للعقل فتاه يصبح القلب مضنكاً ومضطرباً ويضل الفكر عن سواء السبيل ويتعرقل في كل تصوراته

قال القديس توما ان الحكم والقطع في قضايا العلوم النظرية لاسهل منه في علوم الادب لان لتلك دستوراً ثابتاً تستند اليه مع شيء من اليقين امـا هذه فدستورها وقوانينها الحوادث الادبية الكثيرة التقلب فلا يمكن فيها الحكم غالباً الا على الارجحية فكيف اذن نطلب علم اليقين في مسائل قلما لا يخامرها شيء من الشك والارتياب

فالفطنة اذن تقتضي ان نقدم احياناً كثيرة على العمـل ولو كنا على شيء من الريب ذلك احرى من ان نلتزم البطالة الى زمن لا يعرف حده فبعد البحث والتروي الكافي يجب ان نميل ونعمد الى الجهة الارجح وما زاد على قوتنا نكل به الى عناية الله . لان كل مقتضيات الفطنة على ما أبنا مرجعهـا هو ان نعرف كيف نحكم في الامور حكماً نهائياً

ولا نكون اذن احد اولئك الذين تقلق افكارهم وتتعرقل بمزيدارتياحهم لاستماع الاقاويل والاستخبار عن كل حادثة والتأمل في سفاسف الامور فيمتنعوا عن كل عمل الى ان يروا من اصحاب الشورى حكماً باتاً ورايا لا يشوبه خطر الريب فيضطرون على هذه الحال الى انتظار ليس له نهاية وحقاً ان من كانوا كذلك يقال عنهم انهم رجال فكر وتأمل لا رجال عزم وعمل واي خير من التأمل بدون العمل ؟

قال الحكيم امثال (١٤ : ٢٣) : في كل تعب (عمل) يكون الخصب وما في كلام الشفتين الاّ الجدب » وقال ايضاً (سيراخ ٤ : ٣٤) « لا تكن سريعاً في لسانك ولا كسل متوانياً في اعمالك » مثل بعض الناس الذين يحبون التكلم وتجد في افواههم بعض الاقاويل الصالحة الناتجة عن المبادي‌ء المستقيمة ولهم افكار ومعقولات مقدسة لكن اعمالهم لا توافق افكارهم · قال الحكيم (جا ٧ : ١٧) لا تكن صديقاً بافراط ولا تكن حكيماً فوق ما ينبغي لئلا تكون في وحشة (لئلّاتعد بليداً)فالصديق والحكيم المفرط انما هو الذي يتصورفي جميع اعماله مشاكل وعراقيل لا تحل لما هو عليه من ضعف القلب والعقل

قال الحكيم (١١ : ٤) « من يرصد الريح لا يزرع ومن يرقب السحب لا يحصد »·

وبالنتيجة ان جميع الاشياء تتطلب المهلة والسرعة فتلك للتأهب وهذه للعمل فالامبراطور كارلوس الخامس كان يقول ان التأني هو كوح للمشورة والسرعةروح للعمل · واما حكمة الملك فقائمة بامتزاجهما معاً

سابعاً

في المناقب التي تساعد الانسان على تمييز ما هو اوفق

يمكن جمع هذه المناقب في ست ؟

أ العقل الصائب وهو الذي يصوب نظره الى الغاية توّاً فيميز في كل عمل الجوهري من العرضي فيعرض عن هذا وينعم النظر في ذاك ويعري المسألة مما يجعلها غامضة وينظر فيما اذا كانت العلل سديدة والوسائط المقدمة كافية للوصول

الى الغاية ثم يفحص فحصاً مدققاً في سبب تبـاين الاراء في المسألة الواحدة لعله يـكون صادراً عن اختلاف الغايات الواجب نبذه

اما هذا العقل الصائب فانهو الاّ هبة من الله فلا الغلم ولا غيره من الوسائط البشرية يقوم مقامه وانما يبقى علينا ان نعتني بتثقيف ما فينا من العقل وتهذيبه وترقيته في معارج الكمال وتوسيعه ما امكن

٢ً العقل الراسخ الذي يردُّ الارآء الباطلة والوسائط الضعيفة والادوية التي لا تفيد الا تغطئة الجرح الخارج ولا يعتبر المبادي الكاذبة التي لا تليق بشرف الرئيس ولا تصلح لخير الجماعة

واذا كان المشيرون ليسوا من ذوي العقول السامية او اقتضى الحال حكماً معجل الاجرآء يتعرَّض الرئيس للسقوط في احبولة التمويه والتمليق والمواعيد الكاذبة امّا اذا كان راسخ العقل فيقوى على جميع ذلك ولا يرضى بهِ لانه يشوب اسمه وشرفه ولا يبلغه شيئاً مما فيهِ حسن الحال واصلاحها

واذا كان المشيرون ليسوا من ذوي العقول السامية او اقتضى الحال حكماً معجل الاجراء يتعرض الرئيس للسقوط في احبولة التمويه والتمليق والمواعيد الكاذبة اما اذا كان راسخ العقل فيقوى غلى جميع ذلك ولا يرضى بهِ لانهُ يشوب اسمه وشرفه ولا يبلغه شيئاً مما فيهِ حسن الحال واصلاحها

٣ً العقل الواسع الذي يرى صاحبه بلحظة واحـدة كل ما يرغب في معرفته فيضعها بعضاً بازاء بعض ويقابلها ويزنها ويميز بين غثها وسمينها لان من كان عقله واسعاً تتوسع مداركه . وعكس ذلك العقول الضيّقة التي لا تسع الا فكراً واحداً غالب الاحيان فمتى تلاه فكرٌ آخر تعجز عن حله قبل حـل الاول فلا تستطيع ان تجمع بين فكرين معاً ولما كان لكل فكر تأثير مخصوص كان ذو العقل الضيق لا يتأثر الاّ من الفكر الحـاضر واذا طرأ عليهِ فكر ثانٍ كان لهُ عنده تأثير على حدته وينسى معه ما كان من امر الاول فيبقى على هذه الحال لا يسكن له اضطراب ولا يهدأ له بال

٤ً العقل الذي لا تزعزعه البراهين التي تقدمت فان صاحبـه لا يعجب من خطر سبق فاستدركه و يتعود ان يسلم لمن هو الاخر في طبقات المتكلمين ولا

ان يميل مع كل ريحٍ ولا ان يضيع وقت العمل بالتأمل والتأني

فهذه الخلة الضرورية للرئيس الذي يجب ان يكون في احكامه ثابتاً غير متقلبٍ هي صادرة عن الخلال المقدم ذكرها اعني الاستقامة والثبات ولا تعد بدون ذلك فضيلةً بل رذيلة ونقصاً عائباً وتسمى يبوسةً وعناداً

٥ً العقل الجازم الذي لا ينقاد للقوات الاجنبية ولا يتقلب لتغير الاراء الخارجية بل يرقب صاحبه اهمية العلل المقدمة اليهِ ويمتحن قوتها ويحتال لنفسهِ مخرجاً عند اختلاف الاراء فلا يكون ذلك عن ضعف في رأيه بل عن احتراز من الزلل · لان حذاقته تبين لهُ كل ما يريد ان يعرف واذا صدّق من ابان لهُ سواء السبيل ينظر ويدقق ثم يعتمد ولا يتزعزع

فالرئيس الذي لا يكون متصفاً بهذه الصفة لا يكون رئيساً او حاكماً بل مرؤوساً ومحكوماً واسوأ من ذلك ان ينقاد كثيراً لقائدٍ سيء النية كراهب ذي دهاء يرضيه فيستميله الى حيث تكون لهُ مصلحة

٦ً العاقل الاديب اللطيف الخالي من الكبرياء التي تعميه والعناد الذي يقسّيهِ والبغضاء الاصيلة التي تبعده عن كل مؤانسة فهو مستعد لان يسمع من الجميع وان يستفيد من كل ما يسمع ويوقن انهُ يستفيد ويعتبر النصح والمشورة الصالحة اكثر من كل خدمةٍ تُقدم الهُ

وهذا الادب وهذا اللطف لا ينفيان الفطنة التي بها يمتحن الانسان قوة النصائح والاسباب التي حملت الناصحين عليها اما بدون الفطنة وهي قطب الرئيس فما الفائدة من كل المشورات والنصائح قال ابن سيراخ (٢٢ : ٩) « من كلم الاحمق فقد كلم متناعساً فاذا انتهى قال ماذا »

الفصل الخامس

في الشرط الخامس الجوهري للفطنة الرهبانية وهو القيام بالاعمال حسناً

١ً طلب الخير العام

فمن اخص الواجبات في كل اعمالنــا ان نسعى وراء مجد الله الاعظم وخير القريب الاكبر وذلك لسببين الاول هو انهُ لمـا كان الانسان لا يقدر ان يقوم بكل الاعمال ترتب عليهِ ان يختــار احسنها والثاني ان الخير في مبدا القديس اغناطيوس كلما كان عاماً كان سماوياً والهياً . فالاليق بك ان تفضل الاعمال التي توافق روح رهبانيتك على التي لا توافقها والمأمور بها او المنتدب انت اليها على ما سواها فلا تتدخلن في الاعمال التي لا تكلفها وخاصةً اذا ما رأيت الافكار مستعدة لمذمتك والقدح بك ولم يكن لذلك من وجوب او ضرورة ولا تتداخل في اعمالٍ من شأنهـا ان تعرّض فضيلتك للخطر قال القديس اغناطيوس : اني افضّل درهماً من الخير في عمل بأمن على قناطير منه لا تؤتى الاّ مع خطر الهلاك

فان الاكيد المقرر يفضل على المشكوك فيهِ وما هو اقرب الى النجاح على ما هو بعيد عنه والمفيد على غير المفيد والثابت على ما لا ثبات له ومـا لا تسمح الضرورة بتأجيله على ما يؤجّل وما يمكن انجازه بفرصة قصيرةعلىما لا ينجز الاّ بسنين عديدة ومشاق شديدة وما يمكنك اتمامه على ما تتركه غير متممٍ

ويفضل ما لا يخطر ببال غيرك على ما ترى الكثيرين مقبلين عليهِ ويستطيعون عمله فالقديسون كان لهم شعورٌ عجيب وذوق سليم في اختيارهم الاعمال المهملة وكان فيهم محبة غير متناهية بها يدعون الناس الى وليمة الاب السماوي ولاسيما من كانوا مطروحين في الطرقات وفي زوايا النسيان والفاقة والمذلة فبمثل هــذه الاعمال والشركات المقامة لها يُسدى اعظم مجدٍ لله تعالى فان لم يكن ذلك من

جواء عظمة الخير الناجم عنهـا في الحال او في الاستقبال فيكون على الاقل من اجل بنيان القريب والبركات التي تستمطرها على الجماعة القائمة فيها

ويفضل الروحي على الزمني (١) والاهم على المهم سواء كان بالنظر الى الاشخاص او الاشياء وتقدّم الامور الكنسية المحضة على المدنية او على مجملهما

ويفضل بين الناس من هم كمحور للخير او آلة دافعة اليـهِ ومن يمتازون بعقولهم او في مناصبهم او بمعاملاتهم الخارجة فيكون لهم على اهل وطنهم وبني جنسهم سطوة وسلطان يميلون بهم كيفما شاءوا الى الخير او الى الشر

وهكذا يفضل اولئك الذين هم من اهل الاستقامـة او الفساد الذين يصلحون او يفسدون من جاورهم او مـا كان في حوزتهم وكذلك يفضل من نجدهم ميَّالين بنعمةٍ خاصة او فطرة طبيعية الى الحالة الكهنوتية او الرهبانية ويمكنهم بعد ان يكونوا آنية مختـارةً لحمل البشارة وبث الفضيلة ومثلهم اضدادهم الجامحون الى الشر الاقوياء على نشره بسرعة · ويفضل اخـيرًا في خدمتنا الروحية كل من نجد فيهِ استعداداتٍ قوية للخير او للشر

والسر في ذلك هو ان مريد الخير العام نفسه يطلب مثل هـذا التفضيل والتخصيص لان عملًا واحدًا في مثل هذه الظروف يساوي اعمالاً كثيرةً جاريةً في قصد جلب المنافع او درء المفاسد

---

(١) فليتنبه بعض الرؤساء الروحيين الذين يبذلون جل عنايتهم في الزمنيات فيغرمون بها وينشرحون ببهرجتها فيسهون عن خدمهم الروحية التي اليها انتدبتهم العناية الالهية بنوع خاص فانك قلما تسمعهم يتذاكرون او يتحادثون الاَّ في الزمنيات كالارزاق والمواشي والخيول وخاصة في تشييد البنايات العظيمة التي ليس لاكثرها غاية الاَّ دفن الاموال فيها وكان الاولى ان تصرف تلك الاموال في وجه الخير العام كتهذيب شبان الاكليروس خصوصاً لانهُ لا يخفى على احدٍ ما هو عليـهِ شرقنا في الحال من الفاقة الى ذلك اذ الحصاد كثير والفعلة قليلون · (مم)

٢ً من الواجب ان نرضى بالممكن المستطاع في كل الاحوال
حتى في اعمالنا الروحية

نعم انهُ يخلق بنا ان نطلب بآمالنا واشواقنا ما هو حسن وان نوسع نطاق افكارنا ولا نرضى الاَّ بكثير الاعمال وافضلها ومتى شعرنا بان النعمة اخذت تعمل فينا يحسن حينئذٍ ان نفتح لها ابواب قلوبنا ونساعدها على سعيها وتقدمها وينبغي ان نستأصل جرثومة الرذيلة بعد قطع اغصانها وان نجدد غرس جفنة الفضيلة بعد اقتلاع ذاك الاصل الذميم حتى اذا ما بلغت النفس القداسة المعتادة نجتهد في بلوغها الى الكمال

ومن المبادي الراهنة اننا متى قصرنا عن نيل بغيتنا يجب ان نجتهد في الحصول على ما نقدر عليهِ فاذا رفض مثلًا من ترشده قبول المشورات فاطلب منه قبول الوصايا ومن ابى عمل الرحمة فاطلب اليهِ ان يبتعد عن الظلم ومن ابى الاقلاع عن كل الرذائل فارتضِ منه بالاقلاع عن بعضها ولاسيما التي تكون ادعى الى العثار من غيرها وهكذا من ابى ان يرفض الشر كل الرفض او لم يرد تقليله طالبه بالصلاة وبالعبادة للبتول مريم ومن لم يصلِّ فطالبه بالصدقة وان لم يتصدق وصعب رجوعه الى الصلاح فانفصل عنه مدةً انفصال محبٍّ مظهرًا شوقًا وافرًا الى مقابلتهِ غير مرةٍ ودع الله والزمان ان يعملا فانا نرى الناس كثيرًا ما يملّون من الرفض كما يملون من التلبية والسماح

ثم وان كان يجدر بنا عادةً ان نظهر الشهامة والاَّ نرجع عن شيء من اعمالنا فقد يعرض لنا ان نضطر للرجوع وان نوجه عنايتنا بالخير الى اشخاص آخرين واشياء اخرى

قال شيشرون انهُ لمن المسلَّم بهِ ان الحكمة تقتضي احيانًا التسليم لاحكام الزمان اه وقال ايضًا : ان الملك يضطر لطاعة الزمان كما تضطر الرعية لطاعة الملك اه

وقد يخسر غالبًا من يطلب الغنى كثيرًا

كان القديس فرنسيس سالس من عادتهِ ان يقول : من اراد ان يتقدم دائمًا

ولا يرجع الى الوراء عليهِ الا يطلب كثيرًا مما يرغب فيهِ ولا ان يلح في طلبه والاَّ يطلب اشياء عديدةً في اجلٍ واحدٍ

وكان القديس اغناطيوس يعد نفسه سعيدًا حينما يتيسر لهُ ان يقلل عددَ خطايا العاهرات بتعيينه لهن معزلاً يبعدهن ولو قليلاً عن الخطاء والقديس فرنسيس كسفاريوس لما كان غير قادرٍ على هدي احد التجار الخطأة اكتفى بان يطلب منه شيئاً من الاحسان الى الفقراء الذين كان يعتني بهم

ولا تثقلن على نفسك من الاعمال ولو صالحةً وموافقةً لروح دعوتك ولا تتمسكن في وقتٍ واحدٍ بكثيرٍ منها وهي مختلفة الجنس لان الاشغال الزائدة تسرق من الاوقات المعينة لاعمال التقوى وتتلف القوى والصحة ولا تفيد وان الراهب ان لم يحفظ وقتاً للدرس والمطالعة يضحى غير قادرٍ على القيام بكثير من واجباته · وكيف ترى الانسان لا يضطر لان يوفر قواه الطبيعية والعقلية ليصرفها في خدمة الجلال الالهي او كيف لا يجب عليهِ المحافظة على حرارة المحبة في قلبه وهو يعتني باضرامها في قلوب الاخرين · قال ابن سيراخ (١٤ : ٥) من اساء الى نفسه فالى من يحسن ؟ اه ومن انطفأ سراجه بعد نفد زيته وجفت مشكاته فمن اين لهُ ان يُضيء سراج غيره

٣ً النظر في عاقبة الامر قبل حلوله

فقد شوهدت في كتابة مصرية قديمة كلتا الفطنة والبصيرة على رسم توتة شامية على اغصانها طير الكركي وفي ذلك رمز الى ان التوتة الشامية اوفر حكمة من سائر الاشجار لانها لا تزهر الاَّ بعد ان يزهر الشجر كله وقاية لنفسها من الزمهرير والجليد وهكذا طير الكركي فانهُ يوصف بالحكمة لانهُ يخفي عشه عن نظر المغتال والرئيس لا توجب عليهِ الفطنة ان ينظر الى ما يحدث عند وقوعه بل ان يستدرك عواقب الاشياء التي لم تقع بعد واما المرؤوس فان لم ينظر الاَّ في الحاضر فمعذور · ثم ان الرئيس لا يكفيه ان ينظر ويرقب ما هو ضمن دائرته او تحت تدبيره بل لا بد لهُ من ان يمدّ بصره الى مواقع بعيدة شاسعة ويستشير المستقبل اكثر من الحاضر وان يهمل مصلحة نفسه ويعتني بمصلحة الجماعة ولا

يبالي اذا لم يستطع هو نفسه ان يتمتع بثمرة اتعابه في اصلاح الاملاك وتشييد البنايات لانهُ يأتي بعده من يتمتع بها واذا ما شرع في عملٍ مهم فلينظر اولاً في ما اذا كان لهُ من القوة والمدة ما يكفل اتمامه والاَّ فلينظر ما اذا كان يرضى بهِ خلفاؤُه وانه لا يورثهم بهِ عراقيل واتعاباً هم والرهبانية في غنىً عنها · ولعمري ان المهم في اكثر الاعمال هو النظر في عاقبتها لا فيها نفسها ومن لا يدرك هذا كان كمن لا ادراك لهُ الا ترى ان مداركة الصحة قبل المرض اولى وانفع من الادوية والعقاقير بعد الاصابة بهِ · قال ابن سيراخ (١٨ :) تعلَّم قبل ان تتكلم وخذ الدواء قبل حلول الداء اه قال الحكيم (امثال ٢٢ : ٣) ذو الدهاء رأى الشر فتوارى والاغرار جازوا فنالهم السوء اه

وانا لا نريد بنظر العاقبة عملاً صعباً مزعجاً بل نظراً يقظاً وساكتاً يري صاحبه في نهاره ما يتعلق بغده ومما يتعلق بالغد يستدل على ما يحدث في المستقبل فلا يتهامل بشيءٍ من الصغائر ولا يُعلِّق على كل الاعمال اهمية واحدة

اما بعد فان عدم النجاح يعزى الى القدر واما عدم الاستدراك فيعتبر نقصاً وزلة · وقد كتب لويس الرابع عشر بيده في احدى مذكراته كلاماً يعتبر كمبدإ عام قال لا ينبغي ان نعرض للصدفة شيئاً يمكن الفطنة ان تستدرك عاقبته اه وانما لجاجتنا في طلب المكاسب هي التي تسبب لنا الخسارة غالباً والامال الكاذبة تخدع اقوالنا واعمالنا فلنحذرن منها لانها تقود الى الشر

وللقديس اغناطيوس مبداء ليس اقل سداداً وحكمة من هذا وهو في قولهِ: لا يجدر بنا عمل من الاعمال العمومية المعرضة لنظر المنتقدين الاَّ بعد التعمق في امر عاقبته وايجاد الوسائط الموصلة الى الغاية والافضل بعد ذلك هو الاَّ ينجز مثل هذا العمل الاَّ خفيةً عن نظر العموم

فلا خلاف في انهُ يندر وجود ملك او قديس اعظم فطنة من هذا القديس لانهُ كان يبعد النظر جداً في امر معرفته عقول اصحاب مشورته وكنهَ الاعمال التي تكون لديه ونتائجها المفيدة والمضرة وفي صلاحية الزمان للعمل والوسائط الموصلة الى الغاية وفي الموانع وكيفية ازالتها · · · واما الاعمال الهامة فكان بعد تأمله فيها ملياً يعرضها على اول جماعة من اصحاب مشورته فينقبون فيها ويدققون

النظر في كنهها وموافقتها • وبعد نهاية هذا الامتحان كان يعرضها ايضاً على جماعةٍ ثانيةٍ للنظر في وقت العمل الذي يجب اجراؤُها فيهِ وكان يفعل هذا لكي يتأكد انهُ غير منقادٍ الى جهةٍ لغرضٍ خاصٍ او ميل منحرفٍ وكان يعتبر هذه الاعمال كأنها لغيره ولكنها مقدمة لهُ لينظر فيها كمنتقدٍ لا غير • وهكذا الرسائل التي كان يكتبها بيده او بواسطة كاتبه في هذه الاعمال فانهُ كان يراجعها ثلاث مراتٍ او اربعاً مصلحاً ما فيها من الخلل ولما كان متصفاً بفطنةٍ غريبةٍ وعزيمة تقدره على اكبر الاعمال وبصيرة تريه اعظم الامور قبل حلولها بزمن مديد كان يرتإي احياناً ويعمل ما يستغربه غيره ويخطئه فيه بالبداهة واما عندما كانت تظهر نتيجة عمله ورأيه المصيب فكان الجميع يتعجبون من حكمته الباهرة وحذاقته الظاهرة

رابعاً عدم التأنق في امر الفطنة

فلا تقتدين بالذين يتصورون ان الفطنة قائمة بامتيازهم عن الجماعة وانفرادهم في جميع اعمالهم وحركاتهم ولا غروَ ان هولاء مبدعو المبادي الجديدة وهم لا يريدون ابداً ان يسيروا في الطريق المسلوكة بل دأبهم ان يخترعوا طرقاً جديدة ولو غير امينة فانهم لفرط تعمقهم وتنمقهم وابتعادهم عن كل ما هو عادي بين الناس يخرجون عن الصراط المستقيم ويخالفون ذوي الذوق السليم وينقطعون عن اعتبار الجميع

ومن بحث عن الحكمة في طريق بعيد كان لا يعرف طرقها فهي فينا وطريقها حكم اكثر الناس بموجب العقل الصائب لان الفطنة لا تتغير كعادات الناس او كالازياء • فهي واحدة في كل زمان ومكان وانه لمن الممكن ان تتحسن الصناعات وتتقدم العلوم بواسطة الاكتشافات الجديدة واجهاد القريحة الوقادة والبصيرة النقادة واما من حاول زيادة الحكمة بالتنميق ونظر العقل فقد اضعفها ولا محالة بل اتلفها (بوقيس مكتوب ١١)

ومن اراد ان يظهر حكيماً في كل شيء كان بالحقيقة جاهلاً في كل شيء • ومن اعظم العلوم ان يعرف الانسان كيف يظهر جاهلاً آمياً عند الاقتضاء ولا شيء

اصعب واضر من ان يعرف العاقل كيف يتظاهر احياناً بانه اقل حكمة مما هو عليهِ لان الجميع يتعصبون ضد من يرون انهُ اكثر حكمة منهم اما عن حسد واما للمحاماة عن جهلهم واما لتعوّدهم الشك في ما لا يدركون

قال القديس اغناطيوس : لا ينبغي ان نؤخر عمل خير حاضر آملين بعض الامل اننا نعمل في المستقبل اعظم منه · لانه من حيل الشيطان الخبيثة ان يجعلنا نتصور تصورات كبيرة وان نأتي اعمالاً عجيبة ولا يقصد بذلك الا ارجاعنا عن الاعمال العمومية التي كان في وسعنا ان ننجزها في موقتٍ قريب اه

قال غراسيانوس (رجل البلاط) لا تستنبطنّ لنفسك شاغلاً من لا شيء فمن الناس من يتعرقل امرهم في اوهى الامور واوهنها ومنهم من لا يعرقل امرهم امر وان عظم · والفطنة وان لم يتصور الجميع انها كالسداجة وسلامة النية فهي كذلك من حيث انها لا تحيد عن طريقها يَنة ولا يسرةً حتى تسمع ما يقال عنها او ترى ما يعمل بها وما يظن فيها فالاحرى بنا الا نبحث عن الطامير ولا سيا اذا كانت غير مرضية

لانه من الحماقة ان يفتش الانسان عما يغيظه ويغضبه ولا غروَ ان من لا يرضى ابداً في ذاته يُعد ذا خساسة ودناءَة كما ان من يعجب بنفسهِ ويكتفي بها يُعد مجنوناً · فعلى الانسان العاقل ان يسمو على اعماله والاَّ ينغلب لها وان كبرت وتعاظمت

واذا كان الرئيس قد جزم بامر بعد التأني والتدقيق فلا ينبغي ان يعود الى الشك والارتياب والتقلب · واما اذا ظهر له انهُ مخدوع وان له فرصة للرجوع عن انخداعه فالواجب ان يرجع عنه · فان الناس بالطبع مفطورون على شيء من الذوق السليم يحملهم على التمسك بالاستقامة فالله صنع البشر مستقيمين اما هم فتطلبوا مباحث كثيرة (جا ٧ : ٣٠) نعم ان طبيعتنا خسرت شيئاً كثيراً من هذه الاستقامة الا انها مع ذلك لم تزل حاصلة على ما يكفيها موءونة الاستناد اليها في احكامها ولا تبقى متقلبة مع رياح الشك والارتياب

ان العلامة غراسيانوس اسهب في تبيان هذا المبدا وهو ان شواعر القلب جديرة بان يصغى اليها ولا سيا اذا كان القلب رقيقاً ومن الناس من لهم قلوب

تنبههم الى كل شيء وتوقظهم عند نزول كل مصيبة ليعدوا لها الادوية

فلنصغ الى هذا الصوت الذي من عادته ان ينبهنا في كل ما يهمنا همّاً خاصاً فهو كوحي خصوصي يتعلق بكل ما يوافق مصالحنا (رجل البلاط ١٧٨) وقال ايضاً (مبدا ٨٢) ان الرجل الحكيم يدرك كنه الحكمة بالمبداء القول فيه : لا تعمل شيئاً بافراط فالبرتقانة اذا ما ضغطت عليها ضغطاً عنيفاً استحال طعمها اللذيذ الى مرارة وهكذا العقل فانه اذا بولغ في الضغط عليه بالتأنق والتمليق يكلّ ولا يبعد عن التلاشي كما ان الحليب اذا ما اخرج من الثدي بعنف وشدة يخرج ممزوجاً بالدم

خامساً اغتنام الفرصة والزمان الموافق

فلكل امرٍ آوان ولكل غرض تحت السماء وقت · للولادة وقت وللموت وقت · للغرس وقت ولقلع المغروس وقت · · · ان الله انشأ كل شيء حسناً في وقته (جا ٣ : ١)اذ لكل غرض زمان ثم قضاء لان شر البشر عظيم عليهم ولا يدرون ما سيكون · ومن يخبرهم بما سيأتي · (جامعه ٨ : ٩)

ان من لم ينعم النظر في معرفة تواريخ الاجيال الماضية لا يستطيع ان يدرك اهمية اغتنام الزمان الموافق ولا خسارته · فليس لاحد ان يعمل كل ما يريد اذ توجد قوة سامية يمتد سلطانها ويسمو على كل قوة وان الزمان يمر مر السحاب فمن لا ينتهزه يخسر كل شيء واذ كان كل شيء يقلق بالزمان كان علم الزمان والاوقات هو علم السياسة الحقيقي وعمل الحكيم الاهم فقد كتب ان قلب الحكيم يعرف الزمان والقضاء (جا٨ : ٥) وكتب ايضاً : يابنيّ احرص على الزمان وتحفظ من الشر (سر ٤ : ٣)

ومن احكم المبادي التي كان يلقيها ايزوكرات على نيكوكليس بقصد تهذيبه وتحنيكه في فن الملك كان قوله ان الاهم في جميع الاعمال هو انتهاز الفرص المناسبة للنجاح وبما ان هذه الغاية يصعب ادراكها فالاجدر بنا ان نتوقف قبل الوصول اليها من ان نجاوزها وتفوتنا بلا فائدة لان الحكمة الحقيقية تتخذ لها مركزاً في وجه الغاية لا من ورائها

وقال القديس غناطيوس ان الاولى بنا ان نتبع جري العناية لا ان نقاومها ونعصى امرها لانه علينا ان نخضع لاحكـام الايام وليس على الايام ان تخضع لاحكامنا وارادتنا » لعمري ان من يعرف كيف يحسن سيره مع الناس ويجعله ملائماً للامكنة والازمنة وسائر الظروف كان عارفاً بكل شيء فان الزمان يكشف الاسرار ويظهر ما كان بالحدس والتخمين الى حيز الوجود وهو يبيّن الموافق ويمكن المقاصد الصالحة والخلاصة ان الزمان هو افضل مشير

وعليهِ فمن شاء الاّ تصدم رجله بحجر مصيبة والاّ يعثر في طريقه عليهِ ان يراقب الفرص الموافقة والزمان المقبول فالنجاح منوط غالباً بدقيقة من الزمان

واعظم مبادي الفطنة منحصرة في هذه الكلمات الثلاث : اعرف وانتخب واعمل عاجلاً . لانه في جميع الاعمال لا بد مما يعدها للعمل وما يحمل على مباشرتها ومما يجعلها تنجح فعلى ذي الفطنة اذن ان ينعم النظر في علم الوسائط الموصلة الى العمل بدون ابطاء وتقلب

ومن الاعمال ما يطلب السرعة ومنها ما يطلب القوة والبسالة وجميعها مفتقرة الى فضيلة الصبر والتجلد . وبالعموم يجب التأني في جميع الاعمال اذا لم يكن ثمة فوات فرصة او مضرة لان ثمرة المقاصد بالتأني وبهِ تتحقق الامال بالعقل وفي هذا المعنى كان يقول اغوسطينوس « اسرع بالتأني » فالسرعة تكون عند تأكيد النجاح وخاصة عندما تكون المهلة سبباً لصعوبات جديدة . فتذكر القديس اغناطيوس في هذا المعنى اذ قال : لا تؤخر الى المساء ما تقدر عليه في الصباح ولا الى الغد ما يمكنك عمله اليوم هذا اذا شئت ان تتقي كل صعوبة تلحق بك في عملك وكل فشل فيه وان لا تنساه كل النسيان او ان لا تتأتى عليك عراقيل تثيرها قوة الجحيم او تقلبات الزمان والافكار

سادساً لا يجدر بالرئيس ان يظهر في الابتداء كل ما له من النيات والمقاصد

فانه لدهاء عظيم في فن السياسة ان يعرف الرئيس كيف يجانب اظهار ما هو عليه من اول وهلة وكيف يخفي نياته ومقاصده ولا يبين شيئاً منها الا عند الاقتضاء

ولا يتقدم في هذا البيان الأ خطوة فخطوة بتأنٍ ونظامٍ وكيف يعتني بتمكين سلطانه قبل تحديده ولا يخطو خطوة ثانية قبل تمكين الاولى وليعلم ان مقابلة السلطان السابق بالحاضر والرئيس السابق بالحالي لا تخلو من غوائل مكروهة وانما يكون ذلك غالباً عندما يلاحظ المرؤوسون ان السلطان الحاضر من بعض ما كان في السابق فمن الضروري ان يعرف الرئيس ما يمكن ان يرضي بهِ الجمهور او يستاء منه وما اباحه سالفه لهُ وما حرمه عليه. وان يعتني بعد ان يخفي مقاصده في سياسته واميا له الطبيعية بان يظهر للجميع ان منهج السلطان باقٍ على ما كان عليهِ والأ فان الاشياء الهامة ولاسيما الامور المتعلقة باصلاح العادات القديمة وتغييرها اذا ما ظهرت بغتةً على غير انتظارٍ ولا تأهب تظهر كانها من الامور الغير المطاقة فيكون لها وقع سيّ فينفر منها الكثيرون ويعدون ما كان منها مستحباً وفضيلةً كمكروهٍ مرذولٍ

فحذار اذن ان تظهر كانك منتقد يندد بكل ما يلقاه ويرغب في ان يغير هيئة كل شي بل ارينّ الجميع انك مملو لطفاً وبشاشة في كل آنٍ ولاسيما في مبدإِ اجرآآتك في الرئاسة وكن اذ ذاك غيوراً ذا فطنةٍ وتأنٍ خالياً من الفظاظة والنزق واعلم انك كلما طلبت ما ترغب فيهِ بجدةٍ وتسلط انتبهت الخواطر لمقاومتك ولا تطلب في مبدإِ الامر الأ ما يستطيع ويريد كل واحدٍ ان يعطيكه وليكن طلبك ما قل وهان في امر الرذائل التي تروم ملاشاتها .واذا وجد المرؤوسون متأهبين لترك بعض النقائص فليبتدئوا في تلك التي هم بها اقل تعلقاً منهم بغيرها وذلك يُعدّ انتصاراً على الذات ولو ضعيفاً ويولي صاحبه شجاعة ونعماً تزيده قوةً

ولا تكثر زياراتك فتكن ذا اهمية واعتبار . ولا ترغب في ان يقابلك جميع الناس وتكلم باحتشام ورزانة ولا ترتح الى كثرة الكلام بل اجتهد ان تكون فيهِ دقيقاً معتبراً انهُ لا يخرج من فيك حتى يلقى امام خصومك فيعيبوه ويذيعوه والذي يسبب لك الاحترام والاعتبار هو الا تبوح بافكارك ولا تكشف شيئاً من اسرارك الأ بمقدار ما تأمر به الفطنة ولا تعجل بتوكيد ما لم يكن عندك ثابتاً لئلا تضطر فيما بعد لان ترجع عن قولك او يعزى اليك الطيش او

الكذب واذا جاورت اناساً من اهل الغلظة والخلق السيء فالاليق بك الا تبعدهم عنك الأ بالانس والمجاملة اما اذا دعت الضرورة والمصلحة العمومية الى اظهار ما لك من المعارف والاعتبار فلا ينبغي ان تختبيء حينئذٍ لكن احترس كل الاحتراس من ان تجعل سبيلاً الى ظن الناس بانك تتطلب المجد والفخر او كسب المال وكن عارفاً جميل المحسنين لكن لا تكن ملّاقاً

تكلم دائماً عماً يختص بالله بهيبةٍ واحترام واحذر ان تكون في حديثك ثقيلاً مملاً فقد نصح اللبيب غراسيانوس اهل المحاورات الزمنية نصيحة تليق باهل المفاوضات الروحية في بعض الاوقات والظروف قال : دع من تحادثهم وعلى شفاههم قطرات من عذوبة حديثك فالخير هو خير مضاعف اذا قل وندر · انهُ لضرب من الدقة والتأنق الا يشرب المرء الأ متى اشتد ظمأه والا يرتوي ارتواء كاملاً وعايهِ فلنبقِ لنا شيئاً جديداً نظهر بهِ في اليوم المقبل ليكون لكل يوم انموذج ورونق جديد ومن لا يرى الناس حد ما عنده من الحذق وسعة الفكر اكتسب لنفسه اسماً كبيراً وثقةً شديدةً ولقد اصاب بيتاكوس اذ قال: النصف اكثر من الكل اه يعني انهُ اذا كان النصف الواحد ظاهراً والاخر مستتراً فالنصف في هذه الحال افضل من الكل الظاهر · فمن الموافق ان يعرفك الجميع لكن لا يوافق ان يعرفوا غاية مــا عندك وبهذه الدقة والصناعة يظهر قليلك كثيراً وكثيرك متجاوز الحد

سابعاً اتخاذ الطرق اللازمة لاكتساب قلوب المرؤوسين

فانك اذا قصدت ان تستميل عواطف غيرك اليك واعتبارهم لك فزرهم وشاورهم واكشف لهم عن سرك ولو عماً لا اهمية لهُ واثنِ عليهم فان ايزوكرات كتب الى ديمونيكوس قال اذا رغبت في اكتساب محبة احدٍ فاثنِ عليهِ مادحاً امام من يبلغونه كلامك لان المديح يدعو الى المحبة والمذمة الى البغضاء

احذر من ان تأتي باحاديث يكرهها اولو السلطان الذين يقدرون ان ينفعوك او يضروا بك كثيراً ولا تقدح في ما يقولون او يفعلون ولو كان مما يجب القدح فيهِ واذا اذنبوا اليك لا تظهر انك متأثر من ذلك ولا شاعر بهِ بل اسدل عليهِ

ستار التعامي وبيّن ما لهم عليك من الخير لانهُ لا بد من ان يبلغهم ذلك عنك

لا تدخّل نفسك في اصلاح احد الكبار اذا كان عاتياً سريع التأثر الاَّ متى سنحت لك فرصة سعيدة وساعة رضى لانك ان عثرت في اول خطوة يصعب عليك التقدم بعدها ويتعذر عليه الرجوع واجتهد في معرفة باطنه قبل ان تبدي لهُ شيئاً ولا يفتك شيء من امياله وطباعه وتصوراته السابقة واللاحقة

واذا ما دخلت بلدًا فاجتهد اولاً ان تعرف طباع اهلها وذلك عندما تتحد مع عقلائها وتلاحظ امورًا خاصةً

وانهُ لمن الواجب ان يتخلق الانسان باخلاق اهل وطنه وبني جنسه ولو جانب حماقتهم · فعوّدنّ اذن نفسك ما استطعت على عادات اهل المحل ولهجتهم وشعورهم ولا بأس باهمال بعض الخير او تأجيله للوصول الى ذلك فانك بموافقتك اذواق الناس تكتسب قلوبهم وتستميلهم اليك لانهم يثقون عادةً بمن وافق افكارهم وصوّب اعمالهم وهذا ما دعاه القديس اغناطيوس · وجوب الدخول في باب غيرك لاجل اخراجه من بابك اه

واذا عرفت ان في المحل الذي انت فيه انقساماً فكن على حيادٍ ولا تنسَ انك رجل الله لا رجل حزبٍ بدد الافكار التي لا اساس لها واصلح الطباع بملح الفطنة والتأني وبيّن ان ما يراه اهل العالم صعباً غير محتمل هو سهل هين لين وليكن برهانك مسندًا الى المصالح الزمنية اولاً ثم الى الخير الروحي الدائم · اقتدِ بالملك الحارس الذي يقوي النفس اولاً ثم ينيرها فيملأها ثقةً وطمأنينةً ولا يبالغ في ازعاجها بل يحلي مرارة زجرها بعذوبةِ التعزية والتجاسر ان اقول لك اقتدِ بالشيطان الرجيم وما يستخدمه خزاه الله لهلاك الانفس وافعل مثله انت لخلاصها اي استخدم العقل والغنى والاميال والطباع فتكتسب العظماء بين القوم بالاحترام والخضوع لهم ومن يناوئونك تكتسبهم بالمحبة وبمشاركتهم في ما يلم بهم من المصائب واما مرؤوسوك فانك تخضعهم بخدمتك لهم وقضاء حاجاتهم فحدّث من كان طماعاً عن ربح المجد الذي يزول ومن كان بخيلاً عن الكنوز السماوية وصاحب الشهوة عن ملاذ الوطن الحقيقي التي لا توصف

« وانه قلما توجد عقول لا ابواب لها مفتوحة لدخول الحقيقة فيها واما اذا لم

تجد الحقيقة لها مدخلاً فيها فسببه اننا نقرع ابواباً مغلقة او اننا لا نبحث مفتشين عن الباب فاننا لا نمعن النظر في ما اوقف البعض عن الوصول الى الحقيقة فكاننا بذلك نريد ادخال الحقائق في عقول الناس من غير ان نفتح لها الابواب بالبراهين المقنعة ونريد ان يذعن الجميع لافكارنا والاً نذعن نحن لافكار احدٍ عندما تقتضي الضرورة ذلك (نيكولاوس)

واذا دعت الضرورة الى معاشرة اهل الهزء والسخرية من اسافل القوم ورعاع الناس من لا سبيل الى دخول الحقيقة في اذهانهم فلا تُضع وقتك في اصلاحهم ولا تطرح جواهرك امام الخنازير بل دعهم وامضِ والاً زدتهم ذنباً وقحة »

وذو المناصب العالية يعتبرك ويجل مثواك ما ظن انك جاهل عيوبه فتجاهل اذن وادخر معرفتك للوقت المناسب

واما الذين عرفوا بقلة الدين واشتهروا باعمالهم المضادة للاداب وعدم اكتراثهم للقيام بالفروض الدينية فاذا وعظتهم وعظاً مدققاً ومنظماً على اصول الفلسفة حسبوك من اهل الغلظة وقليل الذوق واسى عملك تشكيكاً واهانة للمسيحيين الحقيقيين فلا تبتاعنَّ اذن بهذا الثمن صدقة الاغنياء ولا حماية الوجهاء

ثامناً ينبغي النظر في تأييد اعمالنا وتثبيتها الى زمن طويل

لما كان اكبر نقصٍ في اعمال البشر التقلب وسرعة الهبوط كان الناظر في تمكين اعماله وتثبيتها الى مدة طويلة احكم ممن استنبطها ومن يعتني بنشرها وامتدادها فاعدّ لك من الوقت والعناية ما يكفي لنجاح اعمالك طول مدتها وترسيخها على قدم ثابتٍ يكفل سلامتها لتنتقل منك الى خلفائك سالمةً قويةً . فالذين لا يريدون ان يستفيدوا من الزمان ولا يعتدون بهِ تفوتهم غالباً الفرص الموافقة

فاحرى بنا ان لا نأتي عملاً من ان نعمله كيفما اتفق بعجلة زائدة . او نضعه على اسس متزعزعة لانهُ اذا سقط يكاد لا يقوم ولا يقام لهُ عوض

لا تنفرد عن العظماء في قومك واصحاب النفوذ بل استشر من كان قادراً

ان يمدك برأيه واجعلهُ لك معاوناً في اعمالك او محامياً عنها وينبغي لك في المقدمة ان تستخبرهم عن طباع اهل وطنهم وعن شوائبهم وعن الخير الواجب عمله فيهم وطلب رأيهم في الكيفية التي بها تزيل العوايق المانعة وتستخدم الوسائط النافعة ولا غروَ انهُ كلما كثر عدد الرجال الكبار والعائلات الشريفة في الاعتناء بك وباعمالك ازددت نجاحاً وتمكُّناً

الاَّ اني لم اعنِ بما قلته اننا ملتزمون ان نثقَ دائماً بالناس ثقة كاملة ونصدق كل ما يقولونه ويعدون بهِ · فقد اصاب صاودرا بما قال من : ان المقاصد التي لا سند لها سوى المبادي المتعلقة بارادة آخر لا تكون ثابتة وانَّا كثيرًا ما نخدع نفوسنا اذ نعتقد ان الناس لا يصنعون شيئاً مضادًا لمبادي الدين والعدل وحقوق القرابة والشرف والصداقة ولا نتصور ان بعضهم يعملون غالباً اعمالهم على ما تقتضيهِ مصلحتهم وواجباتهم بل على ما يطلبه ذوقهم الخاص او ميلهم الباطني · فالاختبار نفسه يعلّمنا ان لا نزن دائماً اعمال غيرنا بميزان العقل والانصاف بل يجب ان نتحذر ما هم عليهِ من الخبث والمخادعة (ف ٣٧)

وهذه القاعدة تنطبق انطباقاً تاماً على اولئك الرهبان الافاضل الذين تحملهم تقواهم واستقامتهم على ان يحكموا في اهل الدنيا حكمهم في نفوسهم

واما ما يتعلق بتأسيس الديورة فيحسن بنا ان نتبع المبدا الذي علمنا اياه القديس فرنسيس دي سال بقوله « عليك بالقليل الحسن » فان هذا القديس في الاثنتي عشرة سنة التي عاشها بعد تاسيس دير الزيارة لم يرضَ الاَّ ان يبني اثني عشر ديرًا فقدم لهُ ما يكفي لبناء ثلاثين ديرًا وكان يكرر كلامه السابق الذكر العجيب « عليك بالقليل الحسن » لانهُ كان يخشى ان يتولى ادارة تلك الديورة روساء غير محنكين في السياسة والفضيلة وكان قدس الله روحه يعتقد ان خير الاديار الروحي والزمني يتعلق بالروساء وكان يقول في راهباته انهن لم يولدن بعد في عالم الفضيلة فكيف نقلدهن الرياسة فلندعهن يتمكنَّ اولاً في دعوتهن ولنتأنَّ في عملنا هذا لان القليل من الخير الذي نعمله يكون كثيرًا اذا كان يرضى بهِ معلمنا الصالح · وافضل للراهبات ان ينمين بروح الفضيلة من ان يكثرن الاديار وهل يصرن اكمل لو كثرت ديورتهن ؟ واني ارى رهبانيات كثيرة تتقهقر

متراخيةً في حفظ قوانينها وعلة ذلك كثرة الاديار ورب قائل يقول ان مجد الله هو الذي يحرك الكثيرين على انشاء الاديار المتعددة فاقول هل ترى محبة الذات لا يكون لها دخل في ذلك ؟

واما امر البناء فلتتخذ له قاعدة ذاك المثال الذ قدمتهُ وعملت بهِ الام ريقيه مؤسسة دير التقدمة وهو ان تتصوَّر اولاً تصورًا عموميًا البناية وكل ما يتعلق بها وبعد تكل الى معتمديك وموازريك انيبينوا خطأً ما يرونه في ما يلائم المحل والصحة والنزهة وبعد هذا ينبغي ان يبدي المجمع العام ملاحظاته في هذا الشأن واما انت فاعمل جهدك في ان تلبي رغبة كل واحد وبعد كل ذلك ينبغي لك ان تطلب من المهندس رسم البناء وتشرع به

ومن لا يرى ان الاحتياط على الوجه المذكور يقي البناء شر كل عاقبة ويمكن اساسه على صخرة الاتفاق ورضى الجمهور

٩ً لا تتعجب من الحوادث ولا تفشل ابدًا

فاذا طرقتك المحن وقامت عليك جحافل الشدائد فارفع رأسك ولا تفشل وليكن نظرك اليها للمنفعة لا لليأس لان الشجاعة الحقيقية هي التي لا تبالي بالاخطار المحدقة بها ولا الموانع التي تعرض لها فانها تبدد من امامها ما يتبدد وتقتحم ما لا مناص منه وهي تحتقره فان الشجاعة عند الاخطار ليست باقل ضرورة منها عند وقوع الشدائد . ومن لم يكن ذا بال ساكن ولم يفقه حقيقة مركزه ويعلم الذرائع التي تمكنه من المحافظة عليهِ لا يقدر ان يحتمل شدة المصائب الواردة عليهِ ولا ان يصلح سريعاً ما يكون قد حل بهِ ولا ان يتصور او يطلب مساعدات جديدة ولا ان يتبع بثبات واستمرار ما يكون قد عقد النية على طلبه وهذا الفشل يضر بهِ اكثر من الزلل والضلال

فالفشل انما يكون عن صغر نفس او قلة ايمان وهو يُعدم الرئيس العزم والبأس اللذين بدونهما لا قوام لمهمة الرئاسة وكأنه يحبسه داخل سور لن يقدر ان يخرج منه ابدًا فتراه فشلًا لحبوط مساعيه ولا ينجح لفشله ولولا ذلك لما وجد عمل يغلب قوة العقل ويقوى على الفرص والزمان اما الاعمال التي باتت مستصعبة

مستحيلة فانما هي تلك التي سبق الفشل فصورها للمخيلة والعقل كذلك او ان لم يلبِّ التائبون دعوتك بكل سرعة لا تتعجب منهم منذهلًا بل صلِّ لاجلهم واجتهد بذاتك او بواسطة غيرك ان تمحو من افكارهم هذه الاوهام الفارغة واياك والتكلم فيهم في غيابهم الا بما يسر بهِ خاطرهم

وقال القديس اغناطيوس اذا قاومك الاعداء في ما انت قائم بهِ من الاعمال الخيرية فانما ذلك دلالة واضحة على ان عملك من الله وحيثما كثرت المقاومات كثرت الثمار وليس من سير تسيره سفينتك افضل من جريها على عكس الرياح وما من احد يقدر ان يعمل عملًا يليق بمجد الله ولا يغيظ العالم او لا ترغي قوات الجحيم وتزبد له فمن اراد ان يعمل لله كثيرًا فلا يهتم بان يعد فطنًا حكيمًا في اعين الناس فان الرسل لو شاوروا في امورهم اهل الفطنة من الناس لما اقدموا على هداية العالم باسره ومن يخاف الناس خوفًا شديدًا فلا يعمل لله عملًا كبيرًا فاذا كان العمل غير ردي بذاته وتجاوزته خوف الاساءة الى بعض الناس او اتقاء محذور بشري فتكون قد تجاوزت شيئًا كبيرًا من تأديته لمجد الله فيما انت قادر عليهِ . ومن الواجب ان نعمل ما كان سهلًا كأنهُ غير سهل وما كان صعبًا كأنه غير صعب وذلك لكي لا نتقاعد من زيادة الطمأنينة او نفشل من اليأس فلنثق بالله كأن كل شيء منهُ وليس منا شيء البتة ولنعمل مع هذا كأن علينا كل العمل وليس عليهِ تعالى شيء منهُ ولما كانت نتيجة العمل تنسب الى الصعوبة لا الى السهولة وجب ان نعتبر ما نصنعه ولو قليلًا في جنب ذوي الفطرة الجموحة المنكرة للجميل اكثر مما نصنعه في جنب ذوي الاخلاق السليمة اللينة ولو كثيرًا

وسوف نسهب الشرح في هذه المبادي في مقالتنا في الصبر الواردة في آخر هذا الكتاب

الفصل السادس

في الشرط السادس الجوهري للفطنة البشرية وهو كتمان السر

الجزء الاول

في اهمية هذا الكتمان

١ ان كتمان السر هو احد الاسس الضرورية التي تُبنى عليها سياسة العقلاء .

ولا غروَ ان الكذب محرم غير ان افشاء الحقائق جماء لا يجوز ايضاً لان هذا الافشاء يضر بمصلحتك ومصلحة غيرك . فالنتيجة ان حفظ الحقائق يتطلب شيئاً كثيراً من العناية والدراية لانه قد قيل ان افشاء الحقائق هو قصد في القلب ومن بحت له بسرك كنت له عبدَ رقٍ ومن لم يكن اهلاً لكتم سره كان غير اهل للسياسة لانه بهذا يحرم نفسه من ثقة الناس بهِ ولا يستفيد شيئاً من مزاياه

وعليه فاياك ان تبوح بسرك لاحد واياك ثم اياك وان تفشي اسرار غيرك وجاء في سفر طوبيا (١٢) واما سر الملك فخير ان يكتم اه وسبب كتم السر في المشورات هو الاقتداء بحكمة الله العميقة الغير المدركة قال الحكيم لا يعرف احد علو السماوات ولا عمق الارض ولا قلب الملوك اه امثال (٢٥) والقلب الذي لا يكتم سره هو كالكتاب المفتوح يقرأه كل انسان على هواه « فالحكيم لسانهُ في قلبه » لانهُ يتكلم بدقة ورزانة واما « الجاهل فقلبه في لسانه » لانه يبوح بكل ما يفتكر به من غير تمييز . وحيثما لا يوجد سر لا توجد قوة لان « من لا يقدر ان يضبط لسانه فهو مدينة بلا اسوار » (امثال ٢٥) فمثل هذه المدينة يسهل الايقاع بها ودكها من كل جهة واذا كان الافراط في الكلام ضرباً من

الجنون فمعرفة الصمت شعار الحكمة وسمة الالوهية والقدرة وحيثما ترى عمقاً فهناك اسرار لا تكشف لان المكان لا يقدر ان يخفي بسهولة كل ما يلقى فيهِ ما لم يكن عميقاً فسيحاً « والمجنون نفسه لو عرف ان يصمت لاعتبر عاقلاً » اه امثال (١٧.) والعاقل يكثر التساؤل ويقلل الخطاب قال ابن سيراخ ان سئلت مرتين فجاوب بالايجاز معبراً عن الكثير بالقليل وكن كمن يعلم ويصمت (٣٢: ١١) فانك على هذه الصورة تكشف اسرار غيرك ولا تكشف لهم سرك فرغبة المرء في ان يظهر عارفاً تمنعه عن الوصول الى معارف جمة مفيدة فلنقس اذن كلامنا بالمقياس « فالجاهل يفشي كل ما في صدره والحكيم يصونه الى ما بعد » امثال (٢٩ : ١١) فالاول يشبه اناء فارغاً يعطي صوتاً قوياً واما الثاني فيشبه اناء ملآناً لا يعطي الاَّ صوتا خفيفاً ثقيلاً

ان فنالون الاسقف الشهير كان يقول للملك تلميذه : فليكن قلبك كبئر عميقة لا يستطيع احد ان يستقي منها سرك وكن محباً للحقيقة ولا تتكلم بما يمسها واحرص على ان لا تتكلم بها الا في وقت الضرورة ولتكن الحكمة على شفتيك كختم تغلقهما عن كل كلمة بغير آوانها

والقديس فرنسيس كسفاريوس كان يعتبر هذا المبدا وهو ان لا يخبر احداً شيئاً لا يريد ان يخبره بهِ لو اصبح يوما عدواً له

وقد نطق ميتللوس بكلمة لم تزل مسطرة في بطون التواريخ قال اني لو لاحظت ان جبتي عارفة شيئاً من سري لطرحتها عني وألقيتها في النار وكان الاسكندر يعاقب من يفشي السر عقوبة اشد من عقوبة من يأتي امراً منكراً واهل العجم كانوا يسجدون للسر كانه آلهة ترأس مشورات الملوك

عدد ٢

ان حفظ السر هو في الغالب فرض من فروض الذمة

يعتبر كتمان السر ١ً فرضاً الهياً كسر الاعتراف فان المعرفين ملتزمون حفظ السر حفظاً بليغاً مقدساً و٢ً فرضاً طبيعياً لما لا يمكن افشاؤه من دون الحاق

ضرر بالقريب بنفسه او بجسده او بخير لهُ او بصيته . . . و٣ً فرضاً عهدياً او اتفاقياً بدون كلام كما يكون عادة بين الروساء والمرؤوسين وبين الاصحاب بعضهم مع بعض والقديس توما يبرهن خلافاً لبعض اللاهوتيين على ان هذه الصورة « اني استودعك هذا الامر تحت سر الاعتراف » تلزم كسر الاعتراف نفسه وان لم يكن افشاؤها كافشاء سر مقدس ولكن افشاء السر يكون من طبعه اثماً فيقتضي حينئذٍ شيئين اهمية موضوع السر وخلو السبب الكافي لاشهاره اما الاسباب الكافية لاشهار السر على موجب تعليم اللاهوتيين فهي هذه ١ً وجوب شريعة حفظها اوجب من حفظ ذاك السر و٢ً ضرر كبير يلحق بالعموم او بالافراد و٣ً ضرر صاحب السر روحياً كان او مادياً و٤ً الضرر العظيم الملتحق بكاتم السر و٥ً رضى اعضاء جمعية لاجل خير الجمعية نفسها

هذا ويوجد نوعان من السر لا مسوّغ لكشفهما مطلقاً وهما سر الاعتراف وسر كشف الافكار فسبب الاول ان ادنى افشاء فيهِ كيفما كان يضر باستعمال السر المقدس وسبب الثاني هو ان هذا يقرب من الاول وانهُ واجب ولازم لحفظ الجماعات الرهبانية ونحوها

فالرئيس لا يحق لهُ عادة ان يطلب من مرؤوسه ان يكشف له السر الطبيعي لان الحقوق الطبيعية تتقدم على الحقوق الشرعية وقد يمكنه ذلك بعض الاحيان لاجل الاسباب المار ذكرها وقد قلنا فيها انها كافية وهذا انما يجوز لاجل خير نقصد تحصيله او شر نرغب في اجتنابه كعقوبة المذنب او تبرئة البار ولتكن في هذا الجهة المستحبة تساوي على الاقل الجهة المكروهة اي المستوجبة العقاب ان لم ترجح عليها ولتكن الغاية مستقيمة تقوية ولا يقال في هذا الباب الا الحقيقة المسندة الى شهادات قوية لا تلبس المبالغات او التأوّلات الكاذبة غير المرضية ولا تكشف هذه الاسرار الا لذوي الورع والرزانة

الجزء الثاني

في موضوع السر من جهة الرئيس

عدد ١

مكاشفات المرؤوسين وزلاتهم

١ً اياك وما يمسّ الاسرار المستودعة اليك في كشف الافكار سواء كان ما يمسها بعيد الاحتمال او قريبه او كان على وجه الاستقامة او بواسطة غيره والا فتحت سبيلًا لانهدام القانون والسلطة والثقة بالرؤساء وحملت مرؤوسيك على ان يبادلوك مثل اعمالك محاماةً عن انفسهم

٢ً احتفظ جيداً على مكاتيبك وسائر اوراقك التي استودعتها بعض افكارك وضعها في صندوق مقفل لئلّا يتعرض بعض الاخوة الغير الرزناء لقراءتها فلا تخلو من إثم عليهم ويتعرض كذلك أُولئك المدوَّنة اسماؤهم في اوراقك ومكاتيبك لخطر فقدان اسرارهم وضياع صيتهم

٣ً لا تبلّغ رؤساءك الكبار ولا الاساقفة ولا المدبرين ولا المرشدين زلات مرؤوسيك الا لداعٍ موجب فان القديسة شنتال اذ تتكلم في هذا الباب وتشير الى الحوادث الواجب فيها اعلام الاسقف بزلآت الاخوات تقدم هذه النصيحة قائلةً « للرئيسة ان تعلم الاسقف ببعض زلآت الاخوات الا ان هذا الامر كبير الاهمية ويدعو الى اعتبار خصوصي لان افشاء زلآت الاخوات للخارج بدون داعٍ موجب وتأنٍّ زائد انما يكون جهالة فظيعة وعاراً كبيراً . فيابناتي العزيزات لا تلتجئنَ الى الخارج ولا تشكينَ الى المرشد او الى الاب الروحي بعض الاخوات لاجل هفوات لا تستوجب في الغالب أدنى التفات فلا يكون من ذلك نتيجة الأَ خمول صيت الرهبانية وصيت رؤسائها ونحن من أشدّ واجباتنا المحافظة على شرف الرهبانية وعلى ذكرها العاطر بين الناس لانها عيال مختصة بالله جلَّ شأنه فاحرصنَ إذن على ذلك وانتبهنَ الى انهُ فرض عليكنَّ ثقيل يقضي عليكنَّ ثلمه بالتعويض عنه .

٤ً ولا ينبغي ان تنبه في حضرة الجماعة الى اتقاء هفواتٍ بلغتك سرًّا ولو لم تشهر اسماء المذنبين بل اكتفِ غالباً بالنصيحة السرّية والا وجب ان تستميح في ذلك من كاشفك عن سرّه ٠

٥ً لا تؤنب المكاشفين ولا تنصحهم وانت خارج ٍقلّيتك ولا يكن في كلامك تلميح الى شيءٍ من ذلك ٠

٦ً اذا دعت الضرورة الى مشورة احد الرهبان في ما يجب اتخاذه لاصلاح راهبٍ في بعض هفوات لم تبلغك بطريق الاعتراف ولا المكاشفة فأختر لذلك راهباً رزيناً رصيناً فطناً حكيماً ٠ فالقديس اغناطيوس إذ كاشف ذات يوم مثل هذا الامر اثنين من رهبانهِ فطن إلى انهُ كان يمكنه ان يستغني باحدهما عن الآخر فحسب ذلك ذنباً عليه وطلب معلم اعترافه فاعترف بهِ ٠

وينبغي في الاغلب ان نبقي اسم صاحب الزّلة عندما نطلب المشورة في اصلاحها تحت طي الكتمان ٠

٧ً ولا تعلم احدًا بما حكمت بهِ على بعض رهبانك إذا علمت انهُ يهان بذلك ولا تجعل لاحدٍ سبيلًا الى الوقوف على ما قالهُ لك راهب من رهبانك في اخيهِ سواء قال لك ذلك في معرض جوابه عن سؤَال القيته عليه أو كاشفك بهِ من نفسهِ ٠

عدد ٢

فيما يتعلق بشخص ثالث

١ً لا تغتنم الفرصة فتكتشف زلأت احد بمكاشفة آخر لك عمّا في نفسهِ والأ فيكون عملك هذا ضرباً من الحيلة والدسيسة ويحمل المكاشف على الظن بان اخوته يعاملونهُ بما يعاملهم هو بهِ فعليه يجب ان توجّه كل عنايتك الى الاخ الحاضر امامك وان تتجاوز كل من كان غائباً الأ في بعض حوادث وهي نادرة الوقوع

والاولى بك ان تتحاشى اكراهه على ان يذكر لك فيمكاشفتهِ اسم شريكه في الزّلة واذا أتى بذكره بدون سؤَال فينبغي ان تتظاهر بانك لم تسمعه او لم

تنتبه اليهِ ولا الى اسم شريكه وقد يُستثنى من ذلك بعض الظروف الهامّة . فانك على هذه الصورة تكتسب نفس الشريكين السمي والمسمّى ثم ان عادة الكنيسة في شدَّة تحريم السؤال في سرّ الاعتراف عن اسم الشريك تبين لك شيئاً مما يجب السكوت عن تسميته في كشف الافكار ايضاً وان كان هذا الكشف يحصل خارج منبر التوبة .

٣ً واحذر من كثرة التساؤل والتنقيب عمّاً لا يتعلق بالمكاشف نفسه لئلّا تضطره الى ان يبيح لك باسرار لم يستودعها الاّ تحت طي كتمان السر ولا تطمع بعلو مركزك او بسطوتك ولا في بساطة قلب البعض من رهبانك فتنقّب فيهم عمّاً لا يعنيك والا فانهم إذا تذكروا فيما بعد صفاء نيتهم بمكاشفتهم اياك عما في نفوسهم من الامور الغير الضروريّة ورأوا انهُ وشى بهم اليك من كانوا وشوا بهِ هم انفسهم يندمون على صنيعهم ويقصدون ألاّ يعاملوك في المستقبل الا بالمكاتمة والحيلة . ولهذا وجب عند قبولك المكاشفة ان تتخذ لك دستوراً قاعدة معلمي الاعتراف اعني ألاّ تسأل إلاّ عما كان ضرورياً او جزيل الفائدة .

٤ً نعم انهُ يجب على الرئيس ألاّ يسيء الظن في مرؤوسهِ وألاّ يكون سريع الظن والشك والتصديق وربَّ حوادث هامّة كان باب الظنون فيها رحباً مفتوحاً حتى لا يبقى سبيل الى البحث والتنقيب فينبغي حينئذٍ ان يتفاوض الرئيس وبعض المرؤوسين الممتازين بالورع والتعقل في سلوك من كان محلّاً للمظنة والريبة وفي ما ابدى من الحوادث المشككة ومن الضروري الواجب ان يطالب منهم كتم سر هذه الحوادث كتماناً شديداً .

٥ً واذا اعلمك احد بزلّة مرؤوسك فعليك ألاّ تبوح باسمه ابداً ولا تشير اليهِ بكلمة تدلُّ عليهِ . واحذر خاصةً من ان تطلب اليهِ ان يقابل صاحب الزلّة ويسألهُ عنها امامك الا اذا ما دعت الى ذلك ضرورة كبرى لان ذلك من الاعمال التي تخالف مبادىء الفطنة التي لا يجهلها الأميون ولا جرم انها تلقي بين الاخوة الشقاق والشحناء فلا ينبغي لك في مثل هذه الظروف ان تغض الطرف وترقب الفرص المناسبة فتصطاد الطريدة في وكرها .

العدد ٣

في السياسة الداخلية والرسائل

١ً اطوِ كشحاً عن المسائل التي جرى الحديث فيها بين الآباء اصحاب المشورة وان لم يستصوبوا ان يطلبوا منك كتمان السر كما تطلبه انت منهم وطلبك هذا حق وصواب

٢ً اذا كان بودّك وعزمك ان ترقي احد الاخوة الى وظيفة ما فاياك حينئذٍ وان تدع احداً يعلم من ذلك شيئاً قبل اتمامه والاَّ جلبت على نفسك الحسد والتنديد ولاسيما إذا أُلجئت الى تغيير عزمك فأي حزنٍ وانزعاج لا تسببه لذاك المرشح ولكن ان شئت ان تطلع على ملاحظات الاخوة فيهِ تطارحهم الكلام في ذلك ولو بالتلميح فيبدو لك ما تطلب ·

٣ً واذا كان في عزمك القيام بعمل جديد فاعلم ان لكل جديد مقاومة اذ العقول الملتوية والفاسدة تكره الاعمال الجديدة وتخترع لمقاومتها اسباباً شتى فعليهِ متى اظهر الانسان قصده من هذا القبيل جرَّ على نفسهِ التنديد وان حبط كان حظه اتعس فخيرٌ لنا اذن ان نقتدي بالعناية الربانيــة التي لا تزال تعلق افكار العباد بحبال الرجاء

٤ً لا يسوغ لك ان تقرأ او تقرّيَ رسالةً ارسلهـا مرؤوس الى رئيسهِ الاكبر او الرئيس الاكبر الى المرؤوس لان من اقدم على اعتراض هــذا السبيل اشبه النَّهَبَة والخَطَفَة وهو لا يدري

٥ً اما حق الرئيس بان يفتح رسائل رهبانه العادية فامر مُسلم بهِ ويطلبـه الخير العام ولكن فليكتفِ الرئيس بان يفتح الرسائل الاهلية نصف فتحـة ليرى امضاء الكاتب او اسم المكتوب اليهِ ليس غير وهذا الامر يكون اشدّ ضرورةً اذا كان الراهب الكاتب او المكتوب اليـهِ من ذوي الفضل والوقار كما نبــه الى ذلك لانيسيوس واوصى الرؤساء بان يسرعوا بارسال الرسائل الصادرة وبتوزيع الواردة على اصحابها

٦ً واما الرسائل التي يرى فيها مسائل ذمية فعليه الاَّ يتدخل فيها الاَّ عنـد

الضرورة لانهُ لولا الثقة بفطنة الرئيس ومجانبتــه ان تدخل لما كان احد يجسر ان يكتب الى راهب شيئاً عن امرٍ ذميٍّ قصد ان يستشيره فيهِ فليس للرئيس في مثل هذه الاحوال الا ان يطلع على امضاءات تلك المكاتيب او على اول سطرٍ منها اما اذا رآها تتكاثر على غير داعٍ موجب فله ان ينبه راهبه الى ذلك واذا كان هناك سبب للشك في استقامتها فله ان يتلو بعضها ويحفظ السر حفظاً شديداً

٧ً اياك وان تفاوض الاخوة في مضمون رسائلهم وقت التنزُّه حذراً من ان يتوهموا فيك انك غير كتّام للسر

العدد الثالث

في موضوع السر من جانب المرؤوسين

عد ١

في الامور التي توجب المهمة او المصلحة كتمانها

١ً ان الرهبان معلمي الاعتراف لا يجهلون انهم يقترفون اثماً مميتاً بادنى اهمال يصدر عنهم في كتمان سر الاعتراف

فالقديس اغناطيوس حرم بصراحة العبارة على مرشده يعقوب اغيا ان يفوه ببنت شفةٍ عن اعماله وفضائله اما الشيخ الفاضل فلما رأى انه لا يتمالك كتمان فضائل القديس العظيمة كان يقول مراراً كثيرة ان اغناطيوس رجل قديس وانه قديس عظيم ولما عرف اغناطيوس بذلك اغتاظ وأبى ان يعترف له بعد ذلك وأمره بعمل كفارة وبتنبيهٍ من مرشده عند اتمامها حتى يكون احرص على كتمان السر منه فيما بعد والا يبادر الى مدح الاخوة المعترفين له

٢ فعلى الرؤساء المتزلين عن مناصبهم ان ينبذوا من بالهم كل الاسرار التي استودعهم اياها مرؤوسوهم وكل ما اكتشفوه من الزلات والنقائص وما كانوا اقروه في افكارهم عن البعض والاّ يأتوا ابداً بذكر مقاصد الرؤساء الكبار ورغباتهم في بعض الاعمال الهامة والا يفوهوا بكلمة تجرح المحبة الاخوية او تضاد الفطنة الرهبانية ويجب الاحتراس من هذه الامور خاصةً في خلال محادثاتهم

مع الاصحاب فانها تؤدي كثيرًا الى كشف ستائر المستورات ورفع كل حجاب .

٣ً ان ناصح الرئيس ليس له ان يذكر شيئاً من نصائحه ولا من اجوبة الرئيس ما لم يظهر لهُ انـهُ بذلك يبرر الرئيس ويسكن خواطر المرؤوسين ولا ينبغي ايضاً للناصح لن يأتي بذكر شيء مما كان يكاشفه بهِ الرهبان من احتياجاتهم وهمومهم

٤ً فليتنبه المشيرون الى مـا أشرنا اليهِ وليعلموا ان قبول الاسرار سهل ومستحب واما كتمانها فيصعب على الاكثرين

٥ً ومن جملة واجبات البواب الاَّ يخبر احدًا عمـا دخل من الرسائل وخرج منها على يده ولا عن عنواناتها لانه قد يصدر عن هذه الاخبار تأوّلات واراجيف كثيرة بين الاخوة وقد يرى الرئيس بعض الاحيـان الامساك عن تسليم بعض الرسائل الى اصحابها والاوفق حينئذٍ الاَّ يعرف بها اصحابها وهكذا حكم الرسائل الصادرة الى الروساء الكبار والواردة منهم فلا يحسن بعض الاحيان ان يعرف بها احد الاَّ اصحابها فقط

وقد سبقنا فنصحنا الروسآء في لزوم حفظ رسائلهم واوراقهم السرية تحت قفل باحتراس واجتهاد والان نقول للمرؤوسين ان من فتح كتاباً معنوناً باسم الرئيس يرتكب اثمًا مميتاً باجماع اللاهوتيين ومثله من قرأ الرسائل الملقاة في النار لتحترق او المزقة لئلَّا لا تقرأ وهذا فيما لو ظن القاريء ان في ذلك اسرارًا هامة او شخصية وكما انه لا خلاف في السرقة ان كانت مع كسر الابواب او بدونه هكذا لا خلاف في كشف الاسرار ان كان بفض الرسائل ام بدونه

ثانياً

في الامور التي لايتأتى كشفها بدون ثلم حقوق المودة او المحبة الاخوية

١ً . قال القديس اغوسطينوس مخبرًا عن والدته القديسة مونيكا انها كانت تستودع كثيرًا من الاسرار والشكايات يكشفها لها اناس متخاصمون ولم يكن ليخرج من فيها كلمة تمس بحقوق الاسرار والمحبة فهذا نموذج يجب ان يقتدي بهِ

كل من اتخذ له اصحاباً فكان مشتكى ضيمهم ومستودع اسرارهم

٢ً وتقدم في العدد الاول من هذا الفصل انهُ لا يسوغ للرئيس ان يسأل او يبحث لغير داعٍ موجب عن الاسرار الطبيعية وعليهِ فالراهب الذي يبوح لاقل من هذا الداعي بسر طبيعي لرئيسهِ يأثم بقدر اهمية السر ومن الدواعي الموجبة لكشف السر احياناً شرف الرهبانية والعناية بحفظها وخير صاحب السر الروحي ودعوته الرهبانية

٣ً يجب على كل راهب الاَّ يبوح بسر الدير للخارج ولو ظهر لهُ ان ذلك خفيف فالقديس اغناطيوس آمر احد الادباء الفضلاء بان يجلد ذاتـه مدة تلاوة مزامير ثلاثة لانهُ كان اخبر احد الخـارجين بان احد الاخوة عرته الحمى بشدة وانه يغشى عليه فمن اراد اذن ان يكتسب لنفسه اصحاباً خارجين فلا يكتسبنهم بامتهان اسرار الدير

٤ً وهذه الفطنة في المحافظة على كتمان السر لا يجب ان تكون غير مستثناةٍ في سر الاعتراف نفسه فقد تقدم ان القديسة شانتال قدمت نصيحة للروساء في هذا الشان واعقبتها باخرى للمرؤوسين قالت على المرؤوس اذ يتكلم بمـا في ضميره الا يأتي بذكر غيره ابداً مـا لم يحمله على ذلك مجد الله وخير القريب والراهبة اذا كانت الشحناء هاجتها فهمّت ان توقع باحدى اخواتها فلا يجب ان تفوه ببنت شفة قبل خمود نارها والاَّ اغاظت الله والقريب لا محالة وقد جاءَ عن احدى الراهبات انها بينما كانت مرةً مغتاظةً من رئيستها هي وجميع جمهور الدير طلبت من مرشدها ان يعرفها فشكت في الاعتراف من الرئيسة ومن اكثر الاخوات وبعد هدوها وسكون جاشها اعترفت لمرشد آخر فطن بانهـا احكت في اعترافها السابق ما يشين رئيستها وسمعة الدير فاوجب عليها مرشدها هذا اصلاح هذا الضرر بالصيت وتكذيب نفسها عند ذاك المرشد ففعلت هكذا فلتحترص اذن الراهبات بالا يتكلمن في الاعتراف الاَّ عن انفسهن

٥ً والرهبان الذين يتفاوضون بسهولةٍ ولغير داعٍ في احاديث تتعلق بزلات اخوتهم ونقائصهم فان لم يخطئوا ضد العدل فانهم يخطئون ضد المحبة والفطنة ولعمري أمن الصواب ان يفقد بعض الفضلاء ذوي الصيت الشهير والاعتبـار

العظيم ما يكونون عليه من هذا الوجه في دقيقة واحدة. نعم ان اعين الناظرين لم تكتشف عيوبهم ولكن اذان السامعين بل السن العاذلين والحاسدين قد كشفت الستار عن محيا الاسرار .

نعم ان ما قررناه في هذا الصدد عن وجوب المحافظة على السر هو مختص بالمرؤوسين غير ان للروساء فيه قسماً كبيرًا واخصه السهر على مرؤوسيهم للقيام بهذا الفرض

العدد الرابع

في كيفية كتمان السر الشرعية العادلة

١ً

قابل الباحثين بالاسرار بالصمت والرزانة

قلّما ندم الانسان على ما سكت عنه ولكنهُ يندم غالباً على ما فرط منه من كثرة الكلام فهذا مبدأ قلَّ من يجهله وقلَّ من يتبعه فان السكوت مخدع الفطنة ومن حقوقه الا يدخله ايٌّ كان · قال الحكيم «من يحفظ فاه ولسانه يحفظ من المضائق نفسه» (امثال ٢١ : ٢٣) فرب كلمة فارطة عن سهو وغفلة اقتضت ندامةً طول الحياة فاذا اضطررت لايضاح فكرك لبعض الناس فاياك والتفريط في الكلام لان الاخطار فيه كثيرة وقريبة ومن كشف عن جميع اسرار قلبه فرّط ببهجة ثمينة اولته اياها الطبيعة خفيةً عن ابصار الناظرين ودفع الى اعدائه الالداء اسلحةً قاتلة · قال ساويدرا : (ف: ٥٥) ان الشفاه هي نوافذ القلب فاذا فتحتها بانَ كل ما فيه وقال لابروبار «ان في اباحة السر ذنباً على صاحبه الاول لانهُ هوَ الذي افشاه في المبتدا» فهذا المبدا وان لم يكن صحيحاً على اطلاقه غير انهُ لا يبعد في الغالب عن الصواب فقد يوافق ان نظهر ما في انفسنا اظهارًا حقيقياً لمن نتأكد خلوصهم لنا وامانتهم على الاسرار اما من لم يكونوا كذلك وهم سهرانون يقظون على ان ينتقدوا سيرتنا واعمالنا فليس لنا ان نعاملهم الاَّ كما يعاملوننا اي معاملة قواد العساكر المتحاربة الذين يفرغون كنانة الجهد في الروية والاجتهاد والدهاء وبعد اذا ما وقعنا بحبائلهم فليس لنا

ان ناوم غير انفسنا لاننا عرفنا الخطر فالقينا بانفسنا فيه والحال ان اهل الدراية والدربة والحنكة هم الذين لا يثقون بسهولة باي كان واما نحن فنكون بعد علمنا بخيانة الخائنين وخديعتهم كشفنا لهم اسرارنا والقينا عليهم اتكالنا

فاذا شئت اخفاء امرٍ لا تأتِ بذكره في حديثك لا صراحة ولا تقديرًا ولا تبنِ عليهِ احكاماً لان في مثل هذه الاحكام دليلًا على باطنك وافكارك قال لابرويار «واذا كان حديثك مع اهل الدهاء الذين يرومون ان يسمعوا كثيرًا ولا يتكلمون الأ قليلًا فتكلم اقل منهم واذا الجئت الى كثرة الكلام فلا تضمنه من المعاني الأ قليلًا» ان في الصمت لعلماً كبيرًا واما العلم الاكبر فهو ان لا نتكلم كثيرًا عند الضرورة مع من ليسوا من اهل الرصانة او مع النساء خاصةً ولا نضمن كلامنا الأ معاني قليلة بسيطة

وان سئلت عمَّا لا يمكنك الجواب عنه فحذار ان تفوه بما لا يجب كشفه وحذار ايضاً من الكذب فان فيهِ عارك وسقوط اسمك وفوق ذلك اهانة الله تعالى لان كلمة واحدة تكفي للخفض من شأن الرئيس وثلم صيته كيف لا وقد تقرر ان في المقامات السامية خاصةً لا يكون الاعتصام بالحقيقة الأ رفع الشان وتعزيز القوة واما الكذب فيدكها دكًّا . وما احسن ما جاءَ في هذا الباب عن فرنسيس الاول ملك فرنسا قال «اذا فقدت الامانة فيجب ان توجد في قلب الملك» وقال ايضاً ايزوكرات لانكولاوس «ان كلمة الملك البسيطة هي احق بالصدق من يمين العبد اه . واما اذا ضاق بك المقام وضايقك الحضور بالسؤال ورأيت انك متردد بين ان تكذب او تبوح بالسر فاجعل لك مخرجاً اذ ذاك في الا تجيب لا بنعم ولا بلا فينتبه جليسك ويكف عن السؤال او لا يقدر ان يؤول جوابك هذا بما لا ينبغي وان لم ينتبه لطريقتك هذه وبقي على سؤالهِ فاظهر التعجب من سؤالاته والقِ عليهِ غيرها وان لم تنجح بهذه الواسطة ايضاً فلا تجبه على شيء من سؤاله بل بيّن لهُ بصريح العبارة ان سؤاله لم يصادف قبولاً ولكن لا تجافه بل لاطفه بقدر ما يجب لمقامه . والحذر من كثرة السؤالات التي لا يقصد بها سوى الاكتشاف على خفايا القلب والحذر ايضاً من الاجوبة الملتبسة فان السائل ياخذ منها احياناً كل ما يرغب فيهِ ويتمناه

٢

قاوم الخبثاء بالاستقامة لا بالغيظ

ان احسن واسطة بها تنجو من حبائل الخبثاء الذين يعتقدون انك خبيث مثلهم هي ان تنطق دائماً بالصدقِ وتسلك سلوكاً مستقيماً وان ترقب كل اعمالهم فرداً فرداً فاذا رأوا استقامتك يندهشون ويغيرون افكارهم فيك بل يقلعون عن مقاصدهم الخبيثة ولعمري ان الفخاخ تنصب للثعالب الماكرة لا لطير الخطاف المعروف ببساطة القلب

فان الرجل الماكر الذي يبغض رهبانيتك او يرغب في اسقاطك عن منصبك لا تظنه يعمل دائماً بما يتظاهر بعمله فكثيراً ما تراه يسعى وراء غاية او غرض وما سعيه الاً خدعة للناظرين فانهُ يرمي بعض اسهم افكاره في الهواء فتتطاير افكاره اليها وتشتغل بها فيعمل حينئذٍ ما لا تظنه يعملهُ ابداً فيجب اذن عليك ان ترقب ما يخفيه عنك اكثر مما يبديه لك وما يفعله فعلاً اكثر مما ينطق به قولاً ولا غرو ان الماكر يكون عادةً ماهراً درباً يعرف متى يغض طرفه ويخفي مقاصده لانهُ يعتقد ان الطائر الذي يجري في طيرانه مستقيماً يسهل قنصه بخلاف الذي يتقلب وينحرف ومن المحقق ان الماكر اذا اراد ان يضرُّ بك فلا تنقصه الفرصة لانهُ يجدهـا بسهولة او يوجدها لان المكر ينفذ في اصغر الشقوق كما ينفذ النور

ومما يؤيد ما نحن فيهِ ويزيدنا تدبراً لهُ حيل الكتبة والفريسيين على ربنا يسوع وما اوردوا عليهِ من السوألات التي تدل على مكرهم واجوبته جل جلاله التي تسطع فيها الحكمة الالهية والتي بهـا كان يخذلهم ويبين اسرار مكرهم بدون ان يمس وجه الحقيقة بشائبة ولعمري ان مـا عومل به المعلم يعامل بهِ تلاميذه

ولما كان خصومنا يرقبون سيرتنا كما نحن نرقب سيرتهم ترتب علينا ان نجتهد في ان يعدنا الجميع ذوي بصيرةٍ وحذقٍ في اعمالنا لا ذوي مكر وغشٍ ولا بأس اذا عدَّنا الناس مخدوعين ولم نكن مخدوعين ومن الظاهر ان من لم يكن

حاذقاً لا يقدر ان يسوس الرعية وليس الامر كذلك في من لم يكن ماكراً خداعاً فالحذاقة اذا ما اقامت في حدود الفطنة كانت من المناقب الحسنة واما اذا تجاوزت هذه الحدود فبلغت الى حد المكر والخداع فتمسي من الرذائل التي لا تحتمل . فان المكر عملة زائفة والماكر هو المزيف الذي يبلبل نظام الالفة البشرية ويبيد اعظم الوسائط المفيدة لنجاحها وهي الثقة بالاستقامة لانه لا يعدّ احد دقة نظره في اعماله الأ رداءةً ولا فطنته الأ رياء ولا حرصه في تدابيره الأ خداعاً ونفاقاً فالحذاقة ليس من شأنها ان تكون سماً قاتلاً بل دواء يصون من خداع الماكرين . والاستقامة لا يجب ان تكون سذاجة ولا الحذاقة مكراً ولعمري من لا يأنف من الاعوجاج ولا ينفر منه ومن لا يحب الاستقامة ولا يميل اليها ومن لا يرى ان شهرة الانسان بالاستقامة تعلي شأنه وتكسبه ثقة الجميع بهِ واما اذا عرفه الناس بالمكر والخداع فهذا يخفض كثيراً من قدره عندهم ولا يكسبه الأ خسران الثقة لفقدان الامانة

ومن المعلوم انهُ لا سبيل لنا الى الفطنة والامساك عن الكلام وعن افشاء السر الأ بكبح الاهواء لان الاهواء هي المنافذ التي يدخل منها العدو للاستيلاء على النفس . فالدسائس التي يستعملها اهل الدهاء لاستطلاع الاسرار الخفية هي متنوعة فالغضوب يقاومونه في كل فرصة ويظهرون لهُ المكابرة والعدوان فيستشيط غيظاً ويغيب احياناً عن الهدى فينطق بكل ما عنده ويبوح باسراره فهم على هذه الصورة يأخذون الانسان باضعف امياله فيملقون من يحب التمليق ويغضبون من يميل الى الغضب ويطنبون في مدح المتكبر ويجارونه على افكاره حتى انهم يفضلون رأيه على رأيهم ويظهرون انهم حيارى لا يهتدون الى الصواب بدونه فيظهر لهم افكاره ويبين الطرق التي يستعد للسير فيها . ولهذه الغاية ترى من الناس من يتظاهر بما ليس فيهِ فيكتسب رضاك بمدحه او ذمه ما يريد ان يكتشفه من اسرارك وترى هذا يضايقك بطلباته الساقطة عليك كالمطر الهاطل حتى لا سبيل الى التخلص منها وآخر يتجاهل ولا يصغي لبعض كلمات تقولها متضمنةٍ اسراراً فيحملك بذلك على المزيد من الايضاح وقصارى الكلام ان لذوي الدهاء وسائط وحيلاً للاكتشاف على خفيات القلوب كما ان لعلماء طبقات

الارض ادلةً ووسائل يتوصلون بها الى معرفة التربة وما يطلبونه منها

وعليهِ فاحترص اشد الاحتراص ان تتأثر من شي مطلقاً وان تبدي السرور او الكآبة بل اكبح كل هذه الشواعر فان بعض الناس يسكتون عمَّا لا يريدون افشاءهُ ولا يظهرون بالفعل ما يرغبون في اخفائه ولكنك ترى على وجوههم جليًّا ما هو مكنون في صدورهم فكاذك تسمع صوتهم ولو لم يحركوا شفاههم او تشاهد عياناً ما يظنونه مخفياً في طيات قلوبهم كما يشاهد ما تحويه الآنية الشفافة

قال فينيلون لتمليذه تيلياك لا تكن عابس الوجه مقطب الجبين مثل الذين يتظاهرون بانهم خزنة الاسرار العميقة ولا يظهر عليك ابدًا انك مؤتمن على بعض الاسرار بل الزم حالةً طبيعية كرجل قلبه بين شفتيه . تكلم بحريَّةٍ واستقامةٍ في ما ينبغي ويعنيك الكلام فيهِ ولكن اذا بلغت الى ما لا ينبغي او لا يعنيك فاصمت بدون تصنع ولا ارتباك ولا تكن من اولئك الذين يتظاهرن بانهم حملة اسرارٍ خطيرة وهم لم يُستودعوا منها شيئاً او انهم يعلمون امورًا معلومةً عند الجميع ولا يعرفون عند مسيس الحاجة كيف يكتمون سرًّا ولو كان عظيماً اه (تيلياك)

الفصل السابع

في الشرط السابع للفطنة الرهبانية وهو الحصول على منبهٍ خاص الى النقائص

١

ان النصيح يفيد الرئيس بنصيحته اكثر مما يفيد سائر الاصدقاء

لعمري ان اهم شيء تجب على الرئيس معرفته انما هو قدر نفسه وكيفية سياسته وما فيها مما يستحق المدح او الذم وما تقوله الجماعة فيه وما يجب ان يقوله

هو عن ذاته فالداء اذا ما عرف شفي نصفه والجراح اذا خفيت يتعذر اندمالهـا ولا غروَ ان هذا ما حمل ابن سيراخ على ان يقول « من يأخذ افكاري بالسياط وقلبي بتأديب الحكمة بحيث لا يشفق على جهالاتي ولا تهمـل خطـاياي لكي لا تتكاثر جهالاتي وتتوفر خطاياي فاسقط تجاه اضدادي ويشمت عدوي بي (٢٣ : ٢) وقال الحكيم : « الذي يحب التأديب يحب العلم والذي يبغض التوبيخ بليد · امثال (١٣ : ١) وقال ايضاً (٢٥ : ١٢) : الموبخ الحكيم للاذن الواعية قرص من ذهب وحليٌ من فضة ولا شك انهُ ضربٌ من الحماقة ان يظن الانسان نفسه بلا نقص ولا يقبل التوبيخ · قال الحكيم « فاذا مشى الجاهل في الطريق يقول لكل واحدٍ انه احمق » جامعة (١٠ : ٣) وقال ابن سيراخ (٨٠) : لا تخاطب الجاهل فانه لا يحب ان يسمع الاَّ ما يلذ له

فمن الدهاء العجيب ان محبة الذات لا تدعك تكفر بذاتك بل تجعلك متشبثاً بكل اعمالك ومسروراً بها وتريك ان الجميع مسرورون بك كما انت مسرور بذاتك وقال العلّامة الشهير بوسويت : ان جميع الناس عالمون بجهالاتنا ونحن وحدنا نجهلها وانما يمنعنا عن معرفتها شيئان الاول نظرنا اياهـا عن قريب والناظرة متى صادمت المنظور عن قرب تمتزج بهِ فلا تميزه جلياً وهكذا نحن فاننا متعلقون بذاتنا تعلقاً لا نقدر معه ان نبصرها ابصاراً واضحاً بملء النظر والثاني وهو الخلل الفاحش في نظام اعمالنا اننا لا نريد ان نعرف ذاتنا ولا ننظر اليها الاَّ من الجهة الحسنى واننا نود ان نرى ظلنا او صورتنا وهي على شيء من الكمال اكثر من ان نرى ذاتنا ونحن على شيء من العيب والنقص

فهلمَّ اذن ايها الصديق الحقيقي (وهل من صديق حقيقي على وجه البسيطة) هلمَّ وارني نقائصي التي لا اراها ارني اياها ولا تخفِ عني عيوب عقلي فاني اصلح بمساعدتك ما يمكن اصلاحه اما ما لا اقدر على اصلاحه فيكون سبباً لكبح كبريائي فتعال اذن ايها الصديق الحقيقي تعال ولا تدعني اهمل شيئاً مما استطيع ولا اطلب امراً لا اقدر عليه حتى يكون قسطاس حياتي العقل والحكمة وقياس اقدامي على العمل مقدار قوتي لا غير اه (عظة في محبة الاخوة)

والقديس برنردوس يقول بلسان البابا اوجانيوس « ياسعادتي ويا لطمأنينتي

لو كنت ارى حولي جنوداً امناء قائمين على حراستي ومحافظين على حياتي فبمثل هولاء اثق واليهم اسلم افكاري ولهم ابوح بجميع اسراري وافتح خزائن قلبي كما افتحها لنفسي فانهم ان شردت عن الصواب انذروني وارجعوني اليهِ وان غضبت اطفأوا نار غضبي وان تناعست او تقاعست ايقظوني واخذوا بيدي واجعل لهم دالةً عليَّ يقتدرون معها ان يخفضوا من كبريائي عند الفرص المناسبة ولا ينقصوا من وقاري واحترامي شيئاً ويهدون خطواتي اذا ما تجاوزت حدود الفطنة ويمكّن عزمهم ورسوخهم على الاستقامة اراداتي المتقلبة فتقوي شجاعتي القلقة ويحملني ايمانهم وقداستهم على عمل كل ما هو مقدس وشريف ومحبوب وعفيف (من اعتباراته ك٤ ف٥)

ومن المبادي المسلم بها عند جميع ارباب السياسة انهُ ليس من حكومة تثبت ان لم يكن لها شرائع لاصلاح المذنبين او وسائط للانتقاد وامر اصلاح العيوب في المملكة ينبغي ان يتولاه من يكون لهم شيء من السلطان لكي يستطيعوا مقاومة الملك او بالحري تأييد اركان مملكته · فداود الملك كان يعتبر توبيخ البار لهُ كنعمة خصوصية ويرفض الطيوب التي كان يريد الخاطي اي المداهن ان يسكبها على رأسه (مز ١١١)

وقال القديس امبروسيوس : اني احب الملك توادوسيوس لانه كان يطرح عنه التمليقات ويسمع برضى وسرور التنديدات والتوبيخات (في موت توادوسيوس) وكان ايزوكرات يردد على مسامع نيكوكليس هذا الكلام قائلًا : لا تعتبر ان اصدقاءك الامناء هم الذين يصوّبون كل اقوالك ويمدحون جميع افعالك بل هم الذين يذمون عيوبك » وكان لويس الحادي عشر يتشكى في بعض الاحيان قائلًا : ان كنوز مملكتي لثمينة لكن اثمنها هو الصدق وهو مفقود » وسئل يوماً احد الحاذقين بفن السياسة ما هو المبدأ العام لحسن السياسة فاجاب : دع صديقك ينبهك الى عيوبك بحرية واستقامة وحكي ان ترايانوس سلم رئيس خفره سيفاً وقال له خذ هذا السيف فاذا رأيتني سالكاً بالاستقامة وبما يؤول الى خير الشعب تقلده لحراستي والمحافظة على رأسي واما اذا رأيتني سالكاً بخلاف ذلك فاستلّه لقطعه · واما اسكندر الكبير فطرد من بلاطه

واحداً من الفلاسفة لانه لم يبكته على شيء . وقال له اني بلا شك لست معصوماً من الخطــا من حيث اني انسان وانت من حيث انك فيلسوف لا يفوتك ان تراقب خطاياي ومع هذا لم تبكتني على شيء منها فدلني ذلك على نقص في محبتك لي فمالي ولك اذن اخرج عني

فيا ترى من هو هذا المنتقد او هذا الحارس الصديق الامين والنصيح المخلص للرئيس ؟ ان هو الاّ المنبه الذي يجب كما قال بسويت ان يكون عنده اعز من عينه نفسها لانه يريه غالباً ما لم تره اياه عينــاه واذا اوجب الامر وجرح بلسانه الرئيس فعلى الرئيس ان يذكر قول الحكيم : امثـال (١٧ : ٦ «جروح المحب مأمونة وقُبل المبغض خائنة »

فجميع الرهبانيات السالكة على النظام المتقن المقرر تعين للرئيس نصيحـاً رسمياً . قال القديس بونا ونتورا كل من اراد من الرؤساء ان يسلك في رعيته سلوك امين حكيم ينبغي له ان يحجب سلطانه بازاء سلطان سري يقيمه ليسهر عليه ويبكته على جميع نقائصه وهذه القاعدة بل الفريضة لا تستثني احداً حتى الحبر الاعظم نفسه » (ستة الاجنحة ف ٢)

وقالت القديسة شانتال ليس من العدل والصواب ان تحرم الرئيسة التنبيه والاصلاح كما يأمر القانون لانها انسان غير معصوم من الذلل والسقوط كاحدى اخواتها (الاجوبة)

فناشدتك الله من تراه يصدق ان ذلك الذي يلتزم ان يفيض مشوراته ونصائحه على الجميع يحرم نفسه من انسان ينصحه ويصلح عيوبه وهو المثال والقاعدة التي يجري عليها غيره ورب عيبٍ واحدٍ منه كان ذا نتائج عظيمة الضرر . او هـل يليق ان يتناقل الكثيرون مذمة الرئيس في بعض نقائص ربما هي غير صحيحة وهو نفسه لا يدري بشيء منها . فكيف يداوي مرضه ولا علم له بهِ او كيف يصلح سيرته وهو لا يدري ان فيها عيباً .؟

فكثير من القديسين ولاسيما القديس برنردوس والقديس فرنسيس الاسيزي والقديس كارلوس بورومي والقديسة تريزيا اتخذوا لهم نصحــاء سريين ليرشدوهم الى الصواب ويرقبوا اعمالهم ويأمروهم باصلاح ما اختــل منها عند

الاقتضاء .

ثانياً

ان من يملق الرئيس هو من ألدّ الاعداء واكبر الخونة انما التمليق تجارة كذب ركناها انتفاع البائع وكبرياء المشتري

اولاً

في الخير الذي يطلبه المداهن لنفسه

لا يداهن احد بدون غرض من الاغراض لان من يقصد الخداع لا يقصده لاجل ذاته بل يقصده ليرضي المخدوع وما هذا الارضاء الاّ لاجل منفعة يرغبها لنفسه ولما كانت المداهنة تشبه كثيراً بالخلوص القلبي والاحترام الحقيقي كانت تخدع الكثيرين حتى ذوي الفطنة والخبرة وبعد فان اشد مباينة بين انسان وانسان انما تكون بين الصديق والمداهن فالصديق يطلب خير رئيسه والمداهن خير نفسه ذاك يحب رئيسه محبة حقيقية فعالةً مفرغاً ما في جهده باظهار الاعتبار المعيق له وهذا لا يحب الا نفسه ويضحي كل خير لرئيسه ولسائر الجماعة حباً لخير نفسه ومصلحته الخصوصية . والصديق يجتريء على ان يبيّن عيوب الرئيس في حضرته ولكنه يفعل ذلك في السر بكل تهيب واحترام غير انه لا ينقطع عن مدحه في غيابه بل يثني عليه وعلى اعماله . اما الملّاق فيداهن الرئيس في الحضرة ويندد به في الغيبة ويزدري به ويقرعه ذاماً جميع صفاته ومحامده ويفتخر ايضاً بانه مستولٍ عليهِ قابض على ناصية اهوائه يقوده كيفما شاء . نعم ان الصديق الامين قد يرى احياناً ان يذكر شيئاً من مناقبه وفضائله السامية تشديداً وانهاضاً لهمته غير انه لا يذكر الاّ ما كان حقاً وحقيقاً بالذكر اما الملاّق فلا يفتأ يطنب بمديح صاحبه ذاكراً اعمالاً لا تذكر او عازياً اليه ما ليس له او مورداً في تقريظه ما يوجب المذمة والطعن واقول اخيراً ان ما من احد يحب رجلاً لا يعتبره ولا يمكن المداهن ان يعتبر من يراه راضياً بالمداهنة عاملاً بها لعلمه بان المداهنة هي ان تنسب الى الرجل ما ليس فيهِ من الفضائل وتعذره على ما فيه من المساوي .

ثانياً

في كبرياء الممدوح

ان الانسان لا يحب الحقيقة التي تخفض من قدره ولا يستهجن كتانها عنه ويود الا تبلغ مسامعه ويتمنى ان تبقى عيوبه مجهولة ويسره ان يشهد له الجميع بانهم لا يرون فيه عيباً ويشتهي ايضاً ان تذاع مناقبه لدى الجميع وتثلج نفسه اذا علم ان جميع الناس منتبهون اليها فيه ويكون ذلك على قلبه برداً وسلاماً لانه يريد ان يكون كاملاً بشرط ان لا يزعجه الكمال بشيء ويندهش اندهاشاً لذيذاً اذا ما اكّد لهُ احد انه قد بلغ الكمال فانه عندئذٍ يصبح ميالاً في الباطن الى طلب المديح ولا يحذر عواقبه ويؤيد جانب مادحيه ولا يعود يقدر ان يلوم شيئاً من اعمالهم مهما كانت فاحشة

ولما كان المداهن يعلم ان الانسان مائل بالطبع الى محبة الذات بافراط والى مدح اعماله حتى عيوبه نفسها التي تلتبس بالفضائل كما اذا كان الرئيس جسوراً قليل الفكرة والتبصر فانهُ حينئذٍ يريه انه همام غيور واذا كان مبدداً مبذراً الاموال الموقوفة يصوّر له انه كريم شريف الاخلاق واذا كان خفيف العقل هازلاً يؤكد له انهُ سهل العريكة لين الجانب دمث الاخلاق وهكذا فانه يجتهد ان يقرّظ الرئيس بما يشاكل الفضيلة لان كثيراً من العيوب يلتبس بالفضائل بما انه افراط او تفريط فيها فيرتدي بردائها

وقد قال بسويت في عظته في المحبة الاخوية : ان المداهن يحسن المداخلة في اميالنا وخفايا قلوبنا الخبيثة ويجارينا في محبة الذات بلباقة ولطافة الى حد لا نقدر فيه ان نقاوم شيئاً مما يقوله لنا

فالرئيس ان لم يكن ذا قلب مستقيم ولو عرف التمليق وخداعه لا يعرف كيف ينجو من مكر دسائسه فيرى انه مخدوع الاّ انّ ذلك لا يسخطه ولا يكدره ويود ان يصدق ما يقوله المداهن اكثر مما يقوله له عقله واختباره الذاتي وتراه يسدل ذيل المعذرة على كل كذب أُخترع لاجلاله واكرامه هذا ان لم يكن الكذب فاحشاً وكان ظاهره سخريةً به واضحة فالمديح في وقته وظروفه وان

كان تمليقاً وخداعاً يلج الى باطن النفس ويستمر فيها مــدةً طويلةً وانه يعود ويتردد على الفكر مرات وان خيل لك ان شمله قد تبدد ويتشكل بالوان جديدة مهمة ومن سقط بحبائله يعتاد الالتذاذ به حتى ان صوت الحق وتنبيــه المحبة يمسيان لديه مكروهين لا يعدهمــا الاَّ تنديداً ناجماً عن البغض والحسد فلا يسره ان يسمع شيئاً من الصديق الامين بل يسد عنه اذن الثقة ولا يستثيره بشيء مهم وان ابدى هذا الصديق رأياً صادراً عن فرط حبه وغيرته فيرفضــه باشمئزاز وفظاظة بخلاف ما اذا تكلم الملّاق فانه يصغى اليه بثقة ومحبــة ويفتح له خزائن قلبه ويمسي بين يديه طوع العنان راضياً مسروراً بكل مــا يبديه له من الآراء الخبيثة

وقد سأل احد المؤرخين نفسه ماذا ياترى يجعل الملوك اشراراً ارديــاء ؟ ثم اجاب فقال انما ذلك ١ً الحرية التي يتخــذونها لانفسهم لكي يصنعوا كلما يريدون و٢ً الوسائط التي تتوفر بين ايديهم وتساعدهم على ارضاء كل اميالهم و٣ً جهلهم المهام العمومية و٤ً اصدقاؤهم الاردياء (فوبيسكوس في حيــاة اوريليوس قيصر)

ولعمري ان كل رئيس تراه محاطاً بالمخادعين فلا يسمعونــه الا اصوات التقريظ والتزكية ولا يرونه سوى محامده ومآثره وهو يجهل كل الجهل حالــة جماعته بل حالة نفسه ايضاً لانــه وان كان الاكثرون يشكون من ثقل نيره ويتذمرون من قساوته فهو مع ذلك نشوان من حميا المديح والتقريظ ويخيل له ان سياسته هي فخر السياسات وقاعدتها وسعادة مرؤوسيــه الكاملة واذا نبهه احد الى شيء من هفواته ينسب تنبيهه الى خبث نيته وبغضه وهذا مــا يدمر الاديار والروساء غافلون عنه

ولنعر الان اذناً صاغيةً لاقوال آباء الكنيســة القديسين . قال القديس اغسطينوس (في كلامه على المزمور ٦٩ : ٥) « ان لسان المخاتل لشر من يــد القاتل » وقال القديس بروسبر « ان لسان المماذق يكبلنا بقيود الخطايا وينزع كل فكر صالح منا حتى فكر الندامة وكل رجاء بالخلاص » (رسالة ٨٩ : وقال القديس غريغوريوس البابا « ان هذا اللسان الماكر لا يكتفي ببعض الكلام

او بتبيان بعض الظروف بل يتبع فريسته ويلتف عليها كالافعى القاتلة وينفث فيها من سم مكره وخداعه حتى تقع في حبائله فاقدة كل قوة وميل نحو الاستقامة والعدل (ارشاد ٢ على حزقيال) وقال ايضاً صاحب الاقتداء: واذا مدح الانسان غيره كان كماكر يخدع ماكراً مثله او متعجرف يخدع متعجرفاً او اعمى يخدع اعمى او مريض يخدع مريضاً لان المدائح الباطلة هي عار على قابلها نفسه

فالرئيس النبيه الحكيم متى لحظ ان البعض يرومون اكتشاف اسراره او استمالة قلبه بالمداهنة والمخاتلة أفهمهم انه عدو الد لمثل هذه الدسائس ولاصحابها فيسد فم الصانع المخاتل ويريه انه عارف بسوء نيته وانه عار عليه ان يسمع لماكر او يلتذ بالمكر والخديعة

فالسيد المسيح طالما سمع اليهود ينمّون به ويقدحون فيه وكان مع ذلك صامتاً ولكنه لما سمعهم مرة يخادعونه بالتمليق استشاط غيظاً عليهم وقال لهم: ايها المراؤون لماذا تجربونني (متى ٢٢ : ١٨)

ثالثاً

في ان التنبيه يجب ان يجرى بادبٍ واحترام

نعم اننا نضطر في بعض الظروف لان نظهر في تنبيهاتنا العزم والثبات فالسيد له المجد لم يكتفِ بقوله نبه اخاك بل قال « وبخ اخاك » اعني عامله بالحرية التي توليك اياها الصداقة ولا تسلم ولا تنقد له بكل ما يبتغيه بل كلم صديقك كصديقٍ مخلص واثبت في ما قصدته لخيره

ولعمري اننا اذا تركنا اخانا يسقط في حفرة في شدة الظلام وفي ايدينا مصابيح مضيئة نقدر ان ننيره بها كنا له اعداء الداء لا اخواناً اصدقاء لان الرجل الظالم كما قال الحكيم (امثال ١٦) : يضل صاحبه ويقوده في طريق غير صالحة وقال ايضاً (٢٩) : من كلم صاحباً بكلام عذب ملاق يكون قد نصب لرجليه فخاً (بسويت في العظة المار ذكرها)

وقد سأل الملك انتيباتير يوماً الربان فوسيون ان يعمل عملاً لا يجيزه الضمير المستقيم فاجاب فوسيون : ايها الملك اني لمستعد ان اخدمك بكل ما اقدر عليه

لكني لا اقدر ان اكون لك صديقاً ومخاتلاً معاً

وقد اردف بسويت في نفس عظته المقدم ذكرها كلامه الاول بقوله « احذرنَّ مع ذلك ان تخرج عن حدود الفطنة في محافظتك على العزم والثبات . اني لماقت اولئك الذين يتبخرون بالنصائح التي يبدونها لصاحبهم والتي لا يطلبون خيره بها بل رفعة شرفهم لان ارادتهم لا تظهر متجهة الى المصلحة التي يطلبها صديقهم بل الى المفاخرة والاستيلاء عليه والاَّ فكيف يوبخونه ظاهراً ويفتخرون امام الملاء بذلك قال السيد المسيح : وبخ اخاك وفمك الى فيه ولا ترحم رذيلته ولكن ارحم ضعفه وخجله وارِهِ بفطنتك وحكمتك ان كلامك له كلام صديق حميم »

فمن اقدم على نصح صاحبه يلزمه الاَّ يُخطيه في كل اعماله والاَّ يظهر له انه يفوقه ذكاء وفضيلة لان هذا مما لا يحتمل لما فيه من قلة الاعتبار ومن الازدراء بشأن المنصوح فان الناصح اذا جعل نفسه حاكماً واخذ يبحث ويندد بلا رحمة ولا يصوّب عملاً من الاعمال اظهر انه قاصد الاهانة لا الاصلاح فيترتب عليه ان يتم وظيفته بروح الفطنة والمحبة منتهزاً الفرصة الموافقة ومبدياً خطابه وعلى وجهه علامات البشاشة والدعة نابذاً عنه كل كلمة غليظة مثنياً على اعمال كثيرة ليتأتى له ان يبدي اللوم على بعضها وليحذر في حديثه من المبالغة وعدم الرضى عن المخاطب بالاطلاق والازدراء بهِ وبكل صفاتهِ

قال المعلم غراسيانوس : يجب ان نمزج الحقيقة بكثيرٍ من العسل لكي نرفع عنها مرارتها الطبيعية ثم نرشها بالعنبر لكي نخفف رائحتها الكريهة ثم فلنقدمها للظمأى في كأس ذهبية لا بكأس من زجاج او بلور لئلا يرى متناولها لونها قبل ان يشربها

وما مثل الحقيقة الاَّ مثل ابنة يُحاكي حياؤها جمالها فلا تمشي الاَّ مستترةً فعلى الولاة ان يكشفوا عن محياها بلطف وشجاعة واذا احب الملوك ان يعدهم غيرهم بالاسعاف فلا يحبون ان يتقدمهم احد بالحكمة واصابة الرأي فعلى من عُهد اليهِ بامتحانهم ان يتظاهر بانه يذكرهم بشيء نسوه وهذا انسب من ان يعلمهم شيئاً لا يعرفونه (رجل البلاط مبدا ٧ و ٢١٠)

واننا نرى ان الله تعالى نفسه ينبه الملوك بشيء من اللطف والرفق لانه لما كان قادراً مثلاً ان يبين لفرعون ونابوكدنصر بواسطة وزرائهما تلك الحقائق الهائلة بيّنها لهما بالاحلام والرموز تلطفاً بجلالتهما الملوكية وتخفيفاً لشدة كآبتهما لو بادر الى اهانتهما الوزراء والرعايا

والقديسة شانتال رتبت في اجوبتها على بعض مسائل في رسوم رهبانيتها هذه القواعد لان تتعين منبهة في الدير قالت : على الرئيسة ان تختار لها معينة من الاخوات الصالحات ولتعلم ان هذه المهمة خطيرة جداً تقتضي شيئاً من الحكمة واللطف والبشاشة لكي تمكن الاخوات ان يدنون منها بسهولة ومن اخص واجبات هذه المعينة (او الناصحة) ان تسكن الهياج وتؤيد جانب الوفاق والاتفاق والاحسن ان كل راهبة تقول بذاتها للرئيسة كل ما تراه فيها يوجب اللوم وهنا اتذكر ما قاله الطوباوي ابونا (مؤسس الرهبنة) ان افضل جميع الراهبات هي التي تثق بالرئيسة وتكاشفها بكل ما عندها وانه لم يرسل لهنّ ناصحة الاَ رفقاً بالضعيفات منهنّ اللواتي لا يتجرأنَ ان يكشفنَ افكارهنّ للرئيسة نفسها فالناصحة اذا كانت ذات ضمير سليم نقي تجتهد اولاً في ان تبث في قلوب كل الراهبات روح الثقة الكاملة بالرئيسة كأنها الأُم الحنون واما من شقّ عليها الالتجاء الى الرئيسة فلها ان تلتجئ الى الناصحة هذا واذا سقطت الرئيسة بزلات كبيرة وخيمة يجب حينئذٍ على الناصحة ان تلتجئ اولاً الى الصلاة ثم تنبه الرئيسة بكل لطف ودعة الى ما فعلت واما اذا اصرّت هذه على غيها فيجب حينئذٍ ان تعود الناصحة اليها وتنطرح على قدميها طالبةً منها اصلاح زلاّتها . ولتريها ان الاخوات كلهنّ يرغبنَ في اصلاحها رغبة شديدة واذا لم تصطلح يضطررنَ لان يشكونها الى الرئيس وقد نبهت قبلاً وأُنبه الان ايضاً انهُ لا ينبغي ابداً ان نتكلم في الخارج عن نقائص الرئيسة أي لا نشكوها الى الرئيس الا بعد اليأس من اصلاحها بواسطة النصائح الداخلية .

ولعمري لا شيء يوافق مبادىء الفطنة والمحبة اكثر من هذا وهو ان لا يرفع المرؤوسون شكواهم على رئيسهم المكاني الى الرئيس الاعلى الا عند الضرورة القصوى وان لا يرفع الرئيس المكاني دعواه ايضاً على مرؤوسيهِ الى رئيسهم

الاعلى الأَّ بهذا الشرط ·

وننصح اخيرًا المنبه بقولنا لهُ : تذكر انك ناصح لا آمر واعلم ان للرئيس بعد سماع نصائحك وتنبيهاتك ان يعمل بما يراه الاصوب هل ترى انت نفسك ان الرئيس مضطرٌ لان يسمع لك دائماً وسريعاً وانت تقيم نفسك رئيساً لهُ لا منبهاً؟ او تجهل انت ان الرئيس يضطرُ احياناً لان يخفي عنك اسباباً سريّة تميل بهِ الى هذا العمل لا الى ذاك ؟ ·

فبان مما قررناه ولخصناه ان النصيح يُفرض من الرهبان المخلصين للرئيس وهو لا يرتضي بوجهٍ من الوجوه ان يخدعهُ باخفاء الحقيقة عنه وانهُ يجب ان يكون حكيماً إذ عليهِ ان يعرف ما الذي يجب تبليغه الرئيس وانهُ لا يسوغ لهُ كشف اسم المبلّغ عنه وان يحترم رئيسه احتراماً عميقاً ويبالغ في ملاطفتهِ واعتباره وان يكون عزوماً شجاعاً اذ ينبغي لهُ بعض الاحيان ان يعارض الرئيس بشجاعة لكي لا يزلّ الرئيس وان يصلح ما اخلّ بهِ وان يكون أيضاً مجردًا عن الاغراض الخصوصية لكي يقدر ان يبدي النصائح المفيدة للعموم ولو رآها مضرة بمصلحتهِ الخصوصية او كانت تلحق بهِ اهانة ما أو تمنع رضى الرؤساء عنه ·

رابعاً

في ان الرئيس عليهِ ان يقبل النصيحة برضىً وشكر

ان الاب بالتازار القارس اليسوعي نصح الرؤساء بهذا الكلام قال : تقبلوا أيها الرؤساء كل نصيحة من أينما وردت بطيبة خاطر بل اظهروا حينئذٍ سروركم بالكلام وطلاقة الوجه فتسكنوا بهذا اضطراب الخواطر وتقوا انفسكم من عيوب شتى تتعرضون للسقوط فيها لولا ذلك وليكن عدد الناصحين لكم كعدد مرؤوسيكم (كتاب حياته ف ٢٣) وقال القديس غريغوريوس ان الرؤساء الصالحين يرون في كلام مرؤوسيهم لهم بحريّةٍ شهادة لهم باخلاصهم وتعلقهم بهم من غير ان يكون لهم مآرب خصوصية وقال ايضاً ان من علق قلبه باميال الشر وأبى ان يسمع لمرؤوسيهِ الناصحين لهُ اثبت على نفسهِ من سلوكهِ هذا عينه لانهُ يفضل اتباع امياله على الحقيقة ويريد انتهاك حقوقها وألاَّ يسألهُ احد عن شيء

(الكتاب الرعوي ٢ ف ٧)

وقال ايزوكرات لديمونيكوس ان رفض نصيحة المخلص لاعظم شرًّا من رفض هديَّة المحب ·

فعند ما ينصحك أحد الاباء او الاخوة او ينبهك على شيء فاذا رأيت نفسك بريئاً منه فلك ان تبين لهُ ذلك والاَّ فلا تعتذر بل اعترف بذنبك وعد باصلاحهِ ولاسيما إذا كان الناصح لك من الشيوخ الفضلاء وهكذا اذا بادرك أحد بنصيحة فاستدركت ما يقال فوق ما يطلبهُ منك فانك تنجو من تنديدات شتى وتربح ثقة مرؤوسيك بك واعتبارهم لك وتزيد على فضائلك المعروفة فضيلتي التواضع والاذعان لانهُ ما من احد يجهل هذا المبدأ وهو ان من احسن الطاعة أحسن السياسة وانك لتعلّم مرؤوسيك ان يذعنوا ويخضعوا لنصائحك اذا ما رأوك انت خاضعاً ومتمماً رغباتهم اليك باصلاحك ما شاهدوه في سلوكك ممَّا يستوجب اللوم

واذا اردت ان تقف على تمام الحقيقة فلا تكتفِ بما يقولهُ لك النصيح بل اضف اليهِ ما يستره ضعفه لانهُ لا يقول لك كل ما ينبغي ان يقول بل يكتم من الحقيقة نصفها ويلبسها ثوباً جديداً يروق لناظريك ملاطفةً لاخلاقك لئلَّا تشمئز منه وتنبذ عنك نصائحه · قال غراسيانوس : ان للملوك ان يتشبهوا بالعرافين بالنظر الى دقة افكارهم حتى يبلغوا اقصى الحقائق · وان هنريكوس الرابع ملك فرنسا كان يتردَّى باثواب عادية ويخالط الناس حتى يسمع باذنهِ ما يقال فيهِ · وقد كتب القديس برنردوس الى البابا اوجانيوس : اني لواثق بان قداستك لا تكتفي بنصائح هذا الجبان الضعيفة بل انها تضيف اليها فوق ما عرضته لديها وهذه الاضافة ممن تتوقعها ؟ امن قداستكم التي هي في منصب سام ام من حقارتي وانا على بعدٍ شاسع عن مقامكم الرفيع الشان وكيف يجب ان يُنبه الحكيم · أليس كما جاء في الامثال (٩) ان « أفد الحكيم فيزداد حكمةً »

اما اذا تأخر النصيح ولم يأتك بشي من ارشاداته فاذهب انت اليهِ وابن لهُ عظم الواجب عليهِ باتمام وظيفتهِ والحّ عليهِ في الرجاء ان يمحضك نصائحه واعلم انهُ ان تأخر عن نصحك لا يكون سبب ذلك انهُ ليس عنده ما يقال لك فقط بل انهُ يخاف ان يدنو منك لفرط ما يكون فيك من محبة الذات وعدم تفضيلك عليها

شيئاً فان صاموئيل لم يتجراء ان يظهر رؤياه لعالي قبل ان استأذنه بذلك

فالرئيس العاقل اذن يحب الحقيقة ويجدّ في طلبها والبحث عنها لانه يحب التقدم في اصلاح ذاته وكماله اما بحثه عن الحقيقة فلا يكون عن ازدراء او خبث نية كما فعل هيرودوس بل عن اخلاص وحب للفضيلة وغيرة على خير جماعته فتراه يقبل النصيحة على حد ما يشتهيه منه مرؤوسوه مع هذا الفرق وهو انه لا يرضى حفظاً لمقامه وسلطانه وخوفاً من عثار الضعفاء ان تكون النصيحة له علانية كما يقتضي احياناً ان ينصح المرؤوسون

ولعمري ما من احد يعمل شراً ويحسبه خيراً سوى المتكبرين والحمق وما من احد سواهم يأبى اصلاح شوائبه ويخشى ان ينظر الحقيقة بل يعمل بما في استطاعته وسلطانه حتى يدافع عن سياسته وهكذا فانه اذ يحامي نفسه من سيئة واحدة يرتكب سيئات وينهج لنفسه طرقاً خداعة حتى لا يرجع عن سلوكه الردي ولو خطوة واحدة فاذا كنا من عداد هولاء صح فينا قول باسكال (الافكار مقالة ١ ف١) : ما من احد يجتري ان يقدم لنا خدمة يراها لا ترضينا وعليه يعاملنا الناس كما نحب ويروننا بعض الحقيقة ويبدون لنا المظاهرة والخداع

اما اولو الحذاقة والفضيلة فيرون بسهولة شططهم ويسرعون الى اصلاحه قياماً بواجب الحقيقة . فهل من امرأة تغتاظ من مرآة ترى بها ما في وجهها من القذر او هل من مريض يحنق على طبيب شرح له مرضهُ ووصف لهُ دواء شافياً؟ فهكذا ذو الحذق والفطنة فانهُ لا يغتاظ ممن يريه عيوبه بل يبدي لهُ الشكر الواسع . قال ابن سيراخ (ف١٠) « الرجل الفطن العالم لا يتذمر من التوبيخ» وقال الحكيم (امثال ١٥ : ٣٢) « من يرفض التأديب يحتقر نفسه ومن يستمع التوبيخ يملك قلبه » وقال ايضاً (:١٢ « الناخر لا يحب ان يوبخ والى الحكماء لا يذهب » ويمكننا ان نقول عن النصح ما قالهُ غراسيانوس عن طلب المشورة : ان قبول المشورة لا يدل على صغر المقام والخمول كلا بل من اقام حوله رجال الصدق والاستقامة عُدَّ من ذوي الحذق والحصافة

والقديس بطرس لم يأنف مع انه رئيس الرسل من توبيخ بولس الرسول ولا من مقاومته اياه مشافهة وتنبيهه الى انه عمل اعمالاً توجب الملامة (غلاطية٢).

[الكتاب الرابع]

في الموافقة بين الرفق والحزم

القسم الاول

في ان الرفق والحزم هما ركنا السياسة الرهبانية

﴿ الفصل الاول ﴾

اي سياسة هي الحسنى بين السياسات الرهبانية

الجواب على هذا السؤال الذي تكرَّر مرَّات هو على ما يظهر لي: ان احسن سياسة دينية على سطح البسيطة هي التي تشبه اكمل الشبه سياسة الله للعالم او سياسة السيد المسيح لجماعته السليحين او سياسة يوسف للعائلة المقدسة او سياسة البعض من الملائكة للبعض من البشر او سياسة الحبر الاعظم للكنيسة المقدسة . او اخيراً سياسة موسسي الرهبنات لجماعاتهم .. او ان السياسة الحسنى هي التي قالت عنها الحكمة انها تبلغ اقصى غاياتها مرتبة سائر امورها باللطف والبشاشة او هي سياسة الرئيس الذي يحتوي طباع الاب والام معاً : طباع الاب الذي يظهر رصيناً حتى في تمليقاتهِ وملاطفاته وطباع الام كالحنان والرأفة حتى ولو الجئت الى تأديب اولادها او هي سياسة ذاك الرئيس الذي يمسك بيده ميزان الانصاف فلا يدعهُ يميل الى الشدة ولا الى التساهل المفرط : او هي التي لا تنبت اشواكها الاَّ بين الورد وعسلها لا يخلو جانبه من ابر النحل وغضبها كما قال ارميا غضب حمامة او هي التي تمزج الصوت الغليظ بالرفيع الحاد لكي تؤلف منها نغمةً شجية مبهجة : او هي كما عرفها القديس اغناطيوس بانها عزومة فعالة بلطف ولطيفة هنيئة ببأس وثبات او هي كما حدها القديس فرنسيس الاسيزي تلك التي ترى مدبرها

مهيباً ومحبوباً معاً فلا يضر افراط حلمه بالنظام ولا يدفع مزيد قساوته الانفس الى الهلاك او هي كما قال القديس غريغوريوس تلك التي صورتها لنا قبة العهد القديم التي كان فيها بجانب لوحي الوصايا قضيب هارون واناء المن وبذلك نرى الكتاب يامر الراعي ان يمسك بيده الواحدة قضيب التأديب وبالاخرى برنية من اللطف والوداعة . او هي التي يصورها لنا مثل السامري الذي حمل الى الفندق ذاك المثخن جراحاً من اللصوص والملقى في الطريق كميت وصب على جراحه خمراً وزيتاً فالخمرة صبها لتضميد الجروح والزيت لتسكين الالم وهكذا من تكلف شفاء الانفس فعليه ان يصب عليها خمر التأديب وزيت الملاطفة فهو بقوة الخمر القابضة ينظف القروح من العفن والنتانة وبقوة الزيت الملين يسكّن شدة ألمها » . . (الكتاب الرعائي ق٢ف٥) فموضوع هذا الكتاب الرابع هو البيان عن ضرورة ائتلاف الرفق والقساوة وكيفية ائتلافهما

الفصل الثاني

في ان اللطف والبشاشة جوهريان في كل سياسة ولاسيما السياسة الرهبانية

قال العلّامة الفهامة بوسويت في تأليفه السياسة المقدسة (كتاب ٣قضية١٢) « ان اللطافة هي من جبلة السياسة ولا ينبغي ان يقسو الملك على شعبه ما لم تضطره لذلك ذنوبهم والا فالاجدر به ان يكون لطيفاً بشوشاً وسهلاً سميحاً بحيث لا يقال عنه انه متسلط بل انه أب : واللطيف اللين يعرف كيف يسمع وكيف يرد الجواب « كن لطيفاً في استماعك الكلام » لكي تعيه وترد الجواب بحكمة وصواب » (سيراخ٣٢) ومن شأن دماثة الاخلاق ايضاً ان تسهل الاعمال وتوفقها وتولي اصحابها مجداً عظيماً . قال ابن سيراخ (٣٢) : يابني اعمل اعمالك بلطف ولين فترقي مجدك اعلى من سائر الناس » وموسى لمّا فاق بني البشر دعةً استحق اكثر من الجميع ان يملك بامر الله الذي هو اللطيف ذاتاً فقدسه لايمانه ودعته » واختاره من بين البشر ليكون قائداً لشعبه (سيراخ٤٥)

ان المحبة والاحترام يأتلفان اما المحبة والخوف العبدي فلا . فما تخافه تبغضه والبغض لا يدوم طويلاً . لان البغض لا يستحسن شيئاً بل يأوّل كل شيء الى الشر

وعليه فلمّا يُمسي الرئيس مكروهاً من جماعته تمسي كل اعمـاله مذمومة لديهم والمذمة تفتح باباً رحباً للمشاحنة والتشكي فينتهي الامر امـا بحط الرئيس او بازعاجه الدائم : سئل يوماً (اجيزيلاس) اي ملك تطول مُدة جلوسه على عرشه الملكي اكثر من غيره فاجاب … انما هو الذي يسوس رعيته كما يسوس الاب بنيه وكزيتوفون كان من عادته ان يقول : … اني لا اجد مطلقاً فرقاً بين الملك الصالح والاب الفاضل » وقال سوفكلوس : ان الخوف يرجع الى مصدره فالظالم يخاف يوماً من كل اولئك الذين جعلهم ان يخافوه » وقد اخبر القديس سيدوانس عن تيودوريكس : « انه لم يكن يخشى شيئاً مثل علمه ان رعاياه تخافه » خلافاً لما نطق بهِ ذلك المسخ كاليقولا قائلًا فلتبغضني الرعية بشرط ان تخافني واذا كان اللطف والسهولة من خصائص الملك فهما بالاحرى لازمان ضروريان للرئيس . وعليهِ فينبغي للرئيس الا يأتي عملًا ولا يفوه بكلمة الأ ويكون اللطف متقدماً كل اقواله واعماله واذا خرج صدفة عن هذه الحدود لفرط غيرته فليرجع اليها عاجلًا كالسمك الذي اذا ما قذفته الامواج الى الشاطيء فيسرع حالاً الى الماء وطنه

فيحض الروساء اذاً ان يحققوا فعلاً وعـد السيد المسيح بانه « يعطي مأية ضعف لاولئك الذين تركوا كل شيء وتبعوه ويحضهم ايضاً ان يعتنوا بمؤانستهم وملاطفتهم الابوية حتى لا يفتكر احد بان ما تصفهُ كتب العلماء عن خـيرات الحياة الرهبانية وفوائدها هو ضرب من المبالغة التقوية وخداع للاحداث الاتقياء وعليهم ايضاً ان يتصاغروا للصغراء ويحملوا ثقل الضعفاء وان يرشدوا الضالين ويقيموا الساقطين ويضمدوا كلوم المجروحين ويمسحوا دموع الباكين ويعرفوا ان يكونوا اخيراً للكل فمن لم يكن على جانب عظيم من اللطف والـدعة كيف يمكنهُ ان يقوم بهذه الاعباء المختلفة

واذا اردنا ان نفهم جيداً وندرك حقيقة السياسة الرهبانية فلنمعن التأمـل في كل من هذه الكلمات للانبا « بالتازر الفارس » وهي ان من كان رئيساً لا ينبغي ان يتصور انهُ متسلط وتحت امره عبيد يقلبهم كيف شاء بل انهُ مدبر ملوك او خادم لابناء الله لانهُ وان يكن لهُ سلطان ان يحكم على بعض النـاس غير ان هولاء جم احرار وقد أُعتقوا نير العبودية طوعياً وحباً لله لا غير فلا تنسَ ايهـا

الرئيس عن ان الانفس الخاضعة لسلطانك هي عرائس السيد المسيح وهيا كل روحه القدوس واعلم ان رئاستك هذه لا تجعلك اشرف من مرؤوسيك كما ان الملّاح لاستلامه دفة السفينة لا يضحى اشرف من المسافرين معه لانهُ متى بلغ المينا قد يجد بينهم ملوكاً وامراء . نعم لا مراء انك الاول بين مرؤوسيك في السلطان لكن مع ذلك يمكن الا تكون الاول في الفضل والفضيلة فخف اذاً من انك اذا مشيت الاول بينهم في هذه الحياة لا يمكنك في الآخرة ان تسير الأ وراهم بعيداً عنهم جداً »

الفصل الثالث

— في ان الحزم والثبات ليسا باقل ضرورة للسياسة الرهبانية مما هما لسياسة اخرى —

لمّا تعيّن يشوع خلفاً لموسى الذي كان قريباً من الموت قال الله له : « تشدد وتشجع فانك انت تدخل شعبي الارض التي وعدته بها وانا اكون معك » (تثنية ٣١) وبعد ان مات موسى وصار هو قائداً للشعب قال لهُ الله ايضاً : « ان موسى عبدي قد مات والان قم واعبر هذا الاردنّ تشدّد وتشجع » وقال لهُ ايضاً : « تشدد وتشجع جداً لتحفظ جميع الشريعة التي امرك بها موسى عبدي» وايضاً : « هائنذا قد امرتك فتشدد وتشجع لا ترهب ولا تفشل لاني انا معك حيثما توجهت » (يشوع ١) فكانه يقول لهُ اذا خفتَ فالشعب كله يهلع لانه اذا تحرك الرأس خوفاً فالجسم يرتعد فرَقاً وينحل لشدة رعبه فتقوَّ اذن وتشجع لانك انت اساس راحة الشعب . فهكذا على ما قال بوسويت يثبت الله كراسي قهارمته فانهُ يمكّن سطانهم ويأمرهم بحسن استعماله بالحزم والعزم والوسيلة لتمكين سلطانهم هي ان تريهم بحجة قاطعة ان ملء السلطان مستقر وراسخ فيهم وفيهم ايضاً يقوم امره وشأنه وان ثباته انما يكون في الذب والمحافظة على الشريعة التي ينبغي لهم حفظها لئلا يخالفها احد بدون مؤاخذة ولا حرج

والمرؤوسون انفسهم يطلبون من رؤسائهم الثبات والحزم في كل اعمالهم

وذلك لراحتهم وامنتهم لانه اذا فشل الرئيس وتقاعد عن العمل بوقته فلا يبقى املٌ البتة ان يعمل المرؤوسون شيئاً بدقـةٍ ونشاط واذا ما رأى الرأسُ ان الاعضاء قد ارتخت وتزعزعت فكيف لا تأخذه الرهبة واليأس فعليـه اذاً ان يتقدمهم بالحزم والشجاعة وهم يتّبعون خطواته بكل طاعة وانقياد ٠

فان الله الرحيم يدعوه الكتاب إلهاً عادلاً ومرهوباً ولما تنقضّ صواعقه يلقي الهيبة والرُعب في قلوب الجميع فيرفعون اليه قلوبهم بالصلاة والتضرع ٠ والسيد المسيح محب الخطأة انذر الفريسيين بالويل واخذ السياط بيديه اللتين لم تعتادا الاّ بركة اللاعنين وشفاء المسقومين وطردَ بهـا مدنسي الهيكل ومما هو حريٌ بالاعتبار ان الله جلّت حكمته لم يقلد السيف الناري ملاكاً من السارافيم ارواح المحبة والرأفة ليحرس الفردوس الارضي بل قلّده احد الكاروبين ملائكة العلم والمعرفة لان لهم خاصةً القدرة بان يؤلفوا بين العدل والرحمة ٠ وقد قاوم بلعام ملاكه مواجهةً وداود أباد ملاكه من شعبهِ سبعين الفاً في الطـاعون ورعاة الكنيسة لا يزالون اقتداء بالرسول بولس يتهددون القساة الغير الخـاضعين ويضربونهم عند الضرورة بسيف الحرم البتّار ومؤسسو الرهبنات قد اعتادوا ان يضيفوا الى القوانين الاساسية بعض الفرائض الجزائية لردع الرهبان عن بعض زلاّت خصوصية ٠

قالت القديسة تريزيا : يجب على الرئيس ان يحذر جداً من ان يولي مرؤوسيه دالةً زائدة وان يحذر ذلك خاصةً اذا كانوا نساء ٠ لان المرؤوسين اذا لاحظوا ان الرئيس يستصعب اصلاحهم او نصحهم خوفاً من حزنهم وانزعاجهم ياخذون هم يقسون ويغلظون شيئاً فشيئاً حتى يصعب فيما بعد انقيادهم واذعانهم لاوامره ٠ والقديس فرنسيس سالس يشير علينـا باستعمال شيء من القسوة في السياسة اذ يقول : ان المبرد الخشن يصقل الحديد ويكسبه لمعاناً افضل مما يكسبه اياه المبرد الرفيع ولذلك فانه قد يستعمل لصقل الجوخ نوع من الاشواك ٠ والشفرة كلما طرّقها الحداد ازدادت حدةً وحسناً ٠ وهكذا السماء التي تنمي الزرع بالامطار والندى فانهـا تحفظه وتحرسه بالثلج والجليد ٠ وايضاً الافسنتين فانه يسكن الم القلب

وللمراهم الملينة ان تفتح القروح وتبرد حرارة آلامها واما الملح فله ان يمنع الفساد منها ويشددها ويضمدها وهكذا الفارس اذا كبا جواده فانه يسنده قليلاً باللجام واما اذا تقاعد عن العدو فينخزه شديداً بالمنخاس ولو سال دمه

الفصل الرابع

في انهُ من الواجب ان يأتلف اللطف والحزم في السياسة الروحية وان يفعلا معاً كل ما يفعلانه

هذا ما اجتهد في اثباته القديس غريغوريوس في كتابه الرعوي (ك ٢ مز ٥) وفي ارشاداتهِ الادبية (ك ٢٠ ف ٥) حيث قال: « ان القسوة والشفقة اذا انفصلت احداهما عن اختها تمسيان قاصرتين ناقصتين فعلى الراعي ان يتجنب الافراط في احداهما وان يكون موعباً عدلاً وقساوةً عندما يعزّي ويشدّد احد الساقطين ومفعماً شفقة ورأفة عندما يونبه او يعاقبه · الا ترى ان الجرح العميق او الكسر في احد الاعضاء يسوء حاله ان لم تضمده حالاً واذا شددت عليهِ اللفائف فوق ما ينبغي زدته الماً والتهاباً · هكذا من يضمد جراح الخطأة او كسور الشريعة فعليهِ ان يسعى بشواعر اللطف والغيرة واذا انزل بعض العقوبة في من ثالم الشريعة فليبقَ محبّاً لهُ مشفقاً عليهِ · فامزج اللين بالشدة واصلح منهما شراباً لا يسوء المذنب لشدة مرارته ولا يميل بهِ الى الحرية والخلاعة لافراط عذوبته · كن شفيقاً ولكن من غير مساهلة زائدة في المعذرة كن صارماً لكن من غير افراط · كن ذا غيرةٍ لكن اعتدل في عقوباتك كن شفيقاً لكن لا تسهّل للرذيلة الجرأة والقحة · وقصارى الكلام اقول لك ايها الرئيس الذي اخذ على عهدته سياسة مرؤوسيه ونجاحهم في الفضيلة اعتدل في استعمالك العدل والرأفة تكن محبوباً من الاخوة ومهيباً · » وقد كتب القديس برندوس في هذا المعنى الى هوغوس رئيس اساقفة بوان: « فقال اذا كانت محبتك ذات غيرة فلا بأس · اما قساوتك عند الاقتضاء فلتكن ذات انصاف واعتدال · فلا تكف عن العناية بحفظ النظام والتأديب ولكن كف عنها احياناً او ارفع منها ما خشن وغلظَ ابتغاء خير اعظم كن غيوراً على العدل لكن فلتكن نار غيرتك حارة مشتعلة لا آكلة

مهلكة . لانهُ ليس كل ما يرضي بجائز ولا كل ما هو جائز بنافع » (رسالة ٢٥)

وعليهِ ينبغي للرئيس ان يبذل الجهد الجاهد بالاَّ يكون مفرَّطاً في الشدة ولا في الرأفة لان كمال السلطان متوقف على اجتماعها معاً . فهاتان السجيتان تتعاضدان كاختين فما تبتدئ بهِ الاولى تكمله الاخرى بل تصلح هذه ما عكست تلك وبامتزاجها هكذا معاً لا يتركان في الحزم قساوة ولا في الرأفة رخاوة اما اذا ترك الرئيس الاولى منهما وتمسك بالاخرى فيمسي صفر اليدين من الاثنتين لانهُ اذا غار مثلاً على المحافظة الكاملة على القوانين وبذل اقصى عنايته بهذا وحده فتمسي بعد قليل هذه الغيرة فيهِ صرامة مفرطة لما هو عليهِ من ضعف الطبيعة والطبيعة من الفساد . وهكذا فانهُ لو بذل كل جهده في الرأفة وحدها رحمةً بضعف الساقطين لانكفَّ بعد قليل عن السهر على حفظ النظام والاداب . فرأفته هذه تمسي رخاوة مضرة . فمثل الرئيس في هذا المركز الحرج مثل اللاعب على الحبل فان مال يمنةً او يسرةً يهلك ولا خلاص لهُ الاَّ في استقامة الموازنة بين الطرفين .

الفصل الخامس

اذا اقتضى الامر ان يميل الرئيس الى احدى الجهتين فليختر جهة الرأفة والرقة .

قال الاب روبرتوس ان افضل نعمة للرؤساء واعظمها هي ممارستهم الرحمة والشفقة . لانهم كما قال القديس كاجبتانوس نائبون مناب الله الذي يسر بالرحمة ويحبها اكثر مما يحب سائر كمالاتهِ . وقد قال يعقوب الرسول : ان الرحمة تفتخر على الدينونة (ف ٢) وقال القديس امبروسيوس منسراً قول داود النبي « ان الله رحيم عادلٌ ورحيم » (مزع ١١) الا ترى ان الله يدعى رحيماً وعادلاً اما الرحمة فمذكورة مرتين والعدل مرةً واحدةً وذكرها في وسط ذكر الرحمة المضاعف ذلك اشارةٌ الى ان الرحمة في اعمال الله لا في طبعه تفوق العدل ضعفين وانما العدل موضوع في وسط الرحمة لانهُ محاط منها يمنةً ويسرةً ولا يقدر ان يصل الى العقوبة بدون ان يجوزها وتهداء بها حمية غضبهِ

والقديس بونافنتورا يحث الرؤساء على تفضيل هذه السجية على غيرها ويبين لهم منافعها بقوله (ستة اجنحة ف ٤) : باللطف يملك الرؤساء قلوب مرؤوسيهم فينقادون لاوامرهم بكل رضا ولا يأنفون من ان يقصدوهم في ضيقاتهم الروحية والزمنية وان يقتدوا باكثر صفاتهم ثم يستشهد قول حزقيال في (ف٣٤) : اذ يتشكى الله من رؤساء شعبه بقوله : « وانتم يا رعاة غنمي فلانكم سستم الرعية بالقسوة والتشامخ فتشتت غنمي وتاهت » ويستشهد ايضاً قول ابن سيراخ : « يا بني لا تكن في بيتك كاسد يطغي ويبغي على عبيدهِ وخدامه » (ف ٤) وقد ختم القديس العلامة كلامه بقوله : « ان السلطة من ذات طبعها كافية لان تلقي في قلوب المرؤوسين الخوف والمهابة فاذا اضفت اليها القساوة المفرطة جعلتها ذعراً للشعب ووقراً لا يطاق » . والاب بينه اليسوعي قدَّم في ما نحن في صدده برهاناً في كتابه المعنون « اي سياسة هي الحسنى اذات اللين والسهولة ام ذات القسوة والصرامة » اذ قال تحت لواء السياسة الصارمة الصالحون يشكون والاشرار يتخاشنون ويتصلبون وتكون زمرة من الاعداء السريين ويفشل العصاة وييأسون من الرجوع الى التوبة فاي رئيس رغب في ان يكون مخوفاً يمسي ممقوتاً ويحمل جميع مرؤوسيه على عزلهِ وخلع نير عبوديته ويضحي ايضاً لديهم محتقراً لان حب التسلط والتأمر يشير الى ضعف الجبلة وصغر العقل . فالصارمون من ذوي السلطان مكروهون والراغبون في القساوة انفسهم يحبون لذواتهم رؤساء متساهلين شفقاء . واما تحت لواء السياسة الرقيقة السهلة فالصالحون تاخذهم الغيرة على شجب الطالحين علانية وهولاء يضطرون لمعرفة ذنوبهم بل ينهض العدل الالهي للمحاماة عن رقة الرؤساء ورأفتهم التي استخدمها الاشرار لزيادة شرهم والعصاة لعلمهم بشفقة مثل هولاء الرؤساء وحنوهم يميلون اليهم راجعين عن غيهم . اخيراً ان دماثة الاخلاق ولينها يجعلان الرئيس محبوباً من الجميع . ومن البين ان مقدرة المحبة في عمل الخير عظيمة . فنتيجة هذا المؤلف ظاهرة وهي هي قضيتنا عينها تاتينا ببراهينه لاثباتها .

الفصل السادس

في ان موسى كليم الله هو نموذج اللطف والحزم

قد صوَّر لنا هذا النموذج احسن تصوير القديس غريغوريوس في كتابه حسن الاداب (ك ٢٠ ف ٥) قال: « ان في خطاب ايوب هذا » لما كنت جالساً كملك وجنودي تحيط بي وكنت اعزي الكروبين «تنبيهاً للروساء وتعليماً لهم كيف يؤلفون في سياستهم بين الحزم والرقة والشدة والشفقة · فقد عبّر عن الحزم والصرامة بقولهِ «كنت جالساً كملك وجنودي تحيط بي» وعن الرقة والشفقة في قولهِ «كنت اعزي المكروبين» وانا نرى مثالاً عجيباً لهذا التعليم في قلب موسى العظيم · الذي كان يحب شعبه برقة وحنان صادق ويقسو في تأديبهم عند مسيس الحاجة لانهُ لما اقترف شعب اسرائيل امام الله ذنباً ظهر كأنهُ اكبر من ان يُغفر

قال الرب لموسى وهو على الجبل «هلمَّ انزل فان شعبك قد فسدَ (خروج ٣٢) فكأنهُ يقول لهُ ان شعباً كهذا اثيماً لا اعرف انهُ شعبي ثم اردف قوله بقوله » دعني يضطرم غضبي عليهم فافنيهم واجعلك انت أُمةً عظيمةً « اما موسى فقاوم ربه دفعات قال: » ان غفرت خطيتهم اجبت تضرعي والاّ فامحُ اسمي من كتابك الذي كتبته فباي رقة احب موسى شعبه حتى انهُ رضي ان يمحي اسمه من سفر الحياة حباً لخلاصهم

وبعد هذا باي قسوة وصرامة قد ادب موسى شعبه فانه ما عتم بعد طلب العفو من الله عن شعبه ان صرخ باللاويين قائلًا: ليتقلد كل واحدٍ سيفه واذهبوا وارجعوا من بابٍ الى باب في المحلة وليقتل كل واحد اخاه وصاحبه وقريبه · فصنع بنولاوي كما أمر موسى فسقط من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة الاف رجل وهكذا هذا الرجل العجيب بعد ان افتدى حياة اخوته بحياته اصدر هذا الامر المهول فاباد منهم عدداً غفيراً وبينما كان قلبه مضطرماً بنار حبهم اشهر في الخارج غضبه فادبهم اي تأديب لانه بعد ان اظهر فرط حبه لهم بتقديمه حياته فدىً عنهم اباد جمًّا غفيراً من عداد اولئك الذين كانوا بشفاعته نالوا العفو والمسامحة

فاليكم ايها الروساء هذا المثال العيب فانكم ترونه تارةً شفيعاً حليماً ومحامياً غيوراً وطوراً قاضياً عدلاً لا تاخذه رأفة بالمذنبين ولا شفقة عليهم فانهُ امام الله قائمٌ يشفع بشعبه بصلاةٍ حارة وامام الشعب يذب عن اوامر الله بغيرة احدٍ من نار آكلة فمن جهةٍ كان قلبه مضطرماً بنار المحبة يقاوم الله بابتهالاتٍ قوية ومن الاخرى كان محتدماً غيظاً وغيرةً يكفّر بدمائهم عن ذنوبهم ويبتاع بموت البعض خلاص البعض الآخر

وانما سمع الرب دعاء موسى عبده وعفا عن شعبه لانهُ رأى بسابق علمه ما كان مزمعاً ان ينزله هذا الغيور من التأديبات المرة غيرة على مجده تعالى وعدله وعليهِ فقد احسن موسى بسياستهِ وجمع فيها بين العدل والرحمة

الفصل السابع

في واسطتين ضروريتين للتأليف بين الحزم والرقة

قد اعطانا هاتين الواسطتين مودِست دي سينت امابل في مؤلفه المذكور مراراً (ك ١ ف ٦)

الاولى هي ان نسير ضد ميلنا الطبيعي لانهُ لا بدَّ من ان يسري هذا الميل في كلٍ من اعمالنا وان لم ندرِ فنلتوي معهُ اخيراً الى احدى الجهتين وعليهِ فاذا شئنا حفظ الموازنة والاستقامة في مساعينا كلها فيجب ضرورةً ان نوجه ارادتنا الى عكس ما يميل اليهِ طبعنا فان مال هذا الى القسوة والصرامة فلنوجه الارادة الى اللين والشفقة وان مال الى هذه فلننهض بها الى الحزم والبشاشة ...

ومن المقرر ان احسن شيء يقصده الرئيس في سياستهِ هو ان يجمع بين هاتين الخصلتين الحزم والرفق لكن لما كان سهلاً وخطراً جداً ان تميل بهِ اهواءه الطبيعية الى احد الجانبين بنوع مفرط ترتب عليه ان يقاوم الطبيعة بسلاح العقل والفطنة ·

ولا سبيل للخوف من ان اميال الطبيعة تغلب او تضعف فوق ما ينبغي لانها هي الظافرة ابداً

والثانية هي ان يضع الرئيس امام عينيه الخير العام من دون نظر الى الصرامة

او اللطافة بذاتها · لانه لما كانت غاية السلطان خير الرعية لا غير وجب على الرئيس الأ ينظر الى الصرامة او اللطافة لاجل ذاتها بل بالخصوص لاجل موافقتها خير مرؤوسيه

فيا للاسف من سياسة بعض الرؤساء الذين يوجهون كل مقاصدهم ورغباتهم لا الى ما فيه خير الرهبنة العام بل الى ما فيه اذاعة اسمهم وشرفهم حتى يقال فيهم انهم سهال الطباع ومحبو الجماهير او انهم من المدققين المحافظين على الرسوم الرهبانية بل من مصلحي الرهبنة فالاولون خوفاً من خسارة اسمهم يتساهلون في كل ما يسمعون ويرون من مخالفة الرسوم والاخرون ايضاً طلّاب اسم المصلحين يخطئون بافراطهم في الصرامة لانهم لا يحسنون احتمال شيء البتة فيبالغون في اهانة الاخوة وتعنيفهم ·وعلى هذا قال باسكال في كتابهِ المدعو (رواشق الافكار) اني لا اغبط رجلاً حوى احدى الفضائل ولو بتامها ان لم يحوِ مثلها وبالكمال نفسه الفضيلة المقابلة لها وبدون ذلك لا يصعد الى الكمال بل يسقط منه لان الكمال لا يقوم بنوع ما على رجل واحدة · فالرؤساء الذين يرون انهم مائلون طبعاً الى القسوة والصرامة تدعوهم الحال ان يميلوا الى اللين والسهولة والمائلون الى هذه فليتحولوا الى تلك وبذلك يكون للسلطان الصارم اللطف والرقة وللسلطان المتساهل الحزم والدقة · والفضيلة على هذا النحو تحافظ على القوانين بفطنة ونباهة وتولي ضعف الطبيعة ما يستوجبه وتحمل المرؤوسين على الكمال بدون ازعاج مفرط واذا رفقت بضعفهم فلا تساعد توانيهم وكسلهم

بقي علينا ان نبين ما هي علامات القساوة في السياسة وما هي علامات المساهلة لان في مثل هذه الامور مدخلاً رحباً للخداع والغرور فذوو القسوة يظنون انهم متساهلون وأولو المساهلة يرون انهم من القاسين المتشددين ومن كان ميالاً طبعاً نحو الشدة رآها خلةً حميدة وهبةً سماوية واذا رأى اوامره متممة والقوانين محفوظة فلا يرى وراء ذلك وجوباً للين وعكس ذلك من كان ميالاً الرفق والمساهلة فلا يكره في سياستهِ الا ان يزعج افكار احد الاخوة او ان يكدر صفاء خاطره واذا شاهد الاخوة في راحة وسرور تيقن انهُ بلغ واياهم قمة الكمال الرهباني وان الله جلّت عدالته لا يطالبه باكثر من هذا ·

فلنضع اذاً الحدود التي اذا تجاوزها الحزم يضحي قساوة مفرطة واذا تجاوزتها الرقة أمست افراطاً فاحشاً في المساهلة والتراخي ·

القسم الثاني

في علامات السياسة القاسية

العلامة الاولى

= الامر باشياء صعبة للغاية =

وذلك يكون عادةً في خمسة أمور وهي :

١ً ما لا يطاق من طبعهِ

٢ً ما يحتمل بالطبع الاّ انهُ يفوق قوى الأمور الادبية او الطبيعية

٣ً اذا كان الامر بشيئين قلما يتفقان معاً

٤ً اذا ما كان الامر بمهمتين يستلزم قيام الواحدة اهمال الثانية

٥ً ما اذا لم يعطِ الرئيس الوقت الكافي ولا الوسائط الواجبة للنجاح

ألا ترى في هذه ايماء الى بخل بعض الرؤساء الذين لا يقدمون على مثل هذه الاوامر المخالفة لنظام الفطنة الاّ حباً ببعض الارباح الزمنية التي يفضلونها على راحة الراهب وصحته وربما على دعوتهِ ايضاً ·

فالرئيس حالما يلاحظ ان راهبه مثقلٌ بخدمةٍ ما زمنية تسلب راحة ضميره او لا تسمح لهُ بالقيام بواجباتهِ الروحية · فقبل ان يوضح لهُ راهبه ذلك شفاهاً يجب عليهِ هو ان يرفع عنه مثل هذه الاثقال ولو كان فيها بعض الفائدة للقريب ولان يعطيه فرصة الاختلاء او اقلهُ لتتميم فروضـهِ بتدقيق في الوقت والمكان المعينين لذلك ·

والراهب انما اعتنق نير الرهبنة لاجل خير نفسه اولاً ثم لاجل خير القريب لانهُ لو اراد ان يكون واعظاً فقط او مدير مدرسة او خادم مرضى لامكنهُ ذلك وهو في العالم لكنه في انضمامهِ الى الجمعية الرهبانية رغب اولاً في قداسة

نفسه على اسهل طريقة وامكنها ثم انه يرغب في تضحية ذاته باعمال المحبة والغيرة . وذلك تحت ادارة امينة توليه اجر فضيلة الطاعة المقدسة . فلا يسوغ لذًا لاحد ان يحرمهُ احد هذين الحقين اللذين طلبهما طلباً احتفالياً ووُعد بهما كذلك .

وهذه السيرة الصارمة تكون غالباً مضرَّة بالرهبان العاتين والمتوانين ومزعجة للاخوة الخاضعين النشيطين لان الاولين حين يراهم الرئيس الجبان نافرين من العمل يتجاوزهم ويثقل غيرهم بأشدّ الاوامر وامرّها لانهم خاضعون وممتثلون كل اوامره وانما ذلك تملصاً من مشقة اخضاع العاصين غلاظ الرقاب .

واما بعض الرهبان المتوانين فيصوّرون بذلك لانفسهم شيئاً من الانعام فيعفوا انفسهم من اكثر الاعمال الشاقّة الموجبة عليهم ويلقونها على مناكب الاخوة لعلة او لغير علة .

قد وبخت يوماً ما القديسة تريزيا إحدى راهباتها فقالت : « انك يا اختي ما اتيتِ هذا الدير لخرابهِ واعلمي ان الراهبة التقية والغيورة على شرف رهبنتها وقداسة سيرتها لا ترتضي ابداً ان تحمّل اخواتها اعباء مهمة تقلدتها بل انها تفتش مجتهدةً عن اعمال أخرى لتعملها فوق اعمالها الخاصة .

العلامة الثانية

الافراط بالتثقيل على الرهبان في رسوم وفرائض مختلفة

قد جاء في تأليفات افلاطون ان اغاثون ألقى على الملوك ثلاثة تعليمات قال : « تذكروا أيها الملوك ١ً انكم تحكمون على بشر و٢ً انكم تحكمون بموجب الشريعة و٣ً انكم لا تزالون ابداً على ممر الدقائق تبرزون الاحكام والاوامر الملوكية .

فعلى الرؤساء ان ينعموا النظر في هذه التعليمات الثلاثة ١ً انهم يحكمون على بشر فيهم الروح مستعدٌ واما الجسد فضعيف و٢ً انهم يحكمون بموجب القانون والفرائض و٣ً انهم لا يحكمون الاَّ بالفرصة المناسبة وعند مسيس الحاجة من وقتٍ الى آخر .

وقال تاسيت : « ان لا نازلة على المملكة مثل كثرة الشرائع التي تثقل منكبيها وتلقيها في الوساوس والعراقيل (جورناله السنوي ١ : ٣) ولعمري ان هذا الاَّ دلالة دامغة على قلة حذاقة الرئيس وادراكه مهام وظيفته أو على عدم ثبوته على ما يقصده او على امياله الصبيانية التي تسنُّ شرائع كلما عنَّ لها واخيرًا ان هي الاَّ بينة ناطقة على سوء سياسته على الاطلاق

فالرئيس حالما يثقّل على رهبانهِ او يضيّق عليهم فوق ما تقتضيه رسومهم التي من ذات طبعها ليست برحبة ولا واسعة وعندما يطلب منهم ما لا يجب عليهم الاَّ من قبل المشورة كأَنهُ من الفروض المأمور بها امرًا جازماً كأَنَّ لهُ بمجرد ارادته ان يثقل ما هو من طبعهِ خفيف لان بذلك يُظنّ فيهِ بانهُ ميَّالٌ إلى التباهي والظلم وبان الايام لم تحنكهُ بعد وبانهُ لا عزم لهُ ولا حزم. وانهُ ضعيف عاجز عن القيام بمهمتهِ

١ً (انهُ ميَّالٌ الى التباهي) لانهُ يتظاهر للناس بانهُ حافظ ما يؤمر بهِ وانهُ غير راضٍ بالقوانين والرسوم العادية. فكأَنها غير كافية لترقية رهبانه في معارج الكمال الروحي

٢ً (انهُ ظالم) قال القديس برنردوس : « انهُ لظلمٌ وجورٌ ان يطلب من المدين اكثر مما التزم بهِ نفسه » والحال ان الرهبان لم يوجبوا على انفسهم الاَّ حفظ القوانين المرعية في رهبانيتهم ولم يخطر لهم ببال ان رؤَساءَهم يسنون لهم فرائض ورسوماً جديدة وهكذا لم يلزموا انفسهم بلوغ كل نوع من الكمال ولا بلوغ الكمال على اطلاقه بل بلوغ الكمال المفروض بقوانينهم ورسومهم

فيمكن الراهب والحالة هذه ان يقول لرئيسهِ : لك يا أبي ان تحضني على طريقة الكمال الفضلى ولكن ليس لك ان توجب عليَّ طريقة من طرق الكمال لم تفرضها قوانيننا ورسومنا. لان دستور التزاماتنا انما هو نذورنا ورسوم رهبانيتنا وليس مجرد ارادتك وما تراه اكثر كمالاً » (كتاب الفرائض والانعامات ف ٤ و ٥)

٣ً (ان الايام لم تحنكه بعد) قال الاب بوفيس : « ان من يتطلب كثيرًا لا ينال شيئاً وكما ان للامر والنهي حدوداً لا يتجاوزانها فكذلك للطاعة

حدود لا تلتزم اكثر منها · ولا شك ان كلًّا من الآمر والمطيع يعرف حدود واجباته فاذا تطاول الاول على ما لهُ كان للثاني ان يقصّر في ما عليه حفظاً للمساواة ولذلك نقول انهُ لو قصد الرئيس ان يتملك رقاباً ليس لهُ عليها الاَّ حق الرعاية كان متجاوزًا حدود سلطانه وعوض تقدمه وتقدم مرؤوسيه في النظام والفضيلة يرجع القهقرى لان مرؤوسيه اما انهم يأبون الانقياد لطاعتهِ او انهم يقيمون عليه الحجة بسوء رعايته لهم · (رسالة ١٣)

واذا عزم بعض المرؤوسين على حفظ الفرائض المزيدة لغير داعٍ فيكون اما انهم يتجاوزون فرائض غير جوهريَّة واما انهم لا يحفظون تلك المزيدة الاَّ قسرًا وتظاهرًا للناس لان النير الثقيل لا يحمله احد بطيبة خاطر بل يرغب الجميع في خلعهِ ·

٤ّ (انه لا عزم لهُ ولا حزم) قالت الام مريم دي جوزف الكرملية : « ان كثيرين من الرؤساء يظهرون التمسك والصرامة في أُمور لا طائل تحتها ويزعجون بها افكار مرؤوسيهم بيدَ اننا لا نجد فيهم عند الاقتضاء لا عزماً ولا حزماً للمحافظة على القوانين الجوهريَّة لانهم يأمرون ويتأمرون في أُمور طفيفة كان الاجدر ان يسألوها بلطفٍ ورقة وهم مع ذلك يلتمسون باللين والرجاء ما يجب ان يأمروا بهِ ببأسٍ وسلطان · وما مثل هولاء الاَّ مثل بعض المتحزقين الذين يدعون البأس والشجاعة وقت الامن والسلام واما اذا لمعت سيوف الوغى فتهلع قلوبهم ويسقطون جزعين فشلين

فمر اذا ببأسٍ وسلطان بما كان جوهريًّا مأمورًا بهِ من القوانين امرًا جازماً واما ما كان مفيدًا نافعاً لا غير فاكتفِ بان تبدي فيه رأيك وارادتك على طريقة النصح والمشورة

٥ّ (انهُ ضعيف عاجز) قال الاب برتولي في كتابه حياة القديس اغناطيوس : لا غروَ ان من الروساء من يظهرون الضعف والعجز حينما يتظاهرون بالقوة والبسالة وذلك عندما يصدرون اوامر عمومية تحظر على الجميع امورًا لم يخلَّ بحفظها الاَّ النذر القليل لان اصدار مثل هذه الاوامر لا يكلفهم الاَّ الامر بكتابتها ونشرها بيد ان استئصال الشوائب من بعض المرؤوسين كما تقتضيه

الحكمة والفطنة دونه خرط القتاد من المشاق والعذاب فيحاولون التخلص منه باصدار تلك الاوامر العمومية . ومن ثم يكون تكثير الشرائع وتعميمها دواء شرًا من الداء . ومن شأنه ان يجعل الشرائع العامة محتقرة ويجعل الاصلاح فيها صعباً او مستحيلاً ايضاً

العلامة الثالثة

استعمال بعض عبارات حكمية وحتمية مثل قولهم « انا اريد انا آمر . انا احتم . . »

ان الرئيس الطاعن في السن الذي تكون حنكتهُ الايام لا يكاد يستعمل من هذه العبارات بمدة عشر سنوات مقدار ما يستعمله الرئيس الحدث السن بشهر واحد . ولذلك يتحتم على الرئيس الفطن قبل ان يبرز امرًا بقوة الطاعة المقدسة ان يبتهل الى الله طويلاً ويبحث بحثاً مدققاً عمّا تفرضه القوانين والعادات بشان ذلك . وعليهِ ايضاً ان ينظر الى طباع المأمور والى درجة فضيلته والى استعداداته الحاضرة . ولا يكون الشي المأمور بهِ بهذه الصورة الاَّ من الامور الهامة الجديرة بالاعتبار

ومن الواجبات العمومية على الرئيس ان يسدل على جسم السلطان القشب ثوب اللطف والبشاشة وان لا يتظاهر الاَّ في الزمان والمكان المعدين لهُ ولا يكون ذلك الاَّ في النادر وعند مسيس الحاجة وان يقتصر في استخدام السلطة على ما كان واجباً وكافياً لكمال رهبانه بحفظهم القوانين

ولنسمع ما يقوله بهذا المعنى الاب بينه : ان الملائكة توحي الينا بالافكار المقدسة بلطفٍ ومحبة من دون عنفٍ ولا قسر ومع كونهم مفعمين غيرةً على ان يصرفونا عن الشر ويميلوا بنا الى الخير فهم مع ذلك لا يعاملوننا الاَّ بالوحي الباطن وتنوير العقل باشراق نور الحقيقة والطلب والابتهال . واذا دنت منا هذه الارواح المقدسة دعت لنا بالسلام وابعدت عنا الخوف والاضطراب . قال الملاك رافائيل لطوبيا الشاب « يا اخي طوبيا أتريد ان تتقدم قليلاً في المسير لكي تصل

الى ابيك باكرًا » فلم يقل لهُ اسرع عاجلًا او انا اريد ذلك او امرك بهِ لان مثل هذه العبارات ليست من لهجة اهل السما

وقد جاء في التقليد عن القديس بطرس صاحب المفاتيح انهُ كان يتضرع ويبتهل ويذرف الدموع السخينة في ما يريده من المسيحيين اكثر مما كان يبرز الاوامر القاطعة الجازمة · وقد حذا القديس غريغويوس الحبر الاعظم حذو معلمه ولم يكن يستعمل في اوامره الألفاظ التمني والابتهال مثل قوله : « اذا راق لطفكم ان ... اسمحوا لي بان اقول لكم ... انَّ فضيلتكم ومحبتكم لا تسمحان بمثل ذلك .. اظن بان سيدنا لهُ المجد يطلب منا ومنكم ...

والقديس مكاريوس المدعو اله الرهبان لمزيد استيلائه على قلوبهم وافكارهم كانت هذه عبارات اوامره : « يا اخوتي اصنعوا ما ترونني انا صانعه · لا امركم بشي لا اصنعه انا اولاً .. يا اخي ان كنت لا تقدر ان تصنع هذا فخلهِ وامضِ الى قلايتك وانا اعمله عنك وانا عارف انك لو استطعت عمل ذلك لعملته بكل رضىً فانا ملتزم هذا مثلك فاعمله عنك · واذا رأيت ان تعمل منه قسماً فاعمل ودع الباقي فانا اعمله عني وعنك · اخي قد اثمتَ بهذا ولا اقدر ان اوبخك لاني اثيمٌ انا ايضاً فلذلك اقول لك تشجع وتب ورحمة الله تصفح عني وعنك

وبمثل هذه العبارات وبارقَّ منها كان القديس فرنسيس بورجيا يخاطب رهبانه ...

وقد عثرنا على خطاب لاحد اباء البرية القدماء قال فيهِ : « اذا خاطب الاخ اخاه بالفاظٍ رقيقة وعذبة كان خطابه من روح الله واخوه يسمع لهُ واما ان اظهر سلطانه بكلام جاف فالله الذي يرى اعماق القلوب يسمح بان اخاه او مرؤوسه لا يسمع لهُ ولا ينقاد لاوامره العاتية الصادرة عن روحٍ « خبيث · »

العلامة الرابعة

كلام الرئيس لمرؤوسيه بغلظةٍ وعتو

ان اهم قوة في السياسة الرهبانيــة هي تلك الجاذبية الودية الصادرة عن

النعمة والعارية من كل تصنع ورياء التي تميل اليها القلوب وتنقاد لها طائعةً فرحة

يقال ان الاسد ينقاد بخيط واما اذا شعر بانه مربوط بسلسلة حديدية فيقطعها في الحال ويندفع الى قائده فيفترسه هكذا الراهب الذي قدَّم ذاته لله ضحيةً ومحرقةً بكل طوعٍ واختيار لا يجب ان يعامل بعسف وكره . اما لو حُكم على الرئيس بان يعامل احداً هذه المعاملة فلا يكن ذلك الاَّ نادراً جداً ومع بعض الرهبان العاتين المتمردين ليس الاَّ ورب قائلٍ يقول ان الاباء الاقدمين قد تساهلوا مراتٍ بالجفاء والقسوة تأديباً للمذنبين . فاقول ان مثل هولاء الاباء قد اضطروا احياناً لان يستعملوا القساوة مع بعض الاخوة المتوانين محافظةً على الرسوم والتأديبات ولتمكينها في اول نشأتها اما الان فلم يبقَ من ضرورة لذلك الاَّ في النادر

قال ابن سيراخ (ف ٧) . « لا تُعنت عبداً يجدُّ في عمله ولا اجيراً يبذل نفسه » وقال ايضاً « لا تستهزيء باحد في مرارة نفسه فانه يوجد من يخفض ويرفع » وكان من مبادئ القديس فرنسيس سالس قوله لا تفعل شيئاً بعنفٍ واعتساف بل اعمل كل شيء بحب ورفق . وكان من عادته ايضاً ان يقول : « لا طاقة لي على احتمال اولئك المستبدين الذين يطلبون الطاعة والخضوع من الجميع ابوا او ارادوا فيرغبون بذلك قهر كل ارادة بشرية وان يلووها بعصا السلطان فكانهم لا يرون ما بذلك من الاعتساف والجور المكروه من الله والبشر . فهم لا يريدون ان يكونوا محبوبين بقدر ما يطلبون ان يهابهم ويخافهم الجميع . ومع ذلك فخوفهم من الناس اشد من خوف الناس منهم . لانهم يخافون الجميع ولا يخافهم الاَّ النزر القليل

والحظيرة المعدة لمحبة الله لا ينبغي ان يوجد فيها شي من الاغتصاب والاعتساف بل يحق للخراف التي تأوي اليها ان تكون براحةٍ وطمأنينة

ولذلك نعتقد ان الرب يخاطب الرئيس العاتي بمثل هذه العبارات : يا هذا العلّك استأسرت مرؤوسيك او ربحتهم بغلبة الوغى . او لعلّك ابتعتهم بدرهمك ؟ فهم ابناء احرار قد اتت بهم محبتي الى هذا الدير ليخدموني بحرية الضمائر . فما بالك لا تنظر اليهم الاَّ شذراً ولا تكلمهم الاَّ بتأمرٍ وغضب العلك تريد ابرامهم

ليرجعوا عن عزمهم ويندموا على تكريسهم ذواتهم لخدمتي . ولماذا لا تعاملهم بتلك البشاشة والدماثة التي فطرت عليها وبهما تعامل الغرباء وذوي الحسب والنسب وبمَ عساك تجود على مرؤوسيك ان كنت تبخل عليهم بالكلام اللين الرقيق ؟

العلامة الخامسة

سد الرئيس اذنيه عن استماع التشكيات والاعتذارات

قال العلّامة الشهير بوسويت : ان من الثبات والحزم ما قد يكون باطلاً ومضرًا ولنا مثال ذلك في فرعون عندما عاند صوت الله متصلباً في رأيه فانهُ لم يظهر بذلك حزماً ولا عزماً بل عصياناً وتمردًا على الحق الوضاح وهذا ما جرّ الوبال عليهِ وعلى مملكتهِ . ومما لا يختلف فيهِ اثنان ان استبداد الملك وجوره لهو نازلة طامية على المملكة باسرها كيف لا والملك يضحي كعدوٍ الد لا يعطف قلبه رجاء ولا تاخذه شفقة ولا يقعده عن اتمام غرضه واشباع شهواته شي من الموانع ولا يريد الاَّ اخضاع الرقاب طوعاً او قسرًا . فالذي قال « لا تتقلب مع كل ريح ولا تسر في كل طريق » (سيراخ ٥) قال قبل هذا « لا تستحي ان تعترف بخطاياك ولا تغالب مجرى النهر » وعلى هذا فكما ان الخفة والطيش يضران بالسياسة فكذلك صلابة الراي المفرطة تضر بها ايضاً

ان رحبعام لما سمع لمشورة الشبان الجهلة واظهر لشعبه القسوة وصلابة الراي خسر من رعيته عشرة اسباط فقد كان طلب اليهِ الشعب ان يخفف عنهم الخراج المفرط الذي ثقل بهِ ابوه رقابهم فالشيوخ الذين كانوا عارفين بحالة الشعب وطباعهم لشاروا عليهِ بان يخفض عنهم بعض ما كان يزعجهم وان يلاطفهم بعذب الكلام ورقيقه اما الشبان الذين استشارهم بعد الشيوخ فاستهانوا مشورة الشيوخ وعدوها جبانة واوعزوا اليهِ ان ارفض طلب الشعب وتهددهم باقسى الكلام واشد الوعيد قصد القاء الخوف والرعب في قلوب المتطلبين ولئلا يحتقر سلطانك ويداس من الشعب . فكان عليهِ اذًا ان يدقق في الامر ويتفهم استعدادات

الشعب وقتئذٍ وان يسلّم بما لا مناص منه · فالاشجار ان لم تلتوِ امــام الرياح العاصفة تُكسر كسرًا : (السياسة المقدسة ك ٤)

وعليهِ فاذا اتاك مرؤوسك متعللًا معتذرًا فلا تتخذ اعتذاراته كتعنيفٍ لك او عدم خضوع بل استمع لهُ بلذة وتسامح معهُ ما استطعتَ · لانك اذا انفتَّ منهُ ولم تصغِ لتشكياته وحكمت عليــهِ بدون تروٍ وتدبرٍ وابيتَ بعد ذلك الرجوع عن حكمك وازددت صلابةً وجفاء بمقابلته ومخاطبته فانك بذلك تجلب لنفسك مزيد التعب وتفتح سبيلًا لتشويشاتٍ شتى عمومية فأمِت اذًا نفسك بمثل هذه الظروف وقل يا ما اقل صبرنا ويا ما ابعدنا عن سلفائنا في امر الفضيلة

واما اذا لم ينثنِ الرئيس عن المكابرة والمعاسفة فالطبيعة تأنف الخضوع وتتذرع بكل الوســائل لكي تنجو من ربقة الطاعة وتتوصل الى العصيان والخلاعة

قالت الام مريم دي يوسف : « انهــا لقساوة بربرية ان لا يلاقي المرؤوس عند رفعه تشكياته الى رئيسه الاَّ الصياح والنفور لقد اذنب آدم وعرف الله ذنبه ومع ذلك استمع تعالى لهُ فلماذا لا تقتدي ايها الرئيس بلطف ربك ذي الجلال · ثم الا ترى انك برفقك بمرؤوسك واستماعك لهُ بطول اناة تضمد جراحه وتعزي قلبه وتصلح مزاج طباعه فتجعله ان يسمع ويتروى ما تقوله لهُ او تامره بهِ فيرضخ للحق والطاعة وامــا ان لم تسمع لهُ فيبقى مصرًا على غيهِ ومعتقدًا ان الحق والصواب بجانبه »

ومن مبادي الظلمة العاتين ان ذا السلطان لا يرجع باوامره ولا يقف سلطانه عند مانعٍ من الموانع فكأنَّ الخضوع للصواب او للضرورة امرٌ عائب او حقير

نعم انه لا يجدر بالرئيس ان يكشف عادةً لمرؤوسيه كل ما عنده من المقاصد والغايات لانه بذلك يضيّع عليهم استحقاق الطاعة العمياء · ومع ذلك قد توجد في بعض الظروف اعمالٌ لها ظاهر الشر ومن شأنهــا ان تلقي في عقول البعض سجساً وشكاً فالمحبة حينئذٍ والتواضع يوجبان على الرئيس ان يبين ما لهُ فيهــا من المقاصد الصالحة كما صنع القديس بطرس لما ندد بهِ المؤمنون في زيارته كرنيلوس قايد المائة وتعميده لهُ وهو وثني

العلامة السادسة

هي ان الرئيس يرفض كل ما يطلب منه او انهُ لا يهب شيئاً الأ بكرهٍ واشمئزاز

هذا الامر لا يضرُّ بالمحبة الرهبانية فقط بل بروح التمدُّن ايضاً

انهُ لما كان الانسان من فطرتهِ ميَّالاً الى عزَّة النفس ومحبة المجد وكان يشقُّ عليهِ ان يسأل حاجته ترتب على الرئيس ان يسبق فيعرف احتياجات رهبانه ورغباتهم قبل ان يطلبوها ويعطيهم كل ما امكن بجبٍ وهشاشة . واما ما يضطر لرفضهِ فيرفضه بلينٍ ورقَّة .

ولا خلاف في انهُ قد توجب الحال احياناً ان يظهر الرئيس لمرؤوسهِ شيئاً من الغيظ والتسلط ليحمله بذلك على فضيلة الكفر بالذات والاماتة

انهُ لامرٌ سهل على الرئيس ان يناصر ويظهر بطشه على مرؤوسيهِ باصداره لهم اوامر جازمة وتحريمات قاطعة مطلقة الأ ان ذلك لا يدل الا على خفة عقله وقلة فضيلته .

فكثيراً ما يحاول بعض الرؤساء ان يخفوا تحت طي الغيرة والحمية فظاظة طباعهم التي لم يحسنوا تهذيبها وخساسة صفاتهم التي لم تكن لتوليهم اعتبار مرؤوسيهم واجلالهم غير ان مساعيهم هذه تذهب عبثاً لانهُ كما ان الرئيس الفاضل الذي يغار على التهذيب الرهباني لا يُعدّ فظّاً عنفاً فكذلك الرئيس العاتي ذو الطباع القاسية لا يُعتبر من ذوي الغيرة والحزم .

اما من كان متصفاً بالحكمة ودماثة الاخلاق فانه قبل ان يرفض طلب احد مرؤوسيه يتأمل طويلاً ولا يسمع لاهواء الطبيعة الامَّارة بل انه يلاطف الطالب ويبين لهُ بكل رقة ما يمنع اجابة طلبه حتى انهُ في غالب الاحيان يحمله على ترك طلبه من تلقاء ذاته . وهكذا بعد اطالة الفكر والعزم على رفض ما يطلب منه يظهر انهُ شديد الميل الى الاجابة وان رفضه لم يكن الأ رغم ارادته ورغبته . اما اذا رأى بامكانهِ اجابة الطلب فيظهر ايضاً انه مسرور بالاجابة بل انه يرغب

في ان يعطِ اكثر مما يطلب منه بنوع ان الطالب يرى كأنهُ نال ضعف مطلوبه

ولنسمع ما جاءَ بهِ بهذا المعنى غراسيانوس في كتابهِ (رجل البلاط مبدا ٧٠) اذ قال : غير ممكنٍ للوالي ان يمنح كل ما يُطلب منه ومن ثمَّ فمعرفة رد الطلب ليست بأقل اهمية من معرفة اجابته والحاكم يفتقر الى هذه المعرفة كل الافتقار ·

فيجب ان يعرف كيف وبأي نوعٍ يعطي او لا يعطي فمن الناس من اذا لم يُعطِ يرضي الطالب برقّة لسانه اكثر من الذي يعطي · فكم من اجابةٍ للطالب تكون من زيادة التعنيف والتمنين اشدّ مرارةً من رد الطلب برقّة ولطف · وكم من الرؤساء الذين لا يعرفون ان يصدِّروا اجوبتهم الا بلفظة (لا) فمثل هؤلاء وان اتفق لهم في آخر الامر ان يجيبوا سؤال الطالب الا انه لا يظهر لهم بذلك جميل · فاذا رددت الطالب خائباً فلا تسقهِ كأس الخيبة جرعةً واحدة بل جرعات فتسهّل الواحدة طريق الاخرى واياك وان تخيب كل طلب لئلّا ييأس جميع مرؤوسيك بل أرِهم انك مستعد للاجابة ما أستطعت فتحلى لديهم مرارة كأس الخيبة عندما لا يكون مناصٌ منها ·

فلا تكن اذاً من عداد المستعدين دائماً لرفض كل طلب ولا من الذين يُسرُّون بتعنيف الطالب قبل اجابة طلبه · قال ابن سيراخ (١٨ : ١٥) يابنيَّ لا تقرن الصنيعة بالملام ولا العطية بكلام التنغيص · أليس الندى يبرّد الحر هكذا الكلام افضل من العطية · تعيير الاحمق مكروهٌ وعطية الحاسد تكل العيون

العلامة السابعة

ان يتّبع الرئيس مرؤوسيه في كل خطوة ولحظة ليرقب بذاتهِ كل اعمالهم وافكارهم

من الرؤساء من يسعون بأقصى جهدهم وراء كل حركة من حركات مرؤوسيهم ويكثرون التساؤل عنهم في الداخل والخارج ويدَّعون معرفة الباطن من بعض ملاحظات خارجية ويُسرُّون أي سرور اذا ما صادفوا بغتةً احد الاخوة يقول قولاً او يعمل عملًا لا يحسن باعينهم ولعمري ان ذلك الاَّ من خسة

افكارهم وضعف عقولهم لان العاقل الرزين لا يتطاول مثل هذه المطاولات بل انه وان سهر بتدقيق على سيرة الاخوة فلا يرقب الا ما ترشد اليهِ الحكمة واما الباقي فيدعه لحراسة الله الذي يرى خفايا القلوب ·

هذا وما عساه يكون من نتيجة هذا التنقيب والتدقيق سوى معرفة الظاهر لا غير لان الراهب متى رأى رئيسه يسيء الظن فيهِ ويراقبه هذه المراقبة الشديدة يخفي عليهِ كل ما يعمله ويفتكر بهِ ·

ولهذا كان يقول القديس اغناطيوس اجدر بالرئيس ان يُخدع احياناً من ان يظهر عدم الثقة برهبانهِ · ولانسيوس يرغب من كل رئيس بألاَّ يدخل على احد رهبانهِ وقت الصلاة والتأمل لئلَّا يظن بهِ انه داخل لاجل المراقبة اما اذا دعت الضرورة لمثل هذا الدخول فيجدر بهِ ان يبين للحال سبب دخوله · قال العلَّامة والفهامة فينيلون في كتابهِ (تاليماك) ما ملخصه : ان من افرط بحرصهِ كي لا يُخدع بشيء ولو طفيف ُخدع بأمورٍ كثيرة خداعاً فظيعاً ·

وقد تكون نتيجة هذه المراقبة الدقيقة ان يؤخذ البار بجريرة المذنب · قال الحكيم (امثال ١٧ : ١٥) : مبرّر الاثيم ومؤثم البار كلاهما رجس عند الرب

وعليهِ فيجب على الرئيس ألاَّ يتظاهر البتة بانه هذَّب رهبانه وثقف عاداتهم بل ليظهر للناس انه لم يجد فيهم الا الكمال ولا يرى انهم يفتقرون الى ان يُضيَّق عليهم بشيء لانهم يعملون واجباتهم من تلقاء ذواتهم · ان الملوك والولاة يغتصبون رعاياهم لتأدية الجزية اما الرهبان فقد اخذوا على ذاتهم ان يؤدوا لله جزية المحبة من دون ان يغتصبهم أحد وهو تعالى لا يقبل منهم هذه الجزية ان لم تكن مقدمة لجلالهِ عن رضىً باطن وطيبة نفس · نعم ان الرهبان قيَّدوا انفسهم بسلاسل النذور غير انهم يريدون ان تكون هذه السلاسل لينة وطويلة لكي يسيروا فيها بنشاط وسرعة من دون تكلف ولا انزعاج · واننا لنرى في سيرة آباء البرية انهم كانوا يدعون لرهبانهم مثل هذه الفرص الحرة للغيرة والمنافسة · قال لانسيسيوس في كتابهِ (شروط الرئيس الصالح) : انه يجدر بالرئيس ان يتحاشى بكل جهده التظاهر لاحد مرؤوسيه انه عارف بعيوبهِ او بنقصان فضله عن باقي الاخوة وانه من جرَّاء ذلك لا يثق بهِ كل الثقة لان ذلك يزعج المرؤوس

ويضعضع افكاره ويلجئهُ الى التذمر وربما الى اعظم من ذلك اجارنا الله من وساوس ابليس ·

العلامة الثامنة

غيرة الرئيس المفرطة على الاحترام الواجب لمقامهِ

قد يتفق احياناً لبعض المرؤوسين ان لا يقدموا لرؤَسائهم كل الاحترام الواجب لمقامهم وذلك في بعض اجوبة فظة او اعتراضات تافهة او اعتذارات يشمُّ منها رائحة العصيان فعندئذٍ يجدر بالرئيس العاقل ألاَّ يقلق مضطرباً بل يتظاهر كأنهُ لم يسمع او لم يدرِ بما كان من مرؤوسهِ لان ذلك لا يضرُّ بسلطانهِ اذ انه بفرصة مناسبة يقدر ان يعززه ويرفع شأنه ·

اما اذا اخذ الرئيس ان يغار على سلطانهِ غيرةً مفرطة معتبرًا كأهانة لهُ كل كلمة او حركة تدلّ على شيءٍ من الحرية او الدالة وطفق ينقب عن كل ما يقال فيه من مرؤوسيه وبالاخص لو بدأ ان يظهر الغيظ والكراهية لكل من يقول فيه كلمة ولو كان من محبيهِ وأعزّ اصدقائه وانما ذلك لتصوره انهم نقَّصوا اعتباره واجلاله فلا شك انه يضحى عرضةً للهزء والامتهان قال القديس برندوس عن مثل هؤُلاء : « يا ما اشدّ عزمهم وغيرتهم على شرفهم وسلطانهم ويا ما اقل همهم بقداسة سيرتهم وكمالهم الرهباني »

ولعمري ما هذه الغيرة المفرطة الا دليل قاطع على الكبرياء وصغر النفس لان منْ تجند بمثل هذه العبارة لشرفهِ ابان ان اساس شرفه ضعيف وان أدنى ريح تقوّضهُ لانهُ مبني على رمل محبة الذات · فالاسد والفيل لا يلتفتان الى الوراء لينظرا كلباً ينبح عليهما اما الذبابة فتلسع حالاً من لمسَها

وبعدُ فمن الضرورة ان يصادف الرئيس مثل هذه المقاومات وان لم يغضِ عنها فيزداد قلقاً واضطراباً لانهُ لا يقدر ان يضبط ألسنة الجماعة · فقبل ان يكون رئيساً لم يكن لاحد ان يأتي بذكره خيرًا او شرًّا اما الانَ وقد تولّى ذمام السلطان ومهماز التوبيخ فلم يبقَ لمرؤوسيهِ شاغل يشغلهم عن مراقبة كل اقواله

وحركاته والتنديد بها شيئاً فشيئاً هذا ولما كانت اعمال الرئيس خاضعة لبحث العموم كانت آذانه معرضةً كذلك لسماع اقاويل شتى تتوارد عليه من كل جهة ولاسيما اذا كان سريع التصديق او قليل الثقة أو كمن تأخذ منهم الدغدغة مأخذها حتى لا يعرف ان يميز صحيح الاقاويل من فاسدها فيقع في حيص بيص وتزداد كربته ومرارة نفسه في بعض الاوقات الى حد اليأس واشتعال نار الغضب

فما العمل اذاً هل ان نمنع مثل هذا التنديد او ان ننتقم من قائليه او ناقليه كلاً بل الاجدر بنا ان لا نكترث له ولا نعيره اذناً صاغية لاننا لو انعمنا النظر في هذه الاقاويل لوجدنا ان بعضها ناجم عن حسد او طيش وبعضها عن بلادة وغباوة والفريقان احق بالشفقة والرحمة منهما بالبغض والانتقام · اما ذوو الخبث والرداءة الذين يتاجرون بهذه الاقاويل ويستحقون البغض فهم قليلون · قال ساوِدرز في كتابه المقدم ذكره (ف١٤) : « ان العجب والافتخار بالمدائح دليلان على صغر العقل · والاهانة من الامور الطفيفة الخسيسة اشارةٌ الى ضيق الصدر · واخذ الثار عن كل شيء هو عمل الظالمين ولا غروَ بان هذه المبادىء الاساسية هي التي حملت عظماء الملوك مثل تاوادوسيوس واركاديوس وانوريوس على ان يوعزوا الى وزيرهم دوفينوس بمزيد الالحاح الا يعاقب احداً عن تذمره منهم معتقدين ان المتذمر ان كان من ذوي الخفة والطيش فلا يُلتفت اليهِ · وان كان من ذوي الحماقة فالاجدر احتماله وان من ذوي الخبث واللوم فبالمسامحة لهُ فضلٌ كبير · لا شك ان الملك جدير بان يقف على كل الحقايق الاَّ انهُ لا يليق بجلاله ان يفحص عن الامور الطفيفة الدنية · فالرومانيون لم يكونوا يسألون في شرائعهم عن الكلام بل عن الاعمال ولعمر الحق ان الكلام ولاسيما متى كان عن غير انتباه لا تأثير له مثل الاعمال المقصودة ·

وعليه فذوو الضمائر السليمة لا تراهم يعتدون بما يقال فيهم اما الاشرار فيوقعون بمن تذمر من شرهم شرَّ العقوبات وانكاها ولذلك يقال ان عدم الالتفات الى المتذمرين توبيخ لهم واسكات اما عقابهم فبرهان على صدق مقالهم

العلامة التاسعة

وهي اظهار الميل الى فريق دون آخر

وذلك ١ً في الاكرام وهو ان الرئيس يفضل في الاكرام لغير داع صوابي بعض ذويه على غيرهم وذلك مثل اصحابه او اهل بيته او اقاربه او المزمع ان يخلفه في الرياسة او ذوي السياسية او اصحاب القلوب السليمة والطباع اللينة ومن كانت احاديثهم عذبة ولاسيما الذين يعتنون بمداراة خاطره وسائر مصالحه الخصوصية ·

٢ً في التونيب والتوبيخ وهو ان يتعمد الرئيس احياناً القساوة محاذرة ان ينسب اليه الجبن والتواني الاَّ ان صرامة توبيخه لا تكون الاَّ لاولئك الاخوة المساكين المهملين من كل احد · واحياناً ينهي عن بعض الامور نهياً مطلقاً ويحرم تحريات عمومية يقلق بها الضمائر السليمة وما ذلك الا ليتحاشى تنبيه البعض بنوع خاص او تبكيت كلٍّ باسمه

انه لمن المحقق الثابت ان لا شيء يولي الرئيس مجداً وتمكيناً في اعماله مثل العدالة والنزاهة لقد كتب في المزامير (٩٨) : « ان شرف الملك يطلب العدل » وماذا تراه يجعل الملك شبيهاً بالله سوى العدالة والاستقامة فقد تهدد الرب من عرج عنه هذا السبيل باشد العقوبات وامرّها وقال: « اصغوا ايها المتسلطون على الجماهير فان سلطانكم من العلي وهو بين يديكم وديعة فليس لكم ان تفرطوا بهِ كأنه لكمْ ومنكم » (حكمة ٦)

وهب ان الرئيس بتعصبه لبعض مرؤوسيه في ما يغاير القسط والانصاف قد استمالهم الى غرضه فاصبحوا له مخلصين وعلى مصالحته غيورين ولكن هل ترى اخلاص هولاء وغيرتهم يوازي كراهية الآخرين له وانخفاض شانه عندهم

ومن شأن هذا التعصب ان يولد الغيظ والتذمر والحسد وعدم الثقة والبغضاء وان ادّعيت ان تعصبك لا يغاير الانصاف لانك انما تقصد بهِ اعطاء كلٍّ حقه اجبتك انه لو قدّرنا صدق ما تدعي وصفاء نيتك الاَّ ان التعصب الظاهر وتفضيل

الاخ على اخيه على مرأى ومشهد من الجميع من شأنه ان يثير تلك الحاسات المقدم ذكرها لانه قلما يوجد بين الاخوة من يعدُّ نفسه اقل استحقاقاً من اخيه . فكلٌ يرى لنفسه حظاً مما تقدمه لاخيهِ من الاكرام والتجلة وما دام لا ينال من ذلك مثل اخيه يظن انهُ مظلوم ومهان . لان الراهب لا يكتفي بان يساوي اخوته في الثوب فقط ولهُ حق بان يساويهم شرفاً واكراماً

واذا كان بين الاخوة راهب لا يطيع من الروساء الاَّ من ارتبط معه بعلاقات ودية خصوصية الا يقول لهُ رئيسهُ ان طاعتك هذه ليست بطاعة رهبانية لان الراهب يجب الا يرى في شخص رئيسه الاَّ الله ذاته وبذلك كل رئيس يضحي لديهِ محبوباً مطاعاً ولكن أليس لمثل هذا الراهب اذ ذاك ان يجيب رئيسه المتعصب بقوله وانت ايضاً حقيق بالاَّ تلاحظ في مرؤوسيك الاَّ شخصا واحداً لان الراس مدين للاعضاء كلهم معاً وليس لهُ ان يكرم الواحد ويهين الاخر ولا ان يحب هذا ويكره ذاك . » (مودست دي سانت امابل في الرئيس الكامل ك١ ف٢)

ورب قائل يقول هل الصداقة محرَّمة على الرئيس وحده الا يسوغ لهُ ان يحب كلاً بنسبة فضله واستحقاقه؟

اجيب لا شك انهُ يوجد بين الجماعة من يفوق اقرانه بالفضل والفضيلة ويستحق بذلك اجزل محبة واسمى اعتبار . ويخلق بالرئيس ايضاً ان يعطي كل ذي كرامة كرامته الاَّ انهُ لا يسوغ لهُ ان يلحق بالمحبة العمومية ضرراً ولا ان يشعل في قلوب البعض نار الحسد والغيرة بل يجدر بهِ ان يستر شعائر حبه الخصوصية والاَّ يظهر للرهبان جميعهم الا عواطف ابوية عمومية وبدون ذلك يقال فيهِ انهُ يحابي في سياسته وينحرف عن خطة الاستقامة

القسم الثالث

في العلامات التي بها يعرف الرئيس انهُ متغاضٍ وكثير التسامح في سياستهِ الرهبانية

العلامة الاولى

هي ان لا يهتم الرئيس الاَّ بالمسائل الهامة في الغاية

يحتج الرئيس المتساهل بقوله ان حفظ الفرائض بالاجمال كافٍ لحفظ النظام الرهباني وقداسة الرهبان وعليهِ فلا بأس اذا اخـل نفرٌ من الاخوة في بعض الفرائض لان هذا لا يضر في النظام ولا في الروح الرهبـاني ولاسيما اذا كان لا يحدث شك من هذا الخلل · والحال ان بعض الخلـل الذي لا يكون الاَّ من بعض الاخوة لا يحدث شكاً ·ومما يؤيد هذا نص الفرائض فاننـا لا نرى فيه شيئاً يدل على تثقيل الضمائر ومزيد الاهمية لمثل هذا الخلل

ولكن وآسفاه ما فائدة هذه الفرائض اذا كان الرئيس المـدّجج بسلاح سلطان الله ليحافظ عليها باجمعها لا يحافظ الاَّ على البعض منها ويتسامح بما بقي · فما هذا التمييز وانى لنا ان نعرف اي الفرائض عيَّنها لنا القانون لنحفظها بتدقيق واليها يسوغ اهمالها ·ومن تراه قلد الرئيس سلطاناً لهذا التمييز

ان الحياة الرهبانية هي جسم يتألف من حفظ فرائض عديدة مختلفة وهي لهُ كالاعضاء فلا يقوم الاَّ بها · وهل لعاقل لبيب ان يتصور انه يكفيه الاعتناء في بعض اعضاء جسمهِ التي يخالها اوفر ضرورة او لزوماً للحياة او للقوة ام للجمال وان يهمل الباقي منها ؟ فلا شك اذاً بان موسس الرهبانية لم يستخف بفريضةمن الفرائض التي رسمها لرهبانيته مهما بانت لديك خفيفة لانه لم يفرض فريضة لغير داعٍ موجب وبدون سهر وصلاة ودموع غزيرة · واذا توسمت في عباراتهالرقة واللطف فانما ذلك لكي يحملك على حفظها بمجرد مبدأ المحبة الذي يجب ان

يكون للراهب مبداء عام ومفتي عن الفرائض نفسها

ولعمري لو اعددت جنودك للحرب وأتيت عليهم خطبة حماسية ثم امرتهم بالنزال وبعد هذا اذنت لمن شاء منهم ان يخرق صفوف المعسكر ويفر هارباً الاّ انك اوصيته الاّ يبدي هذا في حومة الوغى بل في بعض المناوشات. أتراك بهذا تسير بعسكرك الى الظفر ? لا بل الى الهزيمة والعار . وهكذا لو وضعنا فرائض عجيبة واذعناها بمجالي الابهة والاحتفال ونذر الرهبان على ذواتهم حفظها وبعد هذا نظر الرئيس رهبانه يخلفون وعدهم ويتجاوزون فرائضهم ولم ينههم عن ذلك مدعياً ان لا شر عظيم ولا شك جسيم في تجاوز بعض الفرائض فهل ينهج للرهبان مناهج القداسة والكمال ?كلاً بل يفتح لهم ابواب الهلاك ويقوض اساسات الرهبانية وهو على ما قاله مودست دي سانت امابل (الرئيس الكامل ك١ ف٥) : « لا يهتم بان يسير على ارادة الله بل انهُ يسعى وراء امياله ولا يطلب ما هو عدلٌ بل ما هو مرضٍ له لان الله جلَّ شأنه يريد حفظ الفرائض باجمعها . ولا تقل ان بعض الفرائض قليل الاهمية ولا يؤتي الله الاّ مجداً يسيراً لان الفرائض بجملتها هامة وهي كسلسلة لا تنثك منها عقدة حتى تتفكك كلها عقدة عقدة بالتتابع

ان خرق الفرائض الرهبانية ولو بان في بادي الامر خفيفاً وطفيفاً الاّ انهُ مع تمادي الزمان يكون داعياً لدمار الرهبانية التام . فالبنايات العظيمة لا تقوى على هدمها عادة السيول الجارفة ولا العواصف القوية ما لم يحدث فيها بعض الخرب ولا تُصلح عند مسيس الحاجة . وهكذا من جداول ضعيفة تتكوَّن الانهر العظيمة والنار مهما استعر اجيجها لا تكون في بدء امرها سوى شرارة صغيرة «وكذلك الحجارة ولو صلدة تبريها المياه بجريها المتواصل» (ايوب ١٤)

العلامة الثانية

هي ان يكون الرئيس سريع التصديق في قبول اعتذارات مرؤوسيه وتصويب ما يدعونه لتبرئة انفسهم

تقدم لنا ان من الرذائل ما يشبه الفضيلة ويتزيا بزيها . فصغر النفس مثلاً

يشبه خفض الجانب والمراعاة وهو عنها بعيدٌ جداً وكما انك اذا لم تراعِ مرؤوسيك قط او لم تراعهم الاَّ نادراً جداً وهم لم يتعودوا احتمال مضض الشدة توغر صدورهم حنقاً وغيظاً فلذلك اذا اكثرت من مراعاتهم والتساهل معهم تدفعهم الى الفتور والكسل اذ هم يميلون طبعاً الى خلع نير السلطة والاستقلال بالرأي والعمل · فكم من الرؤساء يتوهمون فضيلة الدعة والمراعاة في انهم لا يرفضون على مرؤوسيهم شيئاً ويسلمون باعتذاراتهم ويصدقون كل تشكياتهم ومدعياتهم ؟ ·

ان المثل يقول : « من لم يعرف ان يرفض لا يعرف ان يملك » وقد صرَّح سيدنا يسوع المسيح بما هو بمعناه ان الاب الذي لا يرفض طلب ابنه عندما يدعو الى ذلك داعٍ لا يكون اباً صالحاً اذ قال : « اي انسان منكم سأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً او اذا سأله سمكةً فيعطيه حية (متى ٧ : ٩) فعلى ذي السلطان اذا كان حكيماً ان ينظر في ما اذا كان المطلوب منه خبزاً او حجراً سمكةً او حية ليعرف بذلك هل عليه ان يجيب الطلب او يرفضه لان الطالب لا يرغب الا في ما فيه خيره

فاحذر اذن اولئك الرهبان المداهنين الذين لا يبتغون بتمليقاتهم ومداهناتهم الاَّ قضاء حاجاتهم وشفاء غليلهم · واحذر ايضاً الرهبان الذين يدعون الضعف والقصور وهم منشغلون ابداً في الاحتجاج على السلطة ومقاومتها وكأنهم يستأجرون من يساعدهم على هذه المكابرة والعصيان · وينتحلون لانفسهم المهابة والاعتبار بازيائهم العاتية ولهجتهم الغليظة العالية · فمثل هولاء الرهبان اذا ما استأنسوا بمساهلتك وضعف قلبك توصلوا شيئاً فشيئاً الى ان يسنوا لنفوسهم سنناً ورسوماً تباين كل سنة وقانون

ولنسمع ما يقوله بهذا الصدد العلاَّمة الفهامة بوسويت وهو : ان التسلط بالارهاب لازم في سياسة البشر لما هم عليهِ من الكبرياء وصعوبة الانقياد · فمن الواجب الضروري ان يهاب الشعب ملكه لانهُ لو كان الملك يخاف شعبه لا يبقى لهُ حيلة في سياسته · ان هارون الذي سلمه اخوه موسى قيادة الشعب الاسرائيلي صار من جراء خوفه وتساهله المفرط علةً لان يعبد ذلك الشعب العجل الذهبي

ولما انحدر موسى من الجبل قال لهارون : « ماذا صنع بك هولاء الشعب حتى جلبت عليهم خطيئةً عظيمة » (خروج ٣٢) فانه نسب الى هارون خطيئة الشعب لانه لم يردعهم عنها وهو المتسلط عليهم · فاعتبروا هذا الكلام : « ماذا صنع بك هولاء الشعب حتى جلبت عليهم خطية عظيمة » ان فيهِ حجة ناطقة في بغض الرئيس لمرؤوسيهِ ان لم يردعهم عن الشر وقت الاقتضاء · فاجاب هارون : « لا يضطرم غضب سيدي انت عارف بالشعب انهم اشرار فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير امامنا فان ذلك الرجل موسى الذي افرجنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه » فما هذا الاعتذار وهل للملك ان يهاب شعبه او ان يخاف ان يغيظهم فان الله جلّت عدالته لم يقبله بل حنق على هارون واراد ان يسحقه سحقاً لو لم يسألهُ موسى العفو عنه · فعلى الملك اذاً ان يرفض طلب الشعب متى كان مغايرًا للعدل والانصاف لان خوف الملك المفرط يفضي بهِ اخيرًا الى ذنب ضعف القلب · قال ابن سيراخ (٢٠ : ٢٤) : « من الناس من يهلك نفسه من الحياء وانما يهلكها لاجل شخص الجاهل · « لانه طاوعه بجهله » والسياسة المقدسة ك ٤ قضيه ٦)

العلامة الثالثة

- هي عدم المعاقبة على بعض الذنوب والنقائص

قال ابن سيراخ (٧ : ٦) « لا تبتغِ ان تصير قاضيـاً لعلك لا تستطيع ان تستأصل الظلم فربما هبتَ وجه المقتدر فتضع في طريق استقامتك حجر عثارٍ · » ان سياسة الخوف والجبانة تشير على صاحبها بالاغضاء عمَّا يراه من التشويش في النظام · والحكمة تشير ايضاً بذلك ولكن عندما ترى ان ليس في العقاب خير بل تصلبٌ في الشر ومن ثم تجد بوناً عظيماً بين الحكمة والجبانة التي تعفو عن المذنب وترى مع ذلك ان في عفوها تضحية الخير العام · فالذب عن حفظ الرسوم والفرائض مرة بحزمٍ وجزم يغني عن تكرار التنبيهِ والاصلاح · لانهُ كما ان الرخاوة في بادىء الامر تورّط في المعاثر كذلك الصرامـة تصلح الطباع وتنجي من العيوب

ولنأتِ على بيان ذلك ببعض الاسهاب فنقول

اولاً ان الرئيس المتساهل لا يواخذ مرؤوسيه بزلاتهم الاَّ نادراً جداً محتجاً بانه من الواجب ان نعذر ضعف الطبيعة وان نذكر اننا مجبولون من الطين والصلصال

ثانياً يتعود عدم المبالاة بزلات البعض اليومية مستصغراً اياها كأن تكرارها المتواتر يخفف جرمها او يسوّغ ارتكابها او يخفض من شرها

ثالثاً لا يعرف ان يميز الزلات المستوجبة للعقاب مما سواها كتلك التي تلقي الشكوك وتزرع الخصومات وتفتح ابواباً للعادات الرديئة

رابعاً لا يقتص جهاراً من الذنوب الظاهرة جاهلاً او متجاهلاً ان في العقوبة عن الزلة الظاهرة صيانةً وحياةً للفرائض وتأييداً لسلطان الرئيس ونصحاً نافعاً لسائر الجماعة

خامساً اذا وبّخ احد المذنبين فانهُ يعود الى مسامحته حـالاً بلهجة الرقة والمذلة كأنهُ يطلب المسامحة منه لانه افرط الصرامة بحقهِ . وبهذا يفقد التونيب مفعوله ويضاعف قحة المذنب

سادساً وعند نظره من يخترقون الفرائض والرسوم يكتفي بان يئن ويمتعض في داخله كمن اقيم لحراسة المعسكر فاذ يشاهد العدو مقبلاً يظن انه يقوم بواجب الحراسة اذ يقول بنفسه : اني لمستاء جداً من قدوم العدو علينـا لكني لا انفخ بالبوق حذراً من كذا وكذا : او ان ذلك الرئيس يشبــه ربأن مركبٍ يكتفي بانه اكتشف وجود الصخرة المزمعة ان تصدم سفينته فتحطمها ولكنه لا يتكلف اذ ذاك ان يدير الدفة بيده ليأمن الخطر وتنجو السفينة من الغرق

سابعاً نراه يتغاضى عن معرفة كثرة الزلات واذ ذاك يُعد تغاضيــه اذناً مضمراً بمخالفة الفرائض فيظن المرؤوسون بانه راضٍ عن كل ذنب يتمكن من استدراكه ولم يفعل

ثامناً يعدُّ من من باب الديذونة الباطلة بعض الظنون المؤيدة باقوى البراهين كأن الرئيس لا يحق لهُ بل لا يجب عليهِ ان يستند على تلك الظنون والملاحظات حباً بخير الجماعة كما سنثبت ذلك في باب الاصلاح الاخوي

تلمساً لا يعتد بالشكايات التي تبلغه عن المذنبين ولا يبالي بما يتأتى عن ذلك من الضرر اذ يهمل الاقتصاص من زلاتٍ ثابتة ومؤكدة لم يكن ليصل الى معرفتها بغير تلك الطريقة ويغلق بوجه الاخوة ذوي الثقة والضمير باب النصح والملاحظات ويبالغ بمس شخصياتهم غير واثق بصدقهم ونزاهتهم وفطنتهم . وقد قال حزقيال (١٣ : ١٨) : « ويل يقول السيد الرب للآتي يخطن وسائد مرفق يدٍ ويضعن مخدات لكل قامة لاصطياد النفوس » يقول القديس غريغوريوس ان مرفق يد الخاطي يستند على الوسادة ورأسه على المخدة لما لا توجه على سوء صنعه بل تزيد بملاطفته وتمليقه فتجعله بهذا يرقد رقاد الراحة والهناء لا تقلقه صرامة الرسوم والفرائض الرهبانية (الراعي ق٢ ف٢) فنتيجة اغفال العتاب الوخيمة هي ان تنزع من قلب الراهب الخوف والحياء

العلامة الرابعة

التوبيخ الذي لا يكون الاَّ حفظاً للظواهر

قال هوغو دي سان فكتور : « ان الرؤساء المجحفين بحقوق الوظيفة ثلاثة انواع فنهم من يصنع الشر ويريد من مرؤوسيه ان يقتدوا بشره . ومنهم من يفعل الشر ويريد من مرؤوسيه ان يفعلوا الخير . ومنهم من يصنع الخير ويسمح لمرؤوسيه ان يصنعوا الشر . (حظيرة الانفس) فهولاء هم العاملون بالخير ولا ينهون عن الشر وقد يؤنبون على الزلات غير انهم لا يتخذون الوسائط الفعالة للتونيب ولا يقصدون القصد الاكيد ان يجرّوا المذنب الى الاعتراف بذنبه والاقلاع عنه فهم يزعمون انهم يقومون بالواجب عليهم امام الله وامام الناس لانهم يبدون بعض التوبيخات الضرورية فيخالون انهُ يكفيهم ان يقولوا لمرؤوسيهم ما قاله عالي لاولاده « ان ما بلغني عنكم ليس بحسن اه وهم بمشورتهم الفارغة ونصائحهم العقيمة يعدون لانفسهم ولجماهيرهم ما ناله عالي واولاده من التعاسة وسوء المنقلب

قال الحكيم « من وفّر عصاه فهو يبغض ابنه » اذا اهمل الطبيب مريضاً

ملتزماً معالجته او لم يستعمل للقروح القتالة الأ بعض الملينات كأنه يعالج خدشاً خفيفاً يُعدُّ بلا شك قاتلاً والرئيس الذي لا يحامي عن رسوم رهبانيته بموجب القسم الذي أقسمه او يخجل من توبيخ المذنبين اكثر مما هم يخجلون بارتكابهم المنكرات فهو بلا شك حانث بقسمه مخالف بوعده . فان دقيقة واحدة تحزن بها مرؤوسيك في توبيخك اياهم تكفيك مؤونة اتعاب وكروب جسيمة في مستقبل الايام . وتكون مطاعاً دون ان تتذرع بالقوة والعنف . ان التونيب يكون كالملك الذي صارع يعقوب فانه لم يجرحه الأ ليجعله اشد بأساً واصفى سريرةً

والقديس بولس يريد من تلميذه تيموتاوس ان يحث المذنبين ويحرصهم بالحاح على ان يرجعوا عن غيهم وان يكف عن الرجا والتوبيخ والتهديد بشأن اصلاحهم ولو بان للناس انه ثقيل لانه ملتزم القيام بحق مهمته لان الطبيعة لا تقمع من تلقاء نفسها فيجب ان نكرهها نعم ان الرسوم والفرائض هي حاجز منيع وهي تدلنا على الطريق لكن ما النفع منها ان لم يعززها الرئيس ويؤيدها بسلطانه

قال اشعيا النبي : « ويلٌ لي فلأني سكت هوذا قد تدنست شفتاي . » فيا للعجب كيف ان شفتي النبي قد تدنستا وهو لم يفه بكلمة ? اجل ما ذلك الأ لان السكوت بغير اوانه يدنس الشفاه كما يدنسها سوء الكلام . وكل من سلّمه الله عصا الرعاية ولم يضرب بها كان سكوته سبباً لهلاك المذنبين ولهلاك نفسه ايضاً مهما حسنت سيرته وعظمت تقواه : ولا يفيده الحل من خطاياه الشخصية ان بقي مغللاً بخطايا اجنبية اهـ (قديس بروسبر)

قال ابن سيراخ (٧ : ٨) : « لا تضاعف عقدة الخطيئة فانك من الاولى لا تكون مزكى . » ولا غروَ انهُ قد عني بذلك ان لا تزيد على خطاياك الشخصية خطايا الجماعة . لانهُ اذا كان من الصواب ان نخشى عقاب خطايانا الذاتية فكيف لا يجمد الدم في عروقنا خوفاً من ذكر العقاب من تلك الخطايا الاجنبية الكثيرة والمجهولة منّا

العلامة الخامسة

التسامح على طريق الحياء البشري

انهُ لمن اشأم طرق الرياسة التسميح مع محبي الحرية والاستبداد سواء كان مع الافراد او مع الجماعة بكاملها لانه اذا حمل المرؤوسون الرئيس على التسامح معهم مرةً فلا يعتمون ان يدفعوه اليهِ ثانية وكما انهُ ما من شاكر على النعمة المغتصبة هكذا يعود ذلك التسامح على الرئيس بالازدراء والسخرية وعلى الرهبانية بالخراب والوبال . ان القديس فرنسيس سالس كان يقول : ان المسامحات لا تدخل الاديار الاَّ بطريقة التساهل غير انها لا تضع الرجل الاولى في الدير حتى تقوى على السكن فيهِ ولا تخرج منهُ الاَّ بالعنف والقوة (رسالته ١٤)

اما ما يحمل الروساء على هذا التسامح فهو :

اولاً حب الرئيس ذاته اذ يقصد بتسامحه ان يظهر بمظاهر العظمة والانفة وكأنهُ يترفع عن دقائق الامور وسفاسفها غير ملتفتٍ الى ما لا يُعتد بهِ

ثانياً الربح الدني الخسيس فيغضي الرئيس عن الاقتصاص من المجرم لانهُ عامل نشيط او لانهُ يكسب الدير مجداً وفخراً بمعاملاته مع عليَّة القوم او لانه توصل بمكره وحيله الى ان يُمسك على نفسه مبالغ وافرة يتصرف بها على ما يهوى ويريد

ثالثاً الجبن والتراخي فقد يغضي الرئيس عن معاقبة الزلات مخافة ان يكلف نفسه البحث والتنقيب عنها . او كون ذلك يستلزم السهر واستقصاء الامور او ان يُقدم على بعض الاعمال الخطيرة التي يعجز عنها كل جبان ضعيف القلب . فمثل هذا الرئيس يفضل ان يسير في رخاء ودلال مصوّراً لنفسه ان الاشياء تسير على محورها بكل نظامٍ وترتيب

رابعاً السياسية العالية فهي التي تبعث بالرئيس الى التسامح والاغضاء عن ذنوب ذوي الاصوات ارادة ان يكتسب اصواتهم في الاقتراع المقبل . او ان يسبق فيسترضي خواطر من يراهم قريبين من الترقية الى الوظائف . يضيّق على البعض بحفظ القوانين حتى الصغيرة ويغضي عن البعض الاخر غير مبالٍ بجرمهم

الرسوم والقوانين الجوهرية . يتظاهر بالغيرة على حفظ الرسوم وهو كلف بمراعاة البعض حتى انه يجيز لهم ما كان من الواجب ان يحظره على الجميع

فالدافع له الى ذلك اذاً هو خوف مجحف بالسلطان مصدره الحب المفرط للسمعة والربح والراحة والرئاسة وهو خوف قتال تثيره الانانية الدنية وتحمله على تضحية مصالح الجمهور الخلاصية . خوفٌ يجلب الخجل والعار ويخفض من شأن الرئيس فيكون محتقراً لدى الصالحين والطالحين . خوفٌ يجعل الرئيس شبيهاً بالاجير الذي يرى الذئب مقبلاً فيسكت . او يجعل الرئيس شبيهاً باناسٍ اشرار يشترون الاصدقاء بمال الظلم

الا بحقك قل لي ايها الرئيس كيف تبتغي السلام وانت صابر على تأصل العادات السيئة فيمسي مرؤوسوك وهم بعيدون عن السعي في طريق الكمال يهيمون في بحر الملاذ والشهوات . غضوبين يستثقلون نير السلطان واي المصاعب لا تسببها بذلك لمن يخلفك بالرئاسة او كيف تبتغي الراحة وانت في معمعة النزال فهل تقلدت سيف العدل لتبقيه في غمده مخفياً عن كل ناظر ؟ او لعلك أُقمت قائداً ومرشداً لتترك من ترأسهم يضلون سواء السبيل ويخبطون في ليالي الشقاء والتعاسة ؟ . انت نائب الله فكيف لك ان ترضى بامتهان سلطانك وسلطان الله معاً

وبعدُ أتبتغي السلام على كل حال ؟ ولا سلام لك الا سلام كاذب خداع يدوم دوام الظل . او كيف يحل السلام في دير لا نظام فيهِ ولا نشاط ولا محبة ولا وئام دير تكثر فيهِ الزلات والنقائص ولا يعتم ان يمسي جمهوره كعصابة من الناس قد اتخذوا الثوب الرهباني المقدس ستراً يخبّئون تحتهُ كل شوائب اهل العالم

العلامة السادسة

هي ان لا يعزز الرئيس سلطانه من وقت الى آخر ببعض اعمال خطيرة

في غالب الاحيان تدعو الرئيس ظروف هامة الى ان يظهر رئيساً على من يتناسونه ولا يعبأون بهِ وان يلقي خوفاً خلاصياً في قلوب المستبدين العاصين وان

يزيل الوهم ممن يتوهمون الضعف في السلطان واليك بعض تلك الظروف التي بسطها الاب بوفيس في رسالته العاشرة اذ قال : « انك ان اصدرت امراً صوابياً ووجدت من يقاومك ويحاحكك فيه فدع الشفقة جانباً وكن عزوماً وعاقب بكل صرامة بلا خوفٍ او مراعاةٍ لاحد . واذا ارتأيت رأياً مطابقاً للعدل والصواب بعد انعام النظر ملياً واستشارة اصحاب الرأي والسداد وصادفت مقاومة لرأيك من بعض الرهبان الاغبياء والفاترين المنقادين بالميل والهوى ولا يحبون الخير العام فاقطع بحكمك ولا تضحِّ الحق الصريح على مذبح الخوف الكاذب خشية ان تُعدّ عنيداً متشبثاً برأيك

واذا عمدت الى انعاش روح القانون والنظام باصلاح كثيرٍ من العادات السيئة . فيزينون لك انك تحاول المحال . وانك تعرض بسلطانك على غير طائل وبدون امل بالنجاح : وانك تهيج الافكار بلا جدوى فلا تعجب اذ ذاك من قلق الخواطر بل ثبت عزمك وثق ان من اسكت البحر قادر ان يعيد اليك السكون والهدو

واذا الحّ عليك البعض بطلب اشياء لا يسلم بها الضمير وتأباها الرسوم الرهبانية مثلاً كالافساح او الاذن في الذهاب الى الخارج والجولان فلا تنقد لمثل هذه الطلبات ولا تسلّم بها بل فليكن خجل الفشل برفضك اياها جزاء متطلبيها

وقد تحدث بين مرؤوسيك خصومات مشككة فيشكو اليك كل امرء مدعياً بان الحق بيده فاقض بينهم بلا محاباة ولا تعرّض . واحكم على المذنب بذنبه واقتص منه على قدر جريته ومرهُ بالتكفير عن اثمه

وقد يتأتى لك مراتٍ ان ترى البعض ينتهكون بكل وقاحة حرمة السلطان فلا تنسك عند ذلك محبة الصليب والتواضع الكاذب ما يتطلبه منك الواجب نحو نفسك بل نحو الله عزّ وجلّ فمحّص نيتك ودقق في تصرفاتك وخض وسط الزوبعة ولاش روح التحزب الذي ينشئه احد الروساء المخطئين او سواه كائناً من كان غير مبالٍ بوعدٍ او وعيد وسخطٍ او تهديد . فمثل هذه الوقاحة يجب ان تسرع الى كبحها بكل جد ونشاط

اما في غير ذلك من الظروف فيضطرّك الامر لان تأتي باعمال بأسٍ وشدّة

كاصلاح بعض الزلأت جهاراً او ان تحطّ عن الرئاسة من لهُ المكانة والثقة في قلوب الجمهور او ان تلزم الرهبان الصغار الانعطاف والرفق بمن هم اكبر منهم سنًّا او ان توآلف بين راهبين فرّقت بينهما المنافسة والتغاير . ومتى تأكدت عدالة خطتك وصوابيتها فسِر الى الامام ولا تخف . وربما رماك بعضهم بسوء النيـة وهم لا يفقهون سير خطتك وأبت دواعي الفطنة والمحبة ان تكشف لهم النقاب عن طرق سيرك في اعمالك فكن آمناً واصبر على دينونتهم الباطلة وحسبك ان الله عارف بخلوص نيّاتك واكتفِ بهـذا الى ان تأتي الايام والظروف فتقضي ببرارتك وعدالتك .

وعلى هذا نقول انه بدون الحزم والجزم في مثل هذه الحوادث الخطيرة التي تديرها العناية الالهية تكون السلطة ضعيفة او تظهر بمظهر الضعف وهذا التظاهر في حوادث كهذه لا يقل شرًّا عن الضعف نفسه

العلامة السابعة

الانقياد لامر الغير

على الرئيس ان يعتصم بالحزم عندما تدعوه الحـال الى التحفظ من بعض مرؤوسيه الذين يحاولون التسلط على افكاره . وهذا التسلط على افكار الرئيس يتأتى اماً مما يتصوره في نفسه من عدم الاهلية فيلجأُ الى من لا مزيّة لهم ولا فضل الا الادعاء الكاذب او من تركه سلطانه أُلعوبةً بيد بعض الرهبان المخادعين الذين بحجة تعلقهم بهِ وغيرتهم على مصلحتهِ يثقلون عاتقه بمشوراتهم ويتخذون ما يرونه فيهِ من الضعف والفشل وسيلةً للتسلط على افكاره والميل بهِ كيفما شاؤُا فيأمرون وينهون ويوزعون الوظائف ويكرمون هذا ويشحون على ذاك وقصارى القول انهم يختلسون السلطة ويتزلون الرئيس منزلة منفـذ لاوامرهم او آلة يستخدمونها بل يقيمونهُ صنماً مجوفاً فارغاً تُحنى لديه الرؤوس على انهُ ليس هو المتكلم بل رجل اخر لهُ عينـان ولا ينظر ولهُ اذنان ولا يسمع ولهُ لسان ولا ينطق ولهُ يد ولا يعمل وقد يحدث ان رئيساً حزوماً يخلف في الرئاسة من يكون

جباناً غير محنك في الامور فيجب اذ ذاك ان يتحفظ كلٌّ منهما شديد التحفظ لئلّا يضر الواحد بالآخر فالرئيس المنحط لا يضن بابداء افكاره وملاحظاته لخلفه بل يعاونه بتدبير شؤون الجمهور بنوع لا يضر باكرامه وهيبته اما الرئيس الجديد فعليهِ ان يعادل بين الجرأة العمياء التي تقتحم المصاعب على غير هداية وبين الجبن والخوف بنوع انه لا يجسر ان يخطو خطوة دون ان تسنده يد الغير وتسير امامه بسراج يضيء لهُ

والشر يكون اعظم فيما اذا حاول احد الاخوة العاملين مشاركة الرئيس بسلطانه لقاء بعض ما يؤديه اليهِ من الخدم الخاصة فيجلس عندئذٍ الجهل على منصة الحكم ومن حوله الحسد والادعاء وبيده قضيب القضاء ويلتف اولاً الليلاب (حشيشة العشاق) حول اصول الشجر وينمو تدرجاً ويطول حتى يمتد ويعلو على الاغصان الباسقة . فعلّم ايها الرئيس هذا الاخ المتقرب اليك ان يتوخى القاعدة الموضوعة في كتاب الاقتداء بالمسيح وهي : « ارغب في ان تكون مجهولاً ونسياً منسياً . » ولا تجعل لهُ سبيلاً الى ان يكون بمنزلة جريدة حية تأتيك عند المساء باخبار النهار ولا تطلب او تقبل تلك الملاطفات الزائدة والمراعاة الحسنة والمداراة اللطيفة التي من شأنها ان تجعل من يقبلها قيد ارادة من يقدمها على انهُ لا سلام ولا طمأنينة عند ما يحل روح التملق والعجب في احد الرهبان ويسود على افكار الرئيس اذ كل رئيس ضعيف هو ظالم لانهُ اذا كان قد القى من جهة زمام امره بيد الغير وانقاد له تمام الانقياد فيمنعه من جهة اخرى استعباده المقيد بهِ عن ارجاع اوامر كان قد اصدرها فجأةً بلا تروٍ اذ يودُّ مهما كلفه الامر ان يتحاشى ازعاج خاطر من استسلم لهُ

فكيف يسير المرؤوسون في مثل هذه الظروف ياترى ? انهم من جهة لا يريدون الخضوع الاّ لمن نذروا لهُ الطاعة ومن جهة اخرى يرون انساناً آخر يرأسهم ويأمر فيهم فينزعون الى العصيان والتمرّد الظاهر وان اطاعوا فبالتذمر وعلى كرهٍ منهم

فمن الواجب اذاً ان يكون السلطان كلهُ بيد الرئيس لا مطمع لاحد فيهِ كحرز منيع لا يقوى عليه شيء لتتحصن وتصان فيهِ الراحة العمومية

قال العلّامة فينلون : « ما اشد تعاسة المترإس على الجماهير فانهُ كثيرًا مــا يعجز عن ان يرى الحقيقة بذاته لان من حوله اناس يقفون حاجزًا بينه وبين الحق فيخفي كل منهم مطامعه تحت ظاهر الغيرة . يتظاهرون بمحبة الملك وهم لا يحبون الاّ عطاياه وهباته وتظهر قاة محبتهم لهُ من انهم لا يخشون ان يخادعوه بالتمليق والمداهنة بل لا همّ لهم الاّ ان يستفيدوا مما يرون فيهِ من ضعف القلب والعزيمة فيبدأون بملاطفتهِ اولاً مقدمين لهُ بخور المدح والثناء ليفوزوا باعتباره ويملكوا قلبه غير انهم لا يكادون يرون ان لهُ ثقة بهم ويرقون بعض المراتب (المناصب) حتى يذهبوا بهِ كل مذهب ويضعون على منكبيه نير العبودية . فيئنّ من ثقله ويود خلعه فلا يستطيع الى ذلك سبيلاً بل يظل يئنّ تحته وعبثاً يحــاول اخفاء امره فهو لا يزال اسيرًا وعبدًا مملوكاً (تيليماك)

العلامة الثامنة

هي التسويف عند اقتضاء العمل

يلحق بالشائبة التي كان كلامنا فيها شائبة اخرى هي التسويف والمماطلة في وقت العمل وهذا لا شك ضربٌ من الضعف والتواني

فانك ترى الرئيس يكثر من المقاصد الصالحة لكن مقاصده لا تخرج الى حيز العمل ينوي النيّات الحسنة ولكنها تبقى في حيز الفكر ولا تخطو الى الفعل اصلاً يسرّه حسن الامل في ما ينوي صنعه من الخير غير انهُ لا ينفك عن تسويف وضعه بالعمل الى الغد فتتوالى الايام وتتعاقب الشهور دون ان يعمل شيئاً فيترك مثــلاً الطريقة والوسيلة التي كان تأكد منفعتها وتأثيرها ويعدل عن عظةٍ كان قد عزم ان يبسط فيها اشياء كثيرة وملاحظات عديدة محرّضاً على اتباعها بالعمل او يؤجل مواجهات خصوصية كان وعد بها احد الرهبان الذي طالما انتظرها بدون جدوى

اما خطر هذه الشائبة الخاصة ببعض الرؤساء المتازين فيتفاقم ويتجسم بقدر ما يُغضى عنها ولا ينتبهون لها لان التقاعد عن الاعمال قلما يشوش الضمير اذا كان مصحوباً بالعزم على متابعة اصلاحها فرط من التهاون وحسن الرجاء المتولد عن ذلك

القصد يطيب النفس ويعزيها اذ لا همٌ لمن يفي دين يومه في غده لكن لسوء الحظ يتلو ذلك الغد غدٌ مثله فتتوالى الايام الى حد انهُ لا يعرف متى يكون اشراق لليوم المعهود

ولِمَ التسويف ان كان الشيء ضرورياً مفيداً وكانت الظروف تساعدك على انجازه في الحال ? لانهُ ان كان لا بد لك اليوم من القوة والعزم على العمل فافتقارك الى ذلك يزيد في الغد ويتضاعف لان الضعف الذي تستسلم اليه مرة يزداد ضرورة باستسلامك اليهِ مراتٍ

قال غراسيان « ان التردد في العمل هو اقبح مما اسأت فعله بالفعل » وقال متريدات : « الفرصة تولد العمل » وتاسيت يقول « ان الجرأة والاقدام في بعض الاعمال التي لا تتحمل التأجيل افضل من كل مشورة »

فمن يريد ارادة الجبن والرخاوة يريد بلا ارادة . يريد ابداً ولا يريد شيئاً اصلًا لان رغائبه سقيمة باردة لا ينجح في مشروع ولا تكون صفقته الاَّ خاسرة

قال الحكيم «ان الكسلان المتواني هو اخو المبذر»(امثال ١٨)والكسلان يخاف دائماً وكل شيء يترأى لهُ غير ممكن فهو يقول في نفسهِ « اسدٌ في الطريق رابض وسوف اكون فريسته في وسط الطريق »(٢٢) . « وايضاً الكسلان يدور على فراشه كما يدور الباب على محوره » (٢٦) فيكون من ذلك كثير من الحركة وقليل من العمل . ويقول الحكيم ايضاً في الامثال : ان الكسلان يخفي يده تحت ابطه وعناءٌ كبيرٌ لديه ان يبلغ بها الى خمسه » (٢٦) ويقول ايضاً « يد النشيطين تملك واليد الكسلانة تؤدي الجزية » (١٢) وايضاً « ان الكسلان تقتله شهواته لانه يريد ان يعمل ولا يعمل طول النهار الا التمني والرغبة »(١٨) (بوسويت السياسة المقدسة ك٤ ف٢)

العلامة التاسعة

هي ان يكون الرئيس عديم الثبات متقلباً في مقاصده

ومن الناس من يتقلبون كل يوم فيتغير مع اليوم حكمهم وارادتهم وسلوكهم

ولا ينفكون عن مخالفة خطتهم وظن النـاس فيهم لان من طبعهم التقلب » غراسيان صاحب البلاط مبدأ (٧١) انهُ ليجب ان نأسف على جماعة يكون رئيسها على تلك الشاكلة لا يثبت على حال اصالةً

يقصد المقاصد ولا يعتم ان يرجع عنها يثبت تارةً وينني اخرى ما كان اثبته يستصوب في الغد ما قـد حكم بخطائهِ في الامس ويعطي اليوم ما رفضه امس يعود الى مقاصده الاولى ثم يعدو عنها ليرجع اليها المرة الثانية

فمثل هولاء الناس الذين لا يقر لهم قرار ولا يقفون عند حد يسيرون ورائدهم المخيلة وناموسهم الميل والهوى ولا طريقة لهـم الاَّ تأثير الفلك على مفاصلهم وعضلاتهم . فهم يعملون بمألوف العادة دون قصدٍ ورويَّة لا يقيمون يومين بالتتابع على حالة واحدة ولا تراهم ثابتين ولا راسخين الاَّ على التقلب وعدم الثبات

قال بوفيس عن امثال هؤلاء : « ان امياهم ورغائبهم تتغير بتغير تصوراتهم فهم كدولاب يدور يميل تارةً الى الرفق واخرى الى الجفاء حيناً الى الملاطفة وطوراً الى الخشونة . فان دخلت عليهم يوم سعد نلت ما تبغيت وان امتهم يوم بؤس رجعت صفر اليدين وكما انهُ لا يتحتم عليك شكرهم على حسنة اتوها هكذا تضطر لان تصفح عما اساءوا بهِ اليك اذ ليس لهم والحق يقال خير ولا شر لان كل اعمالهم مصدرها الطبع والمزاج الحيواني (رسالته ١٢)

وبما انك لا تكاد تقف على حال لهم من البؤس او الرضى فتظـل ترهب الدنو منهم . وان دنوت وخاطبتهم فتخرج دوان ان تجـني من محادثتهم ثمرة روحية ولزيادة كلامهم في حديثهم وعدم فطنتهم يشوشون الضمائر السليمة ويحزنون القلوب المطمئنة . ويصرعون الجبناء ويسخطون المكتئبين

ان مثل هؤلاء الروساء باهمـالهم التسلط على ذواتهم قد عدموا مزيَّة الحكم على الاخرين لانهُ كما قال القديس بوناونتورا : « ما من احد يثق بمن عرفه متقلباً في حكـمه ورأيهِ » والى هولاء وجَّه الحكيم كلامه اذ قال : « لا تتقلب مع كل ريح ولا تسر في كل طريق » اه

اجل ان الرئيس وان تغير في تصرفه بحكم الظروف والاميال عليهِ مع ذلك ان يتحرى خطة واحدة لتسلم حرمة النظـام الديري او بالاحرى صيانة لصيته

وسمعته لانهُ كما ان التقلبات المتصلة من جهة والسير على طرفي نقيض في كل دقيقة يخفضان شأن الرئيس ويسمانه بسمة الخفة والطياشة · فبالعكس ان اقوى دافع على الحكم بفطنته هو ان تراه سائرًا بقدمٍ راسخة عاملًا على مبادىء ثابتة · متبعاً خطة واحدة بحيث يقف الغير على حقيقة امره فيدنون منهُ بلا خوف ولا ارتياب · وحينئذٍ يجري المرؤوسون بسهولة بمقتضى افكاره ونياته بعد ان يتبينوا رضاه بالامر او رفضهِ اياه » (بوفيس)

غير ان فضيلة الثبات والحزم هذه لا تستلزم العناد لانه لما كانت مدارك الانسان قاصرة متقلبة كان لا بد ان يرجع عن غرضه ومقاصده اذا طرأ عليهِ حادث موجب او تغيرت الاحوال تغيرًا هاماً او دعت الضرورة او المنفعة الجزيلة الى ذلك

وقال القديس بوناونتورا : « كما انهُ ضرب من الجنون ان تترك الاحسن لتختار القبيح هكذا من البلادة والحماقة الاصرار على امر الى حد ان ترفض خيرًا اين واعظم » (ستة اجنحة)

اما اذا كنت قطعت برايك بحضرة المشيرين فعليك ان تبين لهم سبب عدولك عن الامر دفعاً لكل غضاضة وملامة لعدم الثبات

وقد اردف القديس بوناونتورا قائلًا : « ان القديس بولس نفسه كان يهمه جدًا ألاَّ يُحسب متقلباً عديم الثبات · لانهُ اذ لم يتمكن من انجاز وعده بالمرور في قرنتية اعتذر عن ذلك متنبهاً انهُ لم يكن بوسعه ان يقوم بالوعد · »

القسم الرابع

في البشاشة التي هي دقيقة ملازمة للوداعة

الفصل الاول

— في انه يجب على الرئيس ان يبذل كل جهده في اكتساب —

قلوب مرؤوسيهِ

احبَّ وكن محبوباً : كلمتان فيهما مختصر كل معرفة حسن الادارة والسياسة لان في المرؤوس المطيع كما في الرئيس الآمر مصدر العواطف ومحور الادارة هو القلب وهو في الانسان كالحصن في المدينة فان لم يؤخذ الحصن اولاً لا تؤخذ المدينة وقلب المرؤوس في يد رئيسهِ كالدفة بيد النوتي فاذا لم يكن الربان ممسكاً الدفة بيده فلا يلبث حتى تبتلعه اللجج والحال ان القلب لا يكتسب الاَّ بالمحبة فلا يحب ما لم يشعر بانه محبوب· لانهُ «كما قال القديس اغوسطينوس لا شيء يُثير المحبة في القلوب ويزيدها كتيقن المحب انهُ محبوب او الامل بان يلاقي بدل الحب حباً

قال صاحب مشورات الحكمة : « ان السر السامي في ادارة ارباب العيال وسياسة الملوك ورعاية روساء الكنيسة هو ان يكون عظيم القوم محبوباً · والسياسة التي يغبطها الناس انما هي سياسة المحبة · فلا تنهجنَّ غير طريقة لحسن سياستك فان الله وهو الحكمة بالذات لا يعرف طريقاً افضل في ملك ابديته · »

وما احسن ما فاه بهِ فينيلون اذ قال للملك تلميذه : « احب شعب رعيتك كاولادك وذق لذة محبتهم لك وبهذا تأسرهم في طاعتك وتربطهم برباطٍ اقوى جداً من رباط المخافة فيطيعون اوامرك بل ينقادون عن حب ورغبة لكل ما

تأمرهم بهِ · فالسلطة وحدهـا من دون الحب لا تأتي بما هو حسن · وخضوع المرؤوسين دون محبة لن يكفي ابداً لحسن السياسة » (تيلياك)

وقال شيشرون في خطبته عن الفروض : « اني لا اعرف واسطة يمكن الملوك ان يستعملوها لاجل حسن سياستهم افضل من ان يتحببوا الى رعاياهم ولا اعرف واسطة اردأ من ان يجعلوهم يخافونهم · فما الخوف الأ سور متقوض وما الحب الأ حصن لهُ ثلاثة اسوار من نحاس ·» وقال بلوتاركوس« ان اعظم منحة يمنحها الاله لمن هو مرشح للملك هي محبة رعيته لهُ » ·وقال يوحنـا روفو : « ان الملك بتودده الى رعاياه يجعلهم لهُ بنين صالحين وبتخويفه اياهم يصيرهم من شرّ العبيد ·»

فعلى الروساء في الرهبانيات بالخصوص ان يكتسبوا قلوب مرؤوسيهم بالبشاشة القلبية التي هي دليل المحبة الخالصة وبهذا يستحقون كل ثناء ومديح يليق بآباء الكنيسة

والقديس برندوس بعد ان اوصى الاساقفة مذكراً اياهم بكـلام القديس بطرس الرسول ان لا يعاملوا الكهنة بقسوة وجفاء قال : « هذه هي سياسة الرسل لانه محرم عليهم ان يتسلطوا بعظمة ومأمورون ان يخدموا مرؤوسيهم بلطف وبشاشة ·« انا بينكم كخـادم » اوقعوا بطشكم ورعبكم بالذئاب الخاطفة فلذلك يسوغ لكم بل يجب عليكم لانكم اقمتم لطرد الذئاب عن الخراف ولرعاية الخراف بالرفق والحسنى « (من اعتباراته ١ : ٢ف٦)

وقال القديس غريغوريوس في كتابه الراعي ق٢ ف٥و٦ :« يجدر بالاسقف ان يحكم على الرذيلة لا على اخوته · فنوح لما خرج من السفينة أُمر بان يجعـل رعيته الحيوانات تخافهُ لا البشر نظراءه فاذا فقد رجـل شرف الانسانية بسبب ذنوبه وحط نفسه بمنزلة الحيوانات الغير الناطقة فحينئذٍ يمكن الاسقف ان يريه من الهول والجزع ما يستحقه · وعدا ذلك يجب على الاسقف ان يتودد الى رعيته لا لمجرد تمتعه بمحبتها بل لاجل اقتيادها الى الله واستماعها كلمته بالتذاذ لان الواعظ وان كان فصيحاً لا تسمع كلمته بلذة ان لم يكن محبوباً ·»

ولذلك رسم احد مجامع قرطجنة على الاسقف ان يكون متصفاً بالفضائل

المطلوبة وعلى الخصوص بالبشاشة والهشاشة · والقديس اغناطيوس لم يكن ليكتفي بان يهذب المرشحين للرئاسة بالعلم والفطنة فقط بل بروح الرزانة واللطف اذ به يتسلط الرئيس على افكار مرؤوسيه

هذا والقديس توما اللاهوتي (٢ : ٢ س ١١٤ ف ٢) لم يكتفِ بان يضع البشاشة في صف ثمار المحبة او واجبات الرؤساء بل نظمها في سلك فضائل العدل التي يجب على كل انسان حي ان يعامل بها امثاله

الفصل الثاني

— في ان الرئيس حقيق بان يكون مع مرؤوسيه سهل المقابلة والمفاوضة —

لقد شط عن محجة الصواب من ظن ان الرئيس يضطر صيانة لمقامه وسلطانه لان يحتجب عن العيان والاّ يقابل او يحادث الاّ القليلين

اجل ان مثل هذا الاعتزال يجعل الرئيس مهيباً محترماً غير انه لا يجعلهُ محبوباً لان مدخل المحبة الى القلب هو العين والاذن فلا يمكن ان تحب من لا تراه او لا تسمعه · قال لاكتنس في هؤلاء الرؤساء : « ان مثلهم مثل الحيوانات الضارية التي من مجرد منظرها الهائل لا يجسر احد ان يدنو منها ولذلك لا يُرجى منهم فائدة لان كل خيرهم ينحصر في بعض اشخاص قليلين وعلى هذا يستوجبون الخروج والاعتزال عن الجماعة »

وقال دوغيه في كتابه تهذيب الملوك : « ان من يبتعد عن النور يضحي وحشاً ضارياً ومن يبتعد عن الانس لا يكون انساناً وكيف يعرف الملك شعبه ان كان شعبه لا يرى الاّ صورته وتمثاله · وان لم يكن للملك اهتمام الا بتجلة شأنه فيضحي شأنه وجلاله عجرفةً وهذياناً وان كان لا يفتكر الا بكونه ملكاً فيفقد كل ما للملك من العظمة والسلطان : على ان هذه الحقيقة تظهر جليًّا بالمقابلة بين ملك محب ومحبوب يذهل بدعتهِ من يؤانسه ويحادثه وبين ملك آخر معجب بذاتهِ لا يخطو خطوة الا بحساب وكل كلامه تأمر واغتصاب

وجهه ابداً عابس مقطب وافكاره كالاحاجي غامضة وظهوره بين الناس نادر وبالنتيجة لا يُلقي في القلوب حبًا واحتراماً بل هلعاً ونفوراً .

تمحُّل العظمة انما هو دليل ساطع على صغر النفس · على ان العظمة هي مناط الثريا ممن جعلها شغله الشاغل وانتفخ منها حتى انه لو كان جديراً بها لما التفت اليها بهذا الانعطاف . واذا خفض الملك جانبه لشعبه فالشعب يرفعه بالتجلة ومعرفة الجميل وبذلك لا ينخفض شأنه بمقدار ما يرتفع في قلوب رعيته وافكارهم · فالمسألة اذاً تنحصر في ان يعرف الرئيس الى اي حدٍّ يجب ان يخفض جناحيه لمرؤوسيه وكيف يجمع بين التنازل وحفظ الشأن وكيف يُرضي الناس ولا يحطّ بمقامهِ ويتودد الى الجميع فيزيدهم اعتباراً واحتراماً لهُ . »

قد جاء في التاريخ ان بعض حشم الامبراطور ادريانوس راموا ان يلوموه على فرط بشاشته للرعية فعدَّهم من ذاك الوقت اعداء الوطن لانهم ارادوا تجريده من اعظم الوسائل التي تحببهُ الى الشعب · واذ كان رودلف ملك النمسا ماراً يوماً في احد الشوارع لاحظ حرَّاسه يبعدون من طريقهِ من كانوا وضيعي الحال وليسوا من اهل الثروة ويمنعونهم عن الدنو من جلالتهِ لينظر في حاجاتهم · فازدجرهم قائلًا : اني لم اكن ملكاً لاختبئ في صندوق بل لاصنع الخير لكل من يحتاج اليهِ فكيف اعرفُ حاجات الناس ان لم يدنوا مني ويعرضوها عليَّ · »

فما الرئيس اذاً مع مرؤوسيهِ الاَّ راعٍ مع رعيتهِ او مدينة مبنية على جبل ليلتجئ اليها كل صادر ووارد · او ينبوع فائض في الطريق ليستقي منه كل ظمآن او طبيب لمداواة المرض او استاذ ليلقي العلوم على الطلبة فأنَّى لهُ ان ينفر من مرؤوسيهِ متباعداً وهو مرشدهم وقائدهم الى راحتهم هنا وفي الآخرة فعليه ان يكشف الستار عن قلوبهم ويطلع على افكارهم واميالهم الباطنة ليرشدهم في المستقيمة منها ويردعهم عن المعوَّجة ·

والقديس فرنسيس الاسيزي كتب في قانون رهبانيتهِ (ف ٤) الى الرؤساء ما نصه : « تقبَّلوا اخوتكم بكل حب وبشاشة واظهروا لهم اللين والرفق كي يمكنهم ان يتعاملوا معكم ويكلموكم بكل راحة وحرّية كما يكلم السادة خدامهم لان الرئاسة انما هي خدمة الاخوة ·

وقال القديس برزدوس : « انهُ لامرٌ مضحك ان نرى رئيساً يعتبر انه كملك على عرشهِ ليس لاحد ان يدنو منه او يخاطبه كأن ذلك خافض من شرفهِ

ويوحناً لومونيه كان يقول (كما جاء في قصتهِ) : « يا للعجب كيف لنا نحن الدودة الحقيرة نحن التراب والرماد ان ندنو من الرب الاله بكل دالة ونسأله دون وسيط كل ما نحتاج اليهِ ونطلب مع ذلك ألاَّ يدنو منَّا أيٌّ كان من غنم رعيتنا ظانين ان ذلك احتقارٌ لسلطاننا · اما اننا بذلك نترفع على الله جلَّ شأنه ونلحق بهِ شر الاهانات · كيف لا ونحن نوابه على الارض وعلينا ان نري الجميع بمثلنا جودته تعالى ومحبته وانه لا يأخذ بالوجوه في عطاياه بل يساوي الكبير بالصغير والقوي بالضعيف ·

الفصل الثالث

في انهُ يجب على الرئيس ان يحسن قبول مرؤوسيه في كل فرصة وزمان

ما من احد يكون بشوشاً ان لم يكن صبوراً

انك ولو كنت رازحاً تحت ثقل الاشغال واتاك مرؤوسك يخبرك بما لا نفع فيهِ فاصغَ اليهُ كأن لا شاغل يشغلك عنه ابداً · احذر من ان تظهر لمن يقصد مقابلتك وجهاً كالحاً او ان تأخذ في الكتابة او القراءة مشيراً بذلك الى انك مُزعج منه ومتضجر · فكم من المعاثر تحدث عن عدم اصغائنا الى من كانوا يريدون ان ينبئونا عنها قبل حدوثها فهوذا الطبيعة التي قد وضعت مغالق للاعين وللسان تركت الآذان مفتوحة للسماع في كل حين · فعلى الرئيس اذاً ان يفتح اذنه للجميع بل ان يسألهم ويشجعهم ويعزيهم ولا يجيب احداً بتلك الاجوبة العمومية التي لا يجهلها الصبيان فان فيها اهانة وازدراء للسائل الذي لم يسأل ابتغاء جواب كان يعرفه منذ نعومة اظفاره ·

فالقديس فرنسيس سالس مثال اللطف والبشاشة لما كانت تتراكم عليهِ الزيارات كان يحمل نفسه على الصبر والتجلد قائلًا في ذاتهِ : « ان الله جلّت حكمته وضعني الان في هذا العمل ولا يريد مني سواه فحسبي ذلك لاني ان عملته فلا

الترم عملاً آخر . فالدجاجة اذا ما ازدحمت عليها فراخها لا تقصيها عنها بل تبسط عليها اجنحة رأفتها وتحتضنها بما استطاعت من الحنو والرقة هكذا اراني فائض القلب سروراً عندما تزدحم عليَّ الجماهير وقد تعودت ان أُسرَّ بمحادثتهم كسروري بالعزلة والانفراد .

وقد سأل سائلٌ ذات يوم هذا القديس المعظم : كيف تيسر لك امتلاك هذه الرقة الملائكية مع الجميع ؟ اجاب : « اني اجتهد في ان انظر دائماً هذه الانفس مطبوعة على صدر المسيح وبذلك لا يمكنني الاَّ ان احنو عليها ومن لا ينظر القريب على هذه الصورة لا يقدر ان يحبه محبة خالصة ثابتة متساوية بين الجميع . »

والاب المكرم نيقولاوس دي يسوع ماريا بينما كان ذاهباً يوماً ليعظ في المدينة التقاه في الطريق احد رهبانه يسأله حاجة فتوقف وسمح لهُ بنفس رضية وانشراح صدر كأن لا شاغل لهُ وقتئذٍ دون هذا ابداً . وفي اثناء ذلك وافاه رسول يقول لهُ ان اسرع فقد بلغ وقتُ الوعظ فأجابه : ان شغلي الخصوصي هو هذا واماَّ ان وعظت او لم اعظ فلا يطالبني الله بذلك لان الوعظ ليس من اعمال وظيفتي الخاصة ولكن ان تركت راهبي قلقاً مضطرباً فسوف يوبخني الله على ذلك توبيخاً مرّاً » . (سيرة حياته)

ان تلك لخير امثولة للرؤساء المولعين بالدرس او بأُمور خارجة عن حقوق وظائفهم سواء كانت ذات غيرة على خلاص القريب ام ذات أُنس وتخلق باخلاق اهل العالم التي كثيراً ما تجذبهم الى معاملات واحاديث حبية لا نتيجة لها سوى بعض الخير لبيوت العلمانيين وعيالهم لا غير فيصرفون بهذه اوقاتاً طويلة ولا يكادون يجودون بدقيقة من الزمان لمواجهة راهبهم او للنظر في امر اديرتهم فلا عذر يعذرهم في هذه كلها لان عملهم الجوهري الذي يُطالبون بهِ يوم الرب هو سياسة رهبانهم ومساعدتهم في ضيقاتهم وتعزيتهم في كروبهم . فان مؤسسي الرهبانيات ولو كانوا ذوي اشغال عظيمة في الدرس والمهام الخارجة في ترتيب اديرتهم فمع ذلك لم يُسمع عنهم انهم لم يجدوا وقتاً كافياً لمواجهة راهبهم او لم يكن قلبهم مملوءاً محبة وانعطافاً نحو مرؤوسيهم

« واذا سوّفت اخاك في مطالبه فقد تلحق بهِ ضرراً عظيماً لانهُ قد يكون مفتقراً الى نصائحك في هذه الساعة الحاضرة لا في وقت آخر . وربما لا يقدر ينتصر على ذاته ويعود اليك فيما بعد ليفتح لك قلبه . »(مودست دي سنت امابل في الرئيس الكامل ك ١ ف ٢٩»

وقد تحدث لك اشغال تمنعك عن مواجهة الاخ بقدر ما يريد فحينئذٍ اعتذر لهُ بمحبة ولطف وعيّن لهُ ساعة قريبة بها تقدر ان تسمع لهُ ملياً

الفصل الرابع

في ان الرئيس ملتزم احياناً ان يتقدم راهبه بالحسنى ليستميله اليهِ بعد نفوره منهُ وابتعاده عنهُ

وبهذا يُعرف الرئيس انهُ ذو شهامةٍ وتواضع واماتة ومحبة . ان هذا العمل اي سبق الرئيس مرؤوسه بالرجوع اليه بعد النفور لصعب على الطبيعة. وقلَّ من اتاه وعمل بهِ بتدقيق مع انهُ في بعض الاحيان كلي الضرورة اذ بدونه قد يتدهور الراهب في اشد المصائب . ان ما بنا من الانفة الطبيعية يمنعنا عن اتخاذ الوسائل لاستمالة الغير وملاطفتهم والتنازل معهم ويخيل لنا ان ذلك خافض من شأننا فنرغب في ان يتقرب الغير منا ونحن ننفر منهم . نود ونطلب ان تعطى لنا القلوب بلا ثمن ولا كلفة كأن قبولنا لها فخرٌ وشرف لمهديها . يشق علينا النزول من علو منصبنا الذي رفعتنا اليهِ محبة الذات لا الاستحقاق والاستيهال . وجملة القول اننا نجهل او نتجاهل سعة وامتداد محبة يسوع المسيح مثالنا وقدوتنا . (بوفيس رسالته ٣)

فهل نحن ياترى سبقنا واتينا هذا المخلص الالهي ام هو الذي كان يسعى في طلبنا وحضنا على الرجوع اليه . هل صعدنا نحن الى السماء لنجذبه الينا ام هو انحدر باختياره الى عمق مسكنتنا ليرفعنا اليهِ . فلِمَ نحن اذن نضن على اخينا بما جاد علينا ولا يزال يجود بهِ رب السماوات والارض بهذا وعند تنافر القلوب لا بد من ان يعود احد المتنافرين اولاً للمسالمة وعلى من يجب ان يخطو الخطوة

الاولى نحو من يريد ان يكتسبه ويملك قلبه أليس على من يُقدَّر كونه اكرم خلقاً واكبر فضيلة ? وعليهِ وجب على الرئيس بكل عدل وصواب ان يقمع نفسه وينتصر عليها في مثل هذه الظروف ولو لم يكن مظنوناً بهِ كذلك لما فُضل على غيره وانتخب رئيساً ومدبرًا . فاخص ما يطلب منه من حقوق وظيفته ان يُشفي كلوم القلوب ببلسم حبه وخفض جانحه » (بوفيس مكتوب ٣)

اجل انه لا شيء اعظم واشد تأثيرًا من البركة التي بارك بها القديس فرنسيس الاسيزي راهبه الاخ ايلياً النائب العام وقتئذٍ لرهبانيته فهذا الاخ كان قد اذنب الى القديس ذنوباً فظيعة وكان القديس قد تنبأ عليهِ بانهُ يخرج من الرهبانية وكان يعلم بان هذا الراهب لا ينجو من الهلاك الاَّ بصلواته وزفراته الحارَّة . فكان على الاخ المرقوم بلا شك ان يسبق ويستغفر من معلمه عن كبريائه المشككة لكن فرنسيس اراد ان يترك للاخ وللجميع مثل دعة ورقة فقد دعا رهبانه عند ساعة وفاته واراد ان يمنحهم بركته كما فعل يعقوب مع اولاده

فتقدم اليهِ الاخ ايلياً اولاً مع راهب اخر فوضع القديس يديه على رأسيهما وسأل قائلًا (لانهُ وقتئذٍ كان فاقد البصر) « على رأس من يدي اليمنى ? » فاجابوه على رأس الاخ ايلياً فقال « هذا ما احب فيا اخي ايلياً اني اباركك بركة ليس فوقها بركة لان الله بك وتحت سلطانك قد اكثر عدد بنيَّ واخوتي . فيك ولاجلك اباركهم جميعاً . فليباركك الرب الاله في السماء وعلى الارض وانا اباركك بكل قوتي وفوق قوتي لكن فليباركك الله بما لا اقدر عليهِ واني ارجوه ان يذكر اتعابك واعمالك وان يجازيك مجازاة الابرار فليباركك ايضاً ويستجب كل ما تسألهُ اياه وتبتغيه منه»

فهل يمكننا ان نتصور شيئاً اعذب او احب او احن من هذه البركة الابوية ويا ما اشد مطابقتها لمحبة السيد المسيح ومن تراه يسمع هذا الكلام ولا تجري الدموع من مقلتيهِ

الفصل الخامس

— في انهُ يجب على الرئيس ان يكون عند مقابلته مرؤوسيهِ طلق الوجه —

بما ان البشاشة هي ابنة المحبة او كما يقول القديس فرنسيس دي سال هي اختها وجب عليها ان تتسم بسماتها وتتحلى بحلاها الفاخرة وهي طلاقة الوجه والمؤانسة . واذا كان الرئيس يحب رهبانه كما يجب عليهِ كبني الله وبنيه فهل يمكنهُ ان يلقي احداً منهم الاّ بوجه طلق باسم المحيا ؟

وقد كتب القديس فرنسيس كسفاريوس الى الاب بارسيه ما نصه : «اجتهد بان تقابل الجميع بوجه بسّام وقلب متهلل وفرحان ولا تكن ابداً عابساً كالحاً ولا كئيباً حزيناً ولا غضوباً غير صبور فلا يلقاك احد الاّ وانت فرح متهلل ومحب مؤانس وان لم تظهر هذه اللطافة والايناس للجميع فتبعد عنك كل من يريد ان يقابلك ويكاشفك اسرار قلبه . واذا أُلجئت الى ان تعلن لاحد نقائصه فليكن ذلك بحب ورفق فتستأسر لبه وجوارحه . وهكذا لا تحتقر احداً بتوبيخك اياه . (رسالته ٧٣) وقال ايضاً (رسالته ٦٧) : « ان اخويتنا هي اخوية حب اما القساوة والخوف العبدي فهما فيها مرفوضان . »

وموسى الكليم عندما كان يرجع من مخاطبة الله كان يغطّي وجهه بالبرقع لكيلا يرى بنو اسرائيل النور المنبعث منهُ فيخافوا ويبتعدوا عنهُ . والقديس برنردوس كان يعرف ان يجمع بين البشاشة والوقار حتى انهُ كان يحترم الجميع ولا يهاب احداً والقديس اغناطيوس كان كلما دخل عليه احد من الرهبان يسألهُ ان يغطي رأسه حالاً دلالةً على المحبة والاخاء وان كان الداخل كاهناً فكان يقف اجلالاً لهُ . ويؤكدون عن القديس رومو الدوس ان كل من كان يجيئه كان يصبح في حالة افضل من ذي قبل . وذلك لان دعة القديس ومحبته كانتا تحببان الفضيلة الى الجميع . والقديس فرنسيس دي بول كان بلطفه يليّن القلوب الصلبة ويستميلها الى ما يريده فكان قبل توبيخه احداً يعني بملاطفته وقبل تحريكهِ

آلات الارادة يصب عليها من زيت المحبة والرقة

هذا وبمقدار ما يكون مقامك عالياً بمقدار ذلك تكون بشاشتك ذات بهجة وسلطان

قال العلّامة بوسويت : (ان في منظر الملك عند شعبه لذة وبهجة ولا شيء اسهل لدى الملك من التودد الى الشعب) لان في نور وجه الملك حياة ومرضاته كسحاب ولي المطر (امثال ١٦) فالمطر الذي يأتي في آخر السنة وينعش الارض اليابسة من حرّ الصيف لا يحاكي بعذوبته الملك الذي يمهد سطوة سلطانه ببشاشة وجهه التي تبهج كل ناظر) السياسة المقدسة (ك٣ قضية ١٣)

وبالعكس بمقدار ما يكون مقامك سامياً بمقدار ذلك عبوس وجهك يبعد عنك كل من يريد ان يقترب منك . قال احد الفلاسفة لملك كان تلميذاً له : (ان عبوسة وجهك انما هي نقص طفيف لكنهُ كافٍ لان يبعد عنك الكل)

قال غراسيانوس : (ان الوجه العبوس المكفهر خليق باولئك العظماء الذين غيرت العظمة فيهم البشرة والانس . فكأنهم يظنون ان اعتبارهم قائم في العتو والتعظم مع ان مصلحتهم تطلب فيهم البشر والدعة لكي يستأنس الناس بهم ولا ينفروا عنهم مبتعدين (رجل البلاط مبدا ٧٤)

وقال ساودرا : (من العظماء من يخالون ان مجدهم لا يقوم بدون ان يتعروا من البشر والانس المغروس في طبيعتهم ويتظاهرون ولو بتصنع بالعظمة والجفاء في احاديثهم ومنظرهم وكل هيئتهم . فما مثل هؤلاء الا اولئك النقاشين الذين تكلم عنهم الشاعر كلوديانوس) انهم يتصورون ان كمال صنعتهم قائم في ان يصوّروا في اصنامهم الكبيرة وجوهاً منفخة وشفاهاً كثيفة وحواجب طويلة واعيناً غضبى .) (ك ٣٩)

واما الملوك الذين يكون من طبعهم العظمة والجفاء فيمحضهم هذا المعلم الماهر في السياسة نصيحة في قوله : ان يُعوّدوا عيالهم وكبار حشمهم على اللطف والبشاشة كي يعوّضوا بذلك عمّا ينقص في شخصهم ويقبلوا بالترحاب كل من لهُ شاغل في البلاط الملكي وكثيراً ما نرى الملك محبوباً بسبب عائلته وحاشيته التي تجتهد في ان يعذره الجميع وفي اخفاء نقائصه او تخفيفها اه وهذه

النصيحة تختص بوكلاء الرؤساء وخلفائهم كي يعوّضوا بملاطفتهم ومؤانستهم ما ينقصه الرئيس فعلى الرؤساء اذًا ان ينتخبوا وكلاء افاضل طبعوا على اللطف والمؤانسة

الفصل السادس

في ان كلام الرئيس يجب ان يكون ليّناً عذباً

لما كانت الطبيعة تبخل على بعض الانام بطلاقة الوجه وبشر الهيئة كان على هولاء ان يستعيضوا عن ذلك بلين الكلام وعذبه ليكشفوا عمّا في باطنهم من اللطف والمحبة . قال الحكيم : (امثـال ٢٥) « الكلام المنطوق بهِ في اوانه تفاح من ذهب في سلال من فضة »

واذا كان هذا الكلام مقولاً عن الجميع فاحرِ بهِ ان ينطبق على اولي المناصب العالية . ولنصغِ الى العلّامة بوسويت في هـذا المعنى اذ قال : ان ايوب يوضح جليًّا عذوبة كلام العظماء في اوانـه اذ قال (ف ٢٩) : يستمعون لي منتظرين وينصتون لمشورتي وعلى كلامي لا يزيدون واقوالي تقطر عليهم كالندى ينتظرونني كالغيث ويفتحون افواههم كأني وليّ المطر . اتبسم لهم فلا يصدقون ولا يطرحون نور وجهي » فكأنه يقول ان كلامه (لما كان عظيم القوم) كان مبرِّدًا حرّ الصيف اعني اضطراب الاحزان . والشعب كان يرى نفسه سعيدًا لما كان يمر في وسطهم واذ كان يقع نور وجهه عليهم فكادوا لا يدعونه يسقط على الارض بل يختطفونه بابصارهم كشيء غالي الثمن . وعليهِ فكم يلتزم عظيم القوم ان ينظر الى عبيده نظر البشاشـة والمحبة ويخاطبهم باقوالٍ رقيقة تنعش فؤادهم وتزيد امتنانهم منه . قال ابن سيراخ (ف ٦) : «الفم العذب يكثر الاصدقاء واللسان اللطيف يؤانس الاعداء ويخصب الخيرات . » السياسة المقدسة (١ : ٣ قضية ١٣)

قد اخبر بلينوس عن الملك ترايانس ان محادثته كانت جزيلة العذوبة حتى ان محادثه ما كان يجب ان يبارحه الاّ لاجل الاعتبار واللياقـة . وقال طيطوس

«لا ينبغي ان يخرج احد من امام الملك الآ وقلبه فرح متهلل»

وبهذا كله لم نقل ولن نقول ابدًا انه يسوغ للرئيس او يوافق شـانه ان يكون في كلامـه مع مرؤوسيه مداهنة او مواربة . ولا ان يشحن اذانهم مدائح وتقاريظ كاذبة لانهُ بذلك يحملهم على العجب و الكبرياء . ولا ان يكون مهذارًا فيسوقهم الى شتات العقل وطيشانه . بل مع كونه محبًا مخلصًا فليكن رزينًا مهيبًا

اخبر لاكتنسيوس انهُ تعلم من القديس اغناطيوس ان الرئيس اذا خاطب راهبه منفردًا معهُ وحده يجب ان يعتبره كما يعتبر الاب بنيهِ المزوجين واما اذا خاطبه بحضرة الناس رهبانًا كانوا ام خارجين فعليه ان يقدم لهُ من الاعتبار مـا يقدمه الاخ لاخيه الاصغر

والقديس برنردوس لما انتخب تلميذه رينود رئيسًا عامًا وضع لهُ هذه القاعدة المختصرة : (ان اظهر ذاتك ابًا حنونًا لاولئك الرهبـان خاصة الذين تراهم كئيبين مضطربين يتذمرون عليك وان لغير داعٍ . فانك اذا عزيتهم هكذا وحضضتهم على خيرهم تكون قد عملت عملك وقمت بمـا عليك وشفيت كلام اخيك لانك لم تعمل ما عملت الآ لشفائهِ . واذا وجد بين الاخوة من هم اصحاء ويعينونك في عملك فاظهر لهم نفسك ليس كأبٍ فقط بل كمحبٍ وصديق) (رسالته ٧٣)

واما هذه فلا تكون بدون مبادلة الحاسات واظهار سرائر الافكار لانهُ كما قال القديس توما (٢ : ٢ س ١٤١ ف ٢ على ١) : «اي لذة تكون في جمعية لا يفتح فيها احدٌ قلبه لآخر ويطلعه على شيء ممـا عنده بحجة الرزانة والامساك عن كثرة الكلام»

الفصل السابع

في ان الرئيس حقيق بان يخفض جناحيه لمرؤوسيه وينعطف عليهم بفرح القلب

كثيرًا ما نرى بعض الرؤساء يرغبون في ثقة رهبانهم بهم ولا ينالونها يلحّون

عليهم بها فينفرون منهم ويبتعدون وقد تظاهروا لذلك ببعض البشاشة الملبسة غير ان مثل هذه البشاشة لا تصادف الاّ قلوباً صخرية فاذا رمتَ حقًّا ان يثق بك رهبانك فارهم فعلاً حنوك وتعطفك عليهم فهذا ما يقتسرهم على ان يفتحوا لك خزائن افكارهم المكنونة لان القلب لا يسمع الاّ خطاب القلب والرهبان بهذا اعرف من سواهم لزيادة شحذهم ادوات القلب وسماعهم خطابه ولا يُخدع منهم الاّ من يريد ان يخدع غيره

ان الكتب المقدسة والعالمية ايضاً تدعو الملوك اباء الشعب . فارسطاطاليس الفيلسوف يعتقد ان الدولة التي يرأسها ملك واحد مثلها مثل العائلة بين الاب وبنيه . وفيلون اليهودي يدعو الملوك اباء عموميين لا ينقصون بشيء عن الاباء بالطبيعة من الرأفة والمحبة . وهذه الرأفة الابوية التي لا اساس لها الاّ المحبة الخالصة ترقب كل فرصة لكي تحسن الى الابن وترضيه . وهي تشارك الابن في افراحه واحزانهِ وفي سعده وبوْسهِ . وهي تتأثر ايضاً لا لمصاب الرهبان انفسهم فقط بل لمصاب اهلهم واصحابهم ايضًا ولكل ما يزعجهم ويكدر خاطرهم وتسرع الى اجابة طلبهم قبل ان يطلبوا وتريهم في كل فرصة ان لا سعادة لها الاّ سعادتهم ولا فرح الاّ فرحهم . فتراها قبل ان تأمر بشيء تقدم السبب الداعي لهُ لكي تخفف مرارته واذا رأت ان قد انجزما امرت بهِ تقدم الثناء والمديح . واذا جادت بشيء تفعله بقلب فرحان يزيد اكرامها اكراماً . لانهُ كما ان من يحتمل لاجل الله لا يكفيه ان يحتمل بل يجب ان يحتمل بصبر وفرح هكذا من اراد ان يرضي الناس لا يكفيه ان يقدم لهم بعض الخدم بل يجب ان يظهر انهُ مسرور بتقديمها والقديسة ترازيا ما كانت تأنف من طي اثواب الاخوات ولا من ترتيب كتبهن ولا من ان تحمل لهنَّ الضوء الى قلاليهن .

وما اجمل واعجب الخطاب الذي القاه القديس اغوسطينوس على شعب رعيته نهار تذكار سيامته السنوي لما فيهِ من كرم الاخلاق واللطف والرقة والصبر المقدس اذ قال : « اذا كنت احياناً لمزيد ارتباكي بالاشغال لم انتبه او لم اصغِ الى كلام البعض منكم ولما رغبوا فيه اليَّ او كنت لغير داع نظرت الى البعض شزراً او بغير عين الابوة او اذا كنت كلمت احدكم بجفاء او كنت اجبت احداً بما زاد

حزنه واضطرابه او اذا كان اتاني احد الفقراء وانا لمزيد شغلي لم انتبه اليه او تقاعدت عن اجابته او اجبته بما احزنه او اذا كنت وبخت احدًا على زلّةٍ لم يكن قد ارتكبها فانا اعترف بذنبي بهذه النقائص وبغيرها التي لا اتذكرها واقول انهُ لو حدث لوالدة موجودة في غرفة ضيقة مع اولادٍ لها أن عثرت فداست برجلها احدهم فهل بطل ان تكون والدة تحن على بنيها فسامحوني اذًا كي تُسامحوا . الا تغفرون لصديقٍ لكم محبٍ هفواتٍ فرطت منه على غير انتباهٍ وانتم ملتزمون ان تغفروا لاعدائكم ما الحقوا بكم من الاهانات عن خبث ورداءة . واخيرًا ارجو منكم ان تبتهلوا الى الله جلّ شأنهُ كي يساعدني بالقيام في اعباء نفوسكم » (عظة ٣٨٣)

ورب معتذر يقول اني على جانب كبير من الرقة والمحبة لمرؤوسي لكني ان لم اقابلهم الاَّ بوجهٍ عابس مكفهر فانما ذلك حباً بخيرهم لئلاَّ تورطهم الدالة او المحاسنة في الاستخفاف وقلة المهابة

فيالهُ من اعتذار كاذبٍ لا يصدقه عاقل . انما تلك هي نقائص تورطت فيها عن طباع سوداوية لم تعتنِ في الابتداء بتهذيبها حتى انه صار يخيل لك لقساوة طبعك ان الدعة والبشاشة نقص وضعف وان التواضع نقص في العزم والشدة . وان كل ملاطفة للمرؤوسين هي رياء ومواربة

نعم ان الحياة الرهبانية هي كفر بالذات لكن ليس للرئيس ان يقدم لمرؤوسيه الاسباب والمحن للصبر والاحتمال فان الايام تتكفل بهذه وانما الرئيس مداوٍ لها ومعين عليها

القسم الخامس

في ان الرزانة رفيقة ضرورية للحزم

الفصل الاول

ان رزانة الرئيس تتأتى اماً من ذكر جلال الله الذي يمثله بشخصه واماً من بعض مزاياه الخصوصية

اذا شاء الرئيس ان يكون معتبراً ومطاعاً وجبت عليهِ المحافظة على سلطانه وهذه المحافظة تقتضي الرزانة في هيئة شخصه وفي سائر حركاته · واذا نسي الرئيس مقامه ينسى ايضاً المرؤوسون واجب خضوعهم لهُ · ومن اراد ان يكون معتبراً فعليهِ ان يعتبر نفسه بالمحافظة على الكمال

وبالحقيقة ليس السلطان الا قوة سرية يأمر بالخضوع والاحترام وهذه القوة لا تأتي عادةً عن تقدم في السن او جسامة في القامة او جهارة في الصوت ولا عن توبيخات الرئيس مرؤوسه بل يجب ان تنسب الى الرزانة والوقار الموقوف اولاً على ان يذكر المرؤوسون دائماً ان الرئيس هو ممثل للجلال الالهي وثانياً على ما للرئيس من الهيبة الطبيعية

على انهُ ما من احد يوجب عليهِ ان يذكر جلال الله جلَّ شأنه مثل الرئيس الكنسي قانونياً كان او غير قانوني · كيف لا وهو الحامل في شخصه صورته تعالى الحية البادية والظاهرة · ألا يشعر الرئيس في باطنه بهذه البسالة والعزم والثقة اذ يأمر بما يشاء فلا يكاد يحرك شفتيه الاَّ ليعمل بما يأمر بهِ وقد اولاه السلطان شيئاً من الحذق والنباهة فوق ما لغيره وهو يجعله شريكاً لله في ابرازه الاحكام العادلة ويحكم بالانصاف للانام اجمع · فبالصواب نوجه اليهِ كلمات القديس غريغوريوس النزينزي التي قالها خاطباً في القسطنطينية بحضرة الملك وهي قوله :

« اعتبر ايها الملك برفيرك واحترم سلطانك الذي هو جزء ولوصغيراً من سلطان

الله وتفهم سر الله العظيم في شخصك فما في السماء فهو له وحده واما ما هو على الارض فيه‌اسمك اياه فانت صورة الله على الارض فكن اذاً خاضعاً لهُ .» (عظة ٢٧ ع ١٣)

وكما ان الرزانة تنبع بغزارة من ذكر الله واستحضاره فكذا الطبيعة نفسها تولي البعض سلطاناً ونفوذاً في سائر اعمالهم وبذلك تسربلهم بحلل الرزانة والمهابة .

قال غراسيانوس (رجل البلاط مبدا ٤٢) ما ملخصه : « اننا نرى البعض يولدون بنوع ما مع شيء من الرزانة والمهابة وما ذلك فيهم عن تصنع اوتكلف ولا عن تجبر او تعسف بل عن سمو فكر وسعة صدر فلهم الدالة وسماع الكلمة حيثما حلوا . نرى الجميع يفتحون لهم اذناً صاغية واعية وقلباً رحباً مفتوحاً لاعتبارهم واحترامهم كاناس منزلين . فينقاد الجميع لما يأمرون به انقياداً اعمى دون بحث ولا تدقيق فكأن السلطة خلقت لهم او كأنهم خلقوا لها فهم يأسرون اولاً القلوب بحبهم واعتبارهم وبعدئذٍ مهما قالوا او فعلوا ولو كان مما يقوله او يفعله الجميع يظهر ويعتبر كأنهُ منزل بقوةٍ وحكمة سماوية . وبهذا يفوقون كل من فاقهم علماً وشرفاً وفضيلة »

الفصل الثاني

ان رزانة الرئيس قائمة في ان لا يذهب بجمهوره مذاهب القسوة والجفاء ولا مذاهب الدالة المفرطة التي تحاكي الغنج والتدلل

قد كتب القديس برنردوس الى تلميذه البابا اوجانيوس راسماً لهُ رسم الرزانة الحقيقية قال : « اعتصم بالرزانة ولتكن رزانتك بعيدة عن القسوة والغلظة وعن الدالة المفرطة التي تخفض من شأن سامي المقام . فان القسوة تقصي عنك المحتاجين وقاصدي غوثك . والدالة تفضي بك الى الطيشان وقلة النظام . اما الدالة ذات الرزانة فتولي الرعية الثقة بك ولا تدعهم يميلون الى هتك حرمة رسومهم وفروضهم

الا ترى ان من اعلن لرعيته القسوة والغلظة اضحى ممقوتاً ومن ابدى لهم الدالة المفرطة امسى مهاناً منهم ومحتقراً . فالرزانة التي اكلمك عنهــا هي قائمة في ادب الهيئة الخارجة وفي هدوء البشرة وصفاء الوجه وفي الحكمة والفطنة في الحديث وهي تبغي الادب واللياقة في كل اعمالها ولا تبدي عملاً الاً بمقدار بغير تصنــع ولا تعسف . وتبغي البشاشة من دون طيش والوفاء من دون حلف وتريد الاحتشام من دون كبر والدالة بدون دناءة

وقد كلم ايزوكرات تلميذه نيكوكليس الملك الشاب بمثل كلام القديس برنردوس المتقدم ذكره قال : « اجتهد بان تجمــع بين اللطف والرزانة فالرزانة جديرة بالسلطان السامي واللطف زينة الهيئة الاجتماعية . وان الائتلاف بين هاتين السجيتين لغاية في الصعوبة لان من افرط في الرزانة اخذ عادة في الكبر ومن افرط في اللطف والوداعة سقط في صغر النفس والجبــانة مع ان كمال الرزانة واللطف لا يتحملان شيئاً من الكبر والجبانة

وقد كتب اوسابيوس الاميري عن الطوباوي مكسيموس الاسقف ما نصه : « ان شهامة نفسه كانت ترمي اشعتها على جسمه كله فكنت تخــال النداسة مطبوعة على وجهه فان سار فخطوه مستوٍ ثابت وقدمه في الارض مكينة راسخة وألحاظه تُلقي المهابة وتأسر اعداء الفضيلة . واذا خافه الناس لاجل رزانته احبوه ايضاً لاجل لطفه وكنت تراه يسكّن سطوة سلطــانه بتواضعه وسكينته واذا ابدى بعض التهديد فكانت رقة قلبه تبدي البشر واللطف . . . وكان جامعــاً لفضائل شتى . فمحيّاه كان محيّاً القديس بولس وعقــله عقل القديس بطرس وفي توبيخه الخطاة كان اشد ميلاً الى الرحمة منه الى العدل فكان الخطاة لا يطيقون الوقوف بحضرته ولا يودون الابتعاد عنه . »

وقد قال القديس غريغوريوس في كلام ايوب : « واذا نظرت اليهـم (الى عبيدي) باشاً ضحوكاً فما كادوا يصدقون » ان حقيقة هــذه الكلمات التاريخية ملخّصها ان هذا الرجل القديس كان يخافه ذووه ويهابونهُ حتى في نفس بشاشته لهم ومما جاءَ عنهُ ايضاً انهُ « كان اباً للفقراء ومعزياً للارامل » ويا للعجب كيف جمع بين البشاشة والرزانة حتى انه كان موموقاً وموقراً معاً من الجميع . وهذا تعليم

للرؤساء ليجمعوا بين الهشاشة والوقار بنوع ان لا يتهمهم احد لاجل طيشهم وخفتهم ولا يمقتهم لاجل قسوتهم وغلظتهم لاننا ان جاوزنا الحد بالمحافظة على العدل نضحي ظالمين غير عادلين . وان افرطنا بالمزاح والافراح الباطلة رفعنا من قلوبهم المهابة والاحترام لنا لانهم من افراحنا المفرطة وان جائزة يسوّغون لانفسهم الافراح غير الجائزة وخرق حرمة الاداب

وعليهِ فاذا شاء الرئيس ان يبقى موقرًا من مرؤوسيه ولو هش لهم وآنسهم فيلتزم الاَّ يمزح ولا يضحك الاَّ ومخافة الله في قلبه لان مخافة الله تقصي من القلب الافراح المفرطة . قال ايوب : « اني خشيت الله دائمًا كبحر مزبد فوق رأسي » فخشيته الدائمة من احكام الله كانت تجعل عبيده واماءه لا يصدقون متى رأوه باشًا او ضاحكًا

الفصل الثالث

في ان الكلام بدون تروٍ وتدبر يضر برزانة الرئيس ضررًا كبيرًا

قال ابن سيراخ (٩ : ٢٤) : « يُثنى على عمل الصناع لاجل ايديهم اما رئيس الشعب فانهُ حكيم لاجل كلامه » لان من الرئيس تتوقع العظائم .

قال ايوب البار (٢٩) : فكانوا يستمعون من فمي الاحكام العظيمة وينصتون لمشورتي وعلى كلامي لا يزيدون شيئاً .»

ولا يكفي الرئيس ان ينطق باحاديث الحكمة والصلاح بل عليهِ الاَّ يفوه بشيء الاَّ في وقتهِ . قال ابن سيراخ (٢٠ : ٢٢) : يُرذل المثل من فم الاحمق لانهُ لا يقولهُ في وقتهِ .» وقال الحكيم (١٦ : ٢٣) « قلب الحكيم يفقّه فمه ويزيد شفتيهِ فائدة . اقوال النعمة شهد عسل عذوبة للنفس وشفاء للعظام . » وقال ايضاً (جامعة ١٠) : « اقوال الحكيم تجعله شهياً واقوال الاحمق تلقيه في الهاوية» والكلام بغير اوانه لا يكون غير شهي فقط بل يكون مضرًا بصاحبه ايضاً . قال الحكيم (امثال ١٢ : ٦) : « كلام المنافقين كمين للدم وفم المستقيمين ينقذهم » وقال ايضاً (١٣) من ضبط فاه صان نفسه ومن فتح شفتيهِ فحظه الدمار . »

فلا ينبغي التكلم الاَّ حينما تدعو لذلك الحقيقة او المحبة او الخير العام وبغير ذلك فيكتفي الرئيس بالاشارة او بوجيز العبارة فالصمت في وقتــه هو لهُ ابلغ فصاحة · اما الغلو في الحديث والوعد الفارغ والوعيد لغير داعٍ ودون انجاز والتقريظات الكاذبة والنميمة خاصة انما هي كلهــا خافضة من شأن الرئيس ومضرة بسلطانه

هذا ولما كان الناس يحكمون على معرفة الرئيس وذكائه من حديثهِ وكان قلما يجدون فيه من الفضيلة وسمو المناقب كما ينتظرون فيلتزم اشد التزام الاَّ يفوه بشيء يشير الى الخفة والطيش · لانه لا فرق عند الناس بين الرئيس الطائش وبين العاري من الفضيلة

قال ساويدرا : « ان في كلام الملك ومنه اعتباره او اهانته لان النــاس شديدو الميل الى التقاط كل كلمةٍ تخرج من فيه فيطبعونها في مخيلتهم ويتأملونها مليًّا ويحرّفونها لجملة معانٍ ومقاصد ويتصورون فيها الاسرار والغوامض وعليــهِ فينبغي الاَّ يفوه ببنت شفة الاَّ بعد ان يمعن النظر في ظروف المكان والزمــان والاشخاص لانهُ اذا ما فاه بكلمة على غير انتباه فلن يقدر على اصلاحها بالندم والتأسف · وسندًا على هذه الحقيقة كان الملوك الرومانيون لا يدعون احدًا يخاطبهم الاَّ خطًّا ولا يجاوبونه الاَّ كذلك حذرًا من زلل اللسان ولكي يكون لهم بذلك وقت للتروي والتدبير اه

قال غراسيانوس : « ان من لا يعتبر نفسه يفتح ســبيلًا للجميع الى ان لا يعتبروه » اما بلينوس فزاد على ذلك بقولهِ : « ان ذا المقام السامي لا يحتقره احد ما لم يحتقر هو نفسه بطلبه الخسائس الوخيمة · » ومن اعتبره العموم احمق فــلا تعتبره الخاصة حكيماً · ورب رجلٍ لاجل اتباعه اميال الحرية فقد في يومٍ واحد من اعتباره ما لم يربحه بستة اشهر في طلبه الرزانة والادب · ولا شيء يخفض من شأن ذي السلطان مثل تظاهره بانهُ ميَّال للضعف الانساني لان تعلقه باميال الطبيعة البشرية لا يدعه معتبرًا عند العامة انهُ شريك للاهوت في سلطانه · لان مع الخفة لا سبيل الى السمعة الجيدة · وكما ان الرجل الرزين يُعتبر كأنه اكثر من رجل او يفوق جنس الرجال هكذا الرجل الطائش يعتبر كأنه اقل من رجل

او ليس من جنس الرجال · ولا شيء يضاد السلطة مثل الخفة لانها تضاد الرزانة فليس من رجلٍ فيه خفة يعتبره النـاس فطناً او عاقلاً .ولا سيا اذا كان ميّالاً للرذيلة لان الخفة كما قال جان روثو « ولو كانت في الاطفال لطفاً فهي للرجال البالغين خجلٌ وللشيوخ حماقة »

وكما ان الرجل الرزين يُشاهد على محياه الفطنة والادب فهكذا ذو الخفـة والطيش لا يكون نصيبه من الناس الاّ الهوان وعدم الثقة كالرجل الكذوب

الفصل الرابع

في ان رزانة الرئيس تتوقف كثيرًا على كيفية جلوسهِ مع مرؤوسيه للتنزه او للمحاورات

انه لصعب جدًّا على الرئيس ان يحافظ على الرزانة والبشاشة معاً بنوع ان يكتسب حب الاخوة ولا يخسر شيئاً من اعتبارهم لهُ ويصعب ايضاً الاّ يسقط ابدًا بمحاوراته معهم في بعض الخفة التي لا تليق بمقامه ولا بمقام راهب فاضل

فالرئيس الذي يبتغي ان يحافظ على رزانته ومن ثم على سلطانه ايضاً يفتح قلبه للاخوة لكنه لا يطلعهم على اسراره كلهـا واذا القى عليه الاخوة بعض السؤالات فيجيبهم بكل بشاشة ويسألهم كذلك الاّ انهُ لا يقطع حديث احدهم ولا يتخذ لنفسه الحديث باسره حذرًا من ازعاجهم ولئلا يظهر لهم انهُ قلما يعتبر كلامهم · وبهذه المحاورات العمومية لا يكترث لما يلحظ من النقص في البعض ولا لما يقال لهُ عنهم لانهُ لا يناسب اظهار السلطة الاّ بوقتها وعلى انفراد وعند مسيس الحاجة

ومن الناس من يعيبون الرئيس اذا رأوه يخاطب الاخوة بجبرٍ واخاء ومنهم يعيبونه اذا رأوا في حديثه او على وجهه شيئاً من علامات الرزانة والوقار · والحق يقال ان في الافراط والغلو اخطارًا ومعاطب ومن رام النجاة فعليـه ان يتذكر دائماً انهُ رئيس وذو مقامٍ سامٍ ولا ينسى انه انسان مشارك لمرؤوسيه بالطبيعة واخ لهم

وقد رسم الاب سكريباني في كتابه المسمى رئيس الرهبان (ف ١٦ : ٠٠) رسماً ليسلك بموجبه الرئيس بالامن في مثل هذه الظروف قال : « كن في التنزه مع الاخوة كناظر لا كعامل . فانك وان كنت تفوقهم في امور شتى فيشق عليك ويضرّ بك ان يفوقوك علناً ولو في شيء طفيف للغاية . لان شرف السلطة يطلب الا تُغلب في شيء البتة . وعليهِ اذا دارت المحاورة في امور علمية كفنّ التاريخ او الفصاحة او الشعر او الحساب او الفلسفة او اللاهوت او غير ذلك فاحذر ان تبدي رأيك مائلاً لاحدى الجهتين وان ابديتـه فلا يكن ذلك بحدة بل بلين ورقة . لان انتصارك على مرؤوسيك لا يوليك فخراً بمقدار ما يوليك انكسارك منهم هواناً وربما كان ذلك سبباً لقلة اعتبار اوامرك ونواهيك

وعندما تكون في التنزه مع الاخوة فاجتهد ان تكون مع القليلين لتنجو من المشاجرات التي تنشأ بين الجماعات الكثيرة العدد . واننا نرى في العيال الشريفة ان الآباء العقلاء والافاضل يأبون بحضرة اولادهم كل دالة والعاب صبيانية حذراً من ان يضعوا ذواتهم بمنزلة اولادهم فيخسروا ما لهم عندهم من الهيبة والاعتبار

ومن المبادي الفاسدة قول البعض ان على الرئيس الا يدع احداً يراه وقول غيرهم ان عليه ان يكون ذا دالة مع الجميع : لان في المبداء الاول غلظة بربرية وفي الثاني خسة ودناءة اما الطريق الامينة التي يجدر السلوك بها فهي الوسطى لانها ناجية من كل محذور

هذا ومن تأمل ملياً ورام الاقتداء بحياة السيد المسيح اذ كان يفاوض تلاميذه بالاحاديث الالهية سهل لديه ان يلقي السلام بين رهبانه وان يكون لهم قدوة مقدسة دون تكلف ولا تصنع

الفصل الخامس

في ان رزانة الرئيس تتوقف ايضاً على ثباته وعدم تقلبه في سياستهِ واخلاقه

ان الرئيس حال دخوله في مهمة الرئاسة يترتب عليـهِ ان يمعن النظر في غاية

الكمال المطلوبة لرهبانه كي يدرجهم اليهـا على ممر الساعات والدقائق · ويترتب عليهِ ايضاً ان ينعم النظر في اخلاق نفسه وطباعها لكي لا يكلفها في امر سياسته فوق طاقتها او ضد اميالها

وبهذه الواسطة يمكنهُ ان ينجو من التقلب في سياسته · ومن البين ان كلًّا من الناس لا يستطيع استعمال كلٍّ من الوسائط بل لكلٍّ منهم شيء منهـا · فان هذا مثلًا لحدة طبعهِ وفظاظة اخلاقهِ لا يستطيع امساك نفســه عن اظهار عدم رضاه وذم ما يراه ملوماً وقد يتجاوز بذلك الحد · وعوض الاصلاح الذي يبتغيه فانهُ غالباً يشعل نار الضغينة · فمثل هذا كان الاجدر بهِ ان يتظاهر بالاناة ولين الجانب وليس لهُ ان يتصور ان ذلك ليس بوسعه لانهُ ولو تأججت نار الحركة والحدة فيمكنه مع ذلك ان يحافظ على مقامه ومهابتهِ ويبقى لهُ زمان لاظهار سلطانه ولا خوف من عدم طاعته بعد حين · ومن الروساء من بصدق مقالهم وعذوبة كلامهم يكتسبون قلوب سامعيهم واعتبارهم فحسب هولاء ان يقولوا كلمة او يظهروا ارادتهم فقط حتى تطاع اوامرهم بكل رضى وسرعة · ومنهم بعكس ذلك فانهم وان اظهروا اللطف والبشاشة فلا يجلهم مروٴوسوهم ولا يهابونهم ولذلك كان الاجدر بهم باظهار ما عندهم من الاستقامة وصفاء النيـة بدون تكلف ولا تصنع

فيا ما اصدق ما قيل انه لامرٌ فظيع في السياسة ان بعض الروساء المفطورين على لين الاخلاق والجبانة يأخذون بالقوة والشدة في انجاز مقاصدهم وسائر اعمالهم وغيرهم من يكونون قد اشتهروا بالحماسة والجرآة يأخذون في مقاصدهم بالضعف والركاكة فالاثبات لمثل هذه المقاصد لانها ليست راسخة على قدم الطبيعة · الا ترى ان شجرة البلح ولو خفض رأسها للارض ففيها سرٌّ يرفعها حالاً الى العلاء

وافظع مما تقدم ان بعض الروساء الذين قد عُرفوا واشتهروا بانهم متقلبون ولا ثبات لهم في سياستهم يجزمون احياناً على الفور في بعض القضايا ويصرون عليها اي اصرار حتى انهم لا يلوون عنها ولو مهما تفاقمت وتعالت تشكيـات مروٴوسيهم غير العارية من الصواب

وان قال قائل : ان السياسة التي لا ثبـات عهودها ولا رسوخ لقدمها في

وعدٍ او وعيد لا يكون لها نفوذ ولا مأخذ في قلوب المرؤوسين قلت لا انكر ذلك على اطلاقه غير ان معاسفة الرؤساء اخلاقهم وطباعهم لاكبر ضرر في مصالح سلطانهم وشرفهم لانهم بهذه المعاسفة يمسون اضحوكة لكل ناظرٍ منتقد وليتأكد كل رئيس ان علامات الكآبة والحزن على ملامحه لمن شأنها ان تُري البعض فيه الجبانة وضعف القلب وتبعد البعض الآخر عن الثقة فيه والالتجاء اليهِ عند حاجتهم · وليحذر من ثم ان يكشف لمرؤوسيه ما عنده من ضعف الطبيعة ولا يظهر انهُ مكترث لما يختص بشخصه بل انه موجه كل عنايته وهمه الى مصالح الاخوة واذا حلّت بهِ بعض النكبات المحزنة فلا ينغلب لها ولا يتضعضع بل فليظهر البأس والتجلد ليكون بذلك قدوة للناظرين الذين عندئذٍ يقرون لهُ بعلو الشأن والسيادة · لانه لما كان المرؤوسون ميالين الى تخريج احزان الرئيس وكآبته مخارج مختلفة وجب الا يبدي على محياه الا هيئة واحدة هيئة الرضى والسكون واذ تفاقمت عليهِ المصائب وضاق بها ذرعاً فليتخذ لهُ اخاً مخلصاً يكاشفه اسرار قلبه فيستطيع بذلك كتمان كل ما يريد على الجميع · وليذكر خاصة انه رجلُ الجماعة وليس هو لنفسه ومن ثم يتحتم عليهِ ان يمسك نفسه عن كل حركة غيظ واضطراب امام الجمهور وامام نفسهِ ايضاً كلما اضطره لذلك الخير العام وعليهِ الا يلتفت الى ما يلقاه سراً من اغفال البعض عمّا لهُ عليهم من حق المهابة والاحترام والا يهين احداً بتوبيخ مرٍّ اليم بل يحمل الجميع على طاعتهِ دون عنفٍ وكره · واذا اضطره الامر للتوبيخ فليكن بما قلّ ولطف وبالاخص فليكن ذا صبرٍ عجيب في كل ما تبتغيه العناية الصمدانية

فهنيئاً لجماعة تتمتع برئاسة رجلٍ ثابت الجنان لا يتقلب في اعماله مع كل ريح فيعرفون لقلبهِ باباً لا تغلقهِ عواصف الاميال المنحرفة وهو ممسك بيده ابداً زمام افئدتهم فلا يعرضون عنه لهاجسٍ او قول قائل

القسم السادس

في ان فضيلة اللطف تقتضي ايضاً عناية ابوية باحتياج المرؤوسين

الفصل الاول

في ان هذه العناية هي من خصوصيات المحبة الرسولية

ما من محب للفقر والاماتة اكثر من السيد المسيح ومع ذلك فكانت عنايته بحاجات تلاميذه عناية والدة شفيقة . فقد قال لتلاميذه (لوقا ٢٢) : «لما ارسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا حذاء هل اعوزكم شي ? قالوا لا .» ويقول في ذلك القديس كيرللس ان السيد المسيح لهُ المجد قد اتى عرس قانا لا ليأكل ويشرب بل ليعتني بضرورات اصدقائهِ . ولما اعطى تلاميذه ان يصطادوا ذاك الصيد العجيب فبينما كانوا مشتغلين بعد في شباكهم اعد لهم بيديه الالهيتين المأدبة كأبٍ حنون ولما انتهى دعاهم ليأكلوا واراد ان يخدمهم بذاته على المائدة . ولما رأى انه لم يكن لهم فرصة للاكل لكثرة القادمين والذاهبين قال لهم «هلموا وحدكم الى موضع قفر واستريحوا قليلاً» (مر ٦) وقد اعلمنا القديس اكليمنضس ما كان اخذه عن القديس بطرس : «ان السيد لهُ المجد لما كان ينام خارجاً مع تلاميذه في الايام الباردة كان يقوم غلساً ويفتقدهم ويغطي ارجلهم المكشوفة ولم يأنف ان ياخذ بيده اللحاف الذي كان عليهم ويضعه حيثما يجب وضعه ... ولما رفع عينيه ذات يوم ورأى جمعاً كثيراً مقبلاً قال لفيلبوس : من اين نبتاع خبزاً ليأكل هولاء . (يو ٦) وبعدئذٍ تحنن وصنع تلك الاعجوبة .

ولما كان الرهبان افقر الفقراء لتعريهم عن كل شيء واكثر شبهاً بالسيد المسيح لانهم اخذوا على ذواتهم الاقتداء بهِ فلا غرو انه لما قال (متى ٢٥) «جعت فاطعمتموني وعطشت فسقيتموني ... الحق اقول لكم ان كل ما فعلتموه مع

اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه »

ان القديس بولس الرسول وريث معلمه الالهي في المحبة كتب لتلميذه : تيموتاوس (١ تيمو : ٥) «لا يكن شرابك الماء فيما بعد بل خذ قليلًا من الخمر من اجل معدتك وامراضك المتواترة» يريد هذا الرسول الغيور ان تضاعف العناية بضرورات اولي التقى الذين يغارون على مجد الله وخدمة الكنيسة جزاء اتعابهم الروحية. قال « وليحسب الكهنة الذين يحسنون التدبير اهلًا لكرامة مضاعفة ولاسيا الذين يتعبون في الكلمة والتعليم فانالكتاب يقول لا تكم الثور في دياسه وان العامل مستحق اجرته » (١تيمو ٥) وكتب الى طيطس (ف ٣) « اجتهد ان يسبقك في السفر زيناس وابولس وان لا يعوزهما شيء » وبسائر رسائله تراه ينشر فضل اولئك المعتنين بخدمة الانجيل ببذلهم مالهم وخدماتهم وكأنه اراد ان يرسم رسماً مؤبدًا لخدمة الانجيل الحاضرين والمستقبلين اذ قال (١كور ٩) «أليس لنا حق ان نأكل ونشرب . من يسعى الى الحرب والنفقة على نفسه او من يغرس كرماً ولا يأكل من ثمره او من يرعى قطيعاً ولا يأكل من لبن غنمه ؟

نعم ان اقوى الشهادات التي قدمناها تلاحظ خاصة خدمة الانجيل اي المعلمين العاملين بالانذار في كلمة الحياة الاّ ان كل من قطع نفسه عن ملاذ العالم ووقفها لخدمة الله في عمل البركان ولو على غير الاستقامة خادماً للانجيل وحرياً مثلهم ان يُعتنى بضروراته الزمنية

الفصل الثاني

في ان هذه العناية بضرورات المرؤوسين الزمنية هي الكفيل لحفظ النظام الرهباني

ان هذه القضية ثابتة يحققها الاختبار اليومي لان من طباع بعض الرهبان وربما كانوا الاكثرين الذين لا نرى شيئاً يحملهم على الثقة برئيسهم واعتباره والانقياد لكلمته مثل عنايته بضروورياتهم الزمنية لاننا لما كنا ميالين طبعاً الى حب ذواتنا

ومصالحنا الخاصة فكنا نفضل خيرنا الخاص على اعظم العجائب · فما الذي حمل ذلك الشعب الفقير على ان يتبع السيد المسيح الى البرّية ويرغب في ان يقيمه ملكاً عليهم سوى انهُ قد اشبع جوعهم · وعليهِ فكل من عمل معنا خيراً لا يغل ايدينا وارجلنا فقط بسلاسل حبه بل قلبنا ايضاً بنوع انه لا يشق علينا عمل فيما بعد حباً بمرضاته وايفاء لمعروفهِ وجميله

وبالعكس اذا بخل الرئيس بهذه العناية فانهُ لا يلقى من مرؤوسيه الا مخالفة اوامره والتذمر والتشكي داخلاً وخارجاً بل يحتالون على ارتكاب ما هو منهي عنهُ واخيراً يفسد روحهم ويتلاشى كل نظام وكل روح رهباني

قال لانسيوس (الراعي الصالح : « لا تثقنَّ بان الرهبان يقومون بواجباتهم بغيرة ورضى اذا ما شاهدوا رئيسهم يبخل عليهم بضرورياتهم ولا يصدّق ما يعرضونه لهُ من حاجاتهم ومصائبهم بل يجيبهم بغلظة وجفاء كأن يقول لهم : انما هذه منكم اوهام وتخيلات باطلة · او اغراض نفسانية · او كلف بالزمنيات التي لا يليق بالراهب ان يكون عبداً لها

وقالت القديسة تريزيا شانتال (اجوبة على هذه القاعدة) ان الفقر لفضيلة مقدسة ومحبوبة واماً اذا أُفرط فيهِ فيكاد الاَّ يبقى فيهِ روحٌ بل جسمٌ فقط ويتخطاه الكثيرون وعلى الاقل الانفس الضعيفة في الفضيلة · واما الابطال في الفضيلة الذين لا يبتغون الاَّ تتميم ارادة الله فيهم بالتدقيق فلن يعوزهم خبزهم اليومي ولا شيء من ضرورياتهم البالغة · »

ومما يؤيد ما قدمناه تعليم القديس غريغوريوس حيث قال (الراعي ق٢ ف٦) « ان اكثر الروساء يسهرون على رعاياهم غير انهم يقصرون سهرهم على الامور الروحية واما ضرورات الطبيعة فقلما يهتمون بها ومن ثم لا يرون لكلامهم وقعاً في سمع مرؤوسيهم ولا احتراماً ولا غروَ فان من توبخه على رذيلته ولا تعتني بحاجاته الزمنية لا يعتبر نصحك ولا توبيخك من باب الاخلاص لان المحتاج لا يعرف ان يتناول حقيقة الاَّ من يد المشفق عليهِ والمساعد لهُ

وعليهِ فان لم تسقِ من غيث المحبة والاسعاف زرع ارشادك وتعاليمك فقلما تراه مقبلاً · فعلى الراعي اليقظ اذاً ان يعتني بخير النفس والجسد معاً لان لكل منهما

حاجات. والواعظ الذي لا يكسر الاَّ خبزاً واحداً او لا يعتني الاَّ بنوع واحد من انواع الامراض المختلفة لا وقع لكلامه ولا اعتبار

فاذاً من يعطي كثيراً لهُ ان يطلب كثيراً لان الرئيس المعتني بحاجات مرؤوسيه عناية ابٍ حقيقي يقدر في كل ساعة ان يقول لهم : اذا كنت انا ابذل كل جهدي كما ترونني في ما يوضيكم وتحتاجون اليهِ فباي غيرة وخلوص يجب عليكم ان تقوموا بعبء واجباتكم وتتقدموا نحو كمال دعوتكم فعليكم اذاً ان تعتبروا ذواتكم نسياً منسياً والاَّ تفتكروا الاَّ بخدمة رهبانيتكم خدمة نصوحة عن طيبة خاطر لانها امكم وتسهر عليكم سهر الوالدة وتحتضنكم في احشاء محبتها ولا تخشوا اضعاف قواكم في خدمة مجد الله فانا قائم لاسعافها وتسكين حرارتها المفرطة

الفصل الثالث

في ان هذه العناية بالزمنيات لا يجب ان تتوقف على اللازم والضروري فقط بل عليها ان تبادر الى عمل المعروف قبل طلبه وقبل الحاجة اليهِ

انهُ لما كانت الوسائط تقدَّر بمقدار طلب الغاية كان نظام المعيشة يختلف في الرهبانيات على موجب اختلاف النظام والرسوم في كلٍ منها. الا ترى فرقاً عظيماً بين رهبانية أُنشئت للنسك والتقشف ورهبانية اخرى لم تتأسس الاَّ لاجل التعليم والانذار ومع ذلك فوَإن كان من الضرورة الفرق بين عيشة هؤلاء وعيشة اولئك وكان الترف منبوذاً عند اهل النسك بنوع خاص فسعة العيش ونعمته واجبتان في كل رهبانية

وكما ان الراهب ملتزم ابداً ان يحب الاماتة وشظف العيش فالرئيس يلتزم ان يسعى في العيشة المرضية لمرؤوسيهِ بشرط الاَّ يخرج عن روح رهبانيته وعاداتها وهذا ما يتكفل بحفظ السلام والنظام الرهباني. وعليهِ فالرئيس ملتزم لا ان يقدم

الضروري لسد الجوع ودرء البرد ووقاية المرض فقط بل من واجباته ايضاً ان يعتني بما يليق بحالة كل فردٍ من مرؤوسيهِ ومقامه على ما تقتضيه عادة المكان والزمان

واذا طلب احد شيئاً خاصاً فعلى الرئيس حينئذٍ ان ينظر في امر هذا الطلب اعني من هو الطالب وما هي غاية طلبه وما هو الخير الذي يبتغيه منهُ وما عسى سائر الاخوة يفتكرون بتلبيته هذا الطلب او برفضه . وهل من ضرر يلتحق بالرسوم والعادات واذا وجد ادنى مسوغ للاجابة فليجب ملتمسه بطيبة خاطر ولو كان بذلك بعض المغايرة للعادات القديمة . وقصارى القول انهُ لما كان الرئيس اباً وجب ان تتناول عنايته كل ما ينبغي لمرؤوسيهِ سواء كان من امر الكسوة أو السكنى او الخدمات او المهمات او السفر او الخ

ولا يخفى انهُ قد يوجد بين الاخوة من يكون بالطبع جباناً هيّابة بل رعشيشة ايضاً (نهاية في الجبن والرعدة) فمثل هذا يتحمل عسراً مهما حلَّ بهِ من المصائب ولا يفوه بكلمة خوفَ ان يظهر كثيفاً غليظ المعاشرة . ومنهم من يحمله حب الاماتة والتقشف على ان يخفي عن الجميع اشد الآمه واوجاعه . ومنهم من لا يدعهم حب الترفع والكبرياء ان يتضعوا ويبينوا للرئيس ما هم عليه من الفاقة والحاجة بل هم اما يتحملون مصيبتهم لوقتٍ واماً يتخلصون منها بطرقٍ سريّة ولو غير جائزة وعليهِ فالرئيس اللبيب والمزدان بشعائر المحبة هو الذي يرى حاجات مرؤوسيهِ قبل حدوثها ويقدمها لهم قبل ان يطلبوها لان عمل المعروف قبل مسيس الحاجة اليهِ هو معروف مضاعف ولا شك ان الشيوخ والضيوف والعاملون الاعمال الشاقة هم اجدر من الجميع بعناية الرئيس واشفاقه . فعلى الرئيس اذاً ان يسهر كل السهر على ألاّ يقول احد من الرهبان كلمة او يعمل عملاً يمس حاسات الشيوخ ويحث الجميع على ان يرثوا لعجزهم ويعينوا ضعفهم والاّ يأنفوا من طلباتهم وان لغير داعٍ وعلى الرئيس خاصة ان يعفيهم من الاعمال التي لا يقوون عليها وان يقدمهم على الجميع بالاكرام والاحترام . واذا رآهم عاجزين عن كل عمل فليذكر ما كان لهم من الاعمال الحسنى والايدي البيضاء في خدمة الرهبانية والان فهم لنا نموذج في سيرتهم الفاضلة ودعائم للرهبانية بصلواتهم الحارة المتواترة وعنهم اخذنا

الروح الرهباني المقدس

وبين سائر الشيوخ فالروساء السالفون هم الاجدر بالتجلة والاحترام وان تفوض اليهم المهام التي يستطيعون بعد القيام بها لان لهم بذلك سلوى وتعزية واجبة لشيخوختهم ومما يسرهم جداً ويجدر بالروساء الحاليين هو اعتبار رأيهم والرجوع في بعض الامور الهامة الى قولهم واختبارهم

٢ً وعلى من يقري الضيوف ان يذكر قول السيد لهُ المجد (متى ١١: ٢:) «من قبلكم فقد قبلني ومن قبلني فقد قبل الذي ارسلني»· وقول الاناء المصطفى في رسالته الى الرومانيين (١٣) : « لتستمر فيكم محبة الاخوة ولا تنسوا محبة الغرباء لان بها اناساً اضافوا ملائكة وهم لا يدرون اه

فنعم الخطاب وحبذا المواعيد فمن يقري الضيوف ويعتني بحاجاتهم فانهُ لا يقري اصدقاء او اخوة فقط بل قديسين وملائكة بل يسوع المسيح نفسه الهنا ومخلصنا ومن نراه يخشى الفقر اذا ما اضاف على مائدته وتحت سقف بيته رب الغنى واله كل خير ··

ومن كان لهُ عادة في السفر والتغرب يعرف ما للبشاشة والترحيب في الضيافة من اللذة والاعتبار ولا غروَ ان الرئيس يلتزم بان يضاعف عنايته بالفعلة العاملين بكرم الرب الباذلين ذواتهم في اعمال المحبة والغيرة الرسولية وان يسهر عليهم وينظر هل يعملون فوق قوتهم في اعمال الغيرة او اماتة ذواتهم وهلا يحتاجون بضعة ايام الى الراحة والتنزه

ان القديس اغناطيوس على ما يخبرنا عنهُ (ريبادنيرا) كان يهتم اهتماماً خاصاً في صحة تلاميذه العاملين في خير الانفس وكان من عادته ان يقول : « ان صحة واحد من هولاء العملة الغيورين هي علة خلاص انفس كثيرة وعليهِ فالعامل الانجيلي مدين بصحته لله وللقريب » وكان يوصي الروساء بالاّ ينسوا الفقر في كرمهم ولا الكرم في فقرهم اعني ان ينبذوا الاسراف الذي من شأنه ان يحمل على البطر والخطاء والاّ يبخلوا في شيء من لوازم الراحة والفضيلة وكان يوصي الاخ المقلد مهمة الشراء بالاّ يتباع الاّ الاشياء النفيسة لا الخسيسة ولا المتناهية في النفاسة· وذات يوم اذ لحظ رئيساً مخالفاً هذه القاعدة امره بان يشتري من السمك

اجوده وافخره لكل الجمهور وذلك ليس حباً بالتبذير او بنعمة العيش بل بالخصوص قمعاً لبخل الرئيس الذي كان اشترى الخسائس لاجل بخس الثمن

وقد كتب الطوباوي (كاتيزيوس) يخبرنا عن نظام ديرهم في رومية قال : «انك تتعلم فيهِ الفقر ممزوجاً بالكرم والجود . والطاعة بالحرية . والتواضع بالشرف واخيراً محبة يسوع مصلوباً . وكل مرة اتذكر هذه الفلسفة السامية وهذه النموذجات الملائكية اشعر باسف زائد لانني لم استطع ان امكث هناك مدة اطول لزيادة الشفقة بذلك

الفصل الرابع

في ان من واجبات الرئيس ان يعتني بالمرضى من مرؤوسيهِ عناية ابوية

قد رسم لانسيوس لهذه الغاية قاعدتين . الاولى هي ان يخاطب الرئيس ذاته هكذا : ولو كان الرئيس العام او احد المدبرين مريضاً عندي فاي عناية كنت ابذلها في خدمته او لو كان ابي او امي او اخي او اختي ... او لو كنت انا مريضاً فكيف كنت اعامل ذاتي فهكذا يجب ان اعامل اخي الراهب متى كان مريضاً

والثانية ان تلاحظ ما يعمله الابوان مع بنيهما في مرضهم واعمله انت في مرؤوسيك ولا يُطلب منك ان تكون كافلاً بمرؤوسيك بعواطف تحاكي عواطف الوالدين بل يكفيك ان ترغب رغبة صادقة فعّالة في خدمتهم وان تقدم لهم بطيبة نفس دون اشمئزاز كل ما يحتاجون اليهِ وينتظرونه من محبتك الابوية وهذه الرغبة المخلصة لا تنتظرها من مفاعيل الطبيعة بل اطلبها من فوق من روح الايمان المقدس واعلم هذا وتعلم ان الوالدة لا تكتفي بان تحسن الى ولدها بعواطف الرقة والشفقة بل تبذل كل جهدها في ان تساعده فعلاً في كل ضيقاته وكلما رأتهُ فقيراً ومحتاجاً وغير منعم عليهِ من الطبيعة بحسن الخلق او الخلقة كلما احنت عليهِ اضلاعها ورغبت بمساعدته اكثر من سائر اخوانه وتراها بالنظر الى الاصحاء والمنعم عليهم مسرورة مبتهجة واما بالنظر الى المضنكين بالمصائب فحزينة كئيبة بل تشتهي ان

تساعدهم وتتحمل بلاياهم

وقد جاء في سيرة القديس انسلمس انهُ : « كان للاصحاء من مرؤوسيهِ اباً واماً للمرضى فاماً بل كان اباً واماً معاً للجميع ولهذا كان تلاميذه يرتاحون جداً الى مكاشفته بكل اسرارهم »

ولا مشاحة ان الرئيس يعزز سلطانه ويكتسب لنفسه اعتبار مرؤوسيه ومودتهم اذا ما اعتنى واهتم في مرضاهم وذلك بنوع يفوق الوصف

قال القديس بوناونتورا ما ملخصه : « ان المرضى هم مضروبون من ربنا فاذا زادهم الناس ضرباً كانت هذه الزيادة صراخاً نحو الرحمة الالهية تطلب النقمة للمضطهدين ومن ثم وجب على الرؤساء ان يلطّفوا برأفتهم وعنايتهم بالمرضى من مرّ اوجاعهم (ستة اجنحة ف٤) وعليهم ان يعودوهم مراراً في النهار وان يعزوهم باعذب الاحاديث وخاصة بسؤالهم اياهم عن كل اوجاعهم وترثيهم لكل منها وتقديمهم لهم بعض المساعدات بذواتهم وان يرفعوا من افكارهم الاوهام التي تُخيل لهم انهم يزعجون اخوتهم ويثقلون عليهم ويؤكدوا لهم انهم اعز الاخوة والاباء وان الجميع يعتبرونهم مصدر البركات في الدير وعلامات الرضى الالهي عنهم لافتقاده اياهم بالرحمة . ومما روي عن القديس فرنسيس ان عنايته بالمرضى كانت عجيبة ففي ذات يوم اذ كان الاخ سيلفستر اول كهنة رهبانيته مريضاً لشدة الضعف الذي استولى عليهِ من مزيد تقشفاته سأل القديس عنباً ليأكل واذ لم يكن عنبٌ في الدير اخذه القديس الى كرم احد اصدقائه واجلسهُ قرب دالية وباركها وقال لهُ كل فلما اكل المريض عوفي حالاً من مرضه وفي احدى الليالي اذ لحظ ان بعض الاخوة يقظان ولم يقدر ان ينام لزيد جوعه ذهب واتاه بخبز من الخارج ودعاه بلطف ابوي ليأكل ولكي يحرّضهُ بزيادة اكل معهُ فهذان الاخوان ما كانا يقدران ان يذكرا هذا العمل الابوي دون ان تجري من مقلتيهما دموع المسرّة .

والقديس اغناطيوس كان يأمر ان يعلموه حالاً قبل كل احد بمرض احد الاخوة وكان في كل ليلة يعود المرضى مرات وكان يسأل في النهار مرتين الاخ الشاري اذا كان ابتاع للمرضى كل ما امر بهِ الطبيب ولما كان يرى احد المرضى

حزيناً او مضطرب الافكار كان يأتيهِ باحد الاخوة المبتدئين الحاذقين في فن الموسيقى ويأمره ان يرتل امامه ليطربهُ ويسليه عن احزانه واذ كان هذا القديس مرةً مريضاً واضطر ان يعتزل عن كل الاعمال فلم يرد ان يعتزل عن الاهتمام في المرضى بنفسه وقال لقهرمانه الاب يولانك : « اني احب الاخوة محبة شديدة حتى اني اريد ان اطلع على كل وخزة اصابتهم في ليلهم من الهوام الصغيرة وكان يعتقد ان امراضه الدائمة هي التي كانت تجعل قلبه شفيقاً لهذا المقدار على المرضى ولذلك كان يشكر الله كثيراً

قد اعتبر لاسيوس هذا الامر اعتباراً شديداً حتى انه عين بالتفصيل كل الحوادث التي تدل على بخل الرئيس وخشونته في جنب المرضى قال (شروط الرئيس الصالح) هذه الحوادث هي : « اذا قدمت للمريض قلاية غير موافقة او اثواباً خشنة او فرشةً رثة لا تكاد تقدم لصحيح الجسم او اذا تأخرت في طلب الطبيب او اظهرت انك لا تعود المرضى الاَّ بكره وعنف او انك تشمئز اذا وجدت مرضى كثيرين او اذا ابيت ان تقدم ما يأمر بهِ الطبيب من العقاقير والاطعمة او انك لا تقدمها بطيبة نفس وانشراح صدر او اذا بدلتها بما كان اخس ثمناً ولو كان اقل فاعلية او انك اشرت الى الطبيب ألا يأمر للعليل الاَّ بما كان سهل الوجود وبخس الثمن ولو اقل نفعاً واذا اظهرت لهم عند زيارتك اياهم عدم البشاشة والشفقة ولم تمس احداً منهم بل لم تدنُ من احدهم خشية سري العدوى اليك وابديت لهم رغبتك في ان يباينوا محل المرضى باقرب وقت بسبب تعطيل مصالحهم فكانك تعتقد امراضهم اختيارية او وهمية او اذا تشكيت امام المرضى او غيرهم من كثرة النفقات عليهم او اذا تسامحت مع وكيل المرضى في اهماله خدمتهم او صدقت اقاويله بعدم مرضهم ولم تصدق قولهم وهم الشاعرون بالالم والاوجاع او اذا كنت لم توبخ الوكيل على عدم تقديمه لهم ما امر بهِ الطبيب او ما هو ضروري لهم او لم تؤدبهُ علناً لاهماله المفرط المضر او اذا منعت الاقارب ان يقدموا لعليلهم شيئاً من الاطعمة او الخمر او الحلوى وكان لذلك بعض الحاجة والافادة وليس من ضرر للفقر الرهباني . او اذا طلب الناقه من مرضه ان يغير الهواء بداعي ضعفه ونحول جسمه او قلة نومه وشهوته للأكل او غير ذلك ولم تستجب طلبه .

ويردف لانسيوس قوله هذا بقولهِ ان اصحاب المواشي لا يتأخرون عند الحاجة ان يغيروا الهواء لمواشيهم بنقلهم اياها من الجبل الى الساحل ومن الساحل الى الجبل ولا يعبأون بزيادة المصاريف فكيف تبخل ايها الرئيس بذلك على راهبك الذي هو ابن لله وكرّس حياته لخدمته الدائمة ؟ واذا كنت لا تُعدُّ للناقهين اطعمة خاصة لذيذة ومغذية بل تدعوهم حالاً الى مساواة الاخوة في المأكل والعمل او اذا كان احد الاخوة لشعوره ببدء علة او لقلة شهوته للاكل طلب طعاماً غير معد للاخوة فاجبت الطالب بجفاء : « ان لم يأكل من هذا الطعام المعد للاخوة فليتدبر فليس مرضه غير تخيل وتأنق او لاجل التملص من الاشغال . »

فيقول لاتيسيوس ان الوالدين لا يتعاملون هكذا مع اولادهم الاعزاء بل انهم لاجل ادنى علة يقلقون ويستدعون الطبيب للحال ويتذرعون بكل الوسائط وهكذا لو أُلزمت بالصوم او الانقطاع عن المآكل الزفرية من كان لاجل سنه اوضعف مزاجه او شدة اتعابه لا يستطيع الى ذلك سبيلًا . او كنت لا تقدم طعاماً خاصاً لمن يستعمل وظيفة الوعظ يومياً لاسيا اذا كان شديد الغيرة والحمية فهذه العلامات والدلائل التي تشير على بخل اصحابها وخشونة طباعهم ولم يسمع بها في رهبانية مقدسة مشتقة من بيعة الله تعلن ان الرئيس عديم المحبة او انهُ ذو نسب وضيع لان ذوي الحسب الشريف انما نراهم عادة على جانب عظيم من الكرم ودماثة الاخلاق واللطف بالمرؤُوسين . والقديس بوناونتورا بعد نسبته الويل المنوه بهِ في المزمور الستين الى الذين يضاعفون مصائب اخوتهم بسوء معاملتهم لهم يقول : « ان الرهبان الاصحاء ومتيني البنية لا يشعرون بسوء حال المرضى ولذلك قلما نراهم يرثون لحالهم واما فيما بعد لما تأخذهم النكبات والامراض فيعلمون ويتعلمون ما هو المرض وماذا يجب عليهم من المساعدة للمنكوبين والشفقة عليهم (ستة اجنحة ف ٤)

الفصل الخامس

في ان هذه العناية بالقريب لا توجد عند من لا اتكال لهُ على العناية الصمدانية

وسبب ذلك هو ان الروساء الذين لا عناية لهم كافية بحاجات مرؤوسيهم لا يقيسون نفقاتهم على قدرة الله الضابطة الكل بل على قدرتهم ومن ثم يرون ان لا نجاح لهم ولا للدير الاَّ بالتقتير مع انهم لو رفعوا افكارهم وقلوبهم الى فوق وقووا اتكالهم على الله وثقتهم بالعناية الربانية لنمت فيهم حالاً شواعر الكرم والمحبة الابوية . ولنصغِ الى ما برهنه القديس يوحنا فم الذهب في هــذا الشان حيث قال : « ان من اعطى الكثير لا يبخل بالقليل فكيف يمكن الله اذاً ان يبخل علينا بقوت الجسد وهوالذي اعطانا نفساً غير مائتة وكل يوم يغنيها بمنح جديدة وبعد ان وشّح جسدنا ببشرة جميلة هل يمكنهُ ان يضنَّ عليهِ باللباس الفاني أما هو الاله الذي يكسو زهر الحقل اجمل البهاء اه فان صحة هــذا القياس وسداد برهانه لواضحان لكل انسان فكيف لا يتجليان لكل راهب مستنير بنور نعمة الخلاص والذي نبذ وراءَ ظهره الوطن والاهل والمناصب والشرف والغنى وسائر ما في العالم الخدَّاع ولحق بيسوع معلمه معلقاً عليهِ كل آمالهِ ورجائهِ ويسوع يدعوه خادماً مكرماً وشريفاً بل صديقاً مخلصاً واخاً حبيباً ? قال القديس اغناطيوس : « اما نحن معشر الرهبان فيجب الاَّ نفتكر الاَّ بمجد الله ولندع لهُ العناية في مــا نحتاج اليــهِ وهو جل سخاؤُه لا يسمح بان يعوزنا شي لانه هو المغني يقوت طير السماء ويكسوه فكيف يصعب عليــهِ ان يقيت ويكسو اولئك العباد الذين يضعون جل اهتمامهم في ان يرجوا لهُ تعالى محبة جميع الانام » واذ سأَله يوماً الاب بو باديلًا من اين لهُ ان يكفي جمــاهير عديدة اجاب : « هل تريد ان تعلق كل اتكالك على محبة المؤمنين ولا تنتظر شيئاً من العناية الالهية ? . اما انا فاعتبر ان الله يقدم لنا بيدهِ الابوية من خزائن حبه ما لا تجود علينا بهِ ايدي البشر وان لم يجد علينا البشر بشيء فهو يعطينا كل شيء . وفي احد ازمنة الضيق اذ لم يدع

جمهوره يحتاج الى شيء قال لهُ الاب لويس غونزالف : « ان في ذلك لاعجوبة . » فاجاب القديس ليس في ذلك من عجب ابداً بل لو حدث خلاف هذا اي لو اعوزنا شيء لكان ذلك من العجب لانــه ليس من الممكن ولا يُصدَّق ان الله جلت رحمته لا يسرع الى اغاثة نفس تلتجيء اليهِ وتضع فيهِ كل رجائها . الا ترى كيف ان الحسنات تتوارد علينـــا بقدر عدد الاخوة واحتياجهم ولذلك لا يصعب عليَّ قبول الف مبتديء اكثر من قبول مئة لانه سيان عند الله ان يقوت الجمَّ الغفير او القليل . وقد حدث لهُ اكثر من مرةٍ ان يبيعَ اواني الدير وامتعته وان يستدين ايضاً بدون خوف ولا اضطراب . وكان يقول ان صحة احد اخوتي الرهبـــان لافضل عندي من غنى العالم وان الله لا يهمل الذين يتكلون عليه ويستدينون على اسمهِ هذا وان القديسة ترازيا اذ سمعت ذات يوم احدى رئساتها تتشكى من كثرة المرضى عندها قالت لها : « انك لفي غرور مبين لظنك ان كثرة المرضى في الدير يفقرونه لان الله يفيض بركاته على الدير اذ يرى فيه عدداً غفيراً من المسقومين

اما القديس فرنسيس الاسيزي فكان ما يعطيه من الزاد لرهبانه المسافرين في عمل الرسالة هو تذكره اياهم بآية الزبور القائلة : « القِ على الرب همك وهو يعولك اه (٥٤) في حاجتك . وكان يقول لهم ايضاً : « سيروا ايها الاخوة سيروا بسلام الرب وبركته وعندما تطلبون الصدقة فليكن قلبكم منعماً ثقة وابتهاجاً اكثر ممن يعطي ويرجو ان درهمه يربح مئة ضعف لانكم اذ تلتمسون شيئاً تقولون اعطونا حباً بالله والحال ان حب الله لا شيء يضاهيه قيمةً وثمناً من خيرات الارض باسرها

وهذا القديس نفسه لما كان يستعطي حجاراً لترمـيم كنيسة القديس بطرس داميانوس في اسيزا كان يقول : « ان من يعطيـني حجراً يُجزى عنهُ خيراً واحداً ومن يعطيني حجرين فجزاؤهُ ضعفان واما من يعطيني ثلاثة فجزاؤهُ ثلاثة اضعاف ؟

وكان من جملة احاديثه لرهبانه هذا الخطاب وهو : « ان الله الذي يشرق شمسه على الاخيار والاشرار ويفيض خيراته على الوثنيين والهراطقة ويكفيهم احتياجاتهم من الطعام والملبس وغير ذلك هــل يستطيع ان يبخل عليكم

بضروورياتكم واحتياجاتكم ؟ كلاً لانهُ اذا كان يعِد من يحبونهُ بملكوت السماء فهلا يعطيهم ما يجود بهِ عادةً على الذين لا يحبونه وعليهِ فمهما كثر عديدنا وكنّا بالحقيقة فقراء بخيلين بقدر ذلك يفتح الله لنا خزائنه اعني بها قلوب المسيحيين وايديهم الكريمة

فبمثل هذه الشعائر يجب على الروساء ان يتصفوا وان يبثوها في قلوب مرؤوسيهم وعليهم ايضاً ان يذكروا الاخوة المتسولين بمبدا القديس فرنسيس فيعزيهم ويخفف اتعابهم وهو انهم يعطون اكثر مما يأخذون لانهم يعطون محبة الله والملكوت السماوي قبل كسرة خبز او قطعة فضة وفوق هذا فان المعطي الكريم يكون لهُ في نفس هذه الدنيا ضعف ما يعطيهِ بل مئة ضعف

واما لانسيوس فانهُ يصف للروساء ما من شأنه ان يفيض عليهم صدقات المؤمنين قال : « احذروا البخل في الكنيسة وقت احتفالات الاعياد وعلى باب الدير اذ تقاسمون الفقراء صدقاتكم وفي محل المرضى في ما من شأنه ان يعزيهم ويخفف اوجاعهم · وعلى المائدة اذ تقدمون لاصدقاء الله ما يجب لهم ويليق بشأنهم » : ونزيد على ما ذكرناه : « ان صلوا كثيراً لاجل المحسنين · » وبعدهذا فانهُ يتوعد الروساء القساة والبخلاء وعديمي الاتكال على العناية الالهية بمصائب ونوازل شتى عظيمة

الفصل السابع

في ان السهر على حفظ الرسوم هو من لوازم الحزم والثبات

الباب الاول

في ان موضوع السهر على القوانين يتناول ثلاثة امور

مقالة اولى في القوانين

عد ١

في ان الرئيس هو امين القوانين والحارس لها والملتزم ان لا يدع احداً يتعداها بنوع من الانواع

اعلم ان السلطان الذي نظنه للرئيس انما هو للقوانين ولا لهُ . وما الرئيس بحصر القول الاَّ محامٍ عن القوانين ومساعد لحفظها وليس لهُ عليها من سلطان مطلقاً وعلى هذا فالرئيس كلّي القدرة بموجب القوانين واماً خارجاً عن رسومها فلا قدرة لهُ ابداً لانهُ يلتزم هو الخضوع لها اكثر من مروؤسيهِ . وقال القديس برنردوس: « ان الرئيس ليس مسلطاً على القوانين المسلَّمة لنا من ابائنا القديسين بل على الاخوة المخالفين لها . كيف لا واول شيء ينذره على ذاته يوم دخوله الاحتفالي في الرهبانية انما هو نذره بحفظ قوانينها مدققاً . » (من كتابه المعنون اوامر وانعامات ف ٤)

وعليهِ فحالما يتقلد الرئيس امر الرياسة يأخذ على ذاته عبء حراسة القوانين والمحافظة عليها لئلا يتعداها احد المروؤسين او يمس شرفها المقدس وهذا يختص باولي الرياسة العالمية ايضاً لانهم لهذا اقيموا على روؤس الشعب

قال ساودرا في كتابه المتقدم ذكره (ف٢١) : « لا فرق بين الشريعة والملك

سوى ان هذا ناطق وتلك غير ناطقة ولولا ذلك لقامت الشريعة مقـام الملك ولم يبقَ من افتقار اليه

والكتاب المقدس حيث يخبر عن تكايل يوآش ملكاً على اسرائيل يقول : اخرجوا ابن الملك ووضعوا عليه التاج والشهادة وسلّموه في يده كتـاب الشريعة واقاموه ملكاً ...»(اخبار٢ ف٢٣)انهم وضعوا الشهادة على رأسه ليبثوا في قلبه روح الطاعة والخضوع للشريعة ولكي يتأكدوا ملءَ السلطان لها . اما هو فليس له الأ العمل بموجبها ووضعوا الشريعة في يده ليبيّنوا للعباد واجب خضوعهم له وان له قوةً وسلطاناً ان يضطر الجميع الى الخضوع لاوامره الملكية

وانك ترى عادةً في وجوه الرؤساء والملوك شيئاً من سمات الجلال الالهي الذي يوليهم الله اياه لانهم ممثلوه على الارض واذا ماتوا فسلطانهم لا يموت بل ينتقل الى خلفائهم ويلقي دائماً في قلوب الجميع الاهابة والاحترام فالانسان يموت اما وكيل الله فلا يموت لان صورة الله غير مائتة

فمن الواجب اذن ان يكون الرئيس الاول اي المشترع فطناً حكيماً حتى يوافق بين القوانين التي يسنها وبين ضعف طبيعتنـا واما الرؤساء الذين يخلفونهُ فيجب ان يكونوا حزماء غيورين على الذَب عن القوانين المسنونة والمحافظة على حفظها ليس الأ . فمن اخص واجبات الرؤساء اذن المحافظة على القوانين كلها اجمع بدون ملل ولا انقطاع

١ً في شأن القوانين كلها اجمع : لعمري ان منزلة القوانين في الرهبانية هي منزلة الاساس في بناية عظيمة او بمثابة العظم والاعصاب في الجسم البشري ومن ثم فوَان وجد بين القوانين بعضها اهم من بعض الأ ان المحافظة على كلها واجبة وضرورية لانهُ ما من فريضة في هذه القوانين الأ وكانت ثمرة تأملات دقيقة شاقة على المشترع بل كأنها موحاة من الروح القدس . هذا ولا يمكن الأ يكون اهمالها سبباً لاهمال فريضة اخرى ويسبب اخيراً مع طول المدة ضرراً عظيماً للرهبانية كلها الا ترى انهُ ان قُطع حجرٌ ولو صغيراً من واجهة البناء فانهُ يخدش منظرها مهما كان جميلاً . وكـذا الجسم البشري فانهُ لو انكسر فيه عظم او تشنجت احدى اعضائه لكان ذلك داعياً لتشويش نظامه ويفقده الراحة الطبيعية ولو كان

على منتهى العافية والقوة . . ومن البين ان المركب ومهما كان عظيماً مكيناً فان لم يكن فيهِ مضخّة تسحب شيئاً فشيئاً المياه التي تدخله فيغرق ويذهب فريسة الامواج

٢ً دائماً قد اعتاد بعض الروساء ان يسهروا مزيد السهر على حفظ القوانين في بدائة زمان رئاستهم واما فيما بعد فيهملون ذلك متراخين . فلا غروَ لان المجد الباطل وطلبهم مدحة الناس قد حملهم على ذلك اولاً الاَّ انهُ عندما انخفضت اصوات تمداحهم مع تمادي الزمان سقطت همتهم وعنايتهم . وعلى هذا صغر النفس وخمود الهمة جعلاهم ان ينثنوا عما شرعوا فيهِ من المحافظة على القوانين حالما رأوا ان امانيهم بعيدة المنال ورغباتهم الباطلة لا تدرك . ولعمري ان ما يحملهم على مزيد الهمة في باديء الامر وسرعة القنوط في خاتمتهما هو الاَّ الطيش وخفة العقل ولذلك يجب على الرئيس ان يطالع القوانين المختصة بهِ وبسائر اصحاب الوظائف لكي يعلم ما يمكنهُ ان يسمح بهِ للاخوة . وبالاجمال يجب عليهِ التيقظ وان ينبه كل من يتعدى القوانين اما سرًا وعلى انفراد واماً جهرًا وعلى مسمع الجمهور كما تقتضيهِ الفطنة وخير الانفس . وعليهِ ايضاً ان ينبّه الروساء الكبار على ما يلاحظهُ فيهم من الشوائب التي وان لم تكن من الكبائر فتضر بروح الرهبانية وبالغاية المقصودة من موسسيها . فيا ما اجمل رهبانية تسير دائماً على قدم واحدة ويدفعها روح واحد واَنّى يكون ذلك ان لم يسهر الروساء على حفظ القوانين سهرًا مدققاً متواصلًا ويعتنوا بذلك عناية غير منقطعة

عد ٢

في انهُ لا سلطان للرئيس مطلقاً على ان يمس شيئاً من القوانين الاساسية في الرهبانية ولا ان يغير عادة من عاداتها المألوفة

اعلم ان اهمال القوانين وتغيير الفرائض الاساسية في الرهبانية يلحقان بها ابلغ ضرر لانهُ اذا اهملت القوانين واطلق العنان للشهوات لا يبقى ما يرشد الى

الفضيلة واذا حدث تغيير في الفرائض الاساسية فُقدت السلطة والمهابة ونشأ الاهمال والخلل ولم يبقَ للراهب رادع عن ركوب المنكر ولا من يرشده الى سواء السبيل • ولعمري ان الفرائض في الرهبانية هي بمثابة الشرائع في المملكة وقد قال كليون : « اني افضل مملكة تأسست على شرائع ثابتة وان غير متناهية في الجودة والسداد على مملكة شرائعها غاية في الصلاحية والحكمة الأ انها غير ثابتة • » وقال العلّامة بوسويت : (السياسة المقدسة ١ : ١ قضية ٨) : « ان الشرائع لا تكون بالحقيقة شرائع ان لم تكن ثابتة غير متغيرة لانها اذا خضعت للتغيير فقدت اعتبارها • » وتلك قبائل الامم هوت وسقطت من عزها وشرفها لان الارض كما قال النبي آشعيا (٢٤) : « قد تدنست تحت سكانها لانهم قد تعدوا الشرائع ونقضوا الحق ونكثوا عهد الابد فمادت الارض كما يميد السكران وتدلدلت كارجوحة النائم

ولعمري ان حالة المريض المضنك الذي لا يقدر ان يهدأ على حال ولا ان يرتاح دقيقة واحدة لهي صورة حال موته لا ثبات لشرائعهم ولا دوام او لا شريعة لهم لان الشريعة التي تتغير من يوم الى اخر ليست بشريعة اهـ • وقد قال ساوردرا قولاً يستحق الاعتبار وهو : « ان كثرة الشرائع دليل على فساد المملكة وهي تضر بها كالفواحش الموبقة وذلك لمزيد احتقارها من العباد وكثرة تأويلات المفسرين الذين لا يقر لهم عليها رأي » ولقد قال اريستو الفيلسوف : « للحوادث العظيمة الهامة يكفي عدد قليل من الشرائع واما الحوادث العادية فيجدر بان يترك الحكم فيها لمحكمة القضاة المألوفين اهـ

وقد قال القديس برنردوس : « ان الفرائض مستودعة لفطنة الرئيس وحكمته وليست متروكة لمجرّد ارادته واميالهِ يغيرها كيف يشاء اهـ وبالحقيقة لو ابتدأنا بهذا التغيير لما انتهينا الأ بملاشاة القوانين والرهبانية معاً لان الانوار السماوية التي كانت لمؤسسي الرهبانيات لا تعطى لكلٍ من الرؤساء فيرى هولاء مثلاً في الغد غير موافق ما رأوه اليوم موافقاً فيزدادون في التحويل والتبديل • على ان القوانين عادةً مرتبطة بعضها مع بعض ارتباطاً شديداً حتى ان تغيير بعضها يفضي الى تغييرها باجمعها وهذا ما يلاشي الرهبانية ملاشاة كلية • ومما لا يختلف فيهِ اثنان ان التغيير

والتبديل في الفرائض الرسمية من اشد النوائب على الرهبانية

قال القديس بوناونتورا (ستة اجنحة ف٦) : « اننا نرى بعض الروساء حال ما يقبضون على ازمّة الرياسة يبدأون بان يدّعوا بالذكاء والنباهة ويفضلوا ذواتهم على كل من ترأس على ذلك الدير قبل رياستهم ومن ثم يأخذون بتغيير كل ما شرع به سلفاؤهم لانهم لا يرون فيه شيئاً يوافق الصواب ولا خير الدير وترى نفراً اخر عندما يتركون وظائفهم يأخذون بالقدح والتنديد سلفاً على من يخلفونهم في الرياسة اي قبل ان يروا منهم خيراً او شراً ولا يعلمون ان سهام قدحهم ترجع اليهم اه

ولعمري هل لنا اسأم والأَم من رئيس يشرع حال دخوله دير رياسته يندد بشيوخ افاضل قد انهزوا حياتهم الطويلة بسياسة الاديرة والجماهير ويقلق ويبلبل ضمائر مرؤوسيهِ حتى انهُ لايدع الراحة لشيء حتى تلك التي لا حراك ولا حس لها فيريد ان يغير لكل مكانه وعوائده وسيرته فيُرى الجمهور بحركة واضطراب حتى كأنهم جميعاً داخلون الرهبانية حديثاً

ويا ليت شعري ما الربح من مثل هذا التبلبل سوى تشويش النظام وسلب الراحة بل تدمير كل عماراه (بوفيس ١٢)

واذا نقبنا عن سبب ذلك نجده عند البعض خفة وطيـاشة لانهم اذا سنّوا اليوم شريعة لداعٍ بدا لهم ففي الغد ايضاً يبدو لهم داعٍ اخر فيضعون شريعة اخرى وهكذا في سبّة واحدة يسنون شرائع عديدة وبما انهم لا ينظرون الى عاقبة هذه الشرائع قبل سنها فانهم يكثرونها تكثيراً ويا ليتها تجتمع مع بعضها وتؤلف دستوراً واحداً ولذلك لا تلبث ان تسقط في حيز النسيان وبسقوطها تهدم الشرائع القديمة المؤسسة عليها الرهبانية لان من تعوّد على احتقار القديمة يحتقر الحديثة باكثر سهولة

وهذا السبب نجده عند الآخرين ضعفاً وجبانةً لانهم لما لم يقدروا على ردع المعتدين على الفرائض الاساسية خُيل لهم ان سن فرائض حديثة وتمشيها لاسهل طريقة وانجع واسطة فيا للغباوة لانهم يسنون شرائع ولا يهتمون بحفظها وتمشيها ويظنون انهم بتثقيل ضمائر مرؤوسيهم يريحون ضمائرهم ولا يدرون انهم يلقون

وجب الاهتمام بكل من الامرين فمع ذلك يوجد فرق عظيم بين العناية مثلاً في لسعة ذبابة في الاصبع وبين فدغ بليغ في الرأس

فعلى الرئيس اذن ان يحافظ على روح القانون اكثر من محافظته على حرفه وقد يحدث احياناً ان الرئيس يخطيء ضد القانون بزيادة محافظته على حرفه فمثلاً لو اني من جرّاء محافظتي على حرف القانون ثلمت المحبة العمومية او غير فضيلة رئيسية او خالفت روح القانون او غاية المشترع اما اكون بذلك قد اخطأت ؟ هل يسوغ ان اسلم السيف لصاحبه الغضبان الذي يطلبه ليقتل به عدوه وذلك بعلة انهُ لهُ . أوَهل اخطأ داود لما اكل من خبز التقدمة واعطى منه من كان معهُ متضورًا جوعاً بداعي ان ذلك الخبز كان مقدساً للرب ؟

ان الاب جوفروا صاحب تأبين القديس برنردوس يمدح هذا القديس بكونه وجّه اكبر عنايته لتخفيف نير السيد المسيح ممارساً بذاته ما علمناه في رسالته (٢٢٩) : « من انهُ لا ينبغي ان نخشى التسامح في بعض الفرائض لان اعظم فريضة هي المحبة . »

وقال البابا اوجانيوس الثالث : « ان السيد المسيح ترك لنا في وصيته الاخيرة السلام والحق وعلى ظني ليس من احد يقتدي ويتشبه به مثل ذاك الذي يحب السلام وخاصةً اذا كان مقلدًا سيف السلطة ولم يستخدمهُ الاَّ لالقاء السلام بين جماعة مرؤوسيه . » (رسالته ١٤

والقديس العظيم اغوسطينوس لما رأى ان اساقفة الدوناتيستيين وكهنتهم ابوا الرجوع الى حضن الكنيسة خوفاً من فقد مناصبهم اشار ان يصفح عنهم وتترك لهم مناصبهم ولو كان ذلك مخالفاً لنص قوانين المجامع وقال بذلك : « انهُ يجدر بنا ان نلقح هولاء الاساقفة والكهنة بشجرة الكنيسة ولو جرحنا قليلاً قوانينها كما تُجرح اغصان الشجرة وقت تلقيحها لانهُ وان كانت القوانين المقدسة جديرة بالاعتبار الاَّ ان المحبة التي تقدر ان تخفي كثرة الخطايا تقدر ايضاً ان تخفي الخلل الذي يلتحق بالقوانين البيعية . واذ كانت وحدة الاتفاق والسلام هي خير الفضائل وجب الاَّ نطلب من هولاء الاساقفة والكهنة الا ان يسعوا من الان في طلب الاتفاق والسلام سعيهم الى الان في رفضها اه

على مناكب الناس احمالاً ثقيلة وهم لا يرون ان يحركوها باحد اصابعهم فبئس التخلص وبئس السياسة . هل الجماعة التي لا تحفظ رسومها القديمة القانونية او السياسية تحفظ رسوماً جديدة . والفرائض التي لا يومل حفظها ما الغاية من سنها او اذاعتها . اعلم ان الشريعة تقتضي امرين لازمين وهما اذاعتها والعناية بحفظها واما انت فلا عناية لك الاّ باذاعتها وهذا غير كافٍ بل مضر غاية الضرر (بوفيس مكتوب ١٠)

واكبر ضرر ينجم عن هذا التغيير والتجديد هو اولاً التذمر « لان الجدة والحداثة في مثل هذه الفرائض تجعلها غير محتملة بصبر ومن ثم فانها لا تزيد الرهبان قداسة بل تذمرًا » (ق برنردوس) واذا احتمل ذلك بعض الرهبان الحدثاء فالاقدمون الذين تعودوا الفرائض القديمة ولهم علائق المودة مع الروساء السالفين لا يقدرون ان يحتملوا هذه الفرائض الجديدة الاّ بالتذمّر والتشكي من محدثها ايًّا كان

وثانياً انهُ يقوّض اساسات السلطة لان الرئيس عندما يبدأُ يامر وينهي بلا دستور يعتمد عليهِ يمسي باعين مرؤُوسيهِ مخاصماً مشاجرًا لا سلطان لهُ ولا مهابة واذا اطاعهُ احد فلا تكون طاعته الاّ ظاهرة وقتية لانهُ ينتظر تغيير كل هذه الاوامر الحديثة النشأة عند تغيير هذا الرئيس . ولعمري ان الرئيس الذي يكون قد فتح هذا الباب وجدد من الفرائض وبدل اما انهُ بمثله هذا يدفع خليفته الى ان يحذو حذوه ويزيد عليهِ ايضاً بالتغيير والتبديل؟

عد ٣

في انهُ يجب على الرئيس ان يفهم جيدًا روح الفرائض وجوهرها وذلك لكي يعرف كيف يفسرها او يتسامح ببعضها عند مس الحاجة

من الفرائض ما يختص بجوهر الرهبانية ومنها ما يختص بشأنها وشرفها الخارجي . فالاولى تمس النذور مساً قريباً واما هذه فعن بعدٍ بعيد فانهُ وان

وعليهِ فحباً بالسلام والمحبة يضطر الرئيس احياناً لان يضحّي خرق القوانين وشيئاً من التأديبات وحقوقه الخاصة ايضاً ويعتاض عن هذه الخسارة الصغيرة بائتلاف القلوب وخيرات اخرى كثيرة لان الصواب يضطرنا كما قال احد اباء الكنيسة : لان يبتاع المحبة والسلام باعلى ثمن واعز شيء اه

وليس لقائل ان يقول : ان في ذلك تضعيفاً للسلطان لانه يوجد فرق عظيم بين الاغضاء على شي من الفرائض ابتغاء خير اكبر وبين اغفالها تماماً · ففي الاغفال تضعيف للسلطة اما في الاغضاء فحلم وعفو ومحبة فلا يخفى ان الحلم يعزّز السلطان ويؤيده لانهُ ان عفا الرئيس موقتاً فيرى ان لهُ القدرة على التأديب في وقت آخر اكثر مناسبة هذا ولو فرضنا ان القانون محفوظ بكل تدقيق في بعض الاديرة فما الفائدة ان لم يكن هناك سائداً الحب والسلام أو هل نتصور السلطان والمهابة في رئيس لا يرى فيه مرؤوسوهُ المحبة والصلاح

واما ما يستلزمهُ هذا الامر في الرئيس من دقة النظر والفطنة والحذاقة فليس عليهِ من نكير لان ذلك يوجب عليهِ ان يفهم جيداً روح القانون وغرض المشترع ومقدار استعداد المرؤوس لقبول الشريعة وظروف اخرى عديدة لا يخفى ما فيها وفي نظائرها من الاشكال والصعوبة

عدد ٤

في ان الرئيس يفتقر الى فطنة متناهية اذا ما دعته الضرورة الى تجديد شيء في العادات أو الفرائض الرهبانية

ما ذكرناه في اخر الفصل المتقدم من وجوب الفطنة بتفسير القانون والاغضاء عن خرقه احياناً تراه اشد وجوباً اذا دعت الضرورة الى تغيير شيء من الفرائض او العادات الرهبانية او تفسيرها او تجديدها وهذه الضرورة وان كانت نادرة جداً فقد تحدث مع ذلك : مثلاً لو قدّرنا ان الرهبانية من دون هذا التغيير أو التجديد لن تبلغ غايتها الجوهرية مطلقاً أو لا تبلغها الاَّ بصعوبة ومشاق زائدة او لا تبلغ منها الاَّ شيئاً يسيراً · واذا دعت الضرورة الى شيء من التبديل أو التجديد فيقتضي اذ ذاك مراعاة اربعة اشياء

اولاً التأني : تفهّم جيداً حالة الرهبانية وابحث بحثاً بليغاً عمّا يجب تغييره او تبديله وتأكد تأكداً تاماً ان موءسس الرهبانية قد فاته ان يستدرك هذا الحادث · ولا تنخدع لظواهر الامور التي ربما تظهر لك في الغد على خلاف ما هي عليهِ اليوم · قال احد الاساقفة الافاضل : « الاوفق في الاعمال الهامة إن يبتدئ الانسان بان ينظر ويسمع كل شي ويتأنى في الكلام والعمل لان احتياجنا الى الاعين والاذان في امورٍ كهذه اعظم جداً منه الى لايدي والالسنة اه

ثانياً بعد عزمك على العمل تأمله ملياً من كل الوجوه وفي عامة ظروفه مثلاً في هل يسهل او يصعب اجراوءه فعلاً وهل اكثر الجماعة وافضلهم يرغبون فيهِ وهل خيرهُ يعادل شرّهُ ··· الخ

ثالثاً انبذ عنك الرغبة في التبديل والتغيير ولا سيما اذا كان بذلك بعض الضرر او مضادة لروح الرهبانية الاصلي وارينّ الجميع انك لا تسلّم بشيء من ذلك الاّ لاجل ضرورة الزمان او المكان او الاشخاص وان مثلك بذلك مثل الكنيسة التي لا تغير شيئاً من تعاليمها الدينية والادبية ولكنها تضطر احياناً لان تجعل شرائعها توافق الازمنة والامكنة والشعوب المختلفة وغير ذلك من الظروف الخطيرة

رابعاً وبعد هذا كله اطلب رأي اهل مشورتك لساناً وخطاً واذا كان الامر يفوق سلطانك مع مشورة اهل ديرك فاطلب مشورة افراد الرهبانية او اعيانها بموجب رسم الفرائض والعادات ···· وبذلك لا يبقى محل للتشكي منك بل يكون لك عذر عند الله والعقلاء وذلك حسبك

هذا وبالاجمال اذا اظهر الرئيس احياناً عدم رضاه بالتغيير والتبديل ولو كان الرهبان يطلبون ذلك او يرغبون فيهِ فلا يستحق الاّ الثناء والمجد لان حقوق وظيفته ومعرفته الخاصة بطباع مرؤوسيه وسائر الظروف توجب غالباً تأخير التبديل الى زمن أو تقتضي تركهُ وبالاخص اذا كان الخير المنتظر منه لا يعادل شرهُ · وهذا قلما يراه المروءوسون كما يراه الرئيس الذي تكوّن التجارب والايام قد حنكتهُ اكثر منهم

وبعد فانه ولو ظهر وتاكد للرئيس ان في التغيير المطلوب من المروءوسين خيراً

اكبر فيجدر بهِ مع ذلك ان يؤَجله الى زمــان فيزداد الخير وضوحاً ويكثر عدد الطالبين لهُ وتتبدد الموانع

اخيرًا اذا ما تم الرأي وجزم الرئيس بالتبديل فيبقى عليهِ مراعاة أمرين : الاول ان لا ينجز العمل الاَّ بالفرصة الموافقة ٠ والثاني الاَّ ينجزه الاَّ شيئاً فشيئاً حتى اذا جدَّ ما يوجب العدول عنهِ فيكون قبل اتمامهِ وذلك اسهل وأصلح ٠٠ فالطبيب لا يعد حكيماً ماهرًا ولا تسلم عاقبــة اجراءاته ان لم يتجسس المرض ويترقب سيره بدقة وامعان

مقالة ثانية في الوظائف

عد ١

في ان الرئيس عند توزيعــه الوظائف يجب ان ينعم النظر في ميل المرؤوس الخاص واهليته لتلك الوظيفة

انهُ يصعب على الراهب ان ينجح في وظيفة لا يكون لهُ اليهــا ميل خاص لانه وان بالغ في العناية والتعب حبًّا بالنجاح بهــا فعنايته وتعبه يذهبان سدى وبالعكس اذا كان لهُ ميل خصوصي الى تلك الخدمة فانه ينجح بها نجاحاً باهرًا على غير عناء ٠ هذا واننا نرى العناية الربانية نفسها تولي كلاًّ ميلاً خاصًّا يسهّل لهُ الدعوة التي تكون دعتهُ اليها

وهذا ما لاحظه القديس اغناطيوس الذي كان يجتهد في ان يوفّق لا بين الوظائف واهلية اصحابها فقط بل ايضاً بينها وبين اميالهم ورغائبهم موقنــاً ان الميل والرغبة في المهمة تسهلان على صاحبها حسن القيام بهــا ولعمري ان هذه المراعاة في توزيع المهام على موجب ميل الاخوة ورغبتهم لهي من اقوى الوسائط التي توليهم راحة وسكينة وعلى ذلك فلا يسوغ العدول عن هذه الخطة الاَّ لداعٍ صوابي كأنَّ الاخ وحده هو القادر او الموافق لتلك المصلحة التي لا يرغب فيهــا لان الذين يسعون وراء النعمة ويعملون بالمبادي الفائقة الطبيعة هم قليلون جدًّا

ومن البيّن ان كل واحد في الجماعة لا يصلح لكل عمل بل البعض يصلحون للاعمال الرفيعــة وغيرهم للوضيعة ويجب ان تلاحظ في ذلك لا درجة العقل

والحذاقة فقط بل الاختبار ايضاً . وكما انه لا يصلح لعلم الصبيان من به عيب طبيعي يحملهم على الهزء به ولا لتهذيب المبتدئين في الرهبانية من كانت بعض الشوائب في عقله وآدابه كذلك لا يصلح للرئاسة على جماعة الشيوخ شاب غرٌّ لم يحكّنهُ الاختبار

ونخص بالذكر المناصب السامية الخطيرة التي تستدعي نظرًا دقيقاً وعناية كبرى في انتخاب اصحابها ولذلك يجب في مثل هذا الانتخاب الوقوف على رأي الجمهور لئلا يكون بذلك مظنة بالانحراف عن محجة العدل والاستقامة . ومما يجب الحذر منه هو ان يتولى احد الرهبان مهمة تضاد روح رهبانيته لانهُ بها يخرج عن روح دعوته الخاصة وربما ابتعد ايضاً عن النعمة واذا تسامحنا مع الواحد فكيف لنا ان نرفضه على الآخر

وقال غراسيانوس (رجل البلاط مبدا ١٩٨) : « ان قوماً من الرهبان لا يصلحون لبعض الخدمات ولاسيما الهامة الاَّ اذا ابتعدوا عن اوطانهم وهذا يقال خاصة في الذين كان لهم في وطنهم سمعة غير حسنة وكثيرًا ما يعتبر الناس الزجاج كالماس لوجوده في غير منشإه

عد ٢

في انهُ يجب على الرئيس في توزيعه الوظائف ان ينظر الى فضائل مرؤوسيه وطباعهم

اننا نورد ملخص هذا الفصل مع بعض تصرُّف

١ً لا غرو ان النظر بالموافقة بين اهمية الخدمة وفضيلة صاحبها هو لازم او ضروري ايضاً لانه لو لاق مثلاً احد الاباء لاجل علومه ان يكون مرشدًا للاخوة في احد الاديرة فلا تكفيه مع ذلك علومه لان يكون مرشدًا خارج الدير للعامَّة من الرجال والنساء أو لان يكون مرشدًا للراهبات بل يفتقر في ذلك الى فضيلة وفطنة خصوصيتين

ثانياً النظر في الاخلاق يختص بما اذا وجب لوظيفة واحدة اثنان كعمل الرسالة مثلاً فيجب على الرئيس حينئذٍ ان لا يكتفي بالنظر في علوم المرسلين

وفضيلتهم بل عليهِ ان يلاحظ موافقة طباعهم وعاداتهم ايضاً وبغير ذلك لا يتكلل عملهم بالنجاح بل لا يعتم ان يحدث بينهم خلاف وتنجم عنه شكوك ومن ثم تفقد الثمرة المنتظرة من تلك الرسالة •

عد ٣

في انهُ يجب على الرئيس ان يسهر بنوع خاص على الرهبان البطالين

ان سينكا الفيلسوف يذكر في رسالته الى لوشيللوس ثلاثة انواع من البشر لا يكاد يُحتمل فسادهم بين الجماعة : فالنوع الاول هم المنهمكون باعمال الشر . والنوع الثاني هم العاملون بما لا يعنيهم . والنوع الثالث هم البطالون الذين لا عمل لهم وشر هذه الحالات الثلاث هي حال البطالين لان الاولين ينهمكون بشر واحد ولا يخفى انهم مع بعض الوسائط أو لنعمةٍ خصوصية يقلعون عنهُ . واصحاب النوع الثاني من البشر قد زاغوا عن سواء السبيل الاَّ انهم بسهولة ينتبهون لسوء حالتهم ويرجعون عن اباطيلهم . واما البطالون فقد فسدت نياتهم أو تكاد وهم لا يشعرون »

وقال مونتيسكيو صاحب انتقاد نجاح الرومانيين وسقوطهم : « ان الرومانيين كانوا يخافون البطالة اكثر من الاعداء . لان هولاء يحملونهم على انهاض الهمة والبسالة واما تلك فالى التواني والرخاء » .. وحسبنا بذلك شاهداً الاختبار . فالبطالة هي اقدر شيء على اخماد الذهن وافساد القلب . الا ترى ان الماء الراكد سريع الفساد والحديد الذي لا يُعمل بهِ يأكلهُ الصداء وهكذا الارض ان لم تُحرث و تُقلب فلا تنبت الاَّ قرطباً وشركاً الخ ... وعليهِ فالبطالة تُلحق الاضرار والخلل بكل رهبانية سواء كانت غايتها النسك والصلاة والوعظ والتعليم أو اعمال المحبة ...

والقديس برزدوس يامر في قوانينه ان يُنتخب شيخان فاضلان من الاخوة كي يفتقداهم في قلاليهم ساعات العمل واذا وجدا احداً بطالاً فيعرضان للرئيس عنهُ وهو ينبههُ اولاً ليرتدع عن هذه الزلة القطيعة وان عاد اليها ثانياً فيوبخه اشد توبيخ (ف ٤٨)

وقد جاء عن القديس فرنسيس بورجيا مثال اللطف والمحبة انه لما عرف ان احد رهبانه لم يكن يحسن القيام بهمته لعامه انه مزمع قريباً ان يتركها اشتعل غيظاً حتى انه لم يقدر ان يصف للاخ المتواني كل ما الم بقلبه الابوي من الحزن والكآبة بل قال لهُ : « لو قدّر ان احد الولاة اطلعك سرًّا على انه سلم مدينته بثمنٍ للعدو بحجة ان ايام حكمهِ كادت تنقرض اما كنت تقول لهُ ان فرض الامانة والصيانة لا ينجم عن طول المدة وقصرها بل عن عظمة الشيء الموتمن عليهِ ونفاسة ثمنهِ اه

وقال القديس ايزيدوروس دي ساويلا : انه يجب على خادم الله ان يكون قارئاً أو مصلياً او مشتغلاً بعمل اليد بلا ابطاء والاَّ تضحي نفسه فريسة لافكار الدنس لانه كما ان الاشتغال يطرد الشهوة اللحمية فالبطالة تدعو اليها وتفتح لها منافذ النفس . (كتاب ٢ من المبادي ف ٢٥)

وقال القديس يوحنا فم الذهب « لعمري هل من شيء اقل خيرًا او اكثر شناعةً ورداءة او اسوأ حالاً من رجل بطال » (موعظة ٣٥ على اعمال الرسل)

والقديس بولس في رسالته الثانية ف ٣ الى اهل تسالونيكية أما اذاع تعليمهُ كشريعة الهية بقوله : « ان كان احد لا يريد ان يشتغل فلا يحق له ان يأكل اه بل اوصى الكنيسة ان تتجنب البطالين كاجتنابها اصحاب الفتن والانشقاق اذ قال : « اذا كان احد لا يطيع ما نوصي بهِ في رسالتنا (من فريضة الشغل) فلاحظوه ولا تخالطوه لكي يخجل ثم قال : « لا تنزلوه منزلة عدو بل عظوه وارشدوه كاخٍ اه فعلى الرئيس اذًا الاَّ يرفق بالرهبان الذين رغبةً في البطالة لا غير يتعللون بعلل فارغة ومع ذلك فعليه ان يلاحظ بكل جهده قوة كل راهب من رهبانه لكي لا يضع احمالاً ثقيلة على منكب ضعيفة أو يضع كل الثقل على منكب واحد ولو قوياً لان هذا الخلل هو سبب التذمر والحسد والبلبال بين الاخوة

عد ٤

في انهُ يجب على الرئيس ان يبالغ في سهره على الاخوة المعرضين من قبل وظايفهم لفقدان الفضيلة

من المبادي المسلَّم بها عند اهل السياسة الدينية وجوب السهر والتحذر مع وجود الثقة لان عدم الثقة مطلقاً بلا داعٍ ولا مسوّغ من الخصال المذمومة ولاسيما اذا كانت متجهة نحو اشخاص مخصوصين لاجل البغضاء والاهواء النفسية واما التحذر بالعموم من ذون نظر الى الافراد ولو عن غير داعٍ فهو من خصائص الفطنة الجديرة بكل رئيس فقد يمكن صاحب السياسة ان يحسن الظن بانسان ولا يثق به كل الثقة ألا ترى ان القلاع الموجودة في وسط المملكة لا يدعها اصحابها بلا حراس بل يحرسونها سواد الليل كما لو كانت على اطراف المملكة وما ذلك لغير طائل ولا عن عدم ثقة بالمقيمين على حراستها بل هو تحرز وتحذر يقتضيه نظام السياسة

واذا رأيت راهبك على خسارة من معاشرته اهل العالم أو لهُ تعلق زائد بوظيفته ولا يريد ابدالها باية مهمة كانت او رأيته يعتذر للتملص من الرياضات العامة وقلما يكترث لحفظ القوانين والدعة الرهبانية ويترفع فوق حقوق منصبهِ ولا يرفق باخوته فاعزله عن منصبه ولو مدة قصيرة · هذا لان سقوطه من شرف الفضائل الرهبانية اهم من سقوطه من الخدم الزمنية التي يقدمها للرهبانية في وظيفته — فقد حرمت جمعية الاساقفة والقانونيين المقدسة معاشرة الراهبات للرجال ومعاشرة الرهبان للنساء كيف كانوا وكنَّ وانما ذلك حذراً من تعريض اثمن الفضائل للخطر · حتى انها لم تسمح للراهبات بتربية الصبيان ولو صغاراً ولا بان يخدمن مدارس الاكايريكيين والمستشفيات المعدة للرجال (ك ٤٦)

ومن ثم فلا ينبغي ان تدع احداً من رهبانك في وظيفةٍ واحدة زماناً طويلاً لئلا يتهاون اخيراً بها ويتضجر او يظن انه لازم لها لزوماً ضرورياً فيقع في حبائل العدو · وما عدا ذلك فيجب ان تربي غيره وتدربه على هذه الوظيفة · هذا ومع ذلك فاحذر كل الحذر من سوء الظن بتعلق الرهبان بمناصبهم ولا تتسرع في

تغييرهم منها لانك بذلك تفتح سبيلًا الى القلق والاضطراب وتعدم الرهبانيـة خيرات عديدة ويشمئز من سياستك المتقلبة كل ناظر وسامع

وعلى الرئيس ايضاً ان لا يتباهى بنجاح مرؤوسيهِ ولا ان يبين لهـم مزيد فضلهم لئلّا يحملهم بذلك على الكـبر والعجب بذواتهم بل فليشكر الله على حسن سيرتهم لان كثيرين من اهل الفضل سقطوا بفخ الخيلاء فبادوا

ومن التجارب التي تعرض للاباء المقلّدين مهام الوعظ والتعليـم ان ينهمكوا كثيرًا بهذه الاعمال ويهملوا التأملات الروحية كما يعرض للاخوة المشتغلين بخدم الدير الداخلية فانهم ينشغفون بالتأملات والصلوات كثيرًا ويتركون اعمال خدمهم فالاولون قد كتب لهم القديس فرنسيس الاسيزي مبادىء كريمة وهي : « ان الواعظ لا يكون عالمًا بليغاً الاَّ اذا عمل بموجب معرفتهِ وقولهِ وعليهِ فالفضل كل الفضل لمن يعرف ان يستفيد ويستنير من الحقائق التي يعظ بها ٠واماً من يعلّم ولا يتعلم فهو ظـلّام لنفسهِ ٠ والغبطة كل الغبطة لمن يكتفي بمعرفته يسوع مصلوباً وليس لمن يهمل هذه ويجهد نفسه باكتساب ما سواها من المعارف اه٠ وكان قدس الله روحه عندما يودّع احد المسافرين الى الرسالة يقول لهُ : « اينما كنـا وكيفما اتجهنا ينبغي ان نصحب معنا قلايتنا لنكون فيها باختلاء ٠ فجسدنا هوّ القلاية ونفسنا هي السائح المختلي فيهِ للصـلاة والتضرع ٠ ولعمري ان النفس التي لا تعرف ان تختلي في قلاية جسدها لا تقدر ان تستفيد شيئاً من سكنى القلالي الحجرية اه

والقديس انطونيوس عندما رأى احد القواد يريد ان يطيل الحديث معهُ قال لهُ :« كما ان السمك يموت لو مكث طويلًا خارج الماء هكذا الناسك كل ما اطال حديثه مع احد العامة يشعر بان حرارة عبادته اخذت بالفتور ولا يبعد ان نصل نحن الى هذا الحد اه

وقال في هذا المعنى القديس فرنسيس سالس : « ان الملـح ان لم يُمزج مع اللحوم تفسد الاَّ انهُ مع ذلك لو رُدَّ الى الماء لذاب وتلاشى اه هكذا حال الراهب مع اهل العالم فانهُ يكون مفيداً لهـم ان لم يكن وجوده بينهم الا نادرًا وتبعاً للضرورة ٠ ان الصلاة مع الاختلاء تولي قلوب الذين يحاربون حرب الرب صلابة

الناس فيجاهدون فيهِ وينتصرون حتى ان من كان منهم محترقاً بلهيب نار الشهوة فالصلاة تصب عليهِ ماء بارداً وتنقذه من مضرَّة تلك النار وعليهِ فالرئيس الذي يكون متأكداً رغبة مرؤوسيه وحرارتهم في الصلاة ليس عليهِ ان يخشى مضرتهم

مقالة ثالثة

في معاوني الرئيس في مهام وظيفتهِ

عد ١

في انهُ يجب على الرئيس في انتخابه معاونيه الاَّ يلتفت الى اميال المرؤوسين ولا الى مكايد بعضهم ضد اخوتهم

ان موسى قد اتخذ لهُ معاونين بيد ان السلطة التي وزعها بينهم بقيت منحصرة فيهِ لان مرجع الامور الخطيرة كان اليهِ وهو نفسه كان يقضي بها ويحكم وبهذا لم تتوزع السلطة حقيقةً بل بقيت مجتمعة في رأس واحد · وهو المسؤول عن خير الرعية واليهِ ينسب كل خير او شر وقع من معاونيهِ لانهُ هو الذي اصطفاهم وسلطهم بعد ما عرفهم واختبرهم وعليهِ فالرأس الذي لا يحسن انتخاب معاونيهِ يكون مسؤولاً عن كل اعمالهم كما قال الحكيم: « من ارسل كلاماً على لسان جاهل فانما يتجرَّع الجور اه (امثال ٢٦) فالى الرئيس اذاً يرجع كل خير او شر يصنعه معاونوه لانهُ هو الذي اساء في انتخابهم او مال بهم عن القيام بواجباتهم وكلا الامرين شر ووبال

قال المعلم ساودرا (ك ٠ م٠ ف١٣) : « ان القمر اذا انخسف ضوءه فلا لوم عليهِ بل على الارض التي تلقي عليهِ ظلها بتوسطها بينهُ وبين الشمس · ومع ذلك لا يُنسب الانخساف الى الارض بل الى القمر لان نوره هو المخطوف وليس نور الارض · وهذا حال الحاكم او الرئيس اذا ما ساءت حال معاونيه بل اذا رأينا الوالي نفسهُ رديئاً عذرناه على نوعٍ ما وقلنا ان طبيعته فاسدة واما اذا رأينا الفساد

في معاونيه فتلومه كأنهُ فاقد البصيرة والشجاعة لانه اساء في انتخابهم لهذه المهام على غير جدارة ·

حض كاسيودوروس احد معاوني البلاط على حسن القيام بمهمتهِ قال : « ان شرف الملك متوقف على قيامك بواجب خدمتك لانهُ كما ان اعتبار الدار قائم في منظر واجهتها فكذلك اجلال الملك يكون فيما لو قام خدامهُ بخدمهم حق القيام» وكتب القديس برنردوس الى البابا اوجانيوس ما نصهُ : « أيمكنك ان تفتخر بجودة صحتك لو كنت تشعر بألم في جنبك ? وانما اعوانك هم اجنابك فان كانوا صالحين فلك خير صلاحهم وان اشراراً فعليك مضرة شرهم · اه (الاعتبارات ك ٤ ف ٤) لا يريد بذلك ان يقوم قداستهُ بخدمة الكنيسة وحده بل عليهِ ان يبذل كل العناية في انتخاب معاونيه لئلا يكون مسؤولاً امام الله عن خراب انفسهم وخراب الشعب معاً

وحسن هذا الانتخاب قائم بالاَّ يخدع الرئيس بظواهر بعض الملاّقين الذين تكون بواطنهم موعبة حسداً وخبثاً بل ان يسبر قلوبهم ويكتشف على اميالهم الى الفضيلة الحقيقية والحذر كل الحذر من الذين يتظاهرون بالحب للرئيس ومصالحه وما يكون حبه الاَّ للشهوة والرياسة

واذا حدث ان بعض الاخوة غادروا الاستقامة وعزموا على حط بعض الافاضل من مناصبهم مكراً وحسداً ليكونوا عوضهم فعلى الرئيس اذ ذاك ان يزجر المحتالين ويبعدهم عن الوظائف ما بقي له سلطان وسيطرة في الرهبانية وليعلم ان المتواضعين ولو قلّت نباهتهم فهم اجدر من المعجبين بذواتهم ولو كانوا على ذكاء رائع لان اولئك يكونون سهلي الانقياد وقدوة لغيرهم واما هولاء فتحملهم المناصب العالية على العصاوة وخراب القريب

وعلى الرئيس ايضاً ان يفضل بالاكرام والمحبة والتقدم الى الوظائف اولئك الاخوة الذين حبهم للصدق وللمصلحة العمومية يجعلهم ينتصرون للحق ولو بمقاومة الرئيس وذم بعض ما يستحسنه · هذا اذا لم يبدُ منهم ما يخدش الاداب والاعتبار الواجب للسلطة · واما الملاّقون الذين لا يهتمون الاَّ برضاء المتسلط من دون ادنى ميل الى المصلحة والاستقامة فعليهِ ان يبعدهم عنهُ ويفهمهم خساسة

طباعهم الدنية . فمن الاخوة من يرفض كل مهمة وذلك عن جبانة وكسل ومنهم من يرفضون عن كبرياء وطمعاً بالاحسن . فمثل هؤلاء يجب اذلالهم في ابعادهم مدة عن كل وظيفة واما الاولون فيجب ان يُشجعوا ويُساعدوا باللطف وحسن الالتفات

اخيراً نقول : كما ان الجمال والصحة في الجسم البشري يتوقفان على ترتب الاعضاء ونظامها بعضها مع بعض هكذا الكمال في الرهبانية فانهُ قائم في نخبة اصحاب الوظائف وقيام كل منهم في حقوق مهمته

هذا ولما كان انخداع الرؤساء في هذه الانتخابات صادراً في الغالب عن اميالهم الخصوصية واميال مرؤوسيهم المنحرفة وجب عليهم بذل العناية والالتجاء اليهِ تعالى في الصلاة لكي يجعلهم يعرفون هذه الاميال معرفة كاملة ولا ينخدعون بوساوسها

عد ٢

في انهُ يجب على الرئيس في انتخابه معاونيه ان لا يُركن الى اميالهِ الخصوصية ولاسيما الطمع

من اعظم واجبات الرئيس الاكبر ان يحذر في انتخابه اصحاب الوظائف من ان يفضل اهل قرابته واصدقائه على كل من سواهم لانهُ بذلك يجعل رهبانيته في مدة قصيرة رهبانية اصدقاء واقارب . فالسيد المسيح لم يقم رئيساً على كنيسته يوحنا الذي كان يحبهُ بنوع خاص بل اقام القديس بطرس الذي كان قد انكره ثلاث مرات متتابعة

قال يوفيس (مكتوب ١٢ : « من الرؤساء من لا يصغون الا لاميال قلوبهم فحيثما مالت مالوا فمن اعتقدوه فاضلاً اضحى عندهم معصوماً من كل شائبة واضحوا لا يصدقون عنه شيئاً ومن اعتقدوه بخلاف ذلك فلم يبق لهُ امل بالنجاح امام اعينهم مهما جاد بعمله واطنب الجميع بمديحه »

ان العلامة فينالون في كتابه فحص الضمير يسأل الملك عن واجباته بعض

سؤالات يجدر بنا ان نسألها لكل من الرؤساء وهي : اما فاتك ان تدرس طباع البشر وتفهم كل ما هم عليه وذلك عن توانٍ او تفرد في طباعك او عن ترفع ابعد الناس عنك أو لغير علل احترز من ان تذكر بالنسبة الى اهمية معرفة الملك عبيده

هل انصفت اولي الفضل من رعاياك في توزيعك عليهم المهام والمناصب التي تليق بشأنهم . اما ابعدت عنك وعن معاونيك اولئك الذين تعهدهم ممتازين بالاستقامة وشدة البأس خوفاً من ان يكتشفوا نقائصك ويلوموك بها او ينهوك عنها او يزعجوك بمجرد استقامة سيرتهم؟ أما فضلت لخدمتك اولئك المشهورين بالمآرب والمواربة الذين يغضون الطرف عن شوائبك ولا يخاطبونك الا بالمديح والمداهنة وعلى الاقل أما فضلت ضعاف العقل والطبع على سواهم لكي لا يبقى عندك ذو راي ولا ذو حماسة . . . فانك ان لم تنصف انساناً في حقٍ لهُ تكون قد ظلمت انساناً واحداً لا اكثر واما اذا لم توزع المهام والمناصب على من هم اهل لها فتكون قد حرمت المملكة باسرها من خير كانت تنتظره من بنيها المخلصين الذين اعطاها اياهم الله لمثل هذه الخدم . فهم وان لم يكونوا شخصياً مظلومين لعدم افتقارهم الى هذه المناصب الا ان المملكة مظلومة لانها مفتقرة الى مساعدتهم

واعلم وفقك الله ان الانام المتسامين بالذكاء والاستقامة هم قليلون فوق ما يظن فيجب ان نبحث عنهم حتى في اقاصي العالم . ثم الا ترى ان مقامك يقضي عليك بان تفضل المتسامين بالفضل على من سواهم او كيف لا تخجل من ابعادهم عنك وخفضك شأنهم . قال مودست دي سنت امابل « انهُ لضلال مبين ان يتصور الرئيس ان شأنه ينخفض بقدر ما يرتفع شأن معاونيه وانهُ من الضروري ان يفوقهم معرفة وذكاء بمقدار ما يفوقهم سلطاناً اه

وعلى هذا يهتم في ابعادهم عنه ويخفض من شأنهم ليعلو شأنه « ان هذا لضلال مبين . لان قيادة الانام الممتازين بالذكاء والفضل لاشرف جداً من قيادة السذج الخامدي النيرة والفضيلة» . فهل رأيت رأساً يتشكى من الارجل لصلابتها وقوتها او من الايدي لمهارتها ولباقتها ؟ ولعمري بل انهُ يفتخر بمثل هذه الاعضاء التي تساعده على القيام بمهامه أحسن قيام :

قال احد العلماء : « ان اكبر مصيبة واشد نازلة على المملكة انما هي ملكها

الحسود لانهُ لا يحتمل ابداً ان يوجد في مملكته رجل ذو فضل او براعة

فهل من ظلم يحاكي ظلم شاول الملك او هل من جنون مثل جنونه اذ انهُ حاول قتل الشاب داود بعد فوزه بتلك الغلبة العجيبة في حين كانت الاعداء قريبة ان تنقض على المملكة وتدكها دكًّا ؟ هو الحسد قد حمله على ذلك لانهُ اعمى بصره واخمد فكرته فما كان ليميز خيره من شره . وهكذا باطلاً يشهد للرئيس ضميره بفضل بعض رهبانه وبالخدم الجزيلة الفائدة التي يمكنهم ان يقدموها للرهبانية ام للدير وباطلاً نرى ان وجود مثل هؤلاء الحاذقين بخدمته يوليه مجداً اذ ان مرجع كل الامور الى الرئيس وحده وهو مع ذلك يبذل الجهد في ابعادهم عنهُ او في خفض مقامهم لان لا يريد ان ينظر باذاء مجده مجداً . فيا للباطل ويا للحماقة ! . .

قال القديس غريغوريوس النزينزي : « كما ان المغتصبين المختاسين يبذلون الجهد في ان يبعدوا عنهم الوارثين الشرعيين خوفاً من ان يعودوا يوماً الى ميراثهم هكذا الرئيس الحسود فهو يبذل اشد عنايته في خفض شأن اولي الفضل ومقامهم ونزع الفضيلة من رهبانه ولا يعلم انهُ بذلك يُظهر جلياً انهُ ليس الوارث الشرعي لمناصب الرهبانية وانما هو مختلس وخاطف . » (خطبة ٢١)

وقال ايوب البار : « ان الحسد لا يقتل الاَّ الاطفال اه (ف ٥) يريد بالاطفال رجال الباطل الذين بخلت عليهم الطبيعة بتوقد الذهن والفطنة وقد اوضح هذا سينكا الفيلسوف اذ قال : « بقدر ما تكون صحة الجسم المنهك بالامراض المختلفة ضعيفة بقدر ذلك يكون ضعيفاً فضل ذاك الانسان الذي تكون سودت صيته ألسنة الحاسدين »

وعليهِ فيجب على الرئيس المتصف بالحكمة والذكاء ان يعتقد ويقول : ان الشرف الذي يخسره اخي لن اكتسبه انا فلا مجدي متوقف على هفواته ولا هفواته تحسب لي فضائل وانما انا كسائر الناس لا اعتبر الا بمقدار ما لي وما انا عليهِ من الفضل وليس بمقدار ما يخسره اخي او بمقدار ما اسلبهُ منه

وقصارى الكلام ان الرئيس الذي يفضّل من هم اقل اهلية على من هم اكثر اهلية واستحقاق يُظهر للناس قلة دربته وذكائه . هكذا اذا ما ابعد عن خدمته ذوي الاهلية والاستحقاق واختار لها من يعرفهم عارين من المناقب المطلوبة

فيشهد على ذاته انهُ خاضع لحكم اميالهِ غير المستقيمة اكثر من خضوعه للصواب والعقل وبئس المصير مصيره

الفصل الثالث

في انهُ يجب على الرئيس ان يثقف معاونيه ويعضد سلطانهم والمعاونون هم المدبرون والرؤساء

لا شك في ان الرئيس يلتزم تثقيف معاونيه بنوع خاص لان العقل مركزه الرأس والرئيس الحاذق يعني بامر معاونيه في ان يكونوا حاذقين لانهُ يثقفهم على المبادي الرهبانية وعلى الاختبار الذي علمته اياه الايام وهذا ما عناه ابن سيراخ بقوله: « ان القاضي الحكيم يعلّم شعبه وحكم الرجل العاقل يدوم الى الانقضاء (اهف ١٠٠) وقال ايضاً: » الرجل الحكيم يثقف شعبه واثمار الحكمة ليست بخداعة (ف ٣٧) فليعلمهم اذاً حد امتداد سلطانهم وكيفية الاجرآت وليكن طرفه سهراناً ناظراً اليهم دائماً وعالماً بكل اجزآتهم بل وليناقشهم من وقت الى آخر الحساب عن كل ذلك مبقياً لنفسهِ بعض المداخلة الرسمية في ما يوكل ادارته الى درايتهم وذلك توّاً او من دون توسط البتة وذلك بقدر اهمية العمل وعدم سهارة متقلديه وبهذا يتعلم المعاونون حد سلطانهم ويتوفر عليهم قسم كبير من الشوائب والتشكيات من المرؤوسين ومن سائر المعاونين المجاورين . ومن المعلوم ان الرئيس مجبور على ان يعضد معاونيه لان سلطانهم انما هو جداول من ينبوعه وهو لا يتمكن من القيام بسلطانه المطلق الا بمساعدتهم . وعليهِ فاذا هو عضدهم او مد اليهم يد المساعدة او اجلّ اعتبارهم فانما يعضد ويساعد ويجل سلطانه الخاص » وهذه المساعدة والاجلال لا يتوقفان كما قال مودست دي امابل على اداء الشهادة الحسنة بفطنتهم وخبرتهم بل بالخصوص على ان لا ينقض الرئيس شيئاً من الاعمال التي اتموها فلا يهب ما رفضوه ولا يرفض ما وهبوه . لان مثل هذا التناقض لا بد لهُ من ان يضر بالسلطان المعطى لهم ويخفض من شأنهم واعتبارهم باعين مرؤوسيهم » (الرئيس الكامل ك١ف٢٢)

فالاب يوحنا غواز الكبوشي كان يقول: « ان ثلاثة اشياء لازمة وضرورية لتمكين الرهبانية ونجاحها وهي: اولاً ان لا يسرع احد بجريه في ميدان السياسة

قبل ان يدفعه لذلك دافع اعني ان لا يتقدم احد الى الوظائف قبل ان يقدمه اليها اربابها . ثانياً ان لا يعلّم احداً قبل ان يتعلم اعني ان لا يأخذ على ذاته ان يهذب الآخرين على الفضيلة قبل وان تختبر فضيلته . ثالثاً ان لا يهدم ما كان قد بُني اعني ان لا يقاوم الرئيس معاونيه بالسلطان الذي يكون قلدهم اياه . »

فلا تقدح باحكام معلم الاعتراف بحضرة المعترفين عنده ولا تعيب تصرفات مرشد المبتدئين بحضرة تلاميذه وهكذا لا ينبغي ان تهجو بتعليم المعلّم بحضرة الدارسين عليه والاّ الحقت بالسلطة ضرراً جسيماً : فقد نبّه القديس برندوس الرؤساء : « بالاّ ينخدعوا بهذه الحجة وهي ادعاء بعضهم : اني انا ارفع سلطاناً من معاونيّ فلي اذاً ان اعمل ما يبدو لي . لانهُ اذا كان سلطانك ايها الرئيس اعلى مقاماً ايسوغ لك ان تعمل ما لا يحل عمله او ما تكون نتائجه مضرة بحق سلطانك نفسه ؟ فهل أُعطيت هذا السلطان السامي للخراب ام للبنيان أوَ أُعطيته لسلب سلطان غيرك ؟ الا ترى ان معاونيك هم ذوو سلطانٍ حقيقي ولو كان منوطاً بسلطانك وان مقاومتهم بما يختص بهم هي تقويض لسلطانك نفسه ؟»

وهل تريد بذلك ان ليس للرئيس الاكبر ان ينبه ويبكت معاونيه على ما يزلّون بهِ عن توانٍ اوصرامة . كلاّ بل هو من الواجب لكن لا يسوغ ذلك الاّ سرّاً وليس بحضرة مرؤوسيهم والاّ فيكون شر الاصلاح اكبر من خيره

هذا واذا ألجأت الضرورة الى عزل احد المعاونين عن وظيفته فليكن ذلك بمزيد اللطف والدراية كي لا تُمس حاساته ولا ينخفض شيء من شأنه

نعم ان في الرهبانيات التي يرأسها رئيس واحد عام تسوّغ القوانين للمرؤوسين ان يرفعوا دعواهم الى الرئيس الاقليمي او الى الرئيس العام اذا ما ظلموا من روسائهم الخاصين الاّ ان هذه القوانين تحرّض الرئيس العام وروساء الاقاليم على ان يعضدوا ويؤيدوا اجرآت الرئيس الخاص اذا لم تكن مغايرة للانصاف وان لا يصدقوا بسهولة كل ما يدعيه عليهم المشتكون . وليس للرئيس الاقليمي ان يسمي رئيساً جديداً الاّ بعلم الرئيس العام وهكذا ليس لهُ ان يبدي في الدير عملاً مهما كان الاّ بعناية الرئيس وسلطانه الخاص وتأمر القوانين ايضاً ان لا يرفع احد المرؤوسين دعواه الى الرئيس الاكبر الاّ مع ذكر الاسباب والحجج التي

حملت الرئيس الخاص على معاملته بما لا يجوز وذلك سدًّا لابواب الحيل والمخاتلات ..

ولعمري ان هذا الامر الاخير من القوانين لضروريٌّ وجوهري لانهُ لو اخذ المرؤوسون بكل فرصة يلتمسون ما يرغبون فيه من الروساء الكبار وتساهل هولاء بمنحه من دون نظر الى ما حمل الروساء المألوفين على رفضه لتأتَّى عن ذلك دمار سلطان الفريقين اعني الروساء الكبار والصغار معاً

قال القديس برنردوس (في اعتباراته ك٣ف٤) : « ان من يقطع من يده احد اصابعه ليعلقه برأسه طمعاً بشأن الاصبع كأن تعلقه بالرأس يوليه شرفاً اوفر من تعلقهِ باليد ألا ترى انهُ لم يولِ الاصبع ولا الرأس شرفاً بل اولاهما هواناً وامتهاناً اه وهذا عينه يحل بالرئيس الاكبر والمرؤوس اذا ما بدا هذا بان يسحب نفسه من تحت ولاية رئيسه الخاص بالانضمام تحت ولاية الرئيس العام وحده

ومن ثم فان الحجج التي تحمل الروساء الخصوصيين على عضد سلطان معاونيهم هي نفسها تحمل الرئيس العام وروساء الاقاليم على عضد سلطان الروساء المألوفين لانهم من انصارهم على اتمام سلطانهم في اديرة الرهبانية جمعاء

الفصل الرابع

في انهُ مثلما يجب على الرئيس ان يتحاشى كثرة المداخلة بحقوق معاونيهِ يجب عليهِ ايضاً ان لا يتركهم وشأنهم في كل ما يهوون ويرغبون فيهِ

من المبادي المقررة عند ارباب السياسة انه بقدر مــا يزداد عدد المعاونين للسلطة اعني بهم اصحاب الوظائف بقدر ذلك يزداد محبو النظام والاستقامة لان كلًّا منهم يعتبر نجــاح المملكة كعمله الخاص وهذا السلطان المتعدد والخاضع بعضه لبعض يتساعد ويتعاضد ويضحي غير واسع الحدود بامتداده فلذلك يقدر الكثيرون على القيام بهِ وان لم يكونوا ممتازين بالنباهة والحذاقة

ولنا على ذلك مثال كامل في درجات الكنيسة الا ترى ان كلًّا من البواب حتى الحبر الاعظم لهُ رتبةٌ ومقام ونصيب من السلطان لا يتعداه بل وليس لهُ ان

يجسد اخاه الاسمى مقاماً

ومن الموافق جداً ان يتسامح الرئيس مع بعض معاونيه الممتازين بالحذق والغيرة والاستقامة وان يوليهم من الحرية بخدمة وظائفهم فوق ما يمنحهم القانون وبذلك يكون مثالاً وموعظة للآخرين فيقتدون بهم ويُبارونهم بالغيرة والاستقامة فالقديس اغناطيوس كان يعتقد ان الله جلّت عنايته كان يوليه نعمة خاصة لانتخاب معاونيه وانه تعالى كان يولي المعاونين ايضاً نعمة خاصة لكي يقوموا بخدماتهم حق القيام وان هذا هو ما كان يساعده على اتمام واجباته

واماً عضد الرئيس معاونيه فلا يتوقف على عدم نقضه الاحكام الصادرة منهم على بعض المرؤوسين المعوجي السيرة والغير الخاضعين للنظام الرهباني بل يقتضي ايضاً ان لا يتداخل باعمالهم الخصوصية وان لا يسلب حقوق وظائفهم بشيء البتة . فما قولك في رئيس يحفظ عنده مفتاح صندوق المال أما انهُ بذلك يمتهن قهرمانه ويتعدى حقوق وظيفته وكذلك من يتداخل توًا بسائر ترتيبات الدير ونظامه أليس يحتقر اقنومه ويسلب منه كل حقوق مهمته وهكذا قل عن الرئيس الذي عوضاً عن اشتغاله بدرس قوانينه وسياسته العمومية يقتطف من سائر الاعمال ما يلذ لهُ ويراه اشرف لمقامهِ ولسموّ حذقهِ واما ما لا يرضاه فينبذه عنه ويلقيه على مناكب المعاونين فانه بذلك يشوش افكار الجميع ويقلقها ويجعل كل معاونيه باضطراب وتذمر اذ يتعدى حق هذا ويدبر ذاك في كل اعمال وظيفته فهو بذلك يعلن ان ليس احد يحسن عملاً ان لم يتداخل هو فيهِ بنفسه او ان رئاسته لا تتأيد ان لم يمتهن ويحتقر معاونيه كلهم

ولعمري ان الغلو في كلا الطرفين عيب وشين فلا ينبغي الرئيس ان يكون عديم الثقة باحد ولا ان يثق بالجميع ثقةً كاملة . وكذلك لا ينبغي ان يتخذ لنفسه كل سلطان ولا ان يلقيه عنه على الاطلاق فلا يدرّب معاونيه في كل مهامهم ولا يتباعد عنهم بالكلية . الا ترى ان في عدم الثقة مجلبة للتذمر وهذا قد رذله الحكيم حيث قال: « لا تطلب الشر في منزل الصديق ولا تقلق راحته » (٢٤) وكذلك في زيادة الثقة وعدم السؤال مجلبة الكسل والتهاون وهذا قد رذله وحرّمه النبي القائل لكل رئيس : « يا ابن البشر اني جعلتك رقيباً لآل اسرائيل

(اخوتك) فاسمع الكلمة من فمي وانذرهم عني فاذا لم تنذر المنافق بشرّ طريقه ليحيا فذلك المنافق يموت في اثمه لكني من يدك اطلب دمه · اه (حزقيال ٣)

فموسى ذلك الرجل العظيم المدرب في فن السياسة من الله نفسه كان يفتقد معاونيه مرات خوفاً من ان تركه اياهم على هواء انفسهم يحملهم على التشامخ والاستبداد وبذلك يفقد كل رجاء في اصلاحهم · وقد فقه ذلك مودست دي سنت امابل فقال: (الرئيس الكامل ك ١ ف ١٧): «ان تهاون الرئيس بالسهر على معاونيه يجعلهم عادة يطغون ويبغون على المرؤوسين وان يتجاوزوا حدود سلطانهم ظلماً وجوراً ويا ليتهم بعد ذلك يعودون فيخضعون لنير الطاعة الواجبة للرسوم والرؤساء» ·

وبعد فان من واجبات المعاونين ان يجتهدوا في القيام بمهامهم وان ينسبوا كل شيء للرئيس الذي اليه تعزى كل سياسة الدير فهو الرأس في تدبير كل شؤون ديره وهم الاعضاء ومن ثم يجدر به احياناً ان يعمل بعض الاعمال التي يراها ضرورية من دون التجا الى مشورة المشيرين ولا الى توسط المعاونين ليرى الجميع انه في سياسة ديره ليس كعقرب الساعة الذي لا حراك له ان لم تحركه الدواليب سراً من داخل بل انما هو كالرقاص او المحرك الاول للدواليب اجمع

وهذا السهر متحتم على الرئيس حتى ولو كان مريضاً لانه هو روح الجماعة وكما ان الجسم لا يفيده الدواء ان لم تكن فيه الروح فكذلك الجماعة بدون رئيس لا يفيدها علاج بل هي ميتة فعليه اذاً ان يحييها بحركة تدبيره وسهره في كل الاحوال اما لو حالت دون ذلك موانع ولم يقدر ان يطلع على كل شيء فليكتف بالنظر الى ما جل وكان جوهرياً ضرورياً وليسأل عن ذلك اهل الفضل والثقة وليظهر دائماً رضاه عما حسن وغيظه مما قبح · وليطلب من معاونيه حساباً مدققاً عن اعمالهم اليومية وبهذا يحرض غيرتهم على القيام بواجب وظائفهم بدقة ونشاط

قد قسم البابا القديس غريغوريوس العظيم الرؤساء ثلاثة اقسام الاول يشمل الذين يتغافلون عن اعمال معاونيهم كأنهم في ثبات ثقيل · الثاني يعني المتناعسين الذين يرون اعمال معاونيهم معيبة لكنهم لا يقدمون على اصلاحهم اما حياء منهم واما طمعاً برضاهم او بغير ذلك من الرغائب المذمومة · الثالث يفهم به المتيقظون

كل التيقظ فيمهّدون غيرة ذوي الحدة وفورانهم ويقوون ذوي الكسل والفشل الاَّ انهم في بعض الاحيان يفرطون في اظهار الغيرة والنباهة حتى انهُ يظهر للعموم كأنهم يريدون استعباد اخوانهم (الراعي ق ٣ ف ٥) . فلننصح القسمين الاولين بالاَّ يدعوا معاونيهم ومرؤوسيهم يعملون على هواهم واما القسم الثالث فعليهم الا يتمادوا بالمداخلة في مهام معاونيهم بل ان يصنعوا لغيرتهم حدًّا ودستورًا اه

الفصل الخامس

في انهُ يجب على الرئيس ان يعرف من هم الجديرون بين مرؤوسيه بالوظائف وان يعني بتثقيفهم وتأهيبهم لذلك

انه ليجدر بالرئيس الحكيم اذا لاحظ في احد مرؤوسيه الاستعدادات الكافية للرياسة ان يأخذ بتثقيفه لها فيدرّجه بالخدمات الوضيعة اولاً الى ان يبلغ شيئاً فشيئاً الى السامية ويرقب كل خطواته وحركاته ليرى حد اهليته لذلك ويحنكه تحنيكاً بليغاً فتقوى مناقبه وتضعف معايبه . هذا ومن الثابت ان الانتخاب سواءٌ كان من الرئيس الاكبر او من الجمهور كله لا يولي المنتخَب معرفة فن الرياسة ولا الاهلية لها . فعليه وجب ان يتدرب المرؤوس لذلك بعناء وسهر . كيف لا ومعظم سياسة الجماعة ونجاحهم الادبي والمادي قائم باهلية الرؤساء ومهارتهم في فن الرياسة فالقديس اغناطيوس كان من عادته قبل ان يسلّم منصباً هاماً لاحد المرؤوسين ان يمتحنهُ بخدمات شتى اقل اهمية قصد تمرينه وتحنيكه . وبذلك كان يدرّجه من السهل الى الصعب ثم الى الاصعب والاهم مظهرًا شيئاً فشيئاً ثقته بمهارته وحسن اجتهاده وتيقظهِ . وكان بهذا كله يرقب كل اعماله وحركاته مادحاً ما يستحق المديح وذاماً ما يستوجب الذم وبهذا كان ينهض ويختبر اهليته واميالهُ الخصوصية ومتى تاكد فيهِ كل الصفات اللازمة للرياسة مثل تملكه اميالهُ واستقامة سيرته من كل اعوجاج وكرم نفسه في القيام بخدمة الجلال الالهي وخدمة القريب عن حب خالص واستيلاء ملكة

الطاعة عليهِ وتهذيب طباعـه فكان اذ ذاك يقلده اهم الوظائف واساها ويثق بهِ كل الثقة (برتولي في حيـاة القديس اغناطيوس بتصرف) . وليعلم الرئيس انهُ قلما يجد كل هذه الصفات في احد مرؤوسيه بنوعٍ كامل من دون عيب البتة بل لا يتمكن من ان يزيل من احدهم كل شائبة لان الكمال منقبة سماوية لا ارضية

الباب الثاني

في المعاثر التي يصادفها الرئيس في طريق سهره على حفظ القوانين وهي ثلاث : ١ً مداخلته في كل شيء بدون استثناء ٢ً اهتمامه بالامور الزمنية ٣ً فرط اهتمامه بذاتهِ

المقالة الاولى

في المعثرة الاولى وهي تدخُّل الرئيس بنفسه في كل شيء بدون استثناء

عدد ١

في انهُ لا يليق بالرئيس ان يدخل نفسه في كل امر بدون استثناء

انهُ في سياسة كل جماعة يوجد ثلاثة انواع من الاعمال : الاولى كلية الاهمية ولا بدَّ للرئيس من ان يرعاها بنفسهِ . والثانية اقل اهمية وهذه يديرها بواسطة نائبه والثالثة عادية وهذه يديرها بواسطة مرؤوسيه الذين يطلب منهم عنها حساباً ويرى بذاتهِ كيف تمت. وعليهِ فالاجدر بالرئيس ان ينظر الى اعمال سياسته مجملًا وألا يضيع افكاره بتفاصيل طفيفة لكي يقدر ان ينظر كل اعماله معاً فيرى كيف يوجّه معظم همته وعنايته. وهذا يتم على افضل منوال اذا ما احسن الرئيس انتخاب معاونيه وتدريب كلٍ على قدر مكنتهِ ووظيفتهِ ولذلك يترتب عليهِ ان يرقب سلوكهم بخدمتهم فينهض همة المتواني ويخمد فوران المتباهي بحماسته ويرفع مقام هذا ويخفض ذاك او يغيره عن منصبه كما توجب استعداداته واهليته

وهكذا يكون الجميع كأنهم في قبضة يدهِ ·

ألا ترى ان ليس للرأس ان يعمل اعمال الارجل والايدي ولا للملاح ان يعمل بيده كل الاعمال بل ان يعني بادارة مركبه العمومية · فللمهندس عمل وللبنّاء والفاعل عمل آخر واقول ايضاً ان لمدير العجلة عملاً وللخيول المقطورة بها عملاً آخر فانتبه · وهكذا في كل جماعة فان رأسها الحقيقي ليس الذي يعمل بيده كل شيء بل الذي لا يعمل بيده شيئاً وبامره وتدبيره يعمل كل شي · فيفتكر في ما يجب وينظر الى المستقبل والماضي يقابل هذا العمل مع ذاك ويوفق بينهما وينظر أيٌّ هو الاوفق لخير الجماعة · ويختلق اشياء جديدة مفيدة للدير والرهبانية ولهذا لا يقدر ان يعمل بيده كل شيء ولو فُرض انهُ قادر على ذلك فخير الجماعة الذي يستدعي مساعدة الكثيرين لا يسمح بذلك بل ولا يجدر بهِ ان يرقب بذاتهِ كل خطوة من خطوات معاونيه ولو كان مع ذلك مضطراً لان يقف على اعمالهم وتدابيرهم كلها بل عليهِ ان يعمل ما لا يقدر غيره على عمله · اخيراً ان حذقه ومهارته بفنّ السياسة ليسا بان يعمل وحده بل بان يجعل الجميع يعملون وان لا يدع عملاً مهملاً ·

لقد اطنب كثير من الفلاسفة واخصهم اريسطو في اجلال الدولة الملكية (التي يرأسها رأس واحد) الاّ انهم عابوها بهذا وهو ان مرجع كل اعمالها بدون استثناء يكون عادةً شخصاً واحداً · والفهامة شيشرون لا يتصور دولة اعظم ولا اطول مدَّة من التي يرأسها جماعة من اهل الفضل والاستقامة (ك ٢ في الفروض) فاذا فوضت الى كلٍ من معاونيك خدمة ما جعلته اسير حبك واضطررته لان يضاعف نشاطه وغيرته قياماً بواجب ثقتك بهِ ورغبةً في نشر فضله واهليته · وبالعكس لو اخذ الرئيس يعتني بذاته في كل عمل من اعمال ديره بدون استثناء فانه بلا شك يُظهر عدم ثقته بمرؤوسيهِ وامتهانه لهم اجمعين ويُبدي صغر الفكر وضيق الصدر والرغبة بالعجب والفخفخة ويضيع بذلك الوقت ويتلف قوى جسمه وعقله بلا نتيجة مفيدة بل نرى مصالح الدير متعطلة ولا نرى احداً من الجماعة قرير العين مجبور الخاطر · ثم أليس من الحماقة ألاّ يرضى الانسان ان يقتدي بسياسة الله تعالى نفسه اما كان قادراً تقدّست اسماؤُه ان لا يستخدم

الملائكة والانبياء ولا الرسل ولا المعلمين ولا الرعاة لخير كنيسته ? قال القديس توما ان الله جلّت قدرته اراد ان يظهر حكمة عنايته بتدريبهِ عددًا غفيرًا من العملة في كرمهِ

عد ٢

في رأي بترو حمي موسى ورأي القديس اغناطيوس في مداخلة الرئيس في كل امرٍ من امور معاونيه

ولما كان الغد جلس موسى ليقضي للشعب فوقف الشعب امامه من الغداة الى العشيّ . فلما رأى حمو موسى جميع ما يصنع للشعب قال ما هذا الذي انت تصنعه للشعب وما بالك جالساً وحدك وجميع الشعب واقفون امامك من الغداة الى العشي ? فقال موسى لحميه ان الشعب ياتونني ليلتمسوا امر الله . اذا كان لهم دعوى ياتونني فاقضي لهم بين الرجل واخيه واعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال لموسى حموه ليس ما تصنعه بحسن فانك تكلُّ انت وهذا الشعب الذي معك ايضاً لان هذا الامر فوق طاقتك لا تستطيع ان تتولاه وحدك . والان اسمع مني ما اشير بهِ عليك ويكون الله معك . كن انت للشعب من قبل الله ترفع دعاويهم اليهِ وتنبئهم بالفرائض والشرائع وتنهج لهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه . وانت فانظر من جميع الشعب اناساً اقوياء اتقياء لله مستقيمين يكرهون الطمع وولّ منهم عليهم روساء فيئات بين الفٍ ومائة وخمسين وعشرة فيكون انهم يقضون للشعب في كل وقت ويرفعون اليك كل امرٍ عظيم . وكل امرٍ صغير يحكمون فيهِ هم وخفّف عن نفسك وهم يحملون معك فان انت صنعت هكذا وامرك الله امكنك القيام . وجميع هذا الشعب ينصرفون الى مواضعهم بسلام . فسمع موسى من حميه وصنع جميع ما قالهُ . فاختار موسى اناساً اقوياء من جميع اسرائيل فجعلهم روساء على الشعب روساء فئات بين الفٍ ومئة وخمسين وعشرة . فكانوا يقضون للشعب في كل وقت وكل دعوى صعبة كانوا يرفعونها الى موسى وكل دعوى صغيرة كانوا يحكمون هم فيها » (خروج ١٨)

ولما ظهر الملاك للقديس باخوميوص فلكي يعلم فن الساسة اشار عليهِ ان

يوزع رهبانه فئاتٍ وان يعين لكل فئةٍ رئيساً يرعى مصالحها ويسهر على الرؤساء ويطلب منهم الحساب عن الجميع لان الرئيس الأكبر كما قال له الملاك يلتزم ان يسهر على الرؤساء والمرؤوسين

والقديس اغناطيوس ما كان يريد ان يتدخل رؤساء العاملة في جميع امور رؤساء الاديار والمدارس ولا ان يُعني هؤلاء بكل عملٍ يختص بسياسة اديارهم ومدارسهم لان الرياسة ليس من شأنها ان تنزع كل اهلية من المرؤوسين وتجمعها في رأي الرئيس وحده بل كان يشير ان تُعطى لكلٍّ مهمة يهتم بالقيام بها وذلك لاسباب شتى منها ١ً ان من ليس بيده الأ عمل واحد يُحسن القيام به احساناً تاماً و٢ً ان الله جلت حكمته يُعطي كل واحدٍ نعمةً خاصة بمهمته و٣ً ان المرؤوس عندما يرى رئيسه معتنياً بالمهمة التي فوضها اليهِ لا يعود فيعتقد انها متروكة على عهدته فيتوانى بالقيام بها ٤ً ان المرؤوس يكون قد رأى في مصلحته وتعلم بالاختبار ما لم يره الرئيس ولم يتعلمه بالنظر وحده و٥ً ان ان صاحب المصلحة يضطر في ظروف كثيرة لان يضارع المصارع بالسرعة في عمله لان التأخير اذ ذاك ولو قليلًا يلحق بالمصلحة ضرراً كبيراً والمرؤوس لا يقدر وقتئذٍ ان يقابل الرئيس ليستشيره من دون تأجيل العمل ٦ً اذا اخطأ المرؤوس في العمل ولم ينجح فاحق بهِ ان يكون هو نفسه ملوماً من ان يقع اللوم على الرئيس. وكان يقول ايضاً للرئيس ان يعرف كل شيء ويامر بكل شيء لكنهُ لا يليق بهِ ان يعمل بذاته كل شيء ولا ان يتنازل الى الخسائس الدنية من دون تمييز. فان الثقة بالمرؤوسين وتفويض بعض المهام اليهم لما يزيدهم نشاطاً ونباهةً وامانة ولا يخشى الرئيس من ان يخدعه احد معاونيه بعدم امانته لانهُ خير لهُ ان يُخدَع في بعض الاحوال من ان يخوّن الجميع لانه من المحال ان يقوم هو وحده بكل مصالح ديره او رياستهِ العامة ولو قدرنا ان ذلك بامكانه أفلا يلزمهِ مع ذلك ان يثقف غيره ويربيه لخدمة الرهبانية في المستقبل أولا يعلم ان حياته لا تدوم الى الابد اهـ

المقالة الثانية

في المعثرة الثانية وهي الانهماك بالزمنيات

عد ١

في رأي القديس غريغوريوس في انهُ اذا اتخذ الرئيس لنفسه الغاية بالزمنيات يضر بمصلحة الرياسة ويشينها

وهذا كلامه بحروفه : « ينسى البعض من الروساء انهم اقيموا من قبل العناية لخلاص اخوتهم فيوجهون معظم اجتهادهم الى خدمة الامور الزمنية ويتوقون اليها كل التوق ويهذّون فيها لياليهم ونهارهم واذا اتفق لهم ان يفرغوا احيـاناً من الاعمال الزمنية تراهم مضنكين من البطالة كأنهم لا عمل لهم البتة لان العمل بالزمنيات اضحى لديهم راحة والفراغ منها تعباً ونصباً ٠ وانهماكهم هذا بالزمنيات يجعلهم يجهلون كل الجهل واجباتهم الروحية التي لا بد لهم من معرفتها وتعليمها ٠ فالقديس بولس اوصى الرعاة بالعناية بالزمنيات فقال : « اذا عرضت لكم دعاوي لكي تفصلوها نعينوا لها اناساً من رعيتكم اقل انعكافاً على الروحيات واقل خبرةً فيها من غيرهم وانتم تكونون لهم قضاةً » فكأنه يقول بذلك انهُ لما كان من الضروري ان يوجد بينكم اناس غير قادرين على القيام بالروحيات فاشغلوهم بالزمنيات لئلا تلتهوا انتم بهذه عن تلك

وعليهِ يجب على الاسقف ان يعتني بالروحيات ويدع العناية بالزمنيات لبعض مرؤوسيه لان عين المؤمنين (المرموز بها عن الاسقف او عن الرئيس) لا يليق بها ان تكون مظلمةً بغبار الاعمال الزمنية ٠ فالروءَساء في الجماعة هم كالرأس والمرؤوسون كالاعضاء ولا غروَ ان الرأس عليهِ ان ينظر طريق الارجل عن بعدٍ ومن علٍ لانهُ لو لزم ان ينحني الجسم كله ويهتم بمعرفة الطريق لكَلَّ الانسان من المشي في اول مسيره وخانته رجلاه ٠

ولعمري انَّى للاسقف ان يتشكى من امتناع مرؤوسيه عن اجلالهِ اذا كان ينهاهم عن الزمنيات وهو منهمك فيها ٠ نعم ان المحبة تضطرنا احياناً لبذل بعض

العناية بذلك غير انهُ لا يسوغ لنا ابداً ان نكون مغرمين بها لانه يجب علينا ان نخاف من انها تسقطنا من شرف درجتنا الروحيــة الى اسفل دركة من دركات الحياة الزمنية . اه (الراعي ق٢ ف ٦)

وهذا العلّامة نفسه في كتابهِ المعنون بالاداب سمّى الانهاك بالزمنيّات رياء ومخاتلة (ك ٣٣) تستولي على البعض الذين يريدون ان يُروا الناس انهم راغبون في شأن الدين مع انهم ليسوا على شيء من الاعتبار للامور الروحية فيجتهدون في ان يكتسبوا لانفسهم حسن السمعة والشهرة في المهارة بالزمنيات وهم اذ كانوا لا يكترثون لخسارة الحرارة الروحية ولا للبرارة نفسها اخذوا يتظاهرون بالخوف من احكام الله من جرّاء الخسارة في الاملاك والارزاق وما ذلك منهم الا رياء ومخاتلة بحقوق الله

وينصح هذا العلّامة في كتابهِ المذكور (ق ٣ ف ٢٧) أُولئك الذين لهم في الزمنيات حظٌ وافر ان لا يلتهوا بها وينسوا الذي اعطاهــا وان لا ينشغفوا بالارضيات بل فليكن انشغافهم بما هو معدٌ لهم في السماء الوطن الحقيقي وان لا يغيّروا غاية هذه الخيرات الارضية من كونها واسطة معينة للحصول على السعادة الابدية الى صيرورتها مانعاً يمنع عنها وان لا يكتفوا بضوء القمر لارشادهم في ظلام الليل فيرغبوا عن نور الشمس الساطع المعدّ لانارة النهار .

واما الذين ليس لهم ما يكفيهم من الخيرات الزمنيــة فينصحهم ايضاً ان يسيروا سيرة من ينتظر الارث الابدي فالاب لا يهب ابنه قسماً من ماله وهو وريثه الوحيد بل يهب مثل ذلك للابنة التي لا حقّ لها في ارث الملك والله تعالى ما كان ليعتني بتهذيب قلوبنا على الامساك عن هذه الخيرات الزائلة لو لم يكن قصده ان يجعلنا مرتاحين الى السعادة الخالدة . ومثل ذلك الطبيب الذي ما دام يرجو شفاء عليله يمنعه عن الاطعمة المضرّة واما من ييأس من شفائهِ فلا يمنعه عن شيء منها البتة .

فهذه النصيحة الاخيرة من القديس غريغوريوس تعزي تلك الجمعيات الرهبانية التي لمزيد فقرها تحتاج غالباً الى اللازم والضروري اما النصيحة التي قبلها فتنبه افكار الجمعيات الغنية التي لا يعوزها شيء الى ان لا تتعلق بالارضيات وتتغاضى

عن السماويات

عد . ٢

في ان القديس برنردوس يوضح هذا المعنى باسهاب في كتابه
(البصيره)

قد كتب هذا القديس الى البابا اوجانيوس ما ملخصه : اذا كان الاسقف او الرئيس الروحي لا يفهم كلام المخلص القائل : « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذا كله (اي الخيرات الزمنية) تزدادونه» ولا يعمل بهِ فلمن ياترى قيل هذا الكلام وعلى من أُلقي هـذا التعليم الالهي ؟ فاذا كان فرعون ذاك الرجل الوثني وثق بيوسف الرجل اليهودي وسلَّمه اكبر خزائنه . والقى عنه كل اهتمام بها فكيف لا يثق رجلٌ مسيحي بمسيحيٍ آخر مثله وبالاكثر كيف يمكن ان راهباً لا يثق براهب مثلهوهو يدعوه اخاه

ورب معترض يقول : لو وجدنا قهرماناً حكيماً واميناً مثل يوسف لما تأخرنا دقيقة عن ان نسلّمه ونفوض اليهِ كل الامور التي نهتم بها اما القديس برنردوس فيجيب بقوله : « ان معلمنا الالهي لم يختر له قهرماناً مثل يوسف بل اختار يهوذا الغاش مع علمه بمكره ونفاقه وانما فعل ذلك ليعلّمنا ان نثق بغيرنا حتى بقليلي الامانة لكيلا نلتهي نحن عن الروحيات بالزمنيات بنوعٍ من الانواع

وقال ايضاً : « انهُ لامر عجيب ان يجد الاساقفة عدداً غفيراً يستحقون ثقتهم بخدمة الانفس وايرادها موارد الخلاص ولا يجدون واحداً جديراً بثقتهم في ادارة الامور الزمنية . فيالهم من قهارمة مدققين فانهم يوجهون معظم اجتهادهم الى اصغر الاشياء واحقرها ويتغاضون عما هو أهمّ واعظم واحق مما سواه بالعناية والسهر . فياللاسف اننا نتحمل الاضرار التي تلم بالرب يسوع مهما كثرت وعظمت وان المّ بنا ضيرٌ ولو يسير لا نطيق احتماله

اننا نحسب نفقاتنا يوماً فيوماً ونسعى في الاقتصاد للتعويض عنها باحثين عن ذلك بحثاً دقيقاً . اما الخسائر العظيمة التي يعانيها قطيع السيد المسيح فليس لنا بها اهتمام ولا علم . نرانا نخاصم الخادم على ثمن المآكل وعلى عدد الارغفة التي

أكلت في النهار ولا تقول كلمة لردع المآثم والمعاصي كما تليق بالجلال الالهي . ان الحمار اذا سقط في حفرة فيوجد من ينتشله اما النفس اذا سقطت في الخطيئة وفي دركات الهلاك فليس من يهتم بها ولا يكترث لها

والاسقف نفسه كم من مرة يجمع حاشيته حتى الخدام ايضاً ويسألهم فرداً فرداً عن سبب الخسارة التي تكون نزلت باملاكه وعن الوسائط الفعالة التي تمنع حدوثها فيما بعد ومع ذلك متى يجمع كهنة رعيته ويسألهم عن حالة الانفس المعهود بها لحراسته والمشتراة بثمن الدم الكريم ؟ لا عجب في ذلك لانه قلما يفتكر بوثبات العدو المستمرة على خراف رعيته

فيا من يعلمون غيرهم ما بالكم لا تعلّمون انفسكم الا ترون ان همّ الامور الزمنية يضر بنفوسكم كالاضرار التي يحدثها السيل الجراف اذا ما انهمل في حقل فما بالكم اذاً لا تبادرون الى قطع هذه المجاري قبل ان تتلف حقل نفوسكم ؟ اما قطعها فيكون بصرف الذهن عن الاهتمام بالامور الدنيوية صرفاً كاملاً واذا مست الحاجة الى شيء من ذلك فلا ننصرف اليهِ باكتراث وحاجة بل بهدوء واعتدال

والقديس فرنسيس سالس قد اختصر كلام القديس برنردوس المقدم ذكره بقولهِ : «ان الاساقفة الصالحين يمارسون بذاتهم خدمة الانفس واما ادارة الزمنيات فيقيمون لها قهارمة مخصوصين وبعكسهم الاردياء من الاساقفة فانهم يهتمون بذاتهم بالامور الزمنية ويلقون على مناكب غيرهم العناية بالامور الروحية

ان هذا الكلام الذي نقلناه عن القديس غريغوريوس والقديس برنردوس وان كان لا يوافق كل الموافقة روساء الاديار في بعض الرهبانيات التي توجب رسومها عليهم العناية بالروحيات والزمنيات معاً الاَّ انهُ يوافق غيرهم من الروساء ويفيدهم هم ايضاً لكيلا يفضّلوا شيئاً من الزمنيات على الواجبات الروحية

عد. ٣

في بعض قواعد يتعلم بها الرئيس ان لا يهتم بالامور الزمنية اهتماماً مفرطاً وان لا يهملها اهمالاً مفرطاً ايضاً

القاعدة الاولى انهُ يجب على الرئيس ان لا يهتم في الزمنيات الاَّ بعد اهتمامه

في الروحيات اولاً . لانهُ من حقوق مهمته ان يُعني اولا في خلاص مرؤوسيه وفي نجاحهم بالفضيلة والقداسة

الثانية انهُ لا يسوغ لهُ مع ذاك ان يتغاضى عن الاشياء الزمنية لانها وقف للرب من كَرم المسيحيين لا يقوم بدونها خير الجماعة الروحي

الثالثة ان الرئيس ولو وجب عليه ان يحسن الثقة بمرؤوسيهِ ويسلّم الى البعض منهم مصالح ديره الزمنية فيلزمهُ مع ذلك ان يطالب ممن ولاّهم الوظائف حساباً مدققاً ومفصلاً عن كل اعمالهم وعن كيفية نجاحها وكمية دخلها وصرفها لانهُ بدون ذلك ينفتح سبيلاً لبعض معاونيه الى ادعاء العصمة والاستقلالية فيمسي هو خاضعاً لامرتهم وتدبيرهم ويكونون هم المسلطين وهذا مما يضر بحقوق السلطة كل الضرر وقد يعرض في بعض الظروف الصعبة ما يوجب سؤال الرئيس رأيه في هذه الامور الزمنية وانى لهُ ان يُبدي رأياً في امور لم يقف على حقيقتها بدقة وتفصيل

الرابعة ان يرجع الرئيس الامر في كثير من اعماله الزمنية ان لم اقل فيها كلها الى تدبير قهرمانه وان يظهر لهُ عند سنوح الفرصة الثقة بامانته وحسن سياسته اذ يقلده بعض الخدم الشريفة لانهُ بهذه يزيده غيرةً واجتهاداً

خامساً ان هذه الثقة لا ينبغي ان تمنع الرئيس عن السهر الدائم على اعمال القهرمان وكيفية نجاحه بها بل عليهِ ان يطالبهُ بالحساب عنها شيئاً فشيئاً والاّ يسمح لهُ بانهاء شيء هام من دون علمه ورأيه

فينتج مما قلناه بهذا الخصوص ١ً انهُ لضلال مبين ان نحكم باهلية احد للرياسة لمجرد مهارته بتدبير الزمنيات وهو لا يفقه جيداً واجباته الروحية لان الغاية الاولى بدخولنا الرهبانية انما هي خلاص انفسنا لا الرخاء والرفاهية في معيشتنا . وقال الرب لنا نحن الرهبان خاصةً : « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره والباقي تزدادونه » فمن البين اذاً ان الرئيس الفاضل هو الماهر بعلم الفضيلة والقداسة وليس المحنك بالسياسة الزمنية وحدها لان غاية رياسته ليست توسيع الاملاك ولا حشد الاموال في خزاين ديره (اوفي جيبه لا سمح الله) بل ملء نفوس مرؤوسيه نعماً وفضائل

وثانياً : ان الرسوم الرهبانية لا توجب على الرئيس الاعتزال عن المهام الزمنية

الا لاجل خير انفس رهبـانه لان اعتزاله عن الزمنيات يجعله ان يقف كل زمانه لاتقان الفضيلة والتعمق في فن الحياة الروحية ·

قال الاب القديس اشعيا (خطبة ٧) ان اربعة اشياء تطفي عادةً نار العبادة وهي الخروج من الدير بتواتر والاشغال الزمنية والتعلق بالارضيات والبخل وهذه الاربعة قلما لا توجد في من ينهمك في الزمنيات ولما كانت المهارة في الحياة الروحية من الواجبات التي لا يُعفى منها الرئيس فقد حكم القديس بوناونتورا انه اذا لم يوجد في الدير من يحسن ادارة الزمنيات غير الرئيس فالاولى تحمّل بعض الخسارة فيها من ان تكون الخسارة في الروحيات بسبب انشغال الرئيس عنها وقد تقدم لنا مثل ذلك في كلام القديس برنردوس الى البابا اوجانيوس حيث اتى لاثباته بمثال السيد المسيح الذي لم ينفكّ عن تسليمه الصندوق الى يهوذا مع تأكده انه كان مزمعاً ان يسرقه (ستة اجنحة ف ٧)

ثالثاً : ان العناية في الامور الزمنية قد تكون واجبة ومقدسة وضرورية اما اذا بُولغ فيها او تفرَّغ لها الرئيس وحده فتضحي مضرّة لانها تعوقه بل تمنعه عن الاهتمام الواجب بشأن الامور الروحية اما لو بقيت هذه العناية في حيز الترتيب والنظام ووُكل بها الى عناية القهرمان المعيّن لذلك فتصبح حينئذٍ هي نفسهـا العناية بالامور الروحية والسهر الواجب عليها فهي تجعل الرئيس ان يطلب رأي موأزريه في الاشياء الملتبسة التي يرتاب بامر نجاحها وهي توجب عليهِ كذلك ان يأخذ رضاهم الصريح في كل امرٍ خطير وان لا يكون مستبدّاً برأي نفسه على الاطلاق ثم ان هذه العناية نفسها هي التي حملت الكنيسة المقدسة الام الحنون على ان تأخذ تحت حمايتها الخاصة املاك الرهبانيات وتهددت بالحرم كل من يختلس منها شيئاً وذلك محافظةً على معاش بنيها الرهبان وعلى احسان المؤمنين وبركاتهم فقد حرّم اوربانوس الثامن على الرهبان ان يبيعوا او يشتروا شيئاً من الاملاك الثابتة بدون رضى الكرسي الرسولي اما في الاماكن التي لم يجرِ فيها هذا الشرع الكنسي إمّا لانعام خاص من الكرسي المقدس لبعض الرهبنات او من قبل عادةٍ قديمة او اخيرًا من جرّاء بُعد المسافة وشدة المشقة في الوصول الى رومة فبكل حكمة وصواب قد ترتب على الاسقف رئيس الجمعيات (وهكذا القول عن

الرئيس العام في الرهبانية) ان يأمر بما يلي وهو اولاً ان لا يتجاوز احدٌ من الرؤساء في نفقاته المبلغ الذي يكون قد حدَّه لهم

ثانياً : ان لا يقوم احدٌ منهم ببناية عظيمة او باصلاح هام قبل ان يعدّ لذلك جمعية تتألف من مهندس ورجلٍ آخر عارف بالاشغال واثنين من الاكليروس والجمعية تُبدي رأيها وتعرضه على الاسقف فيثبّته اذا رآه موافقاً

وثالثاً : ان يقيم الرئيس وكيلاً حاذقاً يتولّى حساباته ويضبطها بكل دقة ليعرضها في كل سنة على الاسقف او على معتمده إذ بهذه الواسطة لا غير تنجو الجمعيات من طعن الالسن التي قلما تنفك عن التنديد بها بحقٍ او بغير حق . والتنديد يكون غالباً على عناد الرؤساء اذ لا يمتثلون رأي احد وعلى عدم ثباتهم اذ انهم يهدمون في الغد ما بنوه بالامس . وعلى طيش البعض منهم الذين يشرعون في اعمال كبيرة لا نتيجة لها او انهم لا يحسنون عملها وعلى سذاجة البعض الآخر لثقتهم ببعض المهندسين الذين لمطامع في النفس او لسوء نية يكلفون الدير نفقات باهظة لا طائل تحتها ويطوّحونه بدعاوي مهمة شأنها ان تغرقه في لجج الديون .

وكلامنا هذا في الجمعيات والاخويات الخاضعات شرعاً لاسقف الرعية . اما الاخويات التي لها رئيس عام واديارها ممتدة في ابرشيات مختلفة فالاسقف (وعندنا السيد البطريرك) وان لم يكن لهُ ان يتداخل فيسياستها الزمنية المختصةبالمجمع العام او بالرئيس العام ومشيريه تبعاً لرسوم تلك الاخوية المثبتة من الكرسي الرسولي فيمكنه مع ذلك عند مسيس الحاجة ان يتداخل ويوقف جري النفقات الباهظة اذ ان القوانين المقدسة توليه هذا السلطان وهو بالحقيقة نائب الكرسي الرسولي في ما يلاحظ قطع الشكوك ومنع خراب الاديار .

المقالة الثالثة

في المعثرة الثالثة

وهي محبة الذات المفرطة

عدد ١

يجب على الرئيس ان لا يعتبر ذاته بالحقيقة الا خادماً لمرؤوسيه

ان المرؤوسين لا يسلمون انفسهم وحريتهم لرئيسهم الا لثقتهم انهم يجدون فيه سنداً وملجاء لهم ويرونه غيوراً عليهم ولولا هذا التعويض لما كانوا يُقدمون على تضحية الذات العظيمة . ان الكتاب المقدس يمثل الرعاة احياناً كثيرة بالجنود وحرثة الارض والكرامين والحراس الذين يسعون وراء راحة الاخرين وصفاء عيشهم مع تضحية راحتهم الخاصة ويمثلهم ايضاً بالاساس الذي يحمل البنيان كله وهو نفسه غير محمول ويشبههم ايضاً بالنور الموضوع على منارةٍ مرتفعة ليلقي نوره على كل الجهات . وبالسحب والانهر التي تفيض مياهها على الارضين القريبة والبعيدة

ومن ثم ينتج ان الرؤساء كرعاة المواشي ليسوا لذواتهم بعد بل هم لمرؤوسيهم لانه يستحيل انفصالهم عنهم كما يستحيل انفصال الراس عن الجسد . فهم اذاً للكل كما ان الكل اسلموا اليهم انفسهم . وعليهِ فاهم واجباتهم واخص مهماتهم انما هو تكريسهم ذواتهم لخير الجماعة حتى انهم لو اكتفوا بمصالحهم الخصوصية سواء كانت زوجية ام زمنية لخفضوا من شأنهم وانحطوا عن مقام الرياسة وشرفها

والى هذا اشار الرسول بقولهِ : «واذ كنت حرّاً من الجميع عبّدت نفسي للجميع» (١ قور ٩) فكأنهُ يقول وكل ما انا عليهِ وكل ما هو لي انما هو لخير الانفس وانا جدير بان اضحّي ذاتي لهذا الخير اقتداء بالسيد المخلص . فالجميع اذاً يهوداً كانوا ام امماً يونان ام بربر لهم عليَّ هذا الحق ومن الان فصاعداً انا لهم

ولست بعد لذاتي

«لا نكير على اننا قبل سر الافتدا كنا خاضعين للعبودية وكان يحق للمالكين علينا ان يستخدمونا ويستكدونا لمصالحهم الخاصة اما بعد الافتداء فعدنا الى حال طبيعتنا الاول والحال ان من حقوق طبيعتنا بعد اصلاحها بالنعمة ان نتمتع بالحرية بنوع ان من يملك علينا لا يسوغ لهُ ان يستعبدنا بحسب هواه بل عليهِ ان يُدير اعمالنا ويدبرنا في ما يلائم صوالحنا الخاصة لانهُ يعتقد ان ما اوتيه من السلطان انما هو لخيرنا العام وليس لخيره الخاص (مودست دي سانت امابل: الرئيس الكامل ك ١ ف ٣)

والقديس برنردوس يكرر هذا الموضوع مرارًا اذ يقول: ان الرئيس لم يصير رئيساً لاجل خيره الخاص بل لاجل خير الاخرين وانهُ حقيق بان يتنزه عن مصالحه الخصوصية لكي يسعى وراء مصالح مرؤوسيه وبهذا لا غير يقوم شرف الرياسة ولذا لم السبب لما اراد الرب ان يستودع بطرس خرافه كرر عليهِ قوله: «أتحبني» فكانه يقول لهُ ان كنت لا تحبني اكثر من خيراتك وا كثر من اهلك ومن ذاتك ايضاً فلا تُقدم على رعاية خرافي التي ابتعتها بثمن دمي اه (اعتبارات ك ٢ ف ٣) والقديس اغوسطينوس يفسر هذه الاية «ارعَ خرافي ارعَ نعاجي» بقوله ان الرب يريد ان نرعى خرافه لا خرافنا لاننا لو اعتبرناها كانها لنا فنظهر اننا نحب ذواتنا اكثر مما نحبه تعالى وعلى هذا يخاطب هذا القديس رعيته بقوله لهم: «اننا بصفة كوننا مسيحيين نحن لذواتنا اما بصفة كوننا رعاة الكنيسة فنحن لكم لان كوننا مسيحيين هو لخيرنا واما كوننا احبارًا رعاةً فهو لخيركم» (عن الراعي)

وقال غيليوم الباريزي قولاً يحق لهُ الاعتبار وهو انني لا اطيق ان اسمع العامة تسمي المرؤوسين عبيدًا او خاضعين ولا اعتبر ذاك الاَّ غلطاً منهم لان الرؤساء هم بالحقيقة عبيد وخاضعون وليس المرؤوسون» اه

وقد لحظنا من قول القديس فرنسيس سالس ان الرؤساء يستطيعون ان يمارسوا الطاعة ويغتنموا استحقاقها لانهم بسلطانهم يامرون بالطاعة لله وفوق ذلك قال هذا القديس المعظم ان درجة طاعة الرؤساء اسمى من طاعة المرؤوسين

وقد اشار الى ذلك بطرس الرسول بقولهِ : «كونوا خاضعين لكل خليقة لاجل يسوع المسيح» اه فاننا في هذه الطاعة العمومية لكل الناس نجعل ذواتنا للكل وخادمين الكل كانهم روساؤنا وانما ذلك لكي نربح الكل ليسوع المسيح «وبالحقيقة ان هذا القديس عندما كان ياتيه احد سواء كان فقيراً او خادماً او ولداً صغيراً فكان يقبله ببشاشة وجه بل كان يجلس امامه جلوسه امام رئيسه يسمع لهُ ويجيبه بدون ان يظهر لهُ شيئاً من الضجر او الاشمئزاز او العجرفة

وكل يعلم ان الحبر الاعظم يوقع اسمهُ للملوك ولجميع الناس بهذه الالفاظ «عبد عبيد الله» وما ذلك الاَّ دلالة على اخلاصه في الخدمة واتضاعه الحقيقي

عد ٣

في ان الرئيس بقبوله الرياسة يجعل ذاته كفيلاً عن مرؤوسيه

قال القديس غريغوريوس «ليعلمنَّ الروساء انهم اذا صنعوا الشر يستوجبون الموت مراتٍ بقدر ما سببوا بسيرتهم العثار للشعب ومن ثم وجب على الروساء ان يبالغوا في السهر على ذواتهم لانهم اذا عثروا لا يتعرضون لفقد الحياة فقط بل انهم يحملون مسئولية هلاك اولئك الذين يعثرون بعثارهم · ولا شك في ان قول الحكيم : (امثال ٤) «يا ابني ان كفلتَ صديقك وصفقتَ كفك مع اجنبي فقد اشتبكتَ باقوال فمك وأُخذت بكلامك» هو تنبيه شديد للروساء لاننا عندما قبلنا الرياسة اخذنا على ذواتنا مسئولية خلاص مرؤوسينا وكفلنا ذلك لاننا صفقنا كفنا مع الاجنبي وارتبطنا باقوال فمنا وأُخذنا بكلامنا فتوجب علينا ان نعلّم رعيتنا التعاليم الخلاصية بالفعل قبل القول اه (الراعي ق ٣ ف ٥)

وقال غيليوم الباريزي : «لو سألتني عمَّا يعمله الرئيس بقبوله الرياسة لاجبتك جواباً صوابياً وهو انه لا يعمل عملاً آخر سوى تقديم ذاته كفيلاً عن مرؤوسيه في كلِّ اعمالهم اه

والقديس برنردوس كان يقول : ويلٌ لي ماذا عساه يحل بي لو توانيت بحفظ الوديعة التي سلمنيها مخلصي يسوع المسيح تلك التي يعتبرها اكثر من دمهِ الكريم

فلو كنتُ التقطتُ شيئاً من هذا الدم الكريم وقت كان نازلاً من على الصليب نقطةً فنقطة واخذته بين يدي في اناء سريع العطب وسرت في طريق منحدرة وزلاَّقة فما كان اشد ارتعادي خوفاً من اراقتهِ ؟ . فوا أسفاه ان قلوبنا لاسرع عطباً من الزجاج والولوج الى داخلها اصعب من الولوج في هاويةٍ عميقة وكأني اسمع منادياً يناديني ايها الحارس ماذا تنظر والليل مدلهم ؟ أ اجيب بما اجاب بهِ قاين : « ألعلي حارسٌ لاخي اه (عظة ٣ في الاستعداد للميلاد) واذا رأيت ساعة غير محكَمة الضبط فانك لا توجه اللوم عليهـا بل على الساعاتي صانعها وهكذا لو شاهدت ورق شجرةٍ يصفرّ وينتثر قبل الوقت فانك لا تنسب ذلك الى الاغصان بل الى اصل الشجرة لان المرض فيه وليس في الاغصان

وكذلك لو عثرت رجلك بحجر فانك لا تلوم الرجل بل العين لانها لم تُبصر . فهكذا الرئيس بين جماعته فانهُ وحده يحمل مسئولية الجميع بتمامها لان اعضاء الجمعية لا يُطلب منها سوى الطاعة وحسن الانقياد واما الرئيس فيُطلب منه السهر الدائم بلا ملل ولا زلل

قال ابن سيراخ (ف ١٠) : « كما يكون قاضي الشعب يكون الخادمون لهُ وكما يكون رئيس المدينة يكون جميع سكانها »

فاذا كان الملاح متيقظاً ويرقب الرياح باجتهاد يصل الميناء آمناً واما اذا أغفل السهر والقى من يده الدفة فتغرق سفينته ويخسر كل ما فيها وهكذا سائق المركبة فطالما هو قابض بيده على العنان فالخيل تطيعه والركاب بامنٍ اما اذا ارخى العنان او تغاضى عن اهداء الخيل سواء السبيل فالخطر يتهدد المركبة . والرب لاسمه السجود لما وجد التلامذة كلهم نياماً لم يعزُ النعاس إلاَّ الى بطرس وحده اذ قال لهُ : « ياسمعان أتنام »

وعندما كان الانبا بالثازار القارز يتأمل يومـاً في مثل الراعي الصالح سمع صوتاً يخاطبه باطناً ويقول لهُ إنَّ الراعي الصالح هو الذي يصلح حال رعيتهِ . وعليه فعندما يعطي الرب الرعية راعياً صالحاً فانهُ يمنحها اكبر نعمةٍ واثمنها والشعب لا يزال صالحاً طالما يقيده رئيسٌ صالح . والراعي يكون مثالاً لرعيته وهذا هو الذي يجعل الرياسة ثقيلةً ومخيفة فالرعية كلهـا ترقب الراعي وتبذل

غاية الجهد في ان تطبّق اعمالها على اعماله اه (كتاب حياته) ولنذكر هنا ما قالهُ الرب بلسان النبي حزقيال (٣٤) : ٠٠٠٠ ويلٌ لراعاة اسرائيل الذين كانوا يرعون انفسهم . أليس الرعاة من يرعون الغنم . انكم تأكلون اللبن وتلبسون الصوف وتذبحون السمينَ والغنم لا ترعونهـا . الضّعافُ لم تقوّوها والمريضة لم تداوُوها والمكسورة لم تجبروها والشاردة لم تردوها والمفقودة لم تطلبوها وانما تسلطتم عليها بقسوة وقهر . فاضحت مشتتةً من غير راعٍ وصارت مأكلاً لكل وحش الصحراء ٠٠٠ لذلك ايها الرعاة اسمعوا كلمة الرب : هاأنذا الى الرعاة فاطلب غنمي من أيديهم »

فهل لنا ان نبين باجلى ايضاح كره الرب لحب الرؤساء ذواتهم او شديد التزامهم بالتيقظ والسهر وكونهم هم المسؤولون عن كل ما ينقد من رعيتهم اه

عد ٣

في ان الرئيس حقيق بان يقضي حاجات مرؤوسيه قبل قضاء حاجات نفسهِ

من المبادئ الافرنسية القديمة ان الحاكم ان لم يكن ذا شهامةٍ واخلاص بنوع يفوق المعتاد فلا يكون من ذوي الحشمة والادب وعلى هذا يمكننا باولى حجة ان نقول ان الرئيس ان لم يكن ممتازًا بالتنزه عن الاغراض والاميـال الخصوصية وبالتفاني لحد الشهامة لا يُعتبر راهباً صالحاً لان هذه الخصال في الرئيس ليست من الكمال الفائق المعتاد بل هي من الواجبات الضرورية التي بدونهـا لا يُقال عنه انهُ رئيسٌ صالح ولا راهبٌ صالح . ولنا ان نقول عن الرياسة ما قالهُ القديس غريغوريوس عن الاسقفية وهو : « ان الذي لا يشعر في طلبـه الاسقفية الأ برغبة التسلط على الآخرين وارواء غليل كبريائه وان يكون في سعة العيش ولذيذه فهذا لا يحب مهام الاسقفية بل لا يعرف ما هو شرف هذه الدرجة ولا قداستها لانهُ لا يتوخى في طلبهـا الأ الارباح والملاذ الزمنية وهو الجدير بان يترفع عن كل ما هو دنيوي والأ فكيف يحصل على شرف هذه الدرجة التي هي مقر التواضع العميق اذ انه لا يشتهيها الأ للتباهي والعظمة اه (الراعي ق ١ ف ٨

ومن البين انه لا يسهل على الانسان ان يسعى وراء خير الاخرين الاّ بتضحية خير نفسه وبكونه لا يرغب ولا يقصد في كل ما يعمله سوى مصلحة القريب . والحال من يمكنه غير الرئيس القديس ان يبلغ الى هذه الدرجة من محبة القريب وروح التفاني ؟ . اخيرًا نكرر ان فضيلة الروساء الخصوصية انما هي رغبتهم في خير القريب قبل خير انفسهم . وكل رئيس يرغب في مجده او في سعة عيشه لا يكون محباً إلاَّ لذاته مع ان الله الذي رفعه الى وظيفة الرياسة يطلب منه ان يفضل مصلحة القريب على مصلحة نفسه وعلى مرغوباته الخصوصية

قال القديس امبروسيوس (في كتابه عن الفردوس) : انا لا اعرف فضيلةً ذات ثمار سعيدة مثل الاستقامة التي تجعلنا ان نفضل مرضاة القريب على مرضاة انفسنا وخير الجمعية على خيرنا الخاص اه وهوغس الذي من سان فيكتور يقول : « الويل لك اذا كنت رُفعتَ على الناس ان لم تكن سلطتك لاجل الناس والويل ثم الويل لك اذا كنت تتصور كناقص العقل ان السلطة انما أُعطيت لك لاجل افادتك لا غير اه فكأنهُ يقول بصريح العبارة انك لم تكن رئيساً لاجل ذاتك بل لاجل مرؤوسيك وليس من المعقول ان يكون الكل لاجل واحد بل ينبغي ان يكون الواحد لاجل الكل اي لاجل راحتهم وسعادتهم . ولاجل ذلك اقول لك ايها الرئيس انك حقيق بان تُضحّي لخدمة جماعتك راحتك وحريتك وعنايتك ورغباتك وزمانك وحياتك ايضاً واعلم انك لا تكون اهلًا للرياسة الاّ بمقدار ما تفوق مرؤُوسيك حكمةً وفضيلةً وبان تُضحّي ذاتك لاجل خيرهم

وهذه الحقيقة قد عرفها الوثنيون انفسهم .قال احد الفلاسفة « ان الملك لا يكون الاّ الاخير في حظ التمتع بالملاذ » وكاسيودوروس كان يبذل الجهد في انه تكون تنزهاته نفسها مكرَّسةً لاجل خدمة المملكة » وسينيكوس كتب الى احد اصدقائه الذي كان مرشحاً للملك قال :« انه ما عاد لك من الان فصاعدًا ان تبتغي ما يوافق صوالحك وذوقك»وهذا الفيلسوف نفسه قال عن الملك فيدمر : « انهُ مذ كرَّس نفسه لاجل خير المملكة (يريد انهُ تبوَّأ الملك) قد خُطفَ عن ذاته ولم يعد لها بل صار بكليته للذين ملك عليهم لانهُ كما ان الكواكب لا

تتحرك الاَّ لاجل خير العالم هكذا الملك لا عمل لهُ الاَّ لاجل خير المملكة اه »
وقال انتيفونس لابنه : « يابني ألا تعلم ان ملكنا ما هو الاَّ عبودية شريفة اه
واحدى النساء اذ لم يُسمح لها بمقابلة الامبراطور ادريانوس قالت لهُ بحدة ودالة :
« لا تجعل اذاً نفسك امبراطوراً اه

وقد لخصنا فيما تقدم ان الرئيس عليه حتى في نفس مرضه ان يكون لجماعته كروح تنعش فيهم الحياة والحركة بنوع ان محبته لهم تقوّي ضعف بدنه وتحمله على ان يموت وهو قائم قاعد في خدمتهم

جاءَ عن القديسة مريم الجدلية التي من باتزي انها تلقنت من ربنا لهُ المجد نصيحةً وهي هذه : « عليكِ ان تبذلي الجهد المستطاع بحسبما اعطيكِ من القوة والنعمة في ان يكون لكِ من الاعين على عدد الانفس التي اسلمها لعنايتكِ وتدبيركِ ومثلما يتوق الايل الى المياه هكذا ينبغي ان تتوقي الى سعادة وخدمة اعضائكِ (مرؤوساتك) ولا يكن لك اعتبار جسدكِ اكثر من اعتباركِ التراب الذي تدوسينه برجليكِ وابذلي قصارى الجهد بان تكوني على نوع ما قوتاً للجياع وشراباً للعطاش وكساءً للعراة وفرحاً للمحبوسين وتعزية للحزانى . اه

وبالتازار القارس كان من عادته ان يقول : « ان الرئيس حقيق بان يفدي ذاته لاجل مرؤوسيهِ ويُضحّي لهم راحته بل عليهِ لاجل خدمتهم ان يهمل العناية بصحته ويحتسب ذاته الاخير بينهم ويعزم على السهر الدائم وان ينوح على المتوانين منهم وان يستعد ايضاً الى مقابلتهم معروفه وتفانيه بنكران الجميل والدمدمة عليهِ والكره له ولسائر اعماله اه . (كتاب حياته)

ولما اراد بعض الناس ان يُثنوا دوم برتولماوس عن زيارة احدى القرى الوعرة قال لهم : « أليس سكان هذه القرية الوعرة هم خرافي مثل سكان السهول فلا شيء يثنيني عن مساعدتهم . وبعد اما انا الكفيل بخلاصهم امام الله تعالى . اه

والقديس برنردوس عندما اراد البعض ان يلطفوا خشونة تقشفاته قال لهم : « ياخوتي لو عرفتم ما هي واجبات الراهب لقلتم انهُ خليق بان لا يأكل لقمةً الاَّ مغمسةً بالدموع . لانهُ لما كان عائشاً من اتعاب الشعب كان حقيقاً بان يكون كفارةً عن الشعب وان يلتمس لهم النعم . واذ ذاك فماذا اقول عن حالتي الحاضرة

ووظيفتي توجب عليَّ ضعف اضعاف ما هو متوجب على الراهب البسيط لان الرئيس من حيث انه مسؤُول عن الجميع وجب عليهِ ان يكفّر عن خطايا الجميع ويستمد لهم النعم والبركات السماوية وعلى ذلك فلا ينبغي ان تحثوني على تخفيف تقشفاتي بل بالاحرى على تضعيفها والادمان عليها الى المات اه (رسالته ٣٨٦)

عد ٤

في انهُ على الرئيس ان يفضل ايضاً خير مرؤُوسيهِ

الروحي على خيره الروحي نفسه

قال القديس برنردوس لرهبانه (في عظته ٥١) : « اني منذ صرت رئيسكم اعتبرت نفسي ملتزماً ان افضّل خدمتكم وخيركم على صلواتي ودروسي وتآليفي وعلى كل ما هو شهيٌّ عندي للجسد او للنفس لان المحبة تضطرني الى ان اطلب ما هو لكم وليس ما هو لي . اه

وعلى كل رئيس ان يقول ما قاله يوماً ما شاوول عندما لحظ ان جائحة سماوية تسقط عليه ولم يكن يدري من كان السبب لذلك قال : « فان كنت انا او ابني يوناثان اجترحنا الذنب فابن نقمتك فينا اما اذا كان واحد من الشعب فارحمه واغمره بفيض انعامك اه (١ ملوك ١٤)

ولعمري ليس من دليل او برهان اشد تأثيرًا وبياناً على محبة الرئيس لمرؤُوسيه من ان يتمنى لنفسه من الضربات ما يكون قد استحقه المرؤُوسون بخطاياهم - فموسى كليم الله تضرَّع اليهِ تعالى لكيلا يضرب الشعب وقال لهُ : « امحُ اسمي من سفر الحياة » وبولس الرسول عندما رأى تعامي شعب اليهود عن امر خلاصهم اراد ان يكون مبسلًا عنهم

وهنا نسأل هل يسوغ لاحد ان يتمنى ولو عن غيره ما يمس الضمير او ان يكون مبسلًا من مشاهدة الله ؟

الجواب كلاَّ ولكن موسى الكليم وبولس الرسول ارادا بهذا الخطاب للعزة الالهية ان يبينا انهُ لو ساغ لاحد ان يتمنى خسارة السعادة لتمناها لانفسها حبًّا

بمساعدة الشعب على خلاصهم · او انهما رغبا كما فسر القديس توما (٢٠٢ ٢س ٢٧ ف ٨) ان يكونا محرومين مدةً من السعادة لو كان بذلك خير ومساعدة للقريب

او كما شرح القديس يوحنا فم الذهب انهما كانا عازمين على التخلي عن لذة مخاطبة الله الباطنة لكي يتفرغا للعناية بخلاص الانفس لان كل لذة ولو روحية كانت لديهما مرة عند نظرهما خطر الهلاك يتهدد الشعب وقال بذلك القديس برنردوس ان مثل هذين الرجلين العجيبين مَثَلُ امرأةٍ فقيرة كادت تهلك جوعاً مع ولدها فاتفق ان رآها احد الاغنياء فدعاها الى وليمة فاخرة على شرط ان لا تكون مع ابنها ثمرة احشائها فابت قبول هذه الدعوة وقبول الحياة ايضاً واختارت ان تموت جوعاً مع ولدها اه (عظته ١٢)

قال القديس اغوسطينوس « أتريد ان تعرف ما هو رأيي بخصوص واجباتنا في الصلوة نحن الرعاة فاقول قولاً باتاً باننا ملتزمون ان نختلي للصلوة كأن ليس لنا شاغل آخر يشغلنا عنها · ونحن ملتزمون ايضاً ان نبذل كل العناية والجهد في خدمة القريب كانهُ ليس لنا شاغل سواه · فلنكن اذاً مواظبين على الصلاة طالما تسمح لنا الفرصة بالتفرغ عن اعمال خدمة القريب اما اذا دعتنا هذه الاعمال فلنبادرنَّ حالاً اليها ونترك الصلوة والاختلاء اه · وقال القديس برنردوس بهذا المعنى الى البابا اوجانيوس قولاً سعيداً وهو : « فاذا سألتني قداستك ما الافضل امام الله هل الصلاة ام العمل فاجيب انك لو اعتبرت ذاتك شخصاً خصوصياً لكانت الصلاة لك افضل اما اذا اعتبرت نفسك شخصاً عمومياً فالعمل افضل وعليه فلا ينبغي ان تتفرغ للعمل بنوع انك تنسى الصلوة ولا ان تكون مغرماً في الصلاة بنوع انك لا تذكر خرافك الذين بكل عدلٍ وصواب يطلبون عنايتك بهم اه · اعتباراته ك١ ف ٧

فينتج من ثم انه ليس فقط يسوغ للرئيس ان يبارح الاعمال الروحية العائدة لخير نفسه بل يجب عليهِ ذلك ليتفرغ لخدمة مرؤوسيه · ولعمري كيف يمكن الرئيس ان يتصور نفسه باراً وغير ملوم امام الله فيما لو توغل في البرية تمتعاً بلذة الاختلاء والتأملات الروحية على حين افتقار جماعته الى وجوده بينهم وعنايته بهم

وإلاَّ نما الزوان الذي يزرعه العدو وديست القوانين وتأصلت العوائد السيئة . او ماذا عساه يجيب القاضي العادل اذا ما سأله عن القيام بواجباته ووضع لهُ في احدى كفتي الميزان صلواته الطويلة التي لم يتلُها الاَّ بترك واجباته وفي الكفّة الاخرى كل الشرور التي حدثت وكان بوسعه ان يمنعها وكل الخير الذي منعه وكان جديرًا بان يجريه فعلًا ؟ اه

وبعد فان هذه التضحية التي يعملها الرئيس حينًا عن حرّية وحينًا عن اضطرار من قبل واجبات مهمته هي شريفة وذات شهامة وتكسب من يقوم بها كل خير يظن انه فقده بها بل هي تأتيه بخيرات اعظم

عد ٥

في ان الرئيس خليق بان يفحص فحصاً مدققاً عن قيامه

بالسهر الواجب على خير مرؤوسيه

وذلك على هذا النمط

١ً هل هو عارف بكل هذه الواجبات وهل هو معتنٍ بان تكون دائمًا نصب عينيه وهل يتفرغ من وقتٍ الى آخر للتأمل فيها فانهُ لو عرف ثقل هذه الواجبات لتأملها مليًّا ولو تأملها كما ينبغي لرغب في حفظها وفي ان يحفظها الجميع ايضاً . امَّا لو خفيَ عليهِ بعض هذه الرسوم لعدم اطلاعه عليها او لانهُ نسيها فكيف له ان يطالب بممارستها ؟

٢ً هل لهُ غيرة بحسب روح الرب ؟ غيرة عمومية تشمل الجميع بدون استثناء . غيرة حارة تلتهمه بنوع ما ولا تدعهُ يذوق الراحة قبل ان يبلّغ كل واحد من رهبانه الكمال المطلوب منهُ بحسب النعم المعطاة لهُ . غيرةً دقيقة لطيفة لا تدعه ان يحتدم غيظاً وغضباً عند مشاهدته بعض النقائص من مرؤوسيه بل تحمله على الشفقة عليهم والرفق بهم . غيرة ذات تيقظ تبحث باجتهادٍ عن الوسائط الفعَّالة فتضعها بالعمل ولا تنفك إلاَّ ان تبلغ الغاية المطلوبة . غيرة ذات فطنة ودهاء تجد سبيلًا للاتفاق مع الجميع ولاستخدام كل الظروف لنيل الغاية المقصودة . غيرة

ذات حكمة لا تفرض على الجميع الأ اعمال التجرد والكفر بالذات بل انها تبيّن لهم ضرورة الكمال ثم تكلف كلاً من المرؤوسين بما تراه موافقاً لمشربه وامياله واطباعه وقوته اهـ · (مرشد الرؤساء ٦) ثم ينبغي لهُ ان يفحص عما اذا كان يجهل بعض امراض مرؤوسيه الروحية لانهُ لم يتقصَّ البحث عنها في الوقت المناسب والنوع الموافق او انهُ لم يعطهم الـدالة ليدنوا منهُ ويكشفوا له سرائر قلوبهم · او انهُ لم يعتنِ بمداواة هذه الامراض او انهُ عالجها بطريقة غير مألوفة او انهُ لم يستقص الاسباب او انهُ لم يبعد عنهُ التصورات التي استولت على افكاره باطلاً · او انهُ لم يبعد مرؤوسيهِ عن اسباب السقوط · او انهُ لم ينبّه ويصلّح كل شيء بوقته · او انه اخيراً لم يطالب بكشف الافكار الا تظاهراً وتملصاً من لوم اللائمين

٣ً هل هو معتنٍ بحفظ النظام الديري كما ينبغي وبحفظ القوانين وبنوع خاص بحفظ فريضة الصمت باوقاته والمحافظة على المحبة الاخوية · واما هو مذنب باغضائه عن مخالفي القوانين بنوع الاهمال او غض الطرف او التسامح لنفسه او لمن يلوذ به او تفسير بعض مواد القانون على ما يهوى · وعليهِ ايضاً ان يفحص عن ترتيب القلالي ونظافتها وترتيب ونظافة المحلّات العمومية ولاسيما المكتبة والكنيسة

٤ً ومما يهم الفحص عنهُ بكل دقة هو قيام اهل الوظائف بحقوق وظائفهم كالاقنوم مثلاً فهو يقوم مقام الرئيس ويمثله بامور كثيرة · هل هو على مشرب واحد وتمام الاتفاق مع الرئيس · ثم الاب المرشد هل له المعارف الكافية والغيرة والفطنة اللازمة والرقيب هل له ملء الحريّة ليبلّغ ملحوظاته لاصحابها باوقاتها · ووكيل الصرف هل هو معتقد ومقتنع بان الادارة التي يكون فيها روح السخاء والسماحة المقرون بالفطنة الرهبانية يوفقها الله بنوع خاص وينجح اعمالها

وهل انهُ باذل كل عنايةٍ واهتمام بتهذيب الاخوة الذين لم يرتقوا الدرجات المقدسة ولاسيما الشبان منهم · والبوّاب هل هو ممتاز باستقامته وتدقيقه وأدبه واحتشامه ولطفه مع الجميع · وخادم المرضي هل لهُ محبة الوالدة ورأفتها بنوع ما وهل انهُ يأتيهم ليس فقط بما يكون ضرورياً بل بما يكون موافقاً ومسموحاً بهِ من روح القانون · والاخ الطاهي (الطبّاخ) هل يأخذ يومياً التعليمات اللازمة من

الاب الاقنوم لكيلا يدير الجمهور بحسب هواه واميالهِ الخصوصية ؟

٥ً معاطاته مع السلطة الكنسية والمدنية هلا يعيبها شي من جهة المحبة ومن جهة التورط باسباب يأباها روح القانون او هل انهُ يتبع بذلك مشورة الرب للقديسة المجدلية دي باتزي اذ قال لها : « كوني مع اهل العالم ذات فطنة كالحية ومع اصفيائي بسيطة كالحمامة . واخشي الدنو من الاولين كما تخشين الدنو من التنين . اما الاخرون فاقتربي منهم كما تقتربين من هيكل الروح القدس اه . وهل انهُ في زياراته الناس وزيارات الناس لهُ يكون دائماً مثالاً يُقتدى بهِ . وماذا يقول الناس عن ديره وهل ان للمحسنين في ديره ذكراً خاصاً وصلوةً عمومية وكيف علاقاته الودّية مع الرهبانيات الاخر غير المشتركة مع رهبانيته وما هي مساعيه لاجل الصلح والاتفاق مع الاخصام ايًّا كانوا

٦ً ممارسة العبادة في ديره كيف هي جارية هل ان القراة على المائدة هي ذات افادة علمية وروحية ؟

والمجمع الديري هل يُعقد بحسب رسم القانون بما يحق لهُ من الاهمية والاهتمام والارشادات الروحية التي ينبغي ان تصير مرتين في السبة على الاقل هل هي ذات معانٍ قوية راسخة ومطابقة للاحتياج . والرياضات السنوية هل لمرشديها الصفات اللازمة من علم وفضيلة وهل للمتروضين فيها الاستعدادات الواجبة التي بدونها لا يكون لها نتيجة البتة

٧ً والزمان هل هو مستعملٌ في ديره حق الاستعمال الا يوجد عنده احد بطالاً او متلهياً اكثر اوقاته بامور لا طائل لها . فمثل هذا ليس انه لا يفيد ولا يستفيد فقط بل لا بد لهُ من الحاق الضرر بكل من يعاشره . وبعدُ أما ان الرئيس هو المطالب امام الله بهذه الخسارة الجسيمة والمسؤول بابطال البطالة من ديره وهل لهُ من عذر مقبول في خوفه وجبانته او ترفعه عن الاهتمام بمشاهدة ما يعمله كل فردٍ من رهبانه . فليتأمل ويعمل

عد ٦

في انه ينبغي للرئيس ان يفحص فحصاً مدققاً عن افراط محبته ذاته

هل يعامل مرؤوسيه كما كان يريد ان يُعامَل هو قبل ان صار رئيساً

قد جاء عن ترايانوس قيصر انهُ رسم على ذاته شريعة وهي : « اني معامل رعيتي ما دمت ملكاً كما كنت اريد ان يعاملني الملوك لما كنت من التبعة وانا ابذل قصارى الجهد بان يكون فيَّ من البشاشة والهشاشة ما كنت اشتهيه في الملوك وسائر الحكام اه

ان يوحنا اسقف سيراكوزا اراد يوماً ما ان ينقل احد كهنة ابرشيته من مكان كان منشرحاً فيه الى مكان آخر لا يوافق ذوقه ولا مشربه فدرى بذلك القديس غريغوريوس فكتب اليهِ يبكته على هذا العمل قال : « ارجو الا تنسَ اننا نحن الرعاة جديرون بان نكون مع خرافنا على حسبما كنا نتمنى ان تكون رعاتنا معنا لو كنَّا من الخراف . وعليهِ فلو كنت يا ترى في مقام هذا الكاهن البائس لوجوده بعيداً عن اصحابه ومعارفه في بلدٍ لا يوافقهُ هواؤها لكنت تحب بلا شك ان يراعيك راعيك ويعيدك الى محلك الاول فارعَ الحق والصواب يارعاك الله واسمع ابتهال هذا الحزين وأعِدهُ الى محله الاول لانه يوافق ذوقه ومشربه اه . (ك٢ ع ٦ رسالة ٣٦)

٢ً وهل يعامل مرؤوسيه كما يعامل نفسه في كل شيء . ولنذكر بعض علامات تدل على محبة الذات لدى الرئيس اذا كان فيهِ شيء منها ١ً اذا اشترى اوحاك لنفسه ثوباً اقل خشونة من اثواب الاخوة . اذا اعتنى بفرش اوضته او تزيينها بنوع افضل من سائر الاخوة . اذا حفظ لنفسه من كل شيء احسنه . اذا اوصى الطبَّاخ بان يطبخ اكثر الاحيان ما يوافق ذوقه من دون التفات الى ما يوافق ذوق الجمهور اذا كان لا يسمح للرهبان بالزيارات اللازمة الاَّ مع شيء من العنف والامتنان وهو لنفسه سموح بكل نوع منها لازمة كانت او غير لازمة . اذا تسامح

لنفسه فيما يخالف النظام الديري ويشوشه مثل النوم والقيام بغير وقته والتأخر عن الحضور في بعض الاعمال العمومية مثل صلوات الفرض والمائدة والقراءة الروحية وما اشبه . اذا حفظ لنفسه بعض الاعمال التي يرى فيها اكثر سهولة واجزل شرف واخيراً اذا لم يهتم بما يعوز الاخوة وهو سخيٌ وشديد العناية بكل ما يكون لهُ فيهِ بعض الحاجة

٣ً ألا يستصوب اليوم ما كان يراه في الامس خطاء؟ فيا للاسف ان من الناس من يرون في حال رياستهم صواباً ما كانوا يرونه قبل رياستهم خطاء فكأن الاشياء التي كانت في الامس مغايرةً للصواب من ذات طبعها اضحت اليوم صواباً وعدلاً او كأن رياستهم غيرت طبع مثل هذه الامور حتى انهُ ما عاد لازماً الفحص ولا السؤال عن كونها عادلة او غير عادلة :

ان البابا يوليوس الثاني هتف عند ساعة موته وقال : « اليوم ارى ان محبة الذات قد اعمتني واضلتني في امور شتى ولكن يالتعاسة حال البشر ولاسيما الرؤساء الكبار لانهم لا يرون ما هو الموافق والمفيد عمله الا بعد فوات الفرصة فان علو مقامهم وشرفهم يخذلان الباهم ويزيّنان لهم ان كل ما يعملونه هو عدل وصواب وان لهم ايضاً ان يجوّزوا لانفسهم ما لا يجوز ولاسيما بعد انجاز العمل . وهكذا قلما يمكنهم ان يعترفوا بذنبهم اهـ . امَّا النفس الكريمة الراسخة في كل احوالها وتدابيرها طائعةً كانت او مطاعة فلا تصوّب او تخطيء الاَّ ما كانت تراه دائماً صواباً او خطاء لانها لا تسند حكمها على الاوهام السابقة ولا على هوى الطبيعة بل على الحقيقة والعدل وهذان الامران لا يعتريهما تغيير ولا تبديل البتة

٤ً أماَ انهُ يذم في الاخوة خصالاً يراها في ذاته تستحق الثناء والمديح؟ لقد تقدم لنا ان الرؤساء هم اشد التزاماً بالخضوع للشريعة من سائر الرهبان لان ما عدا كونهم ملتزمين ان يكونوا رهباناً صالحين يلزمهم ايضاً ان يكونوا رؤساء فاضلين وقدوة لمرؤوسيهم . واذا كانوا غير خاضعين للرسوم والقوانين بالنظر الى القوة الضاغطة اعني من كون ليس عليهم من يجبرهم قسراً على حفظ القوانين . فهم مع ذلك خاضعون لها بالنظر الى القوة المرشدة اعني بها روح القانون ونية المشترع الاول . قال مودست دي سانت امابل : «انهُ لو استثني الرؤساء انفسهم

وقت ابرازهم النذور من حفظ الرسوم الأ طالما يكونون مرؤوسين لجاز انهم لا يلتزمون الخضوع لها مدة رياستهم· اما هذا الاستثناء فلا يخطر على بال . وما عدا ذلك فهل للرياسة ان توليهم حقوقاً جديدة لا ولكنهـا توليهم السلطة على عقوبة المخالفين والسهر الخصوصي على ذواتهم لكي يكونوا محافظين على الشريعة وغيورين على حفظها قبل الجميع اه . (الرئيس الكامل ك ١ ف ١٤) فالقديس امبروسيوس لما اراد ان يلح على الملك والينيانوس بالخضوع لشريعة الكنيسة قال لهُ : « اعلم ايها الملك العظيم ان سلطانك السامي على الشعب لا يعفيك من ان تكون ابناً للكنيسة كسائر الناس ولا من ان تكون نظيرهم خاضعاً لشرائعها » اه والقديس غريغوريوس زاد على ذلك فقال للملك : « ان شئت ان تكون اميناً فيما يجب عليك فاحرص في امساك نفسك عما تستطيع اليهِ سبيلًا اه » ومن ثم ينتج ان الرياسة لا تولي الرئيس حقوقاً بان يتجاوز الشرائع بل انها بعكس الامر توجب عليهِ حفظها اكثر من كل احد . وهذا ما لا يفهمهُ بعض الرؤساء الذين يضغطون على مرؤوسيهم ويتشددون بعقوبة من يتجاوز الشريعة وهم يتجاوزونها بكل طمأنينة وراحة بال ويؤنبون المخالفين على اقل الزلاّت واخفهـا ولا يرون ان يؤنبوا انفسهم او يلوموها على اعظم المخالفات واكثرها . وهكذا قل عن كل رئيس ينهي عن الشر ويأتي بمثله ويأمر بعمل الخير وهو لا يعمل منهُ شيئاً

الفصل الثامن

في بعض امثلة الوداعة واللطف

عد ١

داود النبي والقديس يوسف والقديس بولس

من لا يُدهش من وداعة داود النبي ولاسيما تلك التي اظهرها لشاول وابيشالوم . فان القديس يوحنا فم الذهب يؤكد لنا انهُ لما عاين الشعب باي كرم نفس وشهامة

عفا داود عن شاول ولم يُرد ان يؤذيه بشيء· اخذوا يطيعونه ليس كطاعتهم انساناً بل كطاعتهم ملاكاً سماوياً · او من تراه يسمع رثاء داود موت ابنه ابيشالوم الولد العقوق ولا تتفطر اكباده حزناً فكان يناديه « يابيشالوم ولدي · ياولدي ابيشالوم » ومثل هذه الحاسات كانت تجعلهُ ان يخاطب الله بقوله لهُ :« اذكر يارب عبدك داود واذكر كل وداعته اه ولا شك ان الوداعة هي اعظم وساطة يقدمها الرئيس لله تعالى اذ يمكنه ان يقول له بدالة وحق :« اذكر يارب عبدك واذكر جميع دعته اه وايُّ مشهدٍ عجيب لا تراه في يسوع ومريم ومار يوسف اذ كانوا عائشين سويَّةً عيشةً مشتركة في بيتهم الفقير بالناصرة ؟ من تراه كان يأمر هل الرب يسوع ؟ كلاً لانهُ تقدست اسماؤهُ لم يكن اتى الاَّ ليطيع ويعلمنا الطاعة · هل البتول مريم؟ كلاً لانها كانت ملتزمة الطاعة لله ولزوجها الطاهر · هل القديس يوسف ؟ العلَّهُ ما كان يهاب التأمر على ربه وعلى والدة الله نعم ولكن اذا ما ألجأت الضرورة فكان يخضع لارادة الله ويأمر · غير ان اوامره كما لحظ العلَّامة اوريجانوس كانت برقَّتها ولطفها تدل على الطاعة اكثر منها على التأمر فاذن لِمَن كانت السلطة هل للثلاثة سويَّةً ؟ لا بل بالحري لم يكن احدٌ منهم مسلَّطاً لان كلًّا من يسوع ومريم كان يرغب في اتمام ارادة يوسف ويوسف كان يدير العائلة لا بروح السلطة والتأمر بل بروح الدعة والتوسُّل

وايُّ مثالٍ اعجب من المثال الذي تركه القديس بولس في الكنائس التي كان مقلدًا خدمتها · مثال الثبات والوداعة · فقد قال للرومانيين : « اني طالما انا رسول الامم فلا ازال ابذل كل الجهد في ان تكون خدمة رسالتي مكرمةً ومعتبرةً عند الجميع اه وقال الى اهل تسالونيكي : « اني كنت بينكم كالطفل اه فهذ ما يقضي على الرئيس بان يكون وديعاً كالطفل مع اجتهاده في ان تكون خدمته مكرمةً · وبعد فمن كان يتألم ولم يتألم الرسول معهُ ومن كان يسقط ولا يحترق هو لكي يقيمه فكان كلًّا للكل وعبدًا للكل لكي يربح الكل · ولما كان يأمر المسيحيين بشيءٍ كان يقول لهم :« اني استحلفكم باحشاء محبة سيدي يسوع المسيح : اني اتضرع اليكم بحق وداعة السيد المسيح · اني ارجوكم بمزيد الالحاح انا اسير السيد المسيح ··· اذا كنتم تحبوني او اذا كنت

خدمتكم بشيء كافوني لاجل مجد السيد المسيح اه

واذا مست الحاجة الى التوبيخ لاجل الاصلاح فكان يُظهر حيناً الخوف وحيناً الرجاء . وقتاً كان يرفق بالمذنب ويعذره ويعد لهُ يد المساعدة لينشله من ورطته . وحيناً يلاطفه بمزيد الحنان ويظهر للمحسنين اليهِ معرفة الجميل ويتمدح الاعمال الحنسة التي يكون قد عملها المذنب من قبل . واذا اراد توبيخ اعز اولاده على فتورهم وتوانيهم فكان يقول لهم : « اما كنتم تحبون ان تقلعوا عيونكم لكي ترضوني بذلك ونحن اما كنا مستعدين ان نبذل لكم مع الانجيل قلبنا ونفسنا اه وحيناً آخر كان يتهددهم بالاً يلجئوه ان يضربهم بالتأديبات الكنسية واذا ضرب فكان يسرع حالاً الى تضميد الجرح . وكان يبين لهم ان لهُ نحوهم احشاء الاب واحشاء الام في المخاض او شعائر المرضع التي تحتضن بنيها وكان يدعوهم اولاده الاطفال ومجده وسروره واكاليل فخره وهكذا كان يستعمل كل الصور والتشابيه الممكنة في اللغة لكي يبين لهم محبته الصادقة ورأفته الوالدية ومزيد اهتمامه في قضاء حاجاتهم وخدمة صوالحهم

عد ٢

في القديس مبارك والقديس برنردوس والقديس فرنسيس الاسيزي

اننا نرى القديس مبارك يخاطب رهبانه في محلات عديدة من قوانينه كما يخاطب الاب بنيه ويريد ان يقتادهم الى الكمال بطريق اللين والوداعة . فقد قال بكتاب قوانينه مـا نصهُ : يا بنيَّ افتح اذن قلبك واقبل بفرح تعليم ابٍ محب . واعلم ان لا شيء في هذه المدرسة قاسٍ او ثقيل وليجتهد الاب الرئيس بان يبين بافعاله حقيقة كونه اباً ويظهر لكل الاخوة محبةً متساوية . فان الخراف التي استودعت لرعايته ليست صحيحة وقوية بل هي ضعيفة ومريضة . وللرئيس احياناً ان يونب ويتوعد الاَّ انهُ يترتب عليـهِ في بعض الظروف ان يتوسل ويتضرع مازجاً القسوة باللين والملاطفة وليحذر من كسر الاناء عندما يريد ان يرفع عنهُ الصدأ . واذا ساغ لهُ ان يكره الرذيلة فليس لهُ ان يكره الاخوة

الذين يسقطون فيها او ينفر منهم · وعليهِ ان يقدم لكلٍّ ما يحتاج اليهِ في الصحة · اما المرضى فليعاملهم كما يعامل السيد المسيح نفسه لو كان مريضاً عنده مع كلما يلزم من الاكرام وطول الاناة — وهكذا مع الشيوخ والصغار فليكن بشوشاً وسموحاً بحسبما تقتضيهِ الفضيلة المقدسة — وللرئيس عند مسيس الحاجة ان يتعدى شريعة الصوم الرهباني لكي يؤاكل الضيوف الجديرين بالاكرام والاجلال — وليعلم انه لم يُقم رئيساً لكي يتحكم في الاخوة بل بالحري لكي يكون لهم خادماً اه »

ان القديس برندوس كان في بادئ الامر سبَّب ضرراً كبيراً بافراط قسوته فكان يقول للمبتدئين : « يا اخوتي اتركوا الجسد خارجاً وادخلوا بالروح لا غير لان هذا المكان معد لقبول الارواح لا الاجساد اه

وكان يقتص بلا شفقة على ادنى زلة · فدير كليرڤو كان قد اضحى مطهراً لوجوده فيهِ امـا بعد حين لما غيَّر سمتَ سياسته واخذ يعامل مرؤوسيه باللين والرقة عوض اصداره تلك الاوامر القاطعة فصيَّر هـذا الدير فردوساً سماوياً وكنتَ تخاله في خطابهِ مع الاخوة يفيض عليهم عسلاً او مناً وكان يدعو رهبانه بحنانٍ ابوي يا اولادي يا عيوني يا احشائي ويا قلبي وهذا الذي جعل كثيرين ان يقولوا انه لو امكن للطف ان يتجسد ويخطب او يؤلف لمـا كتب ولا تكلم باعذب مما تكلم بهِ هذا القديس العظيم · وقد قال عن نفسه ان الاختبار علمه ان سياسة الجماعة ان لم تكن بروح اللين واللطف لا تأتي بفائدة على الاطلاق · وهكذا قال عن رهبانه انهم كانوا يلبون اشارة رغباته بطاعة ذات سرعة وفرح · واحياناً كثيرة كانوا يبتدرون الاشارة وكانوا يفضلون احتمال كل مصيبة على ان يحزنوا قلب هذا الاب الرؤوف · ومن ثم فان الرقة واللين هما لاكتساب قلوب المرؤوسين اقوى ذريعة من التأمر واظهار السلطة وهذا لعمري اعظم مبدا يمكن للرئيس ان يتعلمه ويسير بموجبه

وقد جاءَ عن القديس فرنسيس الاسيزي انهُ قلما كان يأمر رهبانه امراً ومع ذلك فكانوا يتسابقون لاتمام ارادته في كل شيء · فكان من عادته ان يقول للمراقب : « اذا لحظت على احد الاخوة شيئاً يستوجب التوبيخ فلا توبخه بل

ارفق بهِ وسامحه بشرط ان يعدك بانه ما عاد يرجع الى زلته فيما بعد لانهُ ان زلَّ اخوك مرةً فانت تزل مرات ولو لم يعضدك الله لكنت ارتكبت اعظم الفواحش فمن جهتي انا احب ان اكون اباً لا جلّاداً واذا كنت ملتزماً ان اكره الخطيئة فلا اكره الخاطي اه

عد ٣

في القديس اغناطيوس

يؤكد لنا كتبة حياة هذا القديس انه كان يحب رهبانه محبة خالصة ويرمقهم دائماً بنظرات ابوية ذات رأفة وحنان حتى ان من كان يشاهده في هذه الحال كان يخاله كله محبة ورقة فكان قدس الله روحه يعتبر الجميع ولا يذكر اسم احد إلاَّ بالثناء والمديح ومن ثم فما كان يتصور الشر في احد بسهولة ولا كان سريع التصديق لما يحكى على الاخوة

فانهُ لم يعامل احداً بالقسوة والصرامة· ولا كان يذكر اسم احد بسوء مطلقاً وكل من كان يفاوضه ويرى ما عنده من المحبة والرقة والهشاشة كان يظن انهُ يحبه محبة خصوصية حتى لا يمكن ان يحب سواه بمثلها · ومن كان يريد ان يقابله او ينال عنده حظوة خصوصية فما كان يحتاج الى انتخاب بعض الايام او الساعات ولا ان يتخذ لهُ مساعداً او شفيعاً لان رجل الله هذا كان في كل وقت وكل ساعة مستعداً لمقابلة اخوته الرهبان احسن مقابلة حتى ولو كان وقتئذٍ ضعيفاً او مريضاً او مضنكاً او فرحاً او في ساعة يسر او عسر الخ · وما كان يقطع حديث احد بل كان يسمعه حتى آخر كلمة من دون ضجر ولا تذمر وكان يقول : « ان حديث كل راهب يفيدني للبنيان وما يضرّني الاَّ الكلام الذي اتكلم بهِ انا اه

وكان اذا دعا احداً عنده او التقى باحد داخل الدير او خارجه فكان هو يبتدره بسلام وديع ويخاطبه بكلام رقيق حتى يخال للجميع انهُ اب حقيقي ويعي في قلبه كل واحد من اولاده الرهبان

ولما كان يسافر احد الرهبان سفرًا بعيدًا كان يرافقه مسافة طويلة وكان بكل ارتياح يمضي الى قلالي الرهبان الضيوف ويذهب بهم الى المائدة حيث يضعهم بالقرب منه . وكان مرّات عديدة عندما يرى راهبًا لا يأكل من احد اشكال الطبخ يذهب بذاتهِ ويأتيه بشكل آخر يوافق ذوقه . ومن عادته كذلك انهُ كان يبطىء في الاكل حتى لا ينتهي الا في اخر الاخوة واذا اتفق ان احد الرهبان تأخر في حضوره الى المائدة او ابطأ في اكله فكان القديس يتأنى في الاكل بحيث لا ينتهي الا بعد من كان متأخرًا لكيلا يخجل هذا من تاخيره وحده عن سائر الاخوة . واذا سأله احد الرهبان شيئًا ولم يقدر ان يجيب سؤله فكان يرفض الطلب ولكن مع تقديم العذر والسبب الداعي لذلك . هذا لو سمحت الفطنة باظهار السبب واما اذا منح السائل سؤله فكان يبيّن لهُ كذلك انه كان بوسعه ألاّ يمنحه اياه بنوع ان من كان ينال مرغوبه كان فرحًا مسرورًا بزيادة ومن لم ينل لم يكن مستاء ولا يائسًا .

ولما كان يريد ان يعهد الى احد الرهبان بمهمة ذات بال فكان يرشده الى ان يختلي مع الله وينظر مليًّا اولاً فيما اذا كان يستطيع ان يقوم بهذه الخدمة ثانيًا فيما اذا كان لهُ ميل نحو هذه اكثر من تلك ثالثًا فيما لو اباح لهُ الرئيس بان يختار هو نفسه هذه المهمة فهل كان يختارها دون خلافها ؟ ولما كان عارفًا قوة كل واحد من رهبانهِ الروحية والجسدية فما كان يسلم لاحدٍ مهنةً تفوق قواه بل كان يجتهد بان يكون ثقل المهنة خفيفًا بالنسبة الى مقدرة صاحبها . وهذا القديس يوصي في كتاب قوانينه رؤساء رهبانيته بان يسيروا سيرته بنوع السهولة والوداعة وكان من عادتهِ ان يقول : « كلما كانت السلطة سهلة وخفيفة الوطأة كان لها في المرؤوسين أشد فاعلية وتأثيرًا » . اه

ولعمري ان لم تكن السلطة ابويّة فالطاعة لن تكون ابدًا ابنيّة ولا شك في ان محبة هذا القديس لمرؤوسيهِ هي التي جعلت لهُ في قلوبهم المحبة الفائقة لان المحبة تلد المحبة وهذه المحبة المتبادلة لم تكن لتفتر او تكلّ من التنبيه او التوبيخ الذي كان يضطرّ اليهِ احيانًا .

وحرصًا على توحيد الروح في كل الرهبنة وتقوية علائق المحبة الاخويّة كان

يأمر جميع الرؤساء والمرؤوسين بان يكتبوا لهُ من كل الجهات كتباً مسهبة وطويلة عن احوالهم ومراكزهم واشغالهم وتوفيقهم الخ وهو كان ينسخ هذه الكتابات او يتخذ خلاصتها ويرسلها الى رهبانه في كل الاصقاع ومن المقرر ان هذه المراسلات كانت تسبب فرحاً جزيلًا للقديس كسفاريوس وهو في اقصى الهند ·

عدد ٤

في القديس فرنسيس دي سال

ان هذا القديس كان يردد آيةً وهي كافية لتبين لنا ما كانت منطوية عليه نفسه البارَّة ألا وهي : « انهُ لا يكاد يوجد من يحب الخطأة البائسين الاَّ الله تعالى وانا · اه

ولما كان الرؤساء يتذمرون من مرؤوسيهم ويهمون بترك الرياسة كان قدس الله روحه يقول لهم : « ألستم تسقطون انتم بزلةٍ ابداً وان لم تسقطوا فيما مضى ألا تخافون من السقوط في المستقبل واذا سقطتم هل تحبون ان يُقتص منكم ام ترضون بزجكم في الحبوس او بطردكم من الرهبانية · فان الرهبانية ليست مؤلَّفة من اشخاص كاملين بل من أُناس راغبين في الكمال واذا كان الباري قد منَّ عليكم بطبيعة سليمة غير امَّارةٍ بالشر أتجهلون ضعف الطبع البشري وكم يصعب عليه ان يكون ذا فضيلة راسخة وحقيقية · ولما كان البعض يشتكون من زيادة لطفه ووداعته فكان يقول لهم : « ان روح الوداعة هو بالحقيقة روح الله وروح الاحتمال هو روح الصواب ولا يمكن ان نوبخ احداً ويكون من توبيخنا جدوى ان لم نُظهر لهُ المحبة والدعة · ألا ترى كيف ان الحمام لو رشقتهُ بالحجارة لا يتجمع حولك اما لو القيت لهُ القمح لتجمع لا محالة · وما مثل الوداعة مع الانام الاَّ مثل السكَّر للاولاد فقلما ينجم عنه ضررٌ وان نجم فلا يكون الاَّ بسيطاً وسليم العاقبة · ولعمري انه لامرٌ شهي ان يهلك الانسان لاجل زيادة وداعته · كيف لا وهو سبحانه وتعالى يسمي ذاته إله الرحمة · والسيد

المسيح اراد ان يُدعى حملًا والروح القدس لم يظهر للناس الا بصورة حمامة . فمن يُثنيني عن تعلّم امثولةٍ علمَنيها الرب نفسه ولو كان لديه تعالى تعليمٌ افضل لما كان قال : « تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب » واذا رمتُ ان اصنع رحمةً فمن تراه يستحقها اكثر من الخطأة البائسين فان الله تعالى هو الذي يدفعهم ان يأتوا إليَّ لكي اقيمهم من ورطة الخطيئة فهل لي ان اقاوم ارادته واذا كان تعالى اعطاهم دَمه الكريم فهل يسوغ لي ان أضنّ عليهم بدموعي . ولذلك فاني أُوثِر ارتدادهم عن غيهم على الاقتصاص منهم وأُفضّل ارسالهم الى كرسي الاعتراف على ارسالهم الى السجن . ولا غروَ اني ان بعثتُ بهم الى المطهر فخير من ان ابعث بهم الى الجحيم . وليس من الممتنع ان هؤلاء الذئاب يستحيلون الى خرافٍ ويضحون اعظم منّا بالفضل والقداسة لانهُ ليس عند الله امرٌ عسير . اه ومن درر اقواله ايضاً : « ليس لرئيسٍ ان يسوس رهبانه سياسةً نافعة مفيدة الا اذا كان متصفاً بقلب ابٍ او أمٍّ او بالحري بقلب الاثنين معاً . لان بهذا لا بغير يمكن ان يكون لهُ كلامٌ عذب . ووجهٌ طلق باش . ومنظر رقيق . وحديث شهي وميل الى المسامحة والمغفرة . ولا شك اننا لجديرون بان نساعد مرؤوسينا بكل الوسائط التي لا تضرّ بخلاص نفوسنا ومن ثم فاني ارى ذاتي بنعمة الله كلي المقدرة على مساعدة القريب فاني اعمل كلما هو بوسعي ولا اطلب من الناس فوق ما يُمكّنهم ضعفهم وان لم يؤَدوني حقي في الحال فيؤَدونيه بعد شهر او بعد سنة او شيئاً بعد شيء .

[الكتاب الخامس]

في النصح الاخوي

في ان الرئيس ملتزم نصح مرؤوسيه — في ان النصح ينبغي ان يكون مؤسساً على العدل—في ان النصح ينبغي ان يكون بموجب الفطنة والرزانة — في ان النصح ينبغي ان يكون صادراً عن المحبة — في ان الرهبانية تفتقر في بعض الاحيان الى الاصلاح وتجديد الروح الرهباني

المقالة الاولى

في ان الرئيس ملتزم نصح مرؤوسيه

عدد ١

ان هذا الواجب على الرؤساء اشد واكثر امتداداً منه على المرؤوسين

ان واجب النصح الاخوي على المرؤوسين لا دافع له سوى المحبة العامة التي بها يلتزم اعضاء كل جسم مساعدة بعضهم بعضاً . اما واجب الرؤساء بذلك فمؤسس على المحبة الخاصة التي توجب على الراس لا مساعدة اعضائه فقط بل السهر عليها والعناية بكل ما يؤول الى مصلحتها. فالمرؤوسون يلتزمون هذا النصح احياناً عندما يتأكدون زلل اخوتهم . اما الرئيس فعليهِ ان يتعقب مرؤوسيهِ وينقّب عن زلاّتهم عند اقل ارتياب ويلتزم ايضاً النصح الاخوي لمرؤوسيه من قبل ان يسقطوا حذراً من السقوط . وعليهِ فالتزام المرؤوس لا يكون الاّ عند

تأكده الذنب اما التزام الروساء فعند الارتياب بوقوعه · ولنا بذلك مثل ان من يلتقي بفقير فاله ان يتصدق عليهِ او لا يتصدق اما المدين فعليهِ ان يؤدي الدائن دينه في حينه بل ان يذهب اليهِ بذاتهِ وينقده دينه في بيته وهذا الفرق عينه تراه بين المرؤوس والرئيس في امر النصح والتوبيخ · وكذلك لو توهم المرؤوس ان في نصحهِ بعض الضرر لهُ او لاخيهِ فلا يوجب عليه الاَّ اذا دعت الى النصح ضرورة قصوى ·

اما الرؤساء وان صادفوا في سبيل النصح والتوبيخ ضررًا لهم جسيماً لا عذر لهم في تركهِ وذلك ليس في الضرورة القصوى فقط بل عند كل ضرورة · حتى ان العلَّامة صوتو يرتئي ان الرئيس ملتزم ان يردع مرؤوسيه عن الزلاَّت التي تعوَّدوا ارتكابها ضد القوانين ولو افضى بهِ ذلك الى خطر فقدان الحياة · ومن المقرر ايضاً ان المرؤوس لا يجب عليهِ النصح الاخوي الاَّ عند تأكده نجاح مسعاه · اما الرئيس فلا يُعفى من فرض النصح والتوبيخ ولو لم تبدُ لهُ بارقة من الامل في قبولها والاستفادة منها كما سيأتي ذلك قريباً ان شاء الله · اخيرًا ان المرؤوسين لا يلتزمون النصح الاخوي الاَّ من قبيل المشورات الانجيلية التي لا تتناول الجميع والتزامهم ذلك مقصور على النصح لا غير او على ايصال الشكوى الى الكنيسة · اما الرئيس فموجب عليهِ من قِبل الاوامر الانجيلية ايجاباً شديدًا لا ان يوبخ فقط بل ان يتوعَّد المذنبين ويعاقبهم ولا ينكفَّ عن ذلك او يرعووا ويقلعوا عن سوء تصرفهم ويصلحوا ما قد هدموه في بنيان القريب واحتقار القوانين ·

عدد ٢

في ان الرئيس مأمور بالنصح امرًا جازماً حتى انه يكون مسؤولاً عن كل ما يذنب بهِ مرؤوسوه من جرَّاء اهماله او تغاضيه

ان كل رئيس شرعي هو بحصر القول رأس جماعته ووازعها وراعيها · فان الله والكنيسة قلداه العناية باخوتهِ فصار عليه ان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وان ينبههم الى واجباتهم ويقوّم خطواتهم ومن ثمَّ تحتم عليه ان يكون كله اعيناً واذاناً وراء مرؤوسيه فهو الراعي وموكول اليهِ ان يسهر على خرافهِ

لئلّا ترد موارد الهلكة وان يحميها من وثبات الذئاب ويقتادها الى المرعى الخصب الامين . فان لم يتوعد ويقرع بعصا سلطانه عند مسيس الحاجة امسى اجيراً يترك خرافه فريسةً للذئاب مثل خداعٍ منافق يقصر عمّا وضعته فيهِ الكنيسة من الثقة .

قد ارتأى القديس بوناونتورا ان الرئيس الذي يفرّط بهمتهِ في امر التوبيخ يأثم ضد الله تعالى لانهُ تقلد سلطانه فاساءَ استعماله ويسيء الى اخوته لانهُ يدعهم يعيثون في الرسوم والقوانين ويجرم الى نفسهِ اذ يزيد على خطاياه الخصوصية خطايا اجنبية (في ستة الاجنحة ف ٣) وهو قدّس الله روحه لا يرى فرقاً بين رهبانية نشيطة في حفظ قوانينها ورهبانية متوانية سوى ان الاولى يُعاقب فيها المذنبون وفي الثانية لا يعاقبون .

وماذا تراه يحدث لو توانى الرئيس في امر التوبيخ عن خوفٍ او عن ميل خصوصي او عن ضعف او قلة فطنة . فيحدث لا شك احد ثلاثة أمور اما ان المجرمين يجهلون نقائصهم جهلاً كاملًا او انهم يستمرّون على ارتكابها حتى النهاية او انهم يزدادون توغلاً وتشبثاً فيها . وبكل هذه الاحوال تندكّ دعائم القانون وتتفشى الشكوك . ولما كان كل انسان موكولاً اليهِ منع الشرور على قدر وسعه لا على قدر مبلغ واجبه كان الرئيس مسؤولاً بلا مُشاحة عن كل عادة سيئة تسرَّبت الى جماعتهِ وعن كل ذنب اقترفته من جرّاء سكوته وتعاميه عن امر النصح والتوبيخ .

واذا شئتَ ان تعرف تمام المعرفة ما هو عدم الاقتصاص من المجرمين وما هي نتيجته فأسمع تعليم القديس برنردوس إذ يقول : « ان عدم الاقتصاص هو ابن الاهمال وأُم الوقاحة ومرضع المخالفات . اهـ (ك ٣ في التأملات ف ٥)

والعلّامة جرسون يرى في عدم الاقتصاص تعكير مجاري السلام ومنبع الانشقاق لانهُ اذا كان الصالحون لا يستطيعون ألاّ يظهروا للاشرار استياءهم واشمئزازهم من الشر فهؤلاء كذلك لا يستطيعون ان يتحملوا هذا النوع من الاهانة ولو كان ضمنياً غير صريح . فاذا طال الحال على هذا المنوال تزداد القلوب منافرة ومباعدة . وتريتيم في تفسير قوانين القديس مبارك يؤكد ان عدم

الاصلاح بالنصح والتوبيخ والتأديب هو أُسّ كل خراب في الجمعيَّات · ولاينيز الرئيس العام الثاني على الرهبانية اليسوعية يشبّه هذه الرذيلة برذيلة الدنس فكأن هذه الرذيلة تفوق جميع الرذايل قوّةً على اهلاك الانفس العديدة · كذلك رذيلة عدم التأديب فانها تدمّر من الرهبانيات وتهلك من الرؤَساء والمرؤُوسين ما لا يقوى عليه سواها من الشوائب والمخالفات · فهي تدمّر الرهبانيات تدميرًا لانها تربي في حضنها شر مضطهديها وتُهلك المرؤُوسين لانها تفتح لهم باباً رحباً لكل مخالفة وتهلك ايضاً كثيرًا من الرؤَساء لانها تجعلهم مسؤُولين عن كل ذنبٍ يقترفه الرهبان · (تاريخ حياته ق ٢ ك ٨)

والقديس غريغوريوس البابا يؤَنب الرئيس المتقاعد عن توبيخ مرؤُوسيه بقولهِ لهُ : « يا لك من اجيرٍ جبان يركن الى الفرار عندما يرى الذئب مقبلًا » وربَّما تقول لي انك بذلك تشتمني على غير استحقاق لاني واقفٌ في مكاني ولم اهرب أمَّا انا فاقول لك انك هربتَ لكونك لازمتَ السكوت حين وجوب التكلم فلم يكن حضورك في منصب الرئاسة الا بالجسم اما بالروح فقد كنتَ هارباً · اه (عظته ١٤)

وهذا العلّامة كتب الى احد اساقفة كاتانا بمناسبة فتنةٍ حدثت في ابرشيتهِ قال : « اما انك عرفت بهذه الفتنة بعد حدوثها او انك لم تعرف فان كان الاول فانت مذنب لانك لم تداوها حتى الان وان كان الثاني فمذنب ايضاً لانك لم تسهر على رعيتك سهر الراعي المتيقظ فاستفحل الشر الى هذا الحد · اه »

والشيطان نفسهُ خزاه الله اعترف للقديس دومنيكوس بقولهِ : « ان المجمع الذي يتمُّ فيهِ توبيخ الرهبان واصلاحهم هو مكان عذابي لان التواضع والتوبة اللذين يصنعهما الرهبان في هذا المجمع يخسرانني كل ما اكون قد ربحتهُ » (حياة القديس دومينيكوس) · فلا يليق اذًا برهبانية ان يرأسها حارسٌ لا يميز الاعداء عن الاصحاب ولا تهزّ يدهُ الا سهاماً من خشب ذات لين ونعومة لانها تفتقر الى حارس ينادي بالسلام وقت السلام وبالعراك وقت العراك حتى اذا ما رشق سهاماً مسقيةً بزيت الرفق والمحبة لا تكون مع ذلك الاَّ من معدن الحديد او الفولاذ وقد كان لشعب اسرائيل في احد الاوقات حرّاسٌ خدّاعون قد انبأُوا

بالسلام وقت الحرب بل في وقت خراب اورشليم الاَّ انهم هم انفسهم اضحوا فريسة الردم والهلاك .

عدد ٣

في ان فريضة النصح او التوبيخ لا تنافي المحبة بل تفترضها وتصدر عنها

ان التوبيخ لا يضرُّ بمحبة الرئيس لمروُوسيهِ ولا برفقهِ بهم وملاطفته اياهم لانهُ أي التوبيخ يعتبر كمزيَّة جوهريَّة في صفات الرئيس على انهُ قُضي عليه بألاَّ يستعملها الاَّ حبًّا بخير مروُوسيه وبعد افراغه كل الجهد باستعمال سائر الوسائط . ان الحمامة وان تنزَّه قلبها عن كل حقد وضغينة تدافع مع ذلك عن فراخها بمنقارها وجناحيها . فتغضب ولا تحقد وهكذا الرئيس يجدر بهِ ان يغضب احيانًا لاجل المحافظة على الرسوم ومن ثمَّ فانهُ يدافع لا كالغراب بحقدٍ وألم بل بلطف ورفق كالحمامة . هذا وان المحبة لا بدَّ لها من شيء من العزم والشدَّة لان الرئيس من كونهِ بمنزلة أمٍ وأبٍ لمروُوسيهِ دعت الحال ان يسلك بهم بين رقَّة الوالدة ورأفتها وعزم الاب وصرامته .

ألا ترى كيف ان القديس بطرس ضرب حنانيًا وسافيرا بالموت وان القديسين برنردوس واغناطيوس وسائر موُسسي الرهبانيات عاقبوا احيانًا كثيرة بعقوبات صارمة نفرًا من مروُوسيهم لم يأتوا الا زلاَّت خفيفة ؟ ان القديس بطرس داميانوس حرَّم على احد رهبانه شرب الخمر مدَّة اربعين يومًا لانهُ تفوَّه بكلمة بطَّالة . والقديسة تريزيا عاقبت إحدى راهباتها بالحبس لانها أخذت خيطًا بدون اجازة . والقديس كسفاريوس كتب الى الاب غاسيار ما يأتي: « ان اعظم ضرر يلحقه الرئيس بمروُوسيهِ ولاسيما بالمترفعين بافكارهم انَّما هو عدم توبيخهم وعدم تأديبهم حتى بالطرد من الرهبانية متى استحقوه . » لانهُ لو عفا الطبيب عن المريض ولم يستعمل لهُ القطع والكيّ عند مسيس الحاجة أتحسب ذلك رفقًا منه بالمريض ورأفة بهِ ؟ او لو صادفنا رجلًا ضعيفًا منهكًا بحمل ثقيل وأضفنا الى حملهِ حملًا آخر أيقال اننا رحمناه وخففنا حمله ؟ أفلا يجب ان يشدّد الرئيس على من لا يخاف الله ولا يخشى الناس ؟ ومن لا ينتبه الى صواعق السماء وتهديداتها ألا يقتضي ان

نستلفته اليها بعقوبات ارضية ٠

قال القديس اغوسطينوس: « لا تحسبنَّ ان السيد المسيح في رشقهِ الفريسيين بالحرم مرَّاتٍ كان يبغي ايقاعهم في اليأس او القضاء بهلاكهم كلاَّ بل انهُ تعالى رام بذلك نجاتهم من العقاب الآتي. لانهُ تقدَّست اسماؤه كان يرى ان لا بدَّ لهم من احتمال توبيخه في الحال او احتمال العذاب الدائم في العالم الآتي» (تفسير المزمور ٩٣ عد ٧)

ومن هذا المبدأ علم الآباء القديسون ان اوضح برهان لمرضاة الله على عبيده انما هو قول النبي عاموص ف ٣ : « لاني قد اخترتكم من بين جميع شعوب الارض قد افتقدتكم في معاصيكم » ٠ وبعكس ذلك ان اعظم عذابٍ يعده الله لشعبهِ انما هو في مضمون قول النبي حزقيال ١ ف ٦ : « ان غيرتي قد ارتفعت عنكم فمن الان لن اغضب عليكم ٠ » وفي قول اشعيا (ف ٢٦ عد ١٠) : « ما دام المنافق يُشفَقُ عليه لا يتعلم البرّ ٠» وهذا ما كان يجعل القديس برندس يقول: « يارب اني لا ابتغي هذه الشفقة لانها شر انتقام وما لي بها لاهي تحول دون اصلاحي وتوبتي فاني اطلب ان تغضب عليَّ يا ابا المراحم لا بالغضب الذي يخرجني عن طريق الاستقامة بل بالغضب الذي يرجعني اليها ٠ فانما غضبك هو الذي يمنّ علينا بهذا الرجوع اما اخفاؤه تحت طي السكوت فيحرمنا اياه لا محالة ٠» (عظته ٤٠)

وربَّ معترض يقول: ان الراهب الذي سلم ذاته لله عن اختيار وارتياح لا ينبغي ان نسوقه للفضيلة بعصاً من حديد ٠ ولكن ما مَثَل النذور لله تعالى الاَّ مثل الدَّين للدائن فهل يقال انهُ لا يحق للدائن ان يطلبَ ماله لان المدين عاهده على الوفاء فالراهب عند دخوله الرهبانية عاهد الله بحفظ رسومها وانما الرئيس مقام للمحافظة على هذه الرسوم ٠ فغاية مهمته وحقها هما ان يطالب مرؤوسيه بما عليهم لله بمقتضى معاهدتهم لهُ تعالى ومن ثمَّ ليس للمرؤوس ان يتشكى من رئيسهِ لانهُ يطالبه باسم الله وباسم الكنيسة بما لهما عليه من واجب العدل والضرورة وهكذا كما ان الرئيس موجب عليه ان يقدّم لمرؤوسيهِ كل ما يساعدهم في الحصول على الكمال مفروض عليه ايضاً ان يصدّهم ويحظر عليهم

كل ما يحول دون بلوغهم هذه الفريضة الرهبانية · فمن اين لنا اذاً ان نتشكى أما نبهتنا الرهبانية الى هذه الواجبات ؟ اوَ هل يخطر لنا ان نسخر بالله ونعاهده بنذورٍ هزلية كاذبة ؟

عد ٤

في ان وجوب هذه الفريضة لا يتوقف على حسن النتيجة او عدم حسنها في الحال

لانهُ يكفي ان تكون مفيدة للراهب او للجماعة في المستقبل ولعمري ان النصح او التوبيخ ولو لم يُزيلا الشر في الحال بل ولو زاداه جسامة لا ينتج من ثم وجوب بطلانهما حتى ولو كان الراهب المذنب غير مستعد لقبولهما لانه كما قال القديس اغوسطينوس : « ان مستوجب التوبيخ هو من رفض قبوله · » فيا هذا ألا تريد ان نبيّن لك نقائصك وجراح نفسك لكي ترى ضرورة الالتجاء الى مساعدة الطبيب ! وتأبى ان نُريك حال نفسك على ما هي عليهِ من شناعة الرذيلة وردائتها لكيلا تضطر لان تطلب الشفاء من امراضك فتعود الى جمالك الاول ! فمن يا ترى اجدر منك بان تعرض عليهِ كما في مرآةٍ كل جراحات نفسه وادناسها لكي تبادر الى تطهيرها وشفائها · » اه (من كتابه في التوبيخ والنعمة ف ٥) اذا لم يستفد المجرم من التوبيخ في الحال فلا يلبث ان يستفيد منه فيما بعد

ومما يجدر بالرئيس هو ان يسعى لا وراء الخير الخاص فقط بل وراء الخير العام ايضاً وان يكون توبيخه تعليماً ابوياً اكثر منه نصحاً اخوياً ومن ثم وجب ان لا يلاحظ فيهِ اصلاح المجرم اكثر من اصلاح حال الجماعة وتأييد جانب الرسوم القانونية وعليهِ فان لم يكن بهذا التوبيخ خيرٌ للمجرم فيكون خير للجماعة · ولما اخذ اوفاميوس بطريرك القسطنطينية يلح على البابا جيلاديوس بان يعفو عن اكاسيوس وان لا يتشدد عليهِ وهو في حالٍ لا يبعد عن اليأس والقنوط حباً بالسلامة وخير المذنب · فاجاب البابا : « ما هذه السلامة التي تشير اليها بان ادع الذئب بين الخراف وهل من سلامة للخراف والذئب راتع في وسطها ؟ وتقول ايضاً ان التشديد على اكاسيوس ربما يؤدي بهِ الى الهلاك · اما انا فاقول :

خيرٌ للانسانية ان يهلك الشرير من ان نطوح في خطر الهلاك الصالحين والاشرار معاً حرصاً على رضى الاشرار وخوفاً من اهانتهم · ولعمري ان من رام ان ينتشل الغريق من اللجة وجب الاّ يتورط في نفس الخطر ·» (رسالة ١ الى اوفاميوس)

ولما كان في توبيخ الواحد اصلاح الجماعة كان من البديهي ان توبيخ المجرم والاقتصاص منه لاجل خير الكثيرين افضل من السكوت عنه والشفقة عليهِ مع خطر هلاكهم وسقوط القانون ومع ذلك فقد يسوغ للرئيس ان يسكت عن التوبيخ ويعفو عن المذنب · غير ان ذلك خاصٌ في ما لو رأى ان التوبيخ في تلك الظروف ليس فقط غير مفيد للخير الخاص بل مضرٌ بهِ وبالخير العام ايضاً

عد ٥

في ان هذه الفريضة دقيقة وخطيرة الى حد ان القيام بها يضحي شديد الصعوبة وقريباً من الخطر

اننا لا نرى بين كل فرائض الرئيس كفريضة التوبيخ فانها تقضي التصرف بدهاء بين الحزم والرقة والعدل والحلم والغيرة والسهولة في وقتٍ واحد ومن ثم فان مثل فريضة التوبيخ مثل الضماد للجرح الذي يجب ان يكون في الوقت عينه مطرّياً مبرداً وقابضاً حاداً ليكون فيهِ راحة للجريح واندمالاً للجرح · فالتوبيخ اذاً يستلزم ثلاثة اشياء مرض النفس الحقيقي والخاصة القابضة في الدواء وخلوص النية في المطبب لاجل شفاء المريض · فبهذا قائمة صعوبة التوبيخ اي بان نبيّن حقيقة المرض او الجرم وان نخفف او نلطف قابضية الضماد او مرارة التوبيخ واخيراً ان نحفظ مع المجرم شواعر الرقة واللطف ونريه ان لا بغية لنا ولا مراداً الاّ خيره الخاص والجوهري

اننا نرى في طب الجسد اموراً كثيرة تساعد الطبيب كاعراض المرض التي تكون عادةً ظاهرة ومحسوسة · وشدة الالم التي تخفف مرارة الدواء · وهيام المريض في طلب الصحة ورغبته في اخذ الدواء كيفما كان طعمه · امــا في طلب النفس فنرى كل شيء تقريباً يعاكس رغبة الطبيب ويقصي آماله فان الامراض المتزايدة والمشتبكة مع غيرها هي غالباً خفية ومختبئة في عمق الصدور · فالمنو

بمرض روحي قلما يشعر بمرضه وان شعر بهِ فيستعذبه ويحبه ولذلك لا نراه يطلب الدواء بل يبذل قصارى الجهد في اجتنابه او على الاقل في تخفيف مفعوله وجوعاته . ومن ثم يضطر الطبيب لان يحتال في شفاء المريض رغماً عنه . وبعد هذا هل تتوقف واجبات الرئيس على ان يوبخ مرؤوسيه اجمالاً على بعض شوائب عمومية كلا بل هي تفرض عليه ان يوبخ الافراد على مساوئهم وشوائبهم الخصوصية وذلك لسببين . اولاً ان الرهبان لا يتخذ احدٌ منهم لنفسه التنبيهات العمومية الاَّ ما ندر ولهذا قد شبه بلوتارك التوبيخات الاجمالية بسرج ذهبية ثمينة ولكنها بلا زيت ولا ذُبالة ولا نور . والثاني ان بعض النقائص تكون بهذا المقدار خصوصية وفظيعة حتى ان الجماعة لا تتحمل نسبتها اليها ولا يمكن الاتيان بذكرها امام الجمهور بدون القاء العثار والشكوك

ليت شعري ما قولك في طبيب يدخل المستشفى ويقف في الوسط ويأخذ يُري المرضى عموماً ادوات الجراحة والعقاقير المتنوعة ويدعو كلًّا منهم الى ان ياخذ منها ما يناسبهُ ؟ فهذا عين ما يعمله الرئيس لو اكتفى بالتنبيهات الاجمالية والتوبيخات العمومية ولم يعين لكل ما يناسبه

ومن المبادي المقررة ان لا شيء اندر من توبيخٍ محكم ومقبول برضى مع ان كل توبيخ محكم بكمال ظروفه يكون متبولاً بالرضى والشكر . والراهب في آخر حياته ولو مهما كانت طويلة لو انعم النظر في التوبيخات التي عاشت عليهِ بالخير لوجدها قليلة جداً وانما ذلك من صعوبة احكامها بكمال ظروفها وصعوبة الاستعداد الحسن ايضاً لقبولها

ومع هذا كله فعلى الرئيس ان لا ييأس ولا يقنط لان ما لا يربحه اليوم يربحه غداً وان لم يتوصل في الحال الى قطع كل الرذائل يتوصل الى قطع بعضها او تخفيف جرمها . قال القديس امبروسيوس : « كما ان الندامة على خطية واحدة تفي بنوع ما من كل الخطايا هكذا التوبيخ او العقاب على زلة واحدة يكون مفيداً لحفظ النظام بالعموم ويعتبر كأنهُ تجديد اذاعة الشريعة . اه (ك ٢ عن التوبة ف ١٠)

هذا واننا لو سلمنا بان الامراض الزمنة لا تشفى الاَّ بصعوبة كبيرة ومدة

طويلة نعلم مع ذلك ان مـا من جرح مهما كان عضالاً يستحيل شفاؤه لو عولج بكل صبر بغيرة خالصة وحكمة صادقة . قال القديس باسيليوس : « الا ترى في غالب الاوقات ان فن الزراعة يغيّر حالة الشجر بنوع ان تلك التي مـا كانت تعطي الاّ اثماراً جافة وعديمة اللذة اضحت تعطي اثماراً يانعة ولذيذة . فلا يقنط الرئيس اذاً لا من صعوبة المعالجة ولا من شدة المرض ولا من ضعفه او عدم لياقته ولكن فليلاقِ كل اتكاله على قوة الله ورأفته ويقدم على العمل بصبر وشجاعة لا يعرفان الملل . اه (عظة ٥)

الفصل الثاني

في ان النصح والتوبيخ ينبغي ان يكون مؤسساً على العدل

ان العدل يقتضي امرين اولهما ان لا يكون الرئيس سريع التصديق في استماعه الشكايات على مرؤوسيه وان ينعم النظر في صحتها ولا ينقـاد الى الانفعالات النفسية التي يمكن ان تكون فيهِ ضد المشتكي منه . وثانيهما ان يكون مستنيماً في فهم الفاظ الشكاية بنسبة قوتها وفي اجراء العقاب بمقتضى الحكم بهِ :

الباب الاول

في انه يجدر بالرئيس عند استماعه الشكايات وامعانه النظر في صحتها الاَّ يكون سريع التصديق ولا منقاداً لانفعالاته النفسية :

المقالة الاولى

في كيف يمكن الرئيس الا يصدق الوشايات الكاذبة :

عد ١

في انهُ يجدر بالرئيس الاَّ يصدق الوشايات الكاذبة والاَّ يكون العوبة في ايدي الوشاة يميلون بهِ كيف شاءوا :

لا غروَ ان الرئيس مضطر لان ينبـه الى زلات الاخوة لانه بذاته لا يقدر ان يلحظ ويرى كل شيء واليهِ نوجه هذه الاية : « اتبع الحقيقة » (امثال ف٢٣) ولكن يجب الحذر من ان يبتاع الكذب ويدفع ثمنه الى الماكرين · قد جرت العادة القانونية ان يُعين في كل جمعية واحدٌ للمحافظة على النظام الخارجي وان يبلغ الاوامر والنواهي الى اصحابها وان يعرّف الرئيس بكل ما يحدث في الدير مما تهمُ معرفته · اما الراهب الذي يصلح لهذه الوظيفة فهو الذي يبغض النميمة ويكره نقل الكلام والاخبار · لان مثل هذا لا يبلّغ الرئيس الاَّ الامور التي تكون ذات بال ويغضي عن الاشياء التافهة التي يحسن بالرئيس ان يسكت عنها · او هو على الاقل يبلّغ الاشياء المشكوك بها والطفيفة كما تكون بدون مبالغة البتة وحينئذٍ يصير على الرئيس أما النظر فيها او الاغضاء عنها · فالرئيس الذي يكون لهُ منبهٌ فطن ورزين قلما ترى تحت ادارته شيئاً بغير نظام وترتيب او احداً يقدم بسهولة على فعل الشر · فيخال الجميع انهُ حاضرٌ في كل مكان وانهُ يرى غوامض الافكار لان التعليمات تأتيهِ في وقتها وهو يميز صحيحها عن فاسدها وهكذا قلما يفوته شيء مما يعنيه الوقوف عليهِ

ومن ترى ابعد الناس عن معرفة الحقيقة واشدهم عذاباً بدون طائل واقلهم صلاحية لثقة الجمهور بهِ غير الرئيس الذي تكون حاشيته من ذوي الحسد والتعنت لانهُ يصغى اليهم في كل شيء ويقبل منهم كل وشاية ويتصور كلاً من رهبانه كما يصورونه لهُ ولفرط ارتياحه الى اقاويلهم وتسليمه لمطامعهم وخبثهم يضحي في نظر الجمهور عبداً لهم او العوبةً بين ايديهم · لانه مع كونه قادراً على ان يدير شؤون مرؤوسيه برأي نفسه لا يرونه يسير خطوة الاَّ برأي حاشيته ومن ثم لا يحسبه مرؤوسوه رئيساً بالفعل بل بالاسم لا غير لانه وان كان منزهاً عن الانفعالات النفسية والاغراض الخصوصية يخضع مع ذلك خضوعاً تاماً

لانفعالات ذويه ومآربهم الفاسدة

ومن البين انهُ لا يسوغ للرئيس ان لا يسمع الاَّ لفيئةٍ واحدة من الرهبان والا يصدق الاَّ قولهم لان من لا يسمع الاَّ لفيئة واحدة ولا سيما اذا كانت مرتبطة بمصالح خاصة وغاية واحدة يضحي في آخر الامر كواحدٍ منهم يشعر شعورهم وينفعل بانفعالاتهم ولا يلبث ان يجاريهم حتى يستولي عليهِ المكر والخداع فيغادر الاستقامة ويتمسك بالظلم . ثم أليس لاهل الصلاح انفسهم زلات واوهام أما هم بشر كسائرِ الناس ؟ واذا كانوا بعداء عن النقص والخطا فليسوا مع ذلك بمعصومين . وبالنتيجة ان الرئيس الذي لا يسمع الاَّ بفيئة واحدة يكون سريع التصديق وشديد التأثر وسهل الانقياد والانخداع

قال القديس برنردوس : « ان لسرعة التصديق ثلاثة مفاعيل : الاول شدة الغضب على غير داعٍ . والثاني شجب البار . والثالث الحكم على الغائب بدون بحث ولا تنقيب وهذا ما جعله ان يكتب الى البابا تلميذه : « حذار من الرذيلة التي يتورط فيها الملوك والعظماء وهي سرعة التصديق التي تحاكي الثعلب بالتحيل والمكر بنوع انها تصطاد كبار القوم وقلما تدع احداً من الملوك ينجو من مكائدها » (من كتاب اعتباراته ك ٢ ف ١٤)

اما اسبابُ سرعة التصديق فهي عادةً اولاً كرم اخلاق الرئيس لانهُ لما كان هو مستقيماً مخلصاً يحكم في الغير بانهم كذلك . ثانياً ميل الانسان الطبيعي الى تصديق الشر . ثالثاً رذيلة الكسل التي تميل الى التصديق والجزم وتأبى معاناة البحث والتدقيق . رابعاً حب التسلط والتحكم الذي ينتهز صاحبه اول فرصة لاظهار القوة . وخامساً نذور تلك الفضيلة الثمينة التي نسميها (الافراز) او قوة التمييز بين الحق والباطل التي يأبى صاحبها ان يصدق كل شيء

ان القديس فرنسيس الاسيزي عندما اراد وهو على سرير الموت ان يبيّن لخليفته ما هي الصفات الضرورية للرئيس اشار الى هذه فقال : « ينبغي للرئيس اولاً ان لا يكون مرتاحاً الى تصديق الوشايات ولا سيما تلك التي يقدمها الفضوليون والثرثارون فيجدر بهِ اذاً ان لا يكون سهلاً بسماع الشكايات ولاسيما بتصديقها قبل ان يتأتي لهُ ان ينقب عنها ويدقق في امر حقيقتها . اه والقديس

فرنسيس بورجيا كان من عادته ان يقول ان الرئيس السريع التصديق لا يقدر ان يكتسب لنفسه الثقة اللازمة لحسن السياسة وان الافضل لهُ ان ينخدع مراتٍ عديدة في سرعة تصديقه الصلاح من ان ينخدع مرةً واحدةً في سهولة توهمه الشر . ومن البين ان المجازفة في الحكم شينٌ في الجميع الاَّ انها في من اخذوا على انفسهم سياسة الاخوة بروح المحبة والرقة افظع واسوأ عاقبة . والقديس اغناطيوس لويولا كان يأبى الحكم على الرهبان الغائبين لانهم لا يقدرون ان يدافعوا عن ذواتهم . وقد كان يعتبر احد مدبريه الاب بولانك من افضل الاباء رزانة وامساكاً عن المجازفة في الكلام ومع ذلك ما كان يصدق ما يبسطه لهُ في القول الشفاهي من احوال الامور التي كان متولياً ادارتها بل كان يطلب منه ذلك خطاً لانه كان يعتبر ان القول الشفاهي غير محسوس بالنظر ولا تمكن فيهِ الروية كما في الكتابة . ومن اجل ذلك لم يكن ليقبل شكاية او تخبيرًا هاماً الاَّ خطاً . واما الاخوة الذين كان يتأكد انهم من اهل الفتور ومياليون الى نقل الكلام والاخبار الجارحة فلم يكن يتحملهم في الدير قط حتى ولا نصف ساعة

عدد ٢

في ان الرئيس جديرٌ بان يعلم مرؤوسيه ما يجب عليهم وما يستطيعونهُ في تبليغ الاخبار وان يريهم فظاعة ذنب النميمة والثلب

ان مسألة تبليغ الشكايات ينظر فيها من وجهين : من وجه الحق العام ومن وجه الحق الخاص :

فمن وجه الحق العام نرى ان السيد المسيح نفسه قدَّس لنا الشريعة او بالحري علَّمنا المراعاة التي ينبغي حفظها بنوع ان النصح الاخوي لا يكون اولاً امام شهود بل بين الناصح والمذنب لا غير . « وان لم يسمع لك فخذ معك شاهدًا او شاهدين لكي يكون الامر مثبتاً من كلمة اثنين او ثلاثة فحينئذٍ ان لم يسمع فأشكهِ للكنيسة » . (متى ٢٨)

فلا تحسبنَّ اذًا ان امر الرب في النصح الاخوي يوجب عليك او يسوغ لك ان تبلغ الرئيس حالاً كل ما تعرفهُ عن اخيك فاذا كانت زلَّة اخيك غير معلومة

من غيرك وكنت لا ترى ثمَّ خوفاً من المراجعة ولا من سريان العادة السيئة بين الجماعة كان لك بل عليك ان تنصح اخاك سرًّا بينك وبينه اما اذا رأيت ان النصح السرّي غير كافٍ اما لكونك قد استعملته ولم يأتِ بجدوى واما لكونك ترى من المحتمل ان اخاك مستعدٌّ لمعاودة سوء عمله واما لكون عمله هذا صار معلوماً عند كثيرين او هو جدير بتوبيخ شديد فحينئذٍ يسوغ لك او يجب عليك ان تشكوه الى الرئيس . وعند الريب في ما تقدم عليك ان تستشير أُناساً من ذوي العلم والورع . قد اثبت القديس توما ان رسم السيد المسيح في امر النصح الاخوي لا يلزم العلمانيين فقط بل القانونيين ايضاً وان الرئيس يذنب فيما لو امر رهبانه بان يبلغوه حالاً كل ما يعرفونه بدون استثناء ولا تمييز . وان المرؤوسين كذلك يذنبون لو أطاعوا الرئيس في هذا الامر . (س ٣ في النصح الاخوي ف ١) ويقول ايضاً هذا القديس العلّامة ان المرؤوس لا ينبغي ان يبلغ رئيسه ما عنده على احد الاخوة ما لم يرَ فيهِ الرصانة والفطنة التي تجعله اهلًا لاصلاح الاخ المذنب . (المحل نفسه ف ١ ج ١) . والقاعدة العمومية لذلك هي ان المشتكي او الناصح يجب ان يراعي جانب المشكو منه بنوع ان يتوصل الى نصحهِ واصلاحه من دون ان يلحق بصيتهِ ضررًا ولا ان يمس حاساته اذا امكن . وهذا ما عناه السيد المسيح في امره بان النصح السرّي يسبق التبليغ او الشكوى الى الكنيسة اعني ذوي السلطان . وهذا ما فهمه المدققون من مؤسسي الرهبانيات . غير ان ذلك كما لاحظ القديس فرنسيس سالس يختص بالنقائص الكبيرة التي تشين صيت صاحبها ولا بالهفوات الصغيرة التي يمكن تبليغها الى الرئيس بدون محذور او ضرر

ومع هذا فان علماء الحق القانوني يستثنون من هذه القاعدة العامة ما اذا كان الرئيس العام نفسه او معتمدٌ من قِبله وفد على الدير بداعي الزيارة الرسمية فعند ذلك يمكن لكل من المرؤوسين ان يبلغ الرئيس العام او الزائر من قِبله ما يكون عنده على احد الاخوة ولو كان في ذلك بعض الضرر على المذنب لان مثل هذه الزيارة تعتبر ابويّة اكثر منها قضائية ومن ثمَّ فلا يخشى على المذنب ان يصادف فيها ضررًا بل يرجى منها نفع لهُ وللجماعة .

اما من وجه الحق الخاص في بعض الرهبانيات التي يترك كل واحد من افرادها

عند دخوله فيها حقه بالنصح السري اولاً ثم على يد شاهدين او ثلاثة فلكل من الرهبان اذا كان عنده على اخيه شيء ان يبلغه الى الرئيس بدون مراعاة حاسأته هذا اذا لم يكن ثمَّ شريعة طبيعية او عهدية تمنع ذلك . غير ان الفريضة القانونية لا توجب التبليغ بل تجيزه مع مراعاة مبادىء الفطنة والمحبة الاَّ اذا كان النصح السرّي لم يأتِ بنتيجة . ولا يخفى ان من ساغ له ان يعمل شيئاً لا يجب عليه عمله من باب الضرورة ولا يعفى احد من مراعاة شريعة الفطنة لان ليس كل ما يجوز لائقاً وموافقاً كما نبه الرسول فلو رأيت مثلاً ان الرئيس غير متصف بالفطنة والسداد والمحبة وان المذنب الذي تشكوه اليهِ يتضرر ضرراً اعظم من الخير المأمول للجماعة ألا تردعك الفطنة عن ان تشكوه واذا شكوته مع ذلك ألا ترى انك اتيت عملاً يغاير روح القانون ورغبة المشترع ؟ . امَّا النمامون اذا وُجدوا بين الجماعة فيستحقون اعظم لوم وعقاب . قال بوفيس (مكتوب ٧) : « ان من نمَّ عن خبثٍ ورداءة لا نجد لوماً ولا عقاباً يوازي ذنبه . ومن نمَّ عن خفةٍ وقلة رويَّة فذنبه لا يُغفر بدون توبيخ شديد . اه » وبدون هذه الصرامة يخشى من فتح باب واسع لسقوط القانون والنظام الرهباني . ان القديس فرنسيس الاسيزي عندما علم ان احد الرهبان وشى باخيهِ الى نائب الرئيس ارسل معتمداً من قِبله قال له : « اذهب الى الدير وتفحص المسألة فان وجدت المشكوّ باراً فانزل بالمشتكي عقاباً صارماً يشهره بأعين جميع الرهبان لان الرهبانية تكون في خطر ورائحة فضائل الاخوة تزول وتفنى ان لم تُسدّ الافواه السامَّة فانا أُريد ان تبذل كل جهد وعناية في قطع هذا المرض الوبائي لئلاً يتفشى . والراهب الذي يكون قد فضح صيت اخيه يستحق ان يُنزع . واسمع ما يقوله الروح القدس بهذا الشأن (امثال ٦) « ستة يبغضها الرب والسابع رجس عندي . . . . وهو ملقي الشقاق بين الاخوة » وقال ايضاً (ف ٢٦) : « بانقطاع الحطب تنطفيء النار وبزوال النمَّام يسكن النزاع . » وكذلك قال ابن سيراخ (٢٨) : « ان الرجل الخاطيء يبلبل الاصدقاء ويلقي الشقاق بين المسالمين . . . النمَّام وذو اللسانين اهلٌ للعنة لاهلاكهما كثيرين من اهل المسالمة . »

عد ٣

في انهُ على الرئيس ان يبذل قصارى الجهد في تمييز الصحيح عن الفاسد من الشكايات المقدمة لهُ وفي معرفة خلوص الشاكين واستقامتهم

اعلم انهُ لمَّا كان الطبع البشري قابلًا للانخداع وكان على الرئيس ان يتفحص أُمور مرؤُوسيه ويقف على حقيقتها لزمهُ ان لا يسرع في الحكم بالامور ولاسيما اذا كانت هامَّة حذرًا من انه يشجب احدًا من دون سبب او يتبين ان نتيجة تنقيبه لم تكن الاَّ الانخداع

أوَّل فرض على الرئيس هو ان لا يعير الشكايات اذن التصديق بسهولة . ولا شك بانه خير لهُ في هذا الموضوع ان يخطى بالنقص من ان يخطي بالزيادة . فالاولى به اذًا ان تفوته معرفة بعض الزلاَّت من ان ينخدع للوشايات الباطلة ويفتح سبيلًا لكثرة المعاريض والشكايات . قالَ ابن سيراخ (ف١٩) : « من اسرع التصديق هو ضعيف العقل ولا تصدق كل كلام . » وقال ايضاً (٤٢) : « ومتى قسَّمت فبالعدد والوزن » وبالنتيجة اسمع كل شيء ولا تصدق الا ما ينبغي تصديقه . فضع الكلام في ميزان العدل ولا تصدق قول أيٍ كان . قال الحكيم (امثال ١٤) : « ان الساذج يصدق اما الحكيم فيتفحص طرقه » وقال ايضاً : « اذا كان السلطان يصغي الى كلام الكذب كان الخادمون لهُ كلهم منافقين (١٩ : ١٢) وبعدُ أليس يُعرف الانسان من النظر الى اهل ثقته . قال الحكيم : « ان المنافق يصغي للسان المنافق والخدَّاع يسمع للشفاه الخادعة » (امثال ١٧) وعلى هذا فان استقامة القلب ورصانة الحكم تعرفان بعدم سرعة التصديق لانه لما كان الناس يكذبون عادةً كان من الواجب ألاَّ نصدق الا بحجج قاطعة وظروف خارقة العادة . ان تصديق كل شيء وعدم تصديق شيء بالاطلاق هما طرفان متناقضان بينهما طريقة وسطى ذات حكمة وسداد ألا وهي ان تسمع ولا تصدق الاَّ ما كان مثبتاً او معقولاً .

والفرض الثاني على الرئيس هو ان يسعى بذاتهِ لاستطلاع الحقائق . الا انه يضطر بذلك لان يعرف اولاً اخلاق المخبر او الشاكي ومرامه ونيَّاته لان التخبير

والبلاغ يشبهان الماء المار في قلب الارض فانه يتكيف من المعادن التي يمر عليها .

وكثيرًا ما ينخدع الروَساء بتصورهم الرهبان عارين من الاميال البشريَّة ومحبة الذات لكونهم كرسوا ذواتهم لله واختصوا بهِ او لان عليهم شعار بعض السلطان لان طبيعتنا تبقى مع كل هذا بشريَّة وضعيفة ففي العالم ترى اهل السعاية يسعون في الخفاء ولا يريدون ان يروا من يسعون بهِ ويطلبون ان يُتخذ كلامهم وكلام نصرائهم بمنزلة الصدق الذي لا يفتقر الى شهادة او برهان ويشورون باستعمال القسوة واظهار قوة السلطان باسرع وقت ويسألون الوالي ان يحافظ على سرّهم كل المحافظة ويستعملون في وشاياتهم الفاظًا مبهمة وذات معان متباينة ليمكنهم عند مسيس الحاجة ان يتمحلوا لها تفاسير غير مقصودة ويتخلصوا من المسؤولية. ولكي يبعدوا عنهم كل مظنة وشبهة يختارون لوشاياتهم اوقاتًا وظروفًا موافقة ويبذلون قصارى الجهد في ان يقصوا الموشي بهِ عن مقابلة الحاكم لئلَّا تتسنى لهُ تبرئة نفسه واذا اعيا على احدهم البرهان المطلوب يُعزي عيَّه الى سذاجتهِ وقلة خبرته ويؤكد بالقسم ان لا محرِّك لهُ الى هذه الشكوى سوى الغيرة الخالصة والذب عن العدالة والراحة العمومية . فطورًا يظهر الوداعة والرقة ويكثر من التبجيل والتملق والشفقة على المذنب المسكين راثيًا لضعف الطبيعة وفسادها ليبين للحاكم انهُ لا يقول في المذنب كل ما يعلم رزانةً منه واشفاقًا وطورًا يأتي الحاكم بشيء من الغلظة والقحة متوعدًا متهددًا ومستنصرًا باصحاب الحاكم ونصرائه كأنه يستنهض همتهم لانقاذ المملكة من فساد ذاك المسكين ضحية بغضه وعدوانه .

ولو تسامح الروَساء بتصديق الوشايات لحدث في الرهبنة مثل ما يحدث في العالم من السعاية والمكر . والسعاة على ما لحظ الاب بوفيس في تحريره السابع يكونون عادةً من ذوي العقول الصغيرة الذين يقتلهم الحرف كما يقول الرسول وينتفخون لادعائهم بالمعارف ويعتبرون دثار القانون في ما بهِ قيامه وقوامه هذا ومن جرَّاء قصر افكارهم يحلون الظواهر محل الحقيقة ويرون في الضوضاء والغوغاء حجةً قاطعة لمدعياتهم . ومن اساليب سياستهم انهم يستخدمون المداهنة والتمليق لمراضاة الرئيس ويعملون بكل مكر ودهاء لكي يتخلصوا من كل

مراقبة ومناظرة وفوق هذا فان شهواتهم المتغلبة تميل بهم الى الحسد والحقد وحب الذات المفرط اما طباعهم الجموحة فتحملهم على المبالغة في كل ما يقولون والافساد بكل ما يعملون فيسكبون في قالب جديد كل الحوادث والظروف ويجعلونها علي وفاقٍ مع هواهم ومشربهم وكأنهم يقيمون بنايات عظيمة من الاوهام التي لا تمازجها ذرة من الحقيقة ·

فبمثل هذه الحوادث ينبغي للرئيس ان يعمل بكل جهده لمعرفة الناس ودرس اخلاقهم فيقابل الراهب المشكو بالشاكي وينظر في علاقات الشاكي وبما يدفعه الى اثبات شكواه وينقّب عمن ارسله وعلّمه وعمن يكون له جرّ مغنم من هذه الشكوى وينعم النظر ايضاً بحذق الشاكي وباميإله الطبيعية ومعارفه وبعد ذلك فليميز عما لا يكون في العريضة الاّ حشوًا أوَ شيئاً من ضروب الفصاحة ما يكون فيهِ الجوهر والبرهان · وبعد اطراح الاول وامعان النظر في الثاني فاذا لم يجد فيهِ الاّ تقديرات او ظنوناً فارغة او امورًا ليس فيها شبه للحقيقة يجدر بهِ اذ ذاك ان يوجه اللوم الى الشاكي ويمتدح من المشكو الذي لو لم يكن من ذوي الفضل والفضيلة لما تحامل الحاسدون عليهِ والمنافق لا يمكنه ان يتحمل الفضيلة في غيره وهو خلوّ منها :

اما اذا كانت الوشاية من راهب شيخ ورصين فيجب ان يعيرها الرئيس اذن الاعتبار ولكن لا يصدقها بغير تدقيق · وان وجدت بعد الفحص غير صحيحة فليظهر لهُ افكه بلا محاباة

وعلى الرئيس ايضاً ان يضع ذاته موضع المشكو ليرى باي عدل وصرامة كان يجب ان يعامل الشاكي الماكر ولا يقبل التهمات والظنون لانها لو كانت مقولة عليهِ لحسبها مظلمةً وانتقاماً وبالنتيجة لا ينبغي ان يرتاب بمرؤوسه وينسب اليهِ الخيانة لمجرد شكايات غير ثابتة بل لا تعزى الى احقر الناس على وجه الحدس والتخمين

واذا كانت الشكايات متقدمة من راهب شاب فوان لحظ الرئيس فيها الحقيقة او بعضها فيجدر بهِ ان يصرف الشاب برفق و بشاشة من دون ان يظهر الاعتبار لشكاياته ولا الاهتمام بها لكي يردعه ويثنيه عن هذه الطريق الوعرة ·

واذا لحظنا في الوشايات شيئاً من المبالغة فنقول لمقدمها باديء بدء اننا نتروى بالمسألة ونجري ما يكون الاحسن واذا ما التقينا بعد زمان بالشاكي نقول لهُ بلطف و بشاشة : يا صاح اننا لم نجد الامر كما توهمناه اولاً مبينين لهُ بذلك كذبه واحتياله . واذا كانت الشكاية على راهب شيخ ورصين فينبغي ان لا يتساهل الرئيس بسماعها لان حياة الشيخ الفاضل الماضية من شأنها ان تشفع بهِ وتنفي عنه الترهات والظنون الباطلة

واذا اتاك احد مرؤوسيك يكشف ضميره و يشكو لك بعض اموره فاسمع لهُ باناةٍ وصبرٍ لان الراهب ان لم يسمع لهُ رئيسه فالى من يمضي و يشكو امره . ولك مع ذلك ان تنظر في حقيقة شكواه . اما اذا حاولت رفع الاوهام والظنون من فكره فاحذر من ان تفتح لهُ سبيلًا لتشكايات جديدة

وشكوى الشريك على شريكهِ تستلزم اهمية خصوصية ومع ذلك فالرئيس من حيث التزامه بالمحافظة على السلامة ينبغي لهُ ان يجاوب الشاكي بقولهِ لو أتى شريكك وأقرَّ مثل اقرارك لقوبل بالمحبة والصفح . وبعدُ فما اجدرك أيها الرئيس في كل حادث ولو عظيماً بان لا تظهر للشاكي ولا لغيره ما تعرفه او تفتكر بهِ بحق المشكو منه بل عليك ان لا تبدي اقل دلالة على انك مستاء منه او متحامل عليهِ لان مثل هذه المظاهرات لا يمكن ان تخفى على المشكو منه مهما بالغت في كتمانها واذا ما بلغت اليه فلا ريب بانه يفقد كل ثقة بك . والشاكي كذلك لانهُ يقول في نفسهِ اني ان لم اثبت ما شكوت بهِ اخي فاعاقب بمثل هذه الصرامة . وان لم ترَ ضرورة ماسة الى ابعاد احد الرهبان عمن عساه يكون سبباً لعثاره فلا ينبغي ان يطلع المشكو منه على شيء مما عندك من الوهم أو سوء الظن في حقهِ بل عليك ان تبذل الجهد في تبرئته اذا امكن لان بذلك بنيان الشاكي وتعزية المشكو منه الذي لا بد ان يعلم يوماً ما كل ما كان في حقهِ واذا مست الحاجة للفحص عمَّا عرض لك فاياك ان تستخدم لذلك الشاكي نفسه مهما ظهر لك انه مستقيم ونزيه وكذلك لو كلفت كثيرين النظر في امر ما فلا تدع احداً منهم يعلم ان لهُ في ذلك شركاء .

وان حدث ذنب من احد الرهبان في الخارج فلا تسائل الاجانب عن ذلك

بل استطلع الحقيقة بواسطة احدهم الذي يمكنه ان يقف على الحقيقة بسهولة وبدون ان يظهر انهُ مهتمٌ بذلك. ومما لا يشوبه ريب ان الرئيس الذي يكثر التساءل والتنقيب داخل الدير او خارجه عمن قال هذا او فعل هذا او شعر بهذا فانه يضر بصيت جماعته ويخفض بشأنه عند من يسألهم مثل هذه السؤالات وبالاكثر عند من يسأل عنهم .

وبالنتيجة كلما كان الرئيس متنزهاً ومترفعاً عن الظنون والاوهام الباطلة بحق مرؤوسيه كانوا لهُ محبين وبهِ واثقين ومنه قريبين واوقفوه على كل ما يهمهُ الوقوف عليه من احوالهم الباطنة والخارجة .

الجزء الثاني

في كيف يجب على الرئيس ان يحذر امياله الخصوصية

عد ١

في انهُ يجب على الرئيس ان يدقق في ما اذا كان فيه بعض الاميال المنحرفة التي تؤثر بعقله واحكامه من دون ان يشعر بذلك

انه لما كانت الرئاسة مسلمة للرئيس لاجل خير الجماعة لا لاجل خيره الخاص فكان الرئيس مذنباً اشد الذنب ضد العدل لو استخدمها لاجل مرغوباته وامياله الخاصة زاعماً انهُ بذلك يخدم الحق ومجد الله . وهكذا على الرئيس ان ينتبه الى قوة شهواته السرية لئلا تستولي عليهِ فتميل بهِ حيث مالت وهذه الشهوات والاميال المنحرفة هي اولاً الكبرياء . فالمتكبر يجتهد باذلال مرؤوسيه لكي يتعظم هو وينزع عن راس اخيه الاكليل لكي يضعهُ على رأسه ويعتبر ان التنبيه الاخوي أو التوبيخ مفروض لاجل تعظيم نفسه ومجده الخاص ويعتقد ان صلاحه قائم بفساد مرؤوسيه أو كأنهُ كلما عابهم واشهرِ نقائصهم اخفى جراح عيوبه أو اشفاها

ثانياً الحسد فان الحسود يسر بالوشاية بخصمه لاعتقاده ان تشنيع صيت

الخصم يكون له شأناً وخيراً لمستقبله . والحسود اذا كان جباناً فيكتفي بالظنون والاوهام الباطلة أو جسوراً فيختلق اكاذيب شتى وان وقحاً فيتوصل الى الخصام والمنازعة

ثالثاً الغضب . قال القديس غريغوريوس ان ذوي الاخلاق الفظة يحملهم الغضب احياناً على نوع من الجنون فيصوبون اعمالاً لا تنطبق على العقل ولا على الصواب ويلقون بين مرؤوسيهم القلق والشغب عوض الراحة والسكينة . وعند فورة الغضب لا يشعرون بما يعملون ولا يبالون بالسجس الذي يلقونه بين الاخوة . وما هو شر من كل مـا تقدم انهم يتصورون حدة الغضب من دواعي الغيرة على البر والعدل

وبما انهم يعتبرون اعمال الرذيلة كفضيلة يكثرون من العيوب والنقائص ولا يشعرون » (الراعي ق٣ ف ١٧)

رابعاً عدم الثقة اذا كان الرئيس قليل الثقة فلا يرى في احد من مرؤوسيه فضيلة راهنة لان خير الاعمال وبرها تضحي لديه باطلة او مشكوكاً بها . ولمزيد خوفه من الانخداع بالظواهر يصعب عليه ان يثق بالحقيقة مهما كانت بيّنة ويخال انه بجذقه يرى الامور غير المنظورة ومن ثم تطمح به نفســه الى ادراك خفيات الضمائر وهو لا يدرك الا الترهات والظنون الباطلة في مرؤوسيه وفي جميع الذين يعاملونه حتى انهُ لو جازاه احد خيراً بدل خير يظن ان وراء ذلك بعض الاغراض المنحرفة واذا لحظ ان بعض اخوانه او اصحابه يحسنون الظن بالناس يستهزيء بهم ولا يعد ذلك منهم الا سذاجة ويرى ذاته يفوقهم كثيراً بالذكاء والادراك بمجرد كونه كنوداً لا يحسن الظن باحد :

خامساً من اساء الظن في الناس يضحى كالاحمق لا يدري شيئاً بعلله الحقيقية «لان الاحمق لا يسمع كلام الحكيم» (امثال ٢٨) بل يسمع كلام قلبله فالرئيس اذا ما سبق واساء الظن بك لا يقدر ان يصدقك بشيء . لان قلبه المفعم من هذه الظنون لا يبقى فيه مثوى للحقيقة كيفما حاولت الدخول اليه ومن ثم تراه ينكر عليك ما يستصوبه في غيرك ومـا كان يعظمه بالامس تعظيماً يحتقره اليوم اي احتقار . واذا اذنبت امامه بشيء يراك مذنباً ملوماً في كل اعمالك واذا سقطت

مرة واحدة ييأس من قيامك ويعتقد انك فاســد السيرة والسريرة وغير قابل الاصلاح وكما ان هذه الظنون هي مغائرة العدل وذات خطر في نتائجهــا هي كذلك باطلة وخداعة في مبداها لان مبداها في المذنب يكون اما نقصاً طبيعياً واماً ذنباً اختيارياً فان كان الاول فلا يوجب على المرؤوس ذنباً بل بالحري يجعله جديراً بالشفقة والحنان وهو كاف لمذلته وان الثاني فمهما كان الذنب عظيماً لا يمنع كون المرؤوس فاعله لم يزل ابناً لله وعضواً من اعضاء السيد المسيح :

فالرئيس اذا ما لاحظ في مرؤوسه هاتين الصفتين كيف يمكنه ان يحقد عليهِ او يقنط من اصلاحه :

فليحذرن الرئيس اذاً هذه الظنون السيئة ويبذل قصارى الجهد بتبديدها وبان يتباعد عمن يريدون ان يوعبوا افكاره منها والاَّ فقلما يأتي بعمل غير معيب . اما اذا كان عقل الرئيس صافياً هادئاً فيشبه المرآة الصقيلة بنوع ان كل ما يبلغه من اقوال مرؤوسيه او افعالهم ينطبع فيهِ كما هو بدون زيادة ولا نقصان :

فاذا شئت ان لا يكون لاميالك وسابق ظنونك تأثيرٌ في اعمال سياستك ينبغي لك ان تتروى لهذين الامرين وهما : اولاً قوله تعالى بلسان داود النبي « اني ادين الابرار » (مز ٧٤)وثانياً قوله . بفم ابن سيراخ : « افهم ما عند قريبك مما عندك » (٣١) او حاكم قريبك كما تريد انت تحاكم : وهذان الامران يبعدانك عن روح حب الذات ويدخلانك في روح الرب القاضي الاسمى وبذلك تضحي نياتك واحكامك مستقيمة بارةً نقية لا يشوبها كدر الاهواء المنحرفة :

عد ٢

في انهُ يجب على الرئيس ان يطرح عنه كل تأثير من الاهانات التي تكون قد أُلحقت بهِ قبل تبوئهِ الرئاسة

اي خجل لا يلحق بالرئيس واي خيانة لا تعزى اليهِ اذا ما القى جانباً واجبات مهمته التي هي خير مرؤوسيه ومصلحتهم العامــة واخذ يستعمل كل سلطانه للانتقام من اولئك الذين يكونون قد وبخوه او عنفوه في ما مضى فانه ولو ساغ لهُ شرعاً الاقتصاص من الذين اذنبوا بحقه غير ان بذلك طريقــاً قريبة الخطر

وسريعة الزلق فيخشى على السائر فيها من انهُ عوض سعيه وراء القانون والصواب ينقاد لهوى الطبيعة الفاسدة فتميل بهِ الى اخذ الثأر والانتقام

قال القديس غريغوريوس ان الهرج والشغب اللذين يحدثان في الجمعيات الرهبانية يكونان في الغالب موجهين ضد ذوي السلطان وكثيرًا ما يفضيان بمثيريهما الى مجاوزة حدود الفطنة والعقل بنوع انهُ يخال من بيدهم الحل والعقد ان الاقتصاص والانتقام ايضاً ضروريان لحفظ النظام وشأن السلطان وانهما شيء غير محرم هذا ولولا قوة النعمة لكانت الفظاظة والغضب يلازمان السلطة ولا ينفكان عنها باكثر اعمالها كما يحدث لكثيرين من اولي السلطان

اما القديسون فقد انتصروا على هذه الاميال الطبيعية اي انتصار وتملكت فيهم فضيلة الصبر وقد ثبت انهم لم يقوموا في الظاهر بواجبات السلطان احسن قيام الاَّ عند ما كانوا يرون انهم سامعون في الباطن وخاضعون لصوت النعمة ثم انهم خوفاً من المغالاة ومجاوزة حدود الصواب في الاقتصاص من المذنبين اليهم كانوا يرغبون دائماً في الصفح عنهم وعدم المبالاة بالحقوق الشخصية وكان من يشاهد اعمالهم هذه يقول كأن قحة المتمردين وتطاولهم عليهم تزيدانهم رفقاً ورقةً » (اداب ك ٢٠ ف ٢١)

والقديس ايزيدوروس من بيلوز كتب الى احد الاساقفة قال : « انهُ ليس لغير داعٍ قال الروح القدس « لا تكن صديقاً (او عادلاً) بافراط » (جا ١٧) فمن جهتي اريد حلمك ان يفوق عدلك ولا سيما في ما يختص بالاهانة المتحقة بك من اخصامك وان تكون سموحاً حتى في النقائص التي تظهر لك انها لا تستحق المسامحة (ك ٣ رسالة ١٣١) والكردينال كزيمين قال في ساعة موته : « ان ضميره يشهد لهُ انهُ في مدة حياته الطويلة التي كان فيها وزيرًا لم يتجاوز حدود العدل والاستقامة في فرض العقوبات ومنح الانعامات لانـهُ لم يعتبر احدًا قط كعدوٍ الا اعداء المملكة والمصلحة العمومية

وموسى كليم الله عندما رأى انهُ موسع عارًا واهانات من الشعب الذي كان أدى اليهِ اعظم الخدم لم يغضب بل اسرع واختباء في المظلة لكي يصلي ويتضرع من اجل هذا الشعب الخائن ويقدم حياته لله فداءً عنهم · وعلى هذا فقبل ان

تميل نفسك الى جهة ما وتقطع بحكم بات توقف قليلاً واسبر قلبك لعل فيه بعض الاميال التي تضاد العدل او انهُ لم يزل مضطرباً بحركات الغضب او لم تزل نفسك فاقدة السكون والراحة في حين الغضب. فاعلم ان العدل والمحبة يوجبان عليك ان تكف عن العمل في حين احتداد الغضب وتنتظر الوقت الملائم وهذه هي الواسطة الوحيدة التي تخلصك من العواقب الوخيمة وتوليك الفضل والسمعة الشريفة. ولو سار الرئيس بدون هذا التحفظ والاحتراز لكان سيره سير اعمى فيقع في ورطات كثيرة ويتصور الاوهام حقائق وبقدر ما يكون غيوراً على شرفه وحقوقه الخاصة يسد اذنيه ولا يسمع لمن يريد ان يبيّن لهُ حقيقة الواقع ولا لمن يحتج عن نفسه من المرؤوسين. ومن جراء ذلك لا تراه الاَّ ملتحفاً بسمات الكدر والنفور. ولو تظاهر انهُ لا يعاقب احدًا من اخصامه الاَّ محافظة على العدل والبر فهو في الحقيقة لا يبتغي الاَّ التشفي ولذة الانتقام. فللتحرز من هذه الشائبة كان تسيباريوس قيصر يؤَجل قضاء احكامه الهامة الى ما بعد عشرة ايام. والملك توادسيوس كان يؤَجلها ثلاثين يوماً :

ومما يجدر بالرئيس ايضاً ان يضاعف محبته ورأفته الذين يكونون قد اهانوه في ما سلف وان يحسن اليهم في كل فرصة وان يثني عليهم ويدافع عنهم وان لا يظهر شيئاً من الانفعالات التي يشعر بها من سوء اعمالهم. وذلك اولاً فراراً من معاملتهم بشيء يضاد العدل او بما تشتم منه رائحة الانتقام بحجة المحافظة على السلطان وكبح التمرد والعصيان :

وثانياً لاجل بنيان الاخوة اذ يعلمهم ان بذلك يقابلوا الشر بالخير بموجب تعليم الرسول واخيرًا لكي يربح لله نفوس المذنبين : قال العاهل سيجسمون : «اني اذا ما صفحت عن عدوي قتلتهُ واذا رفعت مقامه جعلته صاحباً لي». هذا واذا ما ظهر من الرئيس شيء من الحدة والغضب فيوقن الناظرون ان الرئيس هو المذنب وليس المرؤوس وانما يريد باحتدامه ستر قبائحه لا غير اذ انهُ من المبادي المقررة ان البرارة لا تخشى غائلة عملها للبرور ولا تتجسس لامر مهما كان. ولنا في نهاية هذا الفصل ان نذكر ثلاث نصائح قالها احد المعلمين الافاضل لتلميذه ابن الملك وهي .

١ً حذارِ من ان تعامل احداً معاملة عدو بل عامل الجميع كاصحاب واصدقاء. فان كانوا كذلك عدلت في صنيعك والاَّ تكون عملت عمل حكيم فطن لانك قد تكتسبهم بذلك وتجعلهم لك اصدقاء

٢ً تحرَّ في احكامك مراعاة جانب اخصامك واياك التحامل عليهم او على الاقل توقف عن الحكم بشجبهم الى ان يتضح لك انهم اهل للشجب والخذلان. واعلم انك في محاكمة اصحابك ينبغي لك ان تعتبرهم كانهم غير اصحاب ولا خصوم واما في محاكمة الخصوم فيجدر بك ان تحسبهم اصحاباً واصدقاء

٣ً احسب نفسك كاحد افراد تبعتك وعامل كلاً منهم كما تود ان تُعامل انت لو كنت في مقامهِ فدافع عن الغائبين وعن كل من وقع عليهِ شكوى وبذلك تربح قلوب مبغضيك لا محالة

الفصل الثاني

في انهُ على الرئيس ان يتحرى الحقيقة في ما يُشكى بهِ مرؤوسهِ وان يكون عادلاً في اجراء الحكم عليهِ :

اولاً في الحقيقة التي يجب على الرئيس ان يتحراها في ما يُشكى بهِ مرؤوسه

عد ١

في ان تحري الحقيقة يوجب على الرئيس ان لا يعتبر الشكوى المشكوك بها كحقيقة ولا الحقيقة كانها مفعولة بسوء نية

ان التوبيخ يلحق بالمذنب اشد عار وخجل ولذلك تراه يبذل قصارى الجهد في تبرئة نفسه فلنهُ يزن كلام الرئيس وكل حركة من حركاته ويتدبرها من كل وجه علَّهُ يجد بذلك ما يزكي بهِ نفسه ويخطّي الرئيس الذي لا يرفق بحاله . فاذا اتفق انك نسبت اليهِ زلةً وكان بريئاً منها فيدعي حينئذٍ البرارة في سائر اعماله وينسب اليك اختلاق التهمات الفارغة عن حسد او عدوان . ومن الثابت ان مثل

هذا الادعاء ولو كان باطلًا يصادف اذاناً صاغية واعية – لما كان عليك ايها الرئيس ان تتحاشى كل مــا يمكن ان يُعزى اليك من التعصب والتعرض وان تظهر ان لك رغبة خاصة بالمحاماة عن مرؤوسك المذنب حتى ولو كان جرمه بيناً يجدر بك بالاحرى ان لا تفوه بكلمة ولا تأتي بعمل يدل على تصديقك الوشايات التي لم تقدم عليه الاَّ بطريق الظن والتخمين . والاَّ كان لهُ سبيل الى ان يرتاب بخلوصك وانصافك . فخاطبه اذًا في هذه الحوادث كانك غير مصدق شيئاً منها ولكنك مجبرٌ من قبل مهمتك على ان تسمع وتسأل وبيّن لهُ ان اعتبــارك اياه باقٍ كما كان وانك تحبه محبةً خالصة ولهذا تريد ان تفتح لهُ قلبك وتوقفه على ما
٧ يقال فيهِ لتعرف ماذا تجيب عنه

الاَّ انهُ في بعض الحوادث قد يسوغ للرئيس مراعاةً لخير المشكو منهُ او لخير الجماعة ان ينتقص من المرؤوس عن ذنوبٍ غير ثابتة ولكن لا ينبغي ان يكون ذلك باحكام رسمية . لان الظنون منها باطلة وهي الناجمة عن حسد النامين . ومنها غير باطلة وهي المتأتية عن محبة الرؤساء المخلصين . فقد يسوغ للاب ان يسيء الظن بولده ولكن ليس لهُ ان ينمَّ بهِ بل عليهِ ان يرغب في ان يكون مخدوعاً بسوء ظنهِ لان كل من اساءَ الظن عن داعٍ لا عن خبث نية ورداْة فانهُ اذا عرف اخيرًا أن ظنهُ كان بغير محله يفرح فرحاً قلبيًّا وهذا ما يقتضيهِ العدل والصواب

هذا وكلما امتاز الراهب بالفضل وحفظ القوانين وجب على الرؤســاء ان يحسنوا الظن فيهِ وان لا يتساهلوا بقبول الشكايات عليهِ . اما اذا كانت الشكاية ذات بالٍ او تكررت المعاريض بهــا مرات فيمكن الرئيس ان يسأله عن ذلك بوجه غير رسمي اذ يقول لهُ يا صاح انت تعلم كثرة الاقاويل وان افضل الناس يُحكى عليهم ولا بأس بذلك اذ لا يصح الاَّ الصحيح وقد بلغني عنك كذا وكذا فارجو ان تفيدني الحقيقــة لاعرف كيف اجيب عنك لو بلغني ذلك مرةً أخرى . وبالاجمال لا ينبغي للرئيس ان يخاطب مرؤوسيه بشيء ممــا ذكر قبل تأكيده الحادث والاَّ فيحسب المرؤوس رئيسه من اهل الخفة سيء الظن سريع التصديق

ثم انهُ لو تأكد صحة الشكوى لا ينبغي ان يحكم على المذنب بسوء النية غير انه يسوغ لهُ احياناً أن يسألهُ سؤال مرتاب يحب الوقوف على الحقيقة فيقول لهُ مثلاً : يا صاح قد احكيت كذا او عملت كذا وهـذا ثابت ... ولكني ارجو منك ان تفيدني عن قصدك بذلك وماذا تريد بهِ فقد فسروا نيتك بكذا وكذا وانا لم اصدق شيئاً بل اريد ان اسمع من فمك الحقيقة الخ .... فارجو ان تفيدني عمَّا عندك

قال القديس برنردوس يجب على الراعي الا يكون متوانياً بمراقبتهِ سيرة رعيتهِ الخارجة . امـا في تفسير النيات الباطنة فينبغي ان يكون حسن الظن ورحيماً للغاية (الى الاباء في المجمع العام)

وعليهِ فوان كان الحادث بعض الاحيان يسهّل سوء الظن والريبـة الاَّ انهُ لا يسوغ الحكم الجازم بذلك لانهُ لا شيء خفي على الحس وقابل التفسير مثل النية فان لم يُعامل المرؤُوس بمثل هذه المعاملة يرفض كل ما يُعزى اليـهِ ويحتج على مفسري نيته الباطنة بقولهِ لماذا تنسبون اليَّ هذا الغرض الرديء ولا ترون ان تعتبروا فيَّ الصلاح او على الاقل النزاهة عن الشر انما ذلك لانكم لا تحسنون بي الظن وهذا لعمر الحق بغض وتحامل

عدد ٢

في ان الانصاف والصواب يقضيان بان لا يُستنتج من الشكايات المقدمة على المرؤُوس الاَّ ما تتضمنه بالحصر والتدقيق من دون ادنى مبالغة او مغالطة

فلو قيل للمشكو اننا رأيناك وسمعناك مراتٍ عديدة تقول او تفعل هذا مع انهُ لم يُرَ ولم يسمع انه فعل ذلك الأَمرةً واحدة او مرتين او نادراً فيكون ذلك من المبالغة . وكذلك لو قيل لهُ : انك ميال الى هذه الرذيلة والى مخالفة هذه الفريضة وكثيراً مـا فعلت ذلك مع انهُ بالحقيقة لم يخالفها الاَّ نادراً فلا يستوجب اذ ذاك الاَّ تنبيهاً خفيفاً. قال غراسيانوس ان الحكم لا يغالي بكلامه لان ذلك لا يخلو من العيب اما لقلة الصدق واما لقلة الفطنة والرزانة وكذا المبالغة

في الحديث فانها تشفّ غالباً عن خفة العقل وفساد الذوق . ومن المبالغة ايضاً ان تقول : « لقد تأكد لدينا » عندما لا يكون بلغنا الشيء الاّ بطريق السمع وقد تبلغنا بهذه الطريق اكاذيب شتى كما بلغنا حقائق راهنة

ومن المغالاة ايضاً ان نقول عن المذنب « ان هذه الرذيلة صارت فيه كغريزة او ملكة لا يقدر ان ينجو منها اذ قد اتخذها كمبدا ولا يريد ان يحيد عنها » بيدَ انه لم يفعل ذلك الاّ نادرًا جدًا . ولعمري انه لا شيء يهين المرؤوس المشكو مثل هذه المبالغات التي قلما ينتبه الرؤساء الى شرها

من القياس الفاسد ان تنسب للاعمال المتشابهة نية واحدة وغاية واحدة كانك تقول مثلًا لمرؤوسك انك من امدٍ غير بعيد عملت العمل الفلاني او سافرت الى المحل الفلاني بقصد الغاية الفلانية ومؤخرًا حدث منك العمل نفسه والسفر عينه فاذًا لم يكن لك فيهِ سوى تلك الغاية التي قصدتها اول مرة وهكذا لو قلت لمرؤوسك : « انك في القديم كنت متعودًا هذه الرذيلة فاذًا انت اليوم متعودها » وايضاً : لو قلت لهُ : « اليوم انت اذنبت الذنب الفلاني فاذًا في الماضي ايضاً كنت تقترف هذا الذنب ولكننا لم ندرِ بك » وكذلك لو قلت لهُ انك اليوم اذنبت هذا الذنب فاذًا في الغد لا بد لك من السقوط فيهِ لان ما انت عليهِ في الحال لا بد ان تكون عليهِ في المستقبل » ومن القياس الفاسد ايضاً ان تستخرج قلة الفطنة او الاهمال من عدم النجاح كما لو قلت لاحد مرؤوسيك : « انك لم تنجح في هذه الدعوى فاذًا قد اذنبت لانه كان بوسعك ان تغير الحوادث التي طرأت وتستاسر الخواطر التي هاجت وماجت ومن الفاسد ايضاً ان يتخذ الرئيس كمبدا راهن او قاعدة ثابتة بعض اعتقادات او توهمات يعتقدها هو صحيحة مثلًا : « ان الطبع الفلاني ميال للرذيلة الفلانيــة . او ان تهذيب الشبيبة على النمط الفلاني يولد في الرجال الاميال الفلانية . او ان اولاد العائلة الشريفة لهم المزية الفلانية واولاد العائلة الوضيعة المزية الفلانية فاذًا يمكنني ان اعرف مقدماً ما سوف يحدث من هذا او ذاك ولا اخاف بذلك شططاً

وماذا اقول عن تلك الطريقة التي يتخذهــا بعض الرؤساء في تقرير المذنب فانهم يعتنون بسؤالاتٍ عديدة مختلفة لكي يستخلصوا منــه جواباً فيهِ شبه

الحقيقة او دلالة عليها

والمذنب اذا اصر على نكران الحقيقة ولم يعد بالامكان معرفتها من وجهٍ آخر فاخلاء سبيله احرى بك من ان تزيده عثاراً وتمحلاً وعداوة . فالرئيس يعتبر انهُ قام بواجباته اذا ما نهض بهمةٍ وسأل عن حفظ الرسوم والقوانين واما اذا لم يتصلب ويقسُ على المذنب الذي يأبى الاعتراف والاذعان فلا يحسب ذلك منه الاَّ فعل فطنة ومحبة

« ثانيــاً »

في ان فرض العقاب على المرؤوس ينبغي ان يكون بعدلٍ واستقامة

عدد ١

في ان العدل يقتضي من الرئيس ان يستمع للمذنب كل ما يريد ان يورده محاماةً عن نفسه

وماذا تراه ينجم عن الاحكام الصادرة بدون معرفة اركانها وبدون عدالة سوى الدمدمة على الحاكم وامتهانه وعدم الطاعة لهُ فان السلطــان والعدل اخان لا ينفصل احدهما عن الآخر في كل جمعية ولاسيما في الجمعيات الرهبانية . ومن الثابت انهُ اذا كان السلطان يجعل الرؤساء والسلاطين شبيهين بالله فالعدل يقوّي السلطان ويكسبه رونقاً وجمالاً جوهريين

وعليهِ فان من المبادىء الاولية للعدل ان لا يُحكم بشجب انسان ايّاً كان قبل استنطاقه والوقوف على ادلة راهنة على ذنبه . وبذلك ترى الحقوق الطبيعية والمدنية والكنسية متفقة على ذلك كل الاتفاق : قال العلّامة شيشرون : « انهُ اذا شجب احد قبل استنطاقه كان ذلك برهاناً على برأته » ومن البين ان العبــد لا يشجب من معلّمه ولا الابن من ابيهِ قبل سماع مدعاه . قال ابن سيراخ : « لا تذم قبل ان تفحص . وتفهم اولاً ثم وبخ » ف ١١ وقبل ان يُنزل الرب الصاعقة النار على مدينتي صدوم وعمورة قال : « انزل وارى هل فعلوا طبق صراخهــا البالغ اليَّ » تكو . ف ١٨ . ثم ألم يعامل الله تعالى ابوينا الاولين آدم وحوّا هذه

المعاملة فانهُ قد استنطقها وسمع اعـذارهما مع انها آلت الى خزيها وشجبها . ومن الامثال المتداولة ان من لا يسمع الا جرساً واحداً لا يعرف الاَّ رنة واحدة والشكوى مهما كان لها من ظاهر الحقيقة لا ينبغي القاضي ان يتخذها بمنزلة الصدق قبل نهاية الدعوى واتباع الرسوم وسماع ما يدافـع به المشكو منه عن نفسه : قال غراسيانوس : « ان الكذب له دائماً المحل الاول ويقتاد وراءه الحمقاء بقوة كلمة القال والقيل التي تتطاير من فم الى فم بدون سند ولا برهان . واما الحقيقة فلا تكون الا متأخرة ولا تبلغ مكانها الا آجلًا جداً . فكأنَّ الزمان قائدها يسير بها على رجل واحدة . ومع ذلك فالعقلاء ينتظرون وصولها ويحفظون لها مقاماً » (رجل البلاط مبدا ١٤٦) فكم من الاشياء تظهر للعين والاذن شريرة للغاية وهي مع ذلك صالحة لا شر فيها البتة . وقال ارليطوط ان الباطل لهُ شبه الحق ويقرب من الصدق اكثر من الحقيقة نفسها . والملك اسكندر تلميذه عندما كانت تبلغه شكايات على احد ما كان يسمعها الاَّ باذنٍ واحدة واما الاذن الاخرى فكان يسدها ويقول اني احفظ هذه سليمة لتسمع للمشكو منه عندما يأتي ليدافع عن نفسه . والرئيس الذي لا يتخذ هذه الاحتياطات لا يلبث ان يحكم احكاماً مخالفة للحق والعدل . والمرؤوس اذا ما رأى تحاملًا عليهِ ييأس وينكر كل ما عُزي اليهِ ويشكو من رئيسه سرعة التصديق وسوء النية ويحمل رهباناً كثيرين من ذوي الفضل ايضاً على تصديق مثل هذه الشكايات

ولو قدرنا ان لديك براهين قاطعة على ذنب احد الرهبان فينبغي مع ذلك ان تعطيه فرصة كافية لكي يوضح لك افكاره ويبرئ نفسه بما يمكن ولا تقطع حديثه عندما يكون آخذاً بتبرئة نفسه بل اسمع لهُ باناة ومحبة وبالاكثر لا تظهر الاشمئزاز من حديثه ولو كنت لا تثق بكل ما يقول ويتعلل . هذا ما لم يكن ذنبه بيناً ولا سبيل لقبول عذره على الاطلاق . ثم لا تستخف بما تراه قريباً من التصديق في براهينه وتقبّل ما يقدمه من الظروف المخففة لجرمه بل اذكره اذا امكن ببعض ظروف لم يتذكرها هو وهي تزيد حجته قوةً . فانهُ بذلك يثق بانك غير متحامل عليهِ بل انك ترثي لحاله وتهتم بتبرئته . ولعمري اي اب يرى ابنه مجرماً ولا يهتم بتبرئته او لا يرى نفسه سعيداً لو تمكن من تبرئة ساحته وتخلص

من انزال العقاب بهِ

واذا وجدت حججاً قوية تؤيد براءته فلا تتمسك بحجج أُخر او تتخذ طريقاً اخر تظهر لك ان براءته غير اكيدة ومما يستوجب الاسف ان بعض الرؤساء قليلي الهمة والاجتهاد خوفاً من عناء التنقيب والتدقيق ومن استياء الواشي يقولون: « انهُ لما كان يتعسر الوصول الى الحقيقة في دعوى هذا الراهب فيحسن ان نحرمهُ من حق المناصب او من حق الصوت وبذلك نكون راعينا الشاكي والمشكو منه »

او لا يدري مثل هؤلاء الرؤساء ان هذه الطريقة هي الاكثر خطراً من سواها وان هذا العقاب بغير تدقيق لراهب فاضل شديد ومر جداً وربما يكون هو المقصود من الواشي لا غير . ثم ان الحكم على هذه الصورة بدون تدبر لا يكون الاَّ حكماً وهمياً غير شرعي

عدد ٢

في ان العدل يقتضي ان لا يفرض الرئيس من العقاب الاَّ ما كان على قدر الجرم

لا ريب في ان الفرق عظيم بين ذنب اقتُرف عن سهوٍ او جهل او ضعف او عدم انتباه او في النادر وبعد مقاومة عنيفة وبين ذنب اقتُرف عن خبث بروح النكاية او بتام الاختيار والانتباه مرات متتابعة . ففي الاول يكفي التنبيه البسيط للمذنب لكي يرتدع عن زلتهِ اماَّ في الثاني فيقتضي الردع بلهجة قويَّة وعزم شديد

قال القديس غريغوريوس: « ان التوبيخ الاخوي يمكن ان يكون احياناً بكل رقة ولطف . هذا عندما يكون الاخ قد زل عن جهل او عن ضعف لا عن خبث ورداءة لانهُ حينئذٍ يستوجب كل رفق ومسامحة . كيف لا ونحن ما دمنا لابسين هذا الجسد الضعيف الفاسد لا يمكن ان نكون معصومين من السقوط

فليتعلم اذاً كلٌّ منا باختباره الشخصي ان يكون شفيقاً على اخوانه ولا ينسى ضعفه عندما يوبخهم بشدة وصرامة · وقد توجد ظروف على عكس ما تقدم تستوجب كل صرامة او يعتبر فيها ان مرارة الدواء تنبه المريض وتجعله يشعر بسوء حاله واهمية مرضه وبالاخطار التي تتهدده لعله يرعوي ويرتدع عن غيه» (الراعي ق٢ ف ٩)

وفي الزلاَّت التي تكون عن خبث يوجد ايضاً فرق كبير ما بين غاية رديئة وغاية اردى في قصد المخالفات · فعلى الرئيس حينئذٍ ان يلاحظ ذلك سواء كان محافظة على رسوم العدالة او على استقامة نيته في عمله بحقوق مهمته فان الاباء القديسين كانوا احياناً كثيرة يفرضون عقوبات قاسية على هفوات خفيفة وانما كان ذلك لكيلا تصير الخطيئة ثقيلة ولئلا تنقاد الجماعة من هذا المثل الى ارتكاب الهفوات اية كانت بدون مبالاة · اما مع عدم وجود هذا المحذور فينبغي فرض العقوبات على قدر جرم الزلة والاَّ تهافت الاكثرون على ارتكاب الخطايا الكبيرة وعدُّوها كالصغيرة ومن البين انهُ لا يسوغ من اي وجهٍ كان ان تقدّم شكوى على راهب او ان يفرض عليهِ قصاص اياً كان مع معرفة براءته لان العدل لا يسمح بذلك ولو بحجة امتحان الراهب وانماء فضيلته · والاَّ ظهر ان الرئيس متحامل وسقط اعتباره عند الجماعة وسبّب لهم عثاراً · اما المرؤوس الذي نسبت اليهِ نقائص لا يكون قد وقع فيها فلا يعلم احد ما يجيش في صدره من الاضطراب ولا ما تكون نتيجة شجبه على غير ذنب

نعم ان العادة جارية في بعض رهبانيات على ان يوبخ البعض لاجل نقائص خفيفة وطفيفة للغاية غير ان ذلك لا يكون الاَّ مع رهبان اشدَّاء بالفضيلة ويكونون غالباً منبهين الى مراد الرئيس في توبيخهم وعارفين ان النقائص التي تنسب اليهم لا تعد ذنوباً في اعين الجماعة ولا ينبغي ان يخاطبهم الرئيس بشأن ذلك الاَّ بكلام عمومي ينطبق على الكثيرين كأن يقول مثلاً : « يا أخي ان اعمالاً كهذه تعدونها طفيفة وهي كذلك ولكنها علامة الفتور في العبادة ولا تليق بمن كرّسوا ذواتهم لله وتجندوا لخدمته تعالى ويلزمهم التقدم يومياً في درجات الكمال ... وما اشبه ·» ولعمري كما انهُ يجب الاَّ تشفق على من يثبت ذنبه

بل ان تخفض كبريائه امام الجماعة بالتوبيخ او بالعقاب هكذا لا يجب ان تؤدب او تهين من لا يستحق الأَ المديح والثناء لاجل مثابرته على حفظ القوانين والرسوم وقد يوسوس الشيطان لبعض الرؤساء ان ينزلوا في مرؤوسيهم بعض العقوبات الخفيفة على غير ذنب قصد حملهم على اكتساب اجر الاحتمال ولكن من الثابت انهُ لا يجوز عمل السيآت لتأتي الصالحات . بل لا تكون في الغالب نتيجة مثل هذه العقوبات الأَ التشكي والتذمر

قال لانسيسوس : يكفي في الغالب قصاصاً للراهب على هفواته الطفيفة ان يشعر بان رئيسه قد شاهده وذلك كما لو رآه يتكلم في اوقات الصمت او يتهامل في الصوم الرهباني او انهُ تأخر عن حضور المائدة او الكنيسة وما اشبه ذلك

عدد ٣

— في ان العدالة تقضي ايضاً على الرئيس بان يحافظ على صيت لمذنب — اشد محافظة

١ً فلا يوبخنّ اذن الرئيس احداً علانية الأَ على بعض النقائص المشهورة والتي يقضي اصلاحها ورفع الشكوك المتأتية عنها قصاصاً علنيّاً . والزلة اذا كانت خفية ولا يُخشى من افشائها فمهما كانت كبيرة يبقى للراهب حق على حفظ صيته وبعدم اشهار زلته يكون خير للرهبانية كلها كما لا يخفى . فعلى مثل هذه الزلات الخفية ينبغي ان نوبخ توبيخات سرية ونحافظ على اعتبار المذنب ومحبته كما كنّا نعامله قبل سقوطه وبذلك نكون قد راعينا العدل ورفعنا الشكوك وابدينا للمرؤوس لطفاً ورقةً من شأنها ان ترده الى الصواب . ولو عاملناه بخلاف ذلك لرفعنا عن محياه ختم البرارة والحشمة واسأنا الى الجماعة كلها (كما لاحظ القديس اغوسطينوس في رسالته ١٨٥ الى بونيفاسيوس) وهذا الختم لا يقدر احد بدونه ان يحيا حياة رضية لكونهِ جزءاً جوهرياً في النفس المسيحية ولاسيما في نفس الراهب ونرى ان السيد المسيح نفسه قد حافظ عليهِ في يهوذا الغاش حتى في ساعة تسليمه

لهُ وان الله تقدست اسماؤه يعيده الى الخاطي حالما يتوب اليهِ توبة صادقة ويحفظه للابرار كعلامة الشرف وعربون المحبة ولو كانوا فيما مضى قد اقترفوا من الذنوب اعظمها واكثرها

يا لله اذًا ايها الرئيس لا تمحُ هذا الختم السماوي عن جبين اخيك وان الجأتك الضرورة فاحذر ان تلحق بهِ غير ضرر خفيف . واياك ان تهتك ستره فلا يعود يستطيع ان يحتمل عاره وخزيه بل لا تدعه يشعر بانك عارف بكل عيوبه وبالاكثر لا تدع الجماعة تكتشف ارجاس نفسٍ قد اتخذها الله لهُ كمعبد لا يريد ان يدخله او يطلع على ما فيهِ احدٌ سواه

والزلة تعتبر سرية ما دام لا يدري بها الاّ اثنـان او ثلاثة في الجماعة العديدة . ومع ذلك فقد يوجد بعض حوادث فيها يسوغ للرئيس بل يجب عليهِ ان يوبخ توبيخاً علنياً وهـذا فيما لو رأى ان العدوى تسري في الجماعة وتضر في الرسوم الرهبانية وانهُ قد نهى المذنب عنها سرًّا مراتٍ ولم ينتهِ

٢ً ولا يسمحن الرئيس لاحد اياً كان بان يساعده في توبيخ الاخ المذنب لان ذلك ممـا يدل على ضعف السلطان ويهيج الراهب المذنب واصحابه على الرئيس ومعاونيه ويخشى ايضاً من ان الراهب المذنب الذي يوبخ بحضرة الجمهور ويُرمى من كل منهم بامرّ السهام اذا ما رأى ذاته مهاناً كل هذه الاهانة ومشوهاً بطاعن عديدة مختلفة ييأس ويقنط ويرمي ذاته في اعظم ورطة

٣ً على الرئيس ان لا يوبخ مرؤوسه امام اناسٍ خارجين وان لا يدع احدًا منهم يعرف شيئاً من نقائصهِ . وهذا الامر كليّ الاهمية في الرهبانيـة لان الاحتداد وثورة الغضب يظهران بسهولة مـا يجب كتمه وهذا مما يلحق اهانة بالشخص المذنب وبالجماعة ايضاً ويشوه بهاء الفضيلة الرهبانية

٤ً من الواجب على الرئيس ان لا يقول ولا يفعل شيئاً تشتم منه رائحـة الاحتقار للمذنب او يسبب لهُ امتهان الجمهور . لان الاحتقار شيء والتواضع شيء آخر فيمكنك ان تسبب التواضع لمرؤوسك بداعي المحبة اما الاحتقار فلا يمكنك ان تلحقه بهِ من دون اهانة . واذا ساغ للرئيس من قبل مهمته ان يقاوم كبرياء مرؤوسه ويسبب لهُ التواضع فلا يسوغ لهُ البتة ان يمتهنه او ان يسبب

لهُ الاحتقار من ايٍّ كان . قال القديس يوحنا فم الذهب : « ان الاهانة من اينما اتت غير مقبولة ولا محتملة لانها ان كانت من المرؤوس للرئيس عُدّت قحة وجنوناً او من متساو الى متساوٍ حُسبت قلة ادب وان من رئيس لمرؤوس حسبت فعل كبر وخيلاء (عظة ٣٩ على اعمال الرسل)

فان عيرت مرؤوسك بصفة اصله فكانك تقول لهُ انه غير جدير بالاعمال ولا بالفضيلة وهذا ما يخالف الصواب لان الجدارة بالاعمال والفضيلة ليست موقوفة على الشرف او المكانة . وان عيرته بنقصٍ او مرض في جسمه او لقلة مقدرته فانك تبين له انه لا خير فيهِ وانه ثقيل على الجمعية . وان عيرته بكونه لم يترك شيئاً للرهبانية حين دخوله فيها اعلنت ان لا سبيل للتعويض على الرهبانية الاَّ بالمال وكأن الخدم الرهبانية مهما كانت والفضيلة وتقدمة الذات بكل طواعية هي كلها لديك كلا شي . الا ترى ان القلب البشري سريع التأثر عندما تمس الطف شواعره اعني الشرف . واخيراً نقول ان من يمتهن يُمتهن اياً كان وان الرهبانية اذا ما فقدت دعائم الادب والمحبة فقدت كل غبطة وتعزية

عد ٤

في ان العدالة تقتضي من الرئيس ان لا يعاقب الاَّ المذنب وان لا يعاقبه عن الزلة الاَّ مرة واحدة وان لا يشفق على الواحد ويقسو على الآخر

١ً لا شك في ان العدالة تقتضي من الرئيس ان يقف عند عقاب المذنب وحده وان لا يضم اليهِ غير رهبان ابرياء بحجة ان لهم معهُ بعض العلاقات

فاذا شئت مثلًا ان توبخ اخاً لدخولهِ قلاية اخيهِ بغير الاوقات المعينة فلا يسوغ لك ان توبخ معه صاحب القلاية ان لم يكن هو قد دعاه الى الدخول عليهِ في الوقت المحرم . وكذلك لو عمل احد الاخوة وقت التنزه ما لا يحل عمله استحق ان يحرم من التنزه فليس لك ان تحرم الاخوة كلهم من ذلك لانه لا يسوغ ولا من وجهٍ ان تعاقب جماعة ابرياء بجريرة مذنبٍ واحدٍ والاَّ اشعلت نار الشغب وهيجت جيوش الدمدمة والتذمر

٢ً ان العدالة تقتضي ايضاً ان لا يعاقب المذنب عن زلة واحدة مرات

عديدة . وبعد التوبيخ او العقاب مرة عن الزلة الواحدة فلا يسوغ لك ان تكرر ذلك بل يجدر بك ان تريَ المذنب انك قد نسيت زلتهُ ولم يبقَ لهـا في ذهنك ذكرٌ البتة ولعمري ان المراجعة بالتوبيخ على ذنبٍ قد كُفّرَ عنه او التنديد بعد حين دلالة على صغر الفكر ولؤم النفس واي خير يُرتجى من ذلك سوى فتح جرحٍ كان قد اندمل . فان الله جلت عدالته لا يعاقب عن الذنب الاّ مرة واحدة

٣ً لا يسوغ للرئيس ان يعاقب من اذنب اليوم عن ذنوب ماضية . ولو لم يكن قد عوقب عنها بوقتها

لان في الاصلاح الاخوي كما في الحق الشرعي ينبغي الاقتصار ما امكن . والرئيس الذي يراجع عقوبات ذنوبٍ ماضيـة يكتسب لنفسه الكره والمقت ويفتح باباً للاقتصاص من ذنوب كثيرة قد كُفرَ عنها اتمّ تكفير . ومع ذلك فقد يسوغ ان تذكّر الاخ بذنوب ماضية لتريه انهُ في ورطة ملكةٍ سيئة وان من اخص واجباته ان ينتبه لذاته ويرعوي عن غيهِ قبل ان يسقط في ورطاتٍ اعظم

ومما يحظر على الرئيس استعمال كيلين او عيارين فيكيل او يزن لاهل النفوذ بكيل وميزان ولاهل الخمول بكيل وميزان آخرين لتخوفهِ من اولئك وازدرائهِ هؤلاء . ومن لا يرى كثرة الشرور التي تنجم عن هذه المحاباة والاخذ بالوجوه . فالذين يوضع على مناكبهم كل ثقل القانون يأخذون بالقلق والتذمر والذين لا يسألون عمّا يفعلون يضحون كمن لا قانون لهم ولا نظام وهيهات يعودون فيما بعد الى السيرة الرهبانية الحقة

وينبغي مع ذلك لن نميز مـا بين الاخذ بالوجوه والمراعاة الواجبة للبعض بالنسبة الى سنهم او مقامهم او فضيلتهم او طباعهم الخ وستتكلم عن هذا في مقالة الفطنة

عد ٥

في انهُ يجب على الرئيس ان لا يبلّغ زلة الاخ المذنب الى الروساء الكبار ولا الى من يخلفه في الرئاسة ما لم يرَ في ذلك فائدة حقيقية

ولماذا تسرع الى تبليغ زلة مرؤوسك الى الرئيس الاكبر فان كنت قد

وبخته سرًّا على زلتهِ وهو قد كفّر عنها فما الحاجة بعد الى ان تمزّق صيته وترفع امره الى الرئيس . قال لانسيسوس ان الوشاية الى الرئيس الاكبر هي امر من العقاب وفي مثل هذا الحادث ينبغي ان تسمع الى صوت ضميرك القائل لك « لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله الناس بك » (الرئيس الكامل) وان كنت لم توبخه بعد فلماذا تسرع الى الوشاية بهِ وما قصدك بذلك ? هل اصلاح اخيك او بالحري اشفاء غليل الحقد والبغضاء او ان ترفع عنك ما تتوهمه من ملامة رئيسك الذي ربما قد اظهر لك غير مرة انك في تدبيرك شؤون الاخوة تميل الى القسوة والخفة اكثر منها الى الشفقة والرزانة

نعم انهُ قد يوجد بعض حوادث تستلزم مشورة بعض الاباء الافاضل غير ان ذلك ينبغي ان يكون مع اشخاص قليلين ومتصفين بالتقوى والرزانة وعلى الرئيس حينئذٍ ان يفهمهم انهم ملتزمون بحفظ السر حفظاً مقدساً . ويمكن الرئيس باكثر هذه الحوادث بل يجدر بهِ ان يأخذ رأي اهل مشورته باصلاح ما يكون قد حدث من دون ان يذكر لهم اسم المذنب

واذا بان للجماعة ان الرئيس سريع التصديق وغير متأنٍ في بت احكامهِ ولا يبطوء ان يبوح بالسر اولاً الى اهل مشورتهِ ثم الى الاب المرشد وبعدُ الى الرئيس الاكبر واخيرًا الى خلافهم وبذلك يسوّد صيت رهبانٍ فضلاء وذوي سمعة جيدة فيحكمون بوحدة الرأي انهُ من اهل الخفة والطياشة ولا قدرة لهُ على كتم السر ومن ثم لا يبقى لهم بهِ ثقة البتة ولما كان للرأي العام ولظاهر الاحوال تأثيرٌ في عضد السلطة اشد من تأثير الحقيقة فالرئيس الذي تكون هذه الحال حاله مع جماعته يفقد قسماً كبيرًا من اعتباره وبعد قليل يفقد كل سطوةٍ ومهابة بل يُضحي في آخر الامر كمن لا سلطان لهُ على الاطلاق

ومما تقتضيه العدالة من الرئيس انهُ بعد توبيخهِ مرؤوسيه بروح الرب اذا لحظ فيهِ رغبة الاصطلاح فلا ينبغي ان يُبقي في افكاره شيئاً من سوء الظن بهِ ولا ان يبقي بين اوراقهِ شيئاً من اللاحظات المضرة بهِ لانهُ لما كان منتهى الفضل في الرئيس ان يعمل بعدلٍ يماثل عدل الله فلا ينبغي لهُ ان يحافظ على العدل اكثر من الله نفسهِ ولا ان يذكر فيما بعد ذنباً قد أُمحي من مدة طويلة . بل عليهِ ان

يعيد لهُ صيته الاول وان يعامله كأنه لم يذنب قط ويلاشي كلما تسطر عليهِ ويمكنه ان يضر في مستقبله · لانه كيف يبرأ امام الله من لا يريد ان ينسى هفوةً لاخيهِ ولا ان يطرح من فكره ما سبق لهُ من سوء الظن فيهِ ويعود الى اعتباره اياه كما كان قبلًا · او كيف يزكي امام الله من يؤسس كل معاملتهِ اخاه على حادثٍ او حادثين ويبني عليهما كل تصوراتهِ فيهِ واحكامهِ عليـهِ وكل ذلك يصحّ على الرئيس الذي عندما يسلّم من يخلفه في الرئاسة ما لديه من الاوراق والملحوظات يجتهد في ان يبيد سمعة البعض من الذين اذنبوا مرةً او مرتين في مدة رئاستهِ وان يعطل مستقبلهم بالكلية

ومن المؤكد ان الضرورة او خير الجماعة او خير المذنب نفسهِ يقتضي احياناً ان توقف الرئيس الجديد على شوائب المذنب ولاسيما اذا كانت اضحت مثل ملكة ردية منغرسة في طباعهِ ويخشى منها خطر العدوى ولكن بغير هذه الظروف لماذا لا نؤمل اصلاح المذنب بدون تسويد صيته عند الرئيس الجديد ونترجى انهُ بعد تنبيهاتٍ عديدة يرجع عن غيهِ ويجتهد في ان يكون راهباً صالحاً بموجب عهدهِ لله تعالى حين دخل الرهبانية ! وبعد فلماذا لا نقول انهُ لو عاملنا الله بالقسوة التي نعامل بها قريبنا فما عساه يكون قد حلَّ بنا ؟

هذا وكم يكون خجل الراهب وبؤسه عظيمين اذا ما شاهد كل واحدٍ من الرؤساء يوبخهُ على زلةٍ قد ارتكبها من مدة طويلة · وبالخصوص عندما يرى ان الاخوة باجمعهم يعدّونه كمجرمٍ وفاقد كل اعتبار · فاذا لم تكن فضيلته سامية وخارقة العادة يضطره الامر الى ان يقيم دعوى على رئيسـهِ ويجتهد بان يلحق بهِ شيئاً من الضرر باي وجهٍ كان · وما عساها تكون النتيجة من ذلك الاَّ عداوةً تدوم لحد الموت او خسارة ذلك الراهب المضطهَد الذي ييأس من حياتهِ الرهبانية اذ لا يراها الاَّ موعبةً من المتاعب والشكوك المتواصلة

الفصل الثالث

في ان الفطنة هي ركن التوبيخ الاخوي

ان الفطنة تعلم الرئيس ثلاثة اشياء ١ً ان يختار الوقت الموافق للتوبيخ ٢ً ان يراعي طباع كل واحد من مرؤوسيه ٣ً ان يُعطي المرضى بالروح الدواء جرعةً فجرعة بحسب قوة كل واحد منهم

الباب الاول

في ان الفطنة تعلم الرئيس ان يختار الوقت الموافق للتوبيخ

و بتدىء اولاً في الاشارة الى معاثير التوبيخ وبعد نتكلم على القواعد التي تسهل الطريق للتوبيخ حتى يؤمل منه النجاح بل يتأكد تأكداً ادبياً.

المقالة الاولى

في المعاثير التي يسقط فيها الرئيس غالباً عند قيامه بفرض التوبيخ

المعثرة الاولى

وهي تأخير الرئيس عن التوبيخ في وقته

قال ابن سيراخ « يابنيَّ قبل المرض استطبَّ ».(ق١٨) فكأن الروح القدس يخاطب الرؤساء هكذا « اليكم اوجه خطابي يارعاة النفوس اجمع . كونوا متيقظين الى اول حركة تبدو من الشر فان عنايتكم ليست لاجل المرضى فقط

بل لاجل الاصحاء ايضاً . فان عملتم لشفاء المرضى فيلزمكم ان تعملوا ايضاً لوقاية الاصحاء من المرض والطبيب لا يُعد ماهراً ومجتهداً لو ضمَّد الجراح فقط بل يُعد ماهراً وحكيماً اذا استدرك الامر قبل وقوعه ووقى المريض من العملية الجراحية . فهذا ما ينبغي لطبيب الانفس ان يتحراه ويعمله

قال القديس اغوسطينوس « ان الذي يسقط بخطيئة ويوبّخ حالاً على سقطته يقوم بسرعة وسهولة لانهُ لا يكون قد انغمس بعد في اقذار الخطيئة ولا الخطيئة تكون قد تأصلت باصول العوائد والملكات » (مقالة ٤٩ على يو) . وقال القديس غريغوريوس النزينزي : « ان مقاومة الخطية وهي مقبلة اليك لاسهل من مقاومتها بعد وصولها واستيلائها عليك ») عظة ٢٦) . الا ترى من البديهي ان اسناد الصخر وهو في مكانه لاسهل من ايقافه في طريق منحدر بعد سقوطه او من ارجاعه الى مكانه الاول بعد وصوله الى اسفل المنحدر

ولذلك فان لحظت ان احد رهبانك متهاون في الاشياء الصغيرة او انهُ يميل بسهولة لمعاشرة الرهبان الفاترين او انه قليل العمل وانما يتشاغل بالتنقل من قلاية الى قلاية وقلما يتحادث باحاديث روحية . والاخر يضيع الوقت بالباطل ويأتي بالغرباء الى محل التكلم في الدير ويكثر الزيارات الى الخارج ويصاحب اهل النفوذ ويحب معاشرة النساء . او ان رأيت غيره معذباً بتجربة ضد دعوته حتى اضحى يستخف بالقوانين واخذ من ثم يجادل ويماحك في عدم لزوم بعض الوصايا الرهبانية او عدم مناسبة بعض الفرائض القانونية وكان لا يطيع الاَّ بعنف وابطاء فاعلم عندئذٍ انك جدير بالاسراع الى المحاماة والذَب عن النظام والقانون ومقاومة كل من يخالفها ولا تبطيء اذ ذاك في ان تكوي الجرح قبل ان يتولد فيهِ الغنغريناء . فقليل من الشدة والحزم في باديء الامر يوقف جري الشهوة البهيمية فينكف صاحبها عن التوغل في مهامه الشر وينجو من العواقب الوخيمة امَّا في التسويف والتأجيل فتصادف عقبات من الصعوبة تكاد لا تنتصر عليها اعظم القوَّات البشرية ومن إعتلَّ بوجوب الرفق بالمذنب فليعلم انه بعمله هذا لا يرفق بهِ بل يدفعه بقسوة بربرية الى وهدة الهلاك . قال سينيكا الفيلسوف «ان المسامحة بكل الذنوب هي قسوة ليست باقل شراً من القسوة التي تأبى المسامحة

بشيء من الذنوب اه

ولما كان الرئيس اباً وجب عليهِ ان لا يحفظ في قلبه ذكراً للاكدار والمتاعب التي يكون قد سببها لهُ الرهبان بمخالفاتهم بل يجدر بهِ ان يتسلط على هيجان الحركات الثائرة في قلبه وان يثق في طاعة رهبانه لهُ فيرشدهم الى سواء السبيل قبل ان يشردوا فيضلّوا

امّا الروساء الذين يلحقون بجمعياتهم ضرراً وينبغي ان نطلب النجاة والتخلص منهم فنوعان . منهم من يبلّغون الروَساء الكبار ذنوب مروُوسيهم قبل ان ينصحوهم عنها ويداومون مع ذلك على موَانستهم وملاطفتهم كأنهُ لم يبدُ منهم شيء يسيئهم او يكدّر خاطرهم . ومنهم من يظهرون للمذنب خشونةً ونفوراً مدةً طويلة ولا يبينون له ذنبه ولا علّة اشمئزازهم منه كل هذه الايام المديدة . فهولاء لا ترجو الجماعة منهم خيراً بل لا تتوقع منهم الاّ البوُس والاكدار امّا اولئك فلو امعنّا النظر في مجمل سياستهم فلا نجد فيهم شواعر الحُنو والمحبة كما في الاباء بل امارات الخداع او دهاء اهل السياسة وتمليقاتهم الكاذبة

المعثرة الثانية

وهي التسرُّع في التوبيخ

قال القديس برنردوس «كما ان الرزانة او الفطنة بدون حرارة المحبة تكون جبانة وصغر نفس كذلك حرارة المحبة من دون رزانة وفطنة تكون عاثوراً ومهلكة اه (عظة ٢٤ على النشيد) يريد بذلك ان الرئيس من دون حرارة المحبة يسقط ويسقّط مروُوسيه في وهدة الفتور والخمول ولو كان على جانب من الرزانة والفطنة . امّا ان كانت فيه حرارة المحبة من دون فطنة فيتمادى اولاً في الصرامة الاّ انهُ فيما بعد يعود الى الفشل والفتور

ومن المعلوم ان الرئيس باحتماله ذنوب مروُوسه وقتاً ما يبدي لهُ دلائل المحبة اكثر مما لو عاقبهُ عنها في الحال ويكون كانه قد اخفى ذنوبه وستر عيوبه . ولا

شك ان الرفق يضعف المرؤوس يقبل بهِ الى التوبة أكثر من اعناتهِ ومعاسفته على كل هفوة . وانك اذا اقنعته او تركته يقتنع بضعفه من تكرار سقوطهِ فتحملهُ غالباً على التيقظ والتجند ضد اسباب السقوط . والمريض كلما شعر بمرارة الالم المسبب من عدم الوقاية اقبل بسهولة على اخذ الادوية النافعة مهما كان طعمها واحتاط لنفسه باشد الوقاية

والامر الجدير بكل اهمية واعتبار انما هو ملاحظة العوائد القديمة التي بمواصلتها الدائمة تكون قد اكتسبت نوعاً من الشريعة ومن يعلم ضعف الطبيعة البشرية وعجرفتها يرى ان اصلاحها من شوائب قديمة اخذت مجرى العادة لا يكون الاَّ برفق وسلاسة بحيث لا يشعر احد بهذا الاصلاح لو امكن . والاَّ لو باغت الرئيس مرؤوسيه واراد اصلاحهم بعنف وتعنيت لزادهم شرًّا وتمسكاً بعوائدهم السيئة قال غراسيانوس « ان الزمان طبيب ماهر لمن يعرف ان يستخدمه . فإنك ترى مثلًا اموراً كثيرة كانت ذات بال واضحت اخيراً كلا شيء من جراء سياستها بالرفق واللين وعدم المقاومة . واموراً غيرها كانت كلا شيء وامست اخيراً ذات اهمية وذلك من افراط الاهتمام بها وسياستها بعنف وقسوة لان المرض قد يحدث احياناً عن الدواء فلا يخالنَّ اذًا ان التسامح احياناً هو طريقة مضرَّة بخير الاصلاح اه (رجل البلاط مبداء ١٢١) وما مثل امراض النفس الاَّ مثل امراض الجسد فهذه نرى احياناً ان تسكينها وتليينها احرى من تحريكها وتهيجها الذي كثيراً ما يسبب التهاباً وموتاً . وكم مرة لا يحسن الجراح مداواتها الا بتركها مدة ريثما تكون قد تطبخت لانها لو بُضعت قبل الوقت لالتهبت وعظم شرُّها . وهكذا يوجد بعض شهوات في الانسان لا يمكن مقاومتها وكبحها قبل ان يكون المبتلي بها قد عيي بنوع ما وكلَّ من تعب الضمير

ونرى غالباً ان التأني في التوبيخ وتأجيله الى مدة ينجع في قلب المذنب بخلاف ما لو انزل به بسرعة وعدم تروٍ لان التوبيخ بعد وقوعه يحسب كأنهُ لم يكن . وماعدا ذلك فان بعض الامراض كالسرطان مثلًا لا يعالج الا بالملاطفات وذلك لا ابتغاء الشفاء لانهُ غير ممكن بل لاجل تسكينه وتأخيره عن التقدم ما امكن .

وبعض الادوية لا تكون الاّ مضرّة لو استعملت حالاً بعد تركيبها قبل ان تُسحق وتعجن وتختمر. وهكذا التوبيخ فانهُ ان لم يُفد المجرم في الحال الاَّ زيادة تصلب ووقحة فغداً يعود عليهِ بالنفع عندما تكون حرارة الحمّى سكنت او همدت

ولو انصف الروساء لشعروا واعترفوا ان التوبيخات التي انزلوها في مرؤوسيهم بتسرعٍ وحدة لم تكن ناجمة عن غيرة واخلاص بل عن اضطراب وروح النكاية لانهم لاحظوا فيهم شيئاً من المقاومة لمآربهم ومشروعاتهم . ولعمري ان الروساء من حيث كونهم مكلفين من قبل العناية بصوالح مرؤوسيهم وهم لا يزالون بشراً مثقلين من عبءُ امراض الطبيعة فان لم يرفقوا بضعف المرؤوسين ويساعدوهم في بلاياهم يحسبون عتاةً ظالمين لا اباء رحومين .

ومن ثم ينتج احد امرين امــا ان المرؤوسين ياخذون ان يبغضوا رئيسهم ويكرهوه من جراء ضغطه وتشديده عليهم واما ان الرئيس يفشل ويقنط ويأخذ ببغض مرؤوسيه والاشمئزاز منهم . والامران سيئان ومسيأن فتدبر . اه

المعثرة الثالثة

وهي اهتمام الرئيس باصلاح كل هفوة دون استثناء

ان من يريد اصلاح كل هفوة لا يُعدّ أباً حنوناً بل جندياً مأمور اجراء ولا يكون لعملهِ هذا نتيجة سوى اعتبار الجمهور لهُ انهُ ذو افكار عاتية وسوداوية لا يقدر ان يحتمل شيئاً . اذا كان في البيت كلب لا ينبح الا وقت الاقتضاء فاذا نبح ليلًا او نهاراً ينتبه كل اصحاب البيت وينظرون من يفد عليهم في تلك الساعة اما لو كان ينبح في كل ساعة لداعٍ ولغير داعٍ ويقلق اهل البيت بنبحهِ المتواصل فاذا نبح وقت الحاجة لم يكترث احد بنبحهِ ولو كان لداعٍ هامّ : قالت القديسة شانتال : « يخلق بنا ان لا نوبخ او ننبه مرؤوسينا على كل هفوة لان ذلك يتعب الفكر ويجعله معتاداً سماع التوبيخ بدون انتباه ولا اهتمام . اه » (رسالة ١٤ ك ٢) وقبل ان نصلح هفوة واحــدة فينبغي ان نترك عشرة بدون

اصلاح ولا سؤال حتى نعدّ المذنب ونؤهله الى قبول الاصلاح لان الهفوات العديدة لا بدّ ان تكون صادرة اما عن غفلة وقلة انتباه وهذه اصلاحها برمتها في وقت واحد مما يفوق القوى الطبيعية واما ان تكون صادرة عن شرٍّ وخبث وهذه ايضاً يستحيل اصلاحها دفعةً واحدة. وقد يحدث كثيرًا ان الراهب الذي تكرر توبيخه لاجل خفة منه او طياشة يُضحي اخيرًا رديًا وكارهاً الاصلاح ولذلك ينبغي التحرز الكلي من اعنات ذوي الطباع القاسية السريعة التأثير.

ولا بدّ للرئيس الفطن الحكيم من ان يغضي الطرف ويمسك عن مؤاخذة هفوات عديدة محتملًا ومنتظرًا الوقت المناسب لذلك . وأولو العرف والاختبار يؤكدون ان بعض الهفوات لا يستطيع الرئيس اصلاحها بدون ان يسقط هو سقطات افظع وأشدّ ضررًا.

وربّ معترض من الرؤساء يقول: ألست انا المطالب امام الله بكل الهفوات التي اغضي واتسامح بها ؟ . اجيب نعم ولكن الاغضاء عن الهفوات والتسامح بها بعد وقوعها لا يُعدّ اذناً بفعلها . وحقًّا ان من لا يريد ان يغضي عن شيء من الهفوات يحمل مرؤوسيه على اقتراف ذنوب فظيعة. قال القديس يوحنا فم الذهب « ان الله جلّت حكمتهُ قبل ان يرشقنا بصاعقة يتهددنا برعود كثيرة وهيهات بعد ذلك ان ينزل بنا اكثر من شرارة صغيرة . اه (عظته ٢٢ للشعب)

ولعمري ان الله القدوس طبعاً والعدل والقدرة بالذات لا نراه يعمل لابادة الشر باسرهِ بل لاستخراج الخير من الشر الذي يتحمله وليس كأنه تعالى لا يقدر ان يبيد الشر باجمعهِ بل لانه يرى جلّت حكمته ان ايجاد الخير من الشر لهو انسب لمجدهِ من ابادة كل ما فيه شائبة الشر . ونرى ان القديس برنردوس يُعطي البابا اوجانيوس هذا الملحوظ وهو ان الانبياء مهما كانوا عليهِ من الغيرة للاصلاح فقد تركوا مع ذلك للرسل اشياء كثيرة بغير اصلاح وان الرسل تركوا اشياء كثيرة لخلفائهم وانهُ ينبغي من ثمَّ لقداستهِ ان يترك لمن يخلفه شيئاً بدون اصلاح . اه (تأملاته ك ٢ ف ٦) واوعز اليهِ في محلٍ آخر ان يغمض الطرف ويفتحهُ بحسب الاقتضاء اذ قال لهُ : « تجاهل باشياء واغضِ عن اشياء وتناسَ غيرها كأنك لم تدرِ بها . اه » (ك ٤ ف ٦) . ولنسمع كلام القديس غريغوريوس إذ قال

في هذا المعنى : « انهُ لحسن ان نغضي احياناً عن الهفوات السرّية ولكن ينبغي اذ ذاك ان ننبه المذنب الى ان جرمه لم يبقَ مخفياً ولكن قد صار الاغضاء عنه رجاء ان يعرف ذنبه ويرعوي عنه مقتصاً من نفسه بما قد استحقهُ وعفا عنه حلم الرئيس ولطفهُ . ولهذا وبخ الرب اليهوديّة عندما قال لها بلسان نبيّهِ إشعيا : «انكِ كذبتِ ولم تذكريني ولم تتأملي في قلبكِ . ألم اكن ساكتاً وذلك من القديم فانتِ لهذا لا تخافيني » (ف ٥٧ : ١١) فكان الله اذاً يعرف نقائص شعبهِ ومع ذلك كان يغضي عنها كأنهُ لم يدرِ بها » (الراعي ق ٢ ف ١٠) . وفي محل آخر يمثل هذا العلّامة القديس الرؤساء بالاشبال التي تربض داخل اوجارها منتظرة اغتنام الفريسة . فهكذا الرؤساء يكمنون داخل ضمائرهم مغضين عن كل توبيخ كأن لا اهتمام لهم باصلاح الشوائب وهم مع ذلك يترقبون الفرصة المناسبة لابداء غيرتهم ومحبتهم (كـ ٣٠ في الاداب ف ٧)

المقالة الثانية

في القواعد التي تسهل نجاح التوبيخ او تؤكدهُ

القاعدة الاولى

= لا توبخ مرؤوسك في حال اضطرابه ولا في حال اشتداد وطأة الشهوة عليه = والا فتلقيه في الغيظ والغضب واذ ذاك تكون انت المسؤول بما يأتيهِ من التجاديف والعصيان . قال القديس فرنسيس سالس : « ماذا ترى تكون حالتنا لو عاقبنا الله على كل خطيئة في حال اقترافنا اياها » . فمن الواجب اذاً ان يعطي الرئيس وقتاً للمذنب كي يهدأ فوران اضطرابهِ ويتأمل قليلاً بما جنت يداه ويستعد لمقاومة الشهوة التي استولت عليه واوقعته في تلك الورطة .

ولعمري ما الغاية من التوبيخ او النصح الاخوي ? أما هي اقناع المذنب بذنبهِ وحمله على التوبة والاقلاع عنه ? . وهل يمكن اقناعه عندما يكون ظلام الاضطراب مسدلاً على عقلهِ او هل يمكن حمله على التوبة بدون ان يُعطى زماناً ليفتح لها قلبه المقفل بوجهها ? ومما لا ريب فيهِ ان التوبيخ لا يكون له

نتيجة حسنة الأ عندما يكون صادراً عن قلبٍ نقي وفكرٍ هادئٍ رائق وموجهاً الى فكرٍ وقلبٍ صافيين نقيين ايضاً ولذلك يرى القديس اغوسطينوس انهُ خيرٌ لنا ان نؤجل التوبيخ الى وقت او نهمله بالكلية اذا لم نجد استعداداً لقبولهِ لان المقصود منه انما هو الاصلاح وهذا لا يكون بالرغم والاعنات. وعلى ذلك قال: « ان تأجيل التوبيخ او النصح بكذا حادث لا يُعدّ موافقة على الاثم بل بالحري عمل فطنة ارشدت اليهِ المحبة. اهـ (ك ١ في مدينة الله ف ٧) والقديس غريغوريوس يقول ان الرئيس جديرٌ بان يكون كلًّا لكل انسان من مرؤوسيهِ لاجل خير الاصلاح ومن ثمَّ يلزمه ان يكون شفوقاً او شديداً قاسياً او ليناً بمقتضى طباع المذنب وحالته الادبية. ولعمري لما كان الرئيس لا يقصد في توبيخهِ سوى الاصلاح وجب عليهِ ان يسير مع مرؤوسيهِ بكل دعة وتواضع حتى يستميل قلوبهم ويستولي على افكارهم فينجع بهم نصحه ويكون ما يريد. (الراعي ف ٣)

وكذلك لو رأيت الشهوة آخذة في المجرم كل مأخذ فلا تحاولنَّ مقاومته بعنفٍ وقوَّة بل اقتدينَّ بما يعمله صيادو السمك في مثل هذه الحوادث كما علم القديس دوروتاوس اذا رأوا حوتاً كبيراً قد وقع في شبكتهم وأخذ اولاً يخبط ويضطرب ويزبد البحر لاضطرابه فلا يسحبونه بعنفٍ في الحال بل يرخون له الشبكة ويسيرون معهُ كيف شاء حتى اذا هدأ روعه وسكن اضطرابه سحبوه بسلاسة ولباقة فيبلغ معهم الى الشاطئ من غير معاسفة ولا مقاومة. فالاجدر اذاً بالرئيس في مثل هذه الظروف ان يعطي مهلة لذي الشهوة الهائجة عله يكل او يمل من وعورة الطريق في التيه والزيغ او يشعر اخيراً بملاطفة الرئيس له فيخجل ويعود عن غيهِ واباطيله. وعلى هذا النمط تكون كانك قد ابرمت معهُ شبه محالفة بها تميل به اليك شيئاً فشيئاً لانهُ عندما يرى انك لا تقاومه كل المقاومة يستسلم قليلًا قليلًا الى نصائحك الحبية وتحريضاتك الابوية. وبذلك تخمد حرارة الشهوة وتضعف قواها فيتهيأ لك عندئذٍ ان تحاربها حرباً عواناً وتفتك بها من ان تلحق بصاحبها ضرراً البتة

ولا يخيَّل لاحدٍ ان ما تقدم رأيٌ خاص يستحيل اجراؤه بالعمل كلاَّ بل

هو حقيقة ثابتة بالاختبار . فان اقوى ذريعة للانتصار على سورة المجرم هي موانسته والتواطوء معهُ ظاهراً لان النتيجة من هذه السياسة انما تكون كما تقدم استئناس المجرم وتقربه من رئيسه . بنوع انهُ يبتدي بان يستصوب نصائحه ويستمعها ثم ياخذ في العمل بها برضاً وطيبة خاطر . وكثيراً ما نرى من الخيل الجموحة التي لا تقبل اللجام ولا تحتمل نخس المهماز وانما ذلك لان يداً قاسية عودتها ذلك فاذ اتفق ان يداً ماهرة تديرها باللين والملاطفة فانها تتناسي شيئاً فشيئاً عوائدها السيئة وتأخذ بالانقياد طوعاً كيفما شاء مدبرها الماهر اللطيف

وهكذا اذا اخذ احد الرهبان يقسو ويتصلب فيجدرنا اولاً ان نلاطفه ونواطئه على مرامه لان تصلبه يكون اما طبيعياً وحينئذٍ لا يوءخذ بالشدة والمقاومة او ناجماً عن اضطرابٍ وقتيٍ فاذا قسوت عليهِ ازداد فوزاناً واتصل بهِ الغضب الى اليأس والى اقتراف منكرات مشككة . ومن ثم فاحسن ذريعة لتسكينه انما هي ان تعطيه مهلة ونتظاهر موقتاً اننا راضون بما اتى بهِ او مغضون عنه وبعد ايام يهدأ روعه ويتفتح عقله وقلبه فيرى سوء عمله ويفهم مقصد رئيسه بنصحه لهُ فيرتدع عن شره باناة وسهولة . ولعمري انها لحكمة كبرى ان يحتمل العدو الى ان يغلب ذاته بذاته

القاعدة الثانية

هي ان لا تنزل بالمجرم شيئاً من التوبيخ او العقوبة ان لم ترَ فيهِ او في الجماعة حسن العاقبة في الحال او الاستقبال او على الاقل ان لم تكن النتيجة الحميدة اعظم من القبيحة

ان الاصلاح يكون ضرورياً اذا ما كانت الزلة ذات بال وكانت مضرة بخير المذنب او بخير الجماعة

وعليهِ فينبغي ان نغضي الطرف عن هفواتٍ كثيرة طفيفة . قال بالتازار القارس : « لا تأتِ بالتوبيخ متواتراً ولا لاجل امورٍ طفيفة لانك بهذا لا تحسب من الغيورين المجتهدين بل من العتاة القاسين . وانك اذا ضربت بسيف

السلطة ضرباتٍ متواترة فلاته واضحى المضروب بهِ لا يشعر بالالم » (كتاب حياته ف ٢٣)

اما اذا كان لك رجاء باصلاح المجرم من دون توبيخ فلا توبخهُ او على الاقل لا تنزل بهِ عقاباً . الا ترى ان الطب وجد لمساعدة الطبيعة على المرض اما لو رأينا الطبيعة قادرة وحدها ان تتنصل من المرض فلا نستدعي طبيباً ولا ناخذ دواء

قال القديس غريغوريوس : « قد يوجد بعض الهفوات التي تستلزم الاغضاء عنها ولو كانت ظاهرة ومعروفة . وذلك عندما نرى الظروف لا تسمح باصلاحها علناً خوفاً من استفحال الشر . ان فقاء الدمّل بغير اوانه يضرُّ بهِ وربما يسمهُ ويجعل شفاءه مستحيلاً فالرئيس الذي يلتزم ان ينتظر الوقت الموافق للاقتصاص من المذنب اقتصاصاً صلاحياً ينبغي لهُ ان يحمل ثقل اوزاره وهذا ما جعل المرتل ان يقول : « على ظهري وضع الخطاة آثامهم . » (مزمور ١٢٨) . فعلى الظهر توضع الاثقال . فان النبي في شكواه ان الخطاة وضعوا آثامهم على ظهره يقول صريحاً : « اني احمل على مناكبي حملاً لا مناص منهُ وهو الخطايا التي لا اقدر على اصلاحها » (الراعي ق ٢ ف ٩) . «واذا كانت الهفوات عمومية بنوع ان كل الجمهور او الاكثرين يجاهرون في المحاماة عنها لانهم لا يريدون ابطالها فاياك ان تقتحم ملاشاتها بالتوبيخ العمومي او الاقتصاص عنها لانك بذلك تزيد الجرح او تفتح جروحات جديدة . فالاغضاء حينئذٍ بفطنةٍ هو الانسب والاصلح . ولك في هذه الغضون ان تستفرد الواحد بعد الآخر من المجرمين وتحضه على الاصلاح ببراهين توافق ذوقه وان رأيتهم باجمعهم يعاندون ولا يخضعون فالتجيء انت الى الصلاة وكفى اه (مودست دي سانت امابل . الراس الكامل ك ١ ف ٨) ولا جرم ان احسن دواء لبعض الامراض هو عدم الدواء وهكذا الامر في بعض امراض النفس

قال جراسيانوس ان مهارة الطبيب تعرف من عدم اعطاء دواء كما تعرف من اعطائه . لان كمال الصنعة يستوجب احياناً عدم المعالجة وترك الطبيعة وحالها

القاعدة الثالثة

هي تأجيل الاصلاح الى ان يكون المرؤوس قد تأهب بالنعمة الى قبول النصح وأحسن الظن في رئيسه :

كل احد يعلم كلام صاحب الاقتداء اذ قال : «كلمني ايها الرب الهي . انت يا نور الانبياء والروح الذي توحي لهم انك قادر بدون واسطتهم ان تجعل الحقيقة تلج نفسي اما هم فلا يستطيعون بدونك شيئاً . فيمكنهم ان يتكلموا كلاماً سامياً الاّ ان كلامهم لا يضرم القلب هم يعطون الحرف اما انت فترشدنا الى المعنى هم يدلّون على الطريق اما انت فتمنح القوة للمسير فيها . هم يعملون في الخارج فقط اما انت فتنير الباطن وترشد القلوب . هم يسقون وانت تعطي قوة النمو . كلمني اذن ايها الحق الابدي كلمني لئلا اسمع بدون طائل لانهُ ما الفائدة لو كان الصوت يقرع اذني وقلبي غير مضطرم في نار المحبة . كلمني كي تتعزى نفسي قليلا واتمكن من اصلاح سيرتي . (ك ٣ ف ٢)

والعلّامة فنيلون كتب بهذا المعنى الى احدى الرئيسات قال : لا يحسن ان يبضع جرح بدون ان يوضع لهُ شيءٌ كثيرٌ من المراهم . والمريض لا يُعطى مسهلًا ما لم يعطَ بعض مقويات . ولا تعمل عملية جراحية ما لم يُرَ ان الطبيعة تقوى على احتمالها وتساعد على اندمالها « والعاقل ينتظر سنين عديدة حتى يصادف فرصة مناسبة لالقاء نصحه لانهُ ينتظر حتى ان العناية تعدُّ الظروف في الخارج والنعمة تفتح القلب في الداخل . واذا قطفتِ الثمر قبل نضجهِ فلا تلقي الاّ الخسارة . ومن ثم يجدر بالروساء الاّ يوبخوا مرؤوسيهم على زلاتهم الاّ عندما يشعرون ان النعمة قد اهلتهم لقبول التوبيخ ومن اللازم ايضاً ان نصبر على هفوات كثيرة ولا نقول شيئاً في الخارج الى ان يكون الله قد بدأ ان يكلّم النفس الخاطئة في الباطن . ولنقتدين بصوت الله العذب اللطيف الذي يوبخ النفس ولا يدعها تشعر بمرارة التوبيخ بل يبان لها انها هي التي توبخ ذاتها وليس الله يوبخها . والتوبيخ على خلاف هذا النمط لا يكون نصحاً خلاصياً بل تنديداً

منكباً واشعال نار البغضاء

واقول ايضاً اننا نلتزم في بعض الاحيان ان نألف النقائص الكبيرة ونأنس اليها اذا وجدت في بعض الصلّاح ونصبر حتى يلهمنا الله الى مقاومتها واستئصالها شيئاً فشيئاً من تلك الانفس القديسة والاّ تقلق راحتها وتقتلع القمح مع الزوان. الا ترين ان الله جلت حكمته كثيراً ما يبقي حتى في الانفس المتقدمة في الفضيلة والقداسة شيئاً من النقائص التي لا تليق بحالتها الحاضرة ولا توافقها وانما ذلك دلالة على ما كانت عليهِ من قبل ان ينتشلها من تعاستها فمثل هذه الانفس يخصها ان تشتغل هي باصلاح ذاتها اما انتِ فيخصكِ ان تصبري على ضعفها وتحتمليه اه (مكتوب ١١٦)

وبعد فالاصلاح يستلزم امرين احدهما ان يكون المرؤوس متأهباً بالنعمة. والثاني ان يكون محسناً الظن في رئيسهِ لان المريض طالما يسيء الظن في طبيبه لا يقبل من يده دواء مهما كان. وعليهِ فلا تألُ جهداً ايها الرئيس في ان تزيل بادي بدء من فكر مرؤوسك سوء الظن فيك وعدم الثقة بك فبادره في المحاورة ولاطفه ولا تدعه يعلم انك عارف بكل ما قال او فعل لئلا يظن انهُ قد فقد كل اعتباره عندك بل أبن لهُ ان لا غرض لك في ما تعامله بهِ سوى خيره وان الاب لا يهتم بشيء مثلما يهتم بصحة ولده. وانك تفضل لو امكن ان تحتمل العقاب احرى من ان تفرضه عليه. وانك لو كنت في الحال الموجود هو فيها لكنت ترغب من صميم الفؤاد ان تعود الى حفظ الرسوم وان الرئيس لا يقتص من احد عن لذةٍ او رغبة كلّا بل انهُ لا يُقدم على ذلك الاّ عن كرهٍ ومن اجل الضرورة. وانهُ لنقص وعيب في الراهب ان يتصور في رئيسهِ العدوان والجور عندما يقصد اصلاحه من بعض النقائص في حين ان المريض عندما يرى الطبيب يعطيهِ ادويةً كريهة الطعم او يقطع لهُ بعض اعضائهِ لا يتصور فيه الاّ المحبة والاخلاص فكيف نحن لا نرى في الرئيس الذي يقصد اصلاحنا صديقاً ومحباً مخلصاً. وبالنتيجة بما ان الرئيس مسؤول عند الله عن كل فردٍ من رهبانه فلا يقدر ان يهمل العمل والاهتمام في خير كل واحد منهم. ولذلك فاذا نصح مرؤوسه او وبخه فلا يخيل لنا ان بصوته زجر المنتقم بل حنان الوالد الذي يتوسل الى بنيه

ليرجعوا اليهِ ويكونوا ناعمي البال

فان اباء المجمع الافسوسي عندما حكموا بشجب نسطور قالوا : « اننا لا نلفظ هذا الحكم الاَّ من اجل الضرورة واعيننا مغرورقة بالدموع السخينة . اه

الباب الثاني

في ان الفطنة تعلم الرئيس ان يؤلف بين طباعه وطباع مرؤوسيه

عد ١

في انه على الرئيس ان يعتبر سن من يريد اصلاحهم

لقد تقدمنا القديس غريغوريوس النزينزي في هذا المعنى فقال : « انهُ من المستحيل ان تتخذ في سياسة الناس طريقة واحدة لان الاستعدادات ليست واحدة ولا متساوية في الجميع فما تراه لائقاً ومفيداً للواحد يكون في الغالب غير لائق ومضراً للآخر فالاعشاب التي يستخدمها بعض الحيوانات لقوتها ونموّها تكون لغيرها سماً قتالاً . والدواء الذي يوقف جري مرضٍ يقوّي مرضاً خلافه . والخبز الذي يقوّي الاجسام الصحيحة يضرُّ بالاجسام السقيمة . ولعمري ما مثل استعدادات الناس الباطنية الاَّ مثل اوتار الكمنجة التي ان لم تمسها يدٌ ماهرة في فنّ الموسيقى مساً متغائراً لا تأتي باصوات رخيمة وايقاعات مطربة . فهكذا على الراعي ان لا يعامل الجميع معاملة واحدة بغير فرق ولا تمييز » (الراعي ق٣)

وقال في المحل نفسه لا تعاملنَّ الشيوخ كما تعامل الشبَّان لانهُ اذا كان النصح مع شيء من القسوة يوافق الشبَّان ويحملهم على عمل الخير فهو لا يوافق الشيوخ الاَّ ممزوجاً بشراب اللين والاعتبار . ولهذا السبب قال الرسول الى تلميذه تيمو . رسالة ١ ف ٥ : « لا تقرّع شيخاً بل عظهُ كأَنهُ ابوك والعجائز كأَنهنَّ أُمهات . اه

ولمَّا كان التقريع يمسُّ الشرف والشرف من خصائص الشيوخ وجب نصحهم بالرقَّة والاهابة . بل ان نستر حيناً عيوبهم وحيناً نلقنهم النصح بطريق غير مستقيمة كأننا نتكلم عن نقائص عمومية واخيراً ينبغي ألاَّ نكلمهم الاَّ بعبارات الرفق والرقَّة دلالة على ما عندنا لهم من المهابة والاعتبار .

وهل أُريد بذلك ان الشيخ لهُ ان يدعي العصمة من الذنب والعقاب كلاَّ لانهُ بذلك يسبب لنفسهِ الخيلاء ويطلب مكافأةً بئس المكافأة . ولكني اقول ان اللياقة والعدالة الطبيعية تفرضان علينا ان لا نخاطب الراهب الطاعن في السن كما نخاطب الشاب . لان الشيخ يكفيه تواضعاً ان يرى رئيسه اصغر منه سنًّا . واحياناً اقلَّ منهُ علماً وخبرة .

أمَّا اذا كان الشيخ لا يشعر بما يُقدم لهُ من الاكرام والاعتبار ولا يرعوي عن ضلالهِ بعد تكرار النصح لهُ كما تقدَّم فحينئذٍ لا سالف اعمالهِ ولا بياض شعرهِ يعصمه من الذنب او يقيه من التوبيخ المستوجب للاصلاح لانهُ هو اشدّ التزاماً بالكمال من الشبَّان . ووصمة الذنب على محيَّاه تكون اشنع منها على محيَّاهم . ومثله الرديء في وسط الجماعة يكون اكثر ضرراً من مثالهم . وحيثما لا يكفي اللين يجدر العمل بالقساوة التي عليها وحدها يتعلق اذ ذاك امر الخلاص . (مودست دي سانت امابل . الرئيس الكامل ك ١ ف ٨)

اما في سياسة الشبَّان فيمكن الرئيس ان يمزج اللطف والرقة بشيء من القسوة . لان الشبَّان كالنصبة الخضراء فيقوى على ان يميل بهم كيف شاءَ وهم ايضاً كالشمع اللين تطبع فيهم كل صورة وكل رسم . فان لم يُسرع الرئيس الى اصلاحهم في الحال تتأصل فيهم العوائد السيئة الى حد ان يمسي اصلاحهم امراً صعباً او مستحيلًا ايضاً .

فلا شكَّ اذن ان الرؤَساء لا يصيبون اذا اغضوا على اصلاح الشبَّان بحجة كونهم لم يزالوا ضعفاء بالفضيلة . ولا يصيبون ايضاً لو اغضوا على اصلاح الشيوخ بداعي كونهم سريعي التأثر لان الاصلاح امرٌ ضروري لجميع الناس من اي طبقة او نوع كانوا فلازم للشبَّان لكي يكبحوا جوح اميالهم القوية . وللشيوخ لاجل ابلاغهم غاية الكمال . اهـ (مودست دي سانت امابل)

وقال القديس غريغوريوس البابا : « بعبارة وجيزة » ان اقتصاص الرؤَساء من المذنب في الظروف المناسبة لهو عين المسامحة واغضاءهم عنه في مثل هذه الظروف لهو عين الاقتصاص لانهم يدعونه يتقدم في طريق الهلاك . اهـ (اداب ك ١٢ ف ٣٠)

عدد ٢

في انه على الرئيس ان يراعي مقام من يريد اصلاحهم

فلا ينبغي للرئيس ان يعاقب او يوبخ علانيةً من دون ضرورة داعية من يكونون بوظيفة آباء روحيين او مقلدين بعض الرئاسة او كانوا فيما مضى بوظائف سامية لانهم يرون ذلك محطاً من شأنهم وجارحاً حاساتهم ·

وهذه المراعاة تجب ايضاً لمن لهم سمعة الفضيلة والمحافظة على القوانين لئلا توهن عزائمهم · ويضعف تأثير مثلهم الصالح فالافضل في مثل هذه الظروف ان نغضي عن الذنب كلياً او ان نكتفي ببعض تنبيهات سرية او عمومية

اما الرؤساء المحليون فاذا رأى الرئيس الاكبر وجوباً لتوبيخهم فله ذلك ولكن مع احترام السلطة لانهُ ولو اساء استعمالها البعض من المتقلدين خدمتها فهي مع ذلك نطفة من سلطان الله وجديرة بكل مهابة واحترام وتستوجب حباً بالصالح العام حفظ مقامها وشرفها · فبحضرة المرؤوسين ينبغي تخفيض جرم الرؤساء او الاغضاء عنه لو امكن ولم يكن الذنب مشتهراً · اما اذا مست الحاجة الى توبيخ الرؤساء او الاقتصاص منهم علناً فيقتضي اذ ذاك ان نميّز بين الذنب والسلطة ونظهر اننا مستعدون للمحاماة والذب عنها واننا نقاوم كل من اراد ان يغتنم فرصة ذنب الرؤساء للامتهان بحقوق الرئاسة ومخالفة اوامرها · ان الرب قد ضرب مريم اخت موسى ولكنه جلت حكمته قد اغضى عن هارون لانهُ كاهنه مع انهُ كان شريكاً لمريم اخته في الذنب

واذا قام خلاف بين الرئيس ومرؤوسه واشتبه فيمن هو المذنب وجب ان يُراعى جانب الرئيس · ومن البين ان مراعاة الرئيس الاكبر للسلطة ومحاماته عنها اينما وجدت هي مراعاةٌ لسلطانه الخاص

قال القديس غريغوريوس انهُ اذا دعت الضرورة لاصلاح بعض الرؤساء فيجدر حينئذٍ بالرئيس الاكبر ان يستشيرهم عما ينبغي اجراؤهُ لاصلاح مثل هذه الشوائب لو وجدت في بعض الرؤساء من دون تلميح الى انها موجودة فيهم · وبعدما يحكمون بوجوب الاصلاح يمكنهُ ان يبين لهم ان تلك الشوائب هي

فيهم فيضطرون اذ ذاك ان يخضعوا لاوامره ويمتثلوها صاغرين لانهم يرون ذواتهم مرتبطين برباط الحكم الذي اصدروه هم انفسهم وعلى هذا سأل النبي ناتان داود الملك رأيه وحكمه بحق الغني القوي الذي اعتدى على الفقير الضعيف ولم يُلمع لهُ بشيء الى ذنبه الذي كان ارتكبه بحق اوريا . لان رجل الله ناتان اذ رأى ذاته بحضرة رجلٍ خاطيءٍ وملك معاً احتال بان يأخذ هذا الخاطي الجسور بكلامه وحكمه والا يدع لهُ مهرباً او نجاةً من الحكم الذي يكون قد لفظه هو نفسه فقد اخفى عليهِ قصده مدة وانما ذلك لكي يبغته عندما يرى ذاته واقعاً في الشرك الذي نصبه لنفسهِ . وهكذا فان التقريع الذي قرع بهِ النبي ناتان الملك داود لو وجهه اليهِ في باديء الامر لما كان لهُ هذا الوقع والتأثير . اما الحيلة التي اتخذها فقد جعلت لتوبيخه تأثيراً عظيماً . فانهُ قد حضر لدى الملك كما يحضر الطبيب عند المريض وهو يريد ان يرى العضو الزمن الذي ينبغي قطعه ولكنه لا يثق بصبر المريض على احتمال ألمِ القطع فيجتهد اذ ذاك ان يخفي آلة الجراحة تحت ثوبه ويدنو من المريض بخفة ولباقة ثم يعاجله بغتة بالقطع بنوع انهُ لا يشعر بغرضه قبل تمام المرام . وانما ذلك حذراً من ان المريض يأبى العلاج والعملية فيهلك فريسة المرض وضحية الهلع

عد ٣

في انهُ على الرئيس ان يلاحظ فيمن يريد اصلاحهم درجة فضيلتهم وحسن استعدادهم

ان الراعي الفطن لا يكدّ النعجة المريضة في سيرها لانهُ يعلم انها بذلك لا تشفى بل تموت ومن يريد ان ينظف اناء واهياً سريع العطب لا يبالغ في فركه خوفاً من كسره . وما الفائدة من الدواء في جسم قد انهكه المرض ولم يبقَ قادراً ان يحتمل العلاج . او ما الجدوى من التنظيمات او الاوامر التي يعطيها الوالي لو كان الراي العام مقاوماً لهُ والشعب كله مهيجاً عليهِ . فتدبر اذاً في امر الاصلاح بحسب ما ترى الامراض الروحية قوية او ضعيفة

فالرهبان الراسخون في الفضيلة والمستعدون للكمال يقدر الرئيس ان يعضدهم

لبلوغ الكمال بالنصح والتوبيخ ولو بشدة وقساوة لانهُ لا يخشى ازعاجهم ولا قنوطهم من مثل هذه المعاملة التي تزيدهم نشاطاً في طريق الفضيلة . اما اذا كانت زلاتهم نادرة وقليلة فالاحسن الاغضاء عنها لان الضمير والحياء ينبهان مثل هولاء الافاضل فيقومون من سقطتهم حالاً كمن يزلق في طريقه ويشعر انه لم يرهُ احد فينهض للحال وينفض الغبار عن ثيابه قبل ان يراه الناس ويهزأوا بهِ

اما الرهبان الفاترون الذين لم يألفوا النظام ولا التهذيب الرهباني ويحتاجون في كل ساعة الى التنديد والتوبيخ والاقتصاص فيجدر بالرئيس ان يغضي عن هفواتهم الخفيفة ولو تعددت ليمكنه ان يقاوم ببأس وشدة نقائصهم الهامة التي تلقي الشكوك بين الاخوة . واذا كان ضعفهم الروحي اضحى متناهياً بنوع انهم لا يستطيعون احتمال التوبيخات العلنية فالاحسن ان تنصحهم سراً وتبين لهم سوء المنقلب ان لم يرعووا وذلك بطريقة غير مستقيمة كأن تضرب لهم مثلاً كما فعل ناتان مع داود او تستعمل غير حيلة توجبها عليك المحبة الابوية وروح الرب . واياك ان توبخهم على كل زلةٍ خفيفة لانهم بذلك يضحون بليدين وغير مكترثين للتوبيخ كيفما كان

والمتمردون انفسهم لا يطيقون ان يُعنتوا تعنيتاً متواصلاً فينبغي ان نعطيهم مهلة ليرتاحوا قليلاً علهم بذلك يعرفون زلتهم ويرعوون . ان القديس يوحنا فم الذهب يرشدنا الى ذلك بقوله وعمله : انهُ بينما كان ذات يومٍ يخطب بلهجة مرة وعنيفة ضد المتمولين من مال الظلم توقف هنيهةً وقال كفاهم اليوم تقريعاً ولا نزداد في التثريب والتنديد عليهم لئلا نوغر صدورهم غيظاً وحنقاً علينا فلا يقبلون النصح ولا يعملون للاصلاح . واننا نرى الطبيب يستعمل بعد كل عملية جراحية ادوية ملينة وانما ذلك مساعدة للطبيعة كي تعود اليها قوتها فتمكنها من التقدم الى تمام الشفاء (جلد ٤ على قول الرب : ان كان مستطاع)

اجل ان الغاية المقصودة هنا هي شفاء المريض لا مراعاة ذوقه وامياله . ولكن لما كان شفاؤه متعلقاً على ارادته وليس على قوة الدواء وجب ان نسترضيه لنميل بهِ الى ما نريد منه . ان القديسين فيلبوس النيري وفرنسيس سالس عندما لامهما بعض الناس على عدم طلبهما من بعض السيدات اللواتي كن يرتشدن منهما

ان يمتنعن من الافراط في التزين بالحلى والملابس الثمينة قالا : انهما يرغبان اولاً في اكتساب القلب لانهما كانا يعتقدان انهُ اذا ما استوليا على هذا الحصن يكونان قد استوليا على كل ما يرغبان وبالحقيقة من يستولي على باطن الانسان يكون قد استولى على ظاهره بدون صعوبة ولا مقاومة . فقد قال الاول منهما : « انهُ اذا ما استحوذت العبادة على انفس هؤلاء السيدات فهن يتركن التزخرف والتزين من تلقاء انفسهن ويعملن فوق ما يرغب الاب المرشد ولاجل ذلك تروني اغضي الطرف الان عن الظواهر واشتغل في تحسين الباطن . اه « الا ترون اهل البيت عندما يشاهدونه فريسة النار يلقون كلما فيه الى الخارج . فهكذا اذا ما اشتعلت نار محبة الله في قلب الانسان يعتد كل ما سواها باطلًا ويأخذ حالاً في ان يطرحه الى الخارج لينجو من العبودية لهُ . اه

عد ٤

في انهُ على الرئيس ان يلاحظ كيفية طباع من يريد اصلاحهم

اذا كان عملك مع اناس عقلاء وذوي فطرة سليمة فيكفي في امر اصلاحهم ان تقول كلمة لينة وعذبة بل يكفي احياناً ان تريهم زللهم بارق العبارات . وانك تبلغ بهم كل مبلغ اذا ما اكتسبت ثقتهم بك وانعطافهم اليك . بل انك في الغالب لا ترى وجوباً لتنبيههم على هفواتهم لانك تراهم خجلين منها ومستعدين تمام الاستعداد لاصلاحها ولتجديد نشاطهم في طريق الفضيلة

ومن كانت طباعهم سريعة التأثر فمعاملتهم باللطف اولى لان اللطف يأخذ فيهم كل مأخذ . ولعمري لماذا نطلب بصرامة ما يتيسر نيله باللين والرقة ؟ او لماذا نكسر بعنفٍ ما يمكننا ان نلويهِ برفق

اما ذوو الطباع الحادة الشرسة فالاجدر الا تلاحقهم بزيادة الالحاح لئلا تضرم فيهم نار الغضب وتزيدهم تورطاً في شرهم . بل حدثهم من وقت الى آخر بما يوافق ذوقهم ومشربهم لانك بذلك تهمد سورة غضبهم وتتمكن بعد حين من ان تعاودهم بالنصح والحض على الاصلاح مع الرجا بانهم يسمعون لك

واذا كانت معاملتك مع المتمردين وقساة القلوب فيلزمك ان تكون ذا

فطنة زائدة وحذاقة بالغة . والاَّ فلا يمكنك ان تستفيد من نصحهم شيئاً بل تزيدهم غالباً شرًّا وعناداً . ومع ذلك فاذا كانت نقائصهم ذات بال ويخشى من تفشيها والقاء الشكوك فالتوبيخ بالرب يضحي ضرورياً لانهُ ان لم يجدِ المجرم نفعاً فيجدي الجماعة خيراً كبيراً . واذا رأيت ان تغضي احياناً عن بعض ذنوبهم فلا تُرهم انك خائف منهم لان ذلك مما يثبتهم في غيهم ويقوي فيهم روح الخيلاء والاستبداد . اما اولو الصلف والعجرفة فاجتهد بان تريهم حقيقة حالهم بالتفصيل وان ما يؤثرونه من الرفعة والمجد لا يرضي الله . وهذا لعمري افضل واسطة لاقناعهم . لانك عندما تريهم ان الاعمال التي يفتخرون بها هي باطلة ورجسة امام الله فلا بد ان يخجلوا خجلاً متدساً وينتبهوا لغيهم . وفي الغالب يسهل اصلاح الذين لا يعرفون ذواتهم مجرمين لانك اذا لمتهم ووبختهم على عمل يكون شره ظاهراً وليس لهم ان يعتذروا منه فلا يلبثون ان ينتبهوا ويعودوا للصواب

والاسهل من ذلك اصلاح من يكونون صغيري النفس جبناء . فانك اذا اثنيت على بعض اعمالهم الجديرة بالثناء وذممت اعمالهم الملومة فتأخذهم الحمية حالاً ويعزمون على ترك هذه والتمسك بتلك . ومما يساعدك على اكتسابهم هو ان تريهم ان اعمالهم الملومة لم تكن منهم الاَّ عن ضعفٍ طبيعي يحدث لكثيرين وانك تعتمد حسن استعدادهم ورغبتهم في الكمال الرهباني واخيراً ان ليس لك بنصحهم غرض او رغبة سوى خيرهم وتبليغهم الكمال . » (الراعي ق ٣ ف ٩)

ثم ان توبيخنا المتكبرين يكون لهُ اجزل فائدة لو اتبعناه بالثناء على بعض خصالهم الحميدة . وبالاكثر لو بيّنا ما لهذه الخصال من المنافع الحاضرة والمستقبلة . فهم بعد سماعهم ثناء يسرهم لا يأنفون من توبيخٍ يسيئهم . ومما يسهل لنا ان نحمل المتكبر على عمل الخير هو ان نبين لهُ ان عمله مفيد لصوالح العموم اكثر منه لصوالحه الخاصة . لان الكبرياء او عزة النفس تدفع مثل هولاء لعمل الخير عندما يرون انهم فيهِ يخدمون صوالح القريب

عد ٥

في انه على الرئيس ان يلاحظ في من يريد اصلاحهم ضعف عقولهم وامراضهم الوهمية

ان القديسة ترازيا تشير ان لا نطلب من الراهبات الواهيات العقل شيئاً لا يدركن اهميته ولو كنَّ مع ذلك فاضلات ومستنيرات بالروح · فلو ظن هؤلاء الراهبات مثلاً ان الفريضة الموجبة على كل راهبة ان تشكو اختها لرئيستها عند الاقتضاء هي فريضة ثقيلة مجحفة بالمحبة الاخوية فيليق بالرئيسة انلا تسألهن القيام بهذه الفريضة لانها تقلق ضمائرهنَّ وتلقيهنَّ في الوساوس والبلبال · ولتكتفِ بطاعتهن في الامور الجوهرية طالبةً من الحق سبحانه ان ينير عقولهنَّ ويريهنَّ الصواب والسداد · ومما اتى عن هذه القديسة انهُ اذا اتت راهبة تشكو لديها من مرض موهوم فكانت القديسة تسمع لها بكل تأنٍ واصغاء · وتدعو لها الطبيب وتأمرها باستعمال العلاج وبالخضوع لما يأمر بهِ الطبيب الى ان تكون رأت ذاتها قد نقهت من ذلك المرض

وقال الاب اكراڤيثا : « ان الراهب القانوني والعامل بتعب وكدٍ اذا أتى يطلب من رئيسه الراحة والاعفاء من العمل مدة فلا ينبغي للرئيس ان يتصور فيه مرضاً وهمياً · بل يجدر بهِ ان يصدق قوله ويذعن لمطلوبه · اما لو كانت تعليمات الطبيب او غير علامات تؤكد ان مرضه وهمي وانما حبه للبطالة يجعله ان يطلب الراحة بتواتر فيجب حينئذٍ ان يعامله الرئيس بموجب الرسوم الآتية وهي :

١ً بعد ان يكون اظهر الرئيس كل اهتمام بمرض الراهب وعلاجه ينبه الطبيب والاخ الممرض وكل الذين ينتابون قلايته ان يفهموه ان مرضه سليم العاقبة وانهُ بعد قليل ينتبه منهُ · وبهذه الاثناء لا يبخل عليهِ بشيء من حسن المعاملة والتمريض ليوقن ان المرض مع هذه المعاملة لا تطول مدته

٢ً واذا لم يزل الراهب معتقداً انهُ مريض ويشتكي من ضعف القوى وشدة الالم فاوعز اليه ان يختار ما يراه يناسب راحته مثل كثرة التنزه والمواكيل اللطيفة

والمغذية وزيادة النوم هذا ولو كنت انت وكل ذوي الخبرة لا ترون فيهِ اثراً للمرض . وبعد معاملتك اياه مثل هذه المعاملة وتأكيدك لهُ اهتمامك ومزيد عنايتك بهِ فاسألهُ اذا كانت البطالة لا تسبب لهُ الضجر وشيئاً من الانزعاج والصداع فلا غروَ انهُ يعترف لك بالحقيقة وعند ذلك ادفعه الى ان يقترح عليك عملًا يرغبهُ فاذا اقترح عمــلًا مما لا تسوغه عوائد الرهبنة فتقول لهُ ان هــذا يفوق سلطانك اما لو طلب شيئاً مما بوسعك ان تمنحه اياه فلا تتأخر عن ذلك وهبه ما يتمناه

٣ً وان لم ينجع بهِ شيء مما تقدم فاوعز الى الاخوة ان لا يترددوا الى قلايته علَّ وحشة الانفراد والعزلة تحمله على ان يرغب ويطلب العمل مع الاخوة داخل الدير او خارجاً عنهُ

٤ً واذا رأيتهُ ميَّالاً الى تغيير الهواء فلا ترفض عليهِ سؤله لان اوهام مثل هولاء الرهبان وتأثيراتهم هي مما لا يقاس عليهِ وليس لاحد ان يقتدي بهم وليس بغريب ان يحدث لهذا الاخ ما حدث لكثيرين من امثاله وهو انهُ بتغيير الهواء مدةً يخال لهُ انه قد عوفي تماماً . اما اذا أبى مبارحة دير سكناه فأشر على الطبيب ان يبيّن لهُ ضرورة تغيير الهواء . وعندئذٍ إمَّا انهُ يرضخ لامر الطبيب وتكون النتيجة المرغوبة وإمَّا انهُ يؤكد لك وللطبيب انهُ قريب من العافية ولا يعوزه الاَّ الراحة اياماً قليلة داخل الدير وبهذه الطريقة لا تلبث ان ترى اوهــامه قد زالت وصحته عادت الى احسن مما كانت عليهِ

وبعد هذا يتكلم الاب اكوافيفا عن الراهب الذي يتمارض عن كسل وتقاعد فيقول :

١ً ان تسأل مثل هذا الراهب عن الاشغال التي تتعبه ويشمئز منهــا فيُعطى ما يختار لانهُ لا يمكن ان يأبى كل عمل ويقول عن ذاته انهُ لا يصلح لشيء على الاطلاق .

٢ً وبعد مدة تحرضه على اعمال اكثر اهمية ولو كان فيها اوفر صعوبة مبيناً له انه بقدر ما يقدم من الخدم المفيدة للرهبانية بقــدر ذلك يضحي فيها معتبراً ومحبوباً .

٣ً ثم تقدم لهُ مثال الرهبان الذين كانوا يوماً ما قلقي البال في امر صحتهم ولم يجدوا دواء اجزل نفعاً وفاعليةً لشفائهم من حسن خضوعهم لامر الطاعة وامتثالهم اوامر الرؤساء بنشاط وسلامة قلب. وبهذا ينجو الرئيس من محظورين الاول انه لا يظهر لمرؤوسه عدم ثقته بمرضه فيزيده حزناً وكآبةً . والثاني يبين له ان مرضه هذا لا يستوجب الخوف والاهمية الزائدة وهذا مما يساعده على ان يُقلع عن اوهامه الباطلة

ولا غروَ ان هذه الامراض الوهمية هي نصيب الطبيعة الضعيفة فينبغي ان تعامل من كان مصاباً بها بالصبر والمحبة وحسن المراعاة لئلَّا تزيده حزناً وبأساً

الباب الثالث

في ان الفطنة تعلم الرئيس ان لا يعطي الادوية الاَّ جرعة بعد جرعة وعلى مقدار قوة المريض

عد ١

في انه على الرئيس ان يعرف اولاً نوع المرض الادبي وعلته في مرؤوسه ثم يبين له حقيقته ويحمله على الاقرار بهِ

فاذا شئت ان تستعمل علاجاً لمريض فاجتهد اولاً بان تعرف سبب المرض وما هي اعراضه وهل هو متقطع او متواصل . مزمن او حديث وما هي مدته والظروف التي ساعدت على مواصلته او جعلته ان يتقطع وافحص ايضاً عما هي مفاعيله وعن علته فهل هو متأتٍ عن مزاج العليل او عن طبعه او عن العادة او عن بعض الاميال المنحرفة . ثم ما هي العناية التي بذلها المريض للتخلص من مرضه هذا او هل يطوح بنفسه عادةً في الاخطار وما هي الادوية التي استعملها لحد ذلك الوقت وهل لم تجدهِ نفعاً

قال مودست دي سانت امابل: ان اول شيء يجدر بالرئيس ان يعمله عندما يرى ذاته ملتزماً ان يعاقب مرؤوسه هو ان يبين له اولاً عظم ذنبه ببراهين دامغة ثم يعاقبه وبهذا يحمله على قبول العقاب بطواعية ورضاً . اما لو عاقب اولاً مرؤوسه ثم بعد ذلك اخذ يبين له ذنبه لفعل ضد الفطنة والنظام . الا ترى كيف يعمل الجراح فانهُ قبل ان يبتدي بعمليته يأخذ بان يبين لعليله الفساد المتكون في العضو الزمن الواجب قطعه ويريهِ ايضاً سوء العاقبة ان لم يُذعن للعملية . فهكذا ينبغي للرئيس من قبل ان يضرب بسيف العقوبات ان يبين لمرؤوسه حقيقة جرمه وانهُ ان لم يكفّر عنهُ بالعقوبات القانونية يضر بنفسه وبالجماعة . وهذا البنيان لا يكون بطول الكلام ولا بزخرفته بل بايضاح الحقيقة على مقتضى الحال واظهار اهمية الذنب من دون مبالغة » (الرئيس الكامل ك١ ف٨)

فاجتهد اذاً اولاً بان تقنع المريض ليعترف بحقيقة مرضه . وألقِ عليهِ بعض المسائل وابدأ خطابك بمبادي راهنة لا يختلف فيها اثنان واستخرج منها نتائج توافق الموضوع او بالحري فليكن الموضوع طالباً لها . وبذلك تحمل مريضك على الاقرار بحقيقة مرضه والاذعان لمداواته بمقتضى روح القانون

ان من كان مريضاً مرضاً ادبياً قلما يذعن بسهولة للاقرار بحقيقة مرضه لانه لا يشعر بهِ فلذلك ينبغي ان نبين له ان اعراض مرض النفس هي في الغالب غير محسوسة وان من كان ممنواً بها لا يراها في نفسه كما يراها غيره لان الكبرياء ومحبة الذات تمنعاننا من نظر عيوبنا ونقائصنا . فيلزمنا بمثل هذه الامور ان نثق بما يقوله لنا رؤساؤنا ولو لم ندرك كل الحقيقة في الحال ونثق بها كما نثق بما يعلمناه الايمان المقدس ولو كنا لا نتوصل الى معرفة اسراره الخفية . اما بعد زمان فلا بدَّ من ان نتيقن الحقيقة ونذعن لكل ما قالوه ويقولونهُ لنا . وقد يتفق غالباً ان الادوية المستعملة لشفاء الجسد تضر بهِ لوقوعها في غير موقعها اما الادوية التي نستعملها لشفاء النفس مثل الاماتة والكفر بالذات وما اشبه فليست غير مضرة فقط بل انها لا تخلو من الافادة اصابت المرض او لم تصبه وسواء كانت النفس مريضة كما يبان ام سليمة . هذا وانه لما يوجب الخجل على الراهب ان يظهر عدم الثقة برؤسائه الذين اقامهم الله اطباء النفس بينما يثق كل الثقة بما يصفه ويقوله له اطباء

الجسد· فما عساك تقول عن مريض يخاطب طبيبه بهذا الكلام: « عليك انت ان تحزر مرضي وترى الدواء الملائم لشفائهِ اما انا فلا اقول لك شيئاً ولو مهما صار» افما تقول ان ذلك لعين الحماقة

قال القديس غريغوريوس: « ان الراعي اليقظ يلزمه في بعض الاحيان ان يستخدم الظروف المعلومة لديه لكي يستنتج منها ما هو خفي ومكنون في اعماق ضمائر مرؤوسيهِ وان يوبخهم باطف ورقة لكي يتوصل من معرفة الهفوات الصغيرة الى اكتشاف نقائص اكبر واعظم مكنونة داخل ضمائرهم ولذلك السبب قال الروح القدس للنبي حزقيال: « يا ابن البشر انقب الحائط » وبقول النبي « فنقبت الحائط فاذا بمدخل فقال لي الروح ادخل وانظر الارجاس الخبيثة التي يصنعونها في هذا المكان فدخلت ونظرت فاذا كل شكل من الدبابات والبهائم النجسة وجميع اصنام اسرائيل مرسومة على الحائط (ف٨)· فان حزقيال هو صورة الراعي والحائط يشير الى رياء الرعية ونقب الحائط انما هو اجهاد نفس الراعي للاكتشاف على خفايا الضمائر · فالنبي بعد ما نقب الحائط وجد مدخلاً وهكذا الرئيس اذا اجهد النفس بامر النصح والتوبيخ بوقته وبسائر ظروفهِ المتوجبة يجد مدخلاً الى قلوب مرؤوسيهِ ويرى كل مايكون فيها من الشوائب والنقائص اه· وقد قال هذا القديس ان كلمة الراعي التي يوبخ بها هي بمثابة المفتاح لانها تفتح الضمائر وتكشف نقائص خفية كانت مجهولة عند مرتكبها نفسه اه

عدد ٢

في ان اخصّ واجبات الرئيس في مثل هذه الظروف ان يحرّض الراهب المذنب على ان يتفرَّغ للاعمال الروحية وان يساعده فيها بموضوعات تقوية خاشعة

اما الموضوعات والنصائح التي تقدم في مثل هذه الظروف فهي فحص الضمير بدقة وتواتر على موضوع الرذيلة المتسلطة· قراءة الرسوم والقوانين بتأنٍ وتدبر· بعض النوافل التقوية الموافقة للموضوع · تواتر الزيارة للقربان المقدَّس بحرارة·

وبعض نخب من التواريخ والمبادىء الحكمية التي يبني الرئيس بجمعها لهُ مطبقة على الفضيلة التي يكون محتاجاً اليها بنوع خصوصي . ثم اعتبار هذه الفضيلة في السيد المسيح وفي تدييسه والانقطاع عن الاعمال الجسدية او عن بعضها مدةً لاجل التفرُّغ للحيوة الروحية الباطنية . وبعض اعمال التواضع والتقشف وبنوع اخص المناولة بعض الاحيان فوق العادة مع استعدادات خصوصيـة . واعتراف عام او فحص الضمير العام لاجل تجديد التوبة الحقيقية .

وقبل مباشرة عمل الرياضة العمومية او الخصوصية يترتب على الرئيس ان يستفهم عن النقطة الهامّة في عيوب مرؤوسهِ لكي يرشده الى العناية باصلاحها بنوع خاص . وبعد نهاية الرياضة يفحص الرئيس عن المقاصد الصالحة التي يكون قصدها الراهب في هذه الرياضة ويعني في ان يرشده ويساعده بكلما يلزم لاكمال الاصلاح .

ومن الاعتبارات التي يمكنك ان تلقيها عليه بعد الرياضة هي قولك لهُ : لا يوجد للراهب طريقة وسطى بل يكون عادةً اما صالحاً واما رديئاً . نعم ليس احد يعلم علم اليقين ان كان اهلاً للمحبة او للبغضة ولكن نعلم من قوله تعالى: « من ثمارهم تعرفونهم » . ان الوصول الى قعر الهاوية لا يكون بدفعة واحدة . واذ ذاك فهل ياترى انا بعيد عن السقوط بهذه الهاوية . ان مخالفة القوانين لا تكون عادة بدون خطاء او بدون خسارة بعض النعم . ومن خرج عن حيز القانون لا يسهل عليه عادةً ان يبقى في حضن الرهبنة . وان ارتداد الوثني الى الايمان لهو اسهل من ارتداد راهب فاتر او متراخ بقوانينهِ الى الحرارة والنشاط . ولماذا انا صرت راهباً هل لكي البس الثوب الرهباني واتجنب بعض الخطايا القطيعة لا غير ؟ وهل هذه الغاية كانت كافية لتركي اهلي ووطني ومقتنياي وملاذ الطبيعة . وكيف يليق بالراهب ان يضيع بالملاهي والاكاذيب وقتاً كهذا ثميناً ووجيزاً ؟ فيـا ما اسمى دعوتي ! ويا ما ارفع درجـة الكمال التي يترتب عليَّ البلوغ اليها ويا ما ابعدني عنها لحد الان ولماذا اراني اقتدي بالفاترين ولا اقتدي بالنشيطين الحارّين . وهل سيرة فلان وفلان غير الصالحة تقدر ان تزكيني امام الله ؟ .ولو فرضنـا ان هؤلاء الفاترين كانوا من المتقدمين بالسن والشرف والمعـارف فما لي ولهم . فهل

يوافقني ان اموت وانا في هذه الحال· فهل كفَّرت عن خطاياي وبلغت الغاية التي قصدتها في الرهبانية ؟ والى متى اقول الغد الغد ولماذا لا اقول الآن الآن· في هذه الساعة ابتدي بحياة التوبة والعبادة الحارَّة ؟ وان لم ابتدئ في هذه السرعة فابقى طول حياتي فاترًا لا اغرس في نفسي فضيلة ولا اقتلع منها رذيلة · وبذلك اي ذنب لا آتيه بحق الجماعة التي يجب عليَّ بنيانها ؟ وبحق الكنيسة التي دُعيت لخدمتها وبحق نفسي التي كنت قادرًا ان اغنيها باعظم الفضائل والاستحقاق ؟ وأمي الكنيسة المحاربة من اعداء الدَّاء لا يعرفون الكلل ولا الملل هل ترضى مني بان اكون راهباً اديباً مجتنباً عمل المنكرات القطيعة لا غير ؟ والانفس المسلَّمة لعنايتي اما كانت تتقدس لو رأتني قديساً ؟ وتتوانى لو رأتني متوانياً ؟ ومن انا حتى اقاوم مقاصد الله فيَّ فلا اقبل نعمه ولا اقدم لهُ الا نصف ما يمكني تقديمه من عقلي وفكري ونشاطي· فياللخيانة ؟ وياللخسارة التي لا تعوض فاني لو وُجدتُ نشيطاً يوماً اكون متوانياً اياماً واشهرًا طويلة ·وأرى اني قادر بسهولة ان احصل على ما انا مفتقرٌ اليهِ من فضيلة وهمة ·وكيف لا اقدر على ما قدر عليه عددٌ غفير من القديسين وهم بشر مثلي · او لماذا لا اعمل ما احضُّ غيري على عمله· وما هذا التغفل فاني أُريد خلاص القريب واسعى في تحصيله ولا اسعى لخلاص نفسي ·آه يانفسي لو عرفتِ عطية الله لما خامركِ الملل· لقد اعدَّ الله لكل عمل تعملينه بهمة ونشاط ثواباً عظيماً ودرجة سامية في النعمة والمجد فان قلب يسوع هو مخزن النعم وينبوعه وهو الرجاء الوطيد لكل من لجأ اليه·

ومن انجع الادوية التي ينبغي للرئيس وللواعظ ايضاً ان يستخدمها هي ان يعتبر ما قد اثر فيهِ وفي الآخرين ويستعمله بانواع واشكال جديدة توافق الظروف الحاضرة ·

عد ٣

في انه يترتب على الرئيس ان يجتهد في اكتساب ثقة مرؤوسه وفي ان يحسن مقابلته ولو تكررت مراتٍ عديدة في النهار

ليس للرئيس ان يرتاب من ان الراهب الذي سقط في الفتور الروحي يرغب

في ان يعود الى حرارته الاولى · بل يجب عليهِ ان يبذل معظم جهده في ان يبين لهُ ببراهين دامغة الوسائط التي تبلغ بهِ الى الغاية المطلوبة · وان ابى حيناً ان يعمل بهذه الوسائط فليس على الرئيس ان يقنط بل ان يأمل استعمالها من مرؤوسه بعد حين ومما لا ريب فيهِ ان لطف الرئيس وحبه المخلص لصالح مرؤوسه هما اللذان يحملان الراهب عادة على الاذعان والتسليم المطلق لمشوراته · فابذل اذاً قصارى الجهد بان يكون لمرؤوسك ثقة بخلوصك نحوه وبان يزورك مرات عديدة في النهار لو امكن كي تخاطبه بشان صالحه الروحي الحقيقي فيرى انهُ كلما فتح لك صدره واطلعك على خفايا ضميره ازداد اعتبارك وحبك لهُ · وأبن لهُ انك لو اطلعت من الآخرين على نقيصةٍ من نقائصهِ للمته ووبختهُ ايضاً عليها اما لو اتى هو عفوًا وكشف ضميره معترفاً بهفوته مهما كانت لازداد اعتبارك لهُ اذ يكون قد كفر عن ذنبه باقراره بهِ عن رضىً تام وحريةٍ كاملة لانه لم يقصد سوى طلب المشورة والمساعدة على عدم الرجوع اليهِ · وأبن لهُ ايضاً ان الحالة الرهبانية مع كونها محجة الكمال فمن شأنها ان تلقي الراهب بمعاطب كثيرة ومن ثم نحتاج فيها الى يدٍ ابوية ترشدنا الى الصواب وتساعدنا على المسير باستقامة ونشاط وقد قال بذلك القديس غريغوريوس ان لا شيء يساعد على شفاء الجرح مثل فتحه لاخراج الفساد منه كما انهُ لا شيء يضر فيهِ مثل بقائه مغلقاً والصديد فيهِ

قال الاب اكواڤيڤا في مقالتهِ الثانية « اتعلم اي متى يكون الرئيس كاملاً على حسبما تقتضيه وظيفته انما ذاك لما يصير يقبل رهبانه بكل لطفٍ وبشاشة حتى انهم يقبلون اليهِ بكل سهولة ويطلعونه من تلقاء خاطرهم على كلما عندهم من صالح وطالح · واذا نبهم او وبخهم على شيء ما يستعذبون ذلك ويقبلونه بشكرٍ ومنة

ان المحرك الاول للتوبيخ والاصلاح انما هو القلب ومن المعلوم ان من القلب الى القلب سبيلًا اعني ان للقلب حساً خاصاً لادراك ما يصدر عن القلب · فانه يمقت ويرفض كلما يرى فيهِ شيئاً من الكراهية والنفور كما انهُ يتقبل بكل دعةٍ وهشاشة ما يلحظ فيهِ من الحب والاخلاص · فاذا شئت ان تكتسب

القلب او تستأسره فاجتهد بان تبدي لهُ الود والاخلاص . ألا ترى بوناً عظيماً بين قاطع الطريق الذي يقبل اليك ليطعن صدرك بمديته وبين الطبيب الذي يدنو منك ليفقئ لك دملة ؟ فانهما لا يتقدمان اليك بهيئة واحدة بل لكلٍ منهما هيئة ومنظر ينبيء بمقصده . فالاول الذي يقصد الفتك بك لا يتروى في ما يعمل ليسلب حياتك . اما الثاني الذي لا يقصد الاّ تخفيف اوجاعك فيتبصر ويتروى كيف يمكنه ان يفتح لك الدملة من دون ألم زائد وبعد فتحها ياخذ حالاً بتضميدها . وهلّا تميز الواحد من الآخر من مجرد اقدامها اليك ؟ فانك بدون ريب تهلع من منظر الاول وتصيح المدد قائلاً ابتعد عني ياشقي يا عدو . اما الثاني فانك تستأنس بهِ وتفتح لهُ صدرك ليشق الدملة ويخرج منها المادة الفاسدة التي هي علة الملك . وانما ذلك لانك تقرأ على محيا الواحد ما يكنه صدره من البغضاء والحسد وعلى محيا الثاني ما يكنه صدره من شواعر المحبة والشفقة

عد ٤

في انهُ على الرئيس ان يؤجل تنفيذ العقاب من يومٍ الى آخر وان يحترص بالخصوص ان لا يعاقب احدًا قبل ان ينبه افكاره الى ذلك

اعلم باني لا اقصد تحريضك على اهمال العقاب كلّا بل على تأجيله من يوم الى يوم وعلى الاجتهاد بجعله خفيفاً لطيفاً . لان من ترك من حقوقه شيئاً بالوقت المناسب فانهُ ليس فقط يفعل فعل كرم وشهامة بل يعمل ايضاً اعمال فطنة وينال اخيرًا اكثر مما لهُ . الا ترى ان الله جلت حكمته اجاز للعبرانيين ان يسرّحوا نساهم ويعطوهن كتاب الطلاق . وهذا بعد ان اعلن لهم وحدة الزواج وعدم انفصام عراه ؟ وقد سمح لهم ايضاً ان يقدموا لهُ ضحايا خارجاً عن اورشليم بعد ان حظر عليهم ذلك باجلى بيان . ومن الدواعي الكافية لتأجيل العقاب ولتخفيفه او لتغيير نوعيتهِ ان ترى مرؤوسك موشكاً ان يقلق ويضطرب او ان الدواء مع التأني ينجع فيهِ بزيادة . ولا باس لو رجعت بعد قليل الى مواصلة العقاب المتوجب مع بعض التخفيف والتغيير . وبهذه الاثناء ضع هذا الراهب بين اخوة صالحين وافاضل يمكنه ان يستفيد من مثالهم ونصائحهم وعين لهُ بالخصوص اباً

روحياً من ذوي الفطنة والفضيلة الراهنة . اما الاخوة الذين يكون فيهم شيء من مرضه او تخشى من احاديثهم معه او معاشرتهم لهُ ضرراً ما فابعده عن مساكنتهم ما امكن .

واذا رأيت من الضروري ان تنزل بهِ قصاصاً قاسياً فاعدد لذلك طريقاً بالرفق والمحبة كي يرى كل احدٍ والمذنب ايضاً ان محبتك ووداعتك تطفوان على كل اعمالك كما يطفو الزيت على الماء لو مُزج بهِ . ومن الثابت ان الاصلاح ولو بشيء من التوبيخ او العتاب يأخذ بمجامع القلب وينجح لو كانت المحبة والوداعة تتقدمانه وتلطفان بحلاوتهما ما بهِ من المرارة الطبيعية . وبالنتيجة ان الاصلاح يكون مقبولاً ومحبوباً لو عرف الرئيس ان يكون هو نفسه مقبولاً ومحبوباً عند مرؤوسيه لان المرؤوس المحب للرئيس لو شعر بمرارة عند انزال العتاب بهِ للاصلاح لنسب ذلك الى مفاعيل زلأته ولا للرئيس الذي لا يراه يتوخى الاً خيره والتكفير عن ذنبه . وبهذا تكون نتيجة تأخير القصاص الاصلاح والمحبة . وعرفان الجميل نحو الرئيس .

فاجتهد اذاً بألاً تدع في توبيخك وعقابك من المرارة الاً ما كان ضرورياً . فهكذا يعمل الطبيب الفطن فانهُ اولاً لا يضع في العقاقير من المرّ الاً ما كان ضرورياً . وثانياً بعد ان يأخذ العليل الدواء يعطيه شيئاً من الحلو ليصلح بهِ ذوقه

ولا تنزل العقاب في مرؤوسك المذنب قبل ان تنبهه وتعدّه لقبولهِ بشواعر الدين والفضيلة . فلو اقدم أحد الجرّاحين على عملية قبل ان ينبه العليل لذلك فما عساك تقول عن غلاظة طبعه . قد جاء في سيرة المكرّمة الام اغنيس ان ملاكها الحارس وبخها توبيخاً مرّاً على انها بكتت إحدى الراهبات قبل نصحها لها بروح الرب وتبيانها لها ذنبها ووجوب احتمالها العقاب لاجل التكفير عنه وبنيان القريب

فينبغي لك اذاً ان تنبه مرؤوسك قبل اصدارك لهُ الاوامر بيومين اوثلاثة لكي يحارب امياله المنحرفة ويتقوّى على العمل بما تأمره بهِ . وبعد قيامه بما أُومر بهِ اظهر لهُ انك نسيت جرمه ورضيت عنه الرضاء التام . واذا التمس منك شيئاً يوافق هواه ويضرّ باتمام ما أُمر بهِ فلا تمنعه اياه بعنف وقسوة بل حضه على مواصلة الصلاة وعلى التسليم لامر الطاعة . وبعد ذلك لو رأيت انه يعتقد ان هذا الطلب

يوافق صالح نفسه وكرر طلبه فلا ترفض عليه سؤله · ثم في بعض الاحيان اذا رأيت موافقاً بالرب فاطلب انت منهُ انجاز بعض اعمال صعبة ومرة على الطبيعة ولك ان تمدحه او تذمه بقدر ما تراه نشيطاً او متوانياً · وان هو احب انْ يُقدم على بعض الافعال الخطيرة فاسمح له بذلك مع ارشاده الى مواصلة الصلاة ومعرفة الذات والتواضع المسيحي

واذا توصلت الى ان تجعل مرؤوسك يطلب منك من قبل نفسه ان تعيّن لهُ بعض القوانين او بعض الاماتات والتقشفات · ويرغب بان توبخه وتخجلهُ امام العموم فتكون قد نجحت في عمل الرياسة وفزت بما يوليك فخراً واستحقاقاً

عد ٥

الخليق بك ان تونّب مرؤوسك اولاً بينك وبينهُ سرّاً وان تصفح بطيبة خاطر عن الذنوب التي يشكو نفسه بها وان تقيمه حكماً على ما يستوجبه من العقاب وفاء عنها

ابتدئ اولاً في التوبيخ السرّي واكتفِ بهِ ان لم تقضِ الضرورة بالتوبيخ العلني وفي هذا اتفق مع المذنب على كيفية العقاب وكميته وابذل الجهد بان يكون خفيفاً لطيفاً بقدر ما ترى الراهب مطواعاً وخاضعاً

ومما لا ريب فيهِ ان الذنب المعترف بهِ عن ارتياح وطيبة نفس لهو مغتفر بسهولة اللهم ان لم يكن ثم معثرة ومع ذلك فينبغي ان يلطف العقاب ويخفف بقدر الامكان · بخلاف ما اذا تبين ان المذنب مصرّ على ذنبه ولا يريد ان ينثني عنهُ ويعود الى التوبة · وبالجملة فلتكن مقابلتك للرهبان برفق ووداعة وليكن كلامك معهم عذباً فيأنسون بك ويأتون اليك بثقة وهشاشة ويعربون لك عما في اعماق قلوبهم وهذا ما يساعدك على ان تفاوضهم بحرّية وتبدي لهم ارشادات فعالة ·

وبالخصوص لا تجافِ من يأتيك معترفاً بذنبه ولو علمت انهُ لم يتقدم الى ذلك الا بعد ان عرف انك بُلّغت ذنبه · وتقبَّل عذره ما لم يكن قد سبق ووعدك مرّات بمواعيد فارغة

واذا اقتضى الحال ان تُنزل بالمذنب عقاباً شديداً فلا تفرض عليه كلما يستوجب بل دعهُ ان يفرض هو على نفسهِ ما تأمر بهِ الرسوم الرهبانية والعوائد المرعية . وهذه كانت عادة القديس اغناطيوس والقديسة شانتال فكانا يحملان المذنب على ان يختار لنفسهِ العقاب الذي كان يستوجبه وكانا يوافقان رأيه بذلك ولعمري ان العقاب لا يكون موافقاً بالرب ومفيداً كل الافادة الاَّ متى كان مقبولاً برضىً ومتمماً بطيبة خاطر . اما اذا كان المذنب اتصل الى حالة تصلّب القلب وموت الضمير فيناسب اذ ذاك ان تبادره بعقابٍ مريع يوقظه من غفلته التعيسة

ويمكن الرئيس ايضاً ان يتلو عليهِ العقاب المفروض من القانون لمثل ذنبه ويسألهُ بقولهِ لهُ : « انت ماذا ترى أما ان ذنبك يستوجب هذا العقاب بموجب نص القانون ؟ » وبعد ذلك يقول له : اخي اني اعتقد ان اسفك الشديد وتوبتك الصادقة تعوضان عن صرامة القانون ولذلك اخفف لك العقاب بكذا وكذا ولا اريد انْ يعلم احد بعقابك ولا بذنبك محافظة على اسمك وشرفك ودفعاً لعثار الاخوة . اما اذا كان العقاب معيناً ومحدوداً من القانون فليس للرئيس ان يبدله بآخر بل لهُ ان يغير بعض الظروف التي تتعلق بارادته (مثل كون العقاب سرياً او علناً في هذا المحل او في محل آخر .)

وان كان للرئيس ان يختار هذا او ذاك فليختر ما يراه انسب لطبع المذنب والتكفير عن ذنبه ولردعه عن المعاودة الى الذنب نفسه

والداعي لهذه الفطنة والملاطفة في اجراء عقاب المذنب او تونيبه هو : « ان بغض الحقيقة مغروس في الطبيعة لان الحقيقة تنافي حب الذات المغروس في كل انسان » (باسكال)

ولذلك تحتم على الرؤساء في تنفيذهم الاوامر الشديدة ان يخفضوا منها شيئاً ويتخذوا لما بقي منها طرقاً واساليب شأنها الا تمس حاسات المجرمين . ومع كل ذلك لا تزال الحقيقة مكروهة بنوع انهُ لا يكاد يوجد من يحتمل عقاباً او تونيباً بغير تذمر او شكاية :

عد ٦

ولتكن توبيخاتك موجزة وبغاية الاقتصار ولا تتخذ العلاجات القوية
الاّ عند الضرورة القصوى واذا فرضت عقاباً فلا تطلب اقامة
حتى آخر حرف لئلا يظهر انك تريد التعنيف لا التثقيف

لقد تقدم ان الرئيس في معاقبته مرؤُوسه المذنب ينبغي لهُ أن يحاكي الطبيب الجرّاح في عملياته الجراحية فعليهِ ان يقوم بعمله بلطفٍ وسرعة لكي يخفف الم العقاب ويقصر مدته ولا يخيّل اليهِ ان الفائدة تقل بهذه الملاطفة لانهُ لا بدّ ان يشعر المذنب برفق الرئيس بهِ وحبه لهُ فيسوقه داعي الحب وعرفان الجميل الى اصلاح نفسه برغبةٍ وشوق . وان اطلت الكلام في توبيخك لا يكون لهُ وقع ولا تأثير كما لو كان موجزًا فبالاطالة يخشى عليك من الزلل وعلى مرؤُوسك من الملل بل وربما عدّ الاطالة تعنيفاً لهُ وافضت الحال الى اليأس والقنوط . فكلما كان الحديث موجزًا كان فعّالاً لانهُ يُبقي وقتاً للتروي والتأمل . ومن مبادئ الحكماء التي ليس عليها نكير ان من اراد ان يُطاع ويُهاب يجدر بهِ الاّ يطيل الكلام . قال سنيكا الفيلسوف « ان الكلام الموجز حقيق باولي الامر والنهي » « وهو كلام الملوك » (تاسيت) وقال القديس غريغوريوس « على الراعي ان يحترز لا من الكلام الردي فقط بل من ان يبالغ بشيء ولو في اقوالهِ الصالحة نفسها وان لا ياتي بكلمة في غير اوانها لان كثرة الكلام وازدحامه يضيعان كثيرًا من الحقيقة ومجدها وفوق هذا فان اطالة الكلام عيب بالخطيب لانه يبيّن فيهِ انه عاجز عن توقيع كلامهِ وتطبيقهِ على ذوق السامع ومقتضى الحال اهـ

اما اذا كان المذنب من اهل الخفة والطيش فينبغي ان تكرر عليهِ الكلام وتوضح لهُ بزيادة اهمية ذنبهِ ليتبجّن في فكره ولا ينسى بعد قليل ما قيل لهُ

ولا تستعمل من العلاجات القوية الاّ ما ندر لئلا يفقد مفعولها ولا تستعملها ابدًا مع ذوي الافكار المستقيمة والقلوب السليمة لان مثل هولاء يمكنك ان تكتسبهم بالبرهان والملاطفة بل لا تستعمل شيئاً من هذه الادوية الفعالة قبل

لن تكون سبرت استعدادات الاخ المذنب ليرى مـا هو الانسب في علاجه التأجيل ام التعجيل فان كان الاول فتتوقف الى حين وان كان الثاني فتتخذ بعض الاحتياطات اللازمـة للرفق بضعف فضيلته كما يفعل الطبيب مع المريض المنهك القوى . « امـا اذا كان عظم الجرم يستوجب عصاً من حديد كما رسم المجمع التريدنتيني فاعمل بها ولكن بعد سقيها بماء اللطف والمحبة وبهذا نكون عاملنا المذنب بعدلٍ ممزوج بالرحمة وبصرامة ممزوجة باللين بنوع اننا من غير اظهـار القساوة نبين للجميع اننا محافظون على حفظ النظام والقوانين لان ذلك ضروري لاصلاح المذنب او على الاقل لاجل بنيان القريب بمثـال المحافظة على الرسوم والنظام » (جلسة ١٣ ف ١ في الاصلاح)

وعندما تلاحظ ان المذنب اخذ باصلاح سيرته بيّن لهُ انك شاعر بذلك وقادر عمله حق قدره وشهادةً لذلك اترك لهُ شيئاً من العقوبات التي تكون قد فرضتها عليهِ بموجب رسم القانون . لانه من القواعد المسلم بها ان العقاب يكون دائمـاً اخف من الذنب . فبذلك ينجو الرئيس من ان ينسب اليهِ الظلم ويجد سبيلاً لان يعمل بالعدل والرحمة معاً وهـذا امر مفيد للغاية بل ضروري لنجاح عمل الاصلاح . فان الرئيس الذي يستعمل الشريعة بكل قوتها ويطلب الدين حتى اخر فلس لا يُعدّ اباً ولا طبيباً وانما هو قاضٍ قاسٍ ذو قلبٍ صخري لا ينعطف للشفقة او هو سيافٌ عتيٌّ لهُ ذراع من حديد . وعليـهِ فانهُ ان لم ينعطف على التائب عند مشاهدته توبتهُ الصادقة الفعّالة يظهر للناس انه محب للانتقام وراغب في شفاء غليله باهانة الاخ المذنب قال الحكيم « يابنيّ لا تكن صديقاً (عادلاً) بافراط » (الجامعـة ف ٧) يريد بذلك النهي عن بلوغ حد العدالة في اصلاح القريب وعقوبته . وقال سينكا « من الشطط ان تقتص من المذنب كل مـا يستوجب ذنبه » وان الله جلت حكمته على ما يعلم ايمة اللاهوتيين لا يعاقب المذنبين في الجحيم بكل ما تستوجبه خطاياهم

وكان القديس اكليمنضوس البابا تلميذ الرسل يقول للكهنة « تقبلوا الخطاة التائبين بفرح ولطفٍ وهشاشة وافسحوا لهم مجالاً ليثقوا بكم ويؤمّلوا فيكم نيل مرغوبهم ولا تخافوا لانكم بذلك تكونون سبباً لعودتهم الى السقوط . فلو

رأيت انساناً يمشي على شاطئ نهر وسقط فيهِ وكاد يختنق فمدَّ اليك يده وطلب اليك ان تنتشله فهل لك ان ترفسه برجلك وتدفعه الى العمق بداعي انهُ مذنب وان فعلت ذلك الا تكون قاتلاً اخاك شرَّ قتلةٍ »

انه بينما كان احد الاكليركيين مسجوناً في سجن اسقفية أنبسي طلب مواجهة القديس فرنسيس دي سال فمنعه الخدام واذ علم بذلك القديس قال لهم: انكم اذا منعتموه عن مقابلتي فليس لكم ان تمنعوني عن مقابلتهِ وبما انكم ابيتم ان تسمحوا لهُ ان يخرج من السجن ويأتي اليَّ فانا ادخل السجن آتياً اليهِ » · وهكذا كان ولما نظر القديسُ ذاك الاكليريكي تائباً منطرحاً على قدميهِ يسأل المغفرة اقامهُ للحال وعانقه وصفح لهُ فقال حينئذٍ التائب «ياسيدي انا مستعد لان اترك بطيبة خاطر وظيفتي للفقراء وفاء عن ذنبي » اما القديس فقال لهُ « ليس هذا يسرني ولكني آمل ان الشكوك التي اوقعتها بسقوطك في الاثم تزيلها بقيامك وتعوض بتوبتك النصوح احسن تعويض فهذه الآمال قد تمت فعلاً وعلى هذا كان القديس يقول « ان الحلم ينشيء تائبين اما القساوة فلا تنشيء الا خداعين

عد ٧

في انهُ لا ينبغي ان تدع مرؤوسك مضطرباً حزيناً بعد اقامةِ العقاب المفروض عليهِ بل يجدر بك ان تبدي لهُ المودة والهشاشة لكي ينتعش ويقوم من سقطتهِ نشيطاً

فبعد ان يكون المرؤوس اقرَّ بذنبه وتكون قد نصحته النصائح السرية يجدر بك ان تبدي لهُ كل مؤانسة وبشاشة كأنهُ لم يأتِ ذنباً قط · وليطمئن باله الى انك لا تعاتبه في المستقبل على ما فرط منهُ بل ولا تجحف بحق اعتباره على الاطلاق · لان خوفه من سوء الظن بهِ يسلب حرية ضميره وراحة افكاره · واذا كنت ونبت مرؤوسك ظاهراً وهو قد خضع وتم اوامرك ضاعف لهُ اسباب المودة بتواتر زيارتك لهُ وبمنحهِ بعض الهبات الخصوصية · وحينئذٍ يصير من القلب الى القلب سبيل ويرى انك آخذ بمداواة جرحه برفعك عنه السهم الذي لم ترشقه بهِ الاَّ عن حبٍ وباجتهادك في ان لا يبقى للجرح أثرٌ البتة ولعمري اننا

لا نرى شيئاً يحمل المرؤوس على حب رئيسهِ والقيام بواجباته مثل اظهاره لهُ المودة والملاطفة بعد ان يكون قام بما أمر بهِ ٠ ان المكرم بطرس رئيس الكافس كان يقول لمرؤوسه في مثل هذه الظروف : «لا شك باني ابديت لك ما احزنك ولكني ارجو منك ان تصدق ان غايتي لم تكن ازعاجك بل الاقبال بك الى النشاط في حفظ قوانينك لان واجباتي تقضي عليَّ بان اقتادك الى السماء بسلاسل المحبة ولو مع شيء من العنف وعلى رغم منك اه.

ولعمري اذا زل الراهب مرةً فلا يُضحي عدوًّا لرئيسهِ بل يبقى لهُ ابناً ٠ ويجدر بالرئيس ان يبدي لهُ الشفقة ويعامله بشواعر الوالدة٠ فهذه اذا رأت ولدها سقط تسرع لاقامته او على الرئيس ايضاً ان يتصف بصفة الطبيب الذي اذا مُني احد اصحابهِ بمرض لا يبتعد عنه ويغادره مضنوكاً باوجاعه بل يجتهد بمداواته وبان يبرهن لهُ عن صدق حبه بارجاعه صحته الاولى وعليهِ فكيف يتاتى لنا ان نعامل بقساوة نعجةً اتى المسيح بطلبها ولما وجدها بعد العناء الجزيل حملها على منكبيه بفرح عظيم واتى بها الى حظيرتهِ ودعا اهل السماء ليشاركوه بفرحه.وسروره والراعي لو وجد نعجته مجروحة فهل يقتص منها بجراح أُخرى او بالحري يحن عليها ويضمّد جراحها ؟ ثم لو كنا في مقام ابي الابن الشاطر ماذا عسانا نكون عملنا مع هذا الولد العقوق الكنود٠ فربما كنا تركناه يبكي وينوح زماناً طويلًا وتهددناه وانزلنا بهِ اشد عقوبة قبل ان نقبل توبته ٠ اما ابوه فنراه ملقىً على عنقهِ يقبله ولم يكد يدعه يكمل اعترافه بذنبـه حتى دعا جميع مجاوريه الى وليمةِ الفرح والابتهاج٠ ولعمري لو كان هذا الاب قاسياً فظّاً لما عاد اليهِ ابنه ابدًا بل كان هلك جوعاً لا محالة وهو في غربتهِ يرعى الخنازير

ويا ما اشد شطط بعض الرؤساء الذين بعد ان يكونوا انزلوا بالمذنب امر العقوبات يتركونه أليف الاحزان قانطاً مدَّعين انهُ يستوجب ان يقاسي حزناً استحقهُ بذنبهِ وان يطلب ماء التعزية في ينابيع الفضيلة٠ ولا يفشل ٠ ولكن لو كانت فضيلة هذا الراهب بلغت الى حد الشهامة لما كان سقط ومن تراه يعوّض عن نقص فضيلتهِ غير ابيهِ الروحي اعني رئيسهُ الذي يجدر بهِ ان يشجعه ويقويه ٠ اما الرئيس فان لم يكن متعمقاً في الفضيلة فلا يقدر على هذه الملاطفة والتعزية لان

فيها ما ينافي اميال الطبيعة بالنظر الى طبيعة المجرم الفظة وقلة جدارته بالملاطفة

قال سيدنا يسوع المسيح ذات يومٍ للقديسة جرترودا « ان من الروساء من يعملون الخير مع الصالحين حباً بالله · غير انهم يعاملون الاشرار بقساوة حتى انهم يضرون بهم اكثر مما ينفعونهم · فالكنيسة هي جسدي وانا رأسها ولكن اعضاء هذا الجسد ليست كلها سليمة ونقية مثل الراس بل منها ما هي مريضة ومغطاة بالقروح · والبعض من الروساء المتقدين والمنددين ينقمون من اعضاءي هذه ويلطمونها بضربات شديدة باشد قساوة حتى انهم يدمون جروحها فيشب الدم والصديد الى وجوههم فيلتطخون هم ايضاً ويتدنسون بالقساوة وقلة الرحمة اما انا بما اني ربهم وابوهم الحنون فتأخذني الرأفة والشفقة وأتظاهر كأني لم اشعر بالقساوة التي الحقوها باعضاءي المحبوبة ولا اريهم الاَّ اني راضٍ من حسن نياتهم فاغسل وجوههم بدمي والبسهم حلة المجد التي استحقها اصفياءي القديسون اهـ · وهذه الامثولة كان لها في قلب القديسة وقع عظيم حتى انها على قول كتبة حياتها كانت كأنها رطبت لسانها بدم الحمل بنوع انها لم تقل قط لاحدى راهباتها كلمة مرة او غير مقبولة · فكانت بتوبيخاتها نفسها تقرب الراهبات منها وتحببهنَّ اليها وانما ذلك من شدة انعطافها القلبي ومحبتها الخالصة لهنَّ

عد ٨

في انهُ اذا بقي المذنب مصرًّا على غيهِ بعد ان اسمعته تهديدات الشريعة الالهية يجب حينئذٍ ان تعامله بموجب رسم القانون

قال القديس غريغوريوس: ان الذين لا تردعهم الشجون عن الرذيلة يفتقرون الى توبيخات شديدة وتقريعات مرَّة بنسبة قساوة قلوبهم · فذكرهم بايات الكتاب المنذرة عليهم يرعوون من خوف الهلاك الابدي · قل لهم مثلاً كلام الحكيم « لو دققت السفيه في هاون بالمدُق لم يفارقه سفهه » (امثال ٢٧ : ٢٢) وكلام النبي آرميا اذ يقول « قد ضربتهم يارب فلم يحزنوا · اتلفتهم فلم يقبلوا التأديب وصلّبوا وجوههم اكثر من الصخر وابوا ان يتوبوا » (٥ : ٣ وقوله ايضاً « لقد اثكلت وابدت شعبي ولم يرجعوا عن طرقهم » (١٥ : ٧) . « قد عالجنا

بابل فلم تُشفَ . فاهجروها ولنذهب كل واحد الى ارضه »(الراعي ق ٣ ف ١٤)

وبعد هذا فلا يبقى لك الاَّ واسطتان الاولى ان تعزل الراهب عن دير سكناه حيث يلتي الشكوك . والثانية ان تبعده عن الرهبنة لو اوجب الامر

قال القديس اغناطيوس ان عزل الراهب عن دير سكناه لا يغير صفاته لانهُ بتركهِ لا يترك عاداته المذمومة . ولذلك لم يكن يرتئي عزل المقلقين عن دير الى آخر رغبة بالالفة والسلامة لانهم حيثما حلوا يلقون الشغب والقلق فيزداد شرهم

قال لانسيسيوس ليس للرئيس ان يطلب عزل الراهب عن ديره لاجل علة طفيفة لانهُ اولاً مما يضاد المحبة ان ترسل الى رئيس آخر راهباً لا تريده انت من جراء نقائصه . وثنياً قلما تجد رهباناً خالين من كل شائبة وفقاً لرغائبك واميالك الخصوصية . وكيف تعلم ان الذي تستبدله لا يكون شرًّا منهُ فالاجدر بك اذاً ان تعتني باصلاح مرؤوسيك لان سائق العجلة اذا طلب تغيير الخيل بتواتر قيل انهُ غير ماهر بمهنتهِ

ان احد السيَّاح طُرِد ذات يوم من دير الانبا آيليا وذهب عند القديس انطونيوس فهذا ابقاه عنده مدة ثم اعاده الى ديره ولما أبى رهبان ذلك الدير ان يقبلوه كتب اليهم القديس ضارباً مثلًا فقال : « رأيت مركباً هاج عليهِ البحر فاغرقه الاَّ انهُ بعد خسارة ما كان فيهِ طاف على الماء وعاد الى المينا محطماً . اماَّ انتم فبعد وصوله الى المينا عندكم بهذه الحالة التعسة تريدون ان تقذفوه الى اليم ليغرق ويهلك » فلدى سماعهم هذا الكلام فهموا مراد القديس وقبلوا اخاهم كانهُ كان ضالاً فوجد

ان بلتازار القارس كان يطلب من روساء معاملته ان يرسلوا اليهِ شرَّ من عندهم من الاخوة بخصالهم وطباعهم آملًا بانهُ يصلح نقصهم بحكمته وفضيلته خلافاً لما كان يعمله الاكثرون من الروساء الذين لا يريدون ان يساكنوا باديرتهم الاَّ الكاملين بكل صفاتهم . ولكن غير الكاملين الذين نعدهم كمرضى وسقام فماذا نعمل بهم ? فان تنقيلهم من دير الى آخر يعرضهم لاخطار جمة . اولاً لان تغيير ايدي الاطباء يضر بالمريض ضررًا بليغاً . ثانياً لانهم عندما يرون الجميع يشمئزون منهم ويأبون معاشرتهم يقنطون من الشفاء واصلاح حالهم ويلجاؤن

اخيرًا الى هجر الرهبانية وخسارة دعوتهم وانفسهم معاً

اما لو اتفق ان كان المكان هو سبب العثار لمرؤوس او لرئيس فحينئذٍ يضحي امر العزل او التغيير ضروريًا · اذ عليهِ وحده يتوقف رفع السبب

واذا ألجأت الضرورة الى ابعاد الراهب من الرهبانية فلا ينبغي ان نتردد بذلك لان على هذا يتوقف خلاص الرهبانية من العثار والتأخر الادبي ويتوقف على ذلك ايضاً في الغالب خلاص الراهب الذي يكون قد أبى اصلاح نفسه في حضن الرهبانية · اما الاسباب الموجبة للابعاد فهي على رأي القديس اغناطيوس ان يكون الراهب اصرَّ على ذنوبهِ ومعاصيهِ ولم يرتدع عنها لا بواسطة حضه على محبة الله ولا بواسطة عناية الرؤساء بهِ ولا بالعقوبات العادية التي فُرضت عليهِ نعند ذلك سواء كان المذنب واحدًا ام اكثر حتى لو كان من عائلة ملكية يتحتم ابعاده

وكان قدَّس الله روحه يقول : ان من يحافظ على راهب هـذا صفتهُ حبًا بمجد الله يشبه انسانًا يقطع شجرة من اصلها ويؤمل ان يستغل من ثمارها وكان الاجدر بهِ ان يقطع الاغصان الشاحة ويحفظ الاصل اذ بذلك ترجع المائية كلها الى الاغصأن السليمة الباقية فتزيدها نموًا وتعطي ثمارًا اشهى واغزر · يعني بذلك ان اصل الشجرة هو الرهبانية والاغصان اعضاؤها · اما الاسباب الكافية للابعاد فهي على رأي هذا القديس اً زلة ثقيلة وذات عثار بما يضاد الطهارة ٢ً التشبث بالراي الخاص الى حد العصاوة · ٣ً اختلاق طرق جديدةذات خداع في امر الفضيلة · ٤ً الاراء الخطرة في الحقائق الدينية · هذا وقد سئل احد الرؤساء العامين اية هي الرهبانية المدعومة باقوى الدعائم في حفظ روحها وحرارتها الاولى · اجاب « هي الرهبانية اليسوعية لان رسومها تمنع الافاضل من رهبانها عن مباينتها لقبول الدرجات الاكليريكية وتسهل ابعاد الرهبان الذين لا تكون موفرة فيهم الفضائل الرهبانية اهـ

« والابعاد لا يكون الا بقوة من لهُ السلطان الشرعي مثل الرئيس العام او الرئيس الاقليمي او رئيس اخر قد تولَّى هذا السلطان من الرئيس العام نفسه وكل ذلك بعد اخذ رأي المجمع الديري الذي يُعقد لهذا الفرض · والرسوم المحدودة لذلك من اوربانوس الثامن واينوشنسيوس الثاني عشر تجب مراعاتها اذا كانت

النذور احتفالية . اما اذا كانت النذور بسيطة فتكفي مراعاة الرسوم المحدودة في قوانين الرهبانية من اخذ رأي المجمع . لانهُ ليس للاسقف ولا للرئيس ان يطرد بسلطانه الخاص راهباً او راهبة من الرهبانية

اما الراهب والراهبة اللذان لم ينحلا من نذرهما بمجرّد خروجهما من الرهبانية فعليهما ان يحفظا النذور بقدر ما تمكنهما حالتهما الحاضرة خارج الرهبانية ويلزمهما ايضاً ان يجتهدا في اصلاح سيرتهما كل الاجتهاد ويطلبا العود الى الرهبانية . وان أبى الرهبان قبولهما فلهما ان يرفعا دعواهما الى جمعية الاساقفة والقانونيين في رومة ولكن عليهما ان يثبتا بشهادة اسقف المحل انهما اصلحا سيرتهما الماضية » (كريسون . المكتب اللاهوتي ك٥٤)

وفي قوانين القديس مبارك يحق للراهب الذي يكون قد أُبعد من الرهبانية ان يُقبل فيها بعد تحقيق اصلاح سيرتهِ حتى ثلاث مرَّات . ولو سنَّ هذا القديس قوانينه في هذا العصر لكان اوجب قبول الراهب ثلاثين مرّة بعد طرده من الرهبانية

وعلماء اللاهوت يفرضون على الرئيس بموجب الحق الطبيعي والالهي ان يفتش عن الراهب المطرود او الهارب وان يستدعيه الى حضن الرهبانية وذلك لكي يسهل لهُ طرق اصلاح نفسه بمقتضى قوانينه لئلا يهلك خارجاً عنها . اما داعي الزام الرئيس فهو ١ً ان الراهب وان مطروداً او هارباً لم يزل مرؤوسه و٢ً ان مثل هذا الراهب يخفض شأن الرهبانية لو بقي متشحاً بثوبها في الخارج و٣ً لانهُ يلقي عثاراً في الخارج لكل من يراه ويعلم امره . وهذه الدواعي هي عمومية في كل آن ومكان ولاسيا الاماكن التي لا تساعد فيها الحكومة باجبار الراهب على خلع ثوبه الرهباني

الفصل الرابع

في ان التأديب ينبغي ان يكون صادراً عن المحبة

ولنتكلم اولاً في مفاعيل المحبة في التأديب ثم نتكلم في كيف يمكننا ان نجتني اثمار المحبة ونحافظ عليها

الباب الاول

فيما تعمله المحبة في التأديب

ان المحبة في التأديب تنقي النية وتجعل الكلام عذباً وتمزج كل اعمالها باللطف والدعة

المقالة الاولى

في ان المحبة في التأديب تنقي النية

عد ١

في ان المحبة لا يُقصد منها في تأديب المذنب سوى اصلاحه

قال مودست دي سانت امابل انهُ لما كان التأديب صورة انتقام الله من المذنب وانتقام المذنب من نفسه لم يكن للرئيس ان يقصد بهِ سوى ما يقصده الله والمذنب في هذا الانتقام . والحال ان الله جلت رحمته لا يعاقب المذنب في هذه الحياة للانتقام بل للاصلاح وهكذا المذنب لا يقصد في تعذيبه جسده سوى اصلاح شوائبه . ثم ان عذاب الله اذا كان صادراً عن صرامة العدل يلقينا في وهدة الخزي والخجل ويملأ قلوبنا خوفاً ورهبة واما اذا كان متأتياً عن الرحمة

فيُفعِم قلوبنا تعزية ويحملنا على اصلاح حالنا وكذلك تعذيب المذنب جسده وتظاهره بالغضب عليهِ هل يكون للانتقام كلاً بل للاصلاح (الرئيس الكامل ك ١ ف ٨) .

والقديس غريغوريوس لما فسر امر الله القائل لهارون « وتحمل ابداً بحضرة الله الحكم على بني اسرائيل » قال : « ان المرموز بحمل الحكم على بني اسرائيل بحضرة الله هو ان الكاهن يجب ان يحاكم رعيته بمقتضى روح الرب لا غير فلايدع روح الطبيعة البشرية يمتزج باعمال مهمته المقدسة ولا يُدخل في تاديبه المذنب شيئاً من الانفعالات الشخصية او من المآرب الخصوصية ليكون حكمه على المذنب غير مشوب بشيء من لميال الجسد او امارات الغضب اه

والمجمع التريدنتيني يوضح جلياً انهُ لا يسوغ الرئيس ان يقصد في تاديبه المذنب سوى احد امور ثلاثة وهي اما حفظ النظام الرهباني واما اصلاح حال المذنب او رفع العثار اذا كان المذنب غير قابل الاصلاح . (جلسة ١٣ ف ١ في الاصلاح)

وعليهِ ان لم تقصد في توبيخك مرؤوسك الا اذلاله لا غير فتكون بذلك هتكت حرمة القدسيات بتدنيسك السلطان الذي اعطاكه الله للبنيان لا للهدم . فليس لك اذاً ان تقصد بالتاديب سوى الاصلاح لا غير . واما الحزن والخزي اللذان يرافقان عادةً التاديب فلا تكون قصدتهما الا كما ذكر الرسول اعني لاجل التوصل الى الاصلاح وتثبيته . ولكن الذين يقصدون بالتاديب شفاء غليلهم تحت طي القيام بالواجبات فهم على ما يقول القديس اغوسطينوس . والقديس توما لا يدركون شيئاً من حقيقة التأديب . وبما انهم فرحوا بالحزن والضغط اللذين حاقا بمن وقع عليهم التأديب لم يكن تأديبهم صادراً عن فيض المحبة وانما هو انتقام بحت صادر من قلب مقروح ومفعم من صديد البغض والحقد

والتأديب الذي يكون مصدره البغض والحقد لا يكون بمقتضى تعليم القديس توما معيباً في بعض صفاته العرضية فقط بل في جوهره بالنفس ولا يقال فيهِ انهُ مفعول الغيرة بل هو محض اعتداء واهانة . وعلى هذه الصورة لا يكون فضيلة تستوجب الجزاء بل هو رذيلة جديرة بالعقوبة . والقديس اغوسطينوس يزيد على

هذا قوله « أحب وقل ما بدا لك فالكلام متى كان ناجماً عن قلب محب لايجرح ولو كان ظاهره مرًّا لان قائله لا يقصد بسله سيف كلام الله سوى تخليص المذنب من عبودية شوائبه اه

عد ٢

من الواجب ان نميز ونفرق بين المذنب وذنبه حتى اذا عاقبنا على الذنب لا نبغض المذنب

قد كتب القديس غريغوريوس الى سيرياك قال: « كن متيقنا اني عندما اظهر اشد القساوة على المعاصي ابطن لمرتكبيها اشد المحبة والاخلاص . واني اعتقد تمام الاعتقاد ان الذي لا يفرق بين الشخص الزال وبين زلته ولا يعرف في توبيخاته ان يقرّع الرذيلة ويجل الشخص الذي سقط بها مظهرًا له كل محبة وانعطاف يكون في ضلال مبين ولا يفهم ما هو التأديب اه

وقال تريتيم كثيرون يوبخون بالقسط والعدل ولكن قليلون الذين يوبخون بحلم وروية . ولعمري ان الذين يتعقبون المذنب ويقرّعونه بكلام مر ويعاقبونه باشد العقوبات طبقاً لذنبه ليس عددهم بالقليل لان ذلك سهل على كل انسان. ولكن الصعوبة والحكمة انما هي بان تستخرج من هذه الصخرة الصلدة اعني التقريع والعقاب ماء التوبة الصادقة الذي يصلح لغسل ادران الذنوب وهذا لا تجده الا نادرًا لان الذين يميزون بين الشخص والذنب ليسوا بكثيرين

وقال القديس دوروتاوس « ما من احد يبغض الخطية بقدر ما يبغضها القديسون ومع ذلك لم يبغضوا الخطأة فانهم ما كانوا يحتقرونهم ولا يبدون لهم الكره ولا الاشمئزاز بل كانوا يبدون لهم المحبة والانعطاف والاحترام وما كان مثلهم معهم الا مثل امٍّ حنون ولدت ولدًا مسخاً فانها ليس فقط لا تمتهنه ولا تعيّره بل تضاعف محبتها له وشفقتها عليه لاعتقادها بانهُ ابنها وانهُ باكثر افتقار الى الالتفات والتعزية اه

قال القديس برندوس « اعلم ايها الرئيس ان الله لم يرفعك الى هذا المقام او الدرجة لكي تروّض الذئاب بالقوة المجبرة بل لترعى الخراف بحب وانعطاف

والنتيجة انك لست في هذا المقام لاجل اذلال الساقطين بل لاجل انهاضهم واعزازهم » . (في الاحد الثاني بعد الفصح)

وقال الاب يوحنا يسوع مريم الكرملي في احد ارشاداته لمعلمي المبتدئين « ابذلوا غاية الجهد في ان تميزوا او تفرقوا في توبيخاتكم للاخوة المبتدئين بين الذنب والمذنب حتى اذا قرعتم الذنب بما يستحقه لا تلحقوا شيئاً من الاهانة بشخص المذنب . وهذا لا يتوقع ما لم تميزوا بالفكر تمييزاً كاملاً بين الذنب والمذنب لكي توجهوا في كلامكم الى الذنب وحده ما يستوجبه من المقت والكره وتخصوا شخص المذنب بما يجدر بهِ من المحبة والاكرام لانهُ اخونا واخو السيد المسيح نفسه واجتنبوا الكلام الذي تشتمّ منه رائحة تسلط معلم الفتيان بل عدّوا ذواتكم كانكم مبتدئون بالرهبانية والفضيلة ايضاً . فليس لكم ان تكلموا اخوتكم إلاّ بتمام الدعة واللطف . وبهذا تستحقون الاجر المعد للرحماء » .

المقالة الثانية

في ان المحبة تفيض في الكلام العذوبة

عدد ١

قد يحق لك بعض الاحيان ان تغضب ولكن احذر اذ ذاك من ان تكون لهجتك لهجة الغضب والحنق

نعم ان الغضب بذاته ليس بمذموم ولكن بشرط ان يكون ناجماً عن داعٍ ومعتدلاً مستقيماً وخالياً من كل حماقة واهانة وان لا يبدو الاّ بعد اظهار امارات الحب والدعة وان يكون نادراً جداً اعني في بعض الظروف الموجبة وان يكون اذ ذاك موجهاً لاصلاح المجرم لا لاذائه ويمكنه بعد فورانه ان يهدأ ويوسع مكاناً للحلم والرأفة . قال القديس يوحنا فم الذهب : « ليس كل حركات الغضب خطية ولكنها تكون خطية متى صدرت عن سبب غير عادل او تجاوزت الحدود . ولعمري ان كل ما يعطينا الخالق يعود لخيرنا ؟ ومن ثم فان الشهوات الطبيعية على

موجب قصد العناية هي لنا بمنزلة المهماز للفرس تنبّه افكارنا وتوقظ تراخينا وهي لنا كحد السيف البتّار لاننا بها نقطع صعوبات كثيرة اه(العظة السادسة في مدائح القديس بولس)

قال احد القدماء « ان الغضب هو حامي العقل وهو الذي يعضده ويساعده على تنفيذ اوامره»وقال القديس اغناطيوس لروساء رهبانيته « لا تطفئوا غضبكم بكليته ولكن هدّدوه وروّضوه لانهُ ليس من الصواب ان يتسلط الغضب على الرئيس بل ان يتسلط الرئيس على غضبه وان يذخره لحين الحاجة بشأن اخضاع مرؤوسيهِ وتنبيه افكارهم الى اعتبار السلطان اه

وبعد تقرير هذا المبدأ نقول اذا ثبت ان القساوة تولد الخوف فاللين والرفق يولدان المحبة • وان المحبة وحدها لها أن تسود في احكام التأديب ونظامهِ بنوع ان القساوة نفسها اذا وجدت لا تكون ناجمة إلاّ عن عواطف المحبة • هذا وللمجمع التريدنتيني كلام في هذا الصدد جدير بان يطبع في قلب كل رئيس الا وهو قولهُ : «فليذكر الروساء والاساقفة انهم اقيموا رعاة لا مضطهدين وليحذروا من ان سلطانهم الروحي يتحول الى تسلط وتأمر بشري بل فليعاملوا مرؤوسيهم بكل رفق ولين وبعواطف المحبة كانهم اخوانهم او اولادهم وليبذلوا كل جهدهم في ان يبعدوهم عن الشر قبل سقوطهم فيه لئلا يضطرهم الامر بعد حدوثه الى توبيخهم ومعاقبتهم • امّا اذا سقط احدهم بزلّة كما يتفق لضعف الطبيعة فعلى الرئيس ان يذكّر تعليم الرسول بهذا الشأن وهو قوله « وبّخ وبكّت واصلح بكل رفق وصبر » لان عواطف الحب تؤثر في التأديب اكثر من الصرامة • والتحريض يفيد اكثر من التهديد والملاطفة اكثر من القوة » (جلسة ١٣ في الاصلاح)

فالويل اذاً للروساء ذوي الطباع الفظة القاسية الذين يوسعون مرؤوسيهم اهانات وشتائم • لانهم اذا ما سلكوا هذه الطريق لا يقدرون ان يغادروها فيما بعد ولا بد ان تسبب لهم عذاباً أليماً • لان من يدع الغضب يستولي عليهِ مرةً بعد مرة يضحي في حوزته ولا يعود يتكلم الا بالنزق والغضب وهذه الرذيلة من شأنها ان تزداد يوماً بعد يوم ولاسيا في الروساء وهم لا يشعرون

وما عساه يحدث عن ذلك فان المرؤوسين متى تعودوا سماع هذه التقريعات ومشاهدة العبوسة والغضب تجف قلوبهم ويصبحون لا يكترثون لها كثيرًا فيمسي الرئيس غير قادر على ان يحركهم الى عمل الأ بهذا المهاز الحديدي مهاز الغضب والفظاظة وهم يتعودون شيئاً فشيئاً ان يعاملوا بعضهم هذه المعاملة وكثيرًا ما يبادلون الرئيس نفسه هذه المعاملة الجافية

الا ترى ان الولد لا يسمع لامه ويهابها كما يسمع لابيه ويهابهُ وانما ذلك لان الام تتكلم كثيرًا وتتهدد تهديدات شديدة وتشتم وتتسخط ولا تفعل الا قليلًا او لا تفعل شيئاً اما الاب فيتكلم قليلًا ولا يتهدد الأ نادرًا ولكنهُ عند مسيس الحاجة يعمل ما ينبغي عمله فيهابهُ الولد ويسمع له

فالتهديدات القاسية اذًا والشديدة ينبغي ان تكون نادرة ومخيفة ليبقى لها في ذهن المرؤوس ذكرٌ هام يذكره في وقتهِ ويتجنب اسبابه لانهُ لو تعودت اذناه سماع التقريعات المرّة والتهديدات الشديدة يمسي اخيرًا مثل الصخور الموجودة على شاطيء البحر التي لا يهمها عجيج الامواج ولا لطماته الشديدة المتواترة · او انهُ يمسي كالاصم الذي لا ينتبه الا لصوت الرعود القاصفة

عد ٢

في انه يجدر بالرئيس ان يتجنب التقريعات المرّة جهده والأ يستعمل التهكم الأ نادرًا جدًا

نعم لقد وبّخ الرب يسوع توبيخاً مرًّا اذ قال « ايها الرجال الحمق والبلداء» والقديس بولس بكّت اهل غلاطية بقوله لهم « يااهل غلاطية المجانين »ولكن هذا التقريع الذي لم يقع الا على المذنب لا ينبغي ان يستعمل الأ في الضرورة القصوى لاجل خير المذنبين بعد افراغ سائر الوسائط وان لا يكون الا نادرًا جدًّا لانهُ كما لحظ القديس كاجيتانوس عند ذكره الشروط التي جمعها القديس توما لهذا الغرض قال :« ينبغي لاستعمال مثل هذا التقريع المرّ وحي خصوصي من الروح القدس لانهُ يصعب جدًا على المرؤوس ان يصدق كون تقريعاً كهذا يصدر

عن مبدأ المحبة لا عن كرهٍ وبغض اه

وهكذا قل عن التهكم لانهُ ولو ساغ للرئيس في بعض الاحيان ان يتهكم على بعض الاعمال لما بها من الخساسة والدناءة او على النزق الصادر من احد المرؤوسين لا يليق به مع ذلك ان يبدي لايٍ كان من مرؤوسيه السخرية او التهكم لان ذاك مما يهين المرؤوس ويحمله على النفور من رئيسه والبغض لهُ . وبعد فلو ساغ في النادر استعمال شيء من التهكم فليكن موجهاً الى العمل ليبين مافيهِ من الدناءة مع المحافظة على اكرام المذنب واجلاله

وقد قال سينكا في الكتاب الاول من تأليفه في الحلم « ليس بين كل اصناف الحيوان ما يشبه الانسان في سهولة تأثره ومزيد افتقاره الى المؤانسة والملاطفة ومن العجب العجاب ان نرى الناس لا يغضبون بسهولة ولا ينقمون من كلب او حيوان ونراهم مع ذلك يغضبون على الانسان وينقمون منه كانه احط وادنى من سائر الحيوان . ومن العجب ايضاً اننا لا نرانا نغضب على المرضى لاجل مرضهم بل ان مرضهم بقدر ما يكون ثقيلاً يحملنا على مساعدتهم والرفق بهم فما لنا والحالة هذه لا نرى ان للنفس امراضاً مثلما للجسد وانها اي النفس في حال المرض تفتقر مثل الجسد الى الرفق بها والمساعدة لها والى طبيب يعاملها كمحبٍ شفيق لا كعدوٍ حقود يستفزه الغضب والحنق . فعلى الوالي اذاً ان يعني بسلامة النفوس وراحتها كما يعني بحياة الاجساد وصحتها

وما عساها تكون نتيجة التأديب اذا كان بكلام الهُجر المهين ؟ ان القديس فرنسيس سالس يجيب على هذا السؤال بقوله « ان النتيجة من تأديب كذا تكون غالباً تدهور المرؤوس من خطية عرضية الى خطية مميتة » لانهُ عندما يرى رئيسه يحتقره ويعامله بهذه القساوة يصبح لا يقدر على ان يثق بهِ ولا ان يسمع له مهما قال . والشيطان خزاه الله اذ يرى الراهب بهذه الحالة مضنكاً وغير معضود من قوة فضيلته الضعيفة ولا من ارشادات رئيسهِ الغير المسموعة يغتنم الفرصة ويضاعف لهُ وساوسه فيسقط باليأس والقنوط وهيهات ان يقوم من هذه الورطة . اجل لقد يحتمل الراهب شيئاً من الاستبداد وزيادة التشديد لانه قد يخال ان بذلك مجد الله وخير الجماعة . اما متى رأى انهُ مهان ومحتقر بافراط

فلا يتمالك عن ردّ الاهانة ومقاومة الشر بالشر بل ربما افضى بهِ الامر الى القنوط وخلع نير الرهبانية . ولاجل ذلك نقول ان الاهانة لا تصلح الضمائر بل كثيراً ما تفسدها . وقال القديس يوحنا فم الذهب في هـذا الصدد « ان الذين من عادتهم ان يرتكبوا اعظم الفظائع لا يحتملون ان تدعوهم بالاسم الذي يستحقونه» فكيف يطيق ذلك من لم تكن حالهم الأ حال الكسل والفشل ؟

عد ٣

في ان الرئيس يرتكب ذنباً فظيعاً لو حمل مرؤوسهُ على ان يجيبه بجواب مر وهو يبغي بذلك علةً لمعاقبته

ان الحكيم في مواضع عديدة يكرر قوله « ان الانسان الغضوب يُوجد النزاع . والكلام المؤلم يجرح القلب ويثير الغضب اه وقد استشهد القديس ايرونيموس كلام فيثاغوروس القائل « لا تشعل النار بالسيف » يريد بذلك ان لا تحرك بالكلام المرّ الخواطر الغضوبة والمترّفعة . وقال القديس بوناونتورا « لو رأيت انساناً لا يكاد يضبط نفسه من شدة اضطرابه وغضبه ووخزته بكلمةٍ مرّة فماذا تكون عملت ؟ ان عملك هذا يشبه عمل انسان رأى كلباً هائجاً واخذ يدفعهُ للهياج فينهشه بانيابهِ » (الستة اجنحة ف ٤)

قال القديس بولس الرسول « ايها الاباء لا تغيظوا بنيكم لئلا يفشلوا » وقال القديس بوناونتورا « ينبغي للرئيس ان يتخذ وصية الرسول هـذه لاجل السبب المنوّه بهِ لان المرؤوس لو لاحظ في صوت رئيسهِ او حركاتهِ او بهيئة وجههِ شيئاً من الفظاظة لفشل ولا عاد يجسر ان يفتح لهُ قلبه بل يتصور ذاته كواحد من اصحاب ايوب لمّا قالوا لهُ « لو بدأنا ان نتكلم معك لخفنا ان يشق عليك او ان تتخذ كلامنا على خلاف ما نريد اه (ايوب ف ٤) ولذلك ينبغي للرئيس ان يكبح جماح غضبه واذا كلمهُ احد مرؤوسيهِ يجيبه برقة ورزانة ولطف . وقال القديس برنردوس « ان الاساقفة او الرؤساء الصالحين والامناء يعرفون تمام المعرفة انهم لم يرتقوا الى المراتب العالية لاجل العز والافتخار بل لاجل تخليص النفوس ومن ثم اذا لاحظوا او تأكدوا في احد مرؤوسيهم علامات الغيظ منهم او سمعوه

يقدح بهم فلا يغضبون بل تأخذهم الغيرة على ان يذكروا واجبات مهمتهم فيتروّوا ويروا في انفس مرؤوسيهم امراضاً روحية وكلوماً تستلزم سعيهم واعتناءهم بتضميدها وشفائها · وعند ذلك أيتاتى لهم ان ينقموا منهم كما يفعل السيد مع عبده كلّا بل يسرعون لمداواتهم كاباء روحيين واطباء محبين وصادقين في خدمة ما انتدبوا له اه (عظة ٢٥ على نشيد)

والاب يوحنا يسوع مريم الكرملي يقدم على ذلك برهاناً ساطعاً اذ يقول: « انك اذا استعملت الكلام المرّ المؤلم ينتج عنه احد امرين فاما يتخذ المرؤوس كلامك هذا عن بغض للانتقام فيرفضه ولا يقبله واما انه يتحمله بصبر مقدّس · ولكنّ الحال لاول يزيده فوراناً وبُعداً عنك وعن الصواب · والثاني يفشله فلا يجسر ان يبدي عملًا او يفوه بكلمة · وفي الحالين لا تكون اتيت عملًا مفيداً

فيا ذوي المراتب العالية يا من تدعوهم فروضهم الى التأديب الاخوي اعلموا وتأكدوا ان كلامكم يصمي الفؤاد كالسهام الحادّة · ومتى اصابته يقلبها على كل وجهٍ وينظر بها من كل جهة ويتأمل في ليلهِ اكثر من نهاره كل ما فيها من المعاني فيذوق من ثمّ مرارتها دفعات متواترة · ولذلك ينبغي لك ايها الرئيس ان تزن كلامك بميزان الفطنة والمحبة قبل ان تلفظ منه لفظة واحدة لانك مهما تدبرته وترويت فيه فلا تدري كل ما فيه من الثقل والمرارة كما يدريه ويشعر بهِ من يصوب اليه · وعليهِ فلا يجدر بك ان تزنه بميزان اعتبارك الخاص بل بميزان شعور مرؤوسيك واستعدادهم لقبولهِ ·

عدد ٤

في ان الرئيس اذا خاصمه احد مرؤوسيه بالكلام المرّ او بحركات الحدّة والمنازعة يجب ألاّ يجاوبه بمثل كلامه بل ان يصمت وان تكلم فليكن كلامه رزيناً ومشعراً بالشفقة على غباوة المرؤوس والرأفة بهِ

لاننا اذا كنّا نعدّ مخاصمة المرؤوسين بعضهم مع بعض خفةً وجنوناً فما عسانا نقول في رئيس ينزل قُبالةَ مرؤوسه للمكائدة والمنازعة ؟ فان ذلك ممّا

يخفض شأنه ويضعف سلطانه . وقد وبخ القديس غريغوريوس البابا توبيخاً مرّاً أولئك الرؤساء الذين يماحكون وينازعون مرؤوسيهم مشافهةً قال « يظن مثل هؤلاء الرؤساء انهم عندما ينازعون مرؤوسيهم هذه المنازعة يظهرون قوة سلطانهم وحكمتهم لانهم يبدون هذه الاعمال امام اللاّقين الذين يصوبون عملهم ولا يدرون هداهم الله انهم بذلك يشبهون الخيول غير المروّضة كما اشار الحكيم الى ذلك اذ قال : « لا تجاوب الجاهل على سفههِ لئلّا تكون انت نظيره» (امثال ٢٦ ك ٢٣ في الادبيات ف ١٠)

فاذا اخذ المرؤوس يبري‌ء نفسه امامك واخذت الحدّة منه بعض المأخذ فلا تكبح حدته بحدّة ولا ترفض مقالهُ بل استمع لهُ بهدوء بال واعلم ان في السماع والاصغاء للمرؤوسين حذاقةً كبيرة تسكّن روعهم وتصلح عيوبهم . لان من تصغي لسماعهِ لا ينفصل عنك الاّ مسروراً فتكون بسماعك لهُ قد احسنت اليهِ احساناً كبيراً . فدعه اذاً يتشكى ويتعلل ولو كانت علله فارغة لانه بذلك يُفرغ ما في صدرهِ من المرارة والسم وهذان لعمري كاعداء تخرج من قلبهِ وتغادره هادئاً مطمئناً . اما بعد هذا الثوران والانفجار فالزم انت الهدوء والسكينة ولا تبدِ لهُ الاّ الرقة وكرم الاخلاق وبذلك تربحه وتستولي على قلبهِ وهو لا يدري

ثم ألا ترى ان القلب المضغوط لهُ ان ينفث شيئاً من سمّ الحدّة ولا جناح عليهِ لان الفضيلة لا تلاشي الطبيعة بالكلية بل تكملها . فلو سمعنا ايوب البارّ يلعن يوم مولده لسددنا اذاننا ونسبنا كلامه هذا الى التجديف ومع ذلك يشهد لهُ الكتاب بانهُ بارّ ولم يخطيء بكلامهِ . او ما عسانا نقول عن سيدنا يسوع المسيح تقدّست اسماؤُه لما قال : « يا أبتِ ان امكن أجز عني هذه الكأس » ولما قال ايضاً من على الصليب « إلهي إلهي لماذا تركتني » فما هذه التأوهات الاّ مفاعيل الطبيعة البشرية ولا جناح عليها بها .

وقد يتفق احياناً للمرؤوس في وقت الضغط والشدّة ان يحمله الغضب على عدم الخضوع واظهار شيء من العصيان اما بكلام قاسٍ او باصرار على السكوت بعنادٍ وتصلب . اما انت فعاملهُ اذ ذاك بالرفق واللين ولاسيما اذا كان من ذوي الفضل والاعتبار فلا تلحّ عليهِ بل افسح لهُ ليراجع فكره ويُسكّن بلباله اما

لو اتصل المرؤوس الى اظهار شيء من الوقاحة بصوته او حركاته فعلى الرئيس حينئذٍ ان يلوي عنه الى ان يكون هدأ باله لانك لو ازدجرته بكلامٍ مهين او فرضت عليه عقوبات مرّة حين ثورته فانك عوضاً عن ترويض اخلاقه تزيده غضباً وحنقاً ولا تراه بعد ذلك الاّ عبوساً كالح الوجه. ويغتنم كل فرصة ليردّ عليك اجوبة مرّة وفظة ويظهر لك قلة الاحترام وعدم الاعتبار بروح رديئة فاسدة وهذه دلائل واضحة على حنقه واصراره على المكابرة وعدم الخضوع

ونقول ايضاً انه لو فرضنا ان مرؤوسك شتمك امام الجمهور علانية فعليك مع ذلك الا تبدي امارات الغضب والحنق بل ارينّ الجميع انك متسامٍ بفضيلة الصبر وضبط الهوى بقدر ما انت متسامٍ برفعة المقام والشرف

فقد يسوغ لمعلمي الاحداث ان يضاعفوا العقوبة للاولاد اذا ما اظهروا العناد ولم يسمعوا · اما الرئيس فان ما يرفع شانه في مثل هذه الظروف ليس الحدة والغضب بل الترفع عن ذلك والصفح بكرم الاخلاق عمّا ابداه المرؤوس من الغباوة والحماقة · ولو ساغ تنبيه المرؤوس على ما اتى به فلا يكن في الحال بل بعد مدة عندما يكون قد صحا من سكرة طيشه · ولا تفرض عليه اذ ذاك شيئاً من العقوبة بل اصفح عن اهانته اياك صفحاً مطلقاً او لا تفرض عليه الاّ عقوبات خفيفة ليرى هو والجميع انك غير ناقمٍ منه أخذاً بثار نفسك او شفاء لغليلك

الا ترى ما يقول داود النبي عن السيد المسيح « اني احفظ فمي ملجماً ما دام المنافق امامي » (مز ٣٨) ومتى البشير عندما يخبر عن الاهانات التي ألحقت بالسيد المسيح له المجد يقول « انهُ كان صامتاً ولم يفه بكلمة » والوثنيون انفسهم قد اعطوا مثلاً لهذه الشهامة وكبر النفس فقد جاء عن الملك قيصر ان احد الخطباء المدعو كانون عابه في المجلس على مسمع الجمهور وعيّره بانهُ رجل سكّير. فلم يجبه بكلمة · وان هيلفيوس مانيا وبّخ بومبايوس القائد الروماني على انهُ قتل كثيرين اما بومبايوس مع انهُ كان في اوج العز وقوة السلطان فلم يثأر لنفسه ولم يجبه بكلمة · وجاء ايضاً عن فيلبس المكدوني انهُ بعد ان حكم على احدى النساء بالقتل استغاثت المرأة في وسط المجلس من حكم فيلبس السكران عند المساء بحكمه وهو صائم وصاحٍ في الصباح فلما سمع الملك ذلك تبسّم ضاحكاً

وامر باطلاق سبيلها

ومن النصائح الاثني عشرة التي اعطاها للروساء بالتازار الثارس قوله « اذا وجدت مروثوسك غضباناً ومعانداً فسكّن انت روعك وافتكر بانه اخوك وابن الله وعضو من اعضاء السيد المسيح ولكنهُ في الحال مضطرب بقوة ابليس وانك انت غير معصوم من سقطات كهذه في بعض الاحيان . ولا تدع هذه النفس تهلك بذنبك وقد مات المسيح لكي يخلصها . واعلم انك بقلة صبرك تهلكها وبحلمك وطول اناتك تخلصها » (كتاب حياتهِ ف ٣)

وقال الاب اكواڤيڤا « لو دمدمَ مروثوسك عليك وشكا من معاملتك لهُ وقد عرفت ذلك من رجل ثقة فلا تحزن ولا تضطرب بل تصامَّ ولا تقل امام احدٍ ان هذا الراهب غير محتمل او انهُ يستحق التأديب او ان انساناً كهذا لا تتحمله الرهبانية بل ينبغي ان تقول بكل اناة ودعة انهُ ليسوءني ان ارى هذا الراهب مزعجاً واني لباذلٌ قصارى الجهد لكي اريحه ويهمني جدًّا ان ازيل من عقله الظنون الباطلة والاوهام التي لا داعي لها . فانهُ لا يتكلم مثل هذا الكلام الاَّ عن غيظٍ وحنق والذي يزيدني حزناً وغمًّا ان اعمالاً كهذه لا تخلو من العثار وتستوجب العقاب وانا لا اريد ان ازيده همًّا فليس لنا الاَّ الدعاء لاجله لعلَّ الله يوحي اليهِ الصبر واليَّ الحكمة لكي نرى كيف نتلافى امره . فياليت العناية تساعدني على شفائهِ بدون اضطرار الى عقابه وزيادة حزنه . والنصيحة الثانية هي ان الرئيس ولو الجأته الضرورة الى التوبيخ والتأديب يجب مع ذلك الاَّ يظهر شيئاً من الفظاظة والغضب والاضطراب بل فلتبدُ على محياه الرزانة الابوية والرأفة مع اللطف والحزم وهذا ما يجعله مهيباً ومحبوباً معاً

عدد ٥

في انهُ اذا رأى الرئيس في نفسه انهُ قد اخطاء ضد المحبة او ضد العدل يلزمه الرجوع عن خطاه من دون خجل ولا تأخير ولكن بفطنة ورزانة

قال القديس غريغوريوس انه يصعب على الراعي ان لا يتجاوز احياناً حدود

الفطنة في امر التأديب اذ يقول او يفعل شيئاً لا يقع في محله ونخص بالذكر التوبيخ لاننا فيهِ نتجاوز غالباً حدود الاعتدال · ومما لا ريب فيهِ ان الرئيس اذا بلغت بهِ الحدَّة الى حد الافراط في القساوة التي مرؤوسه المذنب في اليأس والقنوط · ومن ثم حالما يشعر بانه ارتكب هذا الشطط ولو عن غفلة وغير تعمد عليهِ ان يسرع في الرجوع عن شططه ويطلب الى الله المسامحة بدموع سخينة عن ذنب قد اقترفه ولو بداعي الغيرة وفرط المحبة لحفظ النظام · وهذه هي المشورة التي اعطاناها الرب بقولهِ لموسى « اذا دخل الرجل مع صاحبهِ غابةً ليقطع حطباً فضرب بالفأس ليقطع الحطب فانفلت الحديد من العود فاصاب صاحبه فمات فهذا يهرب الى واحدة من هذه المدن فيحيا · كيلا يسعى وليُّ الدم في طلب القاتل ويدركه لبعد الطريق ويقتله وليس عليهِ حكم قتلٍ اذ لم يكن مبغضاً لهُ من امس فما قبل » (تثنية ١٩)

وكاننا نذهب الى الغابة كل مرة اردنا الاطلاع على نقائص مرؤوسنا ونقطع الحطب بضميرٍ سليم عندما نريد ان نقطع للمرؤوس اسباب الخطية ولكن قد تقع الفأس من يدنا حينما تشتعل فينا نار الغيرة بافراط وقد يفلت الحديد من الهراوة لو افرطنا في توبيخ المجرم ومعاقبته · ولذلك يكون المرؤوس قد قُتل بكلامنا المرّ وتوبيخنا المؤلم لانهُ اذا لم يرَ من وراء التوبيخ لا حبًّا ولا انعطافاً نحوه فقد تصور بنا البغض وراح يبطنه لنا ومن ثمَّ يتحتم على من ضرب اخاه هكذا وقتله بمجاوزتهِ حدود المحبة الاخوية ولو على غير تعمد ان يلجأ الى احدى المدن الثلاث فينجو من القتل وهذه المدن هي الايمان والرجاء والمحبة ولها وحدها ان تنقذنا من موت الخطية وبعد ذلك لو صادفهُ احد اقارب المقتول وهو لاجيء الى احدى هذه المدن لا يقتله بل يرق لهُ ويصفح عنه اعني ان سيدنا يسوع المسيح المحامي عن اخوتهِ الصغار لا يقدر ان ينتقم من الرئيس المجرم اذا ما وجده لائذاً بالتوبة الصادقة بايمان ورجاء ومحبة » (الراعي ق ٢ ف ٩)

اليك هذا المبداء « لا تصيّر من خطية واحدة خطيتين » وقد اضاف اليهِ غراسيانوس قوله « ان كثيرين من جراء محاماتهم عن ذنب واحد يقترفون ذنباً افظع او ذنوباً عديدة » والكردينال مردوث لم يكن يعتدّ كاحمق من ارتكب

ذنباً بل من كان بعد ارتكابهِ الذنب لا يعرف كيف يكفّر عنه وان المحاماة عن دعوى باطلة لاشد بطلًا من الدعوى نفسها · لا شك بانهُ يشق على الرئيس ان يرى احدًا يحامي عن المذنب ومع ذلك فقد يلزمه ان يسمع ويعتبر الملاحظات التي يعطيه اياها بعض الرهبان الشيوخ او الفضلاء على بعض المذنبين كما لو قال لهُ احد الشيوخ مثلًا : ان هذا الذنب من هذا الاخ ما كان ليستوجب كل التوبيخ والعقاب الذي انزلته بهِ لان طباع هذا الاخ او سنّه او سوابقه توجب لهُ شيئاً من الرفق والملاطفة · ولكن لو كان التوبيخ المرّ او العقاب الشديد لم تكن لهُ مسحة الاهانة او الاحتقار للراهب المذنب او لم يكن صادراً عن شدة غضب او احتدام مفرط بل عن غيرة حقيقية على خيره واصلاحهِ فلا يناسب ان تحمل الرئيس على طلب المغفرة لهُ لان القديس اغوسطينوس في معرض كلامه بهذا الصدد لا يوجب طلب المغفرة على الرئيس الاَّ اذا كان توبيخه قد صدر عن غير روية وفي حال اضطرام نيران الغضب حتى انه سبب للمجرم اهانة حقيقيـة لا يتحملها الاَّ القليلون المتفردون بشهامة الفضيلة · وعند ذلك لا ينبغي ان يتصور الرئيس انهُ بطلب المغفرة او بترضية مرؤوسه يخفض شأن السلطة او شرفه الخاص كلا بل هو يأتي عملًا عادلاً يبرهن على حكمتهِ وشهامة فضيلته ولذلك لا يجدر بهِ ان يطلب المغفرة او يؤدي لمرؤوسهِ الترضية بتذلل وصغر نفس بل بنوع شريف يدل على الشهامة في الفضيلة وكبرٍ في المروءة يحمل الراهب المذنب على الخضوع والتوبة لا على التمرد والعصيان

وعلى هذا المبداء نقول انهُ اذا اتفق للرئيس الاصغر ان فرض قصاصاً يفوق الذنب فعلى الرئيس الاكبر ان يخففهُ مع العناية بالاَّ يضر بالسلطان الذي هو واحد في الرئيس الاكبر والاصغر · ولذلك نرى في كل الرهبانيات ان الرئيس العـام يحفظ لنفسهِ فرض العقوبات الثقيلة او انهُ يحظر فرضها بغير علمهِ

المقالة الثالثة

في ان المحبة تُلهم الرقة واللطف في ممارسة كل عمل

عد ١

على الرئيس ان يسعى بطرق مختلفة ذات لين ولطف لكي ينتصر على مكابرة مرؤوسهِ ويخفف اشجانهُ

اننا نرى الطبيب الماهر قبل قيامهِ بعملية موجعة يأخذ يلمس بلين ورفق الاعضاء السليمة التي حول العضو المريض ويرشق هذا بماء فاترٍ لتليينهِ وتخفيف المهِ . وهذا ما ينبغي للرئيس ان يعمله . قال القديس يوحنا فم الذهب « اتريد حقًّا اصلاح اخيك ? نُح اولاً واسأل الله من صميم الفؤاد ان يؤتيهِ معرفة ذنبهِ ثم بيّن لهُ عن محبتك لهُ واخلاصك وبعد ذلك أبن لهُ شيئاً مما هو عليهِ من سوء الحال وانك لم تُقدم على هذا البيان الاَّ حباً بخيره وانك لا تقصد بذلك فضيحتهُ او اهانته ولكنك كصديق مخلص تريد ان تنبهه على هفواتهِ ليحذرها . واذا اوجب الامر فلا تأنف من ان ترتمي على اقدامهِ وتستحلفه بان يرعوي عن غيهِ وهكذا يفعل الطبيب المحب عند وجوب شفاء الجسد ولاسيما اذا كان المريض يأبى اخذ العلاج او الخضوع لعملية موجعة اه (موعظة ٣ لقب انطاكية).

ومن كلام هذا القديس مديحه لمحبة بولس الرسول اذ يقول ما فحواه كما ان الاب الذي يرى ابنه المريض يأبى اخذ الدواء ويدفعه عنه يقيم بجانبه ويأخذ يتملقه ويسترضيه ويعتنقه ويضمه الى صدره ويقبله ويعده بان يعطيه كل ما يرغب فيهِ بشرط ان يأخذ الدواء ليشفى من مرضهِ هكذا الرسول بولس فانه يعتنق جميع المسيحيين ويضمهم الى صدره كانهم ولدٌ واحد وحيد واذا رأى انهم بعد سقوطهم في الخطية وتدنسهم باوساخها يأبون قبول النصائح والعلاجات الشافية لأوصابهم فانهُ يهبُّ لارشادهم ويبكي وينوح على سوء حظهم ولا

ينفك عن التوسل والابتهال اليهم حتى يرى انهم غُلبوا بقوة محبته ودموعه السخينة ورضخوا لما يريد ان يعطيهم اياه من الادوية الفعّالة لشفاء امراضهم الروحية وارجاعهم الى الصحة التامة التي فقدوها

وقد قال القديس غريغوريوس في مدحه محبة هذا الرسول العجيب « ان المحبة جعلته يقول « من كان منكم مريضاً ولم امرض انا ومن وقع في عثار ولم احترق انا » من نار الغيرة عليه اه

ويقول ايضاً في محل آخر «مع اليهودي صرت يهودياً »لا كانهُ اضاع الايمان القدس بل كأنه يضع ذاته في مركزهم ليستطيع ان يعاملهم بكل شفقة ورأفة كما يود ان يعامل هو من الآخرين لو كان في حالة اليهود مقصياً عنه الايمان ومعدماً انعاماته » (الراعي ق٢ف٤)

والقديس برنردوس في خطابه ٢٣ على نشيد الاناشيد يقول للروساء اجتهدوا بان تكونوا محبوبين من مرؤوسيكم لا مخوفين واذا الجأت الضرورة الى معاملتهم بشيء من القسوة فلتكن قسوتكم قسوة اب لا قسوة ظالم منتقم · كونوا كالوالدة في تمليقاتها وكالاب في توبيخاته وانبذوا عنكم الجفاء والغضب· ابعدوا عصا الانتقام واظهروا ثدي المحبة وليكن صدركم ملآناً من لبن الرضاء لا منتفخاً من ورم الصلف والعجرفة اه · وقال في محل آخر « ان المحبة والدة حنونة تعرف ان تتملق الصغار وتشدد الكبار في العمل · فحيناً توبخ العنيدين وصعاب الراس فتعطي كلًا ما يستحقه وتعتنق الجميع بحب والدي · فهي لينة في توبيخها ومخلصة في تمليقها وحنونة في قسوتها وسليمة النية في تقبيلاتها وصبورة في حزنها ووضيعة في غيظها واضطرابها اه (رسالة ٢)

وقال الانبا روبرتوس « ان المحبة تقسو وتتملق ولكنها تتملق اولاً ثم تقسو على من لم ينجع فيهم الملق · وهذا هو النظام الذي مشى عليه السيد المسيح فانهُ اتى العالم اولاً مملوّاً رحمة ورأفة وسوف يأتي ثانياً مفعماً عدلاً وقسطاً غير ان الرحمة هي التي فتحت باب محبته الينا اه (حياة القديس باخوميوس)

عد ٢

في بعض امثلة على رقة الروساء ولطفهم

جاء عن القديس فرنسيس بورجيا انهما كان يظهر للذنب من الكره والنفور بقدر ما كان يظهر للمذنب من الرقة واللطف . وانهُ من جملة الوسائط التي كان يستعملها لاقلاع المذنب عن ذنبه هو ان يظهر لهُ اعتبارًا حقيقيًا وثقة خصوصية بفضيلته . فكان يقول له « اني متأكد ان الله لم يسمح بذنبك هذا الاَّ جزاء لخطاياي وبما اني انا مذنب مثلك بهذه الخطية فمن العدل ان احمل معك وزرها واساعدك على التكفير عنها . فانا اعمل اعمال التوبة الفلانية وانظر انت في ما تريد ان تعمل »

والقديس يوحنا الرحوم اذ سمع يوماً احد اقاربه يشكو من اهانة حدثت له قال له « لا احتمل ان يهان ذو قرابتي فانا مستعد ان اشاركك باشد العقوبات من هذا الشخص الذي ألحق بك الاهانة . ولكن لما رأى ان قد هدأ فوران غضب نسيبه قال لهُ « الان اقول لك الحقيقة انك اذا شئت ان اعرفك من ذوي نسبي وقرابتي عليك ان تغفر لمن اساء اليك وان لا تعود فتفتكر في هذه الاهانة ابدًا

وجاء عن القديس توما ڤيلانوف انهُ كان بين كهنة ديوانه واحد مذموم السيرة جدًا وقد كلفه قضاء غرضٍ لهُ لدى الكرسي الرسولي فوعده القديس بذلك غير انهُ حين ازمع ان يسافر قال لهُ رتب يابني احوال ضميرك تنل غرضك وهكذا صار » .

والقديس اغناطيوس اعترف اعترافاً عاماً الى احد الاباء الذي رآه يخجل من ان يعترف لهُ بذنبٍ كان قد اقترفه . وفيما كان يوماً احد الاخوة مارًا بالقرب منه وعلى وجهه امارات الاضطراب والغضب قال لهُ (ياأخي دومينيك ان الله اولاك قلباً رحباً ووديعاً فلماذا لا يكون خارجك مثل باطنك) . وفي مرة اخرى فاه امامه احد الرهبان بكلمة غير لائقة فلم يشاء ان يعترضه في الحال بكلمة بل اظهر لهُ ببعض حركات وجهه انهُ غير راضٍ عن ذلك وهذا كان كافياً لانتباه الاخ واصلاح حاله وقد أكد لنا واحد من كتبة حياة هذا القديس انهُ لم يوجد

بين جميع الرهبان الذين وبخهم وعاقبهم من اغتاظ منهُ بل كان كلٌ منهم يغتاظ من نفسه لان القديس كان يبيّن لهُ جسامة جرمه لا بزخرفة الكلام وتنسيقه بل بمقتضي واقع الحال وكان يدع لهُ ان يختار لنفسه العقاب الذي يراه متوجباً لذنبه وهو قدّس الله روحه كان في غالب الاقات يخفض من العقاب الذي يكون قد فرضه المجرم على نفسه

ولنسيسيوس في تأليفه المعنون (شروط حسن السياسة) لم يشاء ان يفرض على المذنب عقاباً في المساء وقت العشاء لئلّا يزعجه ذلك فلا يدعه يرقـد براحة بال · ولا اراد ان يفرضه عليهِ في الليلة التي يستعد فيها للتناول لئلا يفقد السلوى وبهجة القلب التي يكون عليها من يحسنون الاستعداد لتناول السر العظـيم · وهكذا ينبغي ان لا يوبخ الاخ الطباخ وهو يعد للاخوة طعامهم ولا المعلم وهو يستعد لاعطاء الامثولة ولا الواعظ وهو مزمع ان يصعد منبر الخطابة او يتأهب لبعض الاحتفالات الكنسية · وهكذا لوكان الاخ شاعراً بمرض ولو خفيفاً فلا توبّه على ذنبه ولا تعاقبه بهِ لئلا تزيد على ألمه ألماً جديداً وربما اوقعته في مرض شديد واما اذا لاحظت انهُ مثقل باحزان داخلية كتجربة او قلـق ضمير فيتحتم عليك ان تبادره بارق الكلام والطفه لتعزيه وتخفف اشجانه

طوبى للروساء الذين يملاهم الرب من روحه فيضحون كالقديسين يتهددون طويلًا لكيلا يعاقبوا ويفتحون لمرؤسيهم قلبهم كي يفتح لهم هو ايضـاً قلبه ويبدون لهُ الاعتبار لكي يضع فيهم ثقتهُ وامانيهِ ويفتخرون بهِ ليفتخر هو بهم ويفرحون بنجاحه ليزيدوه نجاحاً واذا مست الحاجة الى ان يوبخوه فانهم يجدون سبيلًا لمديحهِ من وجهٍ اخر فيثنون على نشاطه ويكافئون نجاحه ويمنحونهُ بعض الانعامات · فتراهم حيناً يعذرونه على زلته فينسبونها للجهل او عدم الروّية او لضعف الطبيعة او للغفلة واذا نسبوا اللوم الى الفعل يمتدحون النية ويعترفون بانهم هم ايضاً سقطوا مرّاتٍ عديدة في مثل هذه الزلة ولا يأمنون عدم سقوطهم فيها في المستقبل ولا يرون الكمال في عدم السقوط بل في سرعة النهوض منه سواء كان ذلك النهوض بقوة فضيلتهم او بواسطة من يساعدهم على ذلك بارشاداته ونصائحه · وتارةً تراهم يستعملون كلام التمليق لكي يستميلوا القلوب النافرة

والمشمئزة فيقولون للمجرم : « بالحقيقة ان الجرم كبير ولكن الضمير نقي والطبع لين سهل والفضيلة ثابتة راهنة وانهم يثقون بحسن المستقبل لان الماضي كان دائماً حسناً وان رجوعه الى سواء السبيل لا يقتضي الا بعض خطوات من قهر الذات وكبح الارادة وانه يجرم جرماً اعظم لو تأخر عن اصلاح ما فرط منهُ مع كل ما اعطاه الله من المزايا الصالحة والمناقب السامية »٠

الباب الثاني

في كيف يمكن ان يفوز الرئيس بهذه المحبة وكيف يحافظ عليها

ان الفوز بهذه المحبة والمحافظة عليها يكونان اولاً في ان يعرف الرئيس ولا ينسى انهُ ضعيف٠ وثانياً في ان يحافظ على السلام الباطني ٠ وثالثاً في ان يتعلم في الله نفسه صناعة التأديب

المقالة الاولى

في ان الرئيس يتوصل الى الفوز بالمحبة والى حفظها اذ عرف ولم ينسَ انهُ ضعيف مثل سائر الرهبان

عد ١

في ان الرئيس يتحتم عليهِ ان يقول في نفسه : هل من زلة ارتكبها الغير ولم ارتكبها انا او لا يمكن ان ارتكبها فيما بعد

فهذا ما علمناه الرسول بقوله « تبصّر انت لنفسك لئلا تُجرَّب انت ايضاً اهـ (غلاطية ٦) تبصر فيما مضى وقل اما عملت شيئاً في الماضي يشبه زلة هذا الاخ ٠

وفي الحال أما انا على شيء من ذلك · وفي المستقبل هل انا معصوم من السقوط ولاسيما لو وُجدت بمثل الظروف التي وُجد فيها هذا الاخ · فالرئيس العاقل جدير بان يتصور السيد المسيح يخاطبهُ بما خاطب بهِ بنات اورشليم « ابكينَ على ذواتكنَّ » او كما خاطب الذين شكوا له الامرأة الزانية « فمن كان منكم بغير خطيئة فليبدأ بان يرجمها بحجر » قال القديس اغوسطينوس في تفسير ذلك: « ان شئت ان يعاملك الناس بالرحمة عاملهم انت كذلك » (عن الزانية ف١٤) وقال في موضع آخر تحمل لانك لهذا ولدت وتحمّل ايضاً لانك محتاج الى ان يحتملك الناس · فان كنت دائماً في البر ولم تسقط فاشفق على الضعفاء وكن رحوماً واذا كنت قد سقطت فلا يبرح من بالك سقوطك · ومع ذلك من هو الذي لم يسقط قط » وقد كتب هذا العلّامة الى الاسقف اوكسيليوس قال « ونحن لم نزل بشراً معرضين للسقوط في فخاخ العدو لان الاسقفية لم تغير فينا الطبيعة البشرية » (رسالة ٢٥٠) فهل يليق بنا ان نكون قساة ومتعجرفين كأن رتبتنا جعلتنا معصومين من الخطاء والزلل

وقال القديس اغناطيوس الشهيد للقديس بوليكربوس ان شئت ان تكون جندياً كاملًا للسيد المسيح فاحتمل ضعف الجميع كما احتمله هو نفسه وقد كتب عنهُ الرسول انهُ قد احتمل ضعفنا اه ومن المعلوم ان الاجر على قدر التعب فان لم تحب ان تعاشر الا الانام المتمازين بالرقة واللطف فما عساه يكون اجرك · فانا اريد منك واتمنى لك ان تقوى على ترويض شر الطباع واشدها شراسة وعصياناً

والاب ڤيلانوڤا اليسوعي كان يبكت نفسه بهذا الكلام « ڤيلانوڤا احتمل في الاخرين ما تريد ان يحتملوا هم فيك » وان شئت ان تضمّد جراح اخيك فلا تغفلنَّ عن النظر الى جراحك الخاصة لان النظر الى ضعفك وشقائك يجعلك وديعاً وصبوراً وشفيقاً ومحباً اه·

وكان احد اباء البرية من عادته ان يقول عندما يرى احداً سقط في زلة: ان هذا سقط اليوم اما انا فربما اسقط غداً اه · وايوب البار كان يقول لاصحابه الذين عنتوه « الى متى تُعنّون نفسي وتفطرونني باقوالكم . ولما ترهقونني مثل الله (١٩) وقد فسر هذا الكلام القديس غريغوريوس قال « لماذا تعيرونني وتحزنونني

كأنكم الله اي معصومون عن الزلل ولا تصيبكم مصيبة»

وقال المعلم جرسون ((لو كان المؤنب بهذا العتو ملكاً سماوياً لكان ذلك محتملًا منه واماهو انسان خاطيء فتأنيبه هذا يخالف الانصاف ويجعل المدين ان يدينهُ بالدينونة نفسها التي يدينهُ بها)) وقال القديس يوحنا فم الذهب ان الله جلت حكمته لم يختر لنا الكهنة والمعلمين من بين الملائكة الانقياء والمترفعين عن الضعف البشري بل من بين البشر المصابين بداء الجهل وشهوات الجسد المنحرفة . وانما ذلك ليكون من ينتقد سيرتنا ويرشدنا سواء السبيل عارفاً بضعفنا وجهلنا. ولهذا جعل للمرضى اطباء يعنون بشفائنا والضعفاء يساعدوننا والباكين يعزوننا ويمسحون دموعنا

عدد ٢

في انهُ يليق بالرئيس ان يعتبر جميع الاخوة افضل منه وان يشكو نفسه كأنه هو علة كل زلة من زلاتهم

قال صاحب الاقتداء : « اذا رأيت اخاك يقترف علانية ذنباً ولو كبيراً فلا تعد نفسك مع ذلك خيراً منهُ لانك لا تعلم كم من الزمان تثبت انت في الفضيلة ولا تسقط . فاننا باجمعنا ضعفاء ولكن انت احسب نفسك اضعف الجميع »
(ك١ ف ٢)

وسيدنا لهُ المجد قد تنازل وعلم القديسة مريم المجدلية التي من باتري كيف تسير بهذا المعنى فقال لها : « لا تقيدي امامك هفوة ولا تبكتي احداً على زلة قبل ان تعتبري انك اقل كمالاً من الجميع اه ولنسمع ما قاله القديس غريغوريوس في هذا الصدد : ان الرئيس الذي يقسو على مرؤوسيهِ توجب عليهِ فضيلة التواضع ان يعرف انهُ واياهم من طينة واحدة وان كانت العناية قلدته سياستهم واولته معاقبتهم . بل يجب عليهِ ان يتصور الجميع خيراً منهُ لاننا نحن معشر الروساء نستعمل حرف الشريعة بكل صرامة لاجراء العقاب على كل من يجرم وليس لاحد ان يسألنا عمَّا نفعل او يلومنا على شيء .. ولذلك سوف نؤدي لله حساباً ادق لاننا نعمل كل اعمالنا من دون سؤال ولا محاسبة . اما المرؤوسون

فيكفّرون عن ذنوبهم بما نلحقهُ بهم من التنديد والعقاب وكلما زدنا قساوة عليهم ازدادوا هم برّاً ونقاوة امام الله ولذلك يتحتم علينا ان نُخجل نفوسنا وننذلها كل مرّة استعملنا بحق مرؤوسنا حرف الشريعة بصرامة وتدقيق . اه (الراعي ق ٢ ف ٥)

وكلٌّ يعلم من الاختبار اليومي انهُ كلما تقدم الانسان بالفضيلة ازداد دعةً وشفقة على اخوتهِ ومن ثمَّ يمكننا ان نحكم حكم جزم بانه كلما كان الرئيس قاسياً كانت فضيلته ضعيفةً وغير راسخة . فقد قال العلاّمة فينيلون : ان الكامل يحتمل نقص الاخرين . ومحبة الذات بقدر ما تكون قويّة في الانسان تكون صارمة باللوم والتنديد على القريب وليس احد ينفر ويتأذى من شائبة محبة الذات مثل المحبين لذواتهم والمعجبين بانفسهم لان الاهواء المنحرفة لا تظهر لاحد جديرة بالهزء والامتهان وغير محتملة كما تظهر لمن هم مصابون بها

وبعكس ذلك محبة الله فهي مفعمة من اللطف والدعة والرفق لانها توافق الجميع وتكون كلاً للكل وتنتظر بصبر متأنية وهكذا كلما تجرد الانسان من حب الذات استطاع ان يحتمل نقائص محبي ذواتهم وتمكن من ان يعاملهم بالرفق والاناة الى ان يتخلصوا من هذا الرذيلة الموبقة (مكتوب ١١٦)

وما عدا الاعتبارات المقدم ذكرها من انهُ ينبغي للرئيس ان يوجه انظاره الى نقائصهِ الخاصة وان ينسب لذاته نقائص الاخوة وعدم نجوع التأديب فيهم يجب ايضاً ان يُحسن النظر في عنايتهِ بكمالهِ الخاص وفي هل هو مفرغ معظم الجهد في اكتساب روح التقوى والاتحاد مع الله لكي يكون مثالاً للاخوة وتكون الفطنة مصاحبة كل عمل من اعمالهِ . ولينظر اذا كان هو نفسه غير مدقق بحفظ القوانين ايتها كانت او اذا كانت لهُ رغبة في التأمر ويستصعب الخضوع للرؤساء الكبار او اذا كان محباً التظاهر والمجد الفارغ باذلاً معظم عنايته في الاعمال الخارجة . واذا كانت هذه الحال حاله فكم يضيع من الزمان وكم يكون متوانياً في حق مهمتهِ وكم تكون افكاره مبددة وعقله وحسه الروحي مشتغلين بما ليس لله وحينئذٍ تخمد حرارة التقوى ويفقد روح التواضع ويسهو عن بالهِ ان يصلي لاجل مرؤوسيه وان يقدم عنهم اماتات خصوصية . هذا وربما كان في تأديبهِ المذنب

يسمع لصوت الطبيعة التي تحب العظمة والانتقام اكثر من سماعهِ لصوت النعمة فيفرض العقاب بحركة الغضب والهوى البشري وروح النكاية . فيستعمل كلاماً جارحاً ومهيناً ويبالغ في تجسيم الزلّة فارضاً عليها عقوبات قاسية . ومهيناً احياناً كثيرة من يكون قد عمل كل ما بوسعهِ ليكفّر عنها ويكتسب رضاه .

ان القديسة شانتال كتبت لاحدى رئيسات رهبانيتها بهذا الشأن قالت : « ضاعفي عنايتك من يوم الى يوم كي لا يكون تأديبكِ للاخوات قاسياً او مراً لان هذا غير لائق ولا يفيد البتة . فان الرؤساء بهذا العصر لا يمكنهم ان يقولوا مثل القديس بولس : انا بريء من دمكَ اعني انا بري من المآثم التي يرتكبها هذا الشعب . لاننا نحن مثقلون بخطايانا الخاصة وبخطايا اجنبية هي خطايا مرؤوسينا وهذا انما يكون امّا من عدم سؤالنا او من شدّة الصرامة في سؤالنا لاننا اما نهمل التأديب كلياً واما نعمل بهِ ولا نمزجه بشيء من حلاوة المحبة المقدسة »

والقديس برنردوس كان يقول : باطلًا يقولون لي ويؤكدون اني عملت مع هذا الراهب المخلّ في واجباتهِ كل ما امكن عمله واني بذلت لهُ النصح الخالص مع كل علامات الحب المؤثرة في القلب واني حضضتهُ بكل الحجج القاطعة واني بارشادي ونصحي لهُ ابديت كل فطنة وكل ملاطفة واني لم انسَ ولم اهمل شيئاً مما كان يمكنهُ ان يحملهُ على تتميم واجباته . لاني ما دمت ارى ان العمل الذي انا ملتزم اتمامه لم يتم بعد كما هو متوجب لا ادري كيف يهدأ بالي او يستريح ضميري موقناً اني عملت ما يجب عليَّ » . (عظة ١٢ على سفر النشيد)

ولعمري ان الطبيب الصالح والحكيم اذا مات عليله نسب ذلك لتقصيره ولو كان قد افرغ كنانة جدّه وجهده . فانه يتصور اما انه لم يعطه كل العلاجات المقتضاة او انه لم يعطهِ ايّاها في حينها او انه اعطاه شيئاً مضرًّا او او . . . وهكذا الوالدة الحزينة اذا توفي ولدها ترى انها قصرت بمعالجتهِ او في خدمتهِ مع انها تكون بذلت غاية المقدرة والسهر . ولماذا لا تكون حاسّات الرئيس كذلك اذا رأى مرؤوسه مصرًّا على غيّهِ ولا يريد ان يرجع الى اتمام واجباته . وانما كان ذلك لانهُ غير متصف بصفات الوالدة ولا بصفات الطبيب الصالح .

ولذ تقرر وثبت ان الرؤساء هم بشر ضعفاء مثل مرؤوسيهم وان القاسين

منهم ليسوا عادة الاكثر فضلًا او فضيلة بل انهم في الغالب هم سبب زلأت المرؤوسين وسبب عدم النجاح في تأديبهم ونصحهم . فماذا تكون النتيجة وما العمل هل ان نغضي عن الزلأت ونوافق بلسان حالنا على هدم النظام والقانون ؟ كلاً ولكن يترتب علينا ان نصلح بروح المحبة والدعة وان نجمع بين الحزم والرأفة متخذين مبدأ احد الاباء القديسين القائل : « اصفح كأنك محتاجٌ كل يوم الى ان يُصفح عنك وتجنب كل هفوة كأنك لا تصفح عن هفوة ابداً بل تعاقب عن كل زلّة بكل صرامة واخيراً كن بلا رحمة ولا شفقة على ذاتك . اما على الآخرين فكن مملوءاً رأفةً وحناناً » . اه

فبهذا الشرط لا غير يرى القديس توما انه يسوغ للخاطي ان يونب خاطياً مثله · لان الرئيس اذ ذاك ولو كان اشد خطاء من مرؤوسه فان نظره الى ضعفهِ وشقاه لا يدع الغباوة تستولي على افكاره وتعمي عقله بل يحركه الى الرأفة والشفقة . لانهُ يقول : « لا شيء يعتقنا من عبودية روح البغض ويولينا روح المحبة والرقة مثل النظر الى ضعفنا وشقائنا » (٢٠٢ سوال ٣٣ ف ٥) واخيراً اقول ان روح الدعة والرأفة هو روح الانسانية الذي لا يسوغ لاحدٍ ان يتعرى منه

المقالة الثانية

في ان الرئيس يمكنهُ ان يحصل على المحبة ويحفظها لو حافظ على سلامة النفس محافظةً كاملة

عدد ١

في ان اضطراب الرئيس يضرّ بهِ وبمن يقصد اصلاحه ضرراً بليغاً

اذا ونبت اخاك او نبهته الى شيء او تعاطيت معهُ غرضاً ما فكن ساكن الجاش هادياً ومتنزهاً عن كل تأثّر لان من يعمد على شفاء جرح القريب لا ينبغي

ان تكون اصابعه مجروحة والاَّ فلا يتيسر لهُ اجراء العملية . هكذا انت احذر من ان تعالج جرح اخيك وانت مجروح . قال القديس يوحنا فم الذهب : « الا ترى كيف ان القاضي عندما يريد ان يبت حكماً يجلس على كرسيهِ ويتشح بثوبهِ الرسمي فهكذا عليك ان تعمل عندما تريد ان تحكم على اخيك بالعقاب او الذنب فاجلس على كرسي السكينة والسلام واتشح بثوب الرفق والرحمة » (عظة ٢٦) ومن القواعد العمومية التي يعطيها ارباب هذا الفن هي ان الرئيس اذا لم يرَ ذاته حاصلًا على السكينة وهدو البال فالاجدر بهِ ان يوَجل توبيخ مروُوسه الى وقتٍ انسب ولا يصعب مثل هذا التأجيل ولا يكون الاَّ مفيدًا. والاب كلوديوس اكواڤيڤا يوَيد هذا المبدا بقولهِ : « ان المروُوس لا ينجع فيهِ التوبيخ الاَّ بامرين ضروريين وهما : اولاً اعتباره رئيسه اعتبارًا باطناً واعتقاده بهِ الفضيلة الحقيقية . وثانياً اعتقاده ان لا شيء حمله على تأديبه سوى روح المحبة. والحال ان اضطراب الرئيس وحركة الغضب على محياه ينزعان من المروُوس هذين الاعتبارين ويبينان لهُ ان الرئيس لا يقصد في تونيبهِ سوى العدوان والانتقام اهـ (رسالة الى الروساء)

ان الفيلسوف افلاطون يحظر على كل رئيس شرب الخمر لئلا تصعد حمياها في رأسه فتقلق افكاره ويضطرب عقله . ومن امثلة العجم قولهم : « لا تبدِ عملًا في وقت الغضب والاَّ تكون كمن يلقي بنفسهِ في البحر وقت هيجانه اهـ وكان من عادة سوقراط ان يقول لعبده : « لولا حركة الغضب فيَّ الان لكنت احب تأديبك بما يستحقه عملك هذا اهـ

وليس من الصواب ان نطفئ النار بالنار ولا ان نسكن الغضب بالغضب . ولكن كما ان اطفاء النار يكون بالماء هكذا اخماد الغضب يكون بروح السلامة والدعة . واذا مست الحاجة لكي يكون في التأديب شيء من النار فليكن كضوء السراج الذي لا يشتعل الاَّ شيئاً فشيئاً ومع وجود الزيت . وهكذا اذا كان الرئيس ساكن الجاش وصافي الخاطر يكون لكلامه وقع وتأثير في قلوب مروَوسيه لانهُ اذ ذاك لا يحمّل احدًا فوق طاقته ولا يتجاوز حد العدالة والاستقامة بل يتروى في كل الظروف مثل طبع الجرم واستعداد المجرم ويعطي

كلًّا دواء يناسبه بروح الدعة والحزم · اما الفكر المضطرب فبعكس الامر لا يرى كيف يتصرف مع الله ولا مع القريب لانهُ يغالي في كلامه وافعاله وقلما يقف على حد معقول بل يغالي في كل شيء فيعظم الذنب ويحكم احكاماً جزافية بغير دليل ولا مسوغ ويشمئز من مرؤوسهِ المجرم ويتهنه وبذلك يزعج ويحزن قسماً كبيراً من الجماعة · وعلى هذا المنوال تراه في غالب الاحيان عندما يقصد ان يضمّد وخزة ابرة يضرب بالسيف ويجرح جرحاً بليغاً

وكأني بك تقول : « ان لم اظهر شيئاً من الحدة لا يهابني مرؤوسي » ولكن ما ذلك الأ وهم وضلال لان كل ما تقوله في حال احتدام الغضب ولو كان بغاية الصواب والانصاف ينسبه المرؤوس الى انحراف الاميال البشرية · وبالعكس فان ما تقوله في حال السكينة والهدوء يقبله بطيبة نفس ويرى ان لومك لهُ حالٌ محله · وانما جرمه هو الذي حملك على توبيخه لا غير · واذا اعترف المذنب بذنبه فان الله يرضى عن دعتك ويغفر ذنوبك

ان بالتازار القارس في نصائحه للروساء يرسم لهم هذه القاعدة وهي « لا توبخ مرؤوسك ابداً وانت في حال الاضطراب مهما بان لك انك مصيب في التوبيخ والاضطراب · ولكن انتظر وقت السكينة والراحة لانك بالسكينة لا غير تسكن اضطراب اخيك وتقوى على اصلاح حاله · وهو اذ ذاك يعرف ذنبه ويندب عصاوته وتمرده ويرجع اليك صاغراً مطيعاً · والسبب في انهُ لا يسوغ ابداً للرئيس ان يوبخ باحتدام هو كون وصايا الرب برمتها مرجعها المحبة ونقاوة القلب والحال ان المحبة ونقاوة القلب لا وجود لهما مع الحدة والاضطراب (كتاب حياته ف ٢٣)

والقديس باخوميوس اذ كان متأكداً هذه الحقيقة لحظ ذات يوم انهُ محرك للغضب حزنَ وشكى نفسه لله قائلًا « اني لا اصلح لسياسة اخوتي ان لم تساعدني نعمتك وتنقذني من مثل هذه الحركات التي تخرج بي عن الصواب اهـ

عد ٢

في ان كثرة زلات المرؤوسين وجسامتها ليس من شانها ان تُدهش الرئيس ولا ان تقلقه

على كل رئيس ان يعتبر ديره بمنزلة مستشفى فلا يندهش لو صادف فيهِ انواع الامراض والاوصاب وما محل الرئيس في جماعته الاَّ محل العظم في الجسم فانهُ يعضد اللحم الضعيف ويقويه · او هو في جماعته على ما قال اشعيا بمكانة الراعي في القطيع فعليهِ ان يحمل على ذراعيه الخراف الصغيرة ويسند الضعيفة والمنهكة من التعب

والقديس فرنسيس دي بول كان يقول ان زلات القريب من شانها ان تحرّك فينا حاسات الشفقة لا امارات الغضب · ولا ينبغي ان نندهش حتى ولا من النقائص التي من شانها ان تدهش ايًّا كان لان من عرف قلب الانسان لا يُدهش من شيء · ولا يستغرب شيئاً الاَّ نادرًا جدًّا والزلة نفسها ولو كانت جديرة بالبغض فهي مع ذلك اجدر منها بالشفقة

والاب مرتينوس غونيارا اليسوعي الذي كان رئيساً في سالمانك يخبر انهُ اذ كان يوماً يشكو الى الرب يسوع نقائص مرؤوسيه شاهد في صحفة قلباً صغيرًا غرقاناً في نقطتين من الماء · وسمع صوتاً يقول لهُ : « انظر قلبك كيف هو غرقان في نقطة من الماء » · وبعد ذلك أُري قلباً فسيحاً للغاية وسمع هذه الكلمات « انظر قلب الله المحاط بالوثنيين والاراطقة وانواع الذنوب المختلفة ولا يزعجه من ذلك شيء · ولكنه ينظر بطول الاناة ارتداد هولاء الخطاة · واعتبر انك حقيق بان تصيغ قلبك على صورة هذا القلب الالهي » وبعد حين يريك الله ان مرؤوسيك الذين تشتكي من سيرتهم هم من عداد المختارين المعدين للسعادة الخالدة

وقد جاء في سيرة القديس اغناطيوس ان تلميذه لينوز الذي كان رجلًا فاضلًا جدًّا وكان يمقت ويكره اقل الزلات كان في غالب الاحيان تاخذه حركة الغضب

ويشكو الى القديس معلمهِ زلات الاخوة باحتدام مفرط • فالقديس ونبه ذات يوم على هذا وقال لهُ « اخشَ من ان بغضك المفرط لنقائص اخوتك يفضي بك اخيرًا الى بغض شخصهم وهذا يضر ضررًا جسيماً في الخير الذي تتوخاه »

وبطرس ليفقر تلميذ القديس اغناطيوس ينبه الروساء على الافكار التي تلقي الشقاق والنزاع بين الاخوة انما هي من الشيطان ويجدر بهم ان يجتهدوا باطفائها بكل سرعة كما يطفئون الافكار الردية المضرة بفضيلة الطهارة · وكان يقول « لا تذكر زلة اخيك الاّ وانت ذاكرٌ معها الله الذي يحتملها ويسوع المسيح الذي غسلها بدمهِ والفرصة التي تنالها بها كي تمارس فضيلة الدعة والصبر وابتدئ بالصلاة اليهِ تعالى قبل ان توبخ اخاك وابذل الجهد بان تتقرب منه ولا تنفر منه او تقصيه عنك · ادنُ منهُ بلطفٍ وعامله معاملة قلبية خالصة واعلم ان لا شيء يضر باصلاحه مثل ابتعادك عنه »

ثم ان الحزن واليأس من جراء النقائص لهما من خصائص الاغراز الحديثين في الرئاسة وذوي الطباع النزقة · فعلى الرئيس ان يعتاد مشاهدة النقائص بدون قلق ولا اضطراب بل فليرمقها بعين الشفقة كما يرمقها الرب والملائكة ولا يكن في كلامه او صوته او هيئة وجههِ شيء من الغلظة والفظاظة · فليس المرؤوس بخصمك ولا عدوك حتى تبادره بالصياح وباعين مشتعلة من الغيظ والحنق او بهيئة العظمة والتجبر كانك تريد ان تلقي في قلبه الذعر والرعب او كانهُ اناء معد لكي تفرغ فيه كل ما في لبك من الكآبة والسويداء · فلا تدعه والحالة هذه ان يلحظ فيك شيئاً من عدم الرضا عنه او قلة الاكتراث لهُ او ما يدل على النفور منه او الامتهان والازدراء بل اعتنِ بتهذيب حديثك معهُ وبسائر حركاتك بنوع انهُ لا يلاحظ فيك سوى كرم الاخلاق ولين العريكة والغيرة على مصالحه عن خلوص ومحبة · وبهذا لا يبقى سبيل للمرؤوس الى ان يبغض التأديب والمؤدب بل يضطر لان يقبل التأديب ويبارك اليد التي تعتني بتأديبه

عدد ٣

في ان الرئيس الذي يثبت في روح الهدو والسلام لا ييأس ابداً من نجاح مسعاه في التأديب

اذا جُرح غزالٌ بسهم صياد لا يموت لساعته بل يحمل السهم مسافةً ما ثم يقع ميتاً وهذا مثل المذنب الذي تريد اصلاحه فانه متى ردد بفكره نصحك لهُ بروح المحبة والدعة فانه يرعوي اخيراً ويعود الى الحياة الروحية . لان ثباتك على نصحه واحتماله يجعله يخجل اخيراً من عناده . وعنايتك الابوية المتصلة تجبره على اصلاح سيرته . وان لم يصلح نفسه لاول مرة بالتمام والكمال فانهُ يظهر شيئاً من الرزانة واعتبار القوانين وبذلك تكون قد حصلت على شي من بغيتك وكففت شر العثار وصار لك ما يؤملك بتمام النجاح

هذا واما الرئيس العديم الصبر فيقول : « اني لقد نصحت هذا الراهب مرة واثنتين وثلاث ولم يكن من نصحه نتيجة ولذلك لا ارى مرضه قابلًا للشفاء اهـ ولكن يا صاح كيف تدعو هذا الراهب غير قابل للشفاء وانت لم تعالجه بعد الاَّ معالجة طفيفة وخالية من الغيرة الحقيقية . فانك لم تقابله مقابلات خصوصية ولم تبدِ لهُ المحبة القلبية ولا نصحته النصائح المخلصة . وما مثله معكَ الاَّ مثل ذاك الذي ضربه اللصوص في طريق ايريحا ومرَّ بهِ اللاوي وجازه مغضياً عنه . أفلا ترى ان مرؤوسك هو عابد قد ضحَّى في جانب التقوى والفضيلة ضحايا الابطال . وان نفسه الان مجروحة وكماله معتلٌ وخلاصه معرَّض للاخطار . فما بالك تغادره يائساً بعد استعمالك لهُ العلاج لاول مرة . اهكذا تفعل الوالدة مع ولدها المريض . او هكذا يعامل الطبيب عليلـه : الا تراه كيف لا يألو جهداً ولا يكل من السهر عليهِ والعناية بهِ . ولو تبين لهُ ان مرضه عضال وغير قابل للشفاء . وانما ذلك لانه اخذ اجرةً تافهة . وما عساني اقول اما ان الله نفسه الذي يرى بسابق علمه ان ذاك الخاطي لا يتوب . ومع ذلك لا يزال يواصله بنعمه ومساعداته حتى آخر نسمة . تأمل في السيد المسيح كيف انهُ لم يسمح بقلع الزوان من بين

القمح قبل وقت الحصاد . وانت مع جهلك عاقبة امر مرؤوسك تقصيه من فكرك وتحكم بهلاكه . الا تذكر ما تكلف السيد المسيح لاجلك وما عملته النعمة بجانب خلاصك . فلا تيأس اذًا من خلاص اخيك بل صلِّ لاجله ومر الاخرين ان يصلوا ايضاً . وثق بان النعمة وطول المدة يسهلان كل صعب . وبعد فمن انت حتى تضع حدًا لمراحم الله . او لا تركن ما يقوله الاطباء بان الامراض الحادة كثيرًا ما يكون شفاؤها قريباً

فلا يسوغ اذًا لرئيس اياً كان ان يقول: « ان هذا الراهب لا يغير سيرته ولا بدّ من ان تكون اخرته ردية » لان احكاماً كهذه لا تنافي الفطنة واللياقة فقط بل تنافي العدل والانصاف ايضاً . واحذر بالخصوص ان تتكلم امام احد الرهبان عن نقائصه مبيناً له عدم رجائك باقلاعه عنها ورجوعه الى محجة الصواب . لان هذا مما يحمله على القنوط ولا يعود فيعمل لاصلاح شوائبه ما كان قادرًا ومستعدًا ان يعمله . ومن يعلم كما يقول القديس اغناطيوس اذا كان مثل هؤلاء الرهبان ذوي الشوائب لا يتقدمون في طريق الفضيلة بمدة شهر اكثر مما يتقدم ذوو الطباع اللينة والسهلة بمدة سنة كاملة . لان اولئك يجهدون انفسهم ويتعبون اكثر من هؤلاء . وانما الاجر على قدر التعب

جاء في اخبار اباء البرية عن احد الرهبان انهُ اذ سقط ذات يومٍ في زلة . وبخه الرهبان توبيخاً مرًّا فاتى يشكو امره للقديس انطونيوس فلحقه الرهبان واوسعوه اهانة بحضرة القديس ايضاً واذ كان حاضرًا القديس بفنوسيوس السيقالي اراد ان يبين للاباء ان غيرتهم هذه غير مرتبة ومغايرة للفطنة . فضرب لهم مثلًا قال : « اني رأيت رجلًا غريقاً في احد الانهر الى ركبته فاتى اناسٌ ليعينوه على الصعود من الماء فغرقوه الى عنقه » فصفق لهُ القديس انطونيوس وقال : « هوذا بالحقيقة رجل يفهم كنه الامور ويصلح ان يسوس الناس ويخلص الانفس »

عدد ٤

في ما كتبهُ العلاّمة فينيلون الى إحدى الرئيسات بشأن المحافظة على الصبر والسلامة في امر التأديب

قال « ارى انكِ تتبعين امارات الحدة وتتمادين فيها ولا تريدين ان تقفي عند الحد الذي رسمهُ الله لكِ . فان العناية الربانية هي التي حركتكِ الى الاحتدام ولكنها تضع لذلك حدًّا ينبغي الوقوف عنده . فان الله لا يطلب منا ما يفوق القوة ولا تؤدينَ له يوماً ما حساباً الاَّ على الاشياء التي كانت تحت طاقتكِ . وان الروساء يجدون في كل زمان ومكان اناساً غير سهلي الانقياد يأبون اخضاع رقابهم لنير الطاعة . واذا شئتِ ان تخلصي انفس مرؤوساتكِ فلا تحاولي ابلاغ جميعهن اقصى درجة الكمال لان ذلك لا يتسنى لكِ مع بعض الانفس التي لم تتعود بعد التدقيق في حفظ القوانين بدون ادنى خلل . ولكن اجهدي نفسكِ بان تكوني محبوبة من الجميع . وليرَ الكل انكِ تحبين الله محبة فعَّالة وعوّدي مرؤوساتكِ ان يكشفنَ لكِ نقائصهنَّ بكل دالة وثقة . ابيني لهنَّ في قلبكِ قلب والدة وانكِ تريدين المسالمة معهنَّ والمساهلة الى حدٍ تسمح بهِ الرسوم الجوهرية . واطيلي اناتكِ مع كل واحدة بقدر ما تحتاج اليهِ نظرًا الى طبعها وفضيلتها . ولا تحتكمي في امر الجميع على نمط واحد . بل كوني كلاًّ لكل واحدة كما ترشد اليهِ الفطنة والنعمة وعندما تريدين ان تدفعي المبتدئات بالفضيلة الى ما قدام ارفقي بالضعيفات واحتملي تقاعدهنَّ . فعلى العاقل ان يرى حدًّا لسلطانه وانهُ اذا غالى في الشدة هاجت الجماعة وماجت واقدمت على العصيان . ومن تذكَّر ما كان عليه المرؤوسون في بادي امرهم يرضى بما هم عليهِ الان من التقدم ولو كان قليلًا . واني لا اقصد بنصائحي هذه خفض شأن الشريعة او قلة الاعتبار لقوانين الرهبنة ورسومها . كلاّ ولكني اريد احتمال ما لا يمكن ردعه وان ننتظر ونترجى ونبين ولو عن بعد محجة الكمال . ونشجع اولئك الذين لا يطيقون النظر اليها كي يستأنسوا ويتقدموا نحوها ولو بعض خطوات . ومن خصائص فضيلة الايمان ان نعمل في الظلام بنوع اننا لا نرى في الحال ثمرة عملنا . فانكِ وان لم تشاهدي

في مرؤوساتك الأ الاسترخاء والتذمر والتقسم وعدم الرضاء والمعاكسة ايضاً . فثتي مع ذلك ان في هذه الارض التي تظهر كأنها مغطات بالشوك والقرطب ينبت شيء من الحنطة الجيدة . ولاجل هذه الحنطة يريد الله ان يمتحننا . فانا اتمنى لكِ ان تكوني في هدو وسلام في كل ما تعملينه وان تنتظري بصبرٍ العناية التي لها وحدها ان تعدّ نفوس مرؤوساتكِ وتؤهلها لمطاوعة النعمة. وسماع ارشاداتكِ فتتقدم بالفضيلة كشهوة قلبكِ . اما بعد ايضاحك الحقيقة وبيان اساليبها فانتظري ان تعمل هي في العقول والقلوب ما لا نستطيع نحن عمله وهو ان تضحي لديهم شهية ومرغوبة . فاعملي اذن ما هو مستطاع لديكِ ولا تحاولي ان تقدمي لله من المجد فوق ما يريده منك وارضي بنجز ارادته اليومي وهذا حسبكِ

المقالة الثالثة

في ان الرئيس يمكنهُ ان يحصل على المحبة وان يحفظها في قلبهِ لو درس صناعة التأديب والاصلاح في الله نفسه

عدد ١

في ان الله يعامل الخطأة برأفة وحنان اكثر من الامهات

فلنستحضر بقدر الامكان فرح الوالدة واندهاشها عندما تشاهد لاول مرة ثمرة احشائها وابن الاوجاع يبتسم لها وكيف هي تناغيه متمتمة . وباي بهجة تراه ينشا ويتقوى وتظهر على محيّاه سمات وجهها وهيأتها وكيف تقاسمه الافراح والاكدار واخيراً كيف ان معظم اشواقها وانعطافاتها تنحصر وتستغرق في هذا الموضوع الوحيد لحبها وبهجتها . فهكذا يعاملنا العلي الرحيم لان قلبه احن من قلب الامهات كيف لا وقد قال تقدست اسماؤه « هل يمكن الوالدة ان تنسى ولدها ولا تذكره بالشفقة وان امكن الوالدة ان تفعل هذا فانا لا انساك الى الابد » (حكمة ١٢)

اني لما كنت طفلًا وكنت احياناً كثيرة التخلق باخلاق الغيــظ والغضب فانفر من حضن امي وألكمها بيدي وارفسها برجلي . فهل كانت هي تباديني بمثــل هذه الاعمال او ماكان بوسعها ان ترميني من بين ذراعيها فأصرع واتهشم ولكنها بعكس ذلك كانت تضمني الى صدرها باكثر حنان من ذي قبل وتضعف تقبيلها لوجنتي وتدني فمي من ثديها وهو لي ينبوع ماء الحياة

هكذا يحتضننا الرب ويتملقنا بينما نكون نحن متخلقين باخلاق الغضب ولكي لا يكون عندنا ريب في ذلك فهو قد اوحى لنبيه آشعيا هذه الكلمات «كمن تغذيه امه كذلك اغذيكم يقول الرب . وفي الحضن تُحماون وعلى الركبتين تدللون »(٦٦) واوحى لهُ ايضاً ان « اسمعوا لي يا آل يعقوب الــذين أُقلّوا من البطن والى مشيبكم أُقلكم . انا صنعتكم فانا أحملكم . أنا أُقلكم وأُنجيكم » (٤٦)

ولعمري فان الله بذلك يسبق ويسكّن بالنا ويهدي. روعنا وماكان اولانا ان نقول لهُ تعالى: (ربي والهي انك تكون شفيقاً عليَّ وترحمني الى اجل مسمى من العمر . ولكن لو سقطت في ايام شيخوختي وزلّت قدمي بعد ان ابيضت شعوري فماذا عساه يحل بي من قبل عدلك وكيف تعاماني) فقد سبق واجــابني على ذلك بقوله (حتى الى ايام شيخوختك اكون برحمتي معك كما انا الان واحتملك حتى في ايام مشيبك وكل ما صنعته معك حتى الان اصنعه حتى تلك الايام)

اماً من رئيس قد بلغ المشيب يقرأ هذه الكلمات فيشعر بانهُ هو الذي عامله الله هذه المعاملة المملوة رحمة ورأفة

ولما كنت طفلًا وكنت اخذ بيدي بعض الآلات الجارحة كيف كانت امي تسرع فتأخذها من يدي. وتتهددني لو رجعت فامسكها بيدي ومع ذلك عندما كنت ارجع والعب بها واجرح يدي ايضاً ثم امضي الى والدتي الشفيقة وابيّن لها جرحي فهل كانت تذكّرني اولاً بتهديداتها السالفة او كانت تقتص مني بالحال كلّا ولكنها كانت تبادر بكل سرعة ولهفة الى تضميد جرحي مازجة دموعها بدمي .

وانت ايها الاله الصالح لكي تبعدنا عن الخطيئة تتوعدنا وتتهددنا وترعد

وتبرق فتقول : (ان الموت رابض كالاسد ليفترسكم والجحيم تنتهز الفرصة لتبتلعكم . وتخيل لنا اننا لو ارتكبنا خطية واحدة لا يبقى لنا سبيل الى المغفرة ومع ذلك فبعد حدوث الشر وارتكاب الخطية نراك تتملقنا وتحضنا على الرجوع اليك فانك تنبهنا وتمهلنا وكأنك تشغل السماوات والارض في امر توبتنا اليك ورجوعنا عن الاثم والنفاق

فهل لنا ان نتعجب لو رأيناه تعالى يشبه نفسه بالحمامة داعياً غضبه غضب حمامة ونحن نعلم ان الحمامة لا سم فيها ولا حقد عندها وانها لو ارادت الانتقام لنفسها تنوح وتبكي بكل دعةٍ ورقة وتلمس باجنحتها من ضربها امس لينٍ وملاطفة .

عد ٢

في انهُ عندما يريد الله ان ينتقم من المجرم تقوم رحمته فتحارب عدله

اننا لو انعمنا النظر في ابوينا الاولين عندما ارتكبا المعصية لرأينا انهما لم يكادا ينتهيا من المخالفة وينظرا في كيف يتمتعان بثمرة عملهما المنكر حتى انكرت الخليقة باجمعها هذا العصيان وطلبت الى الله عز شأنه ملاشاة الجنس البشري ولا عجب لو كانت الكمالات الالهية اجمعت على هذا الانتقام . ولكن في الحقيقة نرى ان في معمعة هذا التحامل قامت الرحمة الالهية وقاومت الخليقة باسرها بل صادمت قوة الكمالات الالهية واخمدت نار الغضب الالهي المشتعلة على الانسان وذريته . ولكي توقينا شر ضربة قاتلة ختمت جباهنا بخاتمها الخاص كما ختمت يوماً جبهة قايين وحمتنا في حضنها كما في حصن حصين . وهكذا الرحمة وحدها قاومت كل ما قام علينا وحفظتنا من كل مضرة

ولكي تتيقن حقيقة هذه المشابهة افتح الكتاب الكريم فترى ان الله جلت احكامه عندما اراد ان يبيد العالم بالطوفان توعده بهِ نحواً من مئة سنة . وهكذا لما شاء ان يقتص من ذنوب نينوى لم يقطع عليها حكماً الاَّ بعد تهديدات عديدة وقد اجل انزال الحكم بها مدة اربعين يوماً وفوق هذا كله فانه اذ رأى نينوى

قد تابت اليهِ بلبس المسوح تاب عليها ورفع عنها صاعقة غضبه التي كانت تتهددها من ساعة الى ساعة . ولما اراد ان يعاقب اليهود بالسبي الى بابل انذرهم بذلك مدة اجيال عديدة فاقام لهم انبياء كثيرين وخاطبهم بلسانهم بانواع شتى وكان على موجب نص النبي آرميا يقوم بالغداة ليرشدهم الى سبيل التوبة وما كان مثله بذلك الاَّ مثل صديق حميم يرى صديقه مهدداً بضربة شديدة فيقوم اليه باكراً ويوقظه من نومه ليعلمه بالنازلة المزمعة ان تحل عليهِ

فما المرموز بمثل التينة العديمة الثمر وبالبستاني الذي يطلب لها المهلة لعلها تثمر اما يدل ذلك على انه لما يقوم العدل الالهي ويأخذ بيده الفاس ليقطع الاشجار العقيمة المبطلة الارض . (وما هي الاَّ عبارة عن الخطأة الذين لا يقومون بحق واجباتهم) . ويلقيها في النار التي لا تطفأ . تقوم الرحمة الالهية وتتوسط مع العدل وتشفع بالخطأة طالبة لهم المهلة والنعمة علهم يتوبون ويعدلون عن شرهم فينجون من عذاب الجحيم

وما معنى كلام النبي داود (مز ٥٩) « يارب اريت شعبك الشدائد وسقيتنا جمر الترنح وجعلت لمتقيك علامة ليهربوا من وجه القوس» فما القوس لعمري سوى عدل الله وما العلامة التي اعطاهموها للهرب من القوس سوى رحمته الواسعة

وقد قال القديس يوحنا فم الذهب في تفسيره آية داود النبي : « يصقل سيفه ويطأ قوسه ويهيئها » (مز ٧) انَّ الله تقدست اسماؤُه مع كونه عادلاً بنوع غير متناه ويمقت الخطيئة مقتاً لا يقدَّر فانه لا يعاقب على كل خطيئة ولا يعاقب بسرعة فكأنه لا يعلم بعض الذنوب او يجهل ما لهُ من القدرة الضابطة الكل لينتقم منها فقد قال النبي « يصقل سيفه » وانما ذلك لكي يخيف الخاطيء فيرتدع عن اقتحام الشر وينجو من العقاب فهذا السيف اذاً لا يكون للضرب بل للتهويل الذي يحمل على التوبة »

وقال المرتل ايضاً (مز ٧٦) « أمدَى الدهور يقصي السيد ولا يعود يرضى من بعد . . . أَنسي الله الرأفة ام حبس على الغضب احشاه » اننا نحن نقول احياناً « ان الغضب اخذ مني مأخذه بنوع انه لم يكن بوسعي الصبر ولا الشفقة)) اما الله فيقول ((انا لم اقدر ان انسى الرأفة والغضب مهما كان شديداً لم يحبس احشاءي

عن الرحمة والرضوان · فلا يمكنني ان احقد الى الابد ولا ان اقصي شعبي الى النهاية لان مراحمي تفيض مثل مياه الانهر الغزيرة التي لا يمكن ضبطها ولا حبسها بل انها تأخذ بجريها كل ما تصادفه امامها))

وبالحقيقة ان الله لا يريد موت الخاطيء بل ان يرجع عن طريقه ويحيا · الا وهو الصالح والرحيم طبعاً بل هو نفس الصلاح والرحمة · واذا عاقب لا يكون بنوع ما الاَّ عن اضطرار وباسف شديد لان العقاب ينافي اميــاله الطبيعية الى الرحمة والرأفة

عد ٣

في انهُ لا اعذب ولا اعجب من نوع التأديب الذي استعمله الرب يسوع

اننا نرى في هذا الامر كما في غيره الرب يسوع ملكاً مفعماً من الرأفة والحنو ونراه الحمل الوديع الذي حمل خطايا العالم · والراعي الصالح الذي يبذل حياته لاجل خرافه · والمشترع الذي يسن علينا شريعة جديدة بان نحب اعدانا · وان نبارك من يلعننا · وان نغفر سبعين مرة لا سبع مراتٍ اعني دائماً وبدون نهاية · واي مشهد عجيب لا يرينــا تعالى في مزجه القوّة بالدعة في الحرب العوان التي اثارها على الرذيلة والضلال · فكأنه يوبخ تارةً علناً وتارةً سرًّا على انفراد · واحياناً بالكلام وآونةً بمجرد السكوت · بينما كان الرسل يومــاً ساهين عن اعجوبة تكسير الخبز سألوه : « من اين لنا خبزٌ يكفي هذه الجموع » فالسيد المسيح اجابهم بالتلميح الى الآية المقدم ذكرها وبذلك وبخهم على قلة ايمانهم ولما اتوا فاخبروه عن الايات التي كانوا يصنعونها قال لهم : « اني رأيت الشيطان نازلاً من السماء ··· » وغالباً كان يعطي نصائحه بصورة مبدأ عام · فهكذا لما شعر بان تلاميذه يتخاصمون على ايهم يكون الاكبر قال لهم : « من اراد ان يكون الاكبر فيكم فليكن الاصغر » · واننا نراه حيناً يونب بقولهِ : « لماذا تعنتون هذه المرأة » وحيناً كان يسأل سؤَالاً او يقول كلاماً بسيطاً بهِ يستدعي الافكار للانتباه مثل قوله : « يا بطرس ان عندي شيئاً اقوله لك » ولما أبت احدى مدن السامرة ان تقبل اثنين من تلاميذه وطلبا اليهِ قائلين : « يا رب أتريد ان نطلب

ان تنزل نارٌ من السماءِ وتأكل هولاء السكان » فاجابهما : « لستما تعلمان من اي روح انتما . فان ابن البشر لم يأتِ ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها » وبعد ان اوصى التلاميذ وحضهم مرة واثنتين على السهر والصلاة ووجدهم بعد ذلك نياماً . ولانه لم يجد الفرصة مناسبة للتأديب كف عن توبيخهم وسكت

وقد هدى لاوي وزكا وغيرهما بقبولهِ دعوتهم بل بدعوته نفسه الى ولائمهم وفرط موآنسته لهم . وقد مس قلب المجدلية بسماحه لهـا ان تدنو منه وبثنائه عليها ومحاماته عنهـا . ومن لا يرى فرط دعته وتنازله في مخاطبته السامرية ولاسيا في قولهِ لها : «لو كنتِ تعلمين عطية الله . . . » لان هـذه الكلمة خرقت فوآدها واحالت قلبها الى قلبٍ موءمن وخاشع . وكان توبيخه للاجانب نوعاً وتوبيخه لاصحابه نوعاً آخر . فقد قال للاولين : « ايها الجيل غير الموءمن والملتوي . . . » اما لتلاميذه فقال : « ان هـذا الروح لا يطرد الاَّ بالصوم والصلاة » مبيناً لهم برقة انهم لم يزالوا مقصرين في واجب الامانة وحرارة العبادة . ولمَّا اخطأ بطرس بروح الكبرياء وبخهُ توبيخاً مرًّا . واما لمَّا اخطأ عن ضعف وخوف اكتفى بان ينبههُ الى ذلك بالتفاته اليه برقة ووداعة . وحينما قصد ان يبارح تلاميذه لم يشاء ان يوضح لهم فرط حبه اياهم لئلَّا يفجع قلوبهم بل وبخهم على قلة ايمانهم ثم مع يهوذا الماكر نفسه اما انهُ تعالى افرغ كل نوع من الحنو والرأفة . فانهُ ليس فقط لم يطرده من بين التلاميذ ولا اخذ من يده الصنـدوق ولا ضربه بصاعقة الحرم كما كانت تستوجب اعماله بل هو تعالت مراحمه لم يُبن اولاً خيانته ولا فرط محبته للفضة وسرقـاته وانما دعاه لوليمة العشاء السري وغسل لهُ قدميه واعطاه جسده المقدس مأكلًا واولاه شرف كهنوت العهد الجديد ودعاه ياحبيبي وبعد انسمح لهُ بتقبيله عانقه هو وقبَّله . ومن تراه لا يخشع عندما يلاحظ ما عمله الرب يسوع في شأن ارتداد اورشليم غير الموءمنة . فقد زارها مرَّات عديدة وعلَّمها الحقائق الساطعة وعمل فيها الآيات والعجائب وانذرها بالمصائب التي كانت مزمعة ان تحل بها وقد رثاهـا بشديد البكاء والاسف اذ قال : « يااورشليم يااورشليم كم مرَّة اردت ان اجمع بنيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا » ومذ ارتفع على خشبة الصليب ليُهدّي غضب ابيه عن هذا الشعب

القاتل إلهه قال لابيه « يأَبتِ اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يصنعون » والان وهو جالس على عرش مجده لا ينفك عن استعمال كل الوسائط العائدة لخلاصنا فهو يشفع بنا ويقدم الزفرات عنَّا بينما نحن لاننفك عن اهانته فهو يقدم عنا لابيهِ جراحاته المقدسة ودمه الثمين ونحن نواصل فتح هذه الجراحات وهرق دمه الطاهر بتجديد خطايانا

عد ٤

في ان الله ينتظر توبتنا بطول اناة ويغفر لنا بدون تأجيل وانهُ اذا ما رآنا رجعنا اليه يعدّ نفسه غانماً ظافراً

انا بارتكابنا اول خطيئة قد طردنا الرب من قلبنا فوقف خارجاً مهاناً يقول لنا : (يابني اعطني قلبك) وبعد ارتكابنا ثاني خطيئة قد ضاعفنا اهانته تعالى ومع ذلك لم يزل يدعونا بطول الاناة ويكرر قوله الاول (يابنيّ اعطني قلبك) ثم زدنا على خطايانا خطايا لا عدد لها مظهرين لهُ تعالى النفور والاشمئزاز امَّا هو فلم يقنط من رجوعنا ولا اراد ان يخذلنا بل استمر واقفاً علي باب قلبنا يدعونا بصورة احن واخشع من الاول كما اعلمنا هو ذلك بلسان يوحنا الحبيب اذ قال : (اني واقف على الباب اقرع) (رويا ٣) فقد اخذ على ذاته وعزم ان ينتظر رجوعنا اليهِ بدون ملل . وكأَنهُ تقدست اسماؤُه يقول في ذاته : (ربما يتخشع هذ القلب ويرجع اليَّ ولا يبعد ان يعدّ البعض طول اناتي ضعفاً وجهلًا ولكن لا بأس فاني اتسامح بان يرتاب الناس بعظمتي بشرط ان لا يرتابوا برأفتي . وبهذه الاثناء اي بينما هو يدعونا ونحن لا نجيب دعوته ماذا يعمل انهُ لا يزال يقرع باب قلبنا ويكرّر هذا القرع ولا يتوقف مدة حتى يعود الى القرع بقوة اشد ولقد تأخرنا مدة طويلة عن سماع صوته والرجوع اليهِ فاذا رجعنا اخيراً بتوبة صادقة هل يتأخر هو ساعة او دقيقة عن قبول توبتنا . او هل ينتظر مدة لكي ننطرح على قدميه خاشعين وباكين . كلّا . بل لا نكاد نفتح فمنا لنظهر له توبتنا حتى يسمع صوتنا ويمنحنا مغفرة خطايانا وهكذا بلحظة عين ننتقل من الخطيئة

الى النعمة ومن الجحيم الى النعيم · وبعد هذا أيطلب منا تعالى شروطاً تضمن لهُ ثباتنا في المستقبل على الفضيلة وعدم نكسنا بوعودنا ومقاصدنا بنوع ان هذه الشروط تؤخر قبول توبتنا ولو يوماً واحداً او ساعة واحدة · كلَّا · بل كأنهُ جلت احكامه لفرط وجده وانعطافه الى رجوعنا اليهِ يسهو عن ذلك او انهُ يؤثر ان يُعرّض رحمته لخيانتنا على ان يؤخر مغفرة خطايانا التي يرغب في ان يمنحنا اياها رغبة اشدّ من رغبتنا في نيلها · ان المصالحة بين الناس بعد ثلم المحبة ووقوع العداوة لا تكون ابداً مثل الصداقة الكاملة والغير المثلمة لانهُ لا بدّ لها من ان تترك في القلوب شيئاً من غيوم الاكدار وسموم الحزازات · امَّا مسالمة الله لنا بعد اهانتنا لهُ فتردّ علينا المحبة الاولى بكمالها وتزيد عليها انعاماتٍ خصوصية تحرك الابرار الى شيء من الحسد ولنا في تحقيق ذلك امثال الابن الشاطر · ومثال القديس بولس الذي صار رسولاً ورقي الى السماء الثالثة · والقديس بطرس الذي بعد جحوده معلمه ثلاث مرَّات بقي رئيس الرسل والكنيسة جمعاء ويحقق ذلك بالاكثر مثال ابينا الاول آدم الذي بعد مخالفته لم يكد يسمع كلمة المعاقبة حتى سمع معها كلمة الوعد بتجسد ابن الله من نسله

فهذا هو الانتقام العجيب الذي ينتقم بهِ الرب من الخاطيء فانهُ يغلب الشر بالخير ويغمر الخاطيء بفيض النعم حتى انه لا يستطيع من وجه الاَّ ان يحبه تعالى ويباركه بمقدار ما يستحق وان يبكي خطاياه بكاءً كافياً · واعجب مما تقدم هو انه تعالى بعد معاملته الخاطيء هذه المعاملة يحسب انهُ قد انتصر انتصاراً عظيماً واستحق التهنئة والمجد من خلائقه اجمع من في السماء ومن على الارض

ولذلك يجدر بنا ان نشترك مع النبي داود في تراتيل التهليل والفرح اذ نقول معهُ : « من الغداة اسرع الرب الى اعانتي ·· فهو يسير امامي لكي ينهج لي الطريق · ويتبعني من الوراء لكي يحاميني · وهو يسترني ويحيطني بمحبته · وهو يمسك بيدي ويحفظني كحدقة عينيه ويظللني بظل جناحيه · ويخفيني في ستر وجهه · رحمته مفعمة وداعة ورأفة ونعمة ·· وهي افضل من الحياة ··· إلهنا إله الرحمة وابو المراحم ·· كنوزه كنوز مراحم ·· واحشاؤهُ احشاء مراحم · ورحمته ارفع من السماوات واوسع من الابدية وهو عين الرحمة »

الفصل الخامس

في الاصلاح الذي ينبغي ادخاله احياناً الى الجمعيات الرهبانية

نتكلم اولاً في واجبات الرئيس والمرؤوسين في الاصلاح ثم نسن الطريقة الواجب اتباعها في ملاشاة العادات الرديئة والتحزبات والمنازعات

الباب الاول

في واجبات الرئيس والمرؤوسين في امر الاصلاح

عدد ١

في انهُ يجب على الرئيس ان يبذل كل جهده وجده في اعادة حفظ القوانين

ان محور الكلام في هذا الباب لا يدور الاَّ على العادات التي تجري احياناً ضد القوانين ولا تكون قد اكتسبت بعد قوة الشريعة لا من حيث مرور الزمان ولا من حيث طبعها . ومن ثم فلا يكون لها قوة على السماح بشيء ولا على تحريم شيء . فلا تسن شريعة جديدة ولا تلغي شريعة قديمة بل ليس لها ان تفسر شريعة او تؤولها تأويلاً يوافق ذوق المخالفين . ومن المعلوم ان العادة لا تكتسب قوة الشريعة الاَّ بثلاثة شروط . الاول ان لا تكون العادة منافية للصواب ولا للاداب الحميدة ولا لجوهر النذور او النظام الاساسي بموجب روح الرهبانية وغايتها . كما لو كانت مثلاً في اهمال تلاوة الفرض في الخوروس او اهمال شريعة الانقطاع عن الزفر في كل الايام . او في خرق حصن الاديرة المحصنة او إلغاء

شريعة السكوت المطاق في الرهبانيات التي تكون هذه الامور من مبادئها الاساسية او شرائعها الجوهرية

الثاني ان لا تكون العادة مقتصرة على عمل بعض الافراد · بل ينبغي ان تكون بمجموع اعمال عمومية مكررة من اغلبية الجمهور · وهذا لا يكون مثلاً فيما لو حدثت بعض المخالفات في احد الاديرة او في اديرة قليلة او لم يسكت عن هذه المخالفات الا نزر من الرؤساء الخاصين

الثالث انْ تكون هذه العادة قد توطدت في المدة المطلوبة لذلك · وتأيدت من السلطة الشرعية التي ينبغي ان تكون قد عرفت بها ولم تُعنِ بتلاشيها عندما تيسر لها ذلك · ويستثنى من ذلك اهمال بعض القوانين التي ولو كان كلٌّ منها بذاته وعلى حدته لا يُعد جوهرياً الاّ انها بجملتها لازمة وضرورية لقوام الرهبانية وبلوغ غايتها وتقديس انفس افرادها · وبعد ايضاح ما تقدم بقي علينا ان نضع رسوماً لما يجب على الرئيس والمرؤوس في امر الاصلاح

قال مودست دي سانت امابل في تأليفه المعنون الرئيس الكامل (ك ٤ ف ١) «قد اجمع اللاهوتيون وحكموا بالخطاء المميت على الرئيس الذي يتساهل بدخول عادة سيئة في رهبانيته او يتوانى بتلاشاة مثل هذه العادة ولو كانت قد دخلت فيها من قبل واستتبت وكذلك القول عمن يتقاعد عن حفظ عادة حميدة ومقدسة موجودة في رهبانيته لان من حاول هدم قلعة برفعه منها الاعمدة القائمة عليها لا يكون اقل ذنباً ممن يعمد الى هدمها بضرب المدافع · ومن سلّم انساناً الى عدوه بعد نزعه سلاحه عنه بنوع المكر والخديعة لا يكون ألحق بهِ شرّاً اخف من الذي يأخذه بالقوة مكتوف اليدين ويسلمه الى العدو جهاراً وعدواناً لان حفظ العادات الحميدة في الرهبانية يساعد على قوامها ونجاحها مثلما يساعد على تقهقرها وهدمها ادخال العوائد الرديئة · ومن ثم فمن يتوانى بحفظ العادات الحميدة في رهبانيته او بقيامها بعد سقوطها لا يذنب بحق رهبانيته ذنباً اخف من ذنب من يُدخل او يتسامح بدخول عوائد رديئة فيها »

وقال ايضاً (في المحل المذكور) : « ان المجمع التريدنتيني في الجلسة الخامسة والعشرين قد امر جميع الرؤساء بان يجددوا المعيشة العمومية وان

ينظموها تبعاً للعادات السابقة في الرهبانية وقد امرهم ايضاً بان يبذلوا قصارى الجهد والحيلة في ان يعيدوا كل القوانين والرسوم الى حالتها الاولى فيما لو كان قد اعتورها شيء من الخلل والتغيير ·

ومن البيّن ان المجمع المقدس لم يُعنِ في قولهِ « اعادة الرسوم الى اصلها » حفظ الرهبانية في ما هي عليهِ في الحال بل ان يتجدد فيها ما دثر ودرَس لان الامر في اعادة قلعة مثلاً الى حالها الاولى هو غير الامر بحفظها على حالها الحاضرة· فالحاكم الذي يكون قد تولّى اصلاح معقلٍ والمدافعة فيهِ ان لم يُعنِ الاّ بحفظهِ على حالهِ الحاضرة واتفق لهُ انه بعد قليل غُلب وخذل في وقت القتال هل يكون لهُ عذر او مغفرة عند ملكه ؟ وعليهِ فلا عذر لك لو قلتَ اني احافظ على نظام الرهبانية كما استلمته لان هذا النظام انما هو وديعة في يدي فانا اردها مثلما استلمتها · فقل لي رعاك الله لو انك وجدت قسماً من املاك الدير في حال التلف والخراب او قد اعتدى عليهِ احد الناس واختلسه أفتدعهُ على حالهِ وتقول هكذا كان من قبل ان اتولى رئاسة الدير · او هل كان لك بمثل هذا القول عذر مقبول؟ لا لعمري · بل انك كلما وجدت الخراب عظيماً ومدّته قديمة تهتم باصلاحهِ باكثر سرعة ونشاط · او هل تعتقد بان التزامك اصلاح ما دثر من روح الرهبانية القديم هو اخفّ منهُ في اصلاح احوال املاكها · أولست ترى ان خير الرهبانية وشرفها قائمان في خير النفوس لا غير · أوَيسوغ لرئيسٍ ان يهتمّ بالماديات اكثر من اهتمامهِ بالروحيات · نعم ان نظام الرهبانية وحفظ قوانينها هو وديعة بين يدي الرئيس غير ان هذه الوديعة هي حية فتزداد او تنقص بقدر ما يعتني بها او يهملها ومن ثمّ فاذا توانى الرئيس ولم يواصل عنايته بها تضعف وتتلاشى ·

ألا ترى كيف ان رب البيت غضب على العبد الكسلان واراد ان ينتقم منه لانهُ لم يتاجر بوزنتهِ ويربح بها بل ردّها اليهِ كما كانت ملفوفة بمنديل · والنبي حزقيال يؤكد لنا ان الرب لم يرضَ من راعي شعبه لانهُ حفظ رعيته على ما كانت عليهِ بل اغلظ في توبيخهِ لانهُ لم يعتنِ بتقدمها وتحسين حالها فقال لهُ انك لم تقم ما كان ساقطاً ولم تقوّم ما كان معوّجاً ولم تقوِّ ما كان ضعيفاً ولم تنعش ما كان ذاوياً ذابلاً · اه والنبي إرميا أمره الرب بامرين اولاً بان يقتلع ويهدم كل

ما كان ضد الشريعة الالهية. وثانياً بان يبني ويغرس كل ما كان موافقاً ومساعداً للقيام بها. ومن ثمَّ لا يكفيك ان تحفظ الشريعة على الحال التي وجدتها فيها بل عليك ان تفرغ كل جهدك في ارجاعها الى ما كانت عليهِ اولاً.

ولا تقولنَّ معتذراً ان الشريعة قد هرمت بنوعٍ ما وتلاشت بذنب سلفي فماذا عليَّ. لانهُ وان كان الذنب الاول على سلفك فالذنب الثاني عليك. وذنب الواحد لا يكون ابداً مغفرة لذنب الآخر. وما كان واجباً على سلفك عمله ولم يعمله هو واجب عليك اكثر منه. فاسمع بهذا الصدد القديس برنردوس يقول لك « من الواجب عليك ان تبذل قصارى الجهد والجد بالقول والمثل في ان تسلّم من يخلفك في الرئاسة القوانين سالمة نقية من كل شائبة كما سلّمها اليك سلفاؤك فاحذر إذن من ان تُدخل في الرهبانية عادة سيئة سواء كان بتحريضك على ذلك فعلًا او بسكوتك واغفالك. واحذر ايضاً من ان تفقد عادة صالحة سواء كان بتوانيك او بمواطأة شيطانية ومساهمة مع ذوي الفساد الذين لا يحفلون الاَّ بمآربهم الشخصية وملاذهم الدنية. فلا تتسامح بشيء من ذلك لا في نفسك ولا في الآخرين الذين يعملون بسهولةٍ كل ما يرونك تعمله. لان كل من يعطي مثلًا صالحًا او رديئاً يشارك في عمل من يحذو حذوه ان خيرًا وان شرًّا ويقاسمه الثواب والعقاب. اه

بينما كان القديس فرنسيس الاسيزي منفردًا على جبل الحمامة ومتأهباً لقبول قوانينه من الروح القدس عرف بالروح ان البعض من رهبانهِ كانوا أتوا اليهِ يطلبون المساهلة وعدم التدقيق في حفظ هذه القوانين. فحينئذٍ تحرَّك القديس بالروح وارتعش ورفع عينيه الى السماء وهتف بالله وقال: « يارب اني لقد قلت في نفسي ان هؤلاء الانام لا يصدقونني. فمن نحوي انا ورفقائي الذين يحبون الفقر اننا نحفظ هذه القوانين بكل دقّة ونشاط حتى الممات. واما هؤلاء العاصون المتمردون فلا يمكنني افحامهم. فعند ذلك اجابه الرب يسوع من داخل الغمامة وقال: « ايُّها الانسان الحقير ما الذي يقلقك أفهذه القوانين هي عملك. انا قد امليتها عليك وانا أُريد ان تحفظ حرفاً بحرف حرفاً بحرف حرفاً بحرف من دون تأويل او تفسيح من دون تأويل او تفسيح من دون تأويل او تفسيح. وانا عالم بضعف الانسان

واعرف ان أُخفف عنهُ ما لا يطيق عمله فالذين يأبون حفظ هذه القوانين بتدقيق فليغادروا الرهبانية وانا ادعو اليها من يقوم مقامهم · اه

عد ٢

في انهُ يجب على المرؤُوسين ان يصوّبوا اعادة حفظ القوانين والرسوم

ان الكلام هنا لا يتناول الاصلاح الذي يأمر بهِ الحبر الاعظم بسلطانهِ المطلق لانهُ لا يوجد بين العلماء المدققين من يرتاب بان قبول مثل هذا الاصلاح غير متحتم على الرهبان اجمالاً وافراداً · ولا يتناول ايضاً الاصلاح الذي يجدده المجمع العام في رهبانيتهِ ·لان العلّامة سوارس وكبراء اللاهوتيين يعلّمون ان الرهبان ملتزمون ان يخضعوا لهذا الاصلاح بدون معارضة · وهذا الواجب لا يستثني الرهبان الذين يكونون قد دخلوا الرهبانية ونذروا فيها نذورهم قبل هذا الاصلاح وعندما كانت سائرة العادة المضادّة سواء كانت هذه العادة أضحت شرعية ام لا ·لان الراهب عندما يدخل الرهبانية يأخذ على ذاتهِ ولو مضمراً انهُ يقبل ويسلّم بكل ما تأمر بهِ السلطة الشرعية ممَّا يختصُّ بجوهر الرهبنة ويساعد على قوامها وابلاغ الرهبان غايتهم المقصودة ومن المؤكد ان سلطان المجمع العام شرعيٌّ وان غاية اجتماعه النظر باصلاح شؤُون الرهبانية

وانما الكلام هنا عن الرهبانيَّات الخصوصية المستقلة التي يكون قد سرى فيها بعض العادات التي على ما تقدَّم تضرّ بجوهر النذور او في بلوغ الغاية المقصودة في تلك الرهبانية او في النظام الرهباني او اخيراً في تقديس انفس الرهبان

وربَّ معترض يقول ان الراهب الذي يكون قد نذر في وقتٍ كانت سائرة فيهِ تلك العادة لم يُظن بهِ انهُ اوجب على نفسهِ حفظ ما لم يكن محفوظاً وقتئذٍ في الرهبنة · ولكننا نجيب بما قالهُ مودست دي سانت امابل في تأليفهِ المعنوَن الرئيس الكامل (ك ٤ ف ٢) :

١ً عندما الزمت نفسك يا اخي حفظ النظام الرهباني لا يمكن ان يُفترض انك قصدت شيئاً يضاد الخير العام · لان النظام الطبيعي يوجب في كل حال تفضيل الخير العام على الخير الخاص · ولا شك في ان اهمال بعض الفروض الرهبانية

يضاد الخير العام لان هذه الفروض هي جوهريّة في الرهبنة . ومن ثمّ فان اهمال بعضها مخلٌّ بالحياة القانونية التي تهمّ كل فرد من افراد الرهبنة . نعم ان الاصلاح لا يخلو من المشقة عليك غير ان مثل هذه المشقة يوجبها الخير العام على الخير الخاص . واننا نرى كل يوم ان الجسم المدني اعني الهيئة الاجتماعية والجسم الطبيعي يضحّي الخير الخاص لاجل الخير العام . وذلك ظاهر في الاقتصاص من المذنب واعدامه الحياة ايضاً عند الضرورة وفي قطع العضو الزمن لاجل سلامة الجسم

٢ً لمّا دخلت الرهبانية أخذت على نفسك ليس حفظ النذور الجوهرية بذاتها فقط بل حفظها بموجب روح القانون . وروح القانون على ما قالهُ القديس توما هو شيءٌ من الدعوة الرهبانية ومن الظروف الخاصة بالنذور لانها تسهل حفظها وتضمنهُ لطول الحياة . والحال ان الخلل الذي وجدته في الرهبانية عند دخولك اليها ليس هو القانون بل هو عادة مضادة ومعاكسة لهُ . ولنا ان نقول ايضاً : انهُ آفة للقانون وللرهبانية . وعلى مبدإ الحق القانوني «ان الراهب ينذر حفظ القانون لا حفظ العادات المضادة لهُ » فالمسيحي الذي يخضع للكنيسة بقبولهِ سر العماد ألا يلتزم الطاعة لها عند ما تقوم لاصلاح بعض الشوائب ؟ وهل من يقبل لهُ عذراً لو قال : اني لمّا قبلت سرّ المعموديّة كانت العادة جارية على ما هي الان ولذلك لست ملتزماً بقبول الاصلاح . وعليهِ نقول انهُ ولو غدا الروُساء انفسهم مساعدين للخلل بتغاضيهم ومساهماتهم فالمروُوسون مع ذلك لا يُعذرون في تركهم القانون وتتبعهم العادات المضادة لهُ . ومن ثمّ فاذا قام الروُساء بعد حين واكبّوا على العناية بحفظ القوانين واستئصال العادات المضادة لها فلا يسوغ حينئذٍ للمروُوسين ان يناصبوهم في ذلك بل يتحتم عليهم ان يساعدوهم بكل جهدهم بخضوعهم التام لحفظ الرسوم والقانون بتدقيق

٣ً ان الحق الذي لك او الانعام بعدم الزامك حفظ باب من القانون لا يكون الا مدّة وجود العادة الجارية ضد حفظ هذا الباب . غير ان هذه العادة لا تضيّع حق الروُساء ولا الزامهم بالمحافظة على القوانين ومناصبة العادة السيئة التي جرت ضدها ولو مدة طويلة . فاذا انتبه الرئيس وعاد الى القيام بحقوقه وبما هو مفروض عليهِ وابيت انت قبول الاصلاح تكون قد ابيت الطاعة لمن تجب

لهُ وخالفت نذرك بمادةٍ ثقيلة · لان اصلاح الشوائب او رفع العادة المضادة للقوانين ليس فيهِ شيء من الزيادة على القانون ولا مما يفوت حدود سلطان الرئيس لان اخص واجباته انما هي ارجاع الرسوم الى اصلها ومبداها الطبيعي

٤ً وعلى تقدير انك اضمرت صريحاً ان لا تعاهد الله بحفظ القانون الأ كما كان محفوظاً وقت دخولك الرهبانية اي حفظاً غير مدقق فلا بد مع ذلك من انك تكون قد اضمرت ولو بنوع غير صريح انك تعاهد الله بحفظ القانون بتدقيق عندما تقوم الرهبانية وتعود الى حفظه بتدقيق وصرامة · لانهُ لا يُقدَّر عليك ولا تقدر ايضاً ان تعاهد الله بحفظ عادة سيئة مضادة للقانون ولروح الرهبانية · ولا الكنيسة المقدسة تقبل منك مثل هذا العهد الفاسد · ومن ثم فان عهدك هذا الاضماري يوجب عليك قبول الاصلاح عندما ترى الرهبانية مستعدة لاجرائهِ والقيام بهِ بدقة ونشاط

٥ً وما مثل القوانين بهذا الامر الأ مثل القُصَّر الذين ولو طال الزمان على مغدوريتهم فان الشرائع المدنية تصوب مدعاهم بعد طول المدة وترفع المغدورية عنهم لانها تعتقد ان قصرهم سوَّل لوكلائهم الغدر بهم وسلب اموالهم · فهكذا القوانين هي تحت حماية الكنيسة المقدسة وهي فرع من نظامها وفرائضها فاذا اهملها ولو مدة طويلة بعض الروساء الذين اقامتهم وكلاء عليها وانتبهت بعد ذلك لهذا الاهمال وارادت اصلاحه فلها ذلك وعلى كل راهب من افراد الرهبان ان يخضع لهذا الاصلاح ويقوم بهِ

٦ً ولا شك بانك في دخولك الرهبانية لم تعاهد الله بمناصبة القوانين وتدميرها · والحال ان الخلل الدائم بحفظ القوانين هو دمار لها لان الخلل اول مرة يأتي بمثله ثاني مرة والثاني بثالث وهلمَّ جرًّا الى ان ينتهي التواني وخبث النية بتأويل القوانين تأويلات كاذبة · ولا ينفكان عن التقدم من معثرة الى اخرى حتى يتم دمار القانون والنظام الرهباني معاً

٧ً من المقرر انهُ لا يسوغ لاحدٍ ان يمنع غيره عن التمتع بالخير العام المختص بالجماعة · والحال ان القانون خير عام يختص بجماعة الرهبان اجمالاً وافراداً · فلو اردت انا حفظه بتدقيق لا يقدر احد ان يقاومني · لانه لو كان لي ولاخي حقل

واحد بائر من زمن مديد وانا اريد حراثته وغرسه فهل لاخي ان يمنعني عن ذلك؟ فالقانون هو هذا الحقل المهمل من الحراثة فلو شئت انا ان ارجع الى حفظه والقيام بكل ما يرسمه فهل يسوغ لاحد اخوتي الرهبان ان يقاومني بذلك كلاً . ومن البين ان مقاومة الاصلاح من بعض الرهبان كثر او قل عديدهم ولاسيما اذا كانوا من ذوي الكلمة والنفوذ هو منع لكل واحد من افراد الرهبانية عن حفظ الرسوم بتدقيق وعن التمتع بخير القانون العام الا وهو راحة الضمير الكاملة المطلوبة بنوع خاص في الدعوة الرهبانية

٨ً ومن مبادي الحق القانوني ان ما كان رديًا في الاصل لا يصير صالحاً فيما بعد ولو تمادى الزمان . وانهُ لا الخداع ولا الاغتصاب يكونان اساً لحق شرعي . فاذا اختلست مالي بمكر او باغتصاب فلن تكون ابداً مالكاً لهُ ملكاً شرعياً عادلاً . وهكذا فان احتقار القوانين وعدم العمل بها لا يكون حقًّا شرعيًّا لاحد ولو مهما طالت مدته لانه مبني على المكر وقوة الاغتصاب . وهل من الممكن ان يصير احتقار القانون قاعدة قانونية . او لعلّ السكوت عن هذا الاحتقار كان عموميًّا من جميع الروساء وفي كل زمان ؟ كلّا ولكن قد جرى التنبيه عليهِ مرات غير انهُ لما كثر المخالفون يئس اكثر الروساء والرهبان الصالحون وانكفوا مدة عن القيام بحق واجباتهم في امر التنبيه والوعيد . ومن ثم فهذا السكوت لايكون حقاً مرعياً لا يُرجع بهِ لانه لم يكن عن رضاء واستحسان بل عن كره ورغم . وبعد فلو اراد الروساء السكوت عن رضاء فلا يسوغ لهم . فينتج اذاً ان السكوت لم يكن الاَّ عن اغتصابٍ مراعاةً للضرورة وان هو الاَّ احتمال موقت لاجل قساوة قلوب العصاة المتمردين . وبمثل هذه الظروف لا يبرح القانون حافظاً حقه كثر المخالفون او قلّوا وطالت مدة المخالفة او قصرت . نعم قد يسوغ للرئيس ان يسكت ما دامت الظروف لا تسمح لهُ بالتكلم وبمقاومة المخالفين حذراً من الوقوع في شرٍّ اعظم . واما اذا تغيرت هذه الظروف فيجب على الرئيس ان يهب للمحاماة عن القوانين وعلى المرؤُوس اياً كان ان يخضع لذلك خضوعاً كاملاً

الباب الثاني

في السياسة الواجبة لازالة العادات السيئة وملاشاة الفتن والخصومات

عدد ١

في السياسة الواجبة لازالة العادات السيئة

ونكتفي في هذا المعنى بان نورد بعض ما قالهُ صاحب مرشد الروساء (نصيحته ٤١)

قال : « اذا كانت هذه العادات لم تدخل الرهبانيــة الآَ من زمنٍ قريب فاقتصر في نوع ازالتها على قراءَة القوانين والفرائض وعلى شرحها وبيان دخول هذه العادات الوبئة · وبيّن كذلك مــا عليك من عظم الموجبات لله وللناس الذين انتخبوك لهذه الوظيفة وأبن ايضاً ما انت عليهِ من الحزم في المحافظة على الرسوم بكل تدقيق اذ بدون ذلك لا تكون لضميرك راحة البتة ثم اوضح التغيير الذي طرأ على الرهبانية وما ينجم عنه من الضرر في القوانين والكمال الرهباني في الحال او في الاستقبال وانك من ثم لا تستطيع ان تنفك عن هذه المحافظة لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل لو جُددت لك الرئاسة

اما اذا كانت هذه العادات قد اندست في الرهبانيــة من امدٍ طويل فلا تحاول قلعها كلها باسرع وقت لان ذلك مما يجعلك في اعين مرؤُوسيك كمجدد الرهبانية او مصلحها فينفرون منك وينبذون كل ما تتوخاه · فالتأني والرقة في مثل هذه الحال افضل واجدى نفعاً من اللجاجة والصرامة والسيد المسيح نفسه عزت قدرته لم يلاشِ كنيسة اليهود دفعةً واحدة بل كما لحظ القديس اغوسطينوس اماتها ودفنها باناةٍ واكرام · فان التغيير السريع ولو من الشر الى الخير لا يخلو من الاخطار والمعاطب

وما احدثه طول الزمان لا يمحوه الاّ طول الزمان فان حاولت شفاء مرض مزمن بسرعة وقوة لا تلاقي إلاّ زيادة الاخطار والمحن · ومن المقرر ان اصلاح رهبانية قديمة لهو اصعب من انشاء رهبانية جديدة

فان القديس فرنسيس سالس كان من مباديه ان يسير في اصلاح الديورة بكل تأنٍ ولطف وكان من عادته ان يقول : « ان النجاح لا يكون الاّ من الاقل الى الاكثر وان الله جلت حكمته لا يفتقر الى الزمان ليبلغ كل علةٍ معلولها وهو مع ذلك وان اتم بقوةٍ كل ما يريد لا يتمه الاّ برفق واناة وبنوعٍ غير محسوس · اه » وكان في ادخاله الاصلاح الى ديورة الرجال يطلب شيئين الصلاة العقلية مع القراءة الروحية رفيقتها اللازمة لها والمثابرة على سرّي التوبة وتناول القربان المقدس وكان يقول ان الاصلاح يتم بذلك بهدوء وسكينة اذ لا ينجم عن ذلك ضجيج ولا معاسفة ولا معاكسة البتة

وكذلك في اصلاحه ديورة الراهبات كان يطلب شيئين وهما دقة المحافظة على حصن الدير والصلاة العقلية مرتين في النهار وكان يقول : « بهذين الامرين يمكن بسهولة ارجاع اولاء البنات المحصنات الى حفظ واجباتهن بدقةٍ ونشاط · اه هذا ما عدا نزراً من الراهبان والرهبات الذين يكونون عقدوا النية وصمموا العزيمة على عدم قبول الاصلاح باي وجهٍ كان · وقد صور الاب صورن هولاء الافراد بصورة مريعة اذ قال : « انهم ذوو روُوسٍ من حديد وصدورٍ من نحاسٍ لا تدع للنعمة مدخلاً وهم يرون الشهامة في عدم الطاعة واحتقار كل فريضة حتى انهم يُضحون للشياطين غنيمة باردة اه (م ٢ ك ٥٠)

سرْ بين الاخوة سيرة الحكمة والتدقيق في الرسوم والقوانين واتخذ لك في ذلك خطة واحدة لا تتغير فيكون لك هيبة واعتبار ويرى الجميع انك محبٌّ للقانون وللاخوة معاً · وعندما يعتبرك مروُوسوك هذا الاعتبار يسهل عليك ان تقدمهم في معارج الكمال وهم لا يشعرون لا بكربٍ ولا بعناء · وبعد فلا تدع احداً منهم يحتاج الى شيء من المأكل والملبس لان التراخي بحفظ القوانين يكون مبداه عادةً الحب المفرط لرغائب الطبيعة وتقصير الروساء في تأدية هذه المطاليب وان ما يقويك وينصرك على افكار الاخوة هو ان لا تسير امامهم

وانت رئيس سيرةً لم تكن سرتها وانت مرؤوس بنوع ان لا يقال عنك انك تقول ولا تعمل او انك تفرض لنفسك قانوناً ولمرؤوسيك قانوناً آخر . وكلما بان لك او توهمت ان امر الاصلاح شاقٌ او مستحيل ضاعف عنايتك بحفظك القوانين وجهدك بان تكون من الحارين في العبادة . فيفعل حينئذٍ مثلك ما لا يفعله قولك

اكّد لمرؤوسيك بقاطع البرهان ان الله يعطي الرؤساء من الفطنة والغيرة ما لم يُعطوه من قبل لانه جاءت حكمته يساوي بين الهبات والواجبات واذا مست الحاجة الى عقاب المذنب فعاقبه ولكن أبن لهُ انك لم تجرِ ذلك الاَّ مكرهاً لاجل المحافظة على القوانين وانك اذا عملت على اخضاعه لنير الطاعة فما ذلك الاَّ حباً بخيره لا غير . واقتصر في غالب الاوقات على تنبيه المرؤوس وحضهِ على اجتناب المخالفات حضاً بسيطاً ليناً . تكلم قليلًا وصلِّ كثيراً ولا تقل او تفعل شيئاً يمكنك ان تخجل بهِ فيما بعد ولا تلجأ الى المواربة والمخاتلة لانهُ لا بد لكل خفي ان يظهر ولكل مجهولٍ ان يُعلم . انتقِ مؤازريك من الرهبان الصالحين وابذل قصارى الجهد في مسالمة الرهبان القدماء ذوي النفوذ والذين لا يبعد ان يخلفوك في الرياسة لكي يواصلوا يوماً العمل الذي تكون بدأت بهِ ويبقى الروح في الرياسة واحداً . افرض صلوات غير عادية لاجل نجاح العمل . ألقِ رياضة روحية على عموم الرهبانية بواسطة مرشد محنك متصف بالحزم والدعة وسداد البرهان وعذوبة الكلام ومقتدر على ان يكمل في منبر التوبة ما يكون بدأ بهِ في منبر الخطابة

وعليك بالخصوص ان تتوصل الى كشف اصول العادات السيئة مثل تكثير العدد من اباء الاعتراف في دير واحد وقلة اعتبار القوانين التي هي خطيرة في عين من يريد بلوغ الكمال الرهباني . وعدم الصمت في اوقاته وهو في تعليم الاباء الروحيين من اعظم ادلة الاصلاح والنجاح في الفضيلة وكثرة مقابلة الخارجين ولو داخل الدير وهذا ينبغي ان تعيّن لهُ مواقيت محدودة اما التجول خارج الدير لغير داعٍ صوابي وبغير اذن الرئيس فلا يُعد من الشوائب فقط بل من المنكرات التي لا يليق احتمالها في الرهبانية ولو كانت في شخص واحد واهمال الفروض الروحية التي يجدر ان يُسن لها سنَنٌ لا يتخطاها احد بدون داعٍ ضروري .

وعليك ايضاً ان تنظر في شوائب الرؤساء مثل قلة حزمتهم او مجافاتهم لمرؤوسيهم وقلة غيرتهم وسهرهم على مصالحهم • امـا مثل هولاء فوان لم يجدر بك ان تسكت عنهم او تبرئهم فمع ذلك لا تلمهم بالتوبيخ والتونيب بل اقتصر على لوم الزمان والتشكي من الظروف التي لا تمكنهم من القيام بحق واجباتهم كما يرغبون لتريهم بذلك انك لا تسيء الظن بحسن نياتهم • ومن الشوائب التي تضر بالاصلاح تكثير الفرائض ومساهلة الرؤساء بالاعفاء منها • فاكتفِ انت باصلاح التأويلات الكاذبة للقوانين اما تفسيرك لها فينبغي ان يكون مدعوماً بصحة البرهان وصلاحية السلطان

عد ٢

في السياسة الواجبة لرفع الفتن وازالتها من الرهبانية

في هذا يفتقر الرئيس الى كبر العقل وسعة الصدر وجميل الصبر وطول المدة لان الحدة يلازمها شيء من الحماقـة فتهدم ولا تبني • الا ترى ان النوتي الذي يفتخر بعدم مطاوعته جري العواصف لا يلبث ان يغرق ويكون فريسة الامواج واللجة • ولعمري ان محاذرة المعاطب لا تقل مجداً عن مقاومتها والظفر عليهـا ولهذا يقال ان القوة جديرة بالاَّ تفارق الفطنة ابداً حتى ولو امكنها الفوز برغبتها من دون مساعدتها • فالخليق اذاً بالقوة ان لا تسير خطوة الاَّ بمقتضى ارشاد الفطنة وعلى الفطنة ان تعد وتسهل للقوة كل ما تبتغيه وتروم نيله

قال العلاَّمة يوفيس (رسالة ١٤) « اسرع الى تبديد شمل الاحزاب التي تتألب وتتأيد بكثرة العدد وقد تتخذ لها في الظاهر غاية محمودة تستتر بها امـا في الباطن فلا يكون قصدها الاَّ مغايراً للعدل والاستقامة • فيرومون اضعاف سلطان الرئيس بحجة توقيفه عن مطامعه المذمومة • وانما قصدهم يكون توسيع نطاق الحرية المعاكسة لكل نظام وقانون • فاقطع ربط هـذه الالفة بالفطنة والدربة لا بالقوة والمعاسفة لئلا تزيدهم حنقاً واعتصاباً • وأبن بالرقة والمجاملة لزعيم تلك العصابة ولذوي النفوذ انهم بهذا التصرف يثلمون حقوق المحبة والنظام والالفة الاخوية وانك مستعد كل الاستعداد لان تحفظ سرهم لو كاشفوك بهِ

وتحسن مكافاتهم . وهذه المباحثة تكون مع واحد منهم لان كثيرين يتألفون بمثل هذه الاحزاب عن بساطة قلب وعدم معرفة لغوائلها فاذا اسعدهم الحظ برئيس ذي حكمة ودراية يرشدهم سواء السبيل يرتشدون بسهولة ويعودون الى ما كانوا عليه من حب الالفة والسلامة . »

لا تستعمل القسوة اولاً بل اللين والرقة اما روساء الاحزاب الذين يقودون الآخرين الى الفتن ولم يرعووا عن غيهم بعد تكرار التنبيهات فيجدر بك ان تعاملهم بشيء من الحزم والصرامة . غير ان ذلك لا يكون قبل دقة النظر والتروي الكامل في حالة هولاء المشاغبين وافكارهم وفي قوة حزبهم ولا يفُتك ان حزب المشاغبين يظهر عادةً انهُ اكثر عدداً مما هو في الحقيقة فلا تعبأ بما يشيعونه عن وفرة عددهم ولا شك بان الخطر القريب يظهر اعظم مما يكون في الواقع لان الخوف يصوره كذلك وكم مرة تورطنا في الاخطار من مزيد تهيبنا لها وقعودنا عن مقاومتها في نشأتها فعظم شرها وازداد وبالها . وهكذا الجبانة عند الخطر تكون شراً من الخطر نفسه . واقول ايضاً ان اهل الثورة يظهر عديدهم في وقت الهيجان غفيراً لانهم يمشون في مقدمة القوم ويثيرون الحركة والضوضاء بينما نرى اهل السلامة يأبون المزاحمة ويلجأون الى الخلوة ويلازمون السكوت . امّا لو رأيت الجماعة كلها او اكثرها تألبت عليك وعاضدت المشاغبين فالفطنة تقضي عليك حينئذٍ بان تتأنى ولا تقاوم القوة بالقوة لئلا تتقلع الحنطة مع الزوان وتزيد الفتنة هيجاناً . قال القديس اغوسطينوس : « لا يسوغ ابداً ان نهمل الصالحين لاجل الاشرار ولكن يسوغ لنا ويجدر بنا ان نحتمل الاشرار لاجل الصالحين اه

ان العقل النطقي يقضي على الانسان ان ينضل الطريق الامينة على الطريق الشريفة وان ينكسر بفطنة وتدبر امام الشر في وقت الضرورة راجعاً عن طريقه اومعرجاً عنها عندما يصادف فيها اخطاراً لا تقتحم . انهُ لمن الواجب ان نقاوم الظلم والظالمين ولكن لا يسعنا الاَّ ان نخضع لاحكام الضرورة ولا نزعم اننا نستطيع ان نأخذ كل شيء بالقوة . فلا نتظاهر باننا عارفون ما لا نقدر على اصلاحه ولنؤجل من يوم الي آخر ما لا نقدر على انجازه في الحال . وكثيراً ما

يكون في تضحية شيء من حقوق السيادة حفظاً وتأييداً لها . فاذا لحظت ان لا سبيل لك في الحال الى اصلاح بعض الشؤون ألا يجدر بك ان تتغاضى عنها وتؤجلها الى فرصة انسب ؟ . وان ابيت السلوك في هذه الطريق حسبك الناس ناقص الحجى متهوراً او من ذوي الخشونة والغلظة . لانك اذ لم تذعن لاحكام الضرورة أُجبرت على القهقرى والتحطم بانياب القوة الغالبة اه (بوفيس مكتوب ١٠) .

امّا ذوو الارادة الصالحة من الرهبان فاعضدهم وشجعهم واعتبرهم واذا داهمهم بعض المصائب فحضهم على الصبر والمحبة واعتصم بهم لكي تستميل اليك سائر الرهبان المنحرفين عن جادة الصواب او تبدد شمل تجمعاتهم لانهُ من الضروري ان تكون اكثرية الرهبان خاضعةً لك ومذعنة لامر الاصلاح . ابذل قصارى الجهد في حفظ النظام في الاجتماعات الرسمية وابن للجميع عظم الخطيئة التي يطالب بها اولو الدسائس الذين لا يسيرون بموجب ارشاد الضمير . ولا تسمح لاحد بان يتغيب عن المجمع او ان يرفض اعطاء صوته فيهِ بغية إلقاء الخلل في الاقتراع .

ومن يعلم ان العناية لا تعد لك تجارب امر من كلما تقدم . فربما يتشبث رهبانك بعلل فارغة ويشمئزون منك ويعملون كلما بوسعهم من ضروب الحيل والمكر حتى يلجئوك الى الاستقالة من الوظيفة او يحملوا الرؤساء على عزلك عنها ولكي يبينوا للناس انك فقدت ثقة الجمهور واعتباره يتحاشون مخاطبتك ويأبون ان يكشفوا لك افكارهم بل قلما يدخلون قلاياتك وتراهم لا يعتدون بك ولا باوامرك ولا تراهم شاكرين لك شيئاً مما تعمله لاجلهم او تبديه لهم مهما بالغت في حبهم فسواءٌ تكلمت او سكت انت المخطيء . وان حاميت نفسك ولو بكل دعة ورقة عدُّوك عاتياً وظالماً وان انت لزمت السكوت وألقيت كل همك على تدبير الرؤساء الكبار قالوا انك مذنب بعين نفسك ولا تجسر على الاتيان بادنى حركة . وبعد فانهم يعزون اليك كل القلق والشغب وتشويش النظام الذي يكونون هم قد احدثوه لكي يشجبوك بهِ اذ يقولون : «كيف يمكن اويسوغ ان يُترك الجمهور كله في قلق واضطراب من اجل رجل واحد ؟ اه

ولكن اياك ان تبدي لمقاومة هذه الدسائس غير الصبر الطويل والدعة الكاملة

ثم اعرض للروٌساء واقع الحال وكن مطمئن البال

اماً لو كانت الوشايات التي يشكونك بها مضرة بخير الرهبانية العام ضرراً جسيماً فلا بد لك اذ ذاك من ان تحامي نفسك بكل الجهد المستطاع وهذا ما يعلمه شمس المدارس القديس توما اللاهوتي . ولكن اذا كان الضرر خفيفاً لا تعبأ بهِ . واماً اذا كان الضرر جسيماً غير انه لا يمس الأ مصالحك الخصوصية فلك حينئذٍ ان تحامي نفسك ولك ايضاً ان لا تحاميها حباً بفضيلة الصبر والمحبة

عد ٣

في ما ينبغي عمله لاجل تسكين الخصومات

اجتهد في ازالة المنازعات في حال نشأتها لانهُ لو ظهرت في الافق غيمة سوداء وعقبتها في الحال ريح شمالية لبددتها ولم تذر لها اثراً . اماً لو سكنت الريح فتتعاظم تلك الغيمة وتمسي غيوماً متكاثفة ولم يعد شيء يبددها بل لا بد من ان ينجم عنها الغيث المدرار والسيول الجارفة . فاذا رأيت الامر هاماً تحرَّ الفحص عنه بدقة وبدون ابطاء ولكن اعطِ كلًّا من الفريقين وقتاً كافياً ليكشف لك ما لهُ وعليهِ ولا تبتدر احداً بالميل عنهُ او اليهِ ولو بان لك انهُ منبع الشر واصلهُ ولا يبعد ان يبالغ كلٌّ منهما بما يشكو بهِ رفيقه فيقول لك : « ان خصمي اتى بمنكرة لم يُسمع بمثلها قط . . » فدع كلًّا منهما يفرغ كنانة شكواه ولا تبدِ الملل ولا تكن كمن يحاول حصر الرياح بكهفٍ بل ابذل قصارى الجهد بان تعطي صاحب الحق حقه ولا تستصغر شكاية لانها ولو صغرت في عينيك ليست كذلك في عين من يشكو ألمها

واذا تعاظمت الخصومة وبدأ ما ما يضاد الاداب فاقتص من الفريقين لان الواحد يكون قد اخطأ بابتداره رفيقه بالاهانة والآخر بانتقامه لنفسه وانك باقتصاصك من الاثنين اذا لم ترفع من قلبيهما كل سم البغضاء فتردع على الاقل الآخرين عن الاتيان بمثل هذه المنازعات

وقد يحدث بعض الاحيان ان يحتدم الفريقان ويغضبان الغضب الشديد لاجل

امور تافهة واحياناً تكون المنازعة على اراء مدرسية فتثلم المحبة قبل ان تنجلي الحقيقة. وقد يحدث ايضاً ان يتبع احد الفريقين رأياً يضاد رأي الكنيسة ويخالف الايمان القويم فاذا حضرت مثل هذه المحادثات فأوقف جريها او حوّلها الى موضوع آخر.

واذا وجد بين مرؤوسيك من يكونون مولعين بالمجادلات والمماحكات التي كثيراً ما تجرح المحبة فعيّن لهم رفقاء من ذوي اللين والدعة لكيلا يفضي الامر بهم الى المشاحنة والمنازعة .

وفي آخر هذا الفصل « في الاصلاح » واختتام هذا الكتاب «في التأديب» نقول كلمة نصح للرئيس : « ان اعتبر جماعتك كلجة بحر تثور منها في ساعة لا تظنها زوابع شديدة تهول امهر الملاحين واعظمهم بسالة. ولكن اعلم مع ذلك ان الله هناك يسود على قوة البحار ويسكن امواجه المضطربة فيحني تحت نير شريعته اقسى رقاب العاتين والمتمردين

فلا تفشل اذاً ولا تيأس لانك بالنعمة والحزم والصبر لا بد من ان تبلغ الغاية من مقاصدك الخيرية. فغار النصر معدٌّ لفضيلة الثبات وكلما قاسيت من الشدائد في جانب الجهاد والظفر كنت حقيقاً باعظم الاجر والثواب .

ولا ارى في ختام هذا الكتاب كلاماً انجع في قلوب الروساء من كلام الذهبي الفم في هذا الصدد اذ كان يحث المؤمنين على المثل الصالح لبنيان القريب. قال: « اذا كنتم اليوم لم تقنعوا احد فستقنعونه في الغد او بعد الغد . وان لم تتوفقوا الى ذلك ابداً او لم تتوفقوا الاّ مع افراد قلال العدد فان اجركم معد في كل حال وهو اجرٌ كامل. الا ترى ان سادتنا الرسل على الرغم من مزيد رغبتهم في هداية العالم باسره لم يوفقهم الله بكل مبتغاهم فاذا رمتَ ان تربح العالم كله للسيد المسيح ولم تقدر فلا يقعدك شيء عن ان تربح لهُ تعالى قسماً ولو صغيراً فان لم تقدر ان تربح لهُ تعالى مئة فاكتفِ بربح عشرة . وان لم يسعدك الحظ بربح العشرة فاكتفِ بربح الخمسة او بربح شخص واحد حتى اذا لم يتيسر لك ربح شخص واحد لا تقنط من العمل بل واصل عنايتك الى آخر نسمة من حياتك. تأمل في ما يعملهُ التجار فانهم لا يقصرون عملهم على جمع الذهب بل يجمعون من الفضة والنحاس

والحديد وكل ما يتيسر لهم ولا يتوصلون الى جمع القناطير المقنطرة من الاموال الأ لانهم لم يتهاونوا بجمع الدريهمات اليسيرة لان من توانى بالربح القليـــل قلما تساعده الفرصة على ربح الكثير · ولا يُضحي غنياً عظيماً الأ من واصل العناية بجمع كل ما يتيسر لهُ من الارباح كبيرة كانت ام صغيرة.» (العظة ٣ على الرسالة ١ الى الكورنتيين)

الفصل الثالث

في الارشاد الروحي

مدار كلامنا في هذا الفصل يكون على العناية التي ينبغي للرئيس ان يتخذها في تقديم مروُوسيه في الحياة الروحية

عد ١

لا يسوغ للرئيس ان يدع رهبانه يتقاعدون عن التقدم في طريق الكمال

قال السيد المسيح « انظروا واسهروا وصلّوا واقول اسهروا · وما اقولهُ لكـــم فللجميع اقوله اسهروا لانكم لا تعلمون في اية ساعة يطرق السارق » (مر ١٣) ومن لا يسهر يدركه الاجل بغتة· فما الفائدة من قيام الحقيقة في وجه من لا يفتح عينيه ليراها ومن عليهِ في الجماعات الرهبانية ان يفتح الاعين المغمضة وان يقرّب المصاحف او القوانين الرهبانية الى ابصار الرهبان الذين يغضون عنها وان يصعد الى قمة المعقل ليشاهد اقدام العدو في معمعة الحرب؟ ان هو الا الرئيس الذي يسميه الاباء القديسون حارس مدينة الله وعين الجماعة وضمين الانفس ومنارة بيت السيد المسيح وحارث حقل بيت العائلة وامـــين حظ مروُوسيهِ · فتبًا اذن

وتعساً لتلك الجماعة الرهبانية التي يمكن ان يوجه اليها كلام أشعيا النبي القائل : « ان رقباءها كلهم عمي لا علم لهم وكلهم كلابٌ بكمٌ لا يستطيعون النباح حالمون مضطجعون محبون للنوم » (ف ٥٦) ونرى السيد المسيح يعامل المتواني بواجباته معاملة العبد الشرير اذ قال لهُ : « ايها العبد الشرير الكسلان» (متى ٢٥) ولا شك انه يريد بذلك ان الراعي المتواني يُلحق بقطيعه من الضرر عين مايلحقه بهِ اللص السارق

قال القديس مبارك في كتاب قوانينه « وليعلم الرئيس ان من واجباته ان يؤدي الى خرافه كل ما يتوقعه منه رب العائلة» (ف ٢) فكأنهُ يقول ان الرئيس لا يعطي جواباً عن النقائص التي يرتكبها مرؤوسوه فقط بل عن قلة تقدمهم في الفضيلة كما في وسعهم · ومفاد ذلك ان الرهبان الذين كان في امكانهم ان يتقدموا في الفضيلة تقدماً عظيماً ولم يتقدموا الاّ تقدماً بطيئاً من تقصير الرئيس في حضهم وارشادهم في طريق الكمال فالرئيس يكون مطالباً بكل ما يخسرونهُ من درجات المجد التي كانت معدة لهم جزاء فضائلهم لولا توانيه في اتمام واجباته نحوهم . وهذا عين ما قالهُ القديس برنردوس للبابا اوجانيوس وهو : « من حيث انك رعاك الله لا متسلط على رعاياك فقط بل مدين لهم · ابذل قصارى الجهد حتى ان الذين لم يذوقوا بعد لذة الفضيلة يذوقوها ولا يفقدوها بعدما تقدموا فتمتعوا بها ويعودوا اليها باقرب ما يمكن من الزمان اذا كانوا فقدوها . » (اعتباراته ك ٣ ف ١)

ولعمري ان الكمال دين على الراهب يؤدي منهُ في كل يوم جزءاً ولا يمكن ان يفيه تمام الايفاء . او هو خبزه اليومي الذي يبتاعه بعرق جبينه . او هو تجارة يستخدم فيها كل قواه وكل رأس ماله من دون ان يضع حداً او مقياساً لارباحه فان قلت انا غنيٌ ولا حاجة لي الى اكثر مما عندي ولا اريد ان اكون اغنى من آبائي . . فكلامك هذا لا يكون كلام راهب . قال القديس غريغوريوس ان المدين بالف دينار لو وفى منها مئة لا يمكنهُ ان يقول اني برئت من ديني . والمسافر الذي لم يقطع من طريقه الاّ نصف المسافة لا يعتدّ بما قطعه لعلمه انهُ لم يبلغ بعد غاية سفره . » وقال ايضاً ان من شرع في عمل الكمال المسيحي مثله مثل من يقطع

نهراً غزير الامواه وسريع الجري فان توقف ولو قليلاً عن مقاومته الجري اختطفته السيل. ولذلك قال ايمة الاباء ان التوقف في الحياة الروحية هو تأخر. وعدم الربح خسارة. وإلقاء السلاح انكسار تام. والعمل بابطاء وتوانٍ هو هدم العمل السابق وملاشاته. تقول انك لا تريد ان تكون احسن من ابائك ولا تدري ان قولك هذا يعني انك لا تريد ان تكون فاضلاً . وان قلت انك لا تريد ان تصعد الى قمة جبل الكمال فذلك اشارة الى انك لا تريد الاَّ ان ترحف في عمق الوادي . والاَّ فكيف يتفق انك بعد ان اتخذت الرب يسوع قدوةً ومثالاً تقاوم الان نعمته وتمتهن صلاحه وتنكص في عهودك

ولاجل ذلك يترتب على الرئيس ان يحضَّ رهبانه ويستنهضهم الى سلوك طريق الكمال التي قيل عنها« ان الذين يعرفونها قليلون واقل منهم الذين يدخلون فيها . واقل منهم ايضاً الذين يسلكونها ويتقدمون فيها اهـ » وعليهِ يجب على الرئيس كما يعلّم لانسيسيوس ان يفاوض رهبانه هذه المفاوضات الروحية مرَّاتٍ كثيرة وان يسألهم في كل فرصة عن نجاحهم الروحي وان لا يقتدي ببعض الرؤساء الذين يقضون اكثر اوقاتهم او كلها بقراءة المراسلات والجرائد والزيارات العالمية ولا يهمهم غير السياسة والمصالح الزمنية رهبانية كانت ام عالمية » (في شروط الرئيس الصالح)

عد ٢

في انهُ من واجبات الرئيس الاولى ان يتطلب من رهبانه الكمال الذي يوجبه القانون وتساعد على اكتسابه الحياة الرهبانية

لما كان كل قصد الراهب عند دخوله الرهبانية تحصيل الكمال الذي يوجبه القانون وتساعد العيشة العمومية على الوصول اليهِ كان على الرئيس ان يبذل معظم عنايته في مساعدة الرهبان على الفوز بهذه البغية المقصودة والضالة المنشودة

ولعمري لا يرفض احد ارادته المطلقة ويتعلق بارادة غيره الاَّ لغرضٍ تساوي

اهميته هذه التضحية الكبيرة . فما هو اذن غرض الراهب بتضحية ارادته الخصوصية على مذبح الطاعة في تلك الرهبانية تحت طائلة تلك القوانين والرسوم . انما هو لا شك ان يحمي نفسه بقوة الطاعة المقدسة وبمساعدة قوانين الرهبانية ورسومها من شر الرذائل التي تداهمه من داخل والمخاطر التي تكتنفه من خارج . وان يحصل بهذه الحماية على الكمال الرهباني . وبالحقيقة ان الراهب لما كانت الاميال المنحرفة تتسلط عليهِ كسائر الناس وكان معرضاً لاخطار الشكوك والفساد ولا يطمئن الى استقامة ارادته ولا الى ثباتها رغب في ان يلتجيء الى احدى الرهبانيات محتمياً في ظل رسومها وقوانينها آملاً انها تقيه شر الفساد وتعضده في طلب الخير وفي الخضوع لنير الفضيلة وانه يبلغ على هذه الصورة الى القداسة والكمال بلوغاً اخص فيا اذا كانت الرهبانية الملتجيء اليها حائزة امتياز التثبيت من الكرسي الرسولي . والحال ان الرئيس هو حارس الرهبانية ومحـام عن القوانين باسم الكنيسة . فوجب عليهِ اذن ان يحافظ بواسطة القوانين على اولئك الذين اتخذوها دستوراً لهم وان يساعدهم بها على بلوغ غايتهم التي هي الكمال المسيحي . ولما كان جميع الرهبان في كل رهبانية يسلمون ارادتهم لارادة رئيس واحد وجب ضرورة على هذا الرئيس ان يجمع مصالح الجميع الى غاية واحدة ألا وهي الكمال وان يوجّه ارادة الجميع الى طلبها والحصول عليها بآمن طريقة واسهلها .

فبهذا يكون كمال الجميع بالعموم وكمال كل واحد بالخصوص قائماً في ممارسة القانون وبهِ تقوم الحياة العمومية التي هي نتيجة العمل بموجب القانون وبهِ يوجب على الرئيس ان يحض رهبانه ويحملهم على بلوغ الكمال الذي يطلبه القانون ولا يكون عادة الاَّ في المعيشة المشتركة

والكنيسة المقدسة تعتبر الاشتراك في المعيشة اعتباراً شديداً ولذلك تنهي عندما تثبت رهبنةً من الرهبانيات عن اقامة دير جديد ما لم يتيسر لهُ جمهور كاف لقيام القوانين وحفظ الاشتراك في المعيشة

قال القديس برنردوس : لا شيء مقبول لدى الله مثل الاشتراك في المعيشة والنظام والرغائب » فالاشتراك في المعيشة يقوم باقتسام المنافـع العمومية اقتساماً متساويا والاشتراك في النظام يقوم بالرياضات الروحية والخدم الجسدية المطلوبة من

الجميع بدون استثناء الاّ لداع موجب واماّ الاشتراك في الرغائب فلا يكون إلاّ في ازدياد الاخاء الصادق والحب الكامل بين افراد الجمهور باجمعهم . قال الانبا بالتازار القارس « ان العيشة بين الجماعة عيشة عمومية هي افضل ضحية مقبولة عند الله وينبوع بركات غزيرة . ولما كان يسألهُ بعض الرهبان ان يجيز لهُ بعض تقشفات لم يأمر بها القانون ولا هي مألوفة عندهم كان يقول لهُ : اتبع الجمهور في كل شيء من دون زيادة ولا نقصان اه وكان من رأيه ان الافضل للراهب ان يعيش مع الجمهور كما يعيش الجمهور من دون ان يميز نفسه عنهم بشيء من الاشياء وكان يقول «قصر الحياة قليلاً او اعتلال الصحة مقروناً بمشاركة الجمهور خير من طول العمر او حسن العافية بالانفراد عن الجمهور والامتياز عنهُ بشيء مما يدعو الى الحسد والدمدمة اه وكان يلتمس من الله ان يوليه دائماً هذه النعمة التي كان يعتبرها من اعظم النعم وهي ان يعيش هذه العيشة المشتركة الى آخر يوم من حياته وكان يتبع اتباعاً مدققاً سير الجمهور في كل خطواته مع انهُ كان مصاباً ببعض الامراض التي لم يكن يبوح بها خوفاً من ان يتخذ الرؤساء ذلك حجةً فيعفوه من بعض الاعمال العمومية روحية او زمنية . وكان متيقناً ان الراهب الذي يجهد نفسه للقيام بكل الخدم العامة يساعده الله مساعدة فائقة على القيام بها وبسرعة التقدم في الحياة الروحية

واننا لا نريد بما تقدم ان نعني الرئيس من مساعدة من كان من رهبانه مدفوعاً الى كمال اسمى وفضيلة ارفع طالباً الارتقاء الى درجة من الكمال فائقة تبعاً لمفعول النعمة بهِ . قال برتولماوس الشهيدي ان القديسين لم يصيروا قديسين الاّ بتلبية داعي النعمة التي سمت بهم الى مرتبة من الكمال سامية بل فائقة . وعلى الرئيس الاّ يغفل عن ان يمتحن الراهب ليعرف الروح الذي يحمله على الرغبة في هذه الفضائل السامية فان الواسطة الاقوى للامتحان انما هي الطاعة فمن امتثل امرها كان روح الله محركهُ ومن أبى الامتثال كان محركاً من الروح الخبيث . وعليهِ ايضاً ألاّ يُظهر انهُ يعتبر ما يحوزه الراهب من النعم من هذه الجهة وألاّ يحكم بصدق قداسته استناداً على فضائله الممتازة وإلاّ اضر بتواضع الراهب المنعم عليهِ بهذه المنحة الخصوصية واقام عليهِ من بين الاخوة نقاداً وحساداً .

اما روح الحسد فيتلد في الجميع ولاسيما في الشابات المتعبدات لانهنَّ اميل الى المواهب والاعمال الممتازة عن غيرهنَّ . ولهذا هنَّ اشد احتياجاً من الجميع الى ان يفهمنَ تعليم الرسول بان المحبة افضل من كل المواهب الفائقة العادة . وان الاعتماد في الرهبانية انما يكون على القداسة التي ترسمها القوانين ويقويها الاشتراك في المعيشة »

اما كيفية منح الانعامات والتفسيحات فقد تكلمنا فيها مليًّا في الفصل السادس من الكتاب الرابع عندما بينّا ما يجب على الرئيس من العناية الابويَّة باحتياجات مرؤوسيه الروحية والزمنية .

عد ٣

في انهُ يجب على الرئيس ألاَّ يملَّ من ارشاد رهبانه وحضهم على المسير والتقدم في طريق الكمال

ان الجهل ليس من مفاعيل الخطيئة الاصلية فقط بل من اسباب الخطيئة الفعلية ايضاً . فمن يعمل في حال الجهل يكون كمن يمشي في الظلام يعثر في كل خطوة او يضلّ عن السراط المستقيم . ومن ثم نقول ان السيد المسيح قصد في مجيئهِ الى الدنيا ازالة الجهل كما قصد استئصال الخطيئة فهذا ينبغي ان يكون عمل كل مرسل يقتفي اثار معلّمه بدليل قوله تعالى: « علّموا » فمن اتخذ على ذاتهِ مهمة الراعي كان بذلك معلّماً ايضاً .

ان لتحريض الرؤساء مرؤوسيهم على العمل ثلاثة مفاعيل . الاول: ان الرئيس يعظ نفسه ويحضها على العمل بما يعلّمه . الثاني: انهُ يشجع الحارّين ويلقي الحرارة في قلوب الفاترين . الثالث: انهُ ينبه الافكار الصالحة ويوقظ الارادة الخامدة . فكم من الرهبان من يجهلون طريق الكمال اما لانهم يرضون بمعرفتها النظرية واما لانهم ينخدعون في التطبيق بين اعمالهم ومبادىء الكمال ورسومه ولذلك لا يُعتبر تحريض الرئيس سراجاً مضيئاً فقط بل ناراً تنير وتحمي .

ولكن ينبغي ان يكون كلام الرئيس بسيطاً ومتيناً ولكن كأنه مضمخ بطيب الفضيلة وزيت المحبة فيضحي ذا قوَّة بها يبلغ حتى القلب

وهذه الارشادات تقتضي استعداداً طويلاً وروية جدية وهذا لا يتيسر لمن يكونون منهمكين في الاعمال الكثيرة او الدروس العميقة لان هذه تستغرق كل اوقاتهم وتشغل افكارهم وقواهم العقلية وتعوقهم عن الالتفات الى واجبات مهامهم الخطيرة. واذا كان الرئيس ممن لا يمكنهم الوعظ والارشاد فعليه ان يقيم وكيلاً من ذوي الرزانة والمعارف ينوب عنه في هذه المهمة الشريفة اما موضوع ارشاداته فينبغي ألاّ يتجاوز عادةً حدود الملاحظات القانونية والفضائل الرهبانية حتى لا يكون كلامه بذيئاً ومهزوءاً به .

واذا ابنتَ الحد الذي تمتد اليه واجبات القوانين فبيّن ايضاً سموّ المجازاة المعدّة للامناء في حفظها بتدقيق لانهُ اذا كانت معرفة واجباتنا تفقّه العقل وتنيره فمعرفة شرف المجازاة تقوي الارادة وتولّد فيها الشجاعة. ومما يجدر ذكره في هذه الارشادات هو روح الرهبانية او غاية تأسيسها وسيرة مؤسسيها واقوالهم والمبادئ التي كان يرددها قديسوها وما جرى لهم في مدة حياتهم من الامور الخطيرة . والسرّ العظيم الذي كشفهُ ديمتريوس الفاليري لبتولماوس ملك مصر ليحسن سياسته لم يكن سوى ارشاده اياه ليقرأ كثيراً اخبار الملوك اجداده . قال كاسيودورس ان مديح القدماء والثناء على اعمالهم يكون لنا اقوى دافع ومحرّك الى الفضيلة لان الانسان يخجل ان يرى انه شرّ خلف لخير سلف. اما بوليسلاس الرابع ملك بولونيا فكان معلقاً في عنقهِ صورة ابيه منقوشةً على ايقونة من ذهب وكان كلما خطر لهُ ان يعمل عملاً خطيراً يدني الصورة من شفتيهِ ويقبلها باحترام قائلاً: وقاني الله يا ابي من ان اعمل عملاً يشين ذكرك الشريف او لا يليق باسمك الملكي

ومن الواجب تكرار الكلام من وقت الى آخر في موضوع الفضائل التي تريد غرسها في قلوب المرؤوسين وفي الشوائب التي تريد استئصالها منهم . ولا بأس بزيادة البرهان على ذلك وزيادة الاسهاب ايضاً لان اجتماع الرهبان كلهم في كل ارشاد قليل وكل الارشادات لا يكون لها الوقع الواحد عند الجميع وليس كل ما يعلق في الذهن يؤثر في القلب تأثيراً لا يمحى الى الابد. ولذلك فالموضوع الذي لم تتكلم فيهِ الاّ مرةً او مرتين يكون كأنك لم تتكلم فيهِ قط. ألا ترى ان من اراد ان يطبع ختمه على شمعٍ لزمهُ ان يشدّ عليهِ. وهكذا من اراد ان

يصبغ ثوباً من قماش ويعطيه لوناً جديداً قاتماً وجب ان يغطه في ماء الصبغ اكثر من مرّة. واذا طلب الدائن ماله من مدينه وأبى هذا ان يؤديه اليه فلا يكفّ او يتأخر عن مطالبته حتى يستوفي ماله

اما الرؤساء الذين يعرفون أهمية وحدة الموضوع ويتبعونه في خطبهم وارشاداتهم فليسوا بكثيرين لانهم لا يهتمون بجمع افكارهم وتصوراتهم . فانك ترى في احاديثهم وخطبهم آيات باهرة مسبوكةً في قالب الفصاحة محبوكة من المعاني الروحية . الاّ انها غير منسقة ولا متتابعة على النظام والتدريج . فترى كل خطبة بذاتها نفيسة في بابها ولكن لا علاقة لها بما قبلها ولا بما بعدها. فكانّ الرؤساء بذلك يخبطون خبط عشواء لانهم لا يتبعون غاية واحدة ولا يسألون انفسهم عما عملوا ولا عما يعملون او يجب عليهم ان يعملوه في المستقبل

اما القديس غريغوريوس فيريد منا ان تكلمنا عن فضيلة ان نحذر من حمل السامعين على الرذيلة المضادة فقد قال: « ينبغي ان يمر الواعظ منا في وسط الشهوات اللحمية مرَّ السهام او ان يكون كلامه كسيفٍ ذي حدين يقطع يمنة ويسرة ولا يذر شيئاً مماَّ يصادفه . فاذا حرّض المتكبرين على التواضع لا يحمل صغار النفس على الجبانة . واذا حض الجبناء على الحزم والثبات لا يدعو اهل العجب الى الزيادة من التمرد والقحة . واذا دعا البطالين الى العمل والحركة لا يوهم ذوي الخفة ان في كثرة الحركة والتقلب في المساعي خيراً او نوعاً من الفضيلة ولا اذا دعا ذوي الحركة الى الهدو والسكينة يدعو بذلك محبي التقاعد والراحة الى سبات النوم حاسبين ان لا راحة للضمير الاّ فيه فتضحي حياتهم موتاً لا خير فيها البتة . وعليه فاذا حاولت كبح عواصف الغضب في ذوي الغيظ والسخط فلا تزيدن القلوب الضعيفة جبانة . واذا اردت ان تحمل القلوب الضعيفة على المنافسة والعمل فاحذر ان تزيد اهل الحقد استشاطةً وتضرماً وبالنتيجة اذا علّمت قوماً نوعاً من الفضيلة اجهد بان لا يقال عنك انك تأمر غيرهم بنوع من الرذيلة المضادة واذا مدحت الكمال فلا تهجُ الفضائل المعتادة العمومية . واذا مدحت هذه المناقب العمومية فلا تعطِ سبيلاً للظن بانك تنهي عن التقدم في معارج الكمال الى ما وراء هذه الفضائل المأمور بها من الرسوم والقوانين الرهبانية» (الراعي ق٣ ف٣٧).

الباب الثاني

في الفطنة التي تقتضيها مهمة الرئيس

عدد ١

لا ينبغي للرئيس ان يقتاد كل الرهبان الى الكمال في طريقٍ واحدة

انهُ وان وجب على الرئيس ان يحافظ على المساواة في سياسته الظاهرة يضطر في الباطن لان يعامل كلاً بما يوافق طباعه وعوائده وان يميز بين الاطفال والابطال في نهج الفضيلة · فان الله لا يساوي الجميع بما يهبهم من الشيم والعقل والعزم وسائر القوى الفائقة الطبيعة مثل انارة العقل ونهضة الفضيلة · ولم يخلقنا جميعاً اهلًا للقيام بامورٍ متساوية ولا يقصد ان نبلغ كلنا الى حدٍ واحد من الكمال ولا يدبر كل واحدٍ منا بوسائط واحدة · فعليهِ لا تُساق جميع النفوس على وتيرةٍ واحدة ولا يصح ان نوجه الى كلٍ منها كلاماً واحداً ولا ان ندفعها كلها الى غاية واحدة بسرعةٍ واحدة ومدةٍ واحدة بعينها

لقد تقدم ان الطباع والامزجة تختلف اختلافاً بيّناً · فللواحد منّا من العادات والاداب والعزم على الاعمال ما ليس للآخر · ألا ترى في بعض الناس نفوساً كريمة ذات بسالةٍ وحزم في كل ما تبتغيهِ · وفي بعضهم نفوساً خسيسة ضئيلة وضنينة عاجزة عن كل خير ؟ فذو النفس الكريمة يطلب التقدم في الفضيلة فان اخرته انت عن مسعاه تكون قد قاومت يد العناية الربانية · واما ذو النفس الخسيسة فيقصر عن الوصول الى المطلوب · وان انت ضيقت عليهِ ذهب عملك بغير جدوى · وقد يتفق ان ينجو هذا بالطريق التي يهلك بها ذاك لان من الناس من يفتقر الى ان تراقب خطواته واحدةً فواحدة ومنهم من لا يفتقر الى شيء من ذلك ومنهم من يحسن ان تدعهم يسيرون على سلامة ضميرهم بالنظر الى الثقة بفضيلتهم او الى انهم يهتدون من انفسهم لو ضلوا يوماً من الايام

وقصارى القول انهُ يلزم الرئيس من جهةٍ ان يتبع في سياسته خطةً واحدة لان الرهبان في كل جماعةٍ مدعوون الى نوعٍ من القداسة تقتضيهِ رسوم الرهبانية وغايتها · وينبغي لهُ من وجهٍ آخر ان لا يحذو في سياستهِ حذواً واحداً لان رهبانه مدعوون الى درجاتٍ من القداسة مختلفة باختلاف النعمة والقوة التي لكل منهم فالمقصود بالخطة الواحدة لزومها من حيث انها تتعلق بالقوانين والعادات الواحدة · وبالخطة المختلفة من حيث وجوب المراعاة لميل كلٍّ من المرؤوسين · ولاستعداداته الطبيعية · فانظر رعاك الله الى الادوية التي يصفها الطبيب فانها تختلف بعضها عن بعض اذ انهُ يستعمل القطع والكي وغير ذلك من الملينات والمسكنات والمنبهات والمغذيات والمسهلات غير انهُ لا يستعمل شيئاً من ذلك الاّ بحسب اللزوم لكل مرضٍ ولكل مريض ومن يا تُرى يدعو لمعالجتهِ طبيباً لا يصف الاّ علاجاتٍ واحدة لجميع الناس كيفما كانت امراضهم وامزجتهم · ان ما يُطلب من الطبيب بالنظر الى كونه مداوي الطبائع ومساعداً على بقاء قواها يُطلب هو عينه من الرئيس بالنظر الى انهُ خادم النعمة والمساعد الامين على اتباع حركاتها

عد ٢

لا يجدر بالرئيس ان يجعل الرهبان موافقين لهُ بل ان يوافقهم هو نفسه

ان كان الرئيس لا يأمر ولا ينهي إلاَّ بمقتضى ذوقه وميله فذاك يُعدُّ منهُ وقاحةً وكبريا بل خيانة لروح الله القدوس ويدل على انهُ غافل عن تهذيب نفسه وغير مستنير بالروح ليدرك مفاعيل النعمة الخفية ويميزها تمييزاً حقيقياً · وانهُ لا يملك هواه ولم تتمكن فيهِ بعد فضيلة الكفر بالذات حتى يقوى على العدول عن اميالهِ الخصوصية ويطابق اميال غيره · وانهُ بعيد عن الكمال شديد الحسد فلا يطيق ان يكون غيره اسمى منه قداسة وهو اسمى من غيره مقاماً وانهُ يسعى في اكراه الرهبان على ما يخالف اخلاقهم وضميرهم حتى يجرهم الى اتباعِ طريقته وخدمة افكاره فيحملهم بذلك على النفور والجبانة ويجعلهم في حيرةٍ تفضي بهم الى الفشل والخمول · وانهُ وان كان ممن امتازوا بالعقل والذكاء لا يعرف ان

يقرّب النفوس اليهِ ولا الى الله تعالى · بل ربما يُهلك منهــا اكثر مما ينجي او على الاقل يقعدها عن التقدم في طريق الفضيلة اكثر مما يدفعها الى ذلك ويساعدها عليهِ

قال القديس اغناطيوس انهُ لامر خطر جدًّا ان يحاول الرئيس اقتياد كل الرهبان في طريقٍ واحدة · واشد من ذلك خطرًا محاولته ان يصوغ الجميع في قالب اخلاقه الخاص »

والقديسة تريزيا تشدد النكير على الرئيسات اللواتي لمزيد شغفهن بالتقشف يطلبن من سائر الراهبات ان يتقشفنَ مثلهن · واللواتي من شدة ميلهن الى طول الصلاة يُبحنَ او يفرضن صلواتٍ تتجاوز الحد المعتاد والمرسوم في القوانين · فمثل هولاء تأمرهن بان يتبعن سير القانون ويعملن اعمالهن بحسب الهــام الروح القدس · اه

ولعمري اذا كان النظام يوجب من طبعه على المرؤوس ان يطابق اميــال الرئيس لكي يحسن طاعتــه لهُ أفما يوجب على الرئيس ايضاً ان يوافق اخلاق مرؤوسه لكي يتسنى لهُ ان يحسن ادارته ويقوده الى غايته الشريفة التي هي الكمال الرهبــاني ؟ اني اخال الروح القدس يقول لمن يريد ان يحصر اميال مرؤوسه ضمن دائرة ميله الخاص : من انت حتى تقاوم مقاصدي ؟ فاذلك ميالٌ الى التقشف وغيرك ميال الى المحبة · اتمنعني عن ان اهب هباتٍ مختلفة وان اتمم مقاصد رحمتي في هذا وذاك ؟

ان لله في ملكوته اماكن متعددة وتجليات مختلفة وكل منَّا لهُ هنــاك مكانٌ معد لهُ وزينةٌ يتجمل بها واكليل محفوظ لمكافاته · فمن شان مفاعيل النعمة ان تبلغنا في الاخرة العرش الذي اختارنا الله لهُ بالنسبة الى النوع الذي نحن عليهِ من انواع القداسة

فما اشد ما يجب على الرئيس من العناية ليعرف مقاصد الله تعالى في كل راهب حتى يرى كيف يوافقها ويراقب مسير النعمة وما عملت فيهِ وما عساها تطلب منه وذلك لكي يتبع خطواتها ولا يسبقها ويتحقق امرها بالنظر الى النجاح والحبوط والسقوط والنهوض والانقياد والمعاندة وان ينظر من خلال الطبيعة ورغائبها الى

ما خص بهِ الروح القدس تلك النفس من الانوار والاشواق وما يريده فيهـا من اسباب التقرب والانعطاف لان طرقه ووسائطه انواع تختلف باختلاف طرق المدبر الاول العظيم الذي هو الله تعـالى · وعلى هذه الصورة عندما يطابق الرئيس سياسته المنظورة على سير النعمة الغير المنظور يساعد النفس بل يدفعها الى التقدم في معارج الفضيلة تقدماً عجيباً

عدد ٣

على الرئيس في مساعدتهِ مفاعيل النعمة ان يستعين بالاميال الطبيعية كما تستعين بها النعمة نفسها

لا سبيل لنا الى ادراك حقيقة تلك النعمة التي تختلف اشكالها باختلاف الظروف والاحوال حتى تصيب الغرض برميةٍ صادقة وهي مع كل ذلك لا تزال هي هي بجوهرها فانها تطرح عنا مظان الغرور وتقرّب الينا اسبـاب الهداية لتساعدنا على بنيان بعضنا للبعض الاخر فانها تنتهز الفرصة الموافقة او تخلق فرصةً موافقةً فتحضنا بها على الخير وتضغط علينا وهي تظهر كانها خشيت من زيادة الضغط وتحتجب حيناً ثم تعود الى العمل مبتدئة · فما اعظم هذا الحذق المقدس وما اشد هذه المداراة فانها لا يغضبها سقوطنـا ولا يبعدها توانينا · نقصد ان نشدد قوانا ونعضد ارادتنا التي من شانها السقوط في كل خطوة وعلى هذا النمط تنعش فينا الحياة على مهل وتحملنا كما تحمل الام ولدها · وتبحث لتعرف ما هو مزاجنا وتعمل فينا على قدر استعدادنا لانها لا تلاشي الفطرة بل تزيدها كمالاً ولا تقتلع منّا الالام البشرية بل تميل بها من المفاسد الى المحامد فتعطي الفضائل بدل الرذائل · وكانها قطرات ندًى يولد في الازهار والاثمار لوناً وطعماً يختلفان باختلاف طبائعها فيكسي الورد بالارجوان والزنبق بالبياض الناصع · فالنعمة كذلك تتخلق باخلاقنا وتقدم لنا ما يوافق ذوقنا فتبهر هذا بجمال الفضيلة وتخيف ذاك بقبح الرذيلة · تجندل البعض بالرعب وتقيم البعض بالرجاء · تذكّر اخا السجايا بالعوارف التي جادت بها عليهِ وحليف العدل بحقوق الخالق على المخلوق · فانها لم تغير قسوة اخلاق شاوول ولا رقة قلب المجدلية بل غيرت حنق المضطهد

الى حماسة الرسول وسعير العشق الدنس الى نار الحب المقدس . فالسر في النعمة هو انها تمتلك الامنا بالامنا وتنبت الفضيلة على اصل الرذيلة وتجعلنا قديسين كما نريد نحن كما لو كان لنا الخيار بنهج خطة قداستنا وتهيء لنا من الخير ما يوافق اخلاقنا ولا تتقاضانا بهِ الاَّ بعد ان تزين لنا فنحبه ونلقي عليهِ مسحةً من اللطف اطيب جداً من كل لذةٍ تدعونا الى الكفر بها

وليعلم الرئيس ان في كل واحدٍ من رهبانه عيوباً معروفةً ينبغي ان يستأصلها منه ومناقب حسنة ينبغي ان يزيدها تحسيناً . فليستخدم هذه المناقب لابادة الرذائل ويبذل قصارى الجهد في ان يبلغ رهبانه الكمال بواسطة ما هم عليهِ من حسن الاستعداد والاميال القوية . لقد اشار كامبيس انه يجدر بالرئيس احياناً ان يغتصب الطبيعة ويكبح جموحها لكي يقوّم اميالها ويبلغها الكمال غير ان ذلك لا يكون الاَّ في ظروف خارقةالعادة. اما في المعتاد فالطبيعة تعاون الاصلاح والاصلاح يعاون الطبيعة (قالهُ لونتيليان) فاننا بذلك لا نكون خرجنا عمَّا يجب ان نقف عنده من حدود التشبه بالحكمة والعناية الالهيتين اللتين قال عنهما سليمان الحكيم انهما تدبراننا برفقٍ وتحرز (الحكمة ١٢) وكما انهُ يحق للرئيس ان يتفحص جيداً اميال مرؤُوسيه واستعداداتهم للفضيلة عليهِ ايضاً ان يتفحص اميالهم للرذيلة والمعاطب التي هم فيها ليرى كيف يبدل موضوع اميالهم الرديء بموضوعٍ صالح . واذا كان الموضوع صالحاً او غير رديءٍ فيقوّي الاميال والانعطافات الصالحة ويزيدها تشبثاً بالفضيلة

عدد ٤

في انهُ يجدر بالرئيس ان يسوس مرؤُوسيه برفقٍ واناة وان لا يحاول تبليغهم الكمال بدفعة واحدة

اما بعد فأي رئيس لهُ حاسات ابٍ ولا يعرف كيف يتنازل مع مرؤُوسيهِ ويرفق بهم او يسألهم شيئاً يفوق طاقتهم ؟ . فالوالدة التي تتمشى مع ابنها لا تمشي بقدر قوتها بل بقدر قوة ابنها . وكذلك الطبيعة والصنائع البشرية لا نراها تعمل اعمالها الاَّ بالتأني المألوف . فالحنطة مثلاً قبل ان تعطي حبًّا لا تكون في الارض

الأ لساساً ثم عشباً وبعد ذلك تصير قصبةً · والحفّار الماهر كم يضطر لضرب المطرقة والازامل لكي يعمل من الصخر شخصاً كاملاً والمصوّر كم ينبغي لهُ من التنميق والتدقيق لكي يُتم عمل صورةٍ نفيسة · هكذا الله نفسه يتخذ لهُ زماناً ليس بقليل لكي يبلّغ مختاريه الكمال المسيحي · لان النعمة لا تسير الأ بتدرج وسيرها يكون غالباً بطيئاً جدًّا فان القديسين الذين بلغوا قمة الكمال بدفعةٍ واحدة هم قليلون · والرئيس الذي يرى انهُ مفعم من الغيرة هل بلغ الكمال هو نفسه بيوم واحد ؟

فلا تتوقع اذًا ان يكون المبتدئون والرهبان الحدثاء ناجين من كل شائبة ومدربين في حفظ الرسوم مثل القدماء في الرهبانية · ومن المعلوم ان اصلاح الشوائب لا يكون بدفعة واحدة ولا يمكننا ان نعمل كل شيء في يوم واحد · والمسير في طريق الفضيلة خاصة لا يكون الأ من القريب الى البعيد او من القليل الى الكثير · وعلى الانسان ان يمتحن قوته ومهارته قبل ان ياخذ بالاعمال الخطيرة · ولا بدع اذا كان المسافر يسقط في بعض خطواته او ان الجندي المحارب تلحقه بعض الجراح فان الطبيعة لا تنجو من ضعفها الأ بمدة من الزمان · فمن يا ترى حاز الكمال من اول دقيقة الأ البتول مريم · اما نحن فلا نستطيع التقدم الأ بالطريق التي قال عنها الحكيم « ان البار ينمو ويتقدم مثل النهار من الصبح الى الظهيرة » (امثال ٤) وبعد فان الفضيلة جميلة وجديرة بان يتبعها الانسان ولو مع عناء وطول زمان .

فلا يغمنّك اذًا لو رأيت مرؤوسيك لا يسيرون في طريق الكمال الأ سيرًا بطيئاً لا يوافق ذوقك ولا رغبتك في تقدمهم بكل سرعة ونشاط · ولا تقس قوتهم على مقياس غيرتك بل قس غيرتك على مقياس استطاعتهم · وخيرٌ للانسان في بعض الاحيان ان يسير سيرًا بطيئاً من ان يسرع بمشيهِ لان من اسرع بمشيهِ ولاسيما في الظلام لا ينجو من السقوط وربما كان سقوطه عظيماً · قالت الام مريم يوسف في مبادئها « انك اذا حللت بسرعة كبة خيطان لاشتبكت وتعقدت وتقطعت وهكذا يعمل الرؤساء عندما يحاولون ان يبلغوا رهبانهم الكمال بسرعة · فان السيد المسيح ذاته لم نرَهُ اعطى تلاميذه الكمال دفعة واحدة · والبستاني يفرح

اذا شاهد الاغراس التي نصبها حديثاً قد علقت ولا يطلب منها من اول يوم ثمرًا ولا زهرًا لانهُ يعلم ان هذا لا يكون الاّ بعد زمانٍ بعيد او قريب نظرًا الى طبع كل واحدة من النصوب وكذلك كمية الاثمار لا تكون متساوية في الجميع بل ان هذه تعطي كثيرًا وتلك قليلًا بحسب طبعها

وبالحقيقة ان الرئيس مجبر على ان يبلغ رهبانه الكمال غير انهُ يجدر بهِ ان يرفق بضعفهم ويتأنى بقيادتهم وان لا يضغط عليهم ويسوقهم بعنفٍ وتشديد لئلا تزلّ قدمهم او يسقطوا بمعاطب يعسر نهوضهم منها · ولذلك يترتب عليهِ ان يقتادهم بلطف وهشاشـة كأنهُ يتملقهم ويسترضيهم ولا يدفعهم في طريق الكمال دفعاً او يجرهم جرًّا او يقتسرهم رغم انفسهم · ومن البين ان معين الماء ولو شحيحاً اذا كانت امياوُه لا تنقطع هو خير من ينبوع غزير لا يجري الاّ في ايام قليلة · ومن رضَّ الشجرة رضاً شديدًا ومتواترًا اماتها وكذلك من اثقل حمل دابتهِ انهكها واتلفها

من المعلوم ان بعض الرهبانيات تقصد كمالاً اسمى مما يقصده غيرها لانهـا بموجب رسومها تعد الله بحيـاة مقدسة بالصوم والتقشف والصلاة ومن ثمَّ فما يكون كافياً لغيرها يكون لها قليلًا وغير كافٍ · ولا يمكن رئيس هذه الرهبانية ان يعتذر بضعف الطبيعة ويتغافل عن حفظ رسوم رهبانيتهِ وقوانينها · ومع كل ذلك لنا ان نعتقد ان الله جلت مراحمه بالنظر الى كل رهبانية والى كل راهب هو دائن · ولكنهُ روُوف شفيق يطلب دينه باناة ويستوفيهِ شيئاً فشيئاً

فلنسمع تعليم السيد المسيح بهذا الصدد اذ يقول « ليس احدٌ يشق رقعةً من ثوب جديد ويجعلها في ثوب بالٍ والاّ فيكون الجديد قد شق » (لوقا ٥) « ولا يضع خمرًا جديدة في زقاق باليه والاّ شققت الزقاق واريق الخمر » (مرقس ٢) قال الاب لينيه في تفسير هاتين الايتين : « انهُ كلما كانت الاشـياء نفيسة في ذاتها كانت في بادئ الامر غير معروفة · ومن ثم لا يحسن بالروساء الاّ ان يرفقوا بضعف مروُوسيهم وان لا يعرضوا عليهم الكمال الاّ عن بعدٍ بنوع مـا او كأنهُ موضوعٌ للتأمل والتعجب اكثر مما هو للعمل بهِ وان دعوهم لاقتفائهِ والعمل بهِ فلا تكن دعوتهم لهم من باب العنف او الجبر بل من باب الحض

والاستحسان . والاَّ لخيف ان يُلحق بهم ضررٌ لا اصلاح او تُتكسر القصبة المرضوضة ويُطفيء السراج المدخن »

عدد ٥

في انهُ يسوغ للرئيس بل يجب عليهِ احياناً ان يتساهل مع مرؤُوسيهِ في هفواتٍ كثيرة يكون مصدرها الضعف البشري

كل شيء او لا شيء امران ينافيان السياسة الروحيـة والمدنية ايضاً . ولاثبات ذلك فاننا نسـأل الرئيس ان ينعم النظر في الخمسة الاشياء الآتي ايرادها وهي :

١ً ان كل واحدٍ من رهبانه لا يكون لهُ من الانعام ما يكون لاخوته . وربما لا يكون لاحدٍ من المرؤُوسين ما يكون للرئيس من المساعدات السماوية ولذلك اذا حاول الرئيس ان يبلّغ الجميع درجة واحدة من الكمال او الدرجة التي هو فيها فيتعبهم كثيرًا ويتعب نفسه بدون طائل

وقد كتبت القديسة شانتال الى احدى رئيساتها فقالت : « يجدر بنا ان نطلب من كل راهبة بقدر ما يمكنها وان لا نطلب ذلك الاَّ برفق . هذا ما عدا حفظ النظام الخارج الذي ينبغي ان يكون عموميًا . اما ذوو العقول الصغيرة الذين لا يمكنهم ان يبلغوا درجة سامية من الكمال فلا يحسن بنا ان ندفعهم الى ذلك قسرًا وجبرًا ولا ان نعنتهم باشياء تخالف ذوقهم ورغائبهم . يجدر بنا ان نسدل ذيل المعذرة على كثير من شوائبهم والاَّ نطالبهم الا بما قلّ وان نجتنب ازعاجهم وحملهم على الغضب . وان نحرص كل الحرص على ان يكونوا راضين مسرورين . لكي يعملوا كل ما يعملونه عن طيبة خاطر فلا يحملهم الغيظ او اليأس الى القحة وخلع الطاعة . ولعمري ان الراهبات كلهنَّ لا يكنَّ على درجة واحدة من المقدرة وحسن الاستعداد فكيف لنا ان نطلب منهنَّ طلبات واحدة متساوية ؟ وهذا مـا يُحدث سجس الضمائر للراهبات والرئيسات معاً ويسلب الراحة الباطنة التي بدونها لا يكون نجاحٌ بالفضيلة ابدًا اه

٢ً ان بعض الرهبان مهما كانوا عليـهِ من حسن الاستعداد فلهم في بعض

الاحيان غفلات وسقطات . وليعلم الرئيس ان سياستهُ ليست في السماء بل على الارض وان مرؤوسيه ليسوا ملائكة بل هم بشر . وهل للطبيعة البشرية ان تسير سيرًا متواصلًا بدون خلل ولا زلل . ومن ثم فمن لا يتنازل في بعض الاحيان ويتسامح مع ضعف الطبيعة فانهُ يعرض الفضيلة الى اخطار جمة . وكان من عادة القديس فرنسيس بورجيا ان يقول «من اراد ان يقتاد الناس الى الكمال بطريقة لطيفة وجب ان يتنزل عن بعض حقوقهِ وان يغضي عن بعض شوائبهم . فالماهرون في اطلاق البنادق هم الذين يعرفون الا يحشوها فوق قوتها والأ تشظّت البندقية والحقت في مطلقها ضررًا ربما كان جسيماً » . وقد جاء في سيرة هذا القديس ان شابين كانا يتمنعان عن الدخول في الرهبانية لان احدهما كان يريد ان يغير اثوابه كل يوم والآخر كان يريد لسكناه غرفةً افسح من قلالي سائر الرهبان . اما القديس فمنحها مبتغاهما ودخلا الرهبانيـة ولكن محبة الفقر حملتها بعد زمانٍ وجيز على التخلي عن هذا الانعام والاختصاص

٣ً من النادر ان نصادف بين العابدين نفوساً كثيرة مستعدة ان تسعى للكمال في طريق واحد وسرعة واحدة . فاذا حاولنا ان نقتادها بالطريق التي نراها صعبة يرتبك امرها ويُعاق وصولها فلندعها تتعلم من التجربة وتتعود ان تعتاض بنفسها عما تكون قد خسرته بذنبها . قال القديس يوحنا كليماكوس « ان حذاقة المعلم لا تظهر في تهذيبه اولادًا اذكياء اصحاب عريكة لينة بل في تهذيبه شباناً غلاظ العقول شرسي الاخلاق . كما ان فراسة الخيال لا تكون في ركوبهِ خيلًا سهلة الانقياد بل فيما لو حاز قصب السبق على خيل غير مروضة » . وهكذا نجابة الرئيس لا تقوم باقتياده الى الفضيلة رهباناً يجدّون في طلبها من تلقاء انفسهم بل باقتياده اليها بلطف وفطنة رهباناً عُرفوا بمعارضة الرسوم والتواني بحفظها

٤ً ان من التدابير المملوة حكمة وفطنة التي يتخذها المرشدون احياناً في تخليص الانفس العابدة من شوائبها هي ان يجعلوها راضية بنفس هذه الشوائب وذلك باغضائهم عن بعض نقائصها او بالمسامحة بما يؤمل اصلاحه باقرب وقت . وبذلك تاخذ الطبيعة بعض الراحة ثم تعود الى الجهاد باكثر قوةٍ واشد عزم

وهذه القاعدة من قواعد الحكمة تذكّرنا باحد مبادىء القديس اغناطيوس

وهو قوله «تخلَّ عن بداية الحديث ليكون لك اخوه اه يريــد بذلك ان سلِّم اولاً ولو ظاهراً بما يريده قريبك الذي تقصد ان تربحه لله فيسلّم اخيراً هو بما تريده انت

وتاريخ حياة هذا القديس مشحون بمثل هذه النكت من الافعال التي تدل على الاغضاء عن الشوائب والتنزل عن بعض الحقوق حبّاً بالسلامة ونجاح الفضيلة· وقد جاء عنه ان احد المبتدئين اذ رأى نفسه يوماً ما منهوكاً من المعيشة القانونية ابى ان يبقى في الرهبانية وهمَّ بتركها فدرى بهِ القديس فسمح لهُ ان يعيش برهــة من الزمان على هوى نفسه اعني ان ياكل ويشرب وينام ويقوم على مــا يوافق ذوقه ففعل كذلك وبعد ايام قليلة خجل من حياة الرفاهية والتواني وعاد الى ما كان عليهِ اولاً من حفظ النظام العمومي بكل دقة ونشاط ومرةً اخرى عرف القديس بان احد المبتدئين الذي كان من اشراف رومية أُمر بخدمــة المعلمين الحجَّارين فعفاه من هذه الخدمة لاعتقاده انها تزعجه وربما لا يتحملها بطيبة خاطر· وقد سأل الابُ غونزالف هذا القديس في هل يسمح لهُ ان يخصص بعض المبتدئين الشبان ببعض العطايا تنشيطاً لهم على اعمال الفضيلة فقال لهُ نعم اريد ذلك وارغب فيهِ اشد رغبة لان هولاء الشبان انما هم ابناء الله الصغار فاكتسبهم لهُ تعالى بكل ما يروقهم وهو نفسه قدس الله روحه أمر بان يوزع على اثنين من المبتدئين كانا اخوين بالجسد وصغيرين بالسن شيئاً من المربيات التي كانت ارسلتهُ لهما والدتهما· وان مبتدئاً آخر كان قد اتى معهُ من البيت بصلوب صغير فابقاه لهُ مدةً وبعد عندما شعر بان المبتدي قد نما في الفضيلة قال لهُ « قد حان الوقت يا اخي بان تتفرغ عن هذ المصلوب من بين يديك وتحفظه في قلبك فسمع المبتدي ذلك واطاع فرحاً مبتهجاً

٥ً ان نير الرهبانية ثقيل جداً لانه يدوم طول الحيــاة وقد دعاه الاباء القديسون استشهاداً · أفما يجدر بالرئيس ان يعني بتخفيفه ونرى السيد المسيح نفسه مجتهداً بان يجعل نير الديانة خفيفاً سهلاً بواسطة تعزية النعمة اما تعزية الرئيس فتكون بلين جانبهِ ولطفهِ

لذا اراد الرئيس معاملة رهبانه باللين واللطف المحكي عنهما وجب عليــهِ

الانتباه الى ثلاثة اشياء

(١ً) ان لا يدع الجمهور يعلم بالانعام والتفسيح الذي يمنحه لبعض منهم لئلا يتخذوا مندوحة لطلب مثل هذا الانعام والتفسيح فتمسي القوانين والنظام دارسة ومنسية

(٢ً) ان لا يمنح هذه الانعامات والتفسيحات لغير داعٍ صوابيّ وان لا يمنحها لاحدٍ بطريق التأييد · والاَّ اتخذها الموهوبة لهم مثل حقوق راهنة ويعسر او يستحيل فيما بعد حرمانهم منها

(٣ً) ان يحصرها في عدد قليل من الشيوخ او المرضى والاَّ اي لو كثر عدد المنعم عليهم بالتفسيح لا يبقى للرسوم الرهبانية من أثر

وهذا التعليم مأخوذ كلهُ عن مودست دي سانت امابل (الرئيس الكامل ك ١ ف ٥)

الباب الثالث

في كشف الافكار

عدد ١

في غاية كشف الافكار

ان الاسباب التي حملت مؤسسي الرهبانيات واولهم القديس اغناطيوس على سن فريضة كشف الافكار مرجعها اربعة امور :

الاول التسهيل على الرئيس في ان يسوس مرؤوسيه ويبلغهم غاية الكمال كما هو مفروض عليهِ من قبل مهمته · لانهُ ان لم يثق بهِ المرؤوسون ويوقفوه على حقيقة حالهم الباطنة كيف يتسنى لهُ ان يرشد الضال ويقوي الضعيف او يسلي الحزين ويثبت عزائم المضطرب وان يعطي كلًّا منهم ما يوافقه ويحتاج اليهِ من

النصائح والتعليات الخلاصية

ولعمري ان العناية هي التي دبرت ان يكون لنا مرشدون يقودوننا حتى في الطرق التي تظهر انها سهلة وامينة اذ لا يتدبر بامر نفسه الأ الله وحده وعليه نرى موسى قد اتخذ لهُ مرشداً حماه يترو وبولس الرسول اتخذ حنانيا واباء البرية اتخذوا شيخهم او رئيسهم . فكأن الانسان الذي ابى ان يخضع لاوامر ربه عندما امره بذاته ألجيء الى ان يخضع لانسان مثله يأمره بسلطانه تعالى. فالاب المعرّف مهما كان فطناً حكيماً لا يمكنه ان يرشد المعترفين لهُ الأ بمقدار ما يعرفه منهم عن احوالهم غير ان معرفة التائب بنفسهِ كثيراً ما تكون غير صائبة من حيث فرط حب الذات وشدة الاميال المنحرفة فيهِ وعليهِ فمعرفة التائب بنفسهِ لا يركن الى صحتها الأ اذا اضفنا اليها مشاهدة واقع الحال وهذا انما يكون في رياضة كشف الافكار لان الرئيس يُعتبر كشاهدٍ عيانيٍ لاعمال مرؤوسيه فاذا اطلعه المرؤوس على مكنونات ضميره يجعله عارفاً حالته معرفة كاملة

الثاني تنبيه الرئيس مرؤوسيه الأ يتمادوا ويتورطوا في الغرور فيقعوا في خدائع الشرير وحبائله

فياما اكثر الذين يتيهون في طريق الفضيلة لاننا مهما كنا حكماء ودهاةً بارشادنا غيرنا فنحن بارشاد انفسنا جهلاء واغبياء وانما ذلك من فرط محبة الذات التي تسوّغ لنا ما لا يسوغ وتلقينا في ورطة الهلاك. وعليهِ فعمل الرئيس في كشف الافكار انما هو ان يرفع التائب عن خدائع المحال الذي كثيراً ما يخدعنا بتمليقه الشهوات المضطربة فينا . وان يبين للعقل ضلاله في انقياده الى اميال الارادة وعدم تمييزه بين الهام النعمة ودسائس الطبيعة الخبيثة . وبذلك يردّ كثيرين من التيه الى سواء الطريق ويعدّل غيرة البعض المتفاوتة حدود الفطنة ويُشعل في قلب غيرهم نار الغيرة التي يراها خامدة او هامدة

الثالث هو ان يعزي المحزونين ويثبت المضطربين. فمن المعلوم ان الرهبانية لا تخلو من الاشجان والاحزان والمصائب الداخلية التي يلقيها العدو بين الاخوة ولذلك نفتقر نحن معشر الرهبان الى يدٍ قديرة تسندنا وتشجعنا والى قلب شفيق يرق لمصابنا . فالرئيس الذي نكشف لهُ كل ما لنا وعلينا من الاحزان والافراح

والمخاوف والآمـال وسائر اسرار قلبنا هو المتكفل براحتنا ولا يمكننا ان نستغني عنه بنوع من الانواع

ولعمري انه لتعزية كبرى وتأمين عظيم للراهب امكانه ان يقول في ذاته : ما دمت متبعاً ارشادات رئيسي كما يتبع الطفل تعليمات أمه انا في مأمن من الضلال في طريق الخلاص لاني وان ضللت في هـذه الحال لا اذنب ولو استرسلت بارشادات نفسي لخسرت قسماً كبيراً من اجر استحقاقي بخلاف مـا لو سرت على ارشاد مرشدي فاني لا اخسر شيئاً لان صلاحيـة اعمالي تكون مؤكدة مضمونة بل اني ازيد على اجر اعمالي اجر الطاعة التي هي عند الله افضل من الذبيحة

الرابع هو ان نحمل كل راغب في الرهبانيـة على معرفة ذاته والتقدم في الفضيلة :

انهُ لمن الممكن ان يعيش الراهب سنين عديدة في الرهبانيـة بدون ان يتوصل الى معرفة ذاته معرفة باطنيـة حقيقية اذا لم تضطره الرسوم والعادات المقدسة لان يسبر غور باطنه مرات في السنة ويرى ما هو عليهِ من صالح وطالح ويتبين استعداداته للتقدم في طريق الخلاص . فكم من الرهبـان حتى بعض الشيوخ انفسهم تجدهم يكتفون ببعض التقشفات الخارجة ويهملون اماتة اميال وشهوات رديئة في بواطنهم فيكون من ثم بنيانهم الروحي مؤسساً على الرمل فلا يلبث ان يسقط ويكون سقوطه عظيماً

وهذا لعمري ما جعل القديسة شانتال ان تقول لراهباتها مرات عديدة : يا اخواتي العزيزات ان كشف الافكار فريضة تكفل وحدها حفظ سائر الفرائض كما كان يقول ابونا الطوب مؤسس الرهبانية . وبالحقيقة ان الراهبة التي تفقد الثقة برئيستها لا تلبث ان تفقد روح الرهبانية ايضاً . ولكم نضحي سعداء لو مارسنا هذه الفريضة بامانة وتدقيق عملاً بنص القانون وروح الرهبانية

عد ٢

في مادة كشف الافكار. مأخوذة عن قوانين بعض الرهبانيات المثبتة من بيعة الله اثباتاً رسمياً

ان اشهر المواد التي تظهر ضرورية هي :

١ً الدعوة الرهبانية . هل للراهب بعض الاشمئزاز منها ام هو لا يزال راغباً فيها رغبة قلبية ؟

٢ً النذور . هل يشعر بارتياح الى حفظها وكيف يحفظها أبشوقٍ وسهولة ام بضجر وصعوبة ؟

٣ً الرسوم والقوانين : هل يرتاح الى درسها وفهمها وحفظها بتدقيق ؟

٤ً الصلوات العقلية واللفظية : هل يمارس برغبة ونشاط كل ما هو مفروض عليهِ من قبل القوانين والعادات بهذا الشأن وما هي نوافله الخصوصية ؟

٥ً الفرح والحزن : وما هو سبب كلٍ منهما فيهِ وما هي تأثيراته ؟

٦ً التعزية والغم في الامور الروحية وما هو مصدر كلٍ منهما أهو روح الله ام روح الشيطان وكيف يستسير وقت حلولها ؟

٧ً الخدمة المكلف القيام بها : هل يتممها بامانة ونشاط او هل تعرض له بعض الصعوبات في ذلك وما هي ؟

٨ً الفضائل : ما هو مقدار ارتياحه اليها وما هي الموانع التي تحول دون وصوله اليها بالعموم او الى بعضها بالخصوص ؟

٩ً وساوس العدو : ما هي وكيف يقاومها ؟

١٠ً التقشفات التي يمارسها : ما هي وكيف يمارسها ؟

١١ الاسرار المقدسة : كيف يستعد لقبولها وما هي الفوائد التي يجتنيها منها ؟

١٢ القراءة الروحية والارشادات : باي رغبة ونشاط يسمعها او يستعملها؟

١٣ المحبة الاخوية : هل يحب اخوته بالسواء او انهُ يميل الى بعضهم ميلًا شديدًا وينفر من البعض الآخر بانفة وكره ؟

١٤ الرؤساء: كيف ثقته بهم وحبه لهم ؟

١٥ الجماعة : هل يُسر ويستفيد من معاشرة الجمهور او يلاقي فيها بعض الكرب والشكوك ؟

١٦ الصحة : اذا كان مضنكاً من بعض الاشغال الشاقة او الاماتات القشفة وبماذا يمكن الرئيس ان يساعده لاجل اعتدال صحته ؟

١٧ هل يلحظ شيئاً على اخوته او في الاشغال العمومية ؟

١٨ ما هي الرذيلة المتغلبة عليه وماذا يعمل للانتصار عليها ؟

١٩ الفحص الخاص : ما هو موضوعه وهل يستعمله دائماً بنشاط؟

٢٠ رغبته في الكمال الرهباني: هل تزداد فيه او تنقص ولاسيما بعد كشفه افكاره من آخر مرة حتى الان هل يرى انهُ يتقدم او يتأخر ؟

اما الرهبانيات التي لا يكون فيها الرئيس كاهناً سواء كان في اديرة الراهبات او الرهبان فيحظر في كشف الافكار ثلاثة امور. الاول ذكر الخطايا بظروفها . الثاني ذكر الاشياء التي يُحتاج في حلها الى فتوى لاهوتية . الثالث الاشياء التي يفضي ذكرها الى خجل مرتكبيها او الى تهيج الشهوات الكامنة لان اموراً كهذه تختص بمحكمة الاعتراف . ولا يسوغ للرئيس الذي لا يكون كاهناً ان يتداخل فيها . واذا اراد المرؤوس لزيادة ثقته بفطنة رئيسه او حباً باماتة ذاته ان يبيّن شيئاً في كشف الافكار يسبب له الخجل والتواضع فلا بأس من ذلك بشرط الا يكون الرئيس هو المتداخل في مثل هذه الامور

ولعمري اذا كان كما يعلم اللاهوتيون بالعموم ببطل الزامنا بالاعتراف في كل الخطايا المميتة عندما نرى في ذكر خطيئة ما يضر بنا او بشخص اخر فيسوغ لنا بالاحرى في كشف الافكار ألاَّ نذكر بعض الاشياء التي نرى فيها ما يعرّض صيتنا الى الفضيحة او يحمل الرئيس على الغضب او على سجس الافكار . لان فريضة كشف الافكار ما هي الاَّ قانونية ولا تلزم في كل حال

قالت القديسة شانتال : ان الرئيسة التي تزلّ بافشاء سر كشف الافكار لن تستحق ان تكون رئيسة ولا ان تدعى اماً لانها بذلك تقلل ثقة الراهبات بالام الرئيسة فلا يستطعن بعد ذلك ان يطلعنها على خفايا قلوبهن فتتلاشى من ثم فريضة

كشف الافكار . فالله نسأل ان لا يكون بيننا رئيسات يزللنَ هذه الزّلة ولا اخوات يفقدنَ ثقتهنَّ بفطانة الام الرئيسة وفضيلتها

وبعد فان هذه القديسة تنصح للرئيسات نصائح مفيدة في سماعهنَّ كشف الافكار وللراهبات في كشفهنَّ افكارهنَّ قالت : اماً كشف الافكار فينبغي ان يكون وجيزاً واضحاً وبسيطاً لان محبة الذات تحمل الانسان على المواربة والمطاولة فيجدر بنا ان نبتديء كشف الافكار بتبيان امرّ الاشياء لان فتح القلب لله على هذه الصورة يولينا الظفر على الحياء البشري ويجعله تعالى ان يمنحنا بركات خصوصية ولا غروَ فان الذي يرغب في خلاص نفسه رغبةً حقيقية لا يتوخى الاَّ البساطة والايضاح بخلاف من تكون رغبته فاترة في خلاصه وتقدمه بالفضيلة فانهُ يقول كثيراً ولكنهُ يدور حول النقطة الهامة ولا يذكرها بنوع جلي . ولذلك يكون التطويل في كلامه على غير جدوى . فينبغي ان نعامل مثل هولاء بالاناة واللطف وان نحضهم على التمسك بدعوتهم بقلب طيب ونية صافية . والله هو الذي يلهم الصواب ويجعل القلوب واعية خاشعة »

عدد ٣

في ما اقتصر عليه المجمع المقدس من مادة كشف الافكار لدى اثباته قوانين بعض الرهبانيات الحديثة المختصة بالنساء

أن جمعية الاساقفة والقانونيين التي اقامها الاحبار الرومانيون للنظر في مثل هذه الشؤون قد رسمت مراتب عديدة لدن تفحصها واثباتها قوانين الراهبات : « ان مادة كشف الافكار ينبغي ان تكون مقتصرة على مخالفة القوانين العمومية وعلى التقدم في الفضيلة وما سوى ذلك ينبغي ان يوضح للاب المرشد في سر الاعتراف وان زياضة كشف الافكار لا تعتبر إلزامية بل اختيارية ولا تكون خطاً بل مشافهة . »

لان كشف المخالفات العمومية يفيد الخير العام والمحافظة على الرسوم والقوانين اما التقدم في الفضيلة فيعوت كشفه الى خير المرؤوس الذي يفتح قلبه الى رئيسه الملتزم بمساعدته في كل ما يأول الى نجاحه في الفضيلة

قد نالت راهبات الآلام تثبيت قوانينها في سنة ١٧٩٠ وقد اصلحت منها الجمعية المقدسة جملة اشياء منها ما يختص بكشف الافكار في الفصل السادس والثلاثين . فقال الاباء الكليو النيافة في ما اصلحوه ما نصه :

« اذا وجدت احدى الراهبات صعوبة في كشف افكارها لرئيستها فلتمارس هذا الكشف للاب مرشد ذمتها » وهكذا اراد ذوو النيافة ان تكون الراهبة مطلقة الحرية في امر كشف افكارها للام الرئيسة او للاب المرشد في سر الاعتراف نفسه .

وفي عام سنة ١٨٥٤ نظرت الجمعية المقدسة في اصلاح قانون احدى الرهبانيات الحديثة فقال الاب المشير الكلي الاحترام في احدى ملاحظاته ما نصه : « قد جا في هذا القانون انهُ يجب على كل راهبة ان تحضر مرة في كل سبة لدى رئيستها وتجثو امامها على ركبتيها وتبيّن لها كل ما ارتكبته من الهفوات او مخالفات القانون ومهما كان مما يزعج الضمير لكي توقفها على حقيقة ضميرها الخ

فقال الاب الموما اليهِ بشأن ذلك ليس من رأيي اثبات فريضة هذا الكشف السري المسهب لانهُ يشبه سر الاعتراف ويمكن ان يتخذه بعض السذج نوعاً من السر . وما عدا ذلك فانهُ يخشى ان ينجم عنهُ تعب للضمائر وان يكون مادة للوساوس والخطايا . نعم ان هذه الفريضة موجودة في قوانين رهبانيات أخر ولكنها كثيراً ما كانت سبباً لعراقيل شتى قد اعتبرتها الجمعية المقدسة ذات اهمية . » وبالنتيجة قد الغت الجمعية المذكورة الفريضة التي كانت تلزم الراهبات القاطنات بعيداً عن الرئيسة العامة ان يكشفنَ افكارهنَّ خطاً لانهُ يخشى ان تقع مثل هذه المكاتيب بين ايدي كاتبة الاسرار او المدبرات اللواتي قد لا يكون للراهبات فيهنَّ من الثقة ما لهن في الام الرئيسة

الخلاصة ان فريضة كشف الافكار وان تكن جزيلة الفائدة لا تخلو من الشوائب والمحذورات ولاسيما بين الراهبات لان جنس النساء ضعيف وشديد الميل الى المداخلة بالامور الفضولية ولذلك كان من السداد والحكمة ان تقتصر الجمعية المقدسة مادة الكشف على ما تقدم . وقد حكمت بمثل ذلك في رهبانيات الرجال الذين لا يرتقون الى درجة الكهنوت . امَّا الرهبانيات المثبتة من الكنيسة والتي

روءساوءها كهنة فلها ان تتبع نص قوانينها في هذا الشأن ولا حرج ...

عد ٤

في كيف ينبغي للرئيس ان يعامل مروءوسيه لكي يكون لهم عليه دالة فيثقوا به ويفتحوا لهُ قلوبهم

١ً يجدر بالرئيس ان لا يظهر لاخوته الرهبان الاَّ المحبة واللطف والرزانة قال القديس غريغوريوس يجب على الراعي ان يستسير مع رعيته بلطفٍ عظيم يتسنى معهُ لكلٍ منهم ان يدنو منهُ بدالة ويوضح لهُ خفايا قلبه ويلتجيء اليه في حال الضيقة والبلية كما يلتجيء الطفل الى امه فيجد في نصحه لهُ وصلاته من اجله تعزية في التلق ونجاة من كل بلية

فحفظاً لهذه الصلاة الودية يجب على الرئيس انلا يصلح بنفسه غلط القاريء ولا يجري العقوبات قصاصاً للمخالفات الطفيفة ولا ان يُعطي بذاته او يرفض الاجازة بامور صغيرة تافهة . لان هذه الامور واشباهها ينبغي ان يقام لها وكيل مخصوص يسهر عليها سهراً بليغا ويرتشد من الرئيس بكلما يقتضي لها . وهكذا يقتصر الرئيس بسياسته مروءُوسيه على ما من شأنه ان يستميل اليهِ القلوب ويعلق عليهِ الثقة العمومية

٢ً ان لا يلح على احد من المروءُوسين بان يطلعه على شيء من ذنوبهِ او من تجاريبه فوق ما يرغب المروءُوس نفسه بان يطلعه عليهِ بل فليظهر بانهُ لا يعلم عنهُ ولا يظن فيهِ شيئاً من النقائص غير ما كشفه هو لهُ

٣ً ان يتحاشى كل تونيب واصلاح مزعج ليس في وقت كشف الافكار فقط بل عندما يقرب الوقت ايضاً لان هـذا الوقت لا يصلح فيهِ الاَّ الموادة والملاطفة ليعطي المروءُوس تلك الدالة اللازمة لفتح قلبه . اما التوبيخ والاصلاح فاجله الى وقت آخر الاَّ اذا كانت بينك وبين المروءُوس مودة خارقة او كان هو يرجو منك ان تقول لهُ كل ما عندك بلا مراعاة وكنت لا تخشى انزعاجه ولا تأويلاته العدائية لما تقوله لهُ . واذا كنت زائراً او فاحصاً وليس لك فرصة طويلة فالاوفق ان تبقي ما لديك من النصائح او التونيب المر الى وقت ايابك من الدير

اي بعد ان يكون الجميع قد انجزوا كشف افكارهم

٤ استعمال بعض حيل مقدسة تحمل المرؤوس على فتح قلبه المغلق والمفعم غمًّا . فاظهر لهُ اولاً مزيد اهتمامك في مصالحه واسألهُ عن صحته وعن مهنته وعن اهله ثم تكلم كلاماً عمومياً عن سعادة الرهبان الفضلاء وعن الفضيلة التي تحملنا عليها معاشرة الجماهير القديسين وبعدُ ابن لهُ حسن استعدادك لان تخدمه خدمة حقيقية تؤول الى راحته وسعادته في الدنيا وفي الاخرى وليتخلل حديثك شيء من الاسف على شقاوة الطبيعة البشرية والمصائب التي تتبعنا في كل حال

وانتبه الى ما تتضمنه اجوبته ولو كانت بعيدة المرمى علك تعرف ما يكنه صدره او ما هو سبب غمه وحزنه . واذا كابر في اخفاء مصيبته فيمكنك ان تقول لهُ انك عارف بحاله غير ان العلاج لا يعطى الاَّ لمن يطلبه ولا يفيد الاَّ من يقبله برضىً وهذا يستلزم بساطة القلب والكشف عما بهِ للطبيب الروحي فان مثل هذه الوسائط كثيرًا ما تأتي بفائدة وتحمل المرؤوس على كشف افكاره وبيان حاله واحذر ان تظهر له شيئاً من الاندهاش او الغم لكبر ذنبه وسوء حاله بل ضاعف له مظاهر الحنان والاعتبار واكد لهُ رجاك بنجاحه وشفائه من هذه الامراض الروحية

عد ٥

في بعض قواعد لحفظ السر المعروف في كشف الافكار

هذه القواعد ينبغي ان تكون مرعية في كل رهبانية يمارس فيها كشف الافكار بحسب نص قوانينها وعاداتها

القاعدة الاولى : لا يسوغ للرئيس ان يؤخر نذر المبتدىء او ارتقاء الراهب الدارس الى درجة الكهنوت لمجرد ما عرفه عنه من كشف افكاره الاَّ اذا كان المبتدىء او الدارس نفسه يطلب هذا التأخير لداعٍ صوابي

القاعدة الثانية : لا يسوغ للرئيس ان يسأل كاشف افكاره عمَّا اذا كان سقط بحادث محفوظ الحل منهُ ولا عن الخطايا التي يجب كشفها في سر الاعتراف

وهاتان القاعدتان هما على رأي لانسيوس جوهريتان :

القاعدة الثالثة : لا يسوغ للرئيس ان يستخدم ما عرفه في كشف الافكار لاجل سياسته او مراقبته الراهب الذي كشف افكاره الاّ اذا كان الراهب نفسهُ قد رغب اليه وقدم الرجاء بهذا الشأن بل لا يسوغ له ان يستخدم مادة الكشف لسياسة الجماعة اذا شعر بانه يصدر عن ذلك ما يزعج الذي كشف افكاره لان اهمال المحافظة على هذا السر يضر بفريضة كشف الافكار ويلاشيها في وقتٍ قصير .

ولعمري اذا كان كشف الافكار يستلزم مثل هذا التدقيق والمحافظة في الرهبانيات الحقيقية التي لا يترأسها الاّ الكهنة فكم يجب من التدقيق في اخويات الراهبات او في اخويات الرهبان التي لا يترأسها كهنة

الفصل الرابع

في بعض مسائل غير ما تقدم تختص بحسن الادارة الروحية

اخص هذه المسائل : الشهوة المتغلبة — نوعية قهر الرذيلة واكتساب الفضيلة — التجارب — الدرجة الثالثة في سلم الصلاة — ممارسة الافضل والاكمل في اعمالنا

الفصل الاول
في الشهوة المتغلبة

عد ٣

في بعض قواعد ترشد الراهب الى معرفة الشهوة الكامنة فيهِ والمتغلبة عليهِ

من الثابت ان كل انسان يشعر في ذاته بشيء من الميل الى كل نوع من

الرذيلة وبهذا المعنى لا فرق بين انسان وانسان بل كلنا متساوون بالطبيعة الفاسدة ومع ذلك فان لكلٍ منا ميلاً شديداً لاحدى الرذائل ورغبة زائدة فيها وهذه هي الرذيلة المتغلبة على ذاك الانسان التي ينبغي لهُ الفحص عنها والاجتهاد باستئصالها ·

والقواعد التي يذكرها علماء الروح لمعرفة هذه الرذيلة · هي :

١ً ان ينظر الراهب مدققاً في كيفية مزاجه لان للمزاج والاخلاق الغريزية تأثيراً شديداً في الاداب · وقد اسهبنا الكلام في كيفية الاخلاق في الباب الثاني من الفصل الاول من مؤلفنا هذا

٢ً ان نتذكر الامثلة الحية التي اتخذناها من الذين عاشرناهم والاميال التي ربيناها في قلوبنا في مدة التجربة لان الصغير من دأبه الاقتداء بالكبير ومثلما يأخذ عنهُ النطق بلغة مخصوصة يأخذ عنه كذلك نوعية آدابه ويتخلق باخلاقه لانه كما ان الطفل يتسمم من حليب والدته لو كان مسموماً فكذلك التلميذ يتسمم وتفسد اخلاقه لو وجد في اخلاق معلميه شيء من سم الرذيلة والفساد

٣ً ان نفحص عن الافكار التي تشغل بالنا في غالب الاوقات اعني التي تفاجئنا في الصباح حالما ننتبه من الرقاد ولا تبارحنا حتى آخر دقيقة من النهار عندما نغرق في سبات النوم والتي تداهمنا في وقت الراحة والسكينة · حتى في مواقيت الصلاة والاختلاء مع الله بل كثيراً ما نراها في الحلم ايضاً لانهُ كما شهد ربنا لهُ المجد : « حيثما يكون كنزكم يكون هناك قلبكم »

٤ً ان نبحث مدققين عن سبب افراحنا القوية الشديدة وعما يسبب لنا النكاية او يدفعنا الى التهافت على الاخطار والتورط في المكاره وكذلك عما على قلبنا من الخوف والهلع او يوعب صدرنا من ضروب الرجاء والامانة لان الشهوة المتغلبة هي التي تاتي النفس في الاضطراب والانقباض او توليها الراحة والسكينة تبعاً لما تكون قد فازت بمرغوبها او لم تفز بهِ وهي التي تصيّر الانسان سريع التأثر عديم الفطنة ثقيلاً على نفسه وعلى الجميع

٥ً ان نصغي الى بعض الكلام الذي يبدر منا على غير روية والى بعض المبادىء التي ننطق بها دون ان نفقه معانيها والى كل ما يغلب في احاديثنا ولاسيما

في وقت الحرية والغفلة عندما نكون في مأدبة مثلًا او في لهو وغبطة ومجاذبة لاطراف الاحاديث مع الخلّان لان « الفم ينطق بما في القلب »

٦ً ان نسأل الاصحاب المخلصين الذين يعاشروننا عمّا يرونه فينا ولننتبه الى ما يقوله عنا او يطعننا بهِ مشافهة الاخصام والحسّاد والى ما يشاع عنا بالعموم والى ما نصحنا بهِ اباؤنا ومعلمونا ولاسيما في مدة التجربة

٧ً ان نبحث عن الغاية التي نبتغيها في اكثر اعمالنا او التي تحملنا على العمل لان الشهوة المتغلبة هي التي تسري ولو خفية وبنوع غير منظور في كل اعمالنا وحركاتنا وهي فينا ربة السيرة والسريرة .

٨ً ان ننظر في الهفوات والنقائص التي نسقط فيها عادةً كل يوم او كل سبة او شهر او سنة ولنعلم ان الشهوة المتسلطة هي التي تلقينا في الذنوب الكبيرة والمتواترة . وما مثلها في القلب البشري الاَّ مثل شجرة في تربة جيدة تنمو وتمتد اغصانها بسرعة

٩ً ان نكتشف على حيل المحال وحيل العالم ضدنا . فالمحال خزاه الله مثل قائد حاذق ينظر اولاً الى الجهة الضعيفة من المعسكر او الى الميل الضعيف في القائد المحارب ضده ثم ينازله في حرب عوان . هكذا الشيطان كما يقول القديس اغناطيوس انهُ ينظر اولاً الى الشهوة المتغلبة فينا ويعضدها مؤيدًا لها في ترغيبهِ فتزداد قوة . وكثيرًا ما تنتصر علينا . فلننظر اذًا في الجهة التي يحاربنا فيها العدو الجهنمي وهي نفسها تكون الشهوة المتغلبة

وكذلك العالم من دأبه ان يلاحظ الميل القوي في الانسان ويجتهد بان يدخل اليهِ منه فمن يحب التمليق مثلًا يتملقه ومن يحب رفعة المقام او الغنى او شهوات الجسد وما اشبه ذلك فينيله غاية مرامه لان من مبادىء روح العالم ان قلب الانسان لا يقوى عليهِ الا من اكتسبه بالحسنى والتمليق . ولذلك يمكننا ان نقول بكل صواب ان السلاح الذي يحاربنا بهِ العالم عادة هو تلك الشهوة المتغلبة التي نروم ان نعرفها وان نقوى على استئصالها من فوءَادنا

١٠ً ان نصغي الى ما يخاطبنا بهِ الروح القدس في صلواتنا ومناولاتنا وفي زياراتنا القربان المقدس لانهُ تقدست اسماوءُه يقاوم ما يراه فينا مخالفاً نياته المقدسة

وما يحرمنا ثمرة الاسرار او يلقينا في شر المعاطب فلنمعن النظر اذاً في ما يرشدنا اليهِ الروح القدس باطناً او ينهانا عنه

١١ً وينبغي ان نخاف خاصةً تلك الشهوة التي تحاربنا من مدة طويلة حرباً عواناً بقوة تزداد في كل يوم وتقصي امالنا عن النجاح والظفر بها

١٢ً واخيراً ان ننظر ما هو الميل المنحرف فينا الـذي لا نقاومه الاَّ بعنف واجتهاد او ما هي الشائبة التي نناضل عنها عادةً ونبرئها من كل عيب وهي تكون الشائبة المتغلبة فينا لانها هي التي تجعل صاحبها سريع التأثُّر ولاسيا فيما يلاحظ التنديد بها فيكاد يتحمل القذى او الخشبة في عينهِ احرى من ان يقال لهُ كلمة بشأن الاقلاع عن هذه الشهوة المتغلبة لانهُ كما قال « فينالون » لو حاول قلعهـا يشعر كأنهُ يسلخ جلده عن بدنهِ وهو في قلعهِ غيرها من الشهوات لا يشعر بصعوبة اكثر ممن يطرح عنه الثوب الذي يكون فوق الزنار فمن تعقب هذه القواعد الاغلبية لا يلبث ان يعرف ما هي الشهوة المتغلبة فيهِ وينتصر عليها لو اراد٠

عد ٢

في بعض حجج بها يمكننا ان نحض الراهب على ان يحارب الشهوة المتغلبة عليهِ

١ً ان هذه الشهوة تسمم فضائلنا وتخفض شأنها

ولعمري ما فضيلة الراهب اذا ما تسلطت عليهِ الشهوة الاَّ فضيلة مشوهة بالشوائب وعارية من الاجر والثواب ٠ لان الرذيلة تكون قد افسدت قلبـه وضعضعت عقله حتى انهُ لا يحكم بشيء حكماً مستقيماً ولا يعمل عملاً منزهاً ومجرداً لمجد الله بل لا يدرك شيئاً الاَّ على حسب ميله المنحرف ٠ فالشهوة هي التي تسود على اعماله التقوية وكأنها تلقنه بنوعٍ ما كل ما يطلبه بصلاته ولذلك تراه اذا احب العزلة والسكوت يكون ذلك عن امارات الوحشـة او الحزن والغم ٠ واذا احب العمل والحركة فيكون عن رغبة التظاهر او الشهرة ٠ واذا اظهر لروسائه الخضوع والطاعة فيكون لاجل اكتساب رضاهم او لمطامع زمنية

غيرها لا يصل اليها الاَّ بمساعدتهم · وكأني بهِ يحيك من هذه الفضائل الزائفة نسيجاً يستر بهِ عورة آلامهِ المنحرفة · وكما ان صاحب العيوب الطبيعية لا يخجل منها كذلك الذي تكون فيهِ شوائب ادبية روحية لا يشعر منها بما يتعب الضمير ولا يقلق مضطرباً لانهُ مع وجود هذه الشوائب فيهِ لا يرى انه عارٍ من شواعر التقوى وحب الفضيلة · فالذي يرى مثلاً انهُ قليل الصبر او فظ الاخلاق يعزّي نفسه بكونه غيوراً على طلب الخير والذب عن الاستقامة والذي يرى في نفسه ميلاً شديداً لقبول المديح والتعظيم من الناس يقول في قلبه لا بأس بذلك لان الراهب محتاجٌ لحسن الصيت والسمعة الصالحة الخ · وبالعكس فان المصاب بالشهوة المتغلبة لا يستحسن فضيلةً تضاد شهوته هذه القوية وكأنه لا يعترف بفضيلةٍ إلم تكن منطبقة على ميله الشرير او متأتية عنه فاننا نرى النمّام مثلاً يقول لا اعرف باي ضمير يجسر الانسان ان يدنو من مذبح الرب كل يوم وهو يضيع ساعات كثيرة من زمانه في البطالة مع انهُ اي النام يقدس او يتناول الاسرار المقدسة بكل راحة الضمير بعد ارتكابه من النميمة ما يثقل ضمير كل مسيحي عاقل · ونرى الكسلان يندد باخيهِ لانهُ إتى بعض الاعمال ولم ينجح بها وهو يمضي الايام والشهور بالبطالة بدون ادنى عمل خوفاً من ان يعمل عملاً ولا ينجح بهِ

اما لو تكلم مثل هولاء عن اشياء لا علاقة لهـا مع شهوتهم المتغلبة فترى احكامهم مستقيمة وارائهم صائبة بخلاف ما لو تكلموا في ما يتعلق بمآربهم القوية · فكم من الرهبان يقلقون ويضطربون من جراء شرود افكارهم في الصلاة وهم مطمئنون مع الشكوك التي يلقونها بين الاخوة من تسامحهم بامور كثيرة تضر بالمعيشة العمومية او بجوهر نذر الفقر مثل التخصيص بمآكلهم المتأنقة وملابسهم الناعمة واحرازهم نقوداً وما اشبه ذلك وما هذا الاَّ لان شهوة التنعم والترفع متغلبة عليهم

وهكذا نرى من الرهبان من يتصورون الفضيلة حيث لا فضيلة بل ليس هناك إلاَّ شهوتهم المتغلبة

٢ ان الشهوة المتغلبة تقودنا الى نقائص شتى

لانه من المقرر بالاختبار ان الشهوة متى تغلبت على الانسان لا تنفك تعمل بهِ حتى تدرك اقصى مرغوباتها مهما كانت المسافة بعيدة والطريق وعرة خطرة وهذا يجري لكثيرين ليس في النقائص الطفيفة فقط بل في افظع النقائص واكبرها والاَّ فقل لي ناشدتك الله ما الذي حمل يهوذا الغاش على بيع معلمه وقتل ربه ? او ما الذي اوصل الملحدين مثل آريوس ولوتاريوس وامثالهم الى تلك الارطقات الموبقة ? وبلغ بكثيرين غيرهم ممن اشتهروا بالفضل والغيرة الى ان سقطوا بخطايا فظيعة وسببوا عثاراً هائلًا ? لا غروَ فان شهواتهم المتغلبة كانت السبب لكل ذلك · نعم انهم لم ينظروا من البدء سوء العاقبة بل توهموا ان فضيلتهم اكبر من ان تُغلب وعقولهم اسمى من ان تتدهور في معاطب كهذه ولكن واقع الحال يشهد بان شهواتهم المتغلبة هي التي فعلت في زمن قصير ما لم يخطر لهم على بال وهدمت بدقائق قليلة ما لم تبنهِ فضيلتهم الاَّ بايام طوال وسنين عديدة

٣ً وهذه الشهوة تحملنا في غالب الاوقات لا على ان نعذر نفسنا على كل الشوائب التي فينا فقط بل على ان نعتبرها كفضيلة ايضاً

من المعلوم ان وخز الضمير يزعج الافكار فاذا شعر بهِ صاحب الملكة عني حالاً باخماد ناره او باطفائها كلياً · فمن يعاشر بعض الاخوة عشرة خصوصية مثلًا او من ينفر من البعض لا يخلو من الهواجس المضنكة خوفاً من ان المحبة الخصوصية للبعض وفرط الاختلاء معهم او النفور من غيرهم يكون فيهِ شيءٌ من العثار والخطاء لان زيادة الاختلاء مع البعض يسبب تنديداً وقدحاً في بعض الاخوة وفي الروساء ايضاً والنفور كذلك يسبب العثار من فتور الحب الاخوي المفروض في القوانين الرهبانية والوصايا الالهية · ولكن من تمكنت فيهِ هذه الرذيلة بتملك الشهوة يوجد لنفسهِ مخرجاً من وصمة هذه الخطايا بقولهِ اني بتلك العشرة الخصوصية وبالتنديد لا اقصد مخالفة القوانين ولا القاء العثار وانما ابتغي تفريج النفس والتنديد بالنقائص اياً كان مرتكبها ولا يحملني على ذلك غير

حب النظام والترتيب وهكذا انا في نفوري من فلان وفلان لا اقصد الاَّ تحاشي الشر والابتعاد عن اسبابهِ بيد ان الحقيقة ليست كذلك ولكن الشهوة المتغلبة تُري الشر خيرًا والخير شرًّا · وقانا الله شر هذه الرذيلة · والاغرب من هذا هو انه يوجد من يقول « اني لست وحدي في هذه الخلة الذميمة او لست اريد التوصل فيها الى الخطاء المميت » فكأن الله يدينه يوماً على موجب كثرة او قلة عدد المساوين لهُ في الرذيلة او لا يحاسبه الاَّ عن الخطايا المميتة او لهُ ان يتورط في الخطايا العرضية تعمدًا ولا يتخطاها الى المميتة

ولا يخالنّ ان اخماد أوار الضمير على هـذه الصورة او فساده يقتضي حرباً طويلة كلَّا بل حالما تتملك الشهوة وهي تراعي جانب الحرية فتستولي على اميال القلب فتضعف قوة العقل الناهيـة وحالاً تكون الغلبة للحرية ويموت الضمير المستقيم · ولعمري ان هذا ما حمل القديس اغوسطينوس على قوله العجيب : « ان ما نُريدهُ لا نراه الاَّ صالحـاً وعدلاً ومقدساً · » وما ذلك الاَّ لتغلب الارادة على العقل لاننا اذ ذاك لا نحكم على الاشياء كما هي في ذاتها بل كما نريدهـا ونتمناها

٤ً للشهوة المتغلبة عاقبة وخيمة للغاية

ولعمري من يمكنه ان يقطع مجاري لذة هذه الرذيلة او يبدد جحافل ضلالها · اهو الراهب الذي استولت عليهِ الرذيلة كلَّا والى لهُ ان يحارب خليلةً قد ارتبط معها باشد علائق المحبة وامضى معهـا عهد الصداقة المؤَبدة جازماً انهُ لا يُبدي حركة بدون رضاها وهو لا يعتبرها الاَّ ملكاً سماويًا قد اتحد معها وصارا شخصاً واحدًا

او هل للاب المرشد معرّف هذا الراهب ان ينقذه من هذا الاسر · كلاَّ لانهُ مهما اجهد نفسه في البراهين الدامغة فيجيبه تلميذه : انك ياسيدي حاكمٌ عليَّ حكماً جائرًا فان ضميري لا يبكتني بشيءٍ مما تتصوره في وهو لعمري اعدل شاهد وانا كنت ارجو انك تؤَيد راحة ضميري لا ان تلقيني في الوساوس والاوهام · وفوق هذا فانهُ يقول في نفسه : « ان هذا المرشد موسوس الافكار

ضيق الصدر غير محتمل في تقولاته وعلى هذا النمط هو يبدد عن افكاره كل ما يراه يضاد ميله الشديد وشهوته المتغلبة

فعلى الرئيس اذاً ان يبذل قصارى الجهد بان يقتلع من قلوب مرؤوسيه هذه الشهوة المتغلبة اذ يبين لهم من القواعد التي ذكرناها ومن غيرها ما يقنعهم بسوء العاقبة وبضرورة استئصال هذه الرذيلة . وما اجدره بان يحمل كلًا منهم على ان يخاطب نفسه بكلام الابطال قائلًا : « يا نفسي هوذا المأزق فلم يبقَ امامك الاّ الموت او الحياة . لان عدوك قد اخذ على ذاته ان يفتك بكِ ولم يبقِ لك باب للنجاة الاّ بقتله فهبي لذلك والاّ فانتِ مقتولة . ثم يلتفت الى العدو الذي هو الشهوة المتغلبة ويقول لها : أيتها الشهوة الممقوتة انتِ التي حلفتِ ان تهلكيني وحاولتِ قتلي مراتٍ وانتِ الى الان تحاولين ذلك وانا قد تهددتكِ مراتٍ بالاعدام ولم افعل اما الان فقد عاهدت الله اني لا اعمل عملًا قبل ان اتخلص منكِ . فبهذا النهار اريد ان افتك بك وانجو من عبوديتكِ . هوذا الغضب قد اخذ مني مأخذه ولا يطفيه الاّ البطش بك . وكأني بك تتبينَ من تحت الرماد كالافعى السامة ولكن اعود فاضربك على ام رأسك ولا انفك حتى ارضك رضاً . وبعدُ يقول الرئيس لراهبه : اياك يا اخي ان تسكن خاطرك بقولك اني لست معذباً الاّ بشهوة واحدة . وهل يسوغ للمريض ان يهدئ باله اذا رأى ان ليس فيهِ الاّ مرض واحد وكان المرض عضالاً قتالاً ؟ او هل لاسيرٍ مغلل بسلسلةٍ قوية ان يسكن روعه بقولهِ اني لست مربوطاً الاّ بزنجيرٍ واحد كلّا لانه لا فرق بين ان يكون المسجون مقيداً بسلسلةٍ واحدة او بسلاسل كثيرة اذا كانت الواحدة كافية لقيده وحبسهِ عن الحرية ولا بين ان يكون المريض ممنوًا بمرضٍ واحد قتال او بامراضٍ متعددة . ولذلك يجدر بكلٍ منا ان ينحدر الى عمق قلبه وبيده الواحدة مصباح مضيء وبالاخرى سيف بتّار لكي يرى على نور المصباح ما هي الرذيلة المتسلطة فيهِ ويقطع بالسيف اسبابها . وهل من مترددٍ في قتل هذا المسخ الجهنمي ! فاياك يارب اسأل ان تقويني على الفتك بهذا العدو لانه عدوي وعدوك معاً . فخذ بيدي يا الهي وظفري مقرر . »

الفصل الثاني

في كيف نحارب الرذيلة ونكتسب الفضيلة

عدد ١

في كيف نحارب الرذيلة

قال صاحب الاقتداء : « امران يساعدان على اصلاح النفس اصلاحاً كاملًا وهما محاربة الرذيلة التي تميل اليها الطبيعة اشد الميل وممارسة الفضيلة التي نرى اننا باشد افتقار اليها (ك ١ ف ٢٥)

فلنتكلم اولاً عن نوعية محاربة الرذيلة وثانياً عن نوعية اكتساب الفضيلة عملًا بتعليم القديسين فالنوع الاول يقوم على اربعة اركان او قواعد وهي

١ً محاربة الرذيلة المتسلطة لانهُ ما الفائدة من ان ندور بالحاظنا الى هنا وهنا ان لم ننظر توًا الى القلب ونرى ما يميل بهِ بقوة غالبة الى الخطية ! فالطبيب الماهر اذا ما رأى على اللسان عفونة لا يضيع الوقت بتنظيفه بالغسل او التجريد بل يعطي المريض دواء يطهر معدته التي هي مركز العفونة ولا يعتني بختم الجرح قبل اخراج الصديد منه وتنقيته من كل فساد

ولا غروَ ان الشهوة المتغلبة هي العامود في بنيان الرذيلة فاذا سقط يسقط البنيان برمتهِ او هي جليات الجبار الذي اذا صُرع صُرع العسكر ايضاً

٢ً ان نبتدي بقطع اسباب هذه الرذيلة التي تكون ظاهرة ومشككة وسهلة الانقطاع . وبعد ذلك نتوصل الى قطع ما كان منها غير ظاهر او دقيقاً او عسر الانقطاع . لان الرب نفسه لم يأمر شعبه اسرائيل بلاشاة الكنعانيين دفعةً واحدة لئلا يفشلوا بل ان يبددوهم شيئاً فشيئاً (تثنية ٧ : ٢٢)

ولا تخف من انك اذا جمعت كل قوتك لقطع دابر هذه الرذيلة وحدها يفاجئك العدو من جهة اخرى ويحاربك برذائل أُخر لان من يقاوم بقوة ولو رذيلة

واحدة يتشرب بغض الرذيلة بوجهٍ عام ويزداد بسالة في حرب العدو اذا استظهر عليهِ من جهة اخرى

٣ً وان نوجه الى هذا الغرض كل قواتنا الروحية مثل فحص الضمير بتدقيق ونشاط والاعتراف الذي تكون هذه الرذيلة مادته والمقاصد الصالحة لهذه الغاية· وكل صلواتنا وطلباتنا تكون كذلك لاجل الفوز بالانتصار على هـذه الرذيلة والقراءة الروحية التي تلهمنا بغض هذه الرذيلة او محبة الفضيلة التي تضادها· والعقوبات التي نعاقب بها من جراء سقوطنا بالرذيلة نفسها · واخيراً التأمل الذي يرينا بنوع خاص شناعة هذه الرذيلة ونتائجها الموبقة

ولما كان العدو يُلاقي بنفس الاسلحة التي يحارب هو بها وكانت الشهوة الغالبة هي عدونا الالد الذي يطلب هلاكنا على افظع طريقـة وجب علينا ان نلاقيها بمثل هذا العدوان وان لا نفتر عن محاربتها الى ان نبيدها

٤ً ان نحارب الرذيلة بما يضادها طبعاً مثلًا ان نحارب شهوة الغضب بالوداعة والتواني بالنشاط والتدقيق وتشتيت الافكار بجمعها وحصرها في الداخل· والكبرياء بالتواضع · اما رذيلة الدنس فوان كانت مقاومتها مفيدة لا ينبغي ان نعاسفها او نصارعها مصارعة بل ان نعرف ذلنا ونجتهد بابعاد الافكار الخبيثة عنا بالصلاة الحارة

ومن المعلوم انهُ لا سبيل لقلق افكارنا لو شعرنا بان نار هذه الرذيلة لم تطفَ بعد حقًّا ولاننا لا نزال نشعر ببعض لدغاتهـا بل يجب ان نجتهد بان لا ننغلب لهجماتها ولا نحفل بها ولنتاكد اننا بعون النعمة لا بد من ان نظفر بهذا العدو عاجلًا او آجلًا

عد ٢

في نوعية اكتساب الفضيلة · لاكتساب الفضيلة اربع قواعد :

١ً ان نختار الفضيلة التي نراها اكثر لزوماً لنا وهي اما التي تضاد الرذيلة المتسلطة علينا او التي نراها اوفق لذوقنا واسهل لدينا من سواها · فان اخترنا الاولى نكن قد عملنا عملين عظيمين لاننا بذلك نكون قلعنا وغرسنا او هدمنا

وبنينا . وان اخترنا الثانية نؤمل النجاح في التقدم بالفضيلة باكثر سرعة

ان منظر السماء لعظيم مبهج ولاسيما لو نظرنا بالنظارة المعظمة لاننا نشاهد عندئذٍ جسامة النجوم والكواكب وما لكلٍ منها من الرونق والامتيازات الخاصة ولكن ليس هذا المنظر الاَّ صغيرًا بالنظر الى السماء الحقيقية حيث نشاهد مجد القديسين وبها فضائل كل منهم . ولا غرو ان مثل هذه الفضائل في السماء مثل لآلئ وجواهر ثمينة مرصعة بحلل او تيجان ملوكية . ولذلك يجدر بكل نفس تطلب السعادة السماوية ان تغار على الارض باتقان نوع من الفضائل اتقاناً خصوصياً تمتاز بهِ هنا لكي تمتاز بهِ ايضاً هناك مثل سائر القديسين ويوصع بهِ برفير مليكنا السماوي سيدنا يسوع المسيح او اكليله البهي .

٢ً ان لا نتخذ موضوعاً لاجتهادنا الخاص الاَّ فضيلة واحدة بل ان نعتني باتقانها فرعاً بعد فرع لانهُ لا يمهر بالعمل الاَّ من يعتني بعمل واحد . وقد جاء في امثال العامة «كثير النط قليل الصيد» وقالوا ايضاً من امسك بيده بطيختين لا يضبط منهما واحدة »

وهنا كذلك لا محل للخوف من اننا اذا وجهنا عنايتنا الى اتقان فضيلة واحدة او الى اتقان فرع من فروعها نهمل سائر الفضائل لان من بذل اقصى العناية باتقان فضيلة لا يمكنه الاَّ ان يمارس سائر الفضائل عندما تسنح لهُ الفرصة

٣ً ان نعتبر الفضيلة المراد اكتسابها اعتبارًا سامياً لاننا اذا اعتبرنا الشيء لا نلبث حتى نشتهيهِ واذا اشتهيناه جددنا بطلبه ومن طلب اجيب ومن جد وجد . وبعدُ فمن اراد ان يعتبر فضيلة وجب عليهِ ان يتروى جيدًا كم هي شريفة ومفيدة وضرورية . وان يمعن النظر بمحاسن هذه الفضيلة في الرب يسوع والبتول مريم وفي الرسل وسائر القديسين . ولذلك فليتلُ بعض المقالات عن هذه الفضيلة وليتخذ منها بعض الاعتبارات التي تكون لهُ مادة لبعض تأملاته الخاصة كما اوصى القديس اغناطيوس

٤ً ان نمارس مراتٍ في النهار افعال هذه الفضيلة المطلوبة لان الفضيلة بوجه العموم تقتضي شهامة ونزاهة اذ ان الطبيعة من ذاتها ميالة الى النقص والرذيلة لا الى الفضل والفضيلة ومن المقرر ان الفضيلة لا تكتسب الاَّ بتكرار الممارسة

وهي كفنّ الموسيقى مثلاً او التصوير فانهُ لا يكتسب الاَّ بالممارسة والفضيلة باولى حجة لا تكتسب ملكتها بدون عملٍ وعناء لان ملكوت الله يُغصب ومن ثم يترتب على كل من رغب في الفضيلة ان يعرق عرق القربة ويحارب ويكافح ولا ينخدعنَّ احدٌ فان الله لا يعمل فينا الفضيلة بل يعطينا ان نعمل نحن فيها . هذا ما خلا فضيلة الايمان والرجاء والمحبة التي هي وحدها مفاضة منه تعالى مجاناً اما سائر الفضائل فمكتسبة بالعناء والطلب لانهُ تعالى يستجيب طلبنا باعطائه ايانا الفرص المناسبة والنعم اللازمة لممارسة الفضائل التي نريد اكتسابها . ولذلك السبب كان القديس فرنسيس كسفاريوس يكرر قوله لاخوته : « انتصروا على ذواتكم اغلبوا ذواتكم » وعندما لحظ ان البعض كانوا متعجبين من تكراره هذا الكلام قال : « هذا ما اخذته عن معلمي وابي القديس اغناطيوس وهو كافٍ لمن يريد ان يحفظه ويعمل بهِ . »

اما الزمان المطلوب للاماتة الرذيلة او لاكتساب الفضيلة فلا يمكن تحديده بل نقول انهُ يجدر بنا ان نحارب الرذيلة حتى نرى انها لم تعد تقوى علينا ونمارس افعال الفضيلة حتى نرى انها اضحت لدينا سهلة ومستحبة . وما مثل ذلك الاَّ مثل شجرة عظيمة فهذه لم تبلغ كبرها العظيم بمدة قصيرة ولا يمكن قطعها بضربة فأس واحدة بل كما اقتضى لكبرها سنون عديدة يقتضي لقطعها زمان مديد وعناء شديد

وهذا لعمري اخص تعليم يجب ان يعلمه الرؤساء مرؤوسيهم ولذلك يجدر بهم ان يسالوهم مراتٍ مثل هذه السؤالات : « اي رذيلة تقاوم اليوم او اي فضيلة تجدّ في اكتسابها » ومن جواب المرؤوس يعلم كيف يعامله ويُدخل في عقله ولبه مثل هذه التعاليم الروحية المقدسة

الباب الثالث

في التجارب

عد ١

في بعض مبادي. عمومية ينبغي للرئيس ان يعلّمها لمرؤوسيه

اخص هذه المبادي. يتعلق في ما يجب على الراهب ان يعمله قبل حلول التجربة وفي وقت حلولها وبعد حلولها . فقبل حلول التجربة يجب على الراهب :

١ً ان لا يخاف منها خوفاً مفرطاً لان التجربة بذاتها ليست بخطيئة ان لم يكن الراهب هو الــذي التى بنفسه فيها . ولا اللذة بالتجربة خطيئة ما دامت الارادة تنفر منها ولا ترضى بها . وهكذا مهما كانت التجربة قوية او وخيمة لا يمكنها ان تلحق بالنفس اذى الخطيئة ما لم تصادف في تلك النفس شيئاً من الرضا والقبول وان الله جلت حكمته لا يسمح بالتجربة الاً لمقاصد خيرية مثل اختبارنا ومواضعتنا وكفرنا بالعالم وتطهيرنا وتفقيهنا باسرار الحياة الروحية وزيادة اجرنا .

وكما انهُ لا شي. يُرجع المتواني الى عبادة الله والتضرع اليهِ مثل ثوران العواصف ولا شي. يحبب المسافر بوطنه مثل شدة كوارث الغربة هكذا الراهب المسافر في تيار هذا العالم فانهُ كلما اشتدت عليهِ التجارب ازداد تقىً وثقةً بالله وكفراً بذاته وبسائر امور الدنيا . قال ابن سيراخ : « الذي لا يمتحن ماذا يعلم ! (٣٤) ولعمري هل من اكليل الاَّ بالظفر وهل من ظفر الاَّ للمجاهدين او هل من جهاد بلا حرب فالتجربة اذاً تنيل اكليل الظفر

٢ً ان نتنبه الى حيل المحال الذي بها يجتهد ان يسدل على بصائرنا ظلام الضلال فيلقينا تارةً في الوساوس ويبيّن لنا ان نير الفضيلة قاسٍ وغير محتمل فيجب

ان نطرحهُ عنّا . وطوراً يرينا ان الكمال الرهباني لا يطلب كل هذا التدقيق بحفظ القوانين والرسوم لان الله لا يمسك نعمه على الذين يخلّون بمثل هذه الفروض الخفيفة وهو خزاه الله لا يطالبنا في باديء الامر بارتكاب خطايا ثقيلة بل يكتفي منّا بالخفيف اليسير وبعد ذلك يطلب اكثر

وحيناً يتخذ صورة ملك النور ويحضنا على عمل بعض الخير ولكن هذا الخير يكون اما طفيفاً وإمّا غير مستطاع او لا يوافق دعوتنا الرهبانية ومن ثم لا يكون خيراً الاّ بالظاهر اما في الحقيقة فيكون شرّاً بحتاً . والامرّ في كل ذلك هو انه خزاه الله يلقي بعض الجفاء بيننا وبين الرئيس لكي نبتعد عنهُ ولا نكشف لهُ تجاربنا لئلّا نقوى بنصائحه على الظفر بها

وفي حال التجربة على الراهب اولاً الاّ يرضى بها على الاطلاق بل ان يفرّ منها بكل سرعة لئلّا يقع في اوهاقها

٢ً الاّ يردد فكره فيها ولا يسائل نفسه هل يسوغ لهُ ان يخل بشيء من قوانينه او سائر فروضهِ لانهُ مثلما ان المتعب يميل الى الراحة كذلك المضنك من التجربة يرغب في التسليم لها طلباً للراحة

٣ً ان لا يكتفي في محاربته العدو برد هجماته بل عليهِ ان يهاجمه بمباشرته افعال بعض الفضائل الغراء مثل التواضع والصبر والاماتة ومحبة الله وفحص الضمير بتدقيق والتأمل برزانة ونشاط

٤ً وان يضاعف ثقته بالله تعالى مستنداً على قول الرسول : « ان الله امين فلا يحتمل ان تتجربوا فوق طاقتكم » (١ كو ١٠) قال القديس يوحنا فم الذهب « وما مثل الله في سماحه بتجربتنا الاّ مثل الموسيقي الذي انما يمس وتر ربابته مساً دقيقاً بقدر ما يلزم لاعطاء الصوت المطلوب . » او مثله على ما قال القديس افرام مثل الفاخوري الذي لا يضع خزفه في اتون النار الاّ بقدر اللزوم فتراه يضع الاناء الرقيق مدة قصيرة والسميك مدّة طويلة والمتوسط مدة متوسطة تبعاً لاقتضاء كلٍّ منها . »

٥ً ان لا يمعن النظر ابداً بما نظر او سمع من امر التجربة ولا في هل انهُ رضي او لم يرضَ بها ولاسيما اذا كانت التجربة مما يضاد الطهارة لانه بهذا الفحص

يتوصل الى شيء من اللذة واحياناً الى الرضى ايضاً . بل الاجدر بهِ في وقت التجربة ان يتشبه بالطفل عندما يرى شبحاً مريعاً فانهُ يفر منهُ للحال ويسرع الى حضن امه يختبيء فيهِ . اما بعد حلول التجربة فعليهِ

١ً اذا لم يكن قد انغلب لها ان يشكر الله على ما اولاه من النصر والظفر لاننا بالشكر ننال زيادة النعمة وننجو من المجد الباطل . وان يمعن النظر في ما يقصده تعالى بارساله تلك التجربة اليهِ وان يستفيد من ذلك وان ينظر ايضاً في كيف نجا من اشراكها ليتعلم ان ينجو مرة اخرى وان يكون على حذر لئلّا يفاجئه العدو بعد ذلك مصحوبا بارواح أُخر شر منه

٢ً اما اذا كان قد سقط فليقم حالاً . قال القديس فرنسيس سالس : « اذا ما سقطنا فلنسأل ضميرنا وقلبنا هلا يزال على قصده السديد وعزمه الشديد بان يخدم الله بكل قدرته واني لارجو ان الجواب يكون بالايجاب وانهُ يفضل الموت الف مرة على ترك هذا العزم المقدس واذ ذاك اقول له ياقلبي مالك والخوف او الجبانة . فيجيب اني حزين على ما فرط مني وعلى وجودي حتى الان بهذا الضعف . وعلى هذا تضطر لان ترثي لهُ لان سقوطه لم يكن عن خبث بل عن ضعف فيجدر ان نقويه ونشجعه برفق ولين لا ان نزيده غيظاً وحنقاً على ذاته لئلّا يفضي بهِ الامر الى الفشل » ولكن اصلاحاً لما فرط منه يحسن بهِ ان يباشر بعض افعال التوبة مثل فعل التواضع ومحبة الله الخ

عدد ٢

في بعض مبادىء ضرورية لمعالجة بعض تجارب قوية وغير اعتيادية يجب ان يعرفها كل رئيس

من التجارب ما نسميها غير عادية نظراً الى شدة وطأتها ووخامة عاقبتها وقلة عدد المعترين بها لجزيل فضلهم وقداستهم فمثل هذه التجارب يثيرها العدو من جراء شدة بغضه لتلك الانفس التقية وحنقه عليها . وتسمح بها الحكمة الالهية اما لزيادة تنقيته تلك الانفس او لامتحانها وتفقيهها في امور الروح .. (او . او)

اخص هذه التجارب :

١ً اليأس ومن يقع في هذه التجربة يعتقد ذاته من الهالكين مهما كانت فضيلته قوية واحياناً يخال انهُ يسمع صوتاً في داخله يقول لهُ : اقتل نفسك وانجُ من هذه الحياة التعسة او يظن انه بقتله ذاته يقدم لله ضحيةً مقبولة

٢ً الريب في الايمان · ومن جراء ذلك تكون عنده كل اسرار الديانة وتعاليمها كانها حكايات او اضغاث احلام بل يتخيل انهُ لا يقدر ان يقول «انا اؤمن» او اذا قال ذلك لا يكون قولهُ مقبولاً لديهِ تعالى لانهُ يتصور ذاته كوثني او كجاحد وجود الله

٣ً بعض تصورات او توهمات تضاد فضيلة الطهارة فيراها المصاب كأنها ذنب عليهِ وهو مع ذلك لم يرضَ بها على الاطلاق · فهذه التصورات تزعج افكاره وتقلقه اي قلق حتى انهُ لا يعود يرى اذا كان قد رضي بها او اباها ولا اذا كان بوسعهِ ألاَّ يرضى بها او ان لا يسقط في الخطيئة على رغم ارادته

٤ً بغض الله · ومن يقع بهذه التجربة يرى ذاته مبغضاً من الله ويبغض كلما يختص بالله ويود لو ان جميع الناس يبغضون الله ويجدفون على اسمه القدوس ومن بلغ بهِ شره الى هذه الحال يقطع رجاه من الخلاص الابدي ويستسلم الى اعظم الفظائع والمنكرات

٥ً الاشمئزاز والنفور من الرئيس او من بعض الرهبان بنوع ان المصاب يستسمج كل ما يرى فيهم مثل احاديثهم واعمالهم وحركاتهم وهيئة وجههم ومشيتهم وصوتهم حتى انهُ لا يتصورهم الا خصوماً او اعداء

٦ً كره لدعوته الرهبانية ولسائر الاعمال الروحية مثل الصلوات الفرضية وسرَّيّ التوبة والقربان المقدس والوعظ وخدمة الانفس على اي وجهٍ كان · بنوع انهُ يضحي مبغضاً لكل ما كان يحبه ويعتبره من الامور الروحية المقدسة

وياما اشد ما على الرئيس من واجب المحبة لمن كانت هذه حالهم وما اعظم ضرورة الرأفة بهم ما داموا معذبين بهذه الوساوس فعليهِ ان يعزيهم ويفرّج همومهم بنصائح خلاصية كأن يقول للواحد منهم مثلًا : يا اخي ان في تضييق

الشيطان هذا عليك دلالةً على ان فضيلتك راهنة وانك عند الله مقبول ومحبوب لانه كما قال القديس فرنسيس سالس« لا ينبح الكلب الاَّ على الغريب ولا تُشن الغارة وتحمل الحملات العظيمة الاَّ على القلاع الحصينة.» فلِمَ تخاف وانت بسيرتك مثال الفضيلة وقدوةٌ لسائر الاخوة اتخاف لانك شعرت بالتجربة وانت باذل قصارى جهدك في عدم الرضاء بها . او لا تعلم انك بذلك تحارب حرب الابطال وتنال اكليل المجاهدين؟ ومما لا ريب فيهِ هو انهُ تعالى لا يسمح بورود هذه التجارب عليك الاَّ لخيرك او انه يريد ان يدربك بهذه الحرب الروحية لكي تكون يوماً ما مرشداً فطناً وقائداً حكيماً

ومن اللازم الضروري ان يحض الرئيس هولاء المرؤوسين :

١ً على طاعة مرشدهم ولو رأوا او تأكدوا عدم موافقته لنصائحه لهم او انها مضرة بهم ايضاً

٢ً على المثابرة على تكميل اعمال الفضيلة ولو كانوا يشمئزون منها ويكرهونها

٣ً الى الازدراء في حيل المحال . وعلى هذا قال القديس فرنسيس سالس :

انه لما كان الشيطان روحاً متكبراً كان لا شيء يهينه ويخزيه مثل الاحتقار وعدم الاكتراث لوساوسه . ومن الواضح ان محاربة العدو تدل على الخوف من قوته الا ترى انهُ اذا سقطت نحلة على وجهك كيف انك تزيلها بيدك واذا لسعتك قبل ان تبارحك فلا تحفل بها خفة لسعها . هكذا استمر مع وساوس العدو الجهنمي » .

واذا كانت التجربة ضد دعوته فعلى الرئيس ان يبيّن له ان الاسباب التي حملته على الترهب هي نعمة فائقة الطبيعة وهي باقية هي هي وان لم يشعر بها في الحال وان الله الذي لا يعمل عملاً ناقصاً لم يدعه الى الرهبنة ليرجع فيما بعد بدعوتهِ ويطرده منها وان تكرار نذره ومواعيده الكثيرة انما هي نعمة مخصوصة من الله وعلامة واضحة انهُ تعالى لا يريد الاَّ ثباته في دعوته . وان الدعوة الرهبانية هي على موجب تعليم جميع الاباء اعين طريق للخلاص وآمن السبل اليهِ سواء كان من جراء وفرة النعم الخصوصية او الابتعاد عن اسباب الخطيئة . والعكس يقال عمن يترك هذه الدعوة المقدسة لانه يجحد النعمة فتبارحه ويلقي بذاته في اعظم .

المخاطر . ومن قال بخلاف ما تقدم ولو كان من اعظم العلماء لا يكون الاً محالفاً لابليس وعاضداً نياته الخبيثة لان الراهب يتحتم عليهِ ان يخضع لصوت رئيسه ولعلامات النعمة اكثر من خضوعه لتعاليم البشر اياً كانوا

قد جاء عن القديس اغناطيوس انهُ صام وصلّى مدة ثلاثة ايام متتابعة لكي يستمد لاحد رهبانه النجاة من هذه التجربة وانهُ قضى مدة اخرى قسماً كبيراً من الليل مع احد رهبانه ليسليه ويعزيه في تجربته ويرشده باقوى البراهين للنجاة منها ولما كان يشعر بالهام الهي بان سبب التجربة كان اخفاء خطيئة في الاعتراف كان يبذل قصارى الجهد ليحمل ذلك الراهب على اصلاح اعترافه وكان يوقظ الاب المرشد ليلًا ليسمع اعتراف الراهب المذكور كيلا يبقى معذباً بتجربته طول الليل

الباب الرابع

في درجة الصلاة الثالثة

عد ١

في ما تتوقف عليهِ الدرجة الثالثة من الصلاة وفي من هم الرهبان المدعوون اليها

ليس موضوع كلامنا هنا الدرجة الاولى من الصلاة التي هي طلب الله بالتأمل العقلي ولا الدرجة الثانية التي هي الاقتراب من الله بالانعطافات القلبية ولا الرابعة التي تتوقف على راحة النفس في الله ولا الخامسة التي تكون في اتحاد النفس مع الله لان الاولى والثانية هما عاديتان ولا صعوبة فيهما والرابعة والخامسة نادرتان ولهما ايضاحات مسهبة في تآليف عديدة ولكن موضوع كلامنا الدرجة الثالثة وفيها نحصر مقالتنا

١ً ان هذه الدرجة التي هي عبارة عن الانشغاف بهِ تعالى تتوقف على ثلاثة

امور النظر الى الله وذكر الله والارتياح الى الله ٠وبهذا يكون عقلنا وذكرنا وارادتنا ساعية كلها معاً لادراك الانشغاف بهِ تعالى٠ فهذا الانشغاف اذاً يكون عبارة عن النظر العقلي والذكر والارتياح ٠ فالعقل يرى الله بالايمان كأنهُ حاضر وينظره تعالى نظراً بسيطاً بغير مراجعة في الفكر ولا قياس ولا احتجاج ٠ والذاكرة التي تردد ذكر الله مرات متوالية تصيّر هذا الذكر خالداً في الذهن وعند ذلك ترتاح الارادة الى الله ارتياحاً وتنتعش بذكره ومنظره ٠ فبعض العباد الذين يمارسون هذا النوع من الصلاة ينظرون الله في كل شيء ٠ ويرون انهُ مالىء الكون بنوع انهم لا يتكلمون ولا يتحركون الاَّ في الله وهكذا لا يعملون عملًا ولا يرون رأياً الاَّ في الله

وغيرهم ينظرون اليهِ تعالى باقصى قوى نفسهم وغيرهم ايضاً يرونه تعالى في اعماق قلوبهم وهولاء اكثر تقدماً في هذا النوع من الصلاة ولكن لكلٍ ان يتبع اميال نفسه بدون معاسفة

وفي هذه الحال يمكننا بل يجدر بنا ان نفتكر بالاعمال العجيبة التي عملها السيد المسيح والبتول مريم وذلك :

١ً متى ألهمتنا النعمة هذه الافكار و٢ً في الاحتفالات الكنسية و٣ً عندما نشعر باننا مفتقرون الى ذلك بشأن احترام حاسات الحب نحوه تعالى

٢ً اماالدعوة الى هذه الحالة السعيدة فقد تكون بنوع خارق العادة وقد تكون بنوع عادي

فبالنوع الاول يعطي الله هذه الموهبة من يشاء ومتى يشاء من دون اقل استعدادمن قبل الموهوب لهُ بل من دون انتظار ولا سبق معرفة لشيء مما يتعلق بهذه الهبة السماوية وهذا يكون فيما لو دعت النعمة الارادة دعوةً حثيثة بقوةٍ ولطف والارادة لا تكاد تشعر بهذه الدعوة حتى تسلّم ذاتها تسليماً مطلقاً غير ان الله جلت حكمته لا يدعو عادةً بمثل هذه الدعوة الا الراهب الذي يكون قد افرغ كنانة جهده في خدمته تعاله وفي طلب مرضاتهِ عز وجل

اما النوع الثاني فيدعو اللهبهِ اولئك الرهبان الذين عندما يكونونقد سمعوا شيئاً عن محاسن هذه الصلاة او قرأوا شيئاً عن منافعها الجزيلة او عن قداسة

الاشخـاص الذين فازوا بها وشعروا بما حملهم على المسير في هذه الطريق لاجل الوصول الى الكمال . والذي يدلنا على ان هذه الدعوة هي من الله لا من الشيطان ولا من الطبيعة هو اننا في وقت فقدان التعزية الروحية وفي حين رغبتنا بالاختلاء الروحي الباطن نميل بجميع رغائبنا ومقاصدنا واعمالنا الى غاية واحدة الا وهي رضاه لا غير . واضمن وقاية لنا من وساوس الشيطان انما هي مشورة الرئيس او المرشد الحكيم

عد ٢

في فوائد هذه الصلاة وفي كيف يتدرب بها الراهب الذي يكون قد رقاه الله اليها

١ً ان الفوائد المعلقة على هذه الصلاة شريفة هي وعديدة لان من تمتع بها يمكنهُ بسهولة

١ً ان يعرف احسن معرفة كمالات الله لانهُ تعالى ممثل ابدًا امام عينيه . وان يفقه باجلى بيان فقره الخاص وضعفه الطبيعي لانهُ بمشاهدة الله الدائمة يشاهد نفسه كأنهُ بمرآة صقيلة فيرى ما فيهِ من العيوب والنقائص

و٢ً ان ينقطع انقطاعاً كاملاً عن المخلوقات لكي يتعلق بالخالق وحده لان من خواص هذه الصلاة ان ترفع العقل والقلب عن الارضيات لتحملها وتبلغهما الى السماويات

و٣ً ان يشرع بالعمل بهذا المبداء المدعو مبداء القديسين العام وهو : «كل شيء : ولا شيء » يريدون بكل شيء الله وبلا شيء كل ما سواه

٤ً ان يتمكن في فضيلة التواضع لانهُ بنظره الدائم الى الله الكلي القدرة والغنى والعظمة لا يمكنهُ ألاَّ يرى ضعفه ومسكنته وكونهُ عدماً ايضاً

و٥ً ان يعيش عيشة التقشف السامية والضرورية التي تتوقف على اماتة حركات النفس الباطنة وعلى ارتفاع افكارنا وعواطف قلبنا اليهِ تعالى بعادة مستمرة

و٦ً ان يحصل على العين النقية المحكي عنها في الانجيل المقدس التي تنظر الله في كل شيء ولا ترى ان تميل بنظرها الى ذاتها ولا الى شيء من الخلائق مهما

كان . ومثلها بذلك مثل الابرة المسقية من المغناطيس فكيفما دارت بها الدوائر تبقى متجهة نحو القطب الشمالي

و٧ً ان يحب الله من كل قلبه ومن كل عقله ومن كل قوته لانهُ لا يرى في كل شيء الاَّ الله ولا يفتكر الاَّ بالله ولا يريد شيئاً غير الله

و٨ً يتمتع بالسلام الحقيقي الذي لا يوجد الاَّ في الله مقر راحتنا وغايتنا وسعادتنا وحياتنا

و٩ً ويستحيل بنوع ما الى صورة الله كما بيّن ذلك بولس الرسول لانهُ يتعود ان يشاهد الله وان يخاطبهُ ويفتح له قلبه ويضمه اليهِ ويعتنقه بانشغاف مقدس يزداد فيهِ ويتجدد كل يوم وكل ساعة

٢ً اما كيفية تدرّب من ارتقى الى هذه الدرجة من الصلاة فتتوقف بنوعٍ ما على ابعاد كل ما من شأنه ان يؤخر فيهِ او يلاشي الانعطاف القلبي نحو الحضرة الالهية ومن ثم يلزم من بلغ الى هذه الدرجة : ١ً ان لا يعسف نفسه لابراز بعض الافعال المفيدة او التي كان يراها ضرورية من قبل . ولكن لو ألهمه اياها الله فله ان يقبلها ويعمل بها بهدوءٍ وسكينة و٢ً ان يعمل اعماله الروحية مثل فحص الضمير والصلوات الفرضية وما اشبه بدون ان ينقطع عن رياضة نظره العقلي و٣ً ان يقوم بباقي اعماله مثل الدرس واعمال الوظيفة او التنزه وحضور المائدة للاكل والشرب وما اشبه ذلك مع المحافظة على استحضار الذات الالهية تبعاً للعادة التي يكون قد ألفها و٤ً عند انتباهه من النوم صباحاً حالما يفتح عيني الجسد يفتح كذلك عيني الروح كي يشاهد بهما الله ومثلما ابتدأ صباحه وانهى نهاره برياضة مشاهدة الحضرة الالهية هكذا يجب عند مضيه الى النوم الاَّ تغيب عن نظر عقله مشاهدة الله فينام في حضن العناية الربانية

اما النقائص التي يسقط فيها صاحب هذه الصلاة فهي عادة : ١ً عدم تأكده صلاحية هذه الحال او عدم وجوده بها حقيقةً ولكن ليس لذلك دواء انجع من مشورة الرئيس او المرشد الحكيم . ٢ً عدم مطاوعته الهامات النعمة التي تطلب منهُ احياناً شيئاً من التقشف والجهاد فوق المعتاد مع ان لا شيء يساعد على القيام في هذه الصلاة السامية مثل مجاوبة النعمة بالمطاوعة لالهاماتها . و٣ً

تقاعده عن اتمام الصلوات المفروضة والعبادات العادية بحجة كونه دائماً في الصلاة مع ان المثابرة على هذه الفروض والعبادات اجدر بهِ من كل احد لامتثاله دائماً بازاء الحضرة الالهية و٤ً البطالة لانه لو داهمته تجربة التواني والفتور في صلواته قلما يكترث لان يعود الى حرارته الاولى ولذلك تستولي عليهِ الافكار الغريبة والترهات الباطلة ٠ و٥ً الجبانة واليأس من خوفه ان يهين الله او ان لا يقدر على ان يحبه المحبة الواجبة وهذا اليأس ياخذ منه مأخذه عندما يتأمل حال العالم التاعسة وانه مجبر على السكنى بين الناس ومعاشرتهم .

لا غرو ان لكل رهبانية نظاماً يرتب اوقات الصلوات ونوعيتها فعلى كل رئيس ان يحافظ على نظام رهبانيته ولكن ليس لهُ ان يزعج من يراهم بلغوا الى هذه الدرجة من الصلاة بل عليهِ ان يساعدهم للثبات فيها والتمتع بخيراتها

الباب الخامس

في ممارسة العمل الافضل

عد ١

في بعض سوءالات تتعلق بممارسة العمل الافضل :

كتب الرسول الى الرومانيين قال : « لا تتشبهوا بهذا الدهر بل تحوّلوا الى صورة اخرى بتجديد عقولكم لتختبروا ما هي مشيئة الله الصالحة المرضية الكاملة (ف ١٢) فالرسول يشير هنا الى ثلاث درجات من الفضيلة صالحة ومرضية وكاملة ٠ قال القديس انسلموس : « ان درجة الصلاح تليق بالمبتدئين والمرضية التي تسمو على الصالحة تليق بمن اخذوا بالتقدم في طريق الكمال واما الكاملة فهي اسمى درجة يمكننا ان نتمناها

فاذا كان بولس الرسول يعلّم طريق الكمال الاسمى جميع المؤمنين حتى الذين لم يكونوا قد ارتدوا الى الايمان الاّ حديثاً افيليق برئيس الاّ يرشد رهبانه

الى هذه الدرجة السامية وهم قد ربوا بجهد الفضيلة وتجردوا لبلوغ الكمال

س ١ على اي شيء يتوقف العمل الافضل ؟

ج يتوقف على ان يختار الراهب من شيئين او من نوعين لعمل شيء واحد الشيء الاحسن او النوع الاحسن · وهذا لعمري يكون عندما يتفق للراهب ان يعمل هذا او ذاك بهذا النوع او بنوعٍ آخر من دون طائلة الخطاء على الاطلاق لان الشيئين او النوعين يكونان صالحين غير ان الواحد منهما يفضل على الآخر ولذلك اقتداء بقول الرسول يختار الافضل والأكثر كمالاً على ما سواه

س ٢ واي عمل يمكننا في الحيوة الرهبانية ان نسميه الافضل او الاكثر كمالاً ؟

ج في واجباتنا نحو الله ان افضل عمل هو العمل الذي يؤدي لعزته تعالى اعظم مجداً نظراً لصلاح العمل بذاته وللحرارة التي نعمله بها · اما في واجباتنا نحو القريب فالعمل الافضل هو الاكثر افادة لهُ سواء كان ذلك في الخيرات الزمنية او الروحية بنوع اخص · اما في الواجبات التي للراهب على ذاته فالعمل الافضل هو الذي يسوم الطبيعة اكثر عناء ويساعدها اقوى مساعدة على عدم الانغلاب لحيل العدو · وبوجه الاجمال نقول ان العمل الأكثر كمالاً في الراهب هو الذي يوافق بالأكثر المشورات الانجيلية بحسب روح الرهبانية المنتمي اليها والمقام الموجود فيهِ

س ٣ هل العمل الافضل يتم من دون تعلق ببعض الظروف ؟

ج كلاَّ لانهُ يتعلق ولا شك بظروف مختلفة لان الافضل لهذا بالنظر الى طباعه والتجارب التي يتعرقل بها والواجبات التي تختص بهِ لا يكون الافضل لغيره لاختلاف الظروف المذكورة · وهكذا العمل الافضل في هذا الزمان لا يكون كذلك في زمان آخر لانهُ اما ان الحوادث تتغير واما ان مقاصد الله تعرف بعد حين على غير ما كانت محسوبةً من قبل · ومن البين ان العمل لا يكون اكثر كمالاً ما لم يكن موافقاً للواجبات بجملتها من دون ان يلحق ضرراً باحدها · ثم ان العمل الافضل على ما يعلّم القديس فرنسيس دي سال لا يتوقف على كثرة الاعمال بل بالحري على حسن القيام بها

س ٤ هل يمكننا بسهولة ان نعرف ما هو الافضل من بين اعمالنا ؟

ج نعم يمكننا ذلك لو احسنّا سمع صوت الروح القدس الذي يكلمنا في الداخل واصغينا لارشاد العقل المستقيم المستنير بنور الايمان . واذا ما خامرنا الريب يمكننا ان نسأل انفسنا مثلاً كيف عمل السيد المسيح والقديسون في مثل هذه الظروف . وما هي تعاليمهم في هذا الشان او ما عساهم كانوا يعملون لو كانوا في مثل مركزي هذا . ومــا عساني ابتغي في ساعة الموت او في ساعة الدينونة الاخيرة من امر هذا العمل او من كيفية عمله ? او ما عسى احد الهالكين او احد القديسين كان يعمل في مثل هذه الظروف لو بعث الواحد ليكفر عن ذنوبه والآخر ليزيد على اجر ثوابه اجرًا جديدًا . او بماذا كنت اشير على احد الرهبان لو طلب مشورتي وكان يهمني امر كماله . وبعد فان للراهب قوانين ورسومــاً ترشده الى الصواب وله ايضــاً رئيس اقيم من العناية الربانية ليؤمنه في المخاطر ويهدي روعه في المخاوف . فليرتشد منهم

عد ٢

في بعض اسئلة تتعلق بنذر العمل الافضل

١ً ما هو الالزام الذي يوجب على من ينذر نذر العمل الافضل

ج كل نذر ما عدا النذور الرهبانيــة يتعلق الزامه بحرية الناذر مهما كان موضوع النذر كحفظ احدى الفضائل مثلًا او بعض القوانين او غير ذلك سواء كان النذر مؤبدًا او لامدٍ معين فللناذر ان يلزم نفسه الزاماً ثقيلًا او خفيفاً وعليهِ فاذا لم يلزم نفسه الأ الزاماً خفيفاً فمخالفته نذره لا توجب عليــهِ الأ اثماً خفيفاً اما اذا الزم نفسه الزامــاً ثقيلًا فقد يقترف خطاء مميتاً تبعاً لثقل المادة وتكرار المخالفة بتوانٍ وقلة اعتبار

٢ً أيسوغ لكل راهب ان يبرز هذا النذر ؟

لابراز مثل هذا النذر ينبغي ان يكون الراهب مدفوعاً اليهِ من روح الرب ومأذوناً له بهِ من رئيسه . وان يكون متصفاً بضمير نقي وعقلٍ سليم ومختبرًا بحفظ القوانين الرهبانية وممارسة سائر الفضائل بنشاط وتدقيق

فعلى الرئيس الحكيم عندما يسألهُ احد رهبانه ابراز مثل هذا النذر ان يشير عليهِ بان يروّض ذاته اولاً على العمل الافضل وبعد هذا الترويض يأخذ على ذاته عدم مخالفة القوانين ولو باقل الاشياء ثم يسمح لهُ بان ينذر نذراً بهِ يريد ان يعمل العمل الافضل وبعد ذلك يمكنهُ ان يسمح لهُ بان ينذر هذا النذر لاجلٍ مسمّى وتحت طائلة الخطاء الخفيف لا غير اخيراً لهُ ان يحدد المدة وان يضيّق بالزام النذر ولكن مع كل ذلك لا يسمح لهُ بالنذر المؤبد بل لو طراء صعوبات غير عادية على حفظ هذا النذر يسوغ للرئيس ان يفسّح فيهِ كما لو حدث شغبٌ او توانٍ من قبل الرئيس او حدثت حروب وما شاكل ذلك

٣ً ما الفائدة من هذا النذر

اولاً ان الانسان بهذا النذر يقضي على نفسه قضاء مبرماً بان يكون اميناً في خدمة الله بكل اعماله كبيرة ام صغيرة خطيرة ام حقيرة · وبان يحب الله بكل قوته محبة فعالة لا تنفك عن العمل والتقدم وبذلك يشعر براحمه تعالى التي تساعده على حفظ الوصايا الالهية وعدم الاخلال بشيء من واجبات دعوته

ثانياً انهُ بهذا النذر يحرّم على النفس التمتع بشواتها الجسدية ويساعدها في الانتصار على الاميال التي قلما تنطفيء حرارتها من الطبيعة مهما تسامى الانسان في الفضيلة · ويكفّر ايضاً عن الزلات الماضية ويتقي المستقبلة

وبهذا النذر يمكن ان يربح الانسان في دقيقة واحدة استحقاق حياة طويلة لانهُ من حيث هو غير متاكد طول حياته ويخاف من ان الموت يسلب منه الوسائط التي تمكنه من تمجيد الله مدة طويلة يقدم لله بهذا النذر ضحية ارادته التي تشمل كل اعمال الحياة مهما كانت شاقة وطويلة

٤ً أليس في هذا النذر ما يمنع حرية العقل والقلب

كلاً اذا كان النذر مفعولاً بمقتضى الشروط المطلوبة · قال الاب لاكولومبير : اني لا اخاف ان يسلب مني هذا النذر راحة الضمير ولا ان يجعلني سبباً للعثار لانهُ كما قال المرتل كلما احب الانسان شريعة الله شعر براحة ضمير وطمانينة نفس · وعلى هذا النحو ترى شدة العناية بحفظ الصغائر من القوانين تولي النفس تمام الحرية والحال ان هذا النذر يساعد على العناية بحفظ القوانين كل المساعدة لا من

حيث انهُ يبعدنا عن وساوس الخطية فقط بل من حيث انهُ يحمله تعالى على ان يغيثنا بفيض النعم · ومن ثم فان مجرد التفكر في هذا النذر يوعب قلبي فرحاً وابتهاجاً لانني اتوسم فيهِ الحرية والسلام وسهولة الحصول على السعادة التي نبتغيها ونجدّ في طلبها (كتاب رياضاته)

عدد ٣

في كم يفيد الراهب ويجدر بهِ ان يعوّد نفسه ممارسة العمل الافضل

فلنتذكر اولاً الفوائد التي تنجم عن هذه الممارسة — النجاة من الخطاء الاختياري لان من يكون قد ابرز هذا النذر لا يبقى عليهِ ان يميز في اعمالهِ بين الصالح والطالح بل بين الحسن والاحسن لا غير — التخلص من كل ميل الى النقائص لان الانسان بهذا النذر يقصد ان يبتعد عن الخطية حتى ظلها — نقاوة النية ومطابقة الارادة مع الارادة الالهية والعناية بحفظ الصغائر لان من يكون قد نذر هذا النذر يتحتم عليهِ الاجتهاد في ان يؤَدي لله اعظم تمجيد — الحرارة في العبادة والتيقظ الدائم في استحضار الله لان صاحب هذا النذر لا يبرح من بالهِ ان يطلب رضى الله في كل حركاته وسكناته — إماتة مستمرة بقمع الاهواء المنحرفة — غيرة فعّالة · لان الله عزّ شانهُ يجازي عادةً حتى في هذه الحياة فضيلة الذين يكرسون ذواتهم لهُ تكريساً مطلقاً — سرعة التقدم في الفضيلة حتى اسمى درجاتها وذلك بسبب عادة استعمال الفضائل كلها : — الغنى الوافر في الروحيات للتكفير عن الذنوب ولحشد كنوز الاستحقاق — اخيراً نقول ان ممارسة العمل الافضل انما هو اين طريق موصلة الى الخلاص لانها تبعد عنا اخطار الهلاك وترقينا بسرعة الى قمة الكمال · وبالنتيجة ان ممارسة هذه الفضيلة تعود علينا بكل الخيور الروحية · ان القديس اغناطيوس كان يهتف غالباً ويقول ان كسلنا لفظيع لاننا نرى في دور الملوك ضباطاً وقواداً اشد تهالكاً بخدمة مواليهم منا بخدمة مولى الموالي · ويا ما اقل عدد اولئك الذين يستفيدون من دم السيد المسيح المِراق لاجل خلاصهم وهم قادرون ان يجنوا منه كل الفوائد · ويا ما اقل الذين يفقهون ما كان عساه تعالى ان يعمل في امر

تقدمهم ونجاحهم في الفضيلة لو سلّموا ذواتهم الى نعمته تسليماً مطلقاً . وكان يقول ايضاً ان عملاً واحداً كاملاً يرضى الله ويقدّم فاعله في الكمال اكثر من الف عمل غير كامل . وان العابد الحار يتقدم في طريق الكمال بخطوة واحدة اكثر مما يتقدم الفاتر في سنين عديدة

انهُ لمغبوط اذن ذاك الراهب الذي يعرف كيف يضحّي ذاته لمجد الله بنوعٍ سامٍ . ولاجل غاية منزهة عن كل شائبة لانهُ بذلك يحوز نعماً جمة مع سلامة القلب ومحبة الروح القدس والطمأنينة في امر الخلاص وفوق هذا فان الله يفيض في قلبه روح الغبطة والتعزية

ومغبوط ايضاً الرئيس الذي يرى بين جماعته رهباناً متصفين بهذه الصفة لانهم يكونون بين اخوتهم قانوناً حياً ومثالاً للفضيلة ويستمطرون عليهِ وعلى جماعته غزير البركات

[الكتاب السابع]

في الصبر على المحن والمضادات

الفصل الاول

في انهُ لا بد للرئيس من ان يصادف شيئاً من المضادات

عد ١

١ً انه لا السيد المسيح نفسه ولا اعظم القديسين حكمة امكنهم ان يرضوا كل الناس واذا حاول احد الروءساء ان يرضي الجميع فاننا نوجه اليهِ قول احد العلماء الذي قال: هل انت اوفر حكمةً من الله تعالى الذي خلق الملائكة فعصاه الثلث منهم وتمردوا عليهِ . وسن للبشر شريعة فخالفها اكثرهم وبالتالي ارسل ابنه لافتقاد العالم فاماتوه . وهكذا اذا اشرق شمسه طلب بعض الناس المطر واذا ارسل المطر طلب البعض الآخر الصحو ومن تراه راضياً بكل ما ترسله اليه العناية الربانية . وبالنتيجة هل لنا ان نتوقع حكماً اعدل واحكم من حكم الله تعالى ؟ ومع ذلك نرى الاكثرين غير راضين منهُ كل الرضاء » اه

ولعمري هل انت احكم من السيد المسيح انهُ كان مع كل حكمته اذا آكل الخطأة قيل عنه انهُ أكول شره واذا اتى بمعجزة قالوا انهُ مستخدم للارواح الشريرة . واذا جاد بتعليمه وادهش قالوا انه مشعوذ مضل . وبالنتيجة انهُ ما اتى بعمل وارضى بهِ الجميع

او هل انت احكم من البتول مريم فقد عرفت وتحققت ان خطيبها القديس يوسف كان قد وقع باعظم حيرة لما شعر انها حبلى ولم يكن بعد عالماً بحقيقة السر الأ انها مع ذلك لم ترَ ان تبيّن له الحقيقة ولا ان تخفيها عنهُ لانها كانت ترى ان بتبيانها خلافاً لامر الله الذي لم يكن اذن بذلك وباخفائها حيرةً وعذاباً على رجل

الله الكلي القداسة ولذلك لجأت الى العناية الربانية لتغيثها وتغيث رجلها في تلك الضيقة . اه

جاء في اعمال الرسل ان القديس بولس اراد ان يترك في انطاكية يوحنا مرقس لانه كان أبى ان يذهب معه الى اورشليم اما رفيقه القديس برنابا فاراد ان يبقي مرقس في صحبتهما وقد اختلفا لذلك وذهب كلٌّ في طريق

وقد جاء عن القديس برزدوس انهُ أُعطي قوةً لاجتراح المعجزات ولكنه لما كان يُقدم على عمل معجزة كان خاله واخوه يقولان لهُ انك رجل متكبر ولا بد من ان تهلكك الكبرياء اه واذا احجم عن عمل المعجزات كان الرهبان يقولون لهُ: « يامعلم انك تخفي وزنة سيدك وتحرم الرهبانية خيرًا وفخرًا يمكنك ان توليها اياها بسهولة . فانك بصنيعك هذا تحزن قلوب اخوتك الرهبان والملائكة ايضاً اه

وقد حدث خلاف بين القديس ابيفانوس والقديس يوحنا فم الذهب على ضلال اوريجانوس فقال الاول انا لا يمكني ان احتمل الاراطقة اما الثاني فقال: ينبغي ان تميز بين الارطقة عن ذنب والارطقة عن غير ذنب» فقال اذ ذاك القديس ابيفانوس « اني اراك تميل الى اوريجانوس فاجابه فم الذهب « اما انا فاراك تميل الى مخالفي الحقيقة . فاغتاظ لذلك ابيفانوس وقال لفم الذهب : انا راجع الى كرسيٍّ ولكن اقول لك من قبل الرب انك لن تموت في القسطنطينية بل في المنفى فاجابهُ فم الذهب وانا اقول لك انك لا تصل الى كرسيك بل تموت مثلي على الطريق وانت مسافر في البحر فهذان الرجلان قديسان وقد تنبئا الاَّ انهما قد اختلفا وكل محق بدعواه من وجه ومخطئها من وجه آخر

عد ٢

في ان اختلاف الطباع وسوء الظن لا يدعان احدًا يُرضي الجميع

ولعمري ما العمل عندما يسألك الكثيرون امرًا لا يمكنك ان تهبه الاَّ لواحد فقط . او سألك الناس ما يغيظ الله او لامك البعض على عمل لا تقدر ان تبوح باسبراره ولا بما حملك على صنيعه وهكذا القول عندما تكون المذاهب مختلفة والمصالح متناقضة

الاَّ ترى بين الناس قوماً شجعاناً لا تقعدهم الاخطار ولا الموت · وقوماً جبناء يسقطون تحت ثقل ذرة من الرماد ويقعون لو عثرت رجلهم بوريقة من عشب ؟ · وكذلك من الناس من تكون اخلاقهم راضية وديعة لا يرغبون الا في المسالمة والمساهلة وغيرهم ذوو اخلاق فظة قاسية لا يهوون الاَّ المقاومة والمعاندة ومنهم من يكونون ذوي فطنة وحكمة لا يبدون عملاً الاَّ بعد التروي والتدقيق ومنهم حمقاء ناقصو الحجى يتهورون في كل اعمالهم ويتهافتون على فعلها تهافت الفراش على النور · هذا خفيف وحاد الطباع وذاك ثقيل بارد · الواحد سامي العقل والمدارك يُحلّق بافكاره كالنسر في طيرانه والآخر بليد يزحف على الارض كالسلحفاة فكيف يتأتى لك والحالة هذه ان تُرضي جميع الناس

ثم لو قدَّرنا انك توصلت الى ارضاء الداخلين في جماعتك فمن اين لك ان ترضي الخارجين ؟· ثم لاحظ الداخلين انفسهم الا ترى ان منهم من لا يشغلهم شاغل عن التنقيب في اعمالك والتنديد بها ومنهم من يعميهم العجب بذواتهم ولا يدعهم يستحسنون عملاً لم يكونوا الشارعين بهِ حتى ان الفضيلة والبرارة تكونان في اعينهم ثقيلتين وممقوتتين · وهل من رادع يردعهم او يثنيهم عن غواياتهم ؟ او هل من برهان ساطع او حجة قاطعة تبيّن لهم حقيقةً لم يريدوا ان يذعنوا لها ؟ كلاً ولا يهمهم التهور في الظلام بشرط ان يعملوا ما يعنُّ لهم · واذا كانوا كذلك فانَّى لك ان ترضيهم

قال القديس بطرس داميانوس: «الهي اي صبرٍ لا يضطر لهُ الرئيس وهو عليهِ ان يحمل ثقل اخلاقٍ مختلفة ومتباينة فاذا كان من اهل العمل وتعاطى اشغالاً خارجة قالوا انهُ جوَّالة لا يعرف الخلوة ولا الحياة الروحية الداخلية · وان احب الخلوة والاعتدال قالوا انه قصير المعرفة وليس في وسعه ان يدبر الامور الخارجة الروحية وان اظهر شيئاً من الصرامة القانونية قالوا انهُ قاسٍ محبٌ للانتقام وان ابدى اللين والملاطفة قالوا انهُ جبانٌ ضعيف · واي الناس لا يرى ان الصواب في رأيه وانهُ حقيق بان يتبعه الجميع وليس عليهِ ان يتبع احداً ؟» ·

والامر العجيب كما قال العلّامة بوفيس هو ان ذوي العقول الثاقبة والاذكياء هم المتشبثون بآرائهم والمتعنتون بزيادة على غيرهم وقد ترى فيهم رغبةً في اماتة

شهوات كثيرة ما عدا طبـاعهم الفظة وميلهم الشديد الى التنديد فانهم يهتمون باماتتها وكأن المطيع يستثقل نير الطاعة ويروم تخفيفه في طعن اللسان والغيبة · او كأن عدو الخير خزاه الله لا يـكل من زرع الشقاق بين الرئيس ومرؤوسيه · فكلما اجتهد واحد في البناء اجتهد الاخرون في الهدم ·لان الطبيعة تأبى الخضوع وتجد في الاستبداد اشد اللذات اه

وقال ثريتموس : « من النادر ان تجد رئيساً يرضي مرؤوسيه لانهُ في الغالب معرض لسهام قدحهم وتنديدهم وهكذا قلما يرغب في امرٍ لا يأبونه وينكرونه عليه · اه

عد ٣

في انهُ كل رئيس اراد اصلاح الشوائب في مرؤوسيه عرّض نفسه للقدح والطعن

في الحقيقة انهُ اذا اراد الرئيس ايقاف الشهوة ومقاومة الضلال استهدف لرد السهام عليه ·قال القديس اغوسطينوس : ليس امرٌ سهل ان تجد رجلاً يحب احتمال التوبيخ ·واين رجال العصر من ذاك الذي قال فيهِ الروح القدس : «وبخهُ فيحبك»وقال هذا القديس نفسهُ في محل آخر « ان الاثيم يبغض البار لانه لايرضى بنفاقه وقال ايضاً« ان الاسقف لا يكون صالحاً في عين المنافق الاّ اذا سكت عن نفاقه »

وقد كتب القديس بولس الى الرومانيين قال : « ان امكن سالموا جميع الناس قدر ما تستطيعون »(ف ١٢) والى هذا القول اشار القديس غريغوريوس البابا اذ قال : « ان الرسول عارف بانهُ غير ممكن للصالحين ان يعيشوا بسلام مع الاشرار ولذلك قيّد كلامه بقوله « ان امكن » وقال ايضاً لمكسيموس اسقف سولونيا « كن على تمام الثقة انهُ يستحيل على الانسان ان يرضي الله والاشرار معاً ولذلك كل ما كان مقبولاً لدى الله هو ممقوت عند الاشرار «

قال القديس برنردوس : « ان من القضايا الثابتة ومرجعها واحد هاتين القضيتين

وهما ان من يرضي الصالحين لا يكون الأ صالحاً : ومن لا يرضي الاشرار لا يمكن ان يكون شريراً »

وقد كتب الى الاباء المجتمعين في سواسن لاجل اصلاح احد الاديار المنتمية الى رهبانية القديس مبارك قال : « انهُ لمن المستحيل ان تُدخلوا الاصلاح هذا الدير او ترجعوا اليه العادات القديمة في حفظ الرسوم والقوانين بتدقيق بدون ان تهيجوا ضدكم خواطر بعض الرهبان الذين تعودوا الفتور والتواني لان الاصلاح يزعجهم ويشككهم ايضاً غير ان شكهم لا يكون الأ فريسياً · ولذلك لا ينبغي ان تعبأوا بهم لانهم عميان وقادة عميان بل اهتموا بخلاص السذج وانبذوا عنكم تمرّد الخبثاء · وما العمل في شفاء مريض يأبى كل علاج · فمن الحكمة ان تنظروا الى احتياجاتهم لا الى ارضاء رغائبهم المعوجة · وبما انهم لا يريدون ان يتقدموا في واجباتهم الروحية فعليكم ان تدفعوهم اليها ولو بشيء من الاكراه والقوة · واني لعالم انكم لا تبلغون هذا الوطر الأ باحتمال المقاومة والاضطهاد ايضاً ولكن تقووا ان بهذا اجركم وشرفكم اهـ (رسالة ٩١)

وقد كتب القديس ايرونيموس الى القديس اغوسطينوس قال : « ان الكاثوليكيين باجمعهم يحبونك ويعتبرونك ولكن ما يوليك مجداً وفخراً افضل هو كون الاراطقة يكرهونك اعظم كره · واظن انهم لا يكرهوني اقل منك وانهم ان لم يُقدموا على قتلي وقتلك فليس ذلك عن عدم ارادة منهم اهـ (رسالة ٨٠)

ان الطوباوي بطرس فورنيه لما ألحّ عليهِ اباء رهبانيته بقبول الرئاسة العامة ابى معتذراً وقال ١ً اني اشعر بذاتي عدم الجدارة لهذه المهمة ٢ً اني بقبولي على ذاتي عناء هذه الخدمة اعرّض نفسي لخطر الهلاك ٣ً اني بذلك اخسر محبة الأكثرين وافقد اعتبارهم لاني اضطر لان اتشدد في حفظ القوانين وهذا لا يرضاه الجميع اهـ (كتاب حياته)

ولعمري ان في هذا الامر لاكبر حيرة لان الرئيس إمَّا انهُ يتشدد بحفظ القوانين والرسوم او لا · فان تشدد اغاظ الأكثرين من رهبانه وان لم يتشدد اغاظ الله تقدست اسماؤهُ

عد ٤

في ان الرئيس معرَّض لنكران الجميل من مرؤوسيهِ مدة رئاسته وبعدها

قال غراسيانوس ان الثقة بدوام عرفان الجميل لضرب من السداجة لان نكران الجميل امرٌ عادي عند الاكثرين . الا ترى كل احد بعد ان يكون شرب من العين يوليها ظهره ؟ وبعد ان يكون عصر الليمونة يطرح قشرتها على الارض ؟ وهكذا على ما قال تاسيت ان معرفة الجميل حملٌ لا يهوى الانسان الاَّ خلعه عن منكبيه اه

ويوحنا لوقا احد الرهبان الصغار كان ينصح الرؤساء ثلاث نصائح بها يستطيعون ان يحافظوا على سلامة الضمير وهدوء البال . وهي قوله ١ً استشر في كل اعمالك ٢ً لا تسرع في توبيخ المذنب ٣ً لا تنتظر جزاء اتعابك الا نكران الجميل . وقال مودست دي سانت امابل ان الرئاسة تظهر لك باسمةً ضاحكة وانما ذلك رياءٌ وخداع لكي تحملك على محبتها وطلبها لانك لا تكاد تتولاها حتى تقدم لك التعب عوضاً عن الراحة التي كانت تعدك بها والعبودية عوضاً عن السيادة وحينئذٍ ترى ان تمليقاتها ما كانت الاَّ بقصد ان تلقيك في اعظم الشدائد اه (الرئيس الكامل ك٢ ف٤) وقال ايضاً (ف ١١) « قبل ان تكون رئيساً ترى انك معتبر ومحبوب من جميع مرؤوسيك فاذا تقلدت الرئاسة ترى الاكثرين يبتعدون عنك وكأنهم ينبذونك خلف ظهورهم وغيرهم يقومون عليك ويخاصمونك والاغرب انك ولو غاليت في اعزاز احد الرهبان ومحبته واتفق لك ان قلت لهُ كلمةً مرَّة تخسر كل ما لاطفته بهِ وتصير عنده نحساً وبلاءً

والخدم الخطيرة التي تكون خدمت بها الرهبانية لا تجد من الرهبان الاَّ النزر القليل يعترف بها اما الباقون فلا يذكرون لك الاَّ ما فرط منك ضدهم ولو حباً بخيرهم واصلاح حالهم . واذا فاه البعض بالثناء عليك امتعض البعض الآخر واجمعوا على هجوك ولومك . اه

ولعمري ان شجون الرئيس واحزانه لعظيمة لانهُ يرى ان نياته الصالحة تُعدّ شريرة واتعابه المتواصلة تلاقي المنافرة والمعاكسة . وهو حباً بالقيام بحقوق الرياسة يهتم

غاية الاهتمام بنجاح مرؤوسيه ولكنهُ بعد ان يكون بذل قصارى الجهد في النصح الودي والحض الابوي على الاقلاع عن بعض الشوائب يرى الاكثرين مكابرين على عاداتهم السيئة فعندئذٍ كيف لا يتولاه الكدر والقنوط فهو نار مشتعلة ولا يرى حوله الا جليد اليبوسة والاصرار على الخطاء · واذا سأل نفسه في كل مساء او في كل اسبوع او كل سنة ماذا عملت لحد الان واي خير جنيته للرهبانية من حيث تقدم رهباني في معارج الفضيلة يسمع صوتاً من داخل ضميره يقول لهُ انك لم تعمل الا قليلاً جداً او لم تعمل بعد شيئاً فحينئذٍ يبدأ يلوم نفسه بقوله اني اخطأت في اخذي الخطة الفلانية وربما لو اتخذت غيرها لنجحت وهكذا يأخذ ضميره بان يقلق ويتسجس وربما بلغت بهِ شجونه الى شيء من القنوط واليبوسة ولاسيما اذا ما لحظ ان كثيرين من الذين كان يرجو فضلهم وفضيلتهم يبدون لهُ الفتور والغلظة

اما بعد نزولك عن منصة الرياسة فتهيأْ لما هو امرُّ مما تقدم لان كثيرين يرومون ان يثأروا لنفوسهم منك عمَّا احتملوه في مدة رياستك من الضغط وقمع الحرية فيبدأون في التنديد بكل اعمالك ويظهرون الفرح بنزولك عن منصة الرياسة والابتهاج بقيام خلفك عليها

فمثل هذه المعاملة الدالة على الخيانة ونكران الجميل كانت تظهر للقديس يونا ونتورا نفسه من امرّ ما يعرض للرئيس من الامتحانات · ·

وموسى النبي الذي امتاز بوداعته هتف الى الرب قائلاً : « ابتليتَ يارب عبدك · · حتى وضعتَ اثقالَ جميع هولاء الشعب عليَّ · · · والان ان كنتَ فاعلًا بي كذا وتلقي عليَّ كل هذا الحمل فاقتلني ان حظيتُ في عينيك ولا ارى بليّتي » (عد ١١)

وعلى ما اخبر المؤرخ بيتاركوس ان أشد قصاص كان يتمناه البابا ادريانوس لمبغضيه انما هو ان يصيروا يوماً باباوات وهذا نفسه كان يشتهيه سينكا الفيلسوف اي ان يصير اعداوه ملوكاً وكان يزيد على هذا مبداء آخر وهو ان من اراد ان يتسلط على الناس يجدر بهِ ألاَّ يحفل ببغضهم ولا بامتهانهم لهُ ولا بتنديدهم بهِ اهـ

الفصل الثاني

في الفوائد التي يجتنيها الرئيس من المقاومات

عدد ١

في ان المقاومات تكون للرئيس ذريعة بها يجتني نقاوة النية والتيقظ في كل اعماله

لقد كان سهلاً عند الله جلّت حكمته ان يبلّغ الاسرائليين امانيهم بوصولهم الى ارض الميعاد في وقت قصير بعد خروجهم من مصر ومع ذلك لا نراه تعالى عمل كما تقدم بل انهُ تقدَّست اسماؤه سمح للشعوب الغريبة ان تتصدَّى لهم في مسيرهم وقلما تقدموا خطوة بدون كفاح ونزال

انك تقول مرَّاتٍ لله تعالى: يارب انا احبك من كل قلبي ومن كل نفسي ومن كل قوتي وهو جلَّت احكامه يريد ان يمتحن صدق وعودك هذه وامانتك ولذلك يوليك سياسة رهبانٍ عتاة وغير مدرَّبين على الحياة الروحية· ولعمري ان كنت تحبه تعالى محبة خالصة حارَّة فلا يشقّ عليك ان تتحمل هؤلاء الرهبان حبًّا بوجههِ الكريم · نعم ان مثل هؤلاء الرهبان لا يستحقون الملاطفة ولا المساهلة ولكن الرب يسوع يستحق اكثر من ذلك لانهُ مثلما يحتملك ويساعدك بكل نوع على امر خلاصك يطلب منك ان تحتمل لاجل اسمه القدوس اخوته هؤلاء الصغار ·

قال بالتازار القارس ان الرئيس مجبر من قِبل مهمته على ان يخدم مرؤوسيه حبًّا بالله خدمة العبد لمولاه وليعلم انه بقدر ما يظهر لهُ مرؤوسوه من قلة الامتنان لخدماتهِ ومن نكران الجميل او الخيانة فيكون بذلك حظه امام الله اوفر واعظم لان تلك الخدمة تكون اذ ذاك مجرَّدة لمجد الله ·

وعليهِ فكل خدمة نقدمها لراهب منكر للجميل تكون فعل محبة محض

للعزة الالهية · وبعكس ذلك لو قدَّم لك الرهبان كل ما عليهم من الاكرام والاجلال والمحبة فيخشى انك ترضى بذلك وتقبل كل اجرك هنا · ولذلك يجدر بك ان تقابل الاساءة بالاحسان والامتهان بالاجلال والبغض بالمحبة ·

قال غراسيانوس : « ان الحكيم يستفيد من عدوّهِ اكثر ممَّا يستفيد الجاهل من صديقهِ · ألا ترى ان الحُسَّد يحملون الانسان على العمل واحتمال المشاقّ بنشاط امَّا الملَّاقون فيحملونه على الرخاء وحب البطالة · فان العاقل يتخذ الحُسَّد كمرآة بها يرى نقائصه ويجتهد باصلاحها بمقدار ما يجتهد الحسود بان يتعقبه ويعدّ شوائبه · وقال في هذا المعنى ساودرا : « فوأن كان التذمّر بذاتهِ شرًّا الّا انهُ للجماعة خيرٌ وفائدة · لان مثله مع الاقوياء والمتسلطين مثل الحكَمة مع الفرس الجموح »

قال سينكا الفيلسوف : لا يصير احدٌ ذا فضيلة راهنة ما لم يكن لهُ صديق امين وعدوٌّ عظيم ·

وقال بهذا المعنى القديس ايرونيموس قولاً يشير الى حقيقة روح الديانة المسيحية وهو اذا شئنا ان لا يجد عدوّنا ما يشكونا بهِ فلنبتعد عن كل ما يمكنه ان يوقع في ذهنهِ الريبة بنا والظنة وبعد ذلك يُسدّ فم الوقح ولا يقول ان في أشعة الشمس ظلاماً ·

ومن المقرر بداهةً ان في المقاومات للرئيس رادعاً لهُ عن اتباع اهواء الطبيعة الفاسدة · وممَّا جاءَ عن القديس اغناطيوس قوله المشهور : « وقانا الله من تنديد العدو بنا تنديداً صادقاً » · اه

عد ٢

في ان المقاومات تفتح للرئيس سبيلًا لاقتناء التواضع وبغض الوظائف

من المبادىء المقررة انهُ لا يصلح للرياسة الَّا من كان يخاف عبثها وكان مستعدًّا للعزلة عنها متى شاءَ الله · لانه كما قال القديس اغوسطينوس كلما كانت الرياسة سامية كان الخوف منها اعظم · ألا ترى ان السقوط من مكان شاهق اعظم خطرًا منه لو كان على الارض المنبسطة · ولذلك كما انه يجدر بمن كان

سائراً في طريق عالية خطرة ان ينزل الى اسفل كذلك يجدر بمن يتيه كبراً وعجباً في علو مقامهِ ان يطلب الدعة والاتضاع ولكن يا للعجب من اميال الطبيعة فان الذي لا يكون بالامس قبل الرياسة الاّ مرغماً بقبولها تراه اليوم مسروراً بها مستعذباً لها ومتمسكاً باهدابها أيَّ تمسك وتراه ينفر ويشمئز من مجرَّد التكلم عن تركها او عن نهاية مدَّتها وهو بعد ان كان يعتقد عدم اهليته لها صار يدَّعي الان سرّاً وعلناً انه الاجدر بها والاليق لها من كل وجه ·

اما العناية الربانية فترسل لهُ حيناً بعد حين من المقاومات اعظمها ومن الشدايد أمرَّها ليرغب في العزلة وينفر من اعباء الرياسة

ان من يحملق في الشمس يبهر من ساطع نورها فلو صفعه احد وثناه عن هذه الحملقة لاراحه وانقذه من فقد البصر · وهذا مثل كثيرين من الرؤساء الذين يعمون من شدَّة تفرّسهم في مجد الرياسة فيفتقرون الى ان يأتيهم ملك النار كما قال الرسول ويصفعهم رادعاً ايَّاهم عن الانشغاف بحب الرفعة فيستفيقون لذواتهم ويرون ما في الرياسة من المشاق والاخطار ·

ولعمري انها لسنّة عامة ان يكون لكل انسان شيطان يصفعه · فهوذا السيد المسيح نفسه صُفع بنوع ما من يهوذا الغاشّ والفريسيين · وساداتنا الرسل صُفعوا اي صفعٍ من المضطهدين والاخوة الكذبة · وداد من ابيشالوم ابنه ويوسف من اخوتهِ واسحق من اسمعيل وهابيل من قايين ورئيس الملائكة ميخائيل من سطنائيل · ولذلك السبب هتف القديس بولس قائلاً : « ان الذين يريدون ان يحيوا بيسوع المسيح بالتقوى يجدر بهم ان يضطهدوا »

جاء عن القديس فرنسيس الاسيزي انهُ بينما كان يتفاوض مع احد الاخوة المسمى لاون في شأن التواضع قال : « لو قدَّرنا ان استدعاني اخوتي الرهبان الى المجمع العام واظهروا لي كل اكرام واجلال والحّوا عليَّ بالرجاء ان اقف بهم واعظاً وانهم بعد نهاية الوعظ قاموا يقولون بصوت واحد لا نريد ان تترأس علينا بعد كفى ما تحكمت بنا كل هذه المدَّة وانت رجلٌ عارٍ من المعارف ومن الفطنة والدربة · وبالتالي اوسعوني شتماً واهانة فانا مستعد ان احتمل كل ذلك بروح الصبر الجميل والتواضع والفرح كما لو كانوا يثنون عليَّ ويقرظونني لاني ان لم احتمل

كذلك لا أكون راهباً صالحاً . وأردف هذا بقوله : « ان الرياسة مملوءة اخطاراً على امر الخلاص من جهة المجد الباطل الذي كثيراً ما يفقدنا ثواب اتعابنا او من جهة الصعوبة في سياسة الناس واكثرهم صعاب المراس في الانقياد . اما حالة المرؤوس فكلها دواعٍ للاجر والثواب ومن ثمَّ فاذا رفعوا عني الرياسة انجو من المسؤولية تجاه خلاص نفوس عديدة . اما لو بقيت حاملاً اثقالها فانا على شفير هاوية الهلاك . وكيف لا أُوثر ما يكون لي مجلبة النعم على ما هو معثرة ومزلقة للهلاك . اه

عد ٣

في ان في المضادات سبيلاً للرئيس الى احتمال القريب والصفح عن الاهانات

لما خرج شمعي للقاء داود وكان يرميه بالحجارة والشتائم قام بعض غلمان الملك يقولون لهُ دعنا نقتل هذا الكلب الذي يتقح هكذا ويلعن سيدي الملك . اما داود فقال لهم : « دعوه يلعن لان الرب قال لهُ . لعلَّ الربَّ ينظر الى مذلَّتي ويجزيني خيراً عن لعن هذا اياي اليوم » (٢ ملو ١٦) فلماذا لا تعتقد أيها الرئيس ان شمعيك هو ذاك الراهب فظ الاخلاق الذي لا يألو جهداً في مقاومتك واهانتك ؟ او لماذا لا تقول مع داود لعلَّ الله سمح بهذا لزيادة اجري وثوابي ومجدي في يوم القضاء ؟ قال القديس ليكوري : « ان النفس تستحق ثواباً في احتمالها بتواضع فعل اهانة اكثر مما تستحق في صيام عشرة ايام على الخبز والماء »

وقال الانبا اقيلا اننا لو قلنا « ليكن اسم الرب مباركاً » في وقت الشدَّة لاسدينا لهُ تعالى شكراً يفوق شكرنا لهُ فيما لو رتلنا الف مرَّة التسبحة المعدَّة لشكره تعالى في وقت فيضان مواهبه .

قال القديس برنردوس : « ان اول خطوة يخطوها الانسان في طريق الكمال هي ان لا يترفع فوق اقرانه . والثانية ان يكون طائعاً والثالثة ان يحتمل الاهانات بصبر » وقال في هذا المعنى سينكا الفيلسوف : « ان عمل المعروف مع اهل الصلاح لامرٌ شهيٌّ وعذب لكن عمل المعروف مع منكري الجميل امرٌ عسر وشاق . اما لو رأى الانسان انه مُبغض ومهان من آخر وواصل عمل المعروف

معه لاظهر بذلك انه من اصل ملكي او مشترك بالطبع الالهي » ولعمري ان من خصائص ابناء الله ان يبادلوا الشر بالخير · « لان من عمل المعروف مع اهله لا يكون افضل من وثني او عشار » (متى ١٦)

وبعدُ فان احتمال القريب والصفح عن عيوبهِ ومبادلته الشر بالخير انما ذلك كله من لوازم الحياة الاشتراكية وهو اشدّ لزوماً لحياة من يتقلدون سياسة الرهبان

ولعمري ما الحياة المشتركة غير صبر واحتمال متبادل لان ضعف الطبيعة والشوائب المنغرسة فيها لا تبارحها ابدًا · ولذلك نرى شيئاً عظيماً من هذه الشوائب في نفس الرهبان الذين بلغوا من الفضايل النادرة مبلغاً كبيرًا ونرى ايضاً ان معاشرة مثل هؤلاء الافاضل لا بدّ لها من فضيلة الاحتمال والقناعة · ومن أبى ان يحتمل نقائص قريبه لا يحق لهُ ان ينتظر منه احتمال نقائصه الخاصة

وبهذا المعنى حظ الرئيس اسعد من حظ كل راهب لانهُ متحتم عليهِ وحده ان يتحمل نقائص جميع الاخوة · وعنه يقال ما قيل عن القديس بولس : « انا أُريه كيف ينبغي لهُ ان يحتمل لاجل اسمي (اعمال ١١) فالرئيس اذًا على ما قالهُ بالتازر القارس هو اقلّ الناس حظاً في رأفة الناس بهِ وفي شفقتهم عليهِ كيف لا وقلبه دائماً مثخناً وقيذًا واوجاعه شديدة مرّة »

وفي رأي القديس فرنسيس سالس ان العلامة الوحيدة للفضيلة الراهنة انما هي احتمال التجارب فقد قال هذا القديس ما نصه : « ان النار الخفيفة تطفيها الريح اما النار القويّة فتزيدها الريح اضطراماً وكما ان مياه الطوفان اصعدت السفينة نحو السماء كذلك مياه التجارب تصعد النفس الى الله »

وكان من عادتهِ قدّس الله نفسه اذا قيل في حضرتهِ عن احد انه من اهل الفضيلة ان يسأل هل خدم هذا منصب الرياسة وهل كان لهُ اخصام ؟ فكأنه يشير بذلك الى ان الفضيلة الراهنة تقتضي مضض الرياسة · واذا قيل لهُ ان فلاناً من اخصامك يقدح بك بقولهِ عنك كذا وكذا كان يقول : « انهُ اذا لم يقل عني غير هذا فهو يرحمني او انهُ يجهل كل نقائصي ولومه هذا لا اراه صادرًا عن خبثٍ وحسد بل بالحري عن حبٍ وشفقة لانهُ بذلك لا يلومني كل اللوم الذي استحقه · ولعمري إمّا اني مستوجب هذا اللوم او لا فان كنت مستوجباً لهُ فيجدر بي ان

اصلح ذاتي والاَّ فاكون قد استوجبته في مرةٍ غير هذه ويجدر بي اليوم ان اكفّر عن ذنبي في الامس . وعلى تقدير ان ما يُقال عني لا يصدق عليَّ لا في الحال ولا في الماضي فيكون مع ذلك تنبيهاً لي لئلّا اسقط في المستقبل . وبعدُ فما هذا غير صليب قول لا فعل او هو صليبٌ خفيف مكون من حركات هوائية او طنين ذباب فكيف لا احتمله بصبر وفرح ؟

والقديس اغوسطينوس كان على هذه الحاسات لانهُ كان يقول : « ان خصومي ولو على غير معرفة يعينوني على التقرب من الله لانهم بمعاندتهم واهانتهم لي يحملوني على ان اطلب لهم المغفرة وهذا ما يحمله تعالى على ان يمنحني مغفرة ذنوبي وانا في اشد الفاقة الى ذلك . »

الفصل الثالث

في كيف يجب على الرئيس ان يسير في وقت التجارب

عدد ١

اذا اتت التجارب من قبل اهل العالم ينبغي للرئيس ان يتعزى ويذكر
ان هذا دأب العالم مع ذوي الغيرة الرسولية وليطمئن
ببسالةٍ لان الرب معهُ

يقول العلماء ان الارض ما كانت لتثبت لولا ما فيها من قوة التجاذب المختلفة . وكذلك سفر السفن في البحار لا يكون بدون حركة الامواج مداً وجزراً ومثل ذلك صحة الانسان فهي لا تقوم الاَّ بدورة الدم ومن ثم يظهر ان قوام الجمعيات المشتركة المعيشة انما تكون في دوام الحرب الروحية التي يثيرها الاضطهاد من وقتٍ الى آخر

الا ترى كيف تنبأ السيد المسيح على كنيسته اذ قال : « لابد من الشكوك » او هل وجدت الكنيسة في وقتٍ من الاوقات هادئة من حرب

الاضطهاد وشكوكه ؟ وما هذه الحرب الاَّ بين الضلال والحق او بين الشهوات المنحرفة والفضيلة او بين بني الشيطان وابناء الله ولعمري ما هذه الحرب الاَّ التي اثارها في السماء لوسيفورس على القديس ميخائيل وهي التي أُشعلت نيرانها في وسط الفردوس بين قايين وهابيل وهي التي بلغت الى قتل ابن الله على جبل الجلجلة ولا تنطفي نيرانها الاَّ عندما يقتل الدجال آخر واحد من الشهداء القديسين

وعليهِ فما حظ من يحارب الضلال والرذيلة الاَّ حظ السيد المسيح نفسهُ وحظ سادتنا الرسل او حظ الكنيسة المقدسة باجمعها

قال القديس فرنسيس سالس : « ان سياسة الانفس هي صناعة الصناعات فمن قام باعبائها قامت عليهِ المحن والشدائد · لانهُ اذا كان قيل عن السيد المسيح انهُ علامة الخلاف والاضطهاد فماذا يكون من امر جبلته ؟ واذا كان علت احكامه لم يخلص الانفس الاَّ باحتمال امرّ الشدائد والعذاب فأنّى لتلاميذه ان يتوصلوا الى هذا العمل الشريف بدون احتمال المشاق ؟ »

وللقديس غريغوريوس كلامٌ يملاء النفس التقية عزاء وتسليةً قال : « كما ان الاشرار ليس لهم حظ بشيء في السماء كذلك الصالحون لاحظ لهم بشي على الارض »

وقال احد الاباء الروحيين : « انهُ كلما كان العمل مجرداً لمجد الله كان عسراً ولا ينجح في انجازه الاَّ من كان مستنيراً بنورٍ سماوي لان كل ما كان لله او من الله كان مراً في بداءته وعذباً في نهايتهِ بعكس اعمال الشيطان التي تكون عادةً عذبةً في البداءة ومرةً في النهاية · وعليهِ فكل عمل لا يصادف مقاومــة ولا صعوبة لا يمكننا ان نثق بهِ كأنهُ من الله · وبالعكس اذا رأيت العالم يقاومك ويضطهدك لاجل عملٍ ما فثق ان ارادة الله فيــهِ وان نجاحه يكون على قدر العناء والشقاء . »

جاء عن القديس اغناطيوس انهُ كان ذات يومٍ كئيباً كاسف البال ولما سئل عن سبب حزنه قال ان الرهبانية في الاقليم الفلاني فائزة بسلام دائم وراحة كاملة وان ذلك ليحزنني لانهُ علامــة عدم الرضا من الرب يسوع الذي لا يريد ان يشركنا بالآمه · الاَّ انه في اليوم الثاني ظهر باسماً فرحاً ولما سئل عن السبب قال :

« ان الرب يسوع ظهر لي في نهاية تأملي وقال لي ابشر يا اغناطيوس ان صلواتك الحارة قُبلت ورهبانيتك ما دامت موجودةً لا تنفك عن مشاركتي في احتمال الشدائد والاضطهاد

وهكذا كان القديسون يعتبرون الشدائد والاضطهاد كعلامةٍ لرضا الله عنهم ومسرته بهم . ولذلك لم نرهم قط قنطوا او جبنوا في مقاومة اشد التجارب بل كانوا دائماً يزدادون شجاعةً وبسالة

وكان القديس اغناطيوس يقول ان الملائكة لا يقلقون مضطربين ابداً كيفما كان حال نجاحهم بخدمتهم للبشر بل هم راتعون بالسلام على الدوام ولا يألون جهداً بالبحث عن طرق توافقهم على خلاص الناس وهكذا يجب علينا نحن ان نصنع . لاننا كما قال القديس بوناونتورا لا ينبغي ان نتأخر عن الجد في القيام بواجبات مهمتنا ولو لم نصادف في اعمالنا الاً المقاومات والمعاسفات . وقال الاب سان يورس ان العناية الربانية نفسها كثيراً ما لا تصادف في اعمالها مع البشر الاً التشكي والتذمر ومع ذلك نرى الله جلَّ جلاله يواصل اعمال عنايته على مقتضى الشرائع التي سنها منذ الازل .» فلماذا لا نقتدي بمثاله . والقديس فرنسيس سالس كان يقول اعمل عملك كما ينبغي ودع الناس يقولون ما يبدو لهم » ولعمري ما مثل من يهاب هذه المقاومات الاً مثل من يمتنع عن السفر صيفاً خوفاً من لسع الذباب »

قال دوم برتولي : « اني اروم ان أرضي الله والناس ولكن لو اتفق اني لا استطيع رضا الناس بدون اغضاب الله فاني ابذل النفس والنفيس في سبيل رضا الله وليقل الناس فيَّ ما شاءوا . وعليهِ فاذا رأيت المنددين يبالغون في تشكياتهم لا تعباء بهم فانهم يلاقون ما يستحقون من العقاب في الهوان وعدم الاحتفاء بمقالاتهم . واما انت فتجد تعزيتك في شهادة ضميرك وفخرك في مماثلتك معلمك الالهي الموسع الاماً وعاراً والمعلم ساودرا لما كان يريد ان يبيّن للملك تلميذه اهمية عدم اضطراب الملوك وسكينة النفس فيهم في حال الشدة والامتحان قال . « ان وجه الملك كالمرآة للشعب بهِ ينظرون فيهِ دواعي الفشل ودواعي البسالة وما مثل الشعب بذلك الاً مثل المسافرين بحراً الذين في حال اضطراب الامواج

ينظرون الى وجه الملاح ويأخذون من اماراته دلايل الخطر او الامان فهكذا جميع اهل المملكة يوجهون الحاظهم الى الملك ومثلما يرونه على ثبات جأش او على خوف يمتلئون شجاعة او جبانة · وقال ايضاً : « ان لم يستدرك الملك خوف الشعب ويبدده من قلوبهم يستولي الفشل على اهل المشورة فيضحي الكل آمرين ولا يبقى من يخضع للاوامر

ولسنا نريد بما تقدم ان نبعث الروساء الى القحة بداعي البسالة والغيرة لان ظروفاً كثيرة تقضي على الرئيس بان يعدل عن عزمهِ او أن يؤجله الى زمان · فان سادتنا الرسل لما طُردوا من اورشليم توجهوا الى اصقاع الوثنيين · والسيد المسيح نفسه هرب من وجه هيرودس وفرَّ مرات عديدة من امام اليهود · وهكذا فعل القديسون اجمالاً كل مرة امكنهم ذلك من دون الحاق ضرر بحق واجباتهم او بحق الايمان

واذا رأى الرئيس انه في ريبة من عدم امكانه انجاز العمل من جراء كثرة المقاومين او قوتهم ونفوذ كلمتهم عليهِ اذ ذاك ان لا يتقدم الى العمل الاَّ بهدوء وسكون لئلاّ يثير الخواطر عليه ومن ثم فليظهر للنـــاس كأنهُ يمتحن الامر ولا يريد ان يباشر العمل في الحال

فينتج من ثم ان محبة الصليب لا تمنع روح الفطنة ولا الاتكال عليه تعالى يحرّم اتخاذ الوسائط التي يرشد اليها العقل الصحيح والراي السديد

عد ٢

في انهُ اذا شعر الرئيس بان المقاومات والمنازعات تاتيه من قبل رهبانيات غير رهبانيته يجب ان يضاعف لهم افعال الملاطفة والاعتبار ويحذر كل كلام ينجم عنه حسد او بغض

قال احد الرهبان الافاضل الاب بيره « اننا نقر معترفين ان كثيرين من الرهبان يبتعدون عن العالم بالجسم اما بالروح فلا يبتعدون عن شوائبه · فانهم عوضاً عن ان يتشربوا روح المحبـــة من قوانينهم الخاصة يستخدمون القانون للتباعد والتباغض · فهم لا يرون في الرهبان الذين يُنتمون الى غير رهبانيتهم الاَّ خصوماً

ومنازعين ومن ثم يثقل عليهم ان تُعد لهم او تنسب اليهم اعمال خطيرة او غيرة او فضيلة · فيغضون عن الشر الذي تجب مقاومته ويقاومون الخير الذي يعمله هولاء الرهبان وما ذلك الاّ لانهم ليسوا من رهبانيتهم · فكانهم سامحهم الله يرون امتهاناً لرهبانيتهم وقوانينهم الخاصة في ان يعمل غير رهبانهم شيئاً من الخير والفضيلة · ولذلك يتجندون للقدح بهم وخفض شانهم في كل فرصة · وان لم يتمكنوا من القدح في اعمالهم يقدحون في نياتهم ومقاصدم بل ان روح البغضة يسّوغ لهم القدح في شخصيتهم وفي رهبانيتهم وفي معيشتهم ومسراهم وسائر اعمالهم · الى حد انهم يحزنون ويكتئبون لو سمعوا بنجاحهم ويفرحون لو علموا بمصابهم وبالنتيجة انهم انصار لخصومهم ومحبون لاعدائهم ولو كانوا من الاراتقة والمشاقين · وفي كل هذه الاعمال العدوانية الشيطانية يرون في انفسهم كانهم يحامون عن الحق ويحمون ذماره »

فاذا وجد الرئيس بين رهبانه من كانت هذه الحال حاله ينبغي لهُ ان يسهر عليهِ سهره على عدوٍ الد وان يحّظر عليهِ التجول بل يحبسه في غرفته لو امكن · ومن يكون عمل عملاً او قال شيئاً يهين ويغضب بعض الرهبان غير المنتمين الى رهبانيته يوجب عليـهِ رئيسه ان يسترضيهم بطلب المغفرة والصفح عمّا اقترفه في حقهم

وقد كتب في هذا المعنى القديس فرنسيس كسفاريوس الى احد اخوانه الاب غوصي ما نصه : « اني اوصيك وصيةً خاصة بان تظهر المحبة والبشاشة والرقة الى اخواننا رهبان القديس فرنسيس والقديس عبد الاحد · وان تنتهز كل فرصة ممكنة لتؤكد لهم اعتبارك وخلوصك الحقيقي التام · ولذلك ابتعد بكل جهدك عن كل ما من شأنه ان يزرع الشقاق والمباعدة · وابذل قصارى الجهد في ان يُقال عن رهباننا انهم ممتازون بروح الدعة والتواضع الحقيقي المؤسس على معرفتنا حقارتنا وضعفنا لان لنا بذلك اقوى مقاتل لروح الحسد والبغضاء والظنون الباطلة · واريد بنوع خاص ان لا تخفي هـذه الحاسات في داخل قلبك بل ان تبديها بالخصوص للاباء الممتازين بالفضيلة والمنزلة فاجتهد بان تزورهم زيارات حبية وانتهز الفرصة لتقدم لهم كل اعتبار واجلال · وبهذا تبعد عن افكار اهل

العالم ما يتوهمونه بنا من روح المغايرة والحسد والبغضاء (رسالة ٧٦)

وقد اخبر الاخ لاون رفيق القديس فرنسيس الاسيزي ومرشده ان معلميَّ القديس فرنسيس والقديس عبد الاحد كانا في كل فرصة يتخذان الوسائط الفعالة لتأسيس المحبة والمسالمة بين رهبانهما فكان كل منهما يتمدح من رهبانية اخيه ويستحلف رهبانه الخصوصيين بان يبالغوا في المحبة والاكرام لاخوانهم . وقال ان القديس عبد الاحد طلب بكل الحاح من القديس فرنسيس ان يعطيه زناره الذي كان مجدولاً من حبلٍ بعقد كثيفة . ولما حصل عليـهِ شدّ بهِ وسطهِ من تحت الثياب وكان يعتبره كرباط للمحبة والاعتبار مع القديس فرنسيس

هذا وان هومبرتوس رئيس الاخوة الواعظين العام ويوحنا بارم رئيس الاخوة الصغار العام كتبا الى رهبانهما في سنة ١٢٥٦ رسالة عامة قالا فيها ما نصه « انظروا ايها الاخوة الاحباء باي خلوص ينبغي ان يحب بعضكم بعضاً انتم الذين قد ولدتكم الكنيسة المقدسة بوقتٍ واحد وجعلتكم القوانين المتشابهة اخوةً حقيقين واقامتكم العناية الربانيـة في مهمة واحدة وهي تخليص الانفس وكم قد احب ابوانا القديسان فرنسيس وعبد الاحد والرهبان الاولون بعضهم بعضاً . وكيف كانوا يتبادلون عواطف المودة الخالصة . فهم بالحقيقة كانوا ملائكة السماء واحتملوا بعضهم بعضاً كما احتملنا السيد المسيح . فكان الواحد يفرح لنجاح الآخر وكانا يتساعدان في كل ما من شـأنهِ ان يبعد عن الرهبانيتين الشقاق والخلاف . اه

وقد رسمت قوانين اكثر الرهبانيات اجابة لرغائب الاحبار الرومانيين ان يسكن الرؤساء العامون في عاصمة الكثلكة رومه وذلك لاسباب كثيرة منها مراعاة المرؤوسين من جور بعض الرؤساء وسهولة المعاطاة مع المجمع المقدس وانتشار الرهبان في العالم الكاثوليكي باسره . والمحافظة على التعاليم الصحيحة . وبنوعٍ اخص لاجل المحافظة على روح المحبة والسلام ونشره بين الرهبان اجمعين اينما وجدوا في العالم كله لان سهولة المواصلة والمودة بين الاباء تؤيد المودة والمواصلة بين البنين

عدد ٣

في انهُ اذا كانت المقاومات ترد علينا من قبل كهنة الرعايا يجب ان يبرهن لهم الرؤساء بمثال رهبانهم انهم انما اقيموا خارج الاديار لمساعدتهم في خدمة النفوس لا غير

في اول مجمع عام عقده رهبان الاخوة الصغار اخبر بعض الرهبان ان كهنة الرعايا كثيرًا ما يمنعونهم لا عن اخذ الصدقة فقط بل عن القاء المواعظ ايضاً وان كل ما يبذلونه من الخدم والمعروف بوجه هولاء الكهنة لم يصادف قبولاً · فقام اذ ذاك القديس فرنسيس وقال: ايها الاخوة انما نحن مرسلون لمساعدة الكهنة في خدمة رعاياهم ولسد الخلل الذي يحدث منهم في بعض الاحيان · والاجر معد على قدر التعب · وتعلمون ان عملنا يكون مقبولاً لديه تعالى بمقدار ما يكون مفيدًا لخلاص الانفس وخلاص الانفس لا يكون بابتعادنا عن الكهنة بل بزيادة تقربنا منهم فاذا هم قاومونا فالله الذي قال « لي النقمة وانا اجازي » هو يقتص منهم بقدر استحقاقهم · ولذلك اوصيكم اخوتي بان تخضعوا للرؤساء الكنسيين وتحترموا اوامرهم وارادتهم لتنجوا من طعن سهام الحسد فحافظوا على السلامة واربحوا الشعب ورؤساءه وهذا افضل واحب على قلب يسوع مما لو ربحتم الشعب وحده وتركتم للرؤساء سبب شك · ومن ثم فالاجدر بكم ان تستروا نقائص خدمة الرعايا وتعوضوا عنها باتعابكم الخاصة مع محافظتكم على روح التواضع »(كتاب حياته)

وقد جاء في سيرة القديس اغناطيوس انه كان يطلب من الاباء المقلدين عمل الرسالة ان يبذلوا قصارى الجهد بان تكون غيرتهم ممتزجة بملح الفطنة بنوع انهم لا يدعون لاحد سبباً معقولاً للشكوى منهم · وكان قدس الله روحه يقول ان عندنا نوعين من العملة بكرم الرب · فالنوع الاول يبني ولا يهدم وهولاء هم الذين يمزجون غيرتهم بزيت الرقة ويعتقدون انهُ لا ينبغي فقط العمل بكل ما كان ممكناً بل بكل ما كان مفيدًا وغير محرم · ولذلك اذا رأوا في عملهم سبيلًا

للشك او لشبه الشك فانهم يحجمون عن العمل ويعتاضون بفعل الوداعة والتواضع عن اعمال الغيرة التي يكون قد منعها ذنب الاخرين . اما النوع الثاني فانهُ يهدم اكثر مما يبني . وهؤلاء هم الذين لا يلاحظون في اعمالهم الرسولية الاّ روح الغيرة والحرارة غير مبالين بما يمكن حدوثه من الشرّ لو اصرّوا على غيرتهم . ولذلك لا يرجون نفساً حتى يخسروا عشرة لانهم متى راموا شيئاً طلبوا انجازه ولو كان فيه خراب العالم . وهكذا يُبعدون عن الرهبانية اشخاصاً كانوا لها دعامةً قويّةً وسنداً مكيناً في تسهيل الطرق لربح الانفس . فمثل هولاء لما كان القديس اغناطيوس لا يقدر ان يرد جموح غيرتهم المتجاوزة لحدود الفطنة كان يبعدهم عن عمل الرسالة ويأمر برجوعهم الى ما بين اخوتهم الرهبان في الاديار »

واخيراً بكل أسف اقول انه لمن النادر ان يوجد في مكان واحد كهنة علمانيون خدمة رعايا ومرسلون قانونيون ولا يوجد بينهم شيء من الخلاف والنزاع لان عدو الخير لا يألو جهداً بان يوحي للفريقين روح الحسد والمغايرة ثم روح الشقاق والبغضاء . ولعمري ان العصمة من الخطاء ليست للبشر كيفما كانوا . فالقديس بولس كان يشكو من بعض الكهنة الذين كانوا يزاحمونه ويزعجونه في اعمال الرسالة . بل ان الرسل كلهم قبل حلول الروح القدس عليهم كان فيهم شيء من روح المغايرة والحسد

والقديس بوناونتورا في محاماته عن رهبانه الذين شكاهم البعض بانهم يمنعون او يأخذون الاحسان الذي كان يعطيه الشعب للفقراء قال : « لو شئنا ان لا نؤسس رسالة الاّ حيث يرضى خدَمة الرعايا الاكليروس العلماني لظننت باننا لا نجد محلّاً نضع فيه رجلنا . لان خدَمة الرعايا واوباش الناس الذين يهيجونهم علينا يطردوننا من كل مكان » (كتاب المحاماة)

ولعمري من اين لنا روح التجرد والترفع عن عوامل الطبيعة لنقول مع موسى النبي : « من يعطيني ان ارى الشعب كله يتنبأ ويتكلم بوحي روح الرب » ومع الرسول الذي قال : « كيفما بُشر باسم الرب يسوع فانا افرح واتهلل بشرط ان يُبشّر بهِ » ولما كان هذا الترفع والتجرد نادرين كان اجتهاد الاكثرين محصوراً في تحصيل مصالح خاصة . وهذا ما يدفع الاكثرين من رجال الاكليروس الى المباعدة

والمخاصمة فيرى من ثم كل منهم شريكه في اتعاب الرسالة نداً يزاحمه او عدواً يعتدي على حقوقه . ولعمري ان ذرة من روح التواضع والغيرة الرسولية والفضيلة الراهنة كانت تكفي لازالة هذا الشر ولكن اين توجد هذه الذرة الصغيرة

وهنا نذكر بعض الحجج والبراهين التي يمكن الرؤساء ان يقدموها لكهنة الرعايا فيما لو نشأ بعض النزاع بينهم وبين رهبانهم المشتغلين باعمال الرسالة في القرى والمدن

١ً ان الحبر الاعظم نفسه قد اثبت هذه الرهبانية بموجب قوانينها والاساقفة هم الذين يدعونهم الى ابرشياتهم كفعلة نشيطين تمس الحاجة في بعض الاوقات الى معاونتهم . ومن ثم فلا يُظن بهم انهم زيادة فضولية او دخلاء على كهنة الرعايا لازعاجهم او للتثقيل عليهم في اعمالهم الرعائية كلا ولكن رسالتهم قانونية مثبتة مثل خدمة كهنة الرعايا

٢ً في المدن الجامعة التي تحوى مثلاً نحو مئة الف نسمة ولا يوجد فيها اكثر من عشر خورنيات وهي تفتقر الى ما ينيف على عشرين خورنية فالمرساون يسدون هذا الخلل بواسطة كهنتهم وكنائسهم ومن البيّن لعمري ان كلما كثر الحصاد لزمت كثرة الحصّادين وغيرتهم على العمل . وان الذي يقوي العسكر ويشدد نظامه انما هو عدد القوّاد النشيطين العارفين بفنون الحرب

٣ً ان المرسلين القانونيين لما كانوا لا يشتغلون بتوزيع سرّي العماد والزواج كان لهم من الوقت اكثر من غيرهم لاستماع الاعتراف وللاستعداد للارشاد والمواعظ وكذلك بما انهم ليس لهم مداخلة مع ابناء الرعية بامور سياستها لا سبيل لهم الى المنازعة والمباعدة معهم وما عدا ذلك فان الاساقفة كثيراً ما يفوضون اليهم سلطاناً اوسع مما يفوضون الى سواهم ومن ثم يكونون اقدر من غيرهم على خدمة الانفس وارشادها الى طرق الخلاص

٤ً ان الكمال المسيحي الذي يلتزمه الرهبان القانونيون بموجب قوانينهم ورسومهم يجعلهم ان يتعمقوا اكثر من سواهم في درس الحياة الروحية ومن ثم تجد الانفس التقية من علمانيين واكليريكيين تتوارد اليهم بكامل الثقة للارشاد وقبول الاسرار

٥ً حيثما وجد المرسلون تجد اعمال المحبة والغيرة تنمو نموًا محسوساً وكذلك الاخويات الروحية والاعمال التقوية والرياضات العمومية تزداد تقدماً ونجاحاً ونرى شيئاً من الغيرة المقدسة بين كنائس الخورنية وكنائس المرسلين في حسن استعمال الرتب والاحتفالات الكنسية · ومن ثم يكثر عدد المتقدمين الى الاسرار المقدسة وينجو الكثيرون من توانيهم في الاعمال الروحية · وفي كل ذلك اعمال ظاهرة محسوسة لا ينكرها الحسود مهما اشتد حسده وبغضه

عد ٤

في رد اعتراضات كهنة الرعايا على القانونيين المقيمين بينهم

الاعتراض الاول: ان القانونيين ياخذون قسماً كبيرًا من الاحسان الذي كان معدًّا للمؤمنين الفقراء

ج · ان هذا غير صحيح لان الاحسان للمؤمنين يزداد بقدر ازدياد العبادة والتقوى ولما كانت هذه تزداد بوجود المرسلين وغيرتهم الرسولية كان الاحسان للمؤمنين يزداد كذلك

قال القديس بوناونتورا : ليس لاحد ان يمنع المؤمنين عن ان يصنعوا الصدقة مع من يريدون وبالاخص مع فعلة الكنيسة الذين بصلواتهم يضاعفون الخير على المحسنين ومن تراه يضلّل او يخطّيء مثل هولاء الذين يتبعون حركات التقوى الكامنة في صدورهم · أوَ هل لنا ان نشير عليهم بخلاف ذلك لو طلبوا مشورتنا ؟

ولنروينّ شيئاً مما قاله الرسول بهذا الصدد : ((أليس لنا حق بان نأكل ونشرب · · · ومن يقيم حرباً على نفقته · · · وهل عظيم ان نطلب منكم مؤونة الجسد نحن الذين نعطيكم قوة الروح · · · أو ليس لمن يخدم المذبح ان يعيش من المذبح اه

الاعتراض الثاني: ان وجود المرسلين في محل يجعل كنائس الرعايا غير آهلة بالمؤمنين فبهذا غلط ظاهر وضلال مبين لان غيرة المرسلين تزيد التقوى في نفوس المؤمنين وزيادة التقوى هي التي تجعل الكنائس آهلة

وهل من ضرر على كنائس الرعايا التي قلما تكفي لايفاء المؤمنين واجباتهم ان توجد كنائس للمرسلين تساعدهم على القيام باخص فروضهم الدينية ؟ وعلى فرض ان المؤمنين يؤمون كنائس المرسلين اكثر من كنائسهم الرعائية فهل من ضرر بذلك !

وربَ معترض يقول « ان في ذلك قلة مراعاة لوصية الكنيسة » فنجيب ان الكنيسة مع مزيد احترامها لكنائس الرعايا تأمر او تسمح باقامة كنائس للمرسلين ولا تُحظر على المؤمنين شيئاً من قيام فروضهم الدينية فيها الا المناولة الفصحية وكفى بذلك دليلًا على ان الكنيسة تعتقد ان وجود كنائس للمرسلين وسيلة لنمو العبادة والتقوى وللمنافسة في اعمال الغيرة الرسولية . ومن لا يرى ان في حجز حرية المؤمنين عن ايفاء واجباتهم الدينية واستعمال الاسرار حيثما شاءوا تضييقاً لطريق الخلاص وقد بذل السيد المسيح دمه ليجعل نيره طيباً وحمله خفيفاً . ورب قائل ايضاً : « ان في التراداد الى كنائس الرعايا بنياناً للقريب » فاجيب لو قدّرنا ان مزيد التراداد على كنائس المرسلين يقلل من اعتبار كنائس الرعايا فبنيان القريب يبقى هو هو ومجد الله كذلك ولنا حينئذٍ ان نقول لو قام اكليروس الكنائس الرعائية بواجباتهم حق القيام لانتاب المؤمنون كنائس رعاياهم باشد رغبة ولازداد مجد الله اضعافاً وتمتع المؤمنون بحرية ضمائرهم بان يقضوا واجباتهم الدينية حيثما شاءوا . واذا قال اخر : « ان هذا مما يمنع الراعي عن رعاية قطيعه » فنجيب ان الراعي الاول الشرعي انما هو الحبر الاعظم والثاني هو الاسقف والحال ان قداسة الحبر الروماني هو الذي يثبت الجمعيات القانونية والاسقف يدعوهم الى رعيته ومن ثم فالمؤمن الذي يتمم فرضه في كنيسة القانونيين يكون قد قام بواجب ضميره متبعاً ارادة رؤسائه الشرعيين وليس لكهنة الرعايا ان يتعللوا بسقوط سلطانهم لان لهم وحدهم ان يوزعوا الاسرار المختصة بالخوارنة مثل سر العماد والزواج والمسحة وغير ذلك مما يختص بوظيفة البطراشيل

وبالنتيجة نقول : ١ً سعيدة هي تلك المدينة او القرية التي يحل فيها المرسلون لان اسباب الخلاص تتوفر فيها من كل وجه

٢ً ياما اجدر كهنة الرعايا بان يُسرّوا ويفرحوا بحلول المرسلين عندهم لانهم

فيهم اقوى مساعد على القيام بحقوق خدمتهم

٣ ان كل من يمد اليهم يد المساعدة يضحي شريكاً باعمال غيرتهم الرسولية ومن قاومهم قاوم مجد الله

ولذلك السبب نرى الكرسي الرسولي يأمر بتشييد الاديار في اكثر المدن العامرة ويغنيها بالانعامات الروحية ٠ والسادة الاساقفة مع علمهم ببعض الخسارة الزمنية على خوارنتهم يدعون المرسلين الى ابرشياتهم ويعضدونهم بملء سلطانهم وهكذا الخوارنة الغيورون يقتبلونهم بكل فرح لعلمهم بالخير الذي يكون لابناء رعيتهم على يد هولاء ملائكة السلام ٠ وهكذا كان ظهورهم دائماً في اعصر الدين والتقوى وتبديد شملهم في ازمنة الكفر والضلال ٠ قال الرب له المجد للقديسة تريزيا : «ولو كانت الرهبانيات لم تبقَ على حرارتها الاولى فانها مع ذلك تقدم لي خدمات اثيلة ومجداً عظيماً ٠ ولولا الرهبان لكان العالم باسوإ حال» (اعمال القديسة تريزيا جلد ١ وف ٤٥٤ من طبعة ١٨٥٢)

عدد ٥

في انهُ يجب على الرئيس ان لا ييأس او يترك شؤون الرئاسة اذا قاومه بعض الرهبان الغير الكاملين او صعاب المراس لانه على مثل هولاء اقيم رئيساً

قال احد المتخرجين في الحياة الرهبانية الاب بينه اليسوعي : « ان تمثالاً من رخام يترأس على الف مسيحي لو كان كل منهم من تلقاء نفسه يقوم بواجباته حق القيام ويسهل على انسان واحد ان يترأس الف مليون من الملائكة ٠ فاعلم رعاك الله انك أُقمت رئيساً ومدبراً وراعياً وطبيباً روحياً لا على الرهبان الفضلاء الكاملين بل بالخصوص على الرهبان الذين لم يبلغوا بعد ذروة الكمال ولا هذبوا اخلاقهم وعاداتهم تمام التهذيب فمثل هولاء استودعتك العناية الربانية لترشدهم وتبلغهم محجة الكمال

وكتب القديس فرنسيس دي سال لاحدى الرئيسات قال : « انكِ اقمتِ

رئيسة على الضعفا لا على الاقوياء في الفضيلة · نعم انك اخذت على نفسك السهر على الجميع ولكن بنوع اخص على الضعفاء · فتعلمي ان تحتملي اثقال مثل هولاء الاخوات اللواتي لم يبلغن بعد الكمال الرهبــاني · ومهما رأيتِ من نقائصهن لا تظهري العجب والدهشة بل كوني معهنَّ رقيقة لتساعديهنَّ على الاستفادة من شوائبهن واعلمي ان من كانت متصفةً باشد الاميال المنحرفة تبلغ غالبــاً مع العناية والاجتهاد اسمى الكمال اه

ان العبارة الاخيرة جديرة بكل اعتبار وانتباه وعليهِ فليس الرئيس الفاضل من ترأس في الفردوس الارضي سائرًا في طريقٍ مفروشة بالزهور ولا ياكل الاَّ السمن والعسل بل من كان مسمرًا ابدًا على الصليب يشرب الخل والمر وهو مهشم من جلد المقارع · والحال هل للرهبان الفضلاء الصالحين ان يعلقوا رئيسهم على الصليب ويوسعوه جلدًا واهانةً كلاَّ بل ان هذا عمل الرهبــان الفاسدي الاخلاق · ولعمري ان الرهبان الفضلاء يبنون الرئيس بمثلهم ويعزونه بفضائلهم اما الاردياء فيضطرونه لان يحتملهم ويؤَدبهم ويعلمهم بمثله الصالح · فعليه اذًا ان يستفيد من الصالحين ويفيد الاشرار

واذا رمت الاقالة من رياستك او مغادرة الدير الذي انت فيهِ الى دير آخر فاعلم ان عزمك هذا متأتٍ عن قصر في الفضيلة والصبر لا عن غيرة صادقة ولا دليل هناك على الشجاعة والحكمة بل على الجبانة والخفة · فالسيد المسيح لم يكن يجهل استعداد اليهود للاعتداء عليهِ يوماً ما ولقولهم بضجيج وصراخ اصلبه اصلبه ... ومع ذلك لم يغادر اليهودية ولا انكفَّ عن عمل المعروف الذي كان ابتداه معهم · والقديس يعقوب الرسول لم يبارح اسبانيا مع انهُ اقام فيها سنين عديدة ولم يردَّ منها الى الديانة الاَّ القليلين · وبولس الرسول لما كان عائدًا الى اليهودية وعلم بان بني قبيلته يعدّون لهُ اشد اضطهاد لم ينثنِ عن طريقه · ويقول ايضاً ان الشيطان خزاه الله لا يكف عن محاربة من يروم اهلاكه مهما طال بهِ الزمــان · فكيف يسوغ لك ايها الرئيس ان تفشل موءيساً اذا صادفت في عملك شيئاً من الصعوبة والمشقة · وقال القديس فرنسيس دي سال : « ان الله يكره السلام في من سبق فاعدهم للحرب وانهُ تعــالى اله الحرب كما انهُ اله

السلام ومن ثم لا يجدر بالعابد الحقيقي ولا سيا الراهب الاَّ ان يرضخ لما اعدته لهُ العناية الربانية سلاماً كان ام حرباً · وقد يخيل لك إنك في مكان آخر او في خدمة غير خدمتك هذه تعمل اعمالاً كبيرة خطيرة ولكن ما مثلك في ذلك الاَّ مثل الطبيب الذي يغادر مريضه بداعي اشتداد مرضه او النوتي الذي يترك سفينته وقت هيجان البحر واشتداد الخطر عليها

وكأني بك تقول اني لولا اثنان او ثلاثة من رهباني العاتين لكنت في فردوس لان سائر الرهبان ملائكة · ولكن مهلاً من ارسل لك هولاء الرهبان العاتين ! وهل انت اول من يحتمل صعوبة اخلاقهم وتمردهم · اليس هو الذي يحتملهم من قبلك وهو الذي استودع غيرتك ومحبتك امر خلاصهم · اما قولك ان سائر الرهبان ملائكة وهولاء وحدهم هم الاشرار فلا اخاله صحيحاً لان مثل هولاء ولو لم يعملوا الاَّ ما قل من الفضيلة فقد يُحسب لهم من الاجر والثوات اكثر مما يُحسب لاولئك نظرًا الى فظاظة اخلاقهم وعدم تربيتهم على الفضيلة · وليس بغريب ان تراهم يوماً ما في السما على طبقة اعلى من طبقة اولئك الذين تسميهم ملائكة

والمصيبة كل المصيبة هي اننا لا نطابق ارادتنا مع ارادة الله في ما يريده منا · فان ما يرضيه تعالى لا يرضينا · لانهُ ان ارادنا في الضيقة طلبنا السعة وان اراد لنا الآلام اردنا نحن الراحة والتعزية · يريد منا النشاط والاجتهاد في اعمالنا ولو لم يكن فيها الاَّ نجاح قليل ونحن نبتغي ان تنمو الفضيلة فينا وتثمر اثمارًا شهية بدون عناء ولا تعب · وهكذا اذا اراد تعالى ان نكون في المطهر فنحن لا نبتغي لانفسنا الاَّ النعيم وان اراد ان نكون مع السقيمين نعتني بشفائهم فنحن نأبى الاَّ ان نكون مع الاصحاء · وبكل ذلك لا نريد ولا نبتغي الاَّ المحال وانما نخدع انفسنا بمقاومتنا ارادة الله وابتغائنا مشيئتنا وهوى انفسنا

عدد ٦

في انهُ يترتب على الرئيس ان يواصل عمله وعنايته في مرؤوسيه بدون نظر الى ما ينجم عنها من النجاح لانهُ تعالى لا يسأله عن النجاح بل عن العمل

من اهم الامور في الرياسة ان يعرف الرئيس كيف يحتمل بسلامة قلب الشر الذي لا يقدر على ازالته وان يتصبر بهدوء بال على فقدان الخير الذي يبتغيه للرهبانية بالعموم او لبعض افرادها بالخصوص · ومن تراه لا يعتقد ان الله قادر ان يجبر الانسان على عمل كل ما يريده منه ومع ذلك فانه يحتمل نقائصه بكل اناة · فما بالنا نحن لا نرضى لله ما يرضاه تعالى لنفسه وليس لنا شيء مما لهُ من القوة والمعرفة · نعم اننا لا نبتغي من مرؤوسينا بما نطلبه من الطاعة والمعاونة الاَّ الخير والصلاح ولكن هل يترتب علينا ان نطلب الخير بطرائق لم يستعملها الله قط · او هل لنا ان نتصور اننا نحب الخير اكثر مما يحبه تعالى · فلننتظر تدابير العناية ونحصل بالوقت المحدود منها اماً على الخير الذي نبغيه واماً على شيء آخر افضل منه · او ما عساه تعالى يطلب منا في مثل هذه الظروف سوى الصبر والتسليم لارادته القدوسة · ذلك خير لنا من النجاح الذي نطلبه بمساعينا الخيرية

وقد كتب في هذا الصدد القديس برنردوس الى البابا اوجانيوس ما نصه: لا تفشل يا سيدي فان الله يطالبك بالعناية في المريض لا بشفائهِ · فقد سمعت قول السامري الى صاحب الفندق : « اعتنِ بهِ » (لو ١٠) ولم يقل لهُ « اشفهِ لانهُ ليس بامكان الطبيب ان يشفي العليل في كل حال · واني استشهد على ما قدمته لقداستكم قول بولس الرسول (١كو ١٠) · « اني عملت اكثر من الاخرين » فترون قداستكم انهُ لم يقل « قد نجحت اكثر من الاخرين لان فضيلة الديانة لم تسمح لهُ بان يتلفظ بمثل هذا الكلام ويدّعي بالنجاح · ثم ان هذا الرجل العلّامة في الامورُ الالهية لم يكن ليجهل ان الانسان يجازى على حسب اعماله لا على حسب نجاحهِ فيها · وقداستكم ايضاً يجب ان تعمل ما يتعلق بها والرب سبحانه يعمل ما يتعلق بهِ وهو جلت ارادته قادران يصنع الشفاء بدون

مزيد اهتمامكم واعتنائكم . فازرعوا اذاً واسقوا وافلحوا كما هو مرتب عليكم اما إنماء الزرع فمختص بالله وحده متى اراد وان لم يرد فلا تحسر قداستكم شيئاً « لان الاجر معد على قدر التعب » (الحكمة ١٠) فيا لهُ من تعب سعيد لانهُ لا يُعدم اجره كيفما تحولت الاحوال » (ف ٢)

وهذا المعنى نفسه تجدهُ في كلام البتول مريم للقديسة بريجيتا اذ قالت لها : « لا يليق باصفياء الله ان يجبنوا في خدمته ابداً بل يجب ان يضاعفوا العمل ليصيّر الاشرار صالحين والصالحين كاملين فان من يدعو اهل السبيل مثلاً الى ان يتبعوا السيد المسيح اقتاد او لم يقتد احداً منهم فجزاؤهُ يكون عظيماً . ومثل ذلك مثل سيدٍ امر عبدين لهُ ان يثقبا جبلاً فانصرف الاثنان الى العمل فاصاب احدهما معدناً من ذهب والثاني لم يصب شيئاً فلكليهما حظ واحد من جهة الاجرة تبعاً للشرط والعمل

وقال في هذا الصدد القديس فرنسيس سالس ما نصهُ : « ان من الاعمال ما يامرنا الله بالشروع بهِ ويأمر غيرنا بانجازه وان الفلاح لا يُلام اذا لم تأتِ ارضه بأثمار جيدة بل اذا كان لم يحرثها حق الحراثة » ولعمر الحق ان الله جلت احكامه يعدّ البعض من الناس للزرع وغيرهم للحصاد . هـذا لوضع الاساس وغيره لانجاز البنيان الا ترى كيف ان داود اعد الادوات لبنيان بيت الرب وسليمان اتم بنيانه . ولذلك ينبغي لنا ان نقف في العمل حيثما يشاء الله لانه تعالت احكامه لو لم يرد ان نعمل الاَّ قسماً صغيراً ممـا قلدناه واراد انجازه بعد حين . افما كان بوسعه انجازه بوقته

عد ٧

في انه ينبغي للرئيس ان يعتقد بان صبره يكون مفيداً للجماعة بمقدار ما هو مفيد لنفسه

لا بد من ان يقاومك مرؤوسوك مقاومةً شديدة وعنيفة الاَّ انك مع ذلك تضطر لان تفعل الخير معهم بدون تأخير ولا تزمر ولا ضجر . واعلم ان صبرك هذا الجميل يتعلق عليهِ اجرك واصلاح غير المروضين من رهبانك الذين تكون

انت سبب خلاصهم وهم يكونون لك موضوع فخر في اليوم الاخير

قال احد العلماء الافاضل : « انك عندما تشاهد في الساحات العمومية بعض تماثيل للاسد منفجرة منها امياه صافية أتختشي ان تفتك بك تلك الاسد كلاً بل انك تتفرس بها متعجباً من مهارة الناحت وتتقدم فتشرب منها الماء ناعم البال . هكذا ينبغي لك ان تتصور اخوتك الرهبان الذين تراهم يفغرون افواههم ويطيلون ألسنتهم ليتمدحوا بك بدون رحمة فلا تخشاهم بل اجتهد بان تستقي من افواههم مياه الفضائل واجر الصبر الجميل

وقال الاب لويز : « ان مثل الرهبان المقاومين لرؤسائهم والمنددين بهم مثل العلماء الماهرين بفن الجدل فأنهم عندما يمتحنون الدارسين ويشددون عليهم في الجدال يبينون ان الطلبة متضلعون بالعلم ومقتدرون على حل المشكلات ومن ثم وجب على الرئيس ان يشكر فضل مرؤوسيه الذين بمقاومتهم اياه يبينون فضله واتضاعه وثباته في الفضيلة »

وبالحقيقة ان عشرة الرهبان الصالحين عذبة ولذيذة غير ان عشرة الاشرار تجدي نفعاً وافادةً اكثر ولو انصف الرئيس لابتاع الرهبان غير المروضين باغلى الاثمان

ولعمري كم من النعم الغزيرة التي لا يعادلها ثمن يستمطرها الرئيس على مرؤوسيه بواسطة صبره واحتماله ثقل بعض الرهبان . قال العلامة فينيلون الشهير ان الرؤساء بدون صليب هم عقماء لا يلدون بنين في النعمة . والصليب المحتمل بصبر يولي الرئيس هيبة لسلطانه وبركة خاصة لكل اعماله اه

وقالت القديسة شانتال ما ملخصهُ : « ان ما نعمله من الاعمال الصالحة بوجه الجماهير ولاسيما ممارسة فضيلة الصبر والاحتمال اذا لم تبدُ نتيجته في الحال فلا بد من ظهورها يوماً ما » هذا ونرى القديس بولس يفتخر بانهُ يكمل بجسده نقص آلام المسيح وانما يريد بذلك ان يستمد للخطأة باوجاعه المتنوعة شيئاً من استحقاق السيد المسيح وبهذا المعنى قال القديس فرنسيس دي سال عن القديس اسطفان انهُ لو لم يصلِّ من اجل شاوول لما كنا حزنا بولس اه»

افيكون بلا اجر ما يعمله الرهبان الصالحون لاجل اصلاح اخوانهم المتوانين

بالفضيلة ؟ كلاً لانهم لم يأتون لاجل هذه الغاية من الصلوات والتقشفات والنصائح الجيدة والامثلة الصالحة والاحتمال والصبر والسهر على ذواتهم ومقاومة الشكوك والقديس اغوسطينوس يقول في هذا المعنى: « ان الصالحين لا يثبتون على الخير ان لم يمتحنهم الاشرار ويمحّصوا فضيلتهم »

ومن ثم يجدر بك ايها الرئيس الفاضل ان لا تكف عن الزرع بالدموع لكي تحصد بالافراح . وان تبذل قصارى الجهد في حسن الزرع لكي يكون لك مئة ضعف في يوم الحصاد هذا وهل يشكو الفلّاح من كثرة الزرع او من طول مدته كلاً لانهُ يعلم يقيناً انهُ على قدر كمية الزرع تكون نتيجة الحصاد بل انهُ عندما يرى حسن النتيجة في وقت الحصاد تأخذه الغيرة والندم على انهُ لم يزرع اكثر . الاَ ترى انك تزرع الان زرع الحياة الابدية وانما بذارك هو اولاً الصبر واحتمال المضادات ثم المواظبة على حفظ رسومك وقوانينك

ولننهينَّ مقالتنا هذه وكتابنا بما قاله صاحب الاقتداء (ك٣ف٥٦) ايها الرب يسوع كمّل معي كلامك ومواعيدك امنحني الغبطة بان اكون اهلًا لحفظ وصاياك ولان اجلس معك في ملكوت ابيك . اني قبلت من يديك الصليب وانا مستعد لان احمله حتى الممات كما تريد يا الهي . ولعمري ليست حياة الراهب الاَ صليباً ولكن هذا الصليب يقوده الى المجد الابدي . اني قد ابتدأت بالحياة الروحية فكيف يمكن ان ارجع الى الوراء . او كيف يسوغ لي ان اتأخر عن التقدم . انهضوا ايها الاخوة وقوموا بنا نمشي معاً اننا قد حملنا الصليب حباً بيسوع فحباً بيسوع لا نلقيه عنا اذ عليه يتعلق كل رجائنا . هوذا ملكنا يسير امامنا ويحارب عنا . فلنتبع خطواته ببسالة ولا يهولنّنا شيء . بل فلنكن مستعدين ان نموت في هذه الحرب موت الابطال ولا نفر من امام الصليب لئلَّا يلتحق بنا عار الهزيمة والخجل .

فهرست

صفحة

مقدمة		١
الكتاب الاول	في تدبير الجماعات الرهبانية	٠٣
الباب الاول	في الرئاسة على اطلاقها وفيهِ ستة فصول	〃
الفصل الاول	في صعوبة الرئاسة وفيهِ ثلاثة اعداد	〃
العدد الاول	في ان تدبير الجماعة المشتركة هو رأس الصناعات	〃
العدد الثاني	في ان الرئاسة تتطلب احراز مناقب ممتازة يسبقها نوع من الدربة والتحنيك	٠٥
العدد الثالث	في انهُ على الرئيس ان يتعلم صناعة التدبير	٠٧
الفصل الثاني	في مضار الرياسة وفيه ثلاثة اعداد	١٠
العدد الاول	في ان الرياسة تبلو ذوي الفضيلة	〃
العدد الثاني	في ان الرئيس مطالب اشد مطالبة	١٢
العدد الثالث	في ان تجنُّب الرياسة اسلم من طلبها	١٤
الفصل الثالث	في منافع الرئاسة وفيهِ ثلاثة اعداد	١٧
العدد الاول	في ان الرئاسة تدعو الى ممارسة فضائل كثيرة	〃
العدد الثاني	في ان الله يولي الرئيس عوناً قوياً	١٩
العدد الثالث	في انهُ يجب ان تتحمل الرئاسة بصبرٍ واتكال	٢٠
الفصل الرابع	في الرياسة الموقتة وغير الموقتة وفيهِ ثلاثة اعداد	٢٣
العدد الاول	في الحجج التي تؤيّد الرئاسة غير الموقتة	〃
العدد الثاني	في الحجج التي تؤيّد الرئاسة الموقتة	٢٥
العدد الثالث	في بيان رأي العلّامة سوارس وعادة الكنيسة	٢٨
الفصل الخامس	في ما يطلب في المنتخب من الصفات العامة وهي اربع	٣٠

صفحة

الصفة الاولى	الاصابة في الرأي	٣٠
الصفة الثانية	الفضيلة الراسخة	٣٢
الصفة الثالثة	المعارف التي تتطلبها الرئاسة	٣٤
الصفة الرابعة	السن القانونية	٣٨
الفصل السادس	في واجبات الرئيس عند حلول الانتخاب وفيهِ اربعة اعداد	٤٠
العدد الاول	في انهُ يجب على الرئيس ان يكون مستعداً لتخلية الرئاسة	«
	وان يكون سروره عند ذلك اشد منهُ عند قبولها	«
العدد الثاني	في انهُ على الرئيس ان يذكّر اذا مست الحاجة اباء المجمع	٤٢
	بما عليهم من شديد الالتزام ان ينتخبوا من هو اجدر من غيره	«
العدد الثالث	على الرئيس ان يحذر من الدسيسة والتحزب	٤٤
العدد الرابع	نصائح القديسة شانتال المتعلقة بحسن الصلة بين المنتخبات	
	للرئاسة حديثاً والمعزولات عنها	٤٧
الكتاب الثاني	في قداسة الرئيس وفيهِ اربعة فصول	٥٠
الفصل الاول	في روح الصلاة الواجب للرئيس وفيهِ ثلاثة اعداد	«
العدد الاول	في ان روح الصلاة هو واجب وضروري للرئيس ليضبط	«
	نفسه من شتات الافكار ويقيها من قساوة القلب	
العدد الثاني	ان روح الصلاة هو ضروري للرئيس لكي يعمل اعماله	
	وهو خاضع لله	٥٣
العدد الثالث	ان روح الصلاة ضروري في الرئيس ليتخلص من الصعوبات	
	ويقوى على مساعدة مرؤوسيه	٥٥
الفصل الثاني	في ان فضيلة التواضع ضرورية في الرئيس وفيهِ اربعة اعداد	٥٩
العدد الاول	في ان الرئيس المتواضع لا يرى نفسه اهلًا للوظيفة ولا ينسب	«
	الى نفسه شيئاً من الخير الذي يحصل في مدة رئاسته	
العدد الثاني	في ان الرئيس المتواضع لا يعجب بالكرامة الموجهة اليهِ	٦٢
العدد الثالث	في ان الرئيس المتواضع يعمد الى ادنى الاعمال بطيبة خاطر	٦٤

صفحة

العدد الرابع	في ان الرئيس المتواضع لا يجدر بهِ ان يخفي فضائله وجدراته بالسياسة ولا ان يسمح بسقوط سلطانه	٦٦
الفصل الثالث	في ان السلوك بموجب القانون ضروري في الرئيس وفي الاسباب الموجبة لذلك وفي ما يطلب من الرئيس سلوكه بموجب القانون وفيهِ مقالتان	٦٨
المقالة الاولى	في الاسباب التي توجب ان يكون السلوك بموجب القانون ضرورياً في الرئيس وفيها خمسة اسباب	«
السبب الاول	هو علوّ درجته بين مرؤوسيه ووجوده على مرآى من جميعهم	«
السبب الثاني	هو ان الجمهور يقتفي طريقة الرئيس سواءٌ كانت صالحة ام طالحة	٧١
السبب الثالث	هو ان رذائل الرئيس ترمي بالرهبانية الى الخراب والدمار	٧٣
السبب الرابع	هو انهُ ان لم يكن الرئيس مثالاً صالحاً كان اصلاحه لمرؤوسيه توبيخاً لهُ	٧٤
السبب الخامس	هو انهُ ان لم يعظ الرئيس بمثله فواعظه عبث	٧٦
المقالة الثانية	في ما يوجب حفظ القانون على الرئيس وفيها اربعة مواجب	٧٧
الواجب الاول	ان يمكث في محل اقامته	«
الواجب الثاني	ان يتقدم مرؤوسيه في جميع الاعمال	٨١
الواجب الثالث	انهُ ليس لهُ ان يسمح لنفسه بما لا يريد ان يسمح بهِ لغيره	٨٤
الواجب الرابع	على الرئيس ان يكون قدوة كاملة في الصلاح الرهباني	٨٧
الفصل الرابع	في المحبة الواجبة في الرئيس وفيهِ عددان	٩٠
العدد الال	في ضرورة المحبة في الرئيس	«
العدد الثاني	في صفة هذه المحبة	٩٣
الكتاب الثالث	في الفطنة وفيهِ ثلاثة فصول	٩٦
الفصل الاول	في ان الفطنة ضرورية لحسن السياسة وفيهِ اربعة اعداد	«
العدد الاول	تحديد الفطنة	«

		صفحة
العدد الثاني	في ان الفطنة تُعد من مزايا روساء الجماعات	٩٨
العدد الثالث	في ان الرئيس لا يقدر ان يتمم مهمات وظيفته بدون فطنة	١٠٠
العدد الرابع	في انه يجب على الرئيس ان يطلب الفطنة من الله وان لا يملّ من طلبها	١٠٣
الفصل الثاني	في السياسة الدينية والسياسة العالمية وفيهِ خمسة اعداد	١٠٥
العدد الاول	في السياسة الدينية	〃
العدد الثاني	في وصف السياسة العالمية	١٠٧
العدد الثالث	في بعض علامات للسياسة العالمية في التدابير الرهبانية	١٠٩
العدد الرابع	في ان مبادىء السياسة العالمية تضاد مبادئ الانجيل المقدس وان الظالم الذي يتبعها هو غير الحاكم العادل	١١٣
العدد الخامس	في انهُ يجب ان يكره الرئيس السياسة العالمية وان هذه مضرَّة بالسياسة الروحية	١١٥
الفصل الثالث	في الشروط الجوهرية للفطنة الرهبانية وفيهِ سبعة فصول	
الفصل الاول	في الشرط الاول من الشروط الجوهرية للفطنة الرهبانية وهو عدم الثقة بالذات وفيهِ اربعة اعداد	١١٨
العدد الاول	في انهُ ينبغي قبل كل شيء ان يعرف الرئيس ذاته	〃
العدد الثاني	في انهُ يجب على الرئيس ان يحترص من شر الاميال المنحرفة والخلق السوء والافراط في محبة الذات	١٢١
العدد الثالث	في ان الرئيس عليهِ ان يتجنب في اعماله العناد والعجلة	١٢٤
العدد الرابع	في انهُ يجب على الرئيس ان لا يكون كثير الثقة باهليته واوهامه ولا سريع الحكم والتصديق	١٢٧
الفصل الثاني	في الشرط الثاني الجوهري للفطنة الرهبانية وهو معرفة الناس وفيهِ عددان	١٢٩
العدد الاول	من أهمّ اعمال الرئيس التعمق في معرفة الناس	〃
العدد الثاني	في كيف يكون التوصل الى معرفة الناس	١٣٢

صفحة

الفصل الثالث	في الشرط الثالث الجوهري للفطنة الرهبانية وهو الاستفادة من اختبار الايام السالفة وفيهِ عددان	١٣٦
العدد الاول	في انهُ ينبغي للرئيس ان يستفيد من اختباره الخاص واختبار غيره ايضاً	〃
العدد الثاني	في ان اقتداء الرئيس بغيره لا ينبغي ان يكون بدون فطنة وتمييز	١٣٩
الفصل الرابع	في الشرط الرابع الجوهري لاكتساب الفطنة الرهبانية وهو معرفة طلب المشورة وفيهِ ثلاثة اعداد	١٤١
العدد الال	في ان طلب المشورة مفيد جداً وفيهِ ستة ادلة	〃
العدد الثاني	في الصفات التي يجب ان يتحققها الرؤساء الكبار ومجمع المدبرين في المشيرين عند انتخابهم اياهم	١٥٠
العدد الثالث	في كيفية أخذ المشورة وفيهِ سبعة فروع	١٥٥
الفصل الخامس	في الشرط الخامس الجوهري للفطنة الرهبانية وهو القيام بالاعمال حسناً وفيهِ تسعة فروع	١٦٨
الفرع الاول	طلب الخير العام	〃
الفرع الثاني	من الواجب ان نرضى بالممكن المستطاع في كل الاحوال حتى في اعمالنا الروحية •	١٧٠
الفرع الثالث	النظر في عاقبة الامر قبل حلوله	١٧١
الفرع الرابع	عدم التأنق في امر الفطنة	١٧٣
الفرع الخامس	اغتنام الفرصة والزمان الموافق	١٧٥
الفرع السادس	لا يجدر بالرئيس ان يظهر في الابتداء كل ما لهُ من النيات والمقاصد	١٦٦
الفرع السابع	اتخاذ الطرق اللازمة لاكتساب قلوب المرؤوسين	١٧٨
الفرع الثامن	ينبغي النظر في تأييد اعمالنا وتثبيتها الى زمن طويل	١٨٠
الفرع التاسع	لا تتعجب من الحوادث ولا تفشل ابداً	١٨٢

صفحة

الفصل السادس	في الشرط السادس الجوهري للفطنة البشرية وهو كتمان السر وفيهِ اربعة اجزاء	١٨٤
الجزء الاول	في اهمية كتمان السر	″
الجزء الثاني	في موضوع السر من جهة الرئيس وفيهِ ثلاثة اعداد	١٨٧
العدد الاول	مكاشفات المرؤُسين وزلأتهم	″
العدد الثاني	فيما يتعلق بشخص ثالث	١٨٨
العدد الثالث	في السياسة الداخلية والرسائل	١٩٠
الجزء الثالث	في موضوع السر من جانب المرؤُوسين وفيهِ عددان	١٩١
العدد الاول	في الامور التي توجب المهمة او المصلحة كتمانها	″
العدد الثاني	في الامور التي لا يتأتى كشفها بدون ثلم حقوق المودة او المحبة الاخوية	١٩٢
الجزء الرابع	في كيفية كتمان السر الشرعية العادلة وفيهِ عددان	″
العدد الاول	مقابلة الباحثين بالاسرار بالصمت والرزانة	١٩٤
العدد الثاني	مقاومة الجبناء بالاستقامة لا بالغيظ	١٩٦
الفصل السابع	في الشرط السابع للفطنة الرهبانية وهو الحصول على منبهٍ خاص الى النقائص وفيهِ اربعة اعداد	١٩٨
العدد الاول	ان النصيح يفيد الرئيس بنصيحته اكثر مما يفيده سائر الاصدقاء	″
العدد الثاني	ان من يملق الرئيس هو من ألدّ الاعداء واكبر الخونة وفيهِ اعتباران ١ً انتفاع البائع الخداع ٢ً كبرياء المشتري المغرور	٢٠٢
العدد الثالث	في ان التنبيه يجب ان يجري بادبٍ واحترام	٢٠٥
العدد الرابع	في ان الرئيس عليهِ ان يقبل النصيحة برضىً وشكر	٢٠٨
الكتاب الرابع	في الموافقة بين الرفق والحزم وفيهِ ثمانية اقسام	
القسم الاول	في ان الرفق والحزم هما ركنا السياسة الرهبانية وفيهِ سبعة فصول .	٢١١

صفحة

الفصل الاول	اي سياسة هي الحسنى بين السياسات الرهبانية	٢١١
الفصل الثاني	في ان اللطف والبشاشة جوهريان في كل سياسة ولاسيما السياسة الرهبانية	٢١٢
الفصل الثالث	في ان الحزم والثبات ليسا باقل ضرورة للسياسة الرهبانية مما هما لسياسة اخرى	٢١٤
الفصل الرابع	في انهُ من الواجب ان يأتلف اللطف والحزم في السياسة الروحية وان يفعلا معاً كل ما يفعلانه	٢١٦
الفصل الخامس	اذا اقتضى الامر ان يميل الرئيس الى احدى الجهتين فليختر جهة الرأفة والرقة .	٢١٧
الفصل السادس	في ان موسى كليم الله هو نموذج اللطف والحزم	٢١٩
الفصل السابع	في واسطتين ضروريتين للتأليف بين الحزم والرقة	٢٢٠
القسم الثاني	في علامات السياسة القاسية وهي تسع علامات	٢٢٢
العلامة الاولى	الامر باشياء صعبة للغاية	٢٢٢
العلامة الثانية	الافراط بالتثقيل على الرهبان في رسوم وفرائض مختلفة	٢٢٣
العلامة الثالثة	استعمال بعض عبارات حكمية وحتمية مثل قولهم « انا اريد انا آمر انا احتم »	٢٢٦
العلامة الرابعة	كلام الرئيس لمرؤوسيه بغلظةٍ وعتو	٢٢٧
العلامة الخامسة	سدُّ الرئيس اذنيه عن استماع التشكيات والاعتذارات	٢٢٩
العلامة السادسة	هي ان الرئيس يرفض كل ما يطلب منه او انهُ لا يهب شيئاً الأ بكرهٍ واشمئزاز	٢٣١
العلامة السابعة	ان يتبع الرئيس مرؤوسيه في كل خطوة ولحظة ليرقب بذاته كل اعمالهم وافكارهم	٢٣٢
العلامة الثامنة	غيرة الرئيس المفرطة على الاحترام الواجب لمقامه	٢٣٤
العلامة التاسعة	وهي اظهار الميل الى فريق دون آخر	٢٣٦
القسم الثالث	في العلامات التي بها يعرف الرئيس انهُ متغاضٍ وكثير	

		صفحة
	التسامح في سياسته الرهبانية وهي تسع علامات	٢٣٨
العلامة الاولى	هي ان لا يهتم الرئيس الا بالمسائل الهامة في الغاية	〃
العلامة الثانية	هي ان يكون الرئيس سريع التصديق في قبول اعتذارات مرؤوسيه وتصويب ما يدعونه لتبرئة انفسهم	٢٣٩
العلامة الثالثة	هي عدم المعاقبة على بعض الذنوب والنقائص	٢٤١
العلامة الرابعة	التوبيخ الذي لا يكون إلاَّ حفظاً للظواهر	٢٤٣
العلامة الخامسة	التسامح على طريق الحياء البشري	٢٤٥
العلامة السادسة	هي ان لا يعزز الرئيس سلطانه من وقت الى آخر ببعض اعمال خطيرة	٢٤٦
العلامة السابعة	الانقياد لامر الغير	٢٤٨
العلامة الثامنة	التسويف عند اقتضاء العمل	٢٥٠
العلامة التاسعة	هي ان يكون الرئيس عديم الثبات متقلباً في مقاصده	٢٥١
القسم الرابع	في البشاشة التي هي رفيقة ملازمة للوداعة وفيهِ سبعة فصول	
الفصل الاول	في انهُ يجب على الرئيس ان يبذل كل جهده في اكتساب قلوب مرؤوسيه	٢٥٤
الفصل الثاني	في ان الرئيس حقيق بان يكون مع مرؤوسيه سهل المقابلة والمفاوضة	٢٥٦
الفصل الثالث	في انهُ يجب على الرئيس ان يحسن قبول مرؤوسيه في كل فرصة وزمان	٢٥٨
الفصل الرابع	في ان الرئيس ملتزم احياناً ان يتقدم راهبه بالحسنى ليستميله اليه بعد نفوره منه وابتعاده عنه	٢٦٠
الفصل الخامس	في انهُ يجب على الرئيس ان يكون عند مقابلته مرؤوسيه طلق الوجه	٢٦٢
الفصل السادس	في ان كلام الرئيس يجب ان يكون ليّناً عذباً	٢٦٤
الفصل السابع	في ان الرئيس حقيق بان يخفض جناحيه لمرؤوسيه	

صفحة

	وينعطف عليهم بفرح القلب	٢٦٥
القسم الخامس	في ان الرزانة رفيقة ضرورية للحزم وفيهِ خمسة فصول	
الفصل الاول	في ان رزانة الرئيس تتأتى اما من ذكر جلال الله الذي يمثله بشخصه واما من بعض مزاياه الخصوصية	٢٦٨
الفصل الثاني	ان رزانة الرئيس قائمة في ان لا يذهب بجمهوره مذاهب القسوة والجفاء ولا مذاهب الدالة المفرطة التي تحاكي الغنج والتدلل	٢٦٩
الفصل الثالث	في ان الكلام بدون تروٍ وتدبر يضر برزانة الرئيس ضرراً كبيراً	٢٧١
الفصل الرابع	في ان رزانة الرئيس تتوقف كثيراً على كيفية جلوسه مع مرؤوسيه للتنزه او للمحاورات	٢٧٣
الفصل الخامس	في ان رزانة الرئيس تتوقف ايضاً على ثباته وعدم تقلبه في سياسته واخلاقه	٢٧٤
القسم السادس	في ان فضيلة اللطف تقتضي ايضاً عناية ابوية باحتياج المرؤوسين وفيه خمسة فصول	٢٧٧
الفصل الاول	في ان هذه العناية هي من خصوصيات المحبة الرسولية	
الفصل الثاني	في ان هذه العناية بضرورات المرؤوسين الزمنية هي الكفيل لحفظ النظام الرهباني	٢٧٨
الفصل الثالث	في ان هذه العناية بالزمنيات لا يجب ان تتوقف على اللازم والضروري فقط بل عليها ان تبادر الى عمل المعروف قبل طلبه وقبل الحاجة اليه	٢٨٠
الفصل الرابع	في ان من واجبات الرئيس ان يعتني بالمرضى من مرؤوسيه عناية ابوية	٢٨٣
الفصل الخامس	في ان هذه العناية بالقريب لا توجد عند من لا اتكال له على العناية الصمدانية	٢٨٧

صفحة

القسم السابع	في ان السهر على حفظ الرسوم هو من لوازم الحزم والثبات وفيهِ بابان	٢٩٠
الباب الاول	في ان موضوع السهر على القوانين يتناول ثلاثة امور ولكلٍ مقالة	٢٩٠
المقالة الاولى	في القوانين وفيها اربعة اعداد	
العدد الاول	في ان الرئيس هو امين القوانين والحارس لها والملتزم ان لا يدع احدًا يتعداها بنوع من الانواع	٢٩٠
العدد الثاني	في انهُ لا سلطان للرئيس مطلقاً على ان يمس شيئاً من القوانين الاساسية في الرهبانية ولا ان يغير عادة من عاداتها المألوفة	٢٩٢
العدد الثالث	في انهُ يجب على الرئيس ان يفهم جيدًا روح الفرائض وجوهرها وذلك لكي يعرف كيف يفسرها او يتسامح ببعضها عند مس الحاجة	٢٩٥
العدد الرابع	في ان الرئيس يفتقر الى فطنة متناهية اذا ما دعته الضرورة الى تجديد شيء في العادات او الفرائض الرهبانية	٢٩٧
المقالة الثانية	في الوظائف وفيها اربعة اعداد	
العدد الاول	في ان الرئيس عند توزيعه الوظائف يجب ان ينعم النظر في ميل المرؤوس الخاص واهليته لتلك الوظيفة	٢٩٩
العدد الثاني	في انه يجب على الرئيس في توزيعه الوظائف ان ينظر الى فضائل مرؤوسيه وطباعهم	٣٠٠
العدد الثالث	في انهُ يجب على الرئيس ان يسهر بنوع خاص على الرهبان البطالين	٣٠١
العدد الرابع	في انهُ يجب على الرئيس ان يبالغ في سهره على الاخوة المعرضين من قبل وظايفهم لفقدان الفضيلة	٣٠٣
المقالة الثالثة	في معاوني الرئيس في مهام وظيفته وفيها خمسة اعداد	
العدد الاول	في انهُ يجب على الرئيس في انتخابه معاونيه ألاّ يلتفت	٣٠٥

صفحة

	الى اميال المرؤوسين ولا الى مكايد بعضهم ضد اخوتهم	
العدد الثاني	في انهُ يجب على الرئيس في انتخابه معاونيه ان لا يركن الى امياله الخصوصية ولاسيما الطمع	٣٠٧
المقالة الثالثة	في المعثرة الثالثة وهي محبة الذات المفرطة وفيها ستة اعداد	
العدد الاول	يجب على الرئيس ان لا يعتبر ذاته بالحقيقة الاَّ خادماً لمرؤوسيه	٣٢٧
العدد الثاني	في ان الرئيس بقبوله الرئاسة يجعل ذاته كفيلاً عن مرؤوسيه	٣٢٩
العدد الثالث	في ان الرئيس حقيق بان يقضي حاجات مرؤوسيه قبل حاجات نفسه	٣٣١
العدد الرابع	في انهُ على الرئيس ان يفضل ايضاً خير مرؤوسيه الروحي على خيره الروحي نفسه	٣٣٤
العدد الخامس	في ان الرئيس خليق بان يفحص فحصاً مدققاً عن قيامه بالسهر الواجب على خير مرؤوسيه	٣٣٦
العدد السادس	في انهُ ينبغي للرئيس ان يفحص فحصاً مدققاً عن افراط محبته ذاته	٣٣٩
القسم الثامن	في بعض امثلة الوداعة واللطف وفيهِ اربعة اعداد	
العدد الاول	داود النبي والقديس يوسف والقديس بولس	٣٤١
العدد الثاني	في القديس مبارك والقديس برنردوس والقديس فرنسيس الاسيزي	٣٤٣
العدد الثالث	في القديس اغناطيوس	٣٤٥
العدد الرابع	في القديس فرنسيس دي سال	٣٤٧

الكتاب الخامس

في النصح الاخوي وفيهِ خمسة فصول

الفصل الاول	في ان الرئيس ملتزم نصح مرؤوسيه وفيهِ خمسة اعداد	٣٤٩

صفحة

العدد الاول ان واجبَ النصح على الروساء اشد واكثر امتداداً منه على المروُوسين ٣٤٩
العدد الثاني في ان الرئيس مأمور بالنصح امراً جازماً حتى انهُ يكون مسوُولاً عن كل ما يذنب بهِ مروُوسوه من جرّاء اهماله او تغاضيه ٣٥٠
العدد الثالث في ان فريضة النصح او التوبيخ لا تنافي المحبة بل تفترضها وتصدر عنها ٣٥٣
العدد الرابع في ان وجوب فريضة النصح لا يتوقف على حسن النتيجة او عدم حسنها في الحال ٣٥٥
العدد الخامس في ان فريضة النصح دقيقة وخطيرة الى حد ان القيام بها يضحي شديد الصعوبة وقريباً من الخطر ٣٥٦
الفصل الثاني في ان النصح والتوبيخ ينبغي ان يكونا موُسسين على العدل وفيهِ بابان
الباب الاول في انهُ يجدر بالرئيس عند استماعه الشكايات وامعانه النظر في صحتها ألاَّ يكون سريع التصديق ولا منقاداً لانفعالاته النفسية وفيهِ مقالتان ٣٥٨
المقالة الاولى في كيف يمكن الرئيس الاَّ يصدق الوشايات الكاذبة وفيها ثلاثة اعداد
العدد الاول في انهُ يجدر بالرئيس ألاَّ يصدق الوشايات الكاذبة والاَّ يكون العوبة في ايدي الوشاة يميلون بهِ كيف شاءُوا ٣٥٩
العدد الثاني في ان الرئيس جديرٌ بان يعلّم مروُوسيه ما يجب عليهم وما يستطيعونه في تبليغ الاخبار وان يريهم فظاعة ذنب النميمة والثلب ٣٦١
العدد الثالث في انهُ على الرئيس ان يبذل قصارى الجهد في تمييز الصحيح عن الفاسد من الشكايات المقدمة لهُ وفي معرفة خلوص ٣٦٤

صفحة

	الشاكين واستقامتهم	٣٦٤
المقالة الثانية	في كيف يجب على الرئيس ان يحذر امياله الخصوصية وفيها عددان	
العدد الاول	في انهُ يجب على الرئيس ان يدقق في ما اذا كان فيهِ بعض الاميال المنحرفة التي تؤثر بعقله واحكامه من دون ان يشعر بذلك	٣٦٨
العدد الثاني	في انهُ يجب على الرئيس ان يطرح عنه كل تأثير من الاهانات التي تكون قد أُلحقت بهِ قبل تبوئهِ الرئاسة	٣٧٠
الباب الثاني	في انهُ على الرئيس ان يتحرى الحقيقة في ما يُشكى بهِ مرؤُوسه وان يكون عادلاً في اجراء الحكم عليهِ وفيهِ فرعان	٣٧٣
الفرع الاول	في الحقيقة التي يجب على الرئيس ان يتحراها في ما يُشكى بهِ مرؤُوسه وفيهِ عددان	〃
الفرع الثاني	في ان فرض العقاب على المرؤُوس ينبغي ان يكون بعدل واستقامة وفيهِ خمسة اعداد	٣٧٧
العدد الاول	في ان العدل يقتضي من الرئيس ان يستمع للمذنب كل ما يريد ان يورده محاماةً عن نفسه	〃
العدد الثاني	في ان العدل يقتضي ان لا يفرض الرئيس من العقاب الاَّ ما كان على قدر الجرم	٣٧٩
العدد الثالث	في ان العدالة تقتضي ايضاً على الرئيس بان يحافظ على صيت المذنب اشد محافظة	٣٨١
العدد الرابع	في ان العدالة تقتضي من الرئيس ان لا يعاقب الاَّ المذنب وان لا يعاقبه عن الزلة الاَّ مرة واحدة وان لا يشفق على الواحد ويقسو على الآخر	٣٨٣
العدد الخامس	في انهُ يجب على الرئيس ان لا يبلّغ زلة الاخ المذنب الى	٣٨٤

صفحة

	الروساء الكبار ولا الى من يخلفهُ في الرئاسة ما لم يرَ في ذلك فائدة حقيقية	٣٨٤
الفصل الثالث	في ان الفطنة هي ركن التوبيخ الاخوي وفيهِ ثلاثة ابواب	٣٨٧
الباب الاول	في ان الفطنة تعلم الرئيس ان يختار الوقت الموافق للتوبيخ وفيهِ مقالتان	〃
المقالة الاولى	في المعاثير التي يسقط فيها الرئيس غالباً عند قيامهِ بفرض التوبيخ وهي ثلاث	〃
المعثرة الاولى	وهي تاخير الرئيس عن التوبيخ في وقته	٣٨٧
المعثرة الثانية	وهي التسرُّع في التوبيخ	٣٨٩
المعثرة الثالثة	وهي اهتمام الرئيس باصلاح كل هفوة دون استثناء	٣٩١
المقالة الثانية	في القواعد التي تسهل نجاح التوبيخ او تأكده وهي ثلاث	٣٩٣
الباب الثاني	في ان الفطنة تعلم الرئيس ان يؤلف بين طباعه وطباع مرؤوسيه وفيهِ خمسة اعداد	٣٩٩
العدد الاول	في انهُ على الرئيس ان يعتبر سن من يريد اصلاحهم	〃
العدد الثاني	في انهُ على الرئيس ان يراعي مقام من يريد اصلاحهم	٤٠١
العدد الثالث	في انهُ على الرئيس ان يلاحظ في من يريد اصلاحهم درجة فضيلتهم وحسن استعدادهم	٤٠٢
العدد الرابع	في انهُ على الرئيس ان يلاحظ كيفية طباع من يريد اصلاحهم	٤٠٤
العدد الخامس	في انهُ على الرئيس ان يلاحظ من يريد اصلاحهم ضعف عقولهم وامراضهم الوهمية	٤٠٦
الباب الثالث	في ان الفطنة تعلم الرئيس ان لا يعطي الادوية إلاَّ جرعة بعد جرعة وعلى مقدار قوة المريض وفيهِ ثمانية اعداد	٤٠٨
العدد الاول	في انهُ على الرئيس ان يعرف اولاً نوع المرض الادبي وعلته في مرؤوسه ثم يبين لهُ حقيقته ويحمله على الاقرار بهِ	〃
العدد الثاني	في ان اخص واجبات الرئيس في مثل هذه الظروف ان	

صفحة

	يحرض الراهب المذنب على ان يتفرغ للاعمال الروحية وان يساعده فيها بموضوعات تقوية خاشعة	٤١٠
العدد الثالث	في انهُ يترتب على الرئيس ان يجتهد في اكتساب ثقة مرؤوسه وفي ان يحسن مقابلته ولو تكررت مراتٍ عديدة في النهار	٤١٢
العدد الرابع	في انهُ على الرئيس ان يؤجل تنفيذ العقاب من يوم الى آخر وان يحترص بالخصوص انلا يعاقب احداً قبل ان ينبه افكاره الى ذلك	٤١٤
العدد الخامس	الخليق بك ان تؤنب مرؤوسك اولاً بينك وبينهُ سراً وان تصفح بطيبة خاطر عن الذنوب التي يشكو نفسه بها وان تقيمه حكماً على ما يستوجبه من العقاب وفاء عنها	٤١٦
العدد السادس	ولتكن توبيخاتك موجزة وبغاية الاقتصار ...	٤١٨
العدد السابع	في انه لا ينبغي ان تدع مرؤوسك مضطرباً حزيناً بعد اتمامه العقاب المفروض عليهِ بل يجدر بك ان تبدي له المودة والهشاشة لكي ينتعش ويقوم من سقطته نشيطاً	٤٢٠
العدد الثامن	في انهُ اذا بقي المذنب مصراً على غيِّهِ بعد ان اسمعته تهديدات الشريعة الالهية يجب حينئذٍ ان تعامله بموجب رسم القانون	٤٢٢
الفصل الرابع	في ان التأديب ينبغي ان يكون صادراً عن المحبة وفيه بابان	٤٢٦
الباب الاول	في ما تعمله المحبة في التأديب وفيهِ ثلاث مقالات	〃
المقالة الاولى	في ان المحبة في التأديب تنقي النية وفيها عددان	〃
المقالة الثانية	في ان المحبة تفيض في الكلام العذوبة وفيها خمسة اعداد	〃
العدد الاول	قد يحق لك بعض الاحيان ان تغضب ولكن احذر اذ ذاك من ان تكون لهجتك لهجة الغضب والحنق	٤٢٩
العدد الثاني	في انهُ يجدر بالرئيس ان يتجنب التقريعات المرَّة جهده وألاَّ يستعمل التهكم إلاَّ نادراً جداً	٤٣١

صفحة

العدد الثالث في ان الرئيس يرتكب ذنباً فظيعاً لو حمل مرؤوسه على ان يجيبهُ بجواب مر وهو يبقى بذلك علة لمعاقبته ٤٣٣

العدد الرابع في ان الرئيس اذا خاصمه احد مرؤوسيه بالكلام المر او بحركات الحدة والمنازعة يجب ألاَّ يجاوبه بمثل كلامه بل ان يصمت وان تكلم فليكن كلامه رزيناً ومشعراً بالشفقة على غباوة المرؤوس والرأفة بهِ ٤٣٤

العدد الخامس في انهُ اذا رأى الرئيس في نفسه انه قد اخطأ ضد المحبة او ضد العدل يلزمه الرجوع عن خطاه من دون خجل ولا تأخير ولكن بفطنة ورزانة ٤٣٧

المقالة الثالثة في ان المحبة تُلهم الرقة واللطف في ممارسة كل عمل وفيها عددان ٤٤٠

العدد الاول على الرئيس ان يسعى بطرق مختلفة ذات لين ولطف لكي ينتصر على مكابرة مرؤوسه ويخفف اشجانه 〃

العدد الثاني في بعض امثلة على رقة الرؤساء ولطفهم ٤٤٢

الباب الثاني في كيف يمكن ان يفوز الرئيس بهذه المحبة وكيف يحافظ عليها وفيه ثلاث مقالات ٤٤٤

المقالة الاولى في ان الرئيس يتوصل الى الفوز بالمحبة والى حفظها اذا عرف ولم ينسَ انهُ ضعيف مثل سائر الرهبان وفيها عددان 〃

المقالة الثانية في ان الرئيس يمكنهُ ان يحصل على المحبة ويحفظها لو حافظ على سلامة النفس محافظة كاملة وفيها اربعة اعداد ٤٤٩

العدد الاول في ان اضطراب الرئيس يضرُّ بهِ وبمن يقصد اصلاحه ضرراً بليغاً 〃

العدد الثاني في ان كثرة زلات المرؤوسين وجسامتها ليس من شأنها ان تدهش الرئيس ولا ان تقلقه ٤٥٢

العدد الثالث في ان الرئيس الذي يثبت في روح الهدو والسلام لا ٤٥٤

صحيفة

	ييأس ابداً من نجاح مسعاه في التأديب	
العدد الرابع	في ما كتبه العلامة فينيلون الى احدى الرئيسات بشأن المحافظة على الصبر والسلامة في امر التأديب	٤٥٦
المقالة الثالثة	في ان الرئيس يمكنه ان يحصل على المحبة وان يحفظها في قلبه لو درس صناعة التأديب والاصلاح في الله نفسه وفيها اربعة اعداد	٤٥٧
العدد الاول	في ان الله يعامل الخطأة برأفة وحنان اكثر من الامهات	〃〃〃
العدد الثاني	في انهُ عندما يريد الله ان ينتقم من المجرم تقوم رحمته فتحارب عدله	٤٥٩
العدد الثالث	في انهُ لا اعذب ولا اعجب من نوع التأديب الذي استعمله الرب يسوع	٤٦١
العدد الرابع	في ان الله ينتظر توبتنا بطول اناة ويغفر لنا بدون تأجيل وانه اذا ما رآنا رجعنا اليهِ يعدّ نفسه غانماً ظافراً	٤٦٣
العدد الخامس	في الاصلاح الذي ينبغي ادخاله احياناً الى الجمعيات الرهبانية	٤٦٥
الباب الاول	في واجبات الرئيس والمرؤوسين في امر الاصلاح وفيه عددان	٤٦٥
العدد الاول	في انهُ يجب على الرئيس ان يبذل كل جهده وجده في اعادة حفظ القوانين	٤٦٥
العدد الثاني	في انهُ يجب على المرؤوسين ان يصوّبوا اعادة حفظ القوانين والرسوم	٤٦٩
الباب الثاني	في السياسة الواجبة لازالة العادات السيئة وملاشاة الفتن والخصومات	٤٧٣
العدد الاول	في السياسة الواجبة لازالة العادات السيئة	٤٧٣
العدد الثاني	في السياسة الواجبة لرفع الفتن وازالتها من الرهبانية	٤٧٦

صفحة

العدد الثالث	في ما ينبغي عمله لاجل تسكين الخصومات	٤٧٩
الفصل الثالث	في الارشاد الروحي	٤٨١
العدد الاول	لا يسوغ للرئيس ان يدع رهبانه يتقاعدون عن التقدم في طريق الكمال	٤٨١
العدد الثاني	في انهُ من واجبات الرئيس الاولى ان يتطلب من رهبانهِ الكمال الذي يوجبهُ القانون وتساعد على اكتسابهِ الحياة الرهبانية	٤٨٣
العدد الثالث	في انهُ يجب على الرئيس ألاَّ يملّ من ارشاد رهبانه وحضهم على المسير والتقدم في طريق الكمال	٤٨٦
الباب الثاني	في الفطنة التي تقتضيها مهمة الرئيس	٤٨٩
العدد الاول	لا ينبغي للرئيس انْ يقتاد كل الرهبان الى الكمال في طريق واحدة	٤٨٩
العدد الثاني	لا يجدر بالرئيس ان يجعل الرهبان موافقين لهُ بل ان يوافقهم هو نفسه	٤٩٠
العدد الثالث	على الرئيس في مساعدته مفاعيل النعمة ان يستعين بالاميال الطبيعية كما تستعين بها النعمة نفسها	٤٩٢
العدد الرابع	في انهُ يجدر بالرئيس ان يسوس مرؤُوسيه برفقٍ واناة وان لا يحاول تبليغهم الكمال بدفعة واحدة	٤٩٣
العدد الخامس	في انهُ يسوغ للرئيس بل يجب عليه احياناً ان يتساهل مع مرؤُوسيه في هفواتٍ كثيرة يكون مصدرها الضعف البشري	٤٩٦
الباب الثالث	في كشف الافكار	٤٩٩
العدد الاول	في غاية كشف الافكار	٤٩٩
العدد الثاني	في مادة كشف الافكار مأخوذة عن قوانين بعض الرهبانيات المثبتة من بيعة الله اثباتاً رسمياً	٥٠٢
العدد الثالث	فيما اقتصر عليهِ المجمع المقدس من مادة كشف الافكار	٥٠٤

صفحة

لدى اثباته قوانين بعض الرهبانيات الحديثة المختصة بالنساء

العدد الرابع	في كيف ينبغي للرئيس ان يعامل مرؤوسيه لكي يكون لهم عليه دالة فيثقوا به ويفتحوا له قلوبهم	٥٠٦
العدد الخامس	في بعض قواعد لحفظ السر المعروف في كشف الافكار	٥٠٧
الفصل الرابع	في بعض مسائل غير ما تقدم تختص بحسن الادارة الروحية	٥٠٨
الفصل الاول	في الشهوة المتغلبة	٥٠٨
العدد الاول	في بعض قواعد ترشد الراهب الى معرفة الشهوة الكامنة فيه والمتغلبة عليه	٥٠٨
العدد الثاني	في بعض حجج بها يمكننا ان نحض الراهب على ان يحارب الشهوة المتغلبة عليهِ	٥١١
الفصل الثاني	في كيف نحارب الرذيلة ونكتسب الفضيلة	٥١٦
الباب الثالث	في التجارب	٥٢٠
العدد الاول	في بعض مبادئ عمومية ينبغي للرئيس ان يعلمها لمرؤوسيه	٥٢٠
العدد الثاني	في بعض مبادئ ضرورية لمعالجة بعض تجارب قويّة وغير اعتيادية يجب ان يعرفها كل رئيس	٥٢٢
الباب الرابع	في درجة الصلاة الثالثة	٥٢٥
العدد الاول	في ما تتوقف عليه الدرجة الثالثة من الصلاة وفي من هم الرهبان المدعوون اليها	٥٢٥
العدد الثاني	في فوائد هذه الصلاة وفي كيف يتدرب بها الراهب الذي يكون رقاه الله اليها	٥٢٧
الباب الخامس	في ممارسة العمل الافضل	٥٢٩
العدد الاول	في بعض سؤالات تتعلق بممارسة العمل الافضل	٥٢٩
العدد الثاني	في بعض اسئلة تتعلق بنذر العمل الافضل	٥٣١
العدد الثالث	في كم يفيد الراهب ويجدر بهِ ان يعود نفسه ممارسة العمل الافضل	٥٣٣

صفحة

الكتاب السابع	في الصبر على المحن والمضادات	٥٣٥
الفصل الاول	في انهُ لا بدَّ للرئيس من ان يصادف شيئاً من المضادات « العدد ١ »	٥٣٥
العدد الثاني	في ان اختلاف الطباع وسوء الظن لا يدعان احدًا يرضي الجميع	٥٣٦
العدد الثالث	في انهُ كل رئيس اراد اصلاح الشوائب في مرؤوسيه عرض نفسه للقدح والطعن	٥٣٨
العدد الرابع	في ان الرئيس معرَّض لنكران الجميل من مرؤوسيه مدَّة الرئاسة وبعدها	٥٤٠
الفصل الثاني	في الفوائد التي يجتنيها الرئيس من المقاومات	٥٤٢
العدد الاول	في ان المقاومات تكون للرئيس ذريعةً بها يجتني نقاوة النية والتيقظ في كل اعماله	٥٤٢
العدد الثاني	في ان المقاومات تفتح للرئيس سبيلًا لاقتناء التواضع وبغض الوظائف	٥٤٣

اصلاح غلط

صفحة	سطر	غلط	صواب
٠١	١٠	شرف	اشرف
١٢	٠٥	يفوته	يفونهُ
١٨	٠١	محبة	محبته
٣٤	٠٦	في	الى
٤٦	٠٤	الغايباب	الغائبات
٥٢	٠٩	تخلي بينك وبين	تتخلى عن
٥٤	١٦	ممن	ممّا
٥٨	٠٣	الله	ان
٥٩	٠١	فيمته	قيمة
〃	٢٢	خاصته	خاصة
٦٠	٢٣	ينحظ	ينحط
٦٥	٢٢	كن	كان
٦٨	١١	لينر	لنير
〃	٢٢	درجة	درجته
٦٩	١٦	كا	كان
٨٣	٠٣	صنماً	صتماً اه
〃	٠٦	ولا يمشى اه	ولا يمشى
٨٤	٢٢	بها	بهِ
٧٧	٠٩	وهذ	وهذه
٩٢	١٨	الاعبارات	الاعتبارات
١٠١	٠٢	بضلائل	بصلائيل

صفحة	سطر	غلط	صواب
١٠٢	٠٧	يبث	ويبث
١٠٣	٢١	ترزلنى بين :	ترذلني من بين
١٠٦	١٢	والحودث	والحوادث
١٠٧	١٨	آخو	أُخو
١٠٩	١٩	افكازه	افكار
١١٠	٢٠	احد له	احد
〃	٢٣	جاد وكاد	جدّ وكدّ
١١٢	٢٤	ظاهرة	ظاهره
١١٧	٣٤	قال الراعي	(الراعي ...) قال ان
١٢٢	١٤	داء في العقل	ان داء العقل
١٢٥	٢٣	وهذا ناهيك	هذا وناهيك
١٢٦	٠٣	عند ذي	عند كل ذي
〃	١٣	من تسقط	من ان تسقط
〃	٢٢	بداء لهُ	بداء بهِ
١٢٧	١١	يعد	يُعدّ
١٢٨	٠٥	خولاً	حولاً
〃	١٨	النواقل	النوافل
١٣٤	١٠	لمرفة	لمعرفة
١٥٢	٠٥	الاخير	الاجير
〃	٠٧	ومن نفسه	ونفسهُ
〃	٠٩	يُهدك	ليهديك
١٥٥	٠٣	وقد ارسطوس	وقد قال «
١٦٦	٢٦	ان يسلم	ان لا يسلم
١٦٨	١٠	لا تتكلفها	لم تتكلفها
١٧٣	٢٦	آمياً	أُمياً

صفحة	سطر	غلط	صواب
١٧٥	١٧	بقلق	يتعلق
١٨٤	١٠	قصد	فصد
٢٠٩	٢٥	لك فقط	لك
٢١٣	٢٦	حم	هم
٢١٨	٢٦	تاتينا	فاتينا
٢١٩	٢٠	بتو لاوى	بنو لاوي
٢٢٠	٠١	العيب	العجيب
٢٢٢	١٠	يشين	بشيئين
٢٢٥	٠٩	فرافض	فرائض
٢٣٦	١٦	عته هذه	عن هذا
٢٣٩	٠١	ومفتي	ومغنياً
٢٤١	٠٧	افرحنا	اخرجنا
٢٤٣	٠٥	يخظئن	يخطئَن
٢٤٤	٠٨	يحرصهم	يحرضهم
«	٠٩	وان يكف	وان لا يكف
٢٥١	١٨	الى خمسه	الى فمه
٢٥٢	١٥	تضطر	لا تضطر
٢٥٤	٠٢	دقيقة	رفيقة
٢٥٥	١٧	فلذلك	فان ذلك
٢٧١	١٩	لفقه	يفقه
٢٧٢	٢٣	للاهون	للاهوت
٢٧٥	٢٠	فالاثبات	فلاثبات
«	٢٦	عهودها	لعهودها
٢٨١	١٢	يتحمل عسراً	يتحمل مها
٢٨٣	٠٧	الشفقة بذلك	الفائدة من ذلك

صفحة	سطر	غلط	صواب
٢٨٥	٠٦	لهذا المقدار	بهذا المقدار
٢٨٩	٠٣	نجيلين	انجيليين
٢٩٣	١٣	موته	قومِه
٢٩٧	٠٤	يبتاع	نبتاع
٣٠٦	١٥	حبه	حبهم
٣١٥	١٦	ونجاحم	ونجاحهم
٣١٩	٢٢	بدم	بعدم
«	٢٥	حريته	حبريته
٣٢٠	٠٤	الغاية	العناية
«	١٦	بهذا	بهذه
٣٢١	٢٢	من	متى
٣٢٩	٠٢	فاننار	فاننا
٣٣٤	١٤	فاينَ	فأين
٣٥٦	٢٤	طلب	طُبِّ
٣٦٠	٠٨	بفئةٍ	لفئةٍ
«	٢٠	نذور	ندور
٣٦٦	٢٥	يرفق	برفقٍ
٣٦٧	٢٣	التنيه	التنبيه
٣٧٥	٢٥	الحكم	الحاكم
٣٧٨	١٠	اريلطوط	اريسطوط
٣٨٠	١٠	الحقيقة	الخفيفة
٣٨٢	٠٤	يالله	بالله
«	٢٤	فيكنك	فيمكنك
٣٨٦	٠٤	يزكي	يُزكِّي
«	١٠	توقف	نوقف
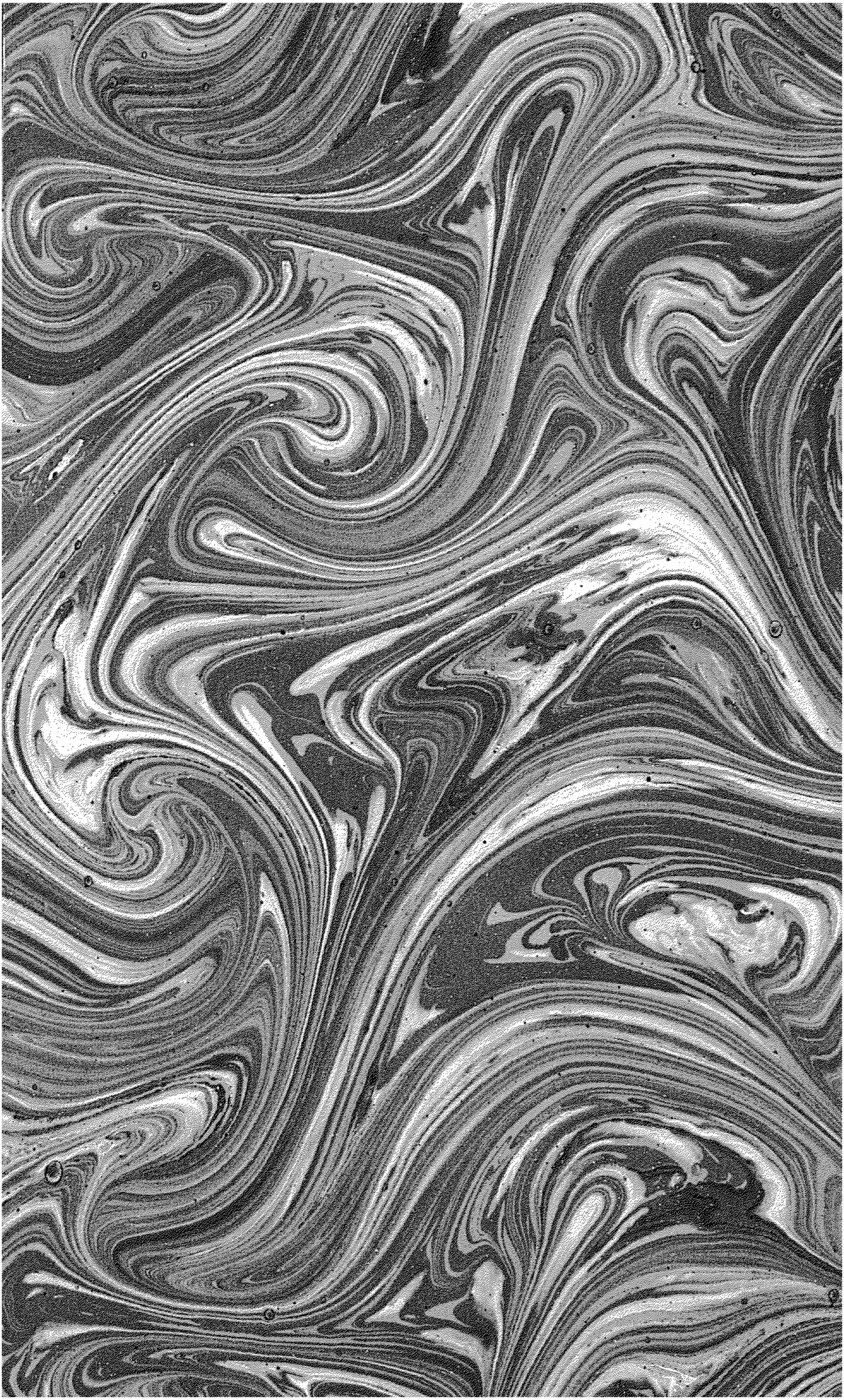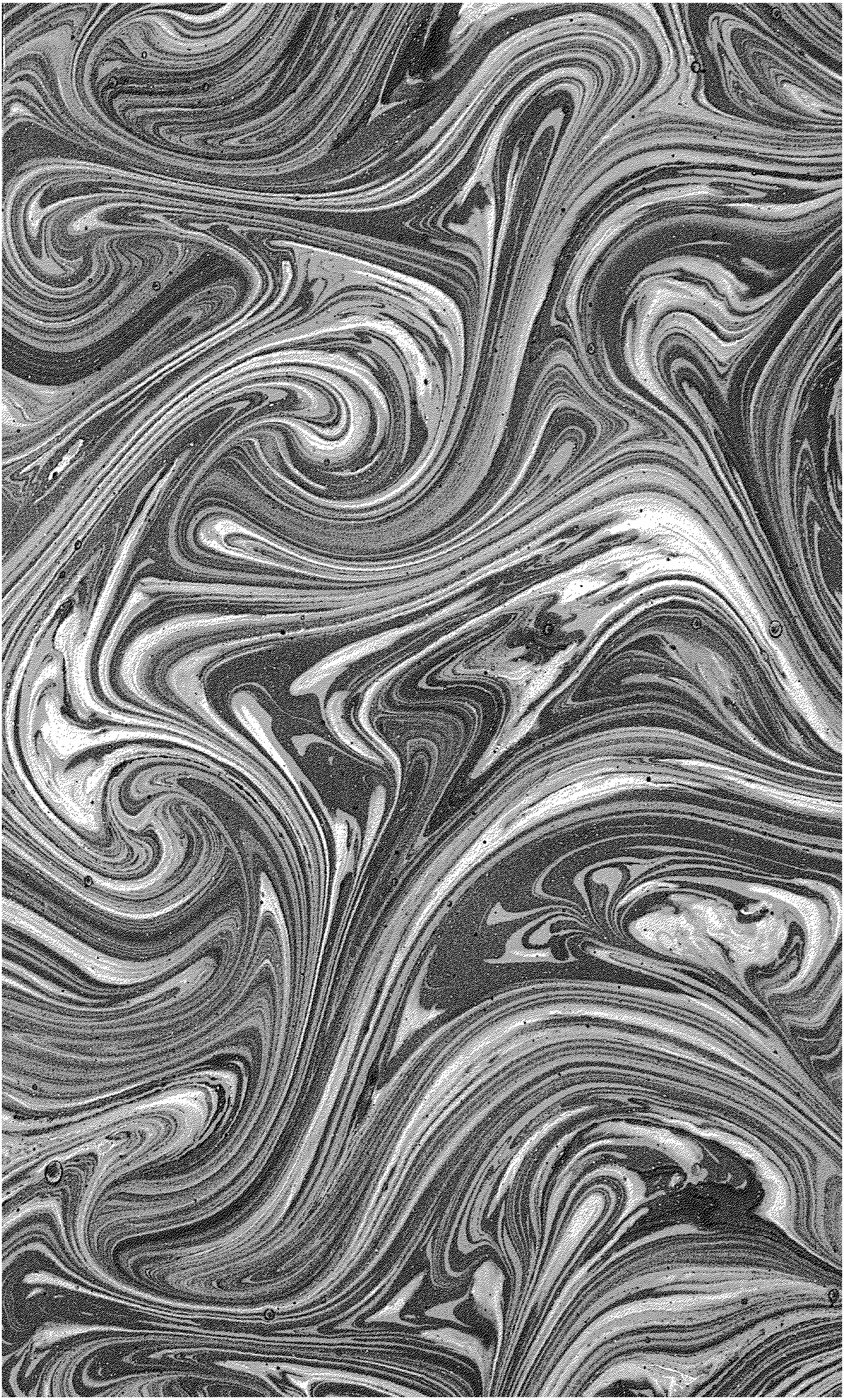
صفحة	سطر	غلط	صواب
〃	١٢	وتترجى	ونترجى
٣٩٠	٢٤	بالملاطفات	بالملطفات
٣٩٢	١٢	اغضي	اغضي عنها
٣٩٥	٠٨	فيجدرنا	فيجدر بنا
〃	١٢	تعطيه	نعطيه
〃	〃	موقتاً	موقتاً
٣٩٦	١٩	باجهم	باجمعهم
٣٩٧	٠١	متكباً	متكياً
٤٠٥	١٠	لا يعرفون	يعرفون
٤١٨	١٢	افضت	افضت به
٤٢٤	١٢	هذا	هذه
٤٥٣	١٨	والحلة	والحالة
٤٧٦	١٠	الراجية	الواجبة
٤٩٢	١٥	نقصد ان نسدد ونعضد:	تقصد ان تسدد وتعضد
٥٠٣	١٩	ببطل	يبطل
٥١٤	١٢	ما تريده	ما نريده
٥١٧	٠٩	يلاقي	يُلاقى
٥٢٤	١٠	موافقته لنصائحه:	موافقة لنصائحه
٥٢٧	٠١	وشعروا	شعروا
٥٤٤	١٦	وداد	وداود
٥٦٢	٠٦	ليصيّر	ليصيّروا